سلسلة كتب ورسائل
الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق
المجموعة الخامسة

السياسة الشرعية

(٢)

بقلم

الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق

بيت المقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

المجموعة الخامسة

السياسة الشرعية

(٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - ص.ب: ٤٣٧١ - الرمز البريدي: ٣٢٠٧٤

هاتف الإدارة: ٢٦١٠٢٧٠ - هاتف وناسوخ: ٢٦٣٧١٢٠

المعرض: ٢٦٣٦٤٨٣ - المندوب: ٦٦٠٠٦٢٧

البريد الكتروني: muqdes@hotmail.com

السياسة الشرعية (٢)

كتاب

أضواء على أوضاعنا السياسية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد...

فإن أعداء الإسلام من الصليبيين، واليهود والملاحدة في هجمتهم الثانية على بلاد الإسلام لم يكتفوا بهزيمة المسلمين العسكرية، بل عمدوا إلى خلافة الإسلام فأزالوها، وكانت رمزاً تجمع شتات المسلمين، ثم عمدوا إلى أوطان المسلمين فمزقوها أوطاناً وأقاليم، وأقاموا في كل موطن وإقليم سلطاناً موالياً لنفوذهم ينفذ سياستهم بالترغيب والترهيب والحماية، ثم عمدوا إلى مناهج التعليم والتربية فصبغوها بصبغتهم في الإلحاد والكفر وأنشأوا بذلك أجيالاً من أبناء المسلمين يعادون دينهم، ويتنكرون لتاريخهم وأمتهم، ثم عمدوا إلى الدين والحق فحاصروه في نفوس أتباعه، وضيقوا الخناق عليه في كل مكان، واضطروا أهله إلى النجاة بأنفسهم أو تحمل صنوف العذاب والبلاء، ثم شنوا بعد ذلك هجمة شرسة بأقلام وألسنة تقطر السم فشككوا في كل عقيدة من عقائد الدين، وأقاموا الشبه على كل فرعية من فرعياته، حتى أصبح الطريق إلى الله معوجاً للسالكين، فلا يكاد يهتدي إلى الإسلام أحد من أبنائه، حتى يقابل بسيل جارف من التشكيك والشبهات، ثم واصل الأعداء حملتهم على الجذور الإسلامية يريدون استئصالها والقضاء عليها حتى يسلم لهم فصل المسلمين عن أنفسهم وتاريخهم وبذلك يصبحون قطيعاً وراء كل ناعق.. وقد كان.

* ولن يستقيم للمسلمين أمرهم وترد إليهم مكانتهم وعزتهم إلا بإصلاح جذري كامل يستهدف تغيير العقلية الإسلامية، حيث ترتكز على الإيمان بالإسلام قولاً وعملاً، ويستنير بهدي القرآن والسنة في كل شأن من شؤون الحياة، وتكون أجيال هذه الأمة حلقات في سلسلة واحدة منذ محمد ﷺ إلى أن يقاتل آخرهم الدجال.. ولابد أن يشمل هذا الإصلاح توافر الحياة كلها، وهذه المقالات محاولة للإصلاح السياسي الذي هو بمثابة الرأس في الأمة والذي يجب أن يتجه الإصلاح إليه قبل كل شيء فصلاح الراعي لصلاح الرعية، ونحن نرى أن إصلاح السياسة يكون بتقديم النصح للولاة، ووزن أعمالهم بميزان الكتاب والسنة وهما الحكم على كل شيء لأنهما معصومان، ولأن هذه الشعوب شعوب إسلامية تنتمي إلى الإسلام، ويجب أن تساس وفق مبادئه وعقائده، ومن حق هذه الشعوب أن تعلم الحق في أخطر قضاياها وهي القضايا السياسية حتى لا تقاد كما تقاد السائمة ليس لها من أمرها شيء، بل من حقها أن تستشار وتسأل عن إبرام أي شيء.

وقد كان لهذه المقالات التي نشرت تباعاً في مقالات أسبوعية بعنوان «منبر الجمعة» في جريدة الوطن الكويتية أثر بالغ بحمد الله وتوفيقه في كشف كثير من قضايا السياسات الملتوية لإعداد هذه الأمة، وفي تبصير كثير من أبناء الإسلام بالسياسة الواجب اتباعها في هذه المرحلة الراهنة من حياة الأمة، ويأتي نشرها في كتاب تحقيقاً لفائدة أعظم والله نسأل أن يكون عملنا هذا خالصاً، وأن يوفقنا في جميع أعمالنا إلى ما يحبه ويرضاه.

١٢ ربيع أول سنة ١٣٩٨هـ

الموافق ٢٠ فبراير سنة ١٩٧٨م

عبد الرحمن عبد الخالق

الدين والحياة

مازال كثير من الناس يطلق كلمة «الدين» على أمور التعبد والتقرب كالصلاة والصيام والزكاة والحج ولا يعلم أن التعبد هذا جزء من الدين، وليس الدين كله، فالدين عند الله هو الإسلام، والإسلام هو الانقياد والإذعان لله سبحانه وتعالى في كل أوامره ونواهيه، وقد شملت أوامر الله ونواهيه لنا الحياة بأسرها، فليس من شأن من شؤون حياتنا إلا ولله سبحانه وتعالى له فيه حكم، فحياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد وضع الله لنا أصول التعامل فيها، وفصل بعض جوانبها تفصيلاً كاملاً، وإن كانت بعض جوانبها قد أجملها، وترك لنا التفريع والابتكار والتجديد، وهذه النواحي أعني الاجتماع والاقتصاد والسياسة هي أهم أمور البشر على ظهر هذه الدنيا وما كان الله ليتركها عبثاً أو سدى أو للتخبط والتجريب، وقد جهل الناس أحكام هذه الجوانب من جراء إزاحة الإسلام عنها واستبدلوا بأحكام الإسلام فيها أحكاماً أخرى من صنع البشر لاقى الناس منها الظلم والويلات.

ونحن بجهدنا المتواضع ومن هذا المنبر سنحاول جاهدين بحول الله وقوته جلاء أحكام الإسلام، في هذه الجوانب المهمة من جوانب حياة الناس، وليكون هذا إسهاماً في إعادة الإسلام إلى هذه المواقع التي أزيح منها بفعل الاستعمار والجهل وسنرى أننا بالإسلام نحيا الحياة الحقيقية التي ملؤها الحرية والسعادة والعزة، وبدونه نحيا حياة أشبه بحياة الأنعام والدواب، وصدق الله القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٢]. . فالكافر والغافل ميت والمؤمن حي لأنه عرف ربه وعرف سبل السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

فلنسم الأشياء بأسمائها

الأسماء هي العناوين التي نطلقها على المسميات ومن خلالها نتعرف على ما أطلقت عليه، فإذا سمعنا ـ مثلاً ـ لفظ الشجاعة فإننا نتصور في عقولنا صفة حميدة تعني الإقدام والجرأة، ورباطة الجأش، وعزيمة القلب، وإذا سمعنا لفظ الخيانة تصورنا معنى واضحاً محدداً، فإذا قلنا إن فلاناً شجاع وقع في نفوسنا إنصاف هذا المذكور بهذه الصفة، وهكذا في كل ما يوصف به الأفراد والأشياء، والمقصود إننا نتعرف على الأشياء من خلال الأسماء التي نطلقها نحن عليها، فما بالكم إذا أطلقنا أسماء مغايرة تماماً للمسميات التي نقصدها، فنطلق مثلاً على النار لفظ الماء وعلى البارد لفظ الحار، وعلى الخيانة لفظ الظرافة (وخفة الدم)، وعلى الشجاعة لفظ التهور والجنون، لا شك أننا سنعيش في فوضى لا حد لها، بل سنعيش في عالم مختلط مضطرب.

* وهذا الذي افترضه ليس فرضاً بعيداً، وإنما هو واقع نمارسه الآن ونعيشه، إننا نعيش الآن عصراً يصح أن نسميه عصر فوضى الأسماء، فلست واجداً شيئاً قد تسمى باسمه ـ الذي يجب أن يتسمى به ـ إلا القليل النادر وهاكم البيان:

إذا طالعنا قاموسنا السياسي بكل ألفاظه المتداولة بن أيدينا وجدنا أنها موضوعة في غير مواضعها ومنطوقة على غير معانيها وفي غير أماكنها، فالهزيمة المنكرة نكسة وإلهاء الشعوب ترفيه، والاستبداد حزم، وإفساد الناشئة تربية، ومحاربة الفساد تعني في هذا القاموس قمع الذين يأمرون بالقسط والعدل من الناس والكذب والخيانة سياسة وذكاء.

ألسنا يا قوم نسمي الإذعان للعدو والاستسلام له والرضى بالذل حلاً!! وسلمياً أيضاً، وقد نتصافح فنسميه صلحاً، والحال هذا لا يجوز أن يسمى حلاً ولا سلماً، ولا صلحاً ولا شيئاً من هذا أصلاً، والمثال واضح وسهل، فأنت لو جاءك عدو فلطمك على وجهك وأخرجك من منزلك الذي تملكه، ثم أراد منك أن توقع أمام الناس وثيقة تثبت تنازلك عن دارك، وفعلت هذا الذي أراده ثم قابلت الناس فسألوك عما صنعت مع عدوك فقلت لهم: تصالحت معه، وحللت قضيتي معه سلمياً. .

لضحك الناس منك (وهنأوك على شجاعتك) آسف لوبخوك على جبنك هذا إذا لم تكن لك مقدرة على إخراجه، وأما إذا كنت قادراً على إخراجه وقلت ذلك لبصقوا في وجهك ولعجبوا من وقاحتك.

وحالنا مع أعدائنا من اليهود ليس بعيداً عن ذلك، فهم مغتصبون والذين أخرجوا من ديارهم وملكها اليهود بعدهم لم يموتوا بعد، ونحن إما أن نكون غير قادرين على إخراجهم فمن (العبث) أن نقرهم على الباطل وآسف لاستعمالي كلمة العبث وهي والله كلمة في غير موضعها!! وإما أن نكون قادرين على إخراجهم.. فهل نسمي ما نفعله الآن معهم سلماً وصلحاً وحلاً.. حرام عليكم لا تظلموا الكلمات.

وإن تركنا القاموس السياسي وجئنا إلى قاموسنا الاجتماعي وجدنا العجب: هذه التفاهة التي تطالعنا كل يوم على صفحات الجرائد من أن فلانة أعدت العدة لاستقبال زوجها، وتلك احتفلت ودعت الصديقات لأنها عزمت على مذاكرة دروسها، والثالثة عزمت على تغيير فراش بيتها وذلك الطرطور دعا الأصدقاء ليهنئوا زوجته بعيد ميلادها، كل هذا ومثله كثير يقزز النفس كان ينبغي أن يوضع تحت عنوان: أخبار التافهين والتافهات، وهكذا وجدنا في مصطلحنا الاجتماعي الدياثة (وتعني رضا الرجل بالفاحشة على أهله) رقياً وواقعيه، والخيانة في الأهل والمال صداقة وزمالة، ووجدنا ويا لداهية!! كل هذا الخنا والفجور والتفاهة في التأليف والتمثيل والإخراج فناً، وكل أولئك التافهين والتافهات أبطالاً.. أرثي لهذه الكلمة (البطل) كيف رضيت بأن توضع في غير موضعها.

وإذا جئنا إلى قاموسنا الديني فالعجب لا ينقطع فالتمسك بالإسلام أضحى تعصباً، والكفر بكل ما جاء به الرسول أضحى تطوراً، ورد أحكام الله والتعقيب عليه أمسى تفكراً وتعقلاً، ولفظ المسلم يدل على كل هذا السقط من الناس الذي لا يعرف ولا يعمل ولا يؤمن بإسلام أصلاً، وأما الكفر فهو عتقاء مغرب (شيء لا وجود له) في كل بلاد الضاد والحال أنه يطالعك مجسماً أينما توجهت، وهل الكفر إلا رد الحق بعد بيانه؟

وهؤلاء الذين يتأكلون بالدين، ويقولون على الله ورسوله ما لم يقله الله ورسوله،

ويفتون كل إنسان بما يشتهي، ويلوكون كلمات يرددونها كالببغاوات بلا فقه ولا عمل نسميهم ـ زوراً ـ علماء الإسلام.

قال أحد الصحابة في عهد بني أمية: لو خرج رسول الله ﷺ لم يعرف مما كان يعهد شيئاً إلا أنكم تصلون جميعاً، فكيف لو خرج رسول الله الآن، هل تجد شيئاً من دينه بقي كما هو، بل هل تجد حقيقة شرعية واحدة يفهمها الناس كما أراد هو لا كما فسروها وأولوها وأطلقوها في غير موضعها؟

نحن مهددون باندثار حضارتنا لأننا زيفنا أعظم عملة نتعامل بها وهي الكلام، وإني لأعجب والله كيف نثور ونغضب ونسجن من زيف دينارا وغاية ما فعل أنه سرق من جيب الأمة ديناراً، ولا نثور ونغضب ممن يزيف الكلام وقد يكون في تزييف كلمة واحدة هلاك أمة بأسرها، وقد شرحنا هذا آنفاً، فأعد قراءة المقال، كلنا يشكو من الفوضى وما ذلك إلا أننا ألبسنا اللص لباس الشرف، وأعطينا المغتصب حق الملك، وخلعنا على الديوث لباس العصر وجعلنا كل التافهين أبطالاً، وكل المتشبهين رجالاً وكل الذين خانوا أمانة العلم علماء، وكل الذين باعوا أمتهم وأوطانهم قادة وزعماء فماذا بقي لنا؟! بقي أن نعيد ترتيب اللغة من جديد، وأن نتعلم من الصفر كيف نسمي الأشياء بأسمائها.

١٤ ديسمبر ١٩٧٦م.

لماذا يظلم الإنسان أخاه؟

كان عجباً أن يقص الله علينا في كتابه أن أول أخوين عاشا على ظهر هذه الأرض قتل أحدهما الآخر عندما تعارضت مصالحهما، إذ يتصور من لا يعرف النفس البشرية ـ حق المعرفة ـ أن الأخ يفي أخاه بما ملكت يداه، وأنه لا يتصور أن يؤثر أخ شقيق منفعة مادية مهما عظمت على أخوة أخيه وبقائه بجواره وبخاصة إذا لم يكن في الأرض غيرهما، ولكن هذا حدث ولذلك رتب الله على هذا شريعة القصاص ليكون هذا مانعاً من الظلم، فالحدود جعلها الله إذن زواجر عن الظلم والإثم والعدوان، وعلى كل المسلم مدعو أولاً إلى أن يعرف حق أخيه الإنسان، وذلك للاشتراك في

الأصل الواحد والرب الواحد، وأعني بالرب هنا الخالق سبحانه وتعالى، وهذا لا يمنع أن للمسلم حقوقاً أخرى غير الحقوق الإنسانية وذلك للاشتراك في الغاية والهدف الواحد. . وهذه الحقوق الإضافية للمسلم على المسلم لا تتنافى مع الحقوق الإنسانية، ولذلك أمر المسلمون بالعدل مع أعدائهم كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨]، والعدل المأمور به هنا هو العدل مع الأعداء الذين يبغضهم المسلمون وقد يحملهم بغضهم لهم على ظلمهم فنهاهم الله عن ذلك.

واليوم يتناسى المسلمون هذه الآداب، بل يهملونها وتتحول مجتمعاتنا دون وعي منا إلى مجتمعات تختفي منها الرحمة تدريجياً، ويحل مكانها الظلم والعدوان، أو على الأقل الغفلة والنسيان: الغفلة عما يعانيه الآخرون بسبب غرورنا وجشعنا، وحبنا لأنفسنا، وأثرتنا.

يعاني الناس اليوم ألواناً من الظلم الخفي الذي قد لا يحس به الكثيرون لما أحاطوا به أنفسهم من البهرج والزخرف والأموال والمشاغل:

ظلم التاجر الجشع الذي لا هم له إلا الربح والربح الفاحش عن طريق الاحتكار والتلاعب بالأسواق.

وظلم المالك باستغلال حاجة المحتاج. .

وظلم صاحب العمل بامتصاص جهد العامل واستنفاد طاقته، وبخس حقه.

وظلم رب المال بالتسلط والقهر وامتصاص أموال الناس وجهدهم عن طريق الربا والمضاربة.

وإذا كان الرسول ﷺ يقول: [الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء]، فإنه أيضاً قد أمر بالضرب على يد الظالم، ومنعه من الظلم، والحكومة مدعوة للحل الثاني عندما تعجز الكلمات الطيبة والمواعظ الحسنة أن تفعل فعلها في القلوب الصماء.

٥ نوفمبر ١٩٧٦م

أيها الزعماء
... متى ستبدأون الرحلة الجديدة

وإلى أين؟!

مضت أربع سنوات الآن على حرب رمضان ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م ورحلة السلم التي قادها الزعماء في هذه السنوات الأربع انتهت إلى فراغ ـ وهذا في حد ذاته رحمة من الله العلي العظيم، ولقد تغير الوضع في إسرائيل تماماً، وأصبحت الآن من حيث الاستعداد العسكري غير ما كانت، فإذا كان زعماؤنا السياسيون الذين وضعوا آمالهم على السلم وحده، لم يستعدوا للحرب، فإن هذا يعني الكارثة، واليوم علينا أن نبدأ رحلة جديدة فكيف؟ وإلى أين؟. .

أظن أولاً أنه لم يصبح هناك مجال لتنازلات جديدة لأن إسرائيل لم تتنازل عن شيء، ففلسطين (الجغرافية) احتلت تماماً وأعلنت إسرائيل أنها أرض يهوذا والناصرة، ومعنى ذلك أن شعار (حق شعوب المنطقة في العيش بسلام داخل حدود معترف بها) لا يشمل الفلسطينيين لأنهم في نظر اليهود ليسوا شعباً من شعوب المنطقة!! وكارتر الذي ادعى أنه سيفاوض الفلسطينيين إذا اعترفوا بحق إسرائيل بالبقاء أنبته إسرائيل تأنيباً عظيماً، وأخبروه بأن منظمة التحرير لا تعدو أن تكون كالمنظمات النازية التي يجب أن يكون مأواها هو السجون والمعتقلات، وسحب كارتر كل وعوده السابقة أو ابتلعها وقد تنبأنا بذلك.

واليوم أهداف إسرائيل واضحة وهي معاهدات جزئية مع كل من مصر وسوريا، يرد لكل منهما جزء من أراضيهما المحتلة في مقابل السلام الدائم ونسيان شيء اسمه قضية فلسطين، وشيء آخر اسمه الفلسطينيين والتكرم بإسكانهم في الدول العربية كمواطنين لا كلاجئين، وتصفية الضفة الغربية أولاً بأول من أهلها. . ولهذا نقول انتهت رحلة السلام إلى فراغ، ويجب أن نفكر في رحلة جديدة؟!

* بالطبع لا يمكن أن نقول بأن قواد الرحلة كانوا يريدون أن يصلوا إلى هذه النهاية، وربما كانوا يعلمونها، وإذا كانوا يعلمونها فلماذا ساروا فيها طيلة هذه المدة. . أربع سنوات. . العلم عند الله.

* نحن الآن أمام رحلتين لا ثالث لهما:

* الرحلة الأولى رحلة إنهاك وإشغال والهاء بمعارك بين الدول العربية الإسلامية تستنفذ فيها الطاقة، ويشغل الناس فيها لا عن إسرائيل فقط، بل حتى عن أنفسهم والنفوس العربية المليئة بالشقوق والأحزان هي أرض صالحة تماماً لهذا وقد تستمر هذه الرحلة سنوات أربع أو خمس حتى تكون إسرائيل قد أقامت هيكلها وأنهت بأسلوب أو آخر وجود العرب في أراضيها وتكون المقاومة في الخارج قد طوقت تماماً، وفقدت مضمونها ومبرر وجودها، وهذا بالطبع إذا لم يتق الزعماء ربهم ويفكروا في حاضر هذه الأمة البائس.

* والرحلة الثانية أن نبدأ بتجميع صفوفنا، ولم شعثنا ونستعد لتحرير أرضنا استعداداً حقيقياً، وندخل مع اليهود القتلة معركة حياة أو موت نملأ فيها الأرض والبحر والجو على إسرائيل موتاً ودماراً، وهذا الكلام ليس قطعة من خطبة حماسية وإنما هو الحق إذا أردنا الحياة والنجاة، ومازلنا ولن نزال نقول إسرائيل باطل صنعه العرب بأنفسهم.

لقد انتظرنا طويلاً حقاً حتى جرب الزعماء زراعة السلام في أرض إسرائيل التي لا تنبت إلا الحرب والدمار والفساد، وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتسترد إسرائيل أنفاسها وترمم جيشها وتبني قوتها بعد أن أشرفت على النهاية ولم يبق إلا التسليم باعترافهم بعد حرب رمضان، ولقد صدقنا في ذلك المخادع كيسنجر، وألقينا ثقلنا مع أمريكا المحكومة بالمعادلات الصهيونية المعقدة وعلينا الآن أن نتخذ قرارنا الجديد من أرضنا ومن داخل نفوسنا، ومن آمال شعوبنا، ومما يمليه علينا ولاؤنا لأمتنا، وقبل ذلك من امتثالنا بديننا الإسلام الذي يفرض علينا أن لا نقبل الذل وأن لا نرضى بالهوان.

* والأمة كلها أمانة في يد من يملكون اتخاذ القرار السياسي، وما الشعوب إلا كركاب في قاطرة أو حافلة يقودها الزعماء، فإما أوصلوهم إلى أهدافهم وغاياتهم، وإما خانوهم وانحرفوا بهم إلى مهاوي الدمار فمتى يا قواد القاطرة ستبدأون الرحلة الجديدة وإلى أين؟!

٢٦ أغسطس ١٩٧٧م

أمانة الكلمة

من أعظم الأمانات التي سنسأل عنها بين يدي الله سبحانه وتعالى: «أمانة الكلمة» كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق، الآية: ١٨] فالإحصاء الكامل لكل ما نطق به الإنسان ومحاسبته عليه إحدى عقائد الإيمان ومسائله التي يجب على المسلم استحضارها وتعظيم شأنها.

والكلمة المكتوبة شأنها تماماً شأن الكلمة المنطوقة، فالكتابة وسيلة لإيصال المعنى المراد إلى الغير شأن النطق تماماً، وقد تكون الكلمة المكتوبة أعظم أثراً وأوسع انتشاراً وأطول عمراً من الكلمة المنطوقة، ولذلك كانت جريرتها ـ في الإثم ـ أعظم، وثوابها ـ في الخير ـ أكبر وأكثر، كما قال ﷺ: [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له]، وهل العلم المنتفع به إلا كلمة حفظت بعد موت صاحبها في الصدور أو السطور وتناقلتها الألسنة أو الأقلام.

وكلمة الحق والعدل من أعظم الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى منطوقة أو مكتوبة، كما قال ﷺ: [أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر]، وطالما كان لهذه الكلمة الطيبة أثر في الأرض وثمار في النفوس كان لصاحبها أجر بذلك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥]، وكذلك الشأن في كلمة الباطل والزور كلما عملت إفسادها في الأرض والنفوس كلما ازداد قائلها أو كاتبها إثماً كما قال ﷺ: [ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً] (رواه مسلم) وبعد..

هل الكفر إلا كلمة تسير بصاحبها إلى النار، وهل الإيمان إلا كلمة تفتح الطريق إلى الجنة!

وإذا كان في الناس من يظن أن الكلمة الآثمة التي تلقى على عواهنها لا تضر صاحبها فهو يخطىء، وكذلك لا تنقص أجر الكلمة الطيبة أن صاحبها لم يكن يظن أنها ستبلغ في الخير ما بلغت فقد يرفعه الله بها في الجنة مائة درجة، وهو يوم قالها أو

كتبها لم يكن يتصور ذلك كما جاء بذلك الحديث.

وقد يظن بعد هذا الإيضاح بعض الناس أن الكلمة الطيبة التي ترفع صاحبها في الجنة هذا المقدار أمرها هين ويستطيع كل إنسان ملك لساناً أو قلماً أن يفعلها ولكن لنعلم أن من شروط الكلمة الطيبة ما يأتي:

أولاً: أن تكون كلمة صدق، فالزور والباطل والكذب لا يمكن أن يكون طيباً، وما أقل الصدق في أيامنا هذه.

ثانياً: أن يكون صاحبها عاملاً بها فلا يكفي أن نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا والله يمقت على ذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣].

ثالثاً: أن يكون المراد من وراء الكلمة هو الله والدار الآخرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٤]، فقيد سبحانه وتعالى الأجر العظيم بابتغاء مرضاة الله سبحانه، هذه الشروط التي نرجو أن نلتزم بها ونوصي إخواننا بالالتزام بها عند بذل كلماتهم، وبذلك نحقق شيئاً من أمانة الكلمة التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها.

وبهذا نفسح المجال لتأخذ الكلمة الطيبة طريقها إلى إصلاح القلوب والنفوس والمجتمعات ومحاربة الشر والرذيلة والظلم، وإذا فسح المجال للكلمة الطيبة الصادقة المخلصة فأثمرت العمل الطيب الصالح فإن الكلمة الخبيثة الشريرة الكاذبة يفتضح أمرها ويتوارى أهلها لأنها تصبح بعد ذلك كلمة منكرة معلوم كذبها وزورها.

ونحن في زمان كثر زوره وكذبه وقل صدقه وإخلاصه ولكن الكلمة الطيبة لا يقف أمامها الكلام الخبيث الكاذب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٨].

عندما عرض عليَّ الأخ جاسم المطوع أن أشرف على هاتين الصفحتين المتخصصتين في الشؤون الدينية، علمت أنني أمام مسؤولية صعبة فليس المطلوب

الآن هو ملء صفحتين بكلام منسوب إلى الدين أياً كان هذا الكلام، ولكن المطلوب هو تقديم الكلمة الطيبة الصادقة الحكيمة التي تعالج ما نشكوه الآن من آلام وأسقام في هذه الفترة السيئة من تاريخنا، ونحن نوجِّه نداءنا إلى أهل الكلمة النظيفة أن يشاركونا هذه المسؤولية، ولن نفسح المجال إلا لمثل هؤلاء ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ونبشر القارىء أن وقته لن يضيع سدى وهو يقرأ في يوم إجازته ما يكتب في هذه الزاوية، بل سيجد إن شاء الله أننا سنلتزم بأمانة الكلمة وسنحافظ جاهدين على شرف هذه الرسالة التي شرفنا الله بحملها وسيتعرف على إخوان له في الله يقدمون له النصح خالصاً ويتقبلون منه كل نقد وتوجيه وسيشاركونه آلامه وآماله في سعادة هذه الأمة وإعلاء شأنها.

٨ أكتوبر ١٩٧٧م.

السلمي.. عبث وسراب

سيأتي اليوم الذي يتحقق فيه للساعين إلى حل سلمي بين الأمة الإسلامية وبين اليهود أنهم كانوا يركضون خلف السراب، والذي يتبين لهم فيه أيضاً أنهم كانوا عابثين.. وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: المسلمون واليهود أمتان مختلفتان عقيدة ومنهجاً وأهدافاً وسلوكاً، وتقوم كل منهما على تراث طويل من الحقد والكراهية وهذا التراث الطويل المتوارث بمعاهدات صلح فوقية تفرضها دول تنظر فقط إلى تحقيق مصالحها الشخصية الآنية وتبديل هذا التراث في حكم المستحيل، فقد أثبت اليهود لليوم أنهم شعب تراثي يعيش على أحكام التوراة، ويؤمن بأخبارها ويفاوض العالم المعاصر على أساس وعودها وما زال اليهود لليوم يشكلون حياتهم وثقافة صغارهم على أساس هذه العقيدة، وينفخون الحقد الأسود في قلوب أبنائهم للشعوب الإسلامية التي يتهمون أسلافهم بأنهم من أسباب شتاتهم وتشريدهم، وإذا كان اليهود يريدون من الدول الإسلامية أن تتخلى عن تراثها ليستسيغ أبناؤها قبول اليهود في هذه الأرض، فإن اليهود أنفسهم لم يفعلوا ذلك بتراثهم ليشعروا نحو شعوب هذه المنطقة بالأمن والسلام.

والشعوب الإسلامية والعربية خاصة وإن كانوا أقل من اليهود تمسكاً بالتراث ونزوعاً إلى القديم، فإن العقيدة الإسلامية مازالت حية في نفوس سواد الناس، وهذه العقيدة الإسلامية عقيدة استعلاء فوقية لا ترضى لأصحابها بالذل والدنية ولا تحصرهم فقط في إطار الشعائر الدينية العبادية، وإنما تأمرهم بصبغ حياتهم السياسية والعملية والاجتماعية بأحكام الإسلام وهذه الأحكام تتناقض جذرياً مع الرضوخ لذل اليهود والاستكانة لاحتلالهم والرضا معهم بالذل والعار.. وبالرغم من أن المحاولات مستمرة لصرف الناس عن هذه العقيدة تمهيداً لاستقرار اليهود في هذه الأرض وتوطئة لأمنهم وسلامهم فيها، فإن المشاهد أن هذه المحاولات فاشلة وستفشل وذلك أن التجارب أثبتت أن الأمة الإسلامية تزداد مع التحدي شدة وصلابة، ويدفعها التحدي دائماً إلى الاعتصام بالدين والتمسك به.

هذا وما زال الخلق العربي القديم من الشعور بالنخوة والهبوب لنجدة المظلوم والدفع عن الضعفاء حياً في نفوس أبناء الإسلام من العرب هذا الشعور الذي استثاره الإسلام ونماه كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٧٥]، وهذا الشعب الفلسطيني المظلوم المضطهد المخرج من أرضه مازال مثالاً حياً يستثير الهمم العربية ومشاعر المسلمين، والعمل على تبغيض الفلسطينيين لسائر العرب وإيجاد التناقض بينهم وبين إخوانهم، وإن كان قد آتى ببعض ثماره لدى ضعفاء النفوس، فإنه لاشك منته وسائر إلى بوار، وذلك بتكشف الحقائق ولا بد يوماً أن تتكشف..

المهم أن قيام أمتين متجاورتين وبينهما هذا التناقض العقائدي والفكري والاجتماعي الهائل أمر مستحيل فكيف يرجى أيضاً أن يكون مع هذا التجاور سلم وصلح وسلام!!؟ الذين يظنون إمكان هذا في عالم الواقع يعيشون في غيبوبة كاملة عن الواقع، ويناقضون حركة التاريخ وأخلاق الأمم.

ثانياً: لا يقف المسلمون واليهود على هذا التراث الهائل من الكراهية والحقد والتناقض فقط، وهذا أمر ماض ربما نقول فيه كما قال كيسنجر: «اللي فات مات»، وإنما الأهداف (المستقبلية) للأمتين تختلفان وتتناقضان تناقضاً جذرياً، فبينما يسعى

المسلمون بعد التمزيق الذي أحدثته الحرب العالمية الأولى والثانية إلى جمع شتاتهما وإيجاد نوع من الوحدة والتناسق بين الأقاليم المختلفة وبروزهما كقوة محايدة بين القوى العالمية المتنازعة وإحياء دورهم التاريخي الذي اختارهم الله سبحانه وتعالى بأن يكونوا أمة مهتدية هادية تعدو إلى الله سبحانه وتعالى، أقول بالرغم من وضوح هذه الأهداف في حث أبناء الأمة الإسلامية وسعيهم إلى ذلك فإن الأمة اليهودية تسعى بما لديها من قوة لتكون هي القوة الثالثة في العالم في هذه المنطقة ولتكون سنداً وامتداداً لقوة أمريكا وإصبعاً ومخلباً لها في هذه الأرض، ولتعيش على ثروات هذه الأمة وتستغل تناقضها وتمتص جهدها وقوت أبنائها ولتشفي غيظها من حقدها التاريخي نحوها، وما التوسع اليهودي الدائم والاستيطان الدائم، واستجلاب اليهود من كل مكان في الأرض نحو فلسطين إلا بدايات لهذه الأهداف التي يسعى اليهود إليها، فكيف تتجاور أمتان وتتصالحان وينشأ بينهما صلح وسلام، وهما تحملان هذه الأفكار والأهداف للمستقبل؟!

وأخيراً فالوهم الكبير الذي يريد الساسة وضع الأمة فيه أصبح مكشوفاً لكل ذي عينين، والإصرار على بث الوهم وزرعه في النفوس إصرار على الخطأ، ويجب على الأمة أن تصحح مسارها من جديد وأن تسعى حثيثاً إلى الوحدة والعزة والقوة، وإخراج الرجس من هذه الأرض الطيبة المباركة، وهذا هو المنطق الصحيح والحركة الصحيحة للتاريخ، وأما ما سوى ذلك فوهم وباطل.

٣٠ سبتمبر ١٩٧٧م

من ذا الذي يستطيع أن يعبر

فوق هذا التراث

الحرب والصراع بين المسلمين واليهود حرب وصراع أبديان وجدا منذ بدأت الدعوة الأولى إلى الإسلام، وسيستمران طالما بقي مسلم يؤمن بالقرآن، ويهودي يؤمن بالديانة اليهودية ويصدق بوعودها.

وإذا كان قد مرت فترات من الزمن هدأ فيها هذا الصراع، وكان هناك سلم

وأمان، فذلك حيث تكون الكلمة العليا لله، واليد العليا للمسلمين، وأما في اليوم الذي تكون فيه اليد العليا، والكلمة العليا لليهود فهم كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠]، بل أعملوا التقتيل حقداً وكراهية وبقروا البطون وقتلوا النساء والأطفال وحشية وهمجية.

وعلى كل حال فليس المسلمون وحدهم هم الذين حملوا حملاً ودفعوا دفعاً إلى قتال اليهود وقتلهم، فكل الشعوب والأمم الذين احتكوا باليهود وعرفوا مكرهم وخبثهم حاربهم اليهود وقتلوهم، وأذلوهم، وإذا كانت النازية تتهم بإبادة عدد منهم، فما فعله اليهود بألمانيا قبل وبعد هتلر أضعاف أضعاف ما فعله النازيون بهم.

والمسلمون هم الأمة الوحيدة الذين نعم اليهود في رحابهم بالعدل والمرحمة مع معرفتهم لمكرهم وخبثهم، وأما الشعوب الأخرى فإنهم ما كانوا يكادون الوقوف على مكرهم حتى يعملوا فيهم الإبادة والتقتيل والتشريد.

وإذا كان اليهود ينعمون في عالم اليوم بالأمن والتأييد من دول المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي، فإنما هو إلى حين، وذلك أن إجادة التباكي من اليهود على المآسي القديمة التي حلت بهم وإتقان التخفي والحيطة والحذر والظهور بمظهر الحملان الوادعة كل هذا لن يدوم طويلاً، وقد بدت تباشيره الآن بين الشعب الأمريكي والشعوب الأوروبية بصرف النظر عن موقف هذه الحكومات التي لا يصل رؤساؤها إلى مناصبهم إلا على أجنحة الدعاية اليهودية وأموال المؤسسات اليهودية، ولا يبقى وزراء هذه الدول في مناصبهم إلا بالحيل اليهودية والتسهيلات الصهيونية التي جندت النساء والأموال واشترت الذمم والضمائر في وقت انعدم فيه الضمير والذمة، ومع كل هذا فحبل الباطل قصير، والكذابون الغشاشون لا بد وأن يظهر الله كذبهم وغشهم.

واليهود الذين يكنون للعالم كله حقداً أسود تراكم في صدورهم عبر القرون، ويحملون في رؤوسهم أفكاراً يؤمنون بها، وهي أنهم شعب الله المختار، وأمته المحبوبة المباركة، وينتظرون المسيح المخلص الذي يضع العالم كله تحت أقدامهم، وبنو البشر جميعاً عبيداً لهم، يعملون لهذا بكل ما أوتوا من قوة، وإذا كانوا

يمدون إلينا نحن المسلمين اليوم يداً ملطخة بدماء الأبرار منا، ويطلبون العيش الآمن والسلم الدائم، في أرض نجسوها بدنسهم ودقوا أوتادهم فيها على عظام شهدائنا والمخلصين من أمتنا، فإنهم لم يطلبوا سلماً طيلة حياتهم وتاريخهم وإنما طلبوا الحرب بكل سبيل، وما طلبهم السلم الآن إلا خدعة كالخدع التي سلفت من قبل، ومتى سالم اليهود غيرهم حتى يسالمونا؟ متى سالموا الناس؟.. ولا يعرفون إلا الضحك على غيرهم والاستهزاء بهم واقرأوا إن شئتم ما فعلوه ويفعلونه الآن بالعالم في كل مكان يحلون فيه.

هذا التراث الأسود الذي يقف اليهود عليه ويجابهون به هذه الأمة، وتراث أمتنا المليء بالمرحمة والانصاف وكذلك بالشهداء الأبرار الذين سقطوا بنيران غدر اليهود وخياناتهم وهذه الحضارة الإسلامية الشامخة بقوانينها في العدل والمرحمة والأخذ على يد الظالم، وقتال أهل البغي والفساد، وحضارة اليهود بكل ما فيها من حقد وغدر هذا وذاك ضدان لا يلتقيان.

قال صديقي وهو يتألم مما يسمع من أناشيد السلام المعسولة التي يتبادلها العرب واليهود، والشروط المطروحة لسلم مزعوم: كيف يحصل السلام مع اليهود وقد فعلوا كل هذا؟

فقلت: هوِّن عليك يا أخي فإن الفرد الذي يستطيع أن يعبر فوق هذا التراث لم يولد بعد! ولن يولد قط!

١٠ ديسمبر ١٩٧٦م

أي إسلام تريدون؟

الإسلام المستأنس؟ أم إسلام الخوارج؟ أم إسلام الكتاب والسنة؟

* لأن الإسلام من عند الله الذي لا يحابي أحداً، ولا تكريم عنده إلا للتقي، ولأن التقوى منزلة عزيزة المطلب، ولأن السلطان بيد البشر، ولا يتخلص إلا القليل منهم من نوازع نفسه وحب ذاته، ولأن الآية والحديث سيف في يد قائلهما. بكل ذلك

كان لابد للسلطان الذي يحكم الهوى أن يستأنس إسلاماً يسانده في سلطانه، ويحقق منافعه ويستخدمه سلاحاً ضد أعدائه.

وعملية استئناس الإسلام عملية قديمة قدم الانحراف عن منهج الكتاب والسنة، وستستمر ما بقي سلطان في الأرض يحكم بالإسلام اسماً، وبالقرآن رسماً، وبالمصالح والأهواء عملاً وواقعاً.

والإسلام المستأنس إسلام عجيب، يتلون بلون السلطان ويلبس جلبابه، ويحمل صولجانه وأختامه، فإذا كان السلطان يطبق النظام الشيوعي كان الإسلام المستأنس شيوعياً، وإذا كان النظام اشتراكياً كان كذلك، وأصبحت لا ترى ولا تسمع إلا أحاديث المساواة وآيات الإنفاق، وإذا كان السلطان يطبق النظام الرأسمالي بكل احتكاراته وظلمه وغشمه لم تسمع إلا: [**إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام**]، و﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [سورة الملك، الآية: ١٥]، وإذا كان السلطان يعادي اليهود كانت الأبواق تنادي بأنهم شر الخلق والخليقة، وأن الله لعنهم ومقتهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأما إذا كان يدعو إلى سلمهم والصلح معهم كان اليهود هم أبناء العم وأهل الإيمان وكانت السياسة ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦١]، وكان اليهود هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٧].

وباختصار الإسلام المستأنس هو إسلام السلطة التي ترى لزاماً عليها أن تستأنس رجالاً يتزينون بزي الدين فينقذونهم حيث يريدون، ويسكتونهم حيث يشاؤون، ويصنع هؤلاء لهم من الفتاوى ما يناسب أذواقهم وأهواءهم ويفصلون لهم من الدين أثواباً على قياسهم.

وفي مقابل هذا الانحراف يقوم رجال آخرون يغلق عليهم الفهم وتتشابه أمامهم النصوص، ويظلم أمامهم الواقع ويرون مجافاته للدين فيخرجون على المجتمع برمته ويكفرون الناس إلا أنفسهم، ويلجأون إلى المغارات والفلوات ويجابهون الناس بما في أيديهم من سلاح.. والفكر الخارجي فكر قديم نشأ في المسلمين عندما اختلفوا ووقع السيف بينهم، وأشكل على كثيرين معرفة الحق والصواب فقالوا بكفر علي

ومعاوية، ومن معهما وضربوا بسيوفهم في كل واد.

واليوم حيث تتشابك السبل، وتتشابه النصوص، وتقل المعرفة، ويستأنس علماء الإسلام بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى ويصنع لكل سلطان في كل بلد جبة إسلامية تناسبه في الشكل والموضوع يخرج الفكر الخارجي من معاقله فنسمع عن «جماعات التكفير والهجرة» وعلى شاكلتها كثير..

* وإسلام الكتاب والسنة ليس هذا ولا ذاك إنه إسلام مهتد ينطق بالحق ولا يبرر الواقع، ويصدع بالنص كما يريده الله ورسوله ولا يلوي عنقه ليوافق أهواء الناس، وصولجان السلطان، إسلام الكتاب والسنة هو الإسلام الكامل الذي أنزله الله لا يجامل أحداً، ولا يركبه أحد، وذلك أن حاملي هذا الإسلام عفروا جباههم لله فأعزهم وتواضعوا له فرفعهم، وأخلصوا نياتهم فأشرقت قلوبهم بنور الوحي فعرفوا طريقهم، وعظموا الله فذل كل جبار في أعينهم، وتواصوا بالمرحمة فعلموا الجاهل، وأرشدهم الحائر وصبروا على إساءة الظالم طمعاً في هداية الخلق ورغبة في ثواب الخالق، فأي إسلام تريدون؟!.

لا حضارة دون سلاح

نعلم أن صوتنا نشاز في معزوفة السلم التي باتت تعزفها وسائل الإعلام العربية من المحيط إلى الخليج، هذه الوسائل التي باتت تصور الصلح والسلم مع إسرائيل على أنه المفتاح السحري الذي سينهي جميع مشاكلنا والبلسم الشافي لكل جروحنا وآلامنا.. فهو الذي سيخرج مصر من ضائقتها الاقتصادية، وهو الذي سيوفر نقود النفط التي تذهب «هدراً» في شراء السلاح وهو الذي سيقضي على المشاكل الداخلية، وهو الذي سيبني منا أمة عظيمة تضارع أمريكا واليابان، وهو الذي سيجعل حكوماتنا تنصرف إلى بناء الاقتصاد والمساكن و.. الخ.

وهذا الكلام يشبه تماماً من يقول: إن الشمس لا تشرق، ولا يوجد شيء يسمى الليل، والقمر أكذوبة، أو هو كمن يقول إن السم يقوي العضلات ويقتل الجراثيم من الجسم، أو هو كمن يقول: غداً سترى الذئاب والخراف في مكان واحد، وسيمرح الفأر مع القط، وستختفي الحروب من العالم، وسينسى الروس والأمريكان صراع

البقاء الذي يمارسونه في الأرض والسماء.

أقول: إن الذي يقول لنا ألقوا السلاح واصطلحوا مع اليهود واهتموا بالاعمار تماماً كالذي يريد أن يحول طبائع الأشياء ويبني عالماً من الوهم والخرافة والغباء.

فصراع البقاء فوق هذه الأرض باق ما بقي الإنسان والظلم على سطحها، باق أيضاً ما بقي الإنسان وليس هناك وقت ازداد فيه الصراع وفقد الناس كل مقومات العدل والمرحمة كالعالم الذي نعيشه اليوم، فالشعوب اليوم أكثر استعباداً وأقل حرية وأعظم هموماً، والمعارك مشتعلة في كل مكان، فبين الدول الغنية وبين دولنا الفقيرة حرب هدفها استنزاف الموارد وإبقاء الفقير فقيراً، وهو استعمار أشد خبثاً ودهاء من الاستعمار السابق، وبين الشيوعية والرأسمالية صراع، وبين الدول الشيوعية بعضها بعضاً صراع، ونحن في بلادنا العربية الإسلامية تحيط بنا الأطماع من كل جانب، ويطمع في ثرواتنا كل طامع.

وإذا كنا حقاً جادين في بناء حضارة وصناعة أمة، فليس لنا أمام هذه الأطماع إلا أحد أمرين: إما أن نبني بيد ونحمل السلاح للدفاع عن حضارتنا وبنائنا باليد الأخرى، وإما أن نوكل السلاح لغيرنا وندخل تحت مظلة أمريكية أو روسية، وبذلك نعيد عهود الحماية البريطانية والفرنسية، وليس أمامنا غير هذا، فأي طريق سنسلك؟

وأما القول بأننا نستطيع أن نبني ونعمر أرضنا دون حماية من سلاحنا أو سلاح غيرنا، فهو قول غبي ساذج، أو هو قول خبيث لا يريد أصحابه إلا أن يقودونا به إلى الجزار الذي يقطع رقابنا ويمص دماءنا.

أموال السلاح لا تذهب هدراً، لأننا بها نحمي أنفسنا في عالم متصارع متقاتل يسعى إلى الحرب أضعاف ما يسعى إلى السلام، واليهود الذين جعلوا السلم والصلح معنا نهاية آمالهم، وغاية أحلامهم ينفقون أكثر من ثلث ميزانيتهم في شراء السلاح والعتاد، وهم العدو الأول المغروس في جسدنا، وهم أيضاً ليسوا العدو الوحيد والأخير في مسلسل أطماع الطامعين في هذه البقعة من الأرض، وإذا كان يثقل كاهلنا شراء السلاح فلماذا لا نبني المصانع ونستثمر أموالنا في هذا السبيل، فالسلاح أهم سلعة في العصر الحاضر وها هي الدول التي كانت بعيدة عن الحرب ومشاكلها من

أمثال سويسرا طلقت صناعة الساعات لتصنع الأسلحة وتبيعها، فالصناعة الحربية هي أكبر الصناعات كسباً ورواجاً في الوقت الحاضر فما الذي يمنع حكوماتنا من إقامة صناعة حربية متطورة؟

المهم من كل هذا هو أن نعلم أن الذين يوهموننا بأننا إن تركنا السلاح بنينا حضارتنا مخطئون، فلم تقم حضارة في الأرض دون سلاح، إما سلاح أبناء هذه الحضارة، وإما سيوف غيرهم ممن يعيشون تحت مظلتهم ولا أشك أن أي مسلم لا يرضى بأن يعيش في حماية مظلة روسية أو أمريكية ونحن أمة نحمل من مقومات الحضارة ما يجعلنا خير أمة على الأرض: المقومات المادية والمقومات المعنوية والخلقية وهما دعامتا أي حضارة في الأرض، فالموقع الممتاز والخيرات التي لا تحصى والرجال الأكفاء الشجعان وسائر المقومات المادية متوفرة لدينا، وأما المقومات الخلقية فهذا ديننا الناس جميعاً في حاجة إليه في وقت وصل فيه الناس إلى طريق مسدود من الشقاء بالمادة والبحث عن الهدف والغاية والضلال والحيرة، وعندنا الجواب لكل مشاكل العالم المعقدة ولكننا وللأسف في عماية عنه.

ولا نحتاج إلى بناء حضارتنا واسترداد ما ضاع من شرفنا وعزنا إلا بإخلاص أولي الأمر فينا لهذه الأمة وعودة شعوبنا إلى هذا الدين الذي جعلنا على مدى القرون السابقة خير أمة أخرجت للناس.

كان أولى بالذين يقولون لنا: ألقوا السلاح ودعوا المعارك أن يأمروا أهل الثراء منا بجلب أموالهم إلى أرضنا وبالتجارة في السلاح بدلاً من التجارة في الفساد واللهو، كما أولى بهم أن يقولوا: إن الأموال التي هدرت على موائد القمار في لندن، وعلى بيوت الفساد والدعارة، وعلى مجلة (بلاي بوي) التي أنقذتها أموال النفط، أقول: كان أولى بالداعين إلى الصلح مع اليهود أن يضربوا على أيدي هؤلاء السخفاء ويصادروا هذه الأموال التي تهدر في بلاد الغرب لنبني سلاحاً في بلادنا، ولكن يبدو أن الداعين إلى السلم لا يحبون إلا أن تكون أمتنا كذلك.

٢٨ يناير ١٩٧٧م

هل أنت واقعي؟!

من أخطر المصطلحات السياسية المستعملة الآن لفظ «الواقعية» وهذا اللفظ يستخدمه مروجوه في مقابلة «الخيالية» والجري وراء الأحلام والعواطف، وكان هؤلاء المروجين لهذه اللفظة يريدون أن يقولوا لقد سار العرب في سياستهم السابقة بالعواطف والأوهام والآن لابد وأن يكونوا «واقعيين» ويعالجوا أمورهم الواقعة الحادثة بدلاً من الجري وراء أمانيهم وأحلامهم الكاذبة، ويهدف إلى أن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة ولا بد من التعامل معها على هذا الأساس، وفكرة تدميرها أو إلقائها في البحر كما كان يُقال فكرة خيالية ومن العبث الجري وراءها.

وهـذا القول هو من الحق الذي يراد به الباطل فلا يجحد الواقـع أصلاً غير مجنون معتوه، ولكن الناس بإزاء الواقع السيء ينقسمون إلى قسمين: قسم يرضى بهذا الواقع السيء ويستكين له، وقسم آخر يعمل على تغييره وإزالته ولكن اللفتة البارعة لدعاة الواقعية إنما كانت في صرف نظر الناس عن المستقبل وتركيزها إلى الوراء دائماً، وبهذا قطعوا الأمة عن آمالها المستقبلية وأشغلوها في مشاكلها الحاضرة.

كان هم الناس صغيرهم وكبيرهم قبل عام ١٩٦٧م هو إزالة إسرائيل وكان هذا شغلهم الشاغل من أجل هذا الأمل أزيلت عروش الملوك، ونصبت عروش الرؤساء وعلى هذا الأمل قامت الثورات وهي لا تحمل من شعار إلا هذا الشعار.

وبالرغم من أن إسرائيل كانت حقيقة واقعة فإن الاستجابة لهذا الواقع والرضا به كان معدوماً مفقوداً، وبالرغم من هزيمتين مني بهما العرب سنة ١٩٤٨م و١٩٥٦م.. ولكن اللفتة البارعة لشياطين الإعلام وأبالسة السياسة تحققت بعد عام ١٩٦٧م حيث تحول نظر الناس عن آمالهم المستقبلية بأمر جديد وهو (إزالة آثار العدوان) لقد كانت هذه الكلمة المنتقاة المختارة «ضرب معلم» صرفت الناس عن النظر المستقبلي المتوافق مع آمال الأمة وأحلامها إلى النظر للوراء.. ومنذ هذا الوقت للآن والأمة تنظر إلى الوراء، ولا نجد الفرصة لتنظر إلى المستقبل، بل لا تجد أصلاً وقتاً للتفكير فيه وذلك بالحركة الدائبة والتشويش الدائم والبلبلة الدائمة.

وبالرغم من أن حرب رمضان سنة ١٩٧٣م كانت نشازاً عن محاولة الإقناع الدائم بوجود إسرائيل وبقاء إسرائيل والرضا بواقع إسرائيلي، وذلك أنها أنعشت آمال المسلمين بتحقيق حلمهم التاريخي بإزالة إسرائيل، بل كان هذا الأمل قاب قوسين من تحقيقه باعتراف اليهود أنفسهم، فإنه سرعان ما أحبطت آثارها في نفوس المسلمين ووضعت هذه الحرب مع نتائجها قهراً وقسراً لتكون جزءاً من العمل على إزالة آثار العدوان وبذلك ظهرت هذه الحرب نشازاً في كل شيء وكأنها فلتة من فلتات التاريخ و(غلطة) من (غلطات) السياسة وبدلاً من أن تكون خطوة نحو الهدف الأعظم أصبحت خطوة نحو الوراء.

مشكلتنا نحن العرب ليس في أننا لا نرى الواقع، ولكن في أننا لا نحب أن نفكر في المستقبل، وقطع الصلة بين الواقع والحاضر والمستقبل سيؤدي بنا في النهاية إلى أن نعيش ولا نرى إلا الماضي وهذه هي مشكلتنا. فليس هناك واقع في الحقيقة لأنه لا يوجد إلا زمنان فقط مستقبل وماض، وذلك أنك إذا جزأت أجزاء الزمان إلى لحظات أو ثوان، ستجد أن أمامك ثانية ستبدأ وخلفك ثانية قد انتهت، وليس هناك حاضر أو واقع، فكل ما وقع قبل لحظة فهو زمن ماض وكل ما سيقع بعد لحظة فهو زمن مستقبل، والواقعيون أرادوا صرفنا عن المستقبل وإدارة وجوهنا إلى الماضي فقط فسموه بالواقع، وجعلوه في مقابلة الخيال والأحلام، وبهذا تمت لهم أكبر عملية تزوير في السياسة واللغة وبدا بحثنا واجتهادنا كله منصباً على الماضي ماذا حدث وكيف يمكن علاجه، ونادراً ما نجد من يقول: ماذا يمكن أن يحدث وما يمكن فعله إن كان خيراً. . وكيف يمكن تلافيه إن كان شراً.

وهكذا أصبح شأننا مع أعدائنا هم يخططون للمستقبل ويعملون له من الآن ولمائة سنة آتية ونحن نفكر في الماضي ولا نزال في شغل به ونركض وراء الأحداث وعيوننا إلى الخلف ونجد أن الأعداء قد حفروا لنا حفرة أخرى فنسقط فيها ثم ننشغل بها مدة وهكذا. .

هل نستطيع بعد كل هذه المآسي أن نقف وقفة نراجع فيها حساباتنا الماضية ونضع خطتنا للمستقبل محددين أهدافنا وما نصبو إليه ثم نعمل وفق خطة موضوعة لنصل إلى ما نريد؟

هل نستطيع أن نحقق ذلك في عالم السياسة المضطرب وفي عالم الاقتصاد المتردي . . ؟ أم ستستمر عملية التزييف والإلهاء . . وإلى متى؟ . .

نرجو ألا يصل مزيفو هذه اللفظة «الواقعية» إلى تزييف تاريخنا كله وبالتالي تضيع آمالنا وأمانينا في العزة والنصر، ويجب أن نعلم أن إسرائيل باطل واقع وأنها «كانت» بفعل التزييف والتهويش والفرقة، وأنها ستزول عندما نواجه الحقائق ولا نزيفها ولا نضخمها ويوم نعمل لإزالتها متحدين متكاتفين وسيكون هذا إن شاء الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

٢٠ مايو ١٩٧٧م

ما دورنا في لعبة الأمم؟

* على أكتاف الآخرين استعمر الإنجليز في وقت ما أكثر من ربع المعمورة، وفي أعظم مواجهاتهم مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية جندوا كل الشعوب المستعمرة بجميع أجهزتها وإمكانياتها لحرب الألمان، ودخلت تلك الشعوب المغلوبة على أمرها حروباً لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ولم يكسبوا بعد هزيمة الألمان ونصر الإنجليز وحلفائهم إلا تعزيز السيطرة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية ثم الأمريكية التي أزاحت بعد مدة هاتين الدولتين عن مواقعهما وحلت مكانهما .

ولقد كانت الشعوب العربية جزءاً مهماً من وقود هذه الحروب التي استهدف مؤججوها السيطرة على الضعفاء في هذا العالم، وأتهم كل صوت نادى بالوقوف على الحياد في صراع الذئاب الكبرى بالخيانة والعمالة للألمان ولم يكتف الإنجليزي عندما استعمروا معظم بلادنا العربية بإدخالنا في هذه الحروب، بل جندوا الجنود من أبنائنا للقضاء على جميع الحركات التي قامت من أجل السيطرة الاستعمارية . فقد استخدم الجيش المصري في القضاء على الثورة المهدية في السودان التي قضت على النفوذ الإنجليزي هناك، وكذلك استخدم الجيش المصري أيضاً في القضاء على أعظم ثورة إسلامية إصلاحية في العصر الحديث وهي الحركة الوهابية وبذلك تم

القضاء على الدولة السعودية الأولى ثم الثانية.

* وهذا اللعب الإنجليزي بالأمم والشعوب ليس بدعاً في التاريخ، وعلى خطاه يسير الآن الاستعمار الأمريكي والروسي، فأمريكا قد جرت معها سبع دول من حلفائها لحرب الفيتناميين، ولم تنسحب من هناك إلا بعد أن تململ حلفاؤها من فقدهم لشبان بلادهم بلا مردود وهذا هو السبب الرئيسي لانسحاب الأمريكيين من فيتنام، وهو أن العنصر البشري الذي يركبون عليه إلى النصر غير موجود، والشباب الأمريكي ليس أهلاً للحرب.

* وفي أفريقيا الآن يعبر الروس إلى هذه القارة على أكتاف الكوبيين الفقراء، وأيضاً على أكتاف الشعب الأنجولي الذي تحرر بالأمس من سيطرة البرتغاليين، ليجند اليوم في خدمة الشيوعيين!! وأمريكا لم تجد من ترسله اليوم لحماية مصالحها هناك إلا الجنود المغاربة المسلمين والجنود المصريين المسلمين.

وهكذا يستطيع الأقوياء في كل عصر أن يجدوا من الشعوب الفقيرة والضعيفة ما يركبونه لتحقيق مآربهم وتحقيق استعمارهم.

* بالأمس اشتركت بعض دولنا العربية فيما سمي بمؤتمر باندونج الذي خرج على الناس بما سمي بالحياد الإيجابي، واستبشر الناس خيراً أن ظهر في العالم قوة ثالثة تقف على الحياد في صراع الدول الكبرى، ولكن سرعان ما تحول هذا الحياد الإيجابي إلى شيء لا حقيقة له، ففي ظله وقفت مصر مع الهند ضد باكستان لتحرم شعب كشمير المسلم من أن ينضم حسب رغبته إلى باكستان. ووقفت أيضاً مع الطائفة اليونانية ضد الطائفة التركية المسلمة التي كانت تعاني كل ألوان الاضطهاد والظلم والقتل الجماعي، وساندت مصر أيضاً في عهد الحياد الإيجابي هيلاسيلاسي الطاغية ضد شعب إريتريا المغلوب على أمره آنذاك.

* ليس صحيحاً أننا قطع على رقعة الشطرنج الدولية وذلك أننا نستطيع أن نقوم بما لا تقوم به الأحجار الصماء، نستطيع أن نخرج أنفسنا من لعبة الأمم وأن نعلن حيادنا في هذا العالم المصارع ونعلن التزامنا بالموقف الخلقي الذي يمليه علينا ديننا وعقيدتنا من إنصاف المظلوم والوقوف مع الضعيف، ومد يد العون للمحتاج، ونعلن

رفضنا لنكون مخالب قطط بأيدي المتصارعين الكبار.

ولكننا لن نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا تناسينا خلافاتنا الجانبية ومددنا أيدينا لنكون إخوة متحابين، وعمقنا مشاعر الود والإخاء بين شعوبنا، وأزلنا هذه الحواجز التي صنعها الاستعمار: الحدود السياسية، والنفسية، والجوازات وقوانين العمل والهجرة، وما يسمى باختلاف المصالح. وحققنا الوحدة الاقتصادية والسياسية ولكن هل سيسمح لنا المستعمرون لنفعل ذلك وهم الذين يستثمرون هذه الخلافات ويستخدمونها للوصول إلى أهدافهم ومصالحهم.

باختصار شديد نستطيع أن نخرج أنفسنا من إطار اللعبة الدولية إذا أزيلت الحواجز بين الشعوب والقادة وأفسح المجال لسماع الآراء الصادقة التي تهدف انتشال هذه الأمة أن تكون دولها ألعوبة بيد الشرق أو الغرب، واعتمدنا بعد الله سبحانه وتعالى على خيرات بلادنا فقط ولم نمد أيدينا إلى أعدائنا بطلب معونة، وكان العيش في عزة من الجوع والفقر أحب إلينا من العيش في ذلة مهما كانت المغريات.

٦ مايو ١٩٧٧م

الجانب الروحي في قضايانا السياسية

* لا نستطيع القول إن أمتنا تعيش بلا آمال في العزة والسيادة والنصر على الأعداء، هذا بالرغم من محاولات الصرف الهائلة عن هذه الآمال المتمثلة في إغراق السوق الإعلامي بفرق المضحكين والهازلين والهواة والعابثين من كل لون وجنس، وبالمحاولات الحكومية في كافة أقطارنا الإسلامية بتمجيد بطولات الكرة والرقص والموسيقى وبالصرف الباذخ جداً على كل هؤلاء وحرمان الجادين والمؤمنين من أي عون ينعش جسدهم ويقوي إيمانهم، أقول بالرغم من كل ذلك فإن الأمة مازالت متعلقة بأماني العزة والسيادة والنصر على الأعداء.

* ولكن هذه الآمال ضائعة بين فريقين: فريق يمثله زعماء سياسيون ماديون لا

يقدرون قوة الإيمان ولا يحسبون لها حساباً، وبنظرهم المادي يرون البون الشاسع بين آمال الأمة، وواقعها المرير من تسلط الأعداء عليها، وتأخرها في مضمار الحضارة والقوة فلا يرون حلاً إلا الاستسلام والإذعان للواقع، والرضى من الأمر بما يقسمه العدو، ثم وصف الذين يرون إمكانية تحقيق آمال الأمة بالخبال والمزايدة والغوغائية والهوس الديني، هذا إذا أحسنَّا الظن بهم.

وفريق آخر لا يحسب للأسباب حساباً، ولا يقدر الواقع الذي نعيش فيه، ويظن أننا نعيش في فراغ وأن مجرد انتسابنا إلى الإيمان ورغبتنا في الخير أن ذلك كاف للوصول إلى أمانينا وتحقيق أحلامنا. . ومثل هؤلاء مثل الذين يحملون روحاً بلا جسد وأمنية بلا واقع، ومثل أولئك مثل الذين يحملون جسداً بلا روح ووسيلة بلا هدف ولا غاية.

* ولهذا السبب يحدث الشقاق كثيراً فبينما يرى أصحاب النظرة المادية فقط أننا لا نملك من الوسائل ما نستطيع أن نقف به على أقدامنا ولا نملك من السلاح ما نستطيع أن نشهره في وجوه أعدائنا، يرى الآخرون أننا نستطيع أن نسمع الدنيا كلها أصواتنا، بل ونستطيع أن نخضعها لسيادتنا وسلطاننا.

* وإذا تعمق الخلاف بين الفريقين اتهم الماديون مخالفيهم بالسير في ركاب الاستعمار، والتمسح في الدين من أجل السيادة والحكم، واتهم الآخرون أهل السيادة بالسير في ركاب الأعداء، والتشبث بالكراسي وتضليل الأمة عن أهدافها ودفعها إلى الذل والهوان خدمة لأعدائها.

* والحق أننا في حاجة إلى سياسة إسلامية خلقية تعتمد الوسيلة المناسبة للموقف المناسب، ونملأ الأمة بروح الإيمان الذي يحيي شبابها، ويفتق وعيها، ويدفعها إلى البذل والتضحية نحن في حاجة إلى جسم سليم وروح سليم. . أيضاً. . إلى جيش مدرب جيد الإعداد يحمل روحاً وثابة وخلقاً كاملاً وإيماناً حقيقياً، وهذه الروح هي التي ستحول الوسيلة في أيدينا، وإن قلت عن وسائل الأعداء وسيلة فعالة، وسلاح فتاك، وأمتنا في تاريخها الطويل المجيد ما كانت لتحقق نصراً لولا أنها جمعت بين الجسد والروح، بين السعي المطلق وبذل الوسع إلى أقصاه لاتخاذ

الوسيلة المناسبة، وبين التوكل المطلق واليقين الكامل أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى، وأن الوسائل لا تساوي شيئاً إن أراد الله شيئاً آخر.

وهذا واضح كامل الوضوح في سيرة النبي ﷺ فلو جئت تنظر إليه في حركته السياسية بدعوته وكيف كان يتخذ الأسباب ويعد لكل أمر عدته لقلت أنه لا يؤمن بشيء فوق الأسباب وأنه لا يعتمد إلا عليها، ولو جئت تنظر إليه وهو يسعى إلى أمر لا تبلغه الأسباب المادية مطلقاً لقلت أنه لا يؤمن بشيء يسمى الأسباب وأنه يتوكل على ربه توكلاً مطلقاً، وهكذا كان الصدر الأول على الخصوص من المسلمين، آخذون بأسباب النصر والعزة والتمكين مستفيدين بذلك إلى أبعد الحدود ثم هم مؤمنون متوكلون يحملون آمالاً عريضة إلى أبعد الحدود.

* واليوم تسقط أمتنا بين دفع الماديين الذين فقدوا إيمانهم وأرواحهم، وبين دفع المتهورين الذين فقدوا عقولهم وبصيرتهم فمتى تنشأ في الأمة روح جديدة تملؤها سعادة ونشوة، ومحبة وغيرة، وتجعلها تستفيد من هذه الإمكانيات الضخمة الهائلة التي ذخرها الله في هذه الأرض، متى نستفيد من شبابنا الخلاق لو عرف الطريق.. ومن نسائنا المخلصات الوفيات المجاهدات لو علمن الطريق.. ومن بترولنا المتدفق لو أحسنا استخراجه وتصنيعه ومن أموالنا وموقعنا ومن تراثنا العزيز متى نستفيد من كل إمكانياتنا المهدرة وشبابنا الضائع.

* متى يعرف صناع القرار السياسي في بلادنا كيف يوالون أمتهم، ويحبون شعوبهم، متى يعرف هؤلاء القادة والزعماء أن العز والسيادة لهم في الدنيا والآخرة طريقها الإيمان والعمل الصالح، وأن اللعنات ستلاحقهم إلى قبورهم إن هم تخلوا عن مهمتهم التي خولهم الله إياها.

متى نجعل من هذا الشهر منطلقاً إلى الإيمان والعمل الصالح؟ وهل هناك عمل صالح أكبر وأجدى من قرار حكيم يصدر من إمام عادل، ورحم الله الإمام أحمد بن حنبل حيث يقول: لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لادخرتها للسلطان لأن بصلاحه صلاح الأمة، فهل يتجه أهل السياسة في بلاد المسلمين إلى إدخال الروح في قضايانا السياسية؟

١٩ أغسطس ١٩٧٧م

لماذا يجب علينا أن نرفض
الصلح والسلام مع اليهود؟

هذا الصخب الإعلامي العربي الذي بات يصور الصلح والسلام مع اليهود على أنه إنجاز العصر، وغاية النصر لا يجوز أن يعمينا عن الحقائق وأن يصرفنا عن معرفة الأخطار الهائلة التي تنتظرنا إثر توقيع أكبر مؤامرة عرفها التاريخ، وإني لصادق.

وهاكم نزراً يسيراً من هذه الأخطار:

أولاً: عندما جاء اليهود إلى فلسطين بعد شتات بلا وطن استمر زهاء ثلاثة آلاف عام أتوا بناء على وعود قديمة زعموها في التوراة على لسان إبراهيم عليه السلام، ولم يستطع الداعون منهم والمخططون لهذه العودة إغراء اليهود والمجيء بهم من أرض الشتات إلى أرض الميعاد (فلسطين) إلا بهذا الوعد الديني، فلقد كان معظم اليهود يعيشون عيشة هادئة هانئة في أوطانهم التي نشأوا فيها، وعندما وضع المخططون لدولة إسرائيل مخططاتهم في أواخر القرن التاسع عشر وفي سنة ١٨٩٧م بالتحديد، كان حلمهم وأهدافهم أن تكون حدود هذه الدولة من الفرات إلى النيل، وأن تحقيق السيطرة لا على العالم العربي وحده، وإنما على العالم بأسره الذي يكون قد أنهك بفعل المؤامرات والحروب والفساد الذي خططوا له في بروتوكولاتهم، وأن يتحقق هذا كله في ظرف مائة عام فقط..

ولقد مضى الآن ثمانون عاماً ـ بالتحديد ـ على وضع هذه الفكرة التي كانت محض خيال في وقتها وقد تحقق منها سبعة أعشارها تماماً وأمام اليهود الآن ثلاثون سنة فقط لتحقيق نهاية آمالهم وغاية مكرهم، والذي يريد أن يقول إن اليهود لا يملكون هذا الزعم ولا يبيتون هذه النية فلا يستحق أن نناقشه لأنه في ضلال بعيد يحتاج معه إلى دهر طويل ليتعلم أوليات القراءة والكتابة ليفك الحروف المكتوبة على صدر (الكنيست) الإسرائيلي.

باختصار نحن أمام دولة قد أعلنت أهدافها النهائية في كتبها ونشراتها وتعليمها لأبنائها، وفي الأسرار التي انتشرت على الرغم منها وأول أهداف هذه الدولة أن

تجعل منا عبيداً (لشعب الله المختار) . .

والذي يقول إن اليهود لا يستطيعون تحقيق هذا الحلم مخطىء ويرد عليه أن اليهود استطاعوا تحقيق ثلاثة أرباع مخططهم الرهيب . . فمن كان يظن قبل ثلاثين عاماً فقط أنه ستولد لليهود دولة في فلسطين وأنها ستنتصر على سبع دول عربية، وأنها في ظرف عشرين عاماً فقط من ١٩٤٧م ـ١٩٦٧م ستدق علمها ذا النجمة السداسية على بعد مائة كيلومتر من القاهرة وعلى مشارف مدينة دمشق، لو أن قائلاً قال هذا قبل أن يحدث هذا لاتهم بالخبل والجنون. وإذا كان في قومنا الآن من يقول إن تحذيراتنا هذه نوع من الخبل والخبال فإنما نذكرهم بذلك فقط .

أقول يجب علينا أن نسلم بأن هذا حدث وأن إسرائيل الآن حقيقة واقعة وأنها ساعية لا محالة إلى أهدافها التي رسمتها وعقدت العزم عليها، وإذا كان يحق لنا أن نعترف بهذا فإنه ينبغي أن نعلم أيضاً أن اليهود لم يقطفوا بعد ثمار نصرهم الذي يرجونه، ولم يحققوا بعد غاية وجودهم في هذه الأرض، فلم يكن هدف اليهود إيجاد دولة وكفى أو البحث عن مجرد هوية وجنسية لرعاياهم أو مجرد تجميع اليهود من أرض الشتات إلى أرض الميعاد، بل إن هدفهم النهائي هو أن تكون دولتهم الحية والثعبان الذي يلتف على عنق هذه الأمة ويمتص خبراتها، ويستبعد شعوبها، ويحقق تعاليم تلمودها وما افتراه شياطينهم نسبوه لله زوراً وبهتاناً .

وإن الذي يتحتم علينا الإقرار به ومعرفته أن معركة السلم والسيطرة الاقتصادية والسياسية لا نستطيع أن نجاري اليهود فيه بحال، إننا كأمة عربية ورثت الإسلام حاربنا اليهود ونستطيع أن ننتصر عليهم في المعارك، بل إن الحرب هي صناعتنا وحرفتنا منذ فجر التاريخ، وما هزمنا أمام اليهود إلا خيانة لا جبناً، ولن ينتصر اليهود علينا في حرب آتية إلا بالخيانة لا بالشجاعة بل إن يهود فلسطين لو علموا ـ يقيناً ـ أننا عازمون على حربهم لما بقي منهم في مقامهم أحد، ولكن صناعة السلاح، وحرفة الاقتصاد فلسنا فيها في قليل ولا كثير، فاليهود هم فرسانها ورجالها في كل جيل وعلى كل أرض، وأما نحن العرب فبالرغم من أننا أغنى شعوب العالم إمكانيات وثروات فنحن أفقرها انتفاعاً بهذه الثروات والخزائن، إننا أمة ما زلنا ولا نزال مشهورين بغبائنا الاقتصادي وتخبطنا الإعلامي والسياسي، وذلك أن فنون الحيل

والغش والكذب لا نجيدها ولا نعرفها وإن عرفناها فلا نستطيع أن نمارسها.

اليهود هم أساطين المال والفساد في الأرض فبالرغم من شتاتهم في الأرض دهوراً طويلة وإقامتهم دولة فقيرة في الإمكانيات، فإن الاقتصاد العالمي أمس واليوم وغداً في قبضتهم وهم مع هذا تجار الفساد والانحلال في كل بقعة من بقاع العالم.

لقد حاولت الدول العربية يوماً أن تجاري اليهود في أسلوب من أساليبهم فاستخدموا كما قال محمد حسنين هيكل بعد هزيمة ١٩٦٧م ـ النساء في المخابرات للتجسس على اليهود؛ يقول هيكل: «فوقف هؤلاء الذين أرسلناهم في هذه المهمة عند حد الوسيلة»!! وهذه شهادة رجل كان يوماً ما أكبر مطلع على خفايا السياسة العربية.

باختصار، إن الذين يحلمون بسلام مع اليهود يريدون أن يقدموا أوطاننا جميعها لا فلسطين فقط، وأموالنا جميعها، وشبابنا كله ليكونوا في خدمة هذا الأخطبوط الفريد فاتقوا الله يا من وليتم شؤوننا، واعلموا أنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة ـ كما قال النبي ﷺ إلا من أخذها بحقها ووضعها في حقها، فهل أذن لكم الله وأذنا لكم أن تصنعوا هذا بنا؟!!

١٤ يناير ١٩٧٧م

دروس من الحرب اللبنانية

يبدو أن الجسم العربي قد أصبح ميتاً إلى الحد الذي لا تؤثر فيه الجراح، بدليل أن شعورنا بآلام جزء من هذا الجسم في لبنان وفلسطين قد مات أو تلاشى إلى الحد الذي لا نحس به، ولذلك يبدو أن عرضي للدروس المستفادة من هذه الحرب دون الإحساس بها والشعور بألمها ضرب من إلقاء الكلام في غير مقامه، وسوقه إلى من لا يسمعه ولا يحس به، ولكن هل يكون سوقي لهذه الدروس نوعاً من الإحياء والإشعار بخطورة هذه النتائج التي أوصلتنا لها هذه الحرب؟

أرجو أن يكون ذلك.

الذين تابعوا الأحداث في هذه الحرب وكان لهم إلمام بالبناء الاجتماعي

والسياسي للمجتمع اللبناني عرف أن هذه الحرب عندما انطلقت شراراتها كان المستهدف هو المقاومة الفلسطينية، وأن دخول العوامل الأخرى من الصراع بين المسلمين والنصارى، ثم استغلال الصراع بين الأغنياء والفقراء، ثم استغلال الصراع بين التكتلات السياسية والفئات الطائفية إنما كانت بمثابة الاستغلال لهذه التناقضات التي كانت موجودة في المجتمع اللبناني، ولكنها كانت تناقضات كامنة لا تجد متنفسها في السلاح، وإنما في الكلام والصراعات الخفية فقط، وقد فتحت المجابهة الفلسطينية المارونية الأبواب لدخول هذه الصراعات دخولاً مسلحاً دموياً، والذين لم يتابعوا هذه الحرب، ولم يعلموا طبيعة التركيب الاجتماعي والسياسي للبنان أعماهم تشابك هذه الحرب وتناقضاتها ونسبوا أسبابها إلى أسباب وهمية هامشية ومن هذا نستفيد جملة دروس:

* **أولاً**: أن اليهود قد أعلنوا أكثر من مرة إن وجودهم في فلسطين مرتبط بعدة أمور منها:

أ) أن ينتهي شعور المسلمين باستردادها، وقد استطاعوا ذلك ونجحوا فيه نجاحاً عظيماً.

ب) أن ينتقل العرب من شعورهم القومي إلى مشاعرهم الإقليمية وأن ينزوي كل إقليم بمشاكله الخاصة حتى لا يبقى له تفكير جدي فيما سواه وقد نجح اليهود في هذا أيما نجاح.

ج) أن ينتهي هذا الشعب الفلسطيني الذي يطالب بفلسطين رغم أن هذا الشعب قد قبل كما أعلنت أكبر منظماته على أنه على استعداد لأن يعيش مع اليهود في دولة لا دينية ـ ولكن اليهود يريدون دولة يهودية خالصة، ومعنى أن ينهي هذا الشعب يعني أن يفقد الشعور والأمل بالعودة إلى فلسطين وذلك باستحالة هذا ومن ثم ينصرف إلى العيش والرضا به في أي مكان آخر، ولقد كانت الحرب اللبنانية هي الحلقة التي يبدو أنها الأخيرة أو التي يراد لها ذلك على الأقل لإقناع الفلسطينيين بأنه لا أمل في العودة إلى تلك الأرض، والدرس الأول من الحرب اللبنانية يعني أن اليهود جادون في أن يجعلوا فلسطين وطناً لهم وأنهم باذلون في ذلك ما يستطيعون ويعني أيضاً أن كثيراً

من المسلمين والعرب كانوا هازلين!! وإلا فكيف فقدت هذه المشكلة وجهها الإسلامي!! ثم كيف فقدت هذه المشكلة حرارتها العربية، ثم كيف سكت الذين لم تصبهم نيران هذه الحرب عن كل ما حدث فيها؟

* وأما الدرس الثاني من هذه المقدمة فهو إحساسنا أكثر من قبل أن استقلال أوطاننا من المستعمر لم يتحقق منه إلا الاستقلال العسكري فقط، وأما الاستقلال السياسي، والاقتصادي فلم يتحقق، فبالرغم من أن هذه المنطقة داخلة في إطار الوطن العربي الإسلامي إلا أن المسير الفعلي للأحداث فيها كان للدول الكبرى ولذلك قالوا الحل بيد أمريكا، الحل بيد فرنسا، الحل بيد روسيا، الحل بيد الدول الكبرى، ومعنى أن يكون الحل في بلادنا بيد غيرنا أن استعمارنا السياسي قائم وأن همنا الديني يجب أن ينصرف إلى التحرر من الاستعمار السياسي، كما قادت الحركات الدينية قديماً الحملات ضد الاستعمار العسكري. . وبالطبع هراء أن نستقل سياسياً ونحن على هذا الحال من التشتت والإقليمية ولذلك كانت الدعوة إلى الوحدة في ظل الإسلام كعقيدة سامية تؤمن بها شعوبنا هي بداية العودة إلى الاستقلال السياسي.

إن كانت الحرب اللبنانية قد وضعت أوزارها فلا يجوز بتاتاً أن تمر دون عظة واعتبار. وقد قدمنا في الأسبوع المنصرم في هذه الزاوية درسين مستفادين من هذه الحرب خلاصتهما أن استقلالنا العسكري يجب أن ندعمه باستقلال سياسي، وأنه يستحيل علينا الاستقلال السياسي في هذه الفترة من التاريخ دون وحدة تجمع بين دولنا وتؤلف بين شعوبنا وإلا فنحن المسلمين بهذا التجزؤ والتفكك لا وزن لنا، وكذلك يجب أن نعلم أن اليهود جادون في بقائهم في فلسطين وأن بقاءهم مرتبط بتمزيقنا والقضاء على أمل الشعب الفلسطيني في العودة إلى دياره.

* الدرس الذي يجب أن نستفيده من هذه الحرب هو العلم بخطأ الشعارات التي رفعتها بعض فصائل من المقاومة والتي لا علاقة لها بتحرير فلسطين. . فالشتات والعمى عن الهدف الذي أصاب طائفة ممن توظفوا في العمل الفدائي كان له النصيب الأول في تعجيل القضاء على العمل الفدائي في الأردن ثم في لبنان، فالمقاتل الفلسطيني الصادق هو من يضع نصب عينيه تحرير فلسطين، ولا يقل عن هذا العمى

عن الهدف حمل بعض فصائل المقاومة لما يسمى بالأيديولوجية الشيوعية زعماً أنه لابد في كل ثورة من «أيديولوجية»، فالذين استغلوا شوق الفلسطيني للعودة إلى أرضه فحملوه مع هذا الشوق هذه الشجرة الملعونة زعماً بأن هذه العقيدة هي التي ستثير حماسه وتؤلف بينه وبين إخوانه مخطئون، فنبتة الشيوعية والإلحاد لا مجال لها إن شاء الله ـ ولا ثمار لها في هذه الأرض الطيبة أرض الإسلام.

إن المقاتل الفلسطيني يحمل غاية شريفة وهي أن يرفع الظلم عن نفسه وأن يعود عزيزاً إلى دياره وأن يضم دولته في أرضه ووطنه. . هذه الغاية الشريفة لا يجوز بتاتاً أن تضيع في صراعات جانبية تبعد عن الهدف ولا تقرب منه، ثم لا يجوز بتاتاً أن يكون المقاتل الفلسطيني المسلم الذي يحارب من أجل هذه الغاية الشريفة وسيلة وأداة لمن يريدون أن يبذروا بذورهم الخبيثة وينشروا أفكارهم الهدامة في هذه الأرض الطيبة المقدسة.

فهل تعي المقاومة هذا الدرس وتصحح مسيرة العودة إلى الأرض التي باركها الله؟

كيف نستعد للجولة الخامسة؟

أولاً: الاستعداد السياسي:

ستبدو الخسائر التي خسرناها طيلة الحروب الأربعة السابقة مع اليهود تافهة جداً إذا قيست بكارثة حقيقية للأمة كلها إذا فاجأها اليهود بحرب خامسة لم نستعد لها استعدادها المطلوب.

وهذا هو الجو المسموم والمشبع بحمى «السلام» مع اليهود الذين نعيشه الآن في غاية الخطورة على عقول أبناء أمتنا فيما لو شن اليهود هذه الحرب.

والعقل السليم يحكم بأنه لابد من افتراض كل الاحتمالات ثم الاستعداد لكل احتمال بما يناسبه.

وإذا كان احتمال بقاء حالة الحرب مع اليهود احتمالاً وارداً، بل كل مطلع على مسلسل إقامة الدولة اليهودية في هذه الأرض لا يجد مفراً من أن يحكم بأنه لا احتمال غيره مع اليهود، لذلك وجب علينا أن نضع كافة الاستعدادات لمقابلة هذا الاحتمال الأقوى الاحتمال الحتمي الذي لا مناص منه.

* ومثلي كفرد ـ والقدرة الفردية دائماً محدودة ـ لا يضع ولا يخطط لأمة بأسرها ولا لمشكلة بهذه الضخامة والتعقيد ومهما تكلمت عن المستقبل والاستعداد فإنما هي رؤية فردية أضعها في متناول الذين يملكون اتخاذ القرارات لتكون على الأقل من باب التحذير والتنبيه وليضم ما فيها من خير ـ إن وجد ـ إلى جملة الآراء الخيرة التي لم تعدمها الأمة بعد، ونستطيع أن نلخص الاستعدادات الواجبة في هذا المجال كالآتي:

*** أولاً: الاستعداد السياسي:**

الهيكل السياسي في أي أمة من الأمم أو دولة من الدول هو عامل النصر الأول كما أنه عامل الفشل الأول في أي تحد يواجه الأمة، فإذا كان صناع القرار عند مستوى المسؤولية فهماً ودراية وحزماً وقد أمنوا ظهورهم وسار الشعب من ورائهم فلا شك أنهم سيستفيدون فائدة كاملة بكل إمكاناتهم ومقدراتهم، بل سيفجرون في الأمة طاقات الإبداع والتضحية والفداء، وأما إذا كان العكس فإن الاتهام المتبادل والشك الذي يساور كلا الطرفين تجاه الآخر سيمنع كل منهما أن يبذل شيئاً.

ومسلسل الانقلابات والانقلابات المضادة ثم الانقلاب على الانقلاب وثورات التصحيح والتعديل التي مرت بها الأمة جعل المواطن في هذه المنطقة يعيش حالة التوجس ويسيء النية دائماً ويفسر كلام الحكام بخلفياته ومراميه لا بنصوصه ومعانيه، ويشجع الأفراد على هذا المنحى الانفصال الظاهر بين القول والعمل، بين الأهداف المعلنة والسلوك الفعلي أو بالأحرى بين ما يلزم الحاكم به شعبه وما يلتزم به هو وما يسمح لنفسه بأن يفعله، وقد أدى هذا بالطبع إلى تبديد إمكانات الأمة، فالأموال ـ ونحن أغنى شعوب الأرض الآن ـ هربت من بلداننا إلى أوروبا وأمريكا لأنها أكثر استقراراً وأمناً، وعلماء المادة (والتكنولوجيا) هربوا إلى هناك أيضاً لأنهم هناك أكثر أمناً على أنفسهم وأعظم استفادة بعلومهم وإمكاناتهم وعلماء الأخلاق

والفضيلة كبتوا في أماكنهم أو شردوا في غير أوطانهم والشباب في حيرة سياسية وفي فوضى فكرية، فهو لا يعلم إلى أين يسير وماذا يراد له وماذا يريد الحكام منه، ومثله العليا ضائعة ورغبته في الانتماء والاحتماء مكبوتة، وهويته التي يريد أن يحملها ويدافع من أجلها مزورة!! فالشاب يقول لك: من أنا!! ومن نحن؟ هل نحن عرب؟ فالشاب يقول لك: من أنا!! ومن نحن؟ فلماذا هذا النفاق بل هذه الغربة الكاملة للإسلام؟ أم هل أنا مصري فقط؟ وعراقي فقط؟ وكويتي فقط؟ وفلسطيني فقط؟ هذه الأسئلة التي يتحدد على أساسها الانتماء والهوية لا يجد شبابنا جواباً عليها، وإن وجد الجواب النظري فوجىء بأن التطبيق العملي يخالف هذا تماماً.

الاستقرار السياسي ضرورة ملحة واليهود لم ينتصروا علينا في أي معركة، إلا في وقت لم نكن ننعم فيه باستقرار سياسي، بل أمتنا على امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان لم تهزم أمام التتار أو الصليبيين أو الفرنج في إسبانيا إلا في عهود الفرقة والخصام والانفصام بين الحكام والشعوب، ولم نستطع أيضاً أن نحقق نصراً إلا في عهود اجتمعت فيها كلمتها ووحدت فيها صفوفها ووقفت شعوبها صفاً متراصاً خلف حكامها.

ولذلك السعي الأول في سبيل الاستعداد للحرب الخامسة يجب أن يكون في سبيل الاستقرار السياسي، ويستحيل أن ينعم الحاكم والمحكوم باستقرار سياسي، في ظل الإرهاب والبطش ومصادرة الأفكار الطيبة الخيرة، وفي ظل استغلال النفوذ والأثرة وحب الذات، بل في ظل التسامح والمرحمة وإفساح الصدر للرأي المخالف وأن نشترك جميعاً في الرغيف الواحد، وأن نتقاسم الجوع إذا فرض علينا أن يجوع البعض، وليس ما أقوله هنا الآن مثالية خيالية فعيب علينا أن يستطيع الإنجليز في الحرب العالمية الثانية أن يوزعوا كميات الطعام على الشعب جميعاً بالتساوي حتى أن أفراد الأسرة المالكة يحصل كل منهم على عدد من البيض مساو تماماً للعدد الذي يحصل عليه كل فرد في الدولة، أقول عيب علينا أن يفعل غيرنا في الأزمات هذا، ونحن أولى الناس بهذه الأخلاق لأنها إن كانت عند غيرنا فضلاً ومكرمة، فهي في ديننا حق واجب لا مكرمة وتطوعاً.

أقول الاستقرار السياسي يستلزم أيضاً البحث عن آمال الأمة وأحلامها والسعي

الجاد لتحقيقها. وآمال الأمة إنما هي في تحقيق العدل الاجتماعي، والانتصار من عدوها الذي أذلها ومرغ عزتها وكبرياءها فيكف ننتظر استقراراً سياسياً والاتجاه العام في بلادنا الآن يسير نحو الظلم الطبقي والسياسي، وتكريس الذل التاريخي بتمكين اليهود في هذه الأرض التي أتوا إليها مسالمين متعايشين.

* حقاً نحن اليوم في أمس الحاجة إلى استقرار سياسي يلم شمل كل شعب في منطقتنا حول قائده وزعيمه ويشيع روح المحبة والألفة والتراحم. ولكن دون ذلك باختصار شديد التوافق الكامل بين القول والعمل، والاشتراك الفعلي في الجوع والشبع، والأفراح والأحزان، والبحث عن آمال الأمة في العدل والمرحمة والعزة والنصر. وبدون ذلك سيظل الإرهاب والمصادرة والثورة إثر الثورة والانقلاب بعد الانقلاب ثم نصحو بعد كل جولة مع اليهود على كارثة جديدة. فإلى متى؟

١١ فبراير ١٩٧٧

* ثانياً: السلم بين البلاد العربية

قبل السلم مع إسرائيل

إسرائيل بقوتها الحالية تستطيع مواجهة القوة العسكرية العربية بل تملك في نواح كثيرة تفوقاً بعيداً، والقول بأن أي دولة عربية تستطيع منفردة مجابهة إسرائيل والتصدي لها قول بعيد عن الصواب، ولذلك فالوحدة الإسلامية شرط أساسي لأي نصر حازم مع اليهود سواء في حرب شاملة أو حرب محدودة والحرب الرابعة مع اليهود التي لم تكن على الأقل هزيمة للدول العربية التي اشتركت: مصر وسوريا والعراق والمغرب والقوات الفلسطينية والكويتية، هذا إلى جانب الشعور العام الذي غمر العالم الإسلامي بفرحة الوحدة وفرحة المجابهة مع العدو الأبدي لهذه الأمة، ولهذا الشعور أثره في شد عزائم جنودنا وتثبيط عزائم العدو..

ويستحيل مستقبلاً إقدام أي دولة عربية منفردة على مجابهة اليهود لأسباب كثيرة لا تغيب عن الصبيان فضلاً عن أهل الرأي والمشورة. ولذلك فإن اليهود وأعوانهم يرمون بكل ثقلهم لتوهين الرابطة الأخوية والدينية والتاريخية والمصيرية التي تربط

بين كل دولة عربية وأختها. وذلك لأن أعظم خطر من الممكن أن تواجهه الصهيونية وإسرائيل هو أن يصبح المسلمون في هذه الأرض قوة واحدة وأن يكون بينهم تعاون أو حتى مجرد تنسيق في قضاياهم الأمنية أو الاقتصادية أو حتى السياسية الشكلية، ولذلك فالباحثون عن الفرقة في أوطاننا إنما يخدمون أمن إسرائيل وسلامها وبقاءها في هذه الأرض المغتصبة فإن كانوا جاهلين بذلك فهي مصيبة وإن كانوا عالمين فالمصيبة أدهى وأعظم.

ولقد صحت الدول العربية الإسلامية بعد انفراط عقد الخلافة العثمانية (الشكلية) التي كانت تجمع بينها، صحت على تمزيق أوطانها على هذا النحو في هذه الخريطة السياسية الملونة بعشرين لوناً إلى الوقت الحاضر، والتي من الممكن أن تستقبل ألواناً كثيرة أخرى في كل هزة وطنية كما حدث في لبنان.

هذا الواقع السيء الذي استيقظت هذه الأمة عليه هو أفضل واقع يبشر إسرائيل بالخير والأمن والاستقرار، وبالرغم من أنه قد ظهر في المحيط السياسي والاجتماعي دعوات وصرخات وأحزاب كثيرة تنادي بالوحدة السياسية على أساس العروبة أحياناً والدين أحياناً أخرى ودعوات أخرى على المستوى العسكري فقط وعلى المستوى الاقتصادي فقط، إلا أن كل هذه الدعوات قد جوبهت بما يجعلها مجرد حبر على ورق أو أمان فارغة تجد من المثبطات والعراقيل أضعاف ما تجد من المروجات والتسهيلات، فالدول العربية الإسلامية ما زالت إلى اليوم فاشلة فشلاً ذريعاً أمام وحدة اقتصادية حقيقية أو وحدة عسكرية حقيقية أو حتى تنسيق سياسي موحد يظهر المسلمين جميعاً برأي واحد في المحافل الدولية وأمام الرأي العام العالمي، ولا تتعدى العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول العربية شبيهتها من العلاقات مع الدول الأجنبية إلا في قضايا شكلية (بروتوكولية) لا تسمن ولا تغني..

والادهى من ذلك كله أن الفكر الإقليمي العنصري قد بدأ يأخذ مجرى آخر في تعميق الخلافات وإظهار الفروق وتنافر المصالح بين الدول العربية، وهذا الفكر الإقليمي السيء قد كان فكراً نشازاً قبل أعوام فقط، ولكنه الآن فكر بدأ يأخذ طابع الرسمية والرضى العام ويطالعنا كل يوم على صفحات الجرائد والمجلات فقد ظهر الآن من يقول بأن مصالح مصر تتعارض مع مصالح العرب، ومن يقول مصالح

الكويت الغنية تتعارض مع مصالح الفقراء من العرب ومن يطالب صراحة لا تلميحاً بانصراف كل إقليم من هذه الأقاليم الإسلامية العربية إلى معالجة مشاكله بعيداً عن المشاكل العامة التي تهدد الجميع، وهذه الإقليمية من أكبر عوامل الخطر المستقبلي على هذه الأمة ابتدأت تنزلق من أقلام الكتاب (العميان أو العملاء) إلى قلوب الجهلة والغوغاء ويوشك إن ظل الحبل على الغارب أن يتحول هذا الفساد إلى رأي عام تضيع في وسطه، الآراء القليلة الصائبة التي لم تعمها بعد عصبية الإقليم عن الخطر الواحد الذي يهددنا جميعاً.

وليس هناك من خطر أكبر من إسرائيل يهدد الأمة وإذا لم نفلح أمام هذا الخطر في أن نوحد صفوفنا فليس هناك أمل قط في أن نجتمع على كلمة واحدة إزاء أي خطر مستقبلي.

ومنذ تصدع الخلافة العثمانية ـ ولسنا بصدد بيان إيجابياتها وسلبياتها على الأوطان العربية ـ والعرب يعيشون على أمل الوحدة والاتحاد، وكل التجارب الوحدوية التي مورست عبر نصف القرن الماضي لم تحقق أهدافها وذلك إما لأنها أهملت العامل الأول الذي ألف الأمة العربية قديماً وهو الإسلام، أو لأنها نقلت جرثومة (الاشتراكية العلمية) وهي دعوة أممية تتناقض مع القوميات ولذلك كان الداعون إليها إلى جانب القومية العربية متناقضون، وإما لأنها وقعت بيد الانتهازيين الشعوبيين الذين لا يدينون أصلاً بالولاء للعروبة وإنما اتخذوها مطية لمآربهم في الانفصال والسيادة.

وبالرغم من هذا أيضاً فقد جوبهت هذه الدعوات للوحدة بتحزب الغرب والشرق ضدها وذلك لأنه من أكبر الخطر على كلا المعسكرين قيام دولة منافسة أو على الأقل قوية تكتفي بنفسها في هذا الجزء المهم من العالم.

وما دمنا بصدد التنبيه والتحذير من حرب خامسة مع اليهود، فإننا نقول إن الأمر الثاني في هذا الاستعداد لهذه الحرب هو تحقيق نوع من الوحدة إزاء هذا الخطر، ولا شك أننا نيأس سريعاً إذا علقنا النصر في الحرب الآتية مع اليهود على الوحدة وذلك لتصورنا أن الوحدة الآن أمر متعذر أو مستحيل وذلك بالنظر إلى تجاربنا المريرة

السابقة، ولكن إذا أصبحت هذه الوحدة هدفاً دينياً وقومياً وهاجساً وجدانياً عند كل من يحمل ضميراً في هذه الأمة وارتقى شعورنا من الإحساس الإقليمي العنصري إلى الإحساس الديني الوحدوي، فلن يكون هذا بعيداً أبداً، بل إن هذا لا يحتاج فقط إلا إلى صدق القادة وإيمانهم عندما يطلقون صراخ الوحدة لمجابهة العدو المشترك، فهذه الصيحة الصادقة وحدها كافية لإزالة كل هذه التناقضات والعراقيل التي تمنعنا من أن نجابه عدونا صفاً واحداً.

وإذا كان لنا أن نطالب بمطلب دون هذا فإننا نطالب الذين (يقلسفون) ثمار الصلح والسلام مع اليهود في أن يستخدموا بلاغتهم الجهنمية في بيان ثمار الصلح والسلام بين البلاد العربية وذلك حتى يجتمع رأس المال العربي مع الخبرة العربية وتلتقي الوفرة الاقتصادية مع الوفرة البشرية وبذلك يكون هناك بركات حقيقية تعود علينا بالخير..

على الذين ينادون بالصلح مع إسرائيل أن يستخدموا بلاغتهم في إرساء قواعد الصلح بين البلاد العربية حتى لا يطرد عربي من مكان في بلاد العرب إلى مكان آخر، لأن حكومتين قطعت العلاقات وطردت الرعايا.. بل علينا أيضاً أن ننهي حالة الحرب بين البلاد العربية بعضها البعض قبل أن نفكر، ـ ولا يجوز بتاتاً أن نفكر ـ في إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل علماً بأن التفسير الإسرائيلي لإنهاء حالة الحرب هو الكف عن السباب والشتائم والاتهام والتحريض، فهل نطمع أولاً في إرساء قواعد السلم بين البلاد العربية قبل أن يتحول هذا (الخبث) الإعلامي إلى شعور عام بالكراهية والنفور وبذلك نعمق الإقليمية والانفصالية ولا تخدم بهذا إلا الشعوبية واليهودية..

* ثالثاً: البناء الاقتصادي

(أ) مفهوم المال العام

خسائر الحرب في العصور الحالية خسائر خيالية سواء للمنتصر أو المنهزم فنفقات الحرب أصبحت نفقات باهظة، فالطائرة الواحدة أصبحت ببضعة عشرات من

ملايين الدولارات والقذيفة الواحدة بعدة آلاف، والحرب بالنسبة إلينا شر لابد منه، وهي مفروضة علينا سواء سعينا إليها أو هربنا منها، فالأعداء والطامعون فينا حولنا من كل جانب، والكل يتربص فترة ضعف لينقض على جزء من أوصالنا فيقتطعه ولهذا فنحن ملزمون أن نوفق بين ما نملك من ثروات وما ينبغي أن يكون لدينا من وسائل دفاع، والذين رفعوا رايات السلم أو الاستسلام البيضاء كان من أقوى حججهم أن الحرب أصبحت أكبر منا وأنها أكلت منا أضعاف ما ربحناه من ورائها، وبالرغم من أننا نملك مجتمعين كعرب ومسلمين أعظم ثروات الأرض وإمكاناتها إلا أننا متفرقون نبدو وكأننا لا نملك شيئاً إطلاقاً وذلك بسبب التخلف الهائل لسياساتنا الاقتصادية، ولن نستطيع مستقبلاً أن نكسب حرباً حقيقية مع العدو إلا بتعديل هذه السياسة وبناء اقتصادنا بناء سليماً نستطيع أن نواجه به نفقات الحرب وتكاليفها وهذه بعض الخطوط العامة التي يجب مراعاتها لوضع هذه السياسة:

١ـ في الرقعة العربية كلها يبدو أن دولنا لم تحدد بعد مفهوم (المال العام) وأنه يحرم الاعتداء عليه وتبديده والإنفاق منه إلا في وجوه النفع العام ولكن الحال أن المال العام في دولنا جميعاً إلا ما شاء الله يوزع ويقسم بالمحسوبية وبالهوية والجنسية بالمبدأ المشهور (شيلني وأشيلك)، فمن أعظم ما تعاني منه الدول العربية والغنية سواء ما يسمى (بالتضخم الوظيفي) وذلك أن الحكومات تعتقد أو هكذا تنفذ أن كل فرد من الدول يحمل (جنسيتها) فله حق في التوظيف وبالتالي (الأكل) من المال العام ولا تسأل الحكومة نفسها إن كان هذا الفرد الموظف في أجهزة الدولة سيؤدي نفعاً عاماً بقدر ما يأكل من المال العام أم لا؟ وذلك أنها تعتقد أنه مادام مواطناً يحمل الجنسية فله الحق في هذا المال العام.

لقد طبقت هذه القاعدة في كثير من بلادنا العربية، وكان هذا من أكبر عوامل فساد الجهاز الوظيفي والحكومي وذلك أن الموظف الذي يوضع في مكان ولا عمل له إلا الدوام يشكل بذاته عائقاً حقيقياً للعمل والبناء وذلك أن التوظيف بلا سبب يستدعي إيجاد عمل وحيث إنه لا عمل إذن فلابد أن يكون هناك ما يسمى (بالروتين) وهذا (الروتين) معناه التعقيد، والتعقيد يعني أن ندور بلا سبب وجيه لنحصل على هدف ما فإذا أضيف إلى ذلك وضع موظف غير مناسب في مكان غير مناسب كانت الكارثة

كأن نضع الشرطة والجنود في المصانع بدلاً من الأمن والدفاع، ونضع المهندسين في التعليم والمعلمين في الزراعة وهكذا. . إننا بهذا سنحصل في النهاية على آلة ضخمة معقدة جداً ولكن كل قطعة منها قد وضعت في غير مكانها فهي من البعد تشبه الآلة المعدة للإنتاج ولكنها في حقيقتها آلة جوفاء تصدر أصواتاً متنافرة ولا تنتج شيئاً أو كما قال أسلافنا العرب وصدقوا «نسمع جعجعة ولا نرى طحناً»، والعجب أن هذه الآلة في النهاية تكون قوة حارقة للاقتصاد وغير موفرة أو منتجة له، تماماً كما لو كان عندك بقرة تأكل كثيراً ولا تنتج من الحليب إلا شيئاً يسيراً ثم تغافلك وترضع نفسها.

من أغرب الغرائب أننا في البلاد العربية نتبع سياسة عرجاء أو عمياء في الاقتصاد فبينما يرتفع الشعار في الدول الاشتراكية: «لا طعام دون عمل» ونرى الناس هناك يندفعون إلى العمل في تلك الآلة الضخمة التي يراعي القائمون عليها الإنتاج قبل الإنسان، وكذلك في النظام الرأسمالي لا طعام أيضاً دون عمل وإنتاج وإن كانت الآلة هناك آلات متعددة خاصة، (مؤسسات رأسمالية) لا وجود لإنسان في واحدة منها إلا بإنتاج يساوي أضعاف أضعاف ما يأخذه من راتب، أقول بينما نعيش في عالم على هذا النحو في جناحيه الرأسمالي والشيوعي فإننا نعيش في بلاد الشعار فيها (لا طعام دون وظيفة ومركز)، والوظيفة معناها (الدوام) والدوام عندنا لا يرتبط بالإنتاج كماً ولا كيفاً، وإنما يرتبط بالزمن فقط، وهكذا نملك صورة الإنتاج لا حقيقته وشكل الآلة لا مضمونها، نملك بقرة لكنها بدلاً من أن تُرضع أولادها تُرضع نفسها، والعجب بعد ذلك ممن يصرخون هنا وهناك كالببغاوات مرددين أن النظام الرأسمالي كفر والنظام الشيوعي كفر، ونظامنا (هذا) هو الإسلام أو قريباً من الإسلام والحال أن النظام الاقتصادي القائم في دولنا العربية والإسلامية لا يمت إلى الإسلام بوشيجة ولا قربى، فإن من أعظم المحرمات في الإسلام المال العام ولا يجوز الأخذ منه إلا بحق فإذا لم يكن الموظف ـ ويسمى في النظام المالي الإسلامي (العامل) ـ منتجاً وأميناً فلا حق له في المال العام وعندنا الآن المال العام غنيمة والشطارة هي في التحايل للأخذ منه، ويردد العامة في الأمثال (إن فاتك الميري أتمرغ في ترابه) أي وإن تركك العمل الحكومي فتهافت على أي شيء فيه، وذلك أنه عمل يشعر الفرد فيه أنه صاحب حق في الراتب وليس مطالباً بالإنتاج.

وهكذا بسوء فهمنا لقضية المال العام نصل في النهاية إلى انهيار كامل لا في الاقتصاد وحده وإنما أيضاً في المثل والأخلاق، وذلك أن الموظف الذي يقبض ولا ينتج غاش لأمته وهو لص أيضاً ومحاسب على هذا المال الذي أخذه دون وجه حق، ثم إن شبابنا الآن يركض في السلم التعليمي للحصول على الوظيفة لا على العلم، لأنه يعلم أن الشهادة هي جواز المرور إلى الوظيفة، وفي الوظيفة لن يسأل عن الإنتاج وإذن فالمهم هو الشهادة والعلم سبيل طويل وطريق شاق للشهادة والغش أسهل وأقرب من التحصيل ولذلك فأقولها بيقين العارف المطلع «الغش الآن هو القاعدة والتحصيل والعلم هو الشذوذ»، وهذا يعني الكارثة الوطنية والقومية والدينية.

في كل بلاد العالم يتعلم الناس وفي بلادنا نعطي شهادات، وإذا وصل غير الكفء إلى المنصب فإن همه كله سينصب على محاربة الأكفاء لأن الأكفاء هم أخطر الناس على وظيفته ومنصبه، وبذلك تبدأ حرب قذرة على العاملين والمنتجين وهم القلة المخلصة وتبدأ الترقيات والهبات للمنافقين والدجالين وذلك أنهم المسايرون والراضون وهكذا تطحن هذه الآلة الفاسدة المخلصين من أبنائها، ويشعر هؤلاء المخلصون بالضياع والغربة لأنهم قلة من الأشراف والأمناء في مجتمع من الذئاب، وهكذا ترضع البقرة نفسها ويموت الصغار!!

وهكذا تتسلل القضية وتتشابك، وذلك أن البناء الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي يمسك بعضه بخناق بعض وذلك أن المجتمع كل متماسك ترتبط فيه كل قضية بالأخرى.

وإصلاح هذه القضايا المجتمعية يبدأ من تحييد مفهوم (المال العام) ومن له الحق فيه، وكيف يؤخذ وفيم ينفق فإذا وصلنا إلى مفهوم واضح محدد استطعنا بعد ذلك أن نضع كل شيء في مكانه الصحيح وعند ذلك سنجد أننا نملك وفرة هائلة من الإنتاج والرفاه نستطيع أن نوفر جزءاً منها لإقامة صناعة حربية متطورة تتناسب مع إمكانياتنا وحجم الطامعين فينا، ودون ذلك ستظل الساقية تدور والماء يعود إلى البئر، ونظل نسمع جعجعة ولا نرى طحناً.

١١ مارس ١٩٧٧

ب: مفهوم المال الخاص

* يبدو أننا لا نجهل فقط قضية (المال العام) في الإسلام بل نجهل أيضاً قضية (المال الخاص) فالناس هنا يظنون أنهم بحصولهم على المال بطريقة ما فقد أصبحوا مالكين له وأيضاً فهم أحرار في التصرف فيه وهذا المفهوم للحرية في التصرف في المال الخاص مفهوم في غاية السوء وبالرغم من مجافاته للإسلام فهو مجاف أيضاً لجميع الأنظمة الاقتصادية المعاصرة فليس الفرد في النظام الشيوعي الاشتراكي ولا في النظام الرأسمالي حر في التصرف في ماله الخاص بمفهوم الحرية الشائع في بلادنا والممارس فعلاً.

فالمال في الإسلام سواء كان خاصاً أو عاماً فهو مال الله سبحانه وتعالى والناس مستخلفون فيه فقط، ومحاسبون أمام الله سبحانه وتعالى على كسبه وإنفاقه وله طرق محددة في الكسب والإنفاق، وقد ناقشنا في الحلقة الماضية طريقة الكسب عن طريقة التوظيف الحكومي وأنها تمارس بطريقة مجافية لحرمة المال العام في الإسلام، واليوم نناقش بعض الجوانب في طرق الإنفاق والاستثمار الخاص.

على الرقعة العربية الواسعة نمارس طرقاً في المال الخاص في غاية التناقض والاختلاف فبينما تمارس بعض الحكومات (اغتيال) الجهود الخاصة الفردية المنتجة وذلك بما يسمى بالتأميم فتضم مشروعات خاصة في غاية النجاح والنفع للمجتمع وتلحقها بالماكينة الحكومية الصدئة المتضخمة التالفة، نجد أن حكومات أخرى تسمح (للصوص) بسرقة المال العام إلى جيوبهم، ثم تتساهل ويسمح لهم بإنفاقه أيضاً خارج الدولة، وبذلك ترتكب الدولة معهم خطأين: خطأ سرقة المال العام دون وجه حق، وخطأ نقله إلى خارج الأمة لتقوية الأعداء.. ونحن هنا بين إفراط وتفريط، إفراط في الزعم بالمحافظة على المال العام فنكبت كل شعور بالتنافس الشريف والاستثمار الناجح للمجتمع، وبين تفريط مع اللصوص الذين يسرقون أموال الأمة العاملة ويلقون بها في بنوك الغرب ومؤسساته للإسهام في هذه الآلة الرأسمالية الاستعمارية التي تقوم بدورها بامتصاص ثرواتنا ودمائنا، أو يذهبون لينفقوها على موائد الفساد والقمار، ويظنون بهذا أنهم (أحرار) في استثمار ثرواتهم وأموالهم.

والحق أن الحرية الشخصية في التصرف في المال الخاص حرية محدودة ملتزمة بالسياسة العامة للأمة وأهدافها وهذه السياسة العامة يجب أن تنبع من إيمان الأمة بالإسلام والتزامها بأحكامه وآدابه، هذا الإسلام الذي يبني الأمة وفق نظام رباني يقوم على العزة التي كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين ويقوم على المرحمة والعدل بين الناس، وليس من العزة أن تبدد ثرواتنا الخاصة وأن نلقي بها في أيدي الأعداء ليحرقوننا بها، وليس من المرحمة والعدل أن نغتال الجهود الفردية المخلصة ولا أن نسمح لكل من حاز مالاً أن ينفقه كيفما أراد وحيثما يشاء.

وأول حق لله في المال الخاص هو حق الإنفاق على النفس والأهل بالمعروف، وليس من المعروف ما نمارسه الآن من إهدار ثروات الأمة على هذه الرياش والزينة والزخرف والترف الذي بلغ كل حد ووصف، فأواني الذهب والفضة، والأثاث الخيالي الخرافي والحمامات المزودة بصنابير الذهب، والسيارات الخيالية التي استغنى الغرب الرأسمالي عن استعمالها لتكاليفها الباهظة وابتدأ يصدرها إلى (أغنياء النفط) والمساكن (والفيلات) الخيالية وإهدار الطعام والشراب، والتنافس في الاستحواذ على المجوهرات والمصوغات الباهظة، ثم اللوحات (الفنية) التافهة، وحفلات الظهور السخيفة كل هذا ينذر بكارثة لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى مآلها ومنتهاها.

فالترف هو من أكبر عوامل الفساد والتحلل والانهيار والحضارات البائدة جميعها حضارات بادت بسبب الترف أو كان الترف أهم أسباب سقوطها، فهذا الترف يسبب الأمراض النفسية والجسمية ويملأ المجتمع بالحقد والكراهية والتفكك فمن من هؤلاء لا يفكر إلا في (ربع) الفساد والانحطاط وصدق الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٦].

وليس بالضرورة يكون التدمير بكارثة من السماء أو الأرض فالحضارة المترفة الفاسدة يدمر بعضها بعضاً لأنها تحمل عوامل سقوطها ودمارها وتلك سنة الله سبحانه وتعالى.

إننا نحتاج إلى تقييم آخر لقضية المال الخاص فنطلق أيدي المخلصين العاملين المنتجين، ونضرب على أيدي السفهاء المنحرفين وذلك أن مثل المجتمع الواحد في ترابطه وتأثر أفراده بعضهم ببعض أشبه بأصحاب سفينة واحدة، فإن عمد بعض أفراد السفينة إلى خرق مكانهم في السفينة لم يغرقوا وحدهم وإنما غرق الجميع، فهل ينتبه (ربان) السفينة العربية الإسلامية إلى الذين يهدمون في جدار هذه السفينة قبل أن نغرق جميعاً؟

١٨ مارس ١٩٧٧

البحث عن السلام عند تجار الحروب

كانت الحرب ومازالت وسيلة من أعظم وسائل الكسب وذلك بالنسبة للغالب، فالغالب يحتل الأرض وفيها الثروات والكنوز وعليها يعيش البشر الذين يسخرون ويستخدمون في خدمة السيد المنتصر وفي تحقيق مآربه وأغراضه، فما روما في التاريخ لولا الحروب، وما فرنسا وما هولندا التي كانت تستعمر شعوباً يفوق عدد رجالها بمائة مرة؟ وتستغل كنوزاً لا تساوي كنوز أرضها بالنسبة إليها شيئاً يذكر.

ولم تنته الحرب العالمية الثانية التي ما قامت إلا تنافساً بين الدول الاستعمارية على استغلال خيرات الشعوب الفقيرة المنهوكة إلا وقد نشأ نوع جديد من أنواع الحروب ولون جديد من ألوان الاستعمار، إنه إشعال الحروب بين الشعوب الفقيرة لاستعمارها واستنفاذ ثرواتها.

ولقد عمدت روسيا وأمريكا إلى هذه الحروب القذرة بعد أن تحقق لديهما أن لا طاقة لأحد منهما بمجابهة الآخر فإذا كان لابد من التوسع وجني ثمرات الحروب فلتكن بأيدي الآخرين وهذا ما يحدث الآن: تحريك العملاء من كلا الطرفين للقتال المحسوب والمقدر (وهذا في أوقات الاتفاق والوفاق)، وتربية العملاء وتدجينهم ليكونوا في خدمة المستعمر والدخول بهم في حرب الآخرين (وهذا في أوقات الاختلاف والضغوط) والمهم أن يبقى القتال والحرب إلى الحد الذي لا يجر

دول الذرة إلى الدخول في الصراع، فما الذي تستفيده الدول الكبرى من الحروب الآن؟

إن الحرب أعظم وسيلة لإتلاف أموال الفقراء ولإنهاك اقتصادهم ولترويج صناعة السلاح التي لا يحسنها الا الدول الفتية القوية وكل هذه مطالب استعمارية جهنمية.

ثم إن الحرب هي الوسيلة المثلى لتجريب أنواع الأسلحة بصورة واقعية وذلك لإجراء التحسينات والتعديلات تماماً كما تستخدم الأطباء أنواع الفيران والحيوانات لتجريب المبيدات وزرع (الميكروبات) وإذا علمنا أن سياسة العصر خالية من الأخلاق علمنا إلى أي حد لا يجد أولئك المستعمرون أي حرج أو مساءلة ضمير في فعل ما يفعلون.

أليس من الغرابة والعجب أن تسمع الآن أن (هانوي) تقيم علاقة طيبة مع أمريكا وهي التي عاشت قرابة ست سنوات تحت القصف والدمار الأمريكي، وأن روسيا تفكر الآن جادة في إرجاع علاقاتها بإسرائيل، كما كانت قبل أن تقطع، بل إن الرئيس بريجنيف لم يلق خطابه السياسي الأخير الذي رد فيه على خطاب كارتر بشأن فلسطين إلا بعد عرضه على حكام إسرائيل، وهذه الروسيا هي التي زودت العرب بأسلحة طوال ربع قرن موهمة إياهم أنها تريد إزالة إسرائيل، وما الغاية التي يحارب من أجلها الجندي المغربي (المسلم) في زائير؟

هذه الحروب المفتعلة بتحريك الدول الكبرى لعملائها لا يراد بها إلا الحصول على الغايات الآنفة من بيع السلاح، وإشغال العالم، واستنفاد الثروات والحصول عليها للمستعمر بيد أبنائها وبدماء أهل الأوطان أنفسهم وهذا أخبث أنواع الاستعمار منذ أن وجدت الدنيا.

وأما تلك الحروب التي يشعلها المظلومون لاسترداد حقوقهم فسريعاً ما يستغلها سماسرة الحروب وتجار السلاح فيأتون للمسكين والمظلوم والمضطهد ويظهرون له أنهم معه وأنهم مؤيدون لحقه ويبيعونه السلاح وقد يمدون له في الأجل ويضاعفون عليه الديون والربا إلى أن يقع نهائياً في أحابيلهم واستعمارهم، وهم مع ذلك يساعدون عدوه ويبيعون السلاح له أيضاً ويؤيدونه ثم يكتشف المتحاربون في نهاية

المطاف أنهم لم يكسبوا شيئاً وأنهم فقدوا كل شيء، وهذه حالتنا في حربنا مع اليهود، والاختلاف فقط في أن اليهود يجدون من يعطيهم مجاناً ولا نجد نحن إلا من يضحك منا ويستغل جهدنا و(عبطنا) واليوم يسعى رؤساؤنا بعد ربع قرن من البحث عن النصر والجري وراء اقتلاع اليهود من هذه الأرض إلى البحث عن السلام ووضع عصى التسيار والركون إلى الدعة والسلم، والعجيب أن ساستنا يبحثون عن السلام عند تجار الحروب تماماً كالذي يذهب ليشتري سم الفيران من عند متعهد بيع الفيران وتصديرها والذي يتوقف دخله وحياته عليها، أمريكا وروسيا أعدى أعداء السلام في الأرض لأن السلام يعني لهما أن لا بيع للسلاح ولا حصول على خيرات الآخرين، وليسوا على استعداد ليتحول مال البترول إلى صناعة تقطع الطريق على بيع صناعاتهم وتصديرها إلينا، فهم ليسوا أغنياء إلى هذا الحد، إلى الحد الذي يفقدون فيه أسواقهم وتجاراتهم ورفاه شعوبهم وتسلبهم متعتهم بعذاب الآخرين (ولا أخلاق للسياسة).

واليوم ليس أمام ساستنا إلا طريق واحد وهو أن يتحول السلاح المستورد إلى مصانع للسلاح في بلادنا وأن نتجه إلى حرب اليهود، كما ينبغي أن تكون الحرب لا كما يفرضها علينا ويحددها لنا تجار السلاح، واليوم الذي يعلم يهود فلسطين أننا لن نتخذ إلا الحرب وسيلة معهم فلن يبقى في فلسطين أحد منهم ودون حرب، واليهود أصلاً لم يأتوا إلى فلسطين إلا بمظلة إنجليزية ولم يبقوا فيها كل هذه المدة إلا بمظلة أمريكية، وإذا اتخذنا الحرب سبيلاً لاسترداد حقوقنا انقشعت هذه المظلة الأمريكية ولا بد وذلك أن أمريكا لا تلعب معنا إلا بلعبة السلام ولكن أين الحكام الذين لا يخافون على كراسيهم وأعناقهم من المخابرات المركزية الأمريكية؟

وهناك طريق آخر تنادي به إسرائيل الآن ـ وهي أكفر الناس به ـ وهي أن يجلس العرب معهم إلى مائدة مفاوضات لإقرار السلام وإذا كان الساسة العرب يأنفون من هذا الآن، فإنهم واصلون إليه حتماً ولكن في الوقت الذي سيصلون إليه سترفضه إسرائيل، لأن السلام هو أكبر عقبة في تحقيق أحلامها وبلوغها مآربها النهائية في الوقت الذي ستمتد اليد العربية لتصافح اليد الإسرائيلية، ستجد اليد العربية أن اليهود قد سحبوا أيديهم، وعند ذلك قد تأخذنا بقايا النخوة العربية وعند ذلك سنلجأ إلى

السلاح، ولكن سيكون الوقت قد فات.

وأما الطريق الثالث الذي نمارسه الآن وهو الجري وراء تجار الحروب من الروس والأمريكان لنطلب منهم السلام، فأقل ما يُقال فيه إنه طلب للشيء من غير مصدره.

والعجب أن تجار الحروب قد أتقنوا هذه التجارة إتقاناً عجيباً، فهم يفجرون الحرب في الوقت الذي يناسبهم تماماً، وبالحجم الذي يناسبهم أيضاً وإذا اختل توازن هذه اللعبة وأراد عميل أن يتغلب وينتصر على آخر تدخلوا في الحال ولبسوا لباس المصلحين الصالحين، وناشدوا الأطراف بضبط النفس وإيثار الحكمة والعقل، ثم إذا ضمد المجروحون جراحاتهم ودفنوا موتاهم، وعاد الدم إلى عروقهم افتعل تجار الحرب الأزمات وراجت سوق السلاح ونفخوا الغضب في عروق العلماء وأعلنت الحرب.

٢٧ أبريل ١٩٧٧

إلى متى نطلب حل

مشكلاتنا من الخارج؟

تشهد هذه الأيام سباقاً بين ساسة الدول العربية للحصول على التأييد المادي والمعنوي من ساسة الدول الكبرى، وقد شهدت موسكو ونيويورك وباريس ولندن وبون عدداً من الزيارات قام بها الساسة العرب لهذه العواصم.

وبالرغم من صدور تصريحات مختلفة بل متناقضة أحياناً حول هذه الزيارات ونتائجها نجاحاً أو فشلاً كالاختلاف في تحديد سنة الحل أو الحسم أو السلام والاختلاف حول التأييد المادي الذي انتهت به الزيارة فإن هذا ليس هو موضوع هذا المقال، وإنما السؤال المطروح الآن. . ما هي المنفعة الحقيقية التي يمكن أن نحصل عليها؟ وما التأييد المادي أو المعنوي الذي تستطيع به دولة من دولنا العربية أن تخرج به كنتيجة لزيارة رئيسها إلى دولة من تلك الدول؟ وإذا كنا أكثر تحديداً قلنا: ما نوع

التأييد المعنوي الذي يمكن أن تقدمه لنا الدول الكبرى في حربنا مع إسرائيل؟

والجواب أننا لا نعلم أصلاً في تاريخنا الحديث موقفاً واحداً وقفته الدول الكبرى معنا في حربنا مع اليهود قالت فيه كلمة الحق لأجل الحق أو التزاماً بالأخلاق وجميع المواقف التي وقفت فيها دولة كبرى في جانبنا كانت لمصلحة راجحة لتلك الدولة وبانتهاء المصلحة غيرت الدولة موقفها.

فبعد هزيمة ١٩٦٧م لم تبق دولة كبرى كنا نؤيدها في مواقفها إلا وتنكرت لنا وأيدت إسرائيل ونظمت المظاهرات والمسيرات احتفالاً بانتصار اليهود وعصب الشباب هناك عيونهم بعصابة (موشي ديان) ذي العين الواحدة، وكتب في كل مكان عندهم على الحوانيت والمطاعم والفنادق «ممنوع دخول العرب والكلاب» وسار رجل كجان بول سارتر ـ طالما أشاد بذكره الأغبياء عندنا ـ على رأس مظاهرة من هذه المظاهرات في فرنسا تأييداً لإسرائيل، ولم تكلف دولة عظمى نفسها حتى بخطاب تعزية أو بيان استنكار واحتجاج، بل نصحونا بأن نتلقى الضربة الأولى، فكانت الأولى والقاضية أيضاً.

ولكن هذه الأمور تغيرت جميعها بعد نصر أكتوبر، ففي أثناء هزيمة إسرائيل مكث زعيم الاتحاد السوفييتي في مصر أربعة أيام كاملة يتوسل إلينا لإيقاف الحرب، و(داخ) كيسنجر في اللف والدوران بين موسكو ودمشق والقاهرة وعمان وتل أبيب متوسلاً لإيقاف الحرب وإنقاذ إخوانه اليهود، ولم تبق دولة إفريقية كانت تؤيد اليهود إلا وقطعت علاقاتها معهم ورفعت اللافتات التي كانت تستهزىء بالعرب، وارتفع سعر النفط، وركعت أوروبا، وامتلأت صفحات الجرائد والمجلات عندنا بدعوة أثرياء النفط إلى زيارة لندن وباريس وجنيف ومدريد لقضاء أجمل الأوقات وتقديم أفضل الخدمات (وكنا بالأمس نسوى بالكلاب).

لقد كان هذا الدرس كافياً لنتعلم أن تأييد الدول الكبرى والصغرى أيضاً لا يطلب بالاستجداء، وإنما: كن قوياً يحترمك الأقوياء والضعفاء أيضاً، وكن ضعيفاً ولن تجد في هذا العالم (المادي) من يرحم ضعفك ويناصر قضيتك.

وأما التأييد فيظن البعض أن حصولنا على المعونات من الدول التي تسمى بالغنية

والقوية دليل على نجاح الزيارة الرسمية، وهذا من الأخطاء العظيمة، فالمعونات الخارجية التي تقدمها هذه الدول الغنية والقوية هي من أخبث وسائل الاستعمار الحديث، وقد ذكرنا مراراً أن السياسة العالمية الحالية سياسة مجردة عن الأخلاق ولذلك (فالمعونة) التي تأتي من الخارج ظاهرها المعونة وباطنها أبشع أنواع الاستغلال والاستعمار وما هي في الحقيقة إلا (صفقة سياسية) تفرضها دولة غنية على دولة فقيرة، فهذه المعونات تكون دائماً مشروطة بشروط سياسية واقتصادية بل وأيضاً بشروط اجتماعية وقانونية تجعل منها تماماً (طعماً) أو (شركاً) يقع فيه المغفلون. يقول (جورج وورز) المدير السابق للبنك الدولي في «المعونات الاقتصادية»: إذا استمر الحال على هذا المنوال تكون كمية رؤوس الأموال الخارجة من الدول النامية أكثر من المبالغ التي دخلتها في فترة خمسة عشر عاماً وذلك بسبب الفوائد المرتفعة. هذا إذا قارنا فقط حجم المعونة بحجم الفوائد وأما إذا علمنا أنه يستتبع المعونة غالباً آلاف من الخبراء لتنفيذ المعونة أو للتدريب على استعمالها إن كانت سلاحاً ونحوه وأن هؤلاء الخبراء يتقاضون مبالغ باهظة وأنهم يحملون معهم الجواسيس ومكاتب كاملة لجمع المعلومات، ونشر الأفكار وتجنيد العملاء علمنا بعض الشر الذي تجره المعونات الخارجية.

وقد يكون من شروط المعونة التغاضي عن بعض العملاء الذين يعملون للدولة صاحبة المعونة، ورفع بعضهم إلى مناصب قيادية معينة وليس هذا فقط، بل يكون من شروط المعونة أحياناً قتل وتشريد وتعذيب بعض الوطنيين أو استبعادهم من مواقعهم التي يخدمون دولهم منها. وقد يكون من هذه الشروط حجب تعامل الدولة التي تقبل المعونة مع دول أجنبية أخرى غير الدولة صاحبة المعونة، بل قد تشترط المعونة تأييد الدولة المتفضلة بالمعونة في مواقفها السياسية والإعلامية.. وقد يكون من شروط المعونة تغيير قوانين داخلية في الدولة وباختصار التنازل عن شرف الدولة وسيادتها وليس هناك استعمار أبلغ وأشد مكراً من هذا الاستعمار، بل ما عرف تاريخ الأرض استعماراً على هذا النحو تتنازل فيه الدولة التي تقبل المعونة الخارجية عن سيادتها فتغير قوانينها وتحدد سياستها الخارجية بما يتلاءم مع (الصديق) الذي يقدم (المعونة) بل وتقتل أيضاً أبناءها وتشرد أهل الغيرة والوطنية والشرف منهم إرضاء للصديق الذي يقدم (المعونة)..

باختصار المعونات الخارجية هي أعظم وسائل الاستعمار الحديث ولكنها تأتي في أسلوب عصري (مغلف مبطن) يأتي فيه السيد المستعمر ببعض أمواله وأسلحته ومشاريعه إلى دولة محتاجة، وفي مقابل هذا يسلب هذه الدولة المحتاجة سيادتها وثرواتها وشرفها وعزها، تماماً تماماً، كما كان السيد الإنجليزي والفرنسي يأتي قبل قرنين من الزمان يحمل في جيبه (مرآة) ثم يأتي إلى الأفريقي الساذج الذي يملك مزرعة عظيمة من المطاط أو الكاكاو فيقول له: انظر فإذا نظر الأفريقي في المرآة ورأى بياض أسنانه وحمرة لسانه وسواد بشرته تعجب جداً وتنازل للإنجليزي عن مزرعته ليحصل على (اختراعه) العجيب، لم تتغير حقيقة الاستعمار المعاصر على الاستعمار الحديث عن الاستعمار القديم وإنما تغير الأسلوب فقط، فكلمة الاستعمار نفسها كانت تعني (طلب الإعمار) وهكذا تقدم الإنجليز والفرنسيون إلى الدول الفقيرة لإعمارها وإخراجها من فقرها في زعمهم، ثم كان الاحتلال العسكري والسياسي، واليوم بعد نفرة الشعوب من رؤية جنود الأعداء استطاع الأمريكيون والروس أن يخترعوا استعماراً جديداً هو الاستعمار عن طريق (المعونة) الاقتصادية وبهذه المعونة الخبيثة تقع دولنا فريسة لأخبث ألوان الاستعمار الذي عرفته الأرض ففي مقابل بضع ملايين من الدولارات والروبلات نرهن أحياناً أوطاننا ونبيع استقلالنا ويتسلط المستعمرون على ثرواتنا.

باختصار أيضاً لا يجوز بتاتاً أن نتعامل مع الدول الكبرى إلا شراء وبيعاً وبعقود علنية وبحذر أيضاً والحمد لله في بلادنا من الكنوز ما نستطيع أن نشتغل به وأن نستغني عن هذا الاستعمار الخبيث..

وأما التأييد المعنوي فإنه لا يتأتى لنا من الدول الكبرى والصغرى إلا إذا كنا نحن أقوياء ولا يمكن أن نكون أمام العالم أقوياء وهذا عدونا يطلب الحرب أو الاستسلام ويهدد بضم ما يشاء من أراضينا ونحن نركض وراء ما نسميه زوراً بالسلام وهو في حقيقته تمكين للباطل واستسلام.

٢٩ أبريل ١٩٧٧

هذا هو اليهودي العالمي

* لم يكن عبثاً أن يشمل القرآن هذا الحشد الهائل من الآيات في شأن اليهود ففي سورة البقرة وحدها نحو من مائة وستين آية كلها حوار معهم مع العلم أن سورة البقرة كلها ٢٨٦ آية ويعني هذا أكثر من نصف أعظم سورة في القرآن شغل بالتحذير من اليهود ولبيان ما هم عليه من عقيدة وسلوك وأخلاق، ويستحيل في نظري أن يفهم إنسان على الأرض (بصرف النظر عن كونه مسلماً أو لا) حقيقة اليهود إلا إذا درس هذه الآيات، وذلك أنها صادرة من الإله الرب الذي يعلمهم على الحقيقة، ولا تكاد تخلو سورة بعد ذلك من ذكر أخبارهم أو الرد عليهم.

* والصورة التي أعطاها القرآن لليهود ليست قاصرة على حقبة معينة من أحقاب التاريخ وإنما تتبع القرآن نشأتهم منذ إبراهيم عليه السلام، ثم ابنه إسحاق ثم ابنه يعقوب وهو (إسرائيل) ثم أولاده الاثنى عشر (الأسباط) وذكر القرآن أهم حوادث تاريخهم تقريباً منذ إسرائيل إلى عهد النبي ﷺ ثم ذكر القرآن في آيات عديدة مستقبل أمرهم مع الأمة الإسلامية وجاءت السنة ففصلت ذلك إلى آخر الدنيا.

* والصورة التي ذكرها الله عنهم في غاية الغرابة فإبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء صالحون وبنو إسرائيل اختارهم الله سبحانه وتعالى لحمل رسالته، وإبلاغ شريعته للناس ولعبادة الله سبحانه وذكر الله آية أنهم اختارهم وفضلهم على العالمين كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٧] ولا شك أن هذا التفضل هو على العالمين في زمانهم فقط بدليل لعن الله لهم بكفرهم برسالة محمد النبي الذي أخذ عليهم العهد بأن يؤمنوا به، كما قال جل وعلا: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان: ١١١، ١١٢].

* وقد أخبر تعالى أن اختيارهم على العالمين كان عن علم أنهم أصلح الناس للقيام بدعوة الله في هذا الزمان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الدخان، الآية: ٣٢] أي على علم بأنهم أصلح الناس وأحق الناس في هذا الوقت بالاختيار. ثم انتهى هذا الاختيار بإصفاء الرسول محمد ﷺ وأمته من العرب ومن آمن به من سائر الأجناس كما قال جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠]، وأخبر تعالى أن اليهود الذين يقدرون معنى الإصفاء والاختيار والتكريم بالرسالة حسدوا الرسول محمد ﷺ وحسدوا العرب وسائر الشعوب على هذا التكريم ووجدوا أن احتكار الدين والرسالة والنبوة كل هذه الفترة التي سبقت محمداً ﷺ إلى زمان إبراهيم عليه السلام قد انكسر الآن، وقد خرجت الرسالة منهم إلى غيرهم فنافسوهم وحسدوهم وآثروا الكفر على الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ٨٩، ٩٠] ومنذ ذلك الوقت واليهود يحملون على عاتقهم حرب المسلمين والكيد للإسلام.

* إن عقدة الشعب المختار هي العقدة الملازمة لهذا الشعب الذي ظن أن اختيار الله له يوماً من عمره يعني الاختيار الدائم وأن تفضيل الله له للعرق لا للأعمال وللآباء لا لعمل الأفراد، وصلاح الذرية، وبدلاً من أن يبرهن اليهود على اختيار الله لهم باختيار طريقه أرادوا أن يبرهنوا للعالم أنهم قادته وموجهوه فعلاً ويبرهنوا لأنفسهم أنهم الشعب المختار فعلاً فسخروا إمكاناتهم المادية والفكرية في محاولة السيطرة على الشعوب وامتصاص ثرواتها وإضلال سعيها. لقد استطاع اليهود بالفعل أن يخرجوا مجموعة من العلماء المبرزين في علوم المادة كالفلك والرياضيات والطب والهندسة والكيمياء ويذهل المطلع الآن وهو يشاهد العدد الضخم جداً من كبار الأساتذة اليهود يتولون رئاسة الأقسام في جامعات أوروبا وأمريكا ولعل أعظم دافع دفعهم إلى هذا هو الشعور العميق بعقدة الاستعلاء على سائر الشعوب وكذلك الشعور بالمهانة والمرارة لمعاناة التشرد بلا وطن طيلة ألفي سنة. واليهود هم أساتذة المال وصيارفته وأهل الربا والقمار منذ فجر التاريخ، والسيطرة اليهودية اليوم على وسائل الإعلام من صحافة وسينما وتليفزيون، لم تصبح خافية على مطلع، وأساتذة الانحراف العالمي من أمثال فرويد، ودور كايم، وكارل ماركس، كانوا يهوداً،

واتجاه اليهود منذ فجر انحرافهم إلى اليوم إلى استخدام المرأة في الحصول على المال غير خاف على مطلع أيضاً.

* واليهود يحملون في رؤوسهم ويحتفظون وفق توراتهم وتلمودهم بأفكار هي غاية في الإجرام والاستعلاء، ويحلمـون بمقتضى هذه الأفكـار بقيادة العالم والتحكم في جميع الشعوب، ويخطىء من يظن أنهم قد تخلوا عن هذه المعتقدات والأفكار وذلك أنها أفكار حية وهي جزء من كيانهم وممارساتهم اليومية وتعليمهم الإلزامي.

* ولقد استطاع اليهود أن يغلفوا أنفسهم طيلة تاريخ تشردهم بغلاف الحمل الوديع المستضعف الذي تريد الذئاب أن تعدو عليه، ولقد صدقت هذه الشعوب التي ابتعدت عن دراسة الأديان وقراءة التاريخ، والذين فضحوا اليهود لاقوا مصيراً واحداً تقريباً من التشويه والدسائس والاغتيال.

* وبالرغم من التعمية الهائلة التي يمارسها اليهود على معتقداتهم وأفكارهم ومخططاتهم فإن بوادر كشف هذا السخف قد بدا في الأفق ولا شك أن ظهورهم في فلسطين على هذا النحو الوقح سيساعد كثيراً على فتح العيون التي أغلقت طويلاً وفتح القلوب المغلقة التي ظنت أن اليهود قد تركوا معتقداتهم وتوراتهم منذ زمن طويل، ولا شك أيضاً أن معركتنا مع اليهود طويلة جداً وأننا لن ننتصر عليهم إلا إذا واكب الاستعداد العسكري استعداد إعلامي وتعليمي هائل لمعرفة من هم اليهود وكيف نشأوا وكيف ساروا في تاريخهم وإلى أين يسيرون وكيف يفكرون ويخططون؟ فهل ستتجه وسائل الإعلام في بلادنا إلى دراسات وافية حول ذلك؟ وهل ستتجه الجامعات والمدارس إلى التعريف باليهود والتحذير منهم ومن شرورهم كما ينبغي؟ لقد ابتدأت وتنبهت جامعات في أوروبا الآن لدراسة (ظاهرة) اليهود والتحذير منها ـ وكنا نحن الذين يحمل قرآننا تعريفاً كاملاً باليهود ـ أولى الناس بذلك فهل سنظل ننتظر التعريف الحقيقي باليهود حتى يأتينا من الغرب أيضاً، من العجيب أننا نواجه اليهود عسكرياً في فلسطين منذ أكثر من ستين عاماً ومازالت معلوماتنا العامة عن اليهود في غاية الضعف فإلى متى؟

٨ يوليو ١٩٧٧

أنقذوا الفلسطينيين في الأرض المحتلة

قبل فوات الأوان

الذين يظنون أن مذبحة دير ياسين التي نفذها مناحيم بيغن ومنظمته كانت إرهاباً مستنكراً ومرفوضاً عند اليهود مخطئون، وذلك أن قتل النساء والأطفال والرجال دين يتقرب به اليهود إلى الله بزعمهم ورفض اليهود أو بعضهم لهذا الأسلوب الهمجي يعتبر ردة ونكوصاً عن اليهودية، التي بأيدي اليهود اليوم. وقد أسفرت إسرائيل عن وجهها العقائدي صريحاً في هذه الأيام وقد كانت تخفي هذا من قبل، فتدشين بيغن لمستعمرة (قدوم) بالقرب من سبسطية (السامرة) كأول عمل سياسي له، وأخباره أن الضفة الغربية أراض محررة لأنها أراضي يهودا والسامرة وأنها جزء من أرض التوراة ووطن اليهود، وتشكيله حكومته مع الحزب الديني اليهودي، وإطلاق يد هذا الحزب مع جماعة غوش إيمونيم في التعليم والداخلية والثقافة الدينية، يعني الالتزام الكامل بالشريعة اليهودية. وإقصاء الوجه اللاديني الذي تستر خلفه حزب العمل في السنوات الماضية. فإسرائيل التي كانت تحارب في الماضي للحصول على وطن تجمع فيه شتاتها وتحمي فيه اليهود من الاضطهاد في الأرض وبذلك استدرت عطف العالم الذي لا يفقه كثيراً العقيدة اليهودية قد غيرت لونها الآن وتريد أن تظهر أمام العالم بأنها صاحبة الحق الإلهي في سكنى فلسطين، وهذا الحق الإلهي في سكنى هذه الأرض ـ بزعم اليهود ـ يخول لهم استئصال سكان فلسطين مهما كانت جنسياتهم وألوانهم.

وعندما اعترض كارتر في أمريكا على زعامة بيغن لإسرائيل قال بيغن إن كارتر مؤمن وهو يقرأ التوراة. . فما الذي في التوراة يبيح لبيغن أن يتزعم إسرائيل؟ ويجعل من ماضيه ـ المستنكر عالمياً ـ ماضياً مشرفاً وإنجازاً دينياً؟. . لنقرأ هذه النصوص من التوراة المزورة بأيدي اليهود. . تصف التوراة دخول يوشع إلى (أريحا) وهي المدينة الأولى التي دخلوها مقاتلين بعد التيه «وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة، وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (يشوع الإصحاح السادس) والتحريم

هنا يعني الذبح. وقد يظن أن هذا كان انتقاماً أو خطأ بل هو شريعة مقررة وهي عندهم أجدى وصايا الله لإسرائيل (يعقوب) بزعمهم.

ففي سفر التثنية (التشريع) الإصحاح السابع ما يأتي:

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها (يعنون أرض فلسطين) لتمتلكها، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين، والحراشيين، والأحوريين، والكنعانيين، والفريزيين، والحوريين، والبيوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم. .» وقد مضى تفسير التحريم وهو يعني القتل بالسيف، ولذلك ذبح اليهود النساء والأطفال بالسكاكين في دير ياسين مع إمكان القتل بالرصاص ولكن ليكون التنفيذ حرفياً.

والعجب كل العجب أن توراة اليهود المزورة تجعل القتل الجماعي هذا لسكان فلسطين فقط وأما شعوب الأراضي الأخرى المجاورة لفلسطين والتي من الممكن أن تستولي عليها اليهود، فإن التوراة لا ترى واجباً في حقهم إلا قتل الذكور فقط وهاك النص من التوراة:

«وحين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما». . (لاويين ٢٠)، وفي هذا النص مجموعة من الأحكام اليهودية وهي أن من دخل من الشعوب الفلسطينية صلحاً مع اليهود كان هذا الشعب للتسخير والاستعباد، وأما من إذا قاومت الغزو وحاربت فيجب إبادتهم جميعاً (فلا تستبق نسمة ما) وأما إن كان من الشعوب البعيدة عن فلسطين فالقتل للذكور فقط إن حاربوا والاستعباد إن دخلوا سلماً وصلحاً. فهل فهم السادة العرب من مريدي الصلح مع اليهود ماذا يعني اليهود بالصلح؟! وهل فهم السادة العرب لماذا كانت تصر جولدا مائير على أنه لا يوجد

هناك شعب يسمى بالشعب الفلسطيني!! أي أن وجوده محكوم عليه بالفناء والزوال!!

قد يستغرب البعض هذه التعاليم مع العلم أنها قطرة من بحر التعاليم (الرجعية) وهؤلاء المدافعون عن اليهود أكثر من اليهود أنفسهم أقول لهؤلاء لا يجوز أن تكونوا يهوداً أكثر من اليهود أنفسهم، فاليهود أنفسهم قد أعلنوا أنهم متمسكون بأحكام التوراة وأنهم ما أتوا إلى فلسطين إلا بناء على وعدها المقدس، ولم يذوبوا في العالم كل هذه المدة إلا إيماناً بهذه التعاليم وتصديقاً لها، وهم ينفذون منها ما تسمح لهم الظروف بذلك. ويوم يملكون القدرة على التنفيذ فلن يتأخروا مطلقاً، وأنا أتحدى أن يعرض على قادتهم ورؤسائهم هذه التعاليم وينكرونها ويتبرأون منها، وقد شاهدنا كيف ينفذونها بكل أمانة ودقة. ولا أقول أيضاً بأن كل يهودي كذلك فليس هناك مطلق أبداً في الأرض، بل من اليهود من يكفر بهذه التعاليم ويستقبح أن يفعل مثل ذلك ولكن هؤلاء اليهود الذين ينكرون هذه التعاليم محكوم عليهم بالإعدام والقتل في إسرائيل وقد يعيشون خارجها.

* واليوم تقف المنطقة كلها على شفير الحرب، هذه الحرب التي قلنا منذ عام ونصف في هذه الزاوية أنها حتمية وأنها الطريق الوحيد أمام اليهود، وذلك أن الصلح والرجوع إلى حدود ١٩٦٧ يعني نهاية أحلامهم أو على الأقل تقهقرها إلى الحد الذي يعني هجرة معاكسة وكبتاً للآمال اليهودية العريضة ويوم نضطر اليهود إلى ذلك سيقولون كما قال أستاذهم اليهودي الأول (شمشون): «علي وعلى أعدائي يا رب» ولذلك فتفادي مخاطر هذه الحرب بكل ما أوتينا من قوة واجبنا الآن. ومن هذه المخاطر التي يجب أن نضع لها ألف حساب إحراق بعض النفط العربي وإشعال الأرض على رؤوس أصحابها، ولو كانت أمريكا تملك البديل من الطاقة عن النفط العربي لطالته اليد الإسرائيلية وذلك أنه هو سبب همومها ومشاكلها اليوم بما أعطى العرب من قوة ونفوذ في العالم ومال لشراء السلاح. ومن هذه المخاطر وهذا هو موضوع تحذيري اليوم (تنظيف) أرض فلسطين من أهلها وستكون الفرصة مواتية لهؤلاء الوحوش تحت غطاء الحرب السريعة المرتقبة وإذا كانت مذبحة دير ياسين قد أفادت في تهجير ١٣٦ ألف فلسطيني فإن مذبحتين أو ثلاثاً في الأرض المحتلة قد

تكفي لتهجير نصف مليون أو المليون الموجود داخل إسرائيل الآن وهو السبب الثاني لنكدها ومشاكلها. ولذلك فيجب على كل أولياء الأمور من الساسة العرب وضع الاحتياطات من الآن لحماية مليون أعزل تحت احتلال اليهود. وأما ضرب القوة العسكرية العربية فهو بالحسبان، والشيء الرابع هو المخيمات والقرى الفلسطينية خارج إسرائيل وسكاكين الانعزاليين تحد الآن لتشارك في المذبحة..

وأخيراً لعلي لم أسرف في التشاؤم، والحذر مطلوب، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٧١] ولكن أين المؤمنون؟!!

٢٤ يونيو ١٩٧٧

إلى الذين أعطوا اليهود

«صك غفران»

عندما قرر اليهود بناء دولة لهم في فلسطين أعلنوا للناس جميعاً أنهم شعب مضطهد مشرد بحاجة إلى وطن يؤويه وحكومة تنشر أمجاده القومية وتحافظ على مآثره الروحية. وأن فلسطين وطن بلا شعب وقد انطلت هذه الأكذوبة الخبيثة على العالم الغربي والشرقي في ذلك الوقت ولاقت عند الفرد النصراني هوى وراحة فقد رأى أن في قيام هذه الدولة ثأراً جديداً للحروب الصليبية القديمة، وتنفيساً عن عقدة الذنب تجاه اليهود الذين ظلموا في أوروبا وروسيا القيصرية دهورا من عمرهم وتمزيقاً لأمة يمكن أن تنافسهم في السيطرة على العالم لما لها من ثروات وفيرة وموقع ممتاز، وحضارة سالفة وكثافة سكانية كبيرة. وكان وعد بلفور الذي أعتبر أول وثيقة سياسية رسمية تعترف بآمال اليهود هذه وأمانيهم التي كانت في وقتها ضرباً من الخيال والخرف والإيمان المطلق بالغيب الذي ينكره الغرب.

ولكن بالدأب والصبر والتخطيط الرهيب استطاع اليهود خداع العالم بأسره في جريمة لا مثيل لها في التاريخ اللهم إلا في هجرة الأوربيين إلى أمريكا وإبادتهم شعبها (الهنود الحمر) وبنائهم دولتهم على عظام هذا الشعب ورفاته. هذه الجريمة تتمثل باختصار في

تهجير شعب كامل من أرضه وتشريده في العالم وبناء دولتهم على أنقاضه ورفاته.

ولا يخفى على مطلع أسلوب المكر والدهاء والخبث الذي وصل اليهود به إلى هذه الغاية. فالإعلام الناجح لليهود الذي صورهم دائماً بصورة المستضعف الذي يريد السكن والمأوى، والمسالم الذي يريد السلام وينشر الحب والإعمار، وتصوير أعدائهم (نحن) بصورة الوحش الضاري الذي يريد افتراسهم وطردهم من أرض آبائهم وأجدادهم والذي يريد إبقاء أرض تحت ملكه لا يستفيد منها ولا يزرعها ولا يستغل ثرواتها بل هو في غنى عنها كل هذا أعطى العالم صورة عن شرعية عمل اليهود في فلسطين ووجوب بقائهم فيها وعقلانية إقامة دولتهم عليها. هذا الإعلام الخارجي الناجح انضم إليه العمل الداخلي الدائب في تزهيد الفلسطيني في أرضه، وتشريده منها: بالإغراء تارة، وبالتهديد والتخويف تارة أخرى، وبدفنه فيها تارة ثالثة، ثم عمل اليهود الحثيث على مستوى الدول العربية هذه الدول التي توجب وصية على هذا الشعب وذلك بإقامة الجامعة العربية. وعمل هذا الوصي (الجامعة العربية) منذ تولي هذه الوصاية بمنتهى الغباء والسذاجة. (ومسلسل هذا العمل يطول شرحه)، المهم أن اليهود استطاعوا في توجههم بالعمل نحو البلاد العربية، تمزيق هذه الدول، وإشاعة الفتنة والفوضى فيها وإشغالها بمشاكلها الداخلية عن عدوها الحقيقي، وعن غنيمتها التي تهضمها في بطء وشراسة.

ومسلسل الحروب الهزلية التي تتابعت بين الدول العربية واليهود قد أوصلتنا ـ وهذا هو المهم ـ إلى مراد اليهود النهائي وهو إقامة دولتهم في فلسطين واعتراف العالم أولاً بها ثم التصديق والاعتراف من الدول العربية التي كانت وما زالت تدعي الوصاية والحماية لأرض فلسطين وشعب فلسطين. أقول المهم أننا وصلنا ـ بعد أربعة حروب هب أن النصر كان في ثلاث منها لليهود وفي الرابعة لنا ـ إلى مراد اليهود النهائي الذي وضعوه يوم ركبوا سفنهم متوجهين إلى فلسطين لإقامة دولتهم المنشودة والتي كانت يومذاك في ضمير الغيب.

والآن يريد اليهود الحلقة النهائية من مسلسل أكبر أكذوبة عرفها العالم، ولا أريد أن أقول أكبر ظلم عرفه أيضاً، والذين يريدون اليوم أن يبرموا «صك الشرعية» لليهود ويعطوهم فلسطين ويقروهم على البقاء بها وجمع يهود العالم في كل مكان إليها

نحب أن نذكرهم بما يأتي:

أولاً: الجرائم التي ارتكبها اليهود على هذه الأرض أكبر من أن يمنحوا معها «صك غفران». فدماء شهدائنا لم تجف بعد والثكالى اللاتي يبكين أبناءهن وأزواجهن لم تنقطع دموعهن والولدان الذين ينتظرون عودة آبائهم من المعارك مازالوا ينتظرون ولم يكبروا بعد، والشعب المشرد ـ وإن أكرهتموه لفظاظته أحياناً ـ مازال مشرداً بعد، وإذا علمتم مآسيه غفرتم فظاظته وثورته، ولا يجوز بتاتاً وقد نصبكم هذا الشعب أو نصبكم الإنجليز عندما أسسوا الجامعة العربية أوصياء عليه أن تفرطوا في هذه الوصية وأن تعطوا اليهود «صك غفران«لكل هذه الجرائم والمآسي.

ثانياً: الشريعة التي تستندون في حكمكم عليها لا تعطي المغتصب حق الملك، ولا توجد شريعة في الأرض ترضى بهذا، والسلم والصلح الذي تلوحون لنا به ما وهو إلا إقرار للمغتصب، وتمليك للظالم، فعلى أي شريعة ستستندون في هذا؟ شرعة الإسلام تأبى، وليس هناك شرعة في الأرض أو قانون يقول إن الغصب من طرق التملك، اللهم إلا أن تسموا هذا الغصب بالواقعية، ونحن نقول إن الظلم إذا وقع فلا يكون حقاً بمجرد وقوعه، بل هو ظلم أيضاً وغصب فنحن معكم نعترف بالواقع وأن دولة اليهود قائمة الآن، ولكننا نفترق عنكم في أنكم تقولون إن دولتهم مادامت قد قامت فهي حق ويجوز أن تعطى صفة الشرعية، ونقول إن دولة اليهود باطل واقع ويجب أن يأتي اليوم الذي تزول فيه، وقد علمنا الله أن نكفر دائماً بالباطل فالشرك باطل وهو واقع ولا ينكر وجوده إلا مكابر، ولكن أمرنا بجهاد الباطل باليد واللسان والقلب وإقرار الباطل لا يجوز في شرعة الإسلام، فإذا قالت الدول الكبرى «روسيا وأمريكا» أن إسرائيل وجدت لتبقى وهي حق لأنها قائمة قلنا لهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وإسرائيل باطل وإن كانت قائمة، لأنها قامت على الباطل والكذب والغش والخداع، وشريعتنا لا تبرر الكذب والغش والخداع بمجرد وقوعه.

ثالثاً: إلى الذين يريدون إعطاء اليهود «صك غفران» ماذا سنقول لأجيالنا الذين نعلمهم أن وعد بلفور وعد مشؤوم ووعد آثم وجريمة نكراء و. . و. . إلى آخر هذا الهراء الذي نردده على أسماع أبنائنا كل يوم وما جريمة وعد بلفور أمام صككم الذي تريدون عقده وأمام جريمتكم التي بيتم أمركم على ارتكابها، إن أصغر طالب في

مدارسنا سيقول لأستاذه غداً: أستاذي إذا كان بلفور الإنجليزي قد عطف على أماني اليهود في إقامة دولة لهم في فلسطين فقد اعترفنا نحن بهذا الحق وأيدنا اليهود في هذه الأمنية! أتريدون منا أن نكابر ونقول: لا وعد بلفور آثم، «وصك الغفران والملكية» الذي تزمعون إبرامه لليهود حق ونصر وفتح مبين!! اتقوا الله في عقولنا يا قوم!! أم تريدون أن نمحوا تراثناً كله وأن نبصق على شعرائنا السالفين ومفكرينا الغابرين، وقادتنا المخلصين، بل أن يبصق عليكم أنتم لأننا ما صفقنا لكم إلا على أمل أن تحرروا أرضنا وتعيدوا مجدنا وتنتقموا لأطفالنا وثكلانا وتعيدوا تاريخ أمتنا؟ ألا تذكرون أن حناجرنا التهبت من الصراخ بحياتكم عندما أعلنتم ذلك، وأيدينا احترقت من التصفيق لكم عندما ظننا أن فيكم لمحة من خالد وطارق وعمرو وسعد، أتريدون أن نتهم عقولنا وأن نقول: لقد كنا وإياكم في ضلال مبين؟

رابعاً: نحن نسأل: من فوضكم في بيع حضارتنا على هذا النحو وفي هدم تاريخنا بهذه السهولة؟ لا أظن عربياً واحداً فضلاً عن أن يكون مسلماً يرضى بأن يقر الباطل بالصمت فضلاً على أن يقره بالكتابة والعهد.. إسرائيل أكبر أكذوبة عرفتها الأرض ولا ننكر أنها أكذوبة واقعة ولكن لابد أن يأتي اليوم الذي يفيق فيه العالم أجمع من سكرته وخمرته ومن تأثير هذا اللعب السحري اليهودي الذي خلب الأبصار وأعمى العيون، ونحن نعلم أيضاً أن زوال هذه الأكذوبة لن يكون إلا على أيدي المؤمنين الذين يعلمون كيف يفرقون بين الكهانة والدين، وبين السحر والمعجزة وبين الفتح والظلم، وبين الحق والباطل.

خامساً: إذا كان الفلسطينيون قد ألجئوا بفعل الظلم الذي وقع عليهم من كل جانب أن تكون آخر أمانيهم عظمة من يد اليهود تسمى الضفة الغربية وغزة فحذار في مقابل هذه العظمة الجافة أن يعطوا عدو الله وعدوهم تنازلاً شرعياً عن فلسطين، وليس هناك فيما أعلم فلسطيني حر يقول إن لليهود شرعية وحقاً في إقامة دولة لهم في فلسطين، والذين يريدون أن يتستروا وراء «الفلسطيني» الذي أهلوه لتوقيع هذه الوثيقة الظالمة إنما يرتكبون أكبر جريمة في حق أنفسهم وأمتهم.

سادساً: يجب أن نعلم أن الكهانة الدينية التي سوغت لبعض رهبان «النصارى» إعطاء بعض البشر جوازات مرور إلى الجنة ومنحتهم عفواً شاملاً عن جميع خطاياهم

على الأرض، وذلك في مقابل عرض من الدنيا كان يأخذه الكاهن.

أقول يجب أن نعلم أن الكهانة السياسية التي تمارس الآن أعظم جرماً من تلك الكهانة الدينية التي نستنكرها جميعاً اليوم، فاحتكار الصواب الذي تمارسونه، وتربية شعوبكم بمبدأ: آمن يا بني فما يقوله الرؤساء حق وإلا كفرت!

ولا تعترض فتنطرد، ولا يفهم في السياسة إلا أهل السياسة.. الخ هذا الفكر البغيض الذي يمارس الآن كل هذه القواعد الكهنوتية إذا ظننتم أن الشعوب قد هضمتها وآمنت بها فأنتم مخطئون.. وإنه لمن السذاجة أن تظنوا أنكم تستطيعون إبرام الصكوك الآثمة وعقد العقود الجائرة وأكل ثمنها المحرم ولا يجرفكم تيار الحق.

٧ يناير ١٩٧٧

خدعوك فقالوا «اعرف عدوك»

* يبدو أننا الآن بحاجة إلى الاعتقاد بأن اليهود هم أخطر عدو نجابهه في الوقت الحاضر، فهذا العدو بلا نزاع هو السبب الأكبر لمشكلاتنا الاقتصادية والسياسية وكذلك النفسية والخلقية وبيان ذلك أن مشترياتنا من السلاح ما هو موجود بحوزتنا، وما ضاع منه في جبهات القتال، وما ينتظر أن ننفق فيه بلايين الدولارات ما هو إلا لمواجهة هذا الخطر الأكبر، وما فقدناه من شهداء وقتلى ومشردين ومن ديار وأوطان لا تقدر بأموال ويستحيل التعويض عنها. واليهود هم أكبر مشاكلنا السياسية فالزوابع السياسية التي تتعرض لها منطقتنا الإسلامية العربية مرتبطة أساساً بالأوضاع الصهيونية اليهودية، فالانقلابات والانقلابات المضادة ـ كانت تحمل شعار إخراج اليهود من فلسطين ولا تقدم مبرراً لاستيلائها على الحكم أعظم وأحظى عند العامة من عزمها على ما يسمى باسترداد (الكرامة العربية) وتخليص الأمة من شر اليهود، وكذلك الثورات وثورات التصحيح، وتصحيح التصحيح، والأحزاب السياسية على اختلاف انتماءاتها من اليمين إلى اليسار وقد ركب جميعها الموجة الفلسطينية للوصول إلى الشهرة والحكم، وبقاء أي حاكم في العالم العربي على كرسيه منوط بتمسكه دائماً

بالحق الفلسطيني وحرب اليهود وتحقيق النصر عليها. باختصار مشاكلنا السياسية كلها مرتبطة بوضعنا مع اليهود وستظل هذه المشاكل السياسية ما بقي اليهود في هذه الأرض وسيكون البيان الأول في كل ثورة وانقلاب في المستقبل متضمناً حرب اليهود وإخراجهم من فلسطين.. وكذلك الأمر في مشاكلنا النفسية فالآثار النفسية التي أحدثتها الهزائم المتكررة أمام اليهود ماثلة دائماً أمام أعيننا، والانفصام النفسي بين الشعوب والحكام لا يحدثه إلا التهاون في هذه القضية، والشعوب العربية تتقبل ظلم الحكام وبطشهم وتجويعهم ولا تتقبل ولن تتقبل سكوتهم عن بقاء اليهود في فلسطين.

هذه جوانب سريعة توضح إلى أي مدى تؤثر المشكلة اليهودية على حياتنا الاقتصادية والسياسية والنفسية.

* ولأن هذه المشاكل بهذا الحجم والتأثير لا أقول على نواح من حياتنا فقط، بل على وجودنا وبقائنا في هذه الأرض، فنحن الآن مع اليهود على مفترق الطرق: فإما إلى الخلوص من هذه المشاكل بإقرار اليهود في فلسطين، وإبرام صك الشرعية اليهودية لهم في هذه الأرض وقد ذكرنا في مقالات كثيرة ماذا يعني هذا. وباختصار لا يعني هذا إلا نهاية لهذه الأمة وإدخالها في نير الاستعباد ما بقيت.. ويأبى الله والمؤمنون ذلك. وأما مواصلة السعي في طريق إزالة هذه الجرثومة الخبيثة والمرض الفتاك. وهنا لابد من وقفة وسؤال: كيف يمكن ذلك والمشاهد أنه في خلال ربع قرن تتعاظم قوة اليهود بإزاء قوتنا ولولا أن الله قدر لنا قوة ما سعينا إليها ولا حسبنا لها حساباً وهي قوة النفط لكان اليهود معنا اليوم في شأن آخر؟.

والجواب أن تعاظم قوة اليهود كان مردها في كل الأحوال إلينا لا إلى اليهود، فإسرائيل وهم صنعناه بأيدينا، وثبتناه بأخطائنا، وبخيانة الخائنين منا، هذا نقوله أولاً قبل أن نلقي اللوم على الاستعمار الإنجليزي ثم الأمريكي، فلا ينكر إلا مكابر دور انجلترا ومعها دول الاستعمار الأوروبي قاطبة ثم دور أمريكا بعد ذلك، ولا ينكر إلا عميل كذاب دور المعسكر الشيوعي في خلق إسرائيل ومساندتها والحفاظ عليها إلى اليوم. أقول قبل أن نلوم أولئك جميعاً فلنقف أولاً مع أنفسنا ولنعدد أخطاءنا ولنستفد من دروس الماضي وأولى هذه الأخطاء في نظري تحتاج إلى مراجعة هذه العبارة

الصادقة «اعرف عدوك» والتي استخدمها أناس لا يعرفون العدو فضلُّوا وأضلُّوا وساهموا في الهزائم المتكررة لنا أمام العدو عسكرياً وسياسياً وإعلامياً. . فالمعلومات التافهة والمبتورة أفسدت رؤية شعوبنا لليهود، والمعلومات المبالغ فيها أيأست كثيراً منا في تحقيق النصر على اليهود وساعدت في خلق اليهودي الخرافي عندنا، وكذلك المعلومات المشوهة لليهودي الجبان ولقوته واستعداداته الهزيلة ولقوة العرب الهائلة وذلك قبل هزيمة سنة ١٩٦٧ كانت من أهم أسباب تلك الهزيمة، ولذلك أصيبت مجموعة المثقفين وقراء الصحف وكتاب المقالات والأدباء بالانهيارات العصبية والاهتزازات النفسية بعد الهزيمة وذلك للصورة المشوهة والمعلومات المغلوطة عن قوة اليهود وقوة العرب، ولو كنا نرى الأمور على حقائقها لما أصيب منا هذا العدد الضخم بما أصيب والذين كانوا يفهمون الواقع كما هو قالوا لن ننتصر في معركة سنة ١٩٦٧م وكان كاتب هذه السطور بحمد الله واحداً من هؤلاء. المهم أن الرؤية الزائفة التي يخلقها الإعلام في البلاد العربية لليهود هي من أكبر عوامل الهزيمة، بل لعلها أكبر عوامل الهزيمة على الإطلاق، وذلك أن المواقف العسكرية والسياسية لا تتخذ إلا وفق المعرفة بالعدو وإذا كانت هذه المعرفة معرفة زائفة مغشوشة كان الموقف العسكري فاشلاً وكذلك الموقف السياسي.

وبالرغم من أنني لن أقدم رؤيا صحيحة وتصوراً كاملاً عن اليهود في مقالي هذا ـ ولا أزعم أيضاً ـ أنني أملك هذه الرؤيا وهذا التصور، ولكنني أعتقد أنني أستطيع أن أقدم جوانب صحيحة علمية لهذه الرؤيا ولعل ما قدمته سابقاً في هذا المنبر ساهم إلى حد ما في هذا وأرجو أيضاً أن أوفق مستقبلاً في بيان جوانب جديدة. أقول بالرغم من كل ذلك فإنني أحذر من الإعلام الناقص والمغشوش والمزور الذي يقدم تحت عنوان «اعرف عدوك» ومن هذا الإعلام المغشوش أن إسرائيل منهارة اقتصادياً وأنها لا تستطيع أن تبقى إلا بالمساعدات. فالحقيقة غير ذلك فهي أغنى دولة أوروبية وعجزها في مدفوعاتها غير حقيقي، وذلك للتسليح الخرافي الذي تتسلح به، وهي دولة مصدرة للسلاح وتستطيع أن تعيش على ذلك، وكذلك من الإعلام المزور أن إسرائيل هي بنت الاستعمار أو (ولد) أمريكا المدلل وهذا لا يمثل من الحق شيئاً، وقد فصلنا هذا بحمد الله في مقال آخر. فإسرائيل لص وعميل يعمل للآخرين، ويسرق لنفسه، وهي دولة مستقلة، بل لعلها أعظم استقلالاً من دولة كبريطانيا الآن،

ومن أكبر الكذب والافتراء والإعلام الزائف أن إسرائيل دولة تبحث عن السلام، وترضى به، بل هي دولة وشعب لا يعيش إلا بالحروب، وللحروب والفتن، ولذلك فالسلام لا يعني إلا نهاية هذه الدولة، وتفرق هذا الشعب. ومن أكبر الغش التفريق المزعوم بين الصهيونية واليهودية فمع إيماننا أنه ليس كل يهودي صهيوني فنحن نؤمن أيضاً أن اليهود الذين يعتقدون بالصهيونية هم في إسرائيل قلة وشذوذ الشاذ لا يخدش القاعدة وهم يوصمون بالخيانة داخل المجتمع الإسرائيلي، ولذلك فالتزوير الذي مارسه شيوعيو البلاد العربية والذين روجوا لهذه الأكذوبة قد ساهم في إشاعة القول بإمكان تخليص إسرائيل الصهيونية والبرجوازية الحاكمة.. الخ هذه الترهات. ومن الإعلام الناقص أيضاً إطلاق القول بامتلاك إسرائيل للأسلحة الذرية دون بيان جوانب الصورة الإسرائيلية الكاملة وهي أن هذه الدولة وإن ملكت الأسلحة الذرية، فإنها تملك موقفاً هشاً وواقعاً أليماً وستقضي على نفسها قبل أن تقضي على غيرها، ولذلك فالقنبلة الذرية لن تمد في عمر إسرائيل ولن تمنع بطش الله بها يوم يتجه المؤمنون به في الطريق الصحيح، وهذا وغيره كثير نسمعه كل يوم وهو يشوه الصورة الحقيقية للدولة اليهودية وللإنسان اليهودي وبذلك نخطىء في وضع حساباتنا مع هذا العدو، فمتى يوضع لنا إعلام سليم صادق لنعرف أعداءنا؟ وما القواعد التي يجب أن يتبعها هذا الإعلام لتعريفنا باليهود؟ ولهذا مقال آخر إن شاء الله تعالى.

لماذا يتهالك الشيوعيون على الصلح مع إسرائيل؟

لا يشعر كثير من المثقفين بالغرابة إذا علموا أن (المتآمرين) منا يهشون ويبشون للصلح مع إسرائيل ولكن قد يصابون بالدهشة إذا علموا أن (المتمركسين) منا أشد تلهفاً على الصلح مع إسرائيل، ولا عجب في كلا الأمرين.

كتب أحمد حمروش في روز اليوسف الاثنين ١٠/١/١٩٧٧ مقالاً يفلسف فيه خيرات الصلح وبركاته على كل من العرب واليهود فيقول: «ستظل المنطقة بلا سلام مثل المريض الذي تنتابه رعشة الحمى مرات ومرات«!! وهكذا يصور الكاتب أن

الحروب التي خاضتها هذه الأمة كانت رعشات حمى أي ظاهرة مرض ولم تكن ظاهرة صحة لأمة تدافع عن شرفها وأرضها وتراثها ونسائها ورجالها، ثم يدعونا إلى ترك هذا المرض والهلوسة وإلى أن نستعمل العقل فيقول: «ولا شك أن النظرة المتعقلة للأمور سواء في الدول العربية أو إسرائيل لا بد أن تدرك أن السلام ضرورة حيوية وهامة لبناء المجتمع». هكذا ينصح الأستاذ أحمد حمروش العرب وإسرائيل بأن يتعقلوا ليبدأوا في بناء مجتمعهم ويذكر السبب في هذا فيقول: «إن أعقد ما يعرقل عملية النمو الاقتصادي هو سباق التسليح الذي ينهك الميزانية، ويجعل للأسلحة أسبقية على بناء المساكن والمدارس والمستشفيات، ويحيل المنطقة إلى (مستودع بارود) يهدد أمن شعوبها ويعرض سلام العالم للخطر». وهكذا ينصحنا الكاتب بترك التسليح والاستعداد لبناء المساكن والمستشفيات جنباً إلى جنب مع اليهود الغازين الغاصبين المستعمرين.

ثم بعد ذلك يوجه نصحاً خاصاً إلى اليهود (أبناء العم) فيقول لهم: «ولن يكون السلام الذي يمكن أن يتحقق في جنيف خيراً للعرب وحدهم ولكنه سوف يكون خيراً أيضاً لشعب إسرائيل»!! هكذا والله.

ثم يستطرد الكاتب أحمد حمروش فيبين بركات الصلح مع اليهود خاصة فيذكر من هذه البركات أنهم سيستطيعون بالسلم بناء إسرائيل الكبرى وذلك أن الهجرة المعاكسة سببها الحرب وأنه إذا استقر السلام انتفت هذه الهجرة واستطاعت إسرائيل إقناع يهود العالم بالسفر إلى إسرائيل ليس يهود روسيا وحدهم، بل أيضاً يهود فرنسا وأمريكا. يقول بالحرف الواحد بعد النص الآنف: «والحلم الصهيوني بأن يحتشد يهود العالم في أرض إسرائيل يثبت مع الأيام وقسوة الحروب أنه وهم كبير فهجرة ٢٠٠.٠٠٠ إسرائيلي إلى أمريكا في تيار هجرة مضادة متزايد، وانخفاض نسبة المهاجرين من اليهود من الاتحاد السوفيتي ورفض أغلبيتهم (٦٠٪) الذهاب إلى إسرائيل وتتالي صدور قوانين حق عودة اليهود إلى الدول العربية، كل ذلك يؤكد أن الصهيونية تحكم على إسرائيل بأن تتحول إلى (جيتو كبير) والحقائق تثبت أن حلم الصهيونية لم يقنع يهود فرنسا وأمريكا بالرحيل إلى إسرائيل» أ.هـ، وهكذا ينصح الكاتب الصهاينة بألا يضروا بأحلامهم بواسطة الحرب وليقبلوا السلام لأنه الوحيد

الكفيل بتحقيق طموحاتهم وأحلامهم وهجرة يهود العالم أجمع إلى فلسطين.

ثم لا يكتفي أحمد حمروش بهذا بل ينصح إخوانه اليهود بأن لا يضيعوا الفرصة على اليهود الرأسماليين الأمريكيين باستثمار أموالهم في بلاد النفط. فبعد أن يذكر أن في إسرائيل تيارين، تيار يريد الصلح وتيار يريد الحرب يقول: «ويثبت عامل خارجي ينمي هذا التيار (يعني السلم) هو رغبة كبار الرأسماليين من اليهود الأمريكيين في التعاون مع أموال الدول البترولية، وفرص هذا التعاون تضعف أمام التصادم السياسي أو العسكري بين إسرائيل والدول العربية، وتزيد إذا تحقق السلام». ويدلل الأستاذ أحمد حمروش على الرغبة في هذه المشاركة فيذكر أن مصانع رينو الفرنسية احتاجت إلى قرض وأن البنك العربي في باريس أبدى استعداده للإسهام فيه، مع بنوك أخرى مشترطاً ألا تكون بينها بنوك يملكها يهود، ولكن بالمفاوضات وافق البنك العربي على الإسهام مع البنوك اليهودية ثم يقول أحمد حمروش معلقاً: «هي رغبة أخرى للسلام تنبث من منطلق آخر»!!.

وكل الذي ينصحنا به الأستاذ أحمد حمروش لنحقق السلام الموعود ونجني مع اليهود الخيرات المشتركة أن لا نظن أن السلام يمكن تحقيقه إلا باشتراك السوفييت الذين دعوا إلى جنيف أولاً، فيقول: «ولا يجوز أن يخطىء البعض فيعتقد أنه يمكن أن يتحقق سلام منفرد في غرفة عمليات أمريكية». ويبشرنا الأستاذ أحمد حمروش بأن جروميكو وزير خارجية السوفييت قال: «إن الطالع المزمن للأزمة لا يبرر الاستنتاج بأن المشكلة بغير حل» ثم يكتشف لنا الأستاذ أحمد حمروش قاعدة ذهبية جديدة وهي أن النضال ليس فقط من أجل الحرب، بل أيضاً من أجل السلام، فيقول بالنص وهي خاتمة مقاله: «وليس النضال فقط هو من أجل الحرب هناك نضال أيضاً من أجل السلام» أ. هـ، وهكذا أقول أنا أيها المناضلون من أجل السلام، فأنتم لا تقلون شرفاً ومجداً وعزاً عن الأغبياء الذين استشهدوا على أرض فلسطين!!.

وبعد ماذا نقول يا إخوة؟!!

لو استأجر اليهود كاتباً ليمهد عند العرب للصلح الذي يقاتلون من أجله منذ دنست أقدامهم أرض فلسطين فلن يستطيع ـ والله ـ أن يكتب أكثر من هذا!.

وعلى كل حال نبشر اليهود بأن لهم في أرضنا من يهتم بمصالحهم أكثر منهم، ونضم رجاءنا مع رجاء الأستاذ أحمد حمروش إلى الذين يريدون تحقيق السلم عن طريق أمريكا ألا ينسوا روسيا وهم ذاهبون إلى هناك، فاطمئن يا أستاذ حمروش.

وأما أنتم أيها المخلصون من هذه الأمة فاعلموا يقيناً أنكم لن تطهروا فلسطين من رجس اليهود حتى تطهروا حصونكم من الداخل.

الجوع الروحي يجتاح العالم

كان سقوط نظام الإقطاع في أوروبا، واندحار النظام الكنسي المساند له، وظهور الآلة الجديدة وبداية الاكتشافات العلمية كل ذلك كان مقدمة لبروز عصر جديد نستطيع أن نسميه عصر العلم المادي والآلات. هذا العصر الذي امتد طيلة القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انقلبت فيه أفكار الناس ومعتقداتهم فبينما كان جميع الناس ـ إلا ما شذ منهم ـ يؤمن إيماناً ما بعقيدة غيبة وبشيء وراء الأسباب فإن الناس تحولوا إلا القليل منهم إلى الإيمان بالمادة فقط ويرفض كل شيء وراء الأسباب وبالكفر بكل ما لا تصل العلوم المادية والحواس إليه، وبهذا انهار الفكر الديني بوجه عام على سطح الكرة الأرضية، وحل محل الآلهة التي اعتنقها البشر آلهة جديدة تتمثل في قدرة العلم المادي على صناعة المعجزات وتسخير الأرض والسماء وقهر الحياة والتغلب على مشاكلها واكتشاف المجهول أياً كان، وبدأت مرحلة جديدة للسخرية من أهل العقائد الدينية أياً كانت والحكم عليها جميعاً بحكم واحد وهي أنها من نسج خيال المشعوذين والدجالين، أو مما يضيفه الإنسان على الطبيعة التي كان الإنسان يقف حائراً أما تصرفاتها الغربية كالعواصف والزلازل والبراكين.

وكما كان كثير من هذه العقائد الغيبية باطل في ذاته ولا يعدو كونه شعوذة وتدجيلاً ورجماً بالغيب دون دليل وبرهان فقد اتخذ المغرضون من هذا الدليل على بطلان العقائد الإسلامية التي تستند إلى الدليل والبرهان ولكن أهل الحضارة الحديثة لم يكن عندهم الوقت ليميزوا بين العقائد الباطلة والعقائد الحقة فحكموا عليها

جميعاً بحكم واحد ووضعوها جميعاً تحت قضية واحدة هذه القضية تقول بما أن العقائد الدينية كالهندوكية والنصرانية والبوذية لا تعدو أن تكون ترهات وخزعبلات وبما أن الإسلام أيضاً عقيدة دينية من هذه العقائد فهو كذلك، وتحت هذه القياس الشمولي الباطل جابه الإسلام كما جابهت العقائد الأخرى موجة المد الحضاري المادي وخسر المسلمون في هذه المجابهة كثيراً من رجالهم الذين اهتزت عندهم العقائد الدينية الموروثة وانصرفوا إلى الإيمان بالإله الجديد الذي يمثله العلم المادي الذي وصف بأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

وسعى الإنسان لاهثاً خلف هذا الإله الجديد فلا يكاد يظهر مخترع جديد حتى يصفق الناس له، ولا تكاد تظهر نظرية علمية تفسر شيئاً من هذا الكون حتى يسجد الناس سجدة شكر في محراب العلم. وابتدأ علماء المادة ينكبون بالبحث والتجريب في كل ناحية من نواحي الحياة، وفي كل يوم يرى الناس عجيباً وغريباً، وفي أثناء هذا الركض اللاهث نحو غايات العبادة المادية الجديدة فقد الناس عقائدهم القديمة وطلقوها وابتدأ الناس ينتظرون أن يحقق العلم المادي سعادة الإنسان على الأرض وراحته وأمنه ومستقبل أجياله، وأن يفسر لهم لغز الحياة والموت الذي يتحكم في وجودهم وفنائهم وأن يجيب على أسئلتهم الحائرة، لماذا أوجدنا؟ وإلى أين نسير؟ ومن خلق هذا الكون؟ ولماذا تتصرف المادة حسب قوانين ثابتة؟ ومن خلق هذه القوانين؟.. الخ إلى مئات من الأسئلة الحائرة. ولكن هذا الانتظار طال، بل كلما مرت أيام واكتشف الناس جديداً في هذا الكون زادت الحيرة والإرباك وتبخرت آمال السعادة والأمن والاستقرار فالإنسان قد أصبح يعيش على أرض ادخر على سطحها من آلات الدمار والخراب ما يكفي لتدمير الأرض عشرات المرات!! فأين الأمن؟ وما زالت الجرائح والأمراض والأوبئة والزلازل.. تهدد حياة الإنسان ووجوده، وهذه المخترعات الكثيرة ووسائل الراحة والرفاهية قد انقلبت بدلاً من أن تكون نعمة إلى أن تصبح هلاكاً للنفس والضمير وتشويهاً لجسم الإنسان وإفساداً لبيئته، والأسئلة الحائرة لا جواب عليها، وابتدأ الإنسان يشعر بضالته وصغره عندما عاين عجائب الخلق نحوه فرأى الأرض الصغيرة الضائعة وسط طوفان هائل من النجوم والكواكب والمجرات التي تسبح في أماد فسيحة لا يدركها عقل ولا يحيط بها حساب أو علم. ورأى الإنسان أن المادة التي آمن بها تنغلق على سر عجيب هو سر الذرة والإلكترون

وإن هذا الجزء الذي يتناهى في الصغر هو من أعجب الأمور وإن لم يكن أعجبها ولم يدر الإنسان لليوم لماذا كان كل هذا؟

وفي منتصف هذا القرن العشرين وقف الناس من جديد على حافة الهاوية وابتدأ الكفر بالإله الجديد، وبدأ هذا الكفر من علماء المادة أنفسهم الذين قالوا لقد وصلنا إلى طريق مسدود، وابتدأ صراخ الناس من كل ناحية أننا نتدمر.. نتمزق.. الأزمات.. أسلحة الدمار الحروب.. الصراع، وابتدأت حركة ردة جماعية جديدة عن العبادة المادية للإله المادي.. ولكن هذه الردة تلونت بألوان شتى، فقد وجد كثير من الناس سعادتهم في الحبوب المخدرة والمنومة التي تساعد الإنسان على الهروب من عالم الواقع إلى عالم الخيال، وأغرق آخرون في الجنس والمتع الحسية إغراقاً ليس للاستمتاع، ولكن للهروب أيضاً من واقع الحياة السيء، ولما لم يتحقق هذا الهروب باللقاء الفطري بين الذكر والأنثى تحول إلى الشذوذ، وابتدأ آخرون ينبشون في الأوراق القديمة ويفتشون في الديانات الغابرة عن إله جديد وتفسيرات أخرى للغز الحياة، وسعادة جديدة غير التي افتقدوها من إلههم القديم، وراجت في أمريكا وأوروبا الآن الديانات الوثنية والخزعبلات الصوفية الهندوكية، وبدأ الشعب الروسي الذي فُرض عليه الإلحاد فرضاً منذ ستين عاماً يعاود الخطى إلى الكنيسة ويحن إلى المساجد، ويعود البوذيون إلى ترميم معابدهم ونصبهم.

باختصار لقد أعلنت المذاهب المادية الاجتماعية والاقتصادية الإفلاس وابتدأ الناس يصيخون السمع ويترقبون ظهور إله جديد.

والمسلمون أهل الدين الحق قد تأثروا بلا شك بظهور إله العلم المادي وباندحاره أيضاً، ولأن عامة المسلمين من العرب وإن كان غير العرب من المسلمين أكثر عدداً ـ فإنهم أبطأ إفاقة من كبوة، وأقل استشرافاً للمستقبل، وهذا شأن الجنس العربي بوجه عام، أقول لأن العرب المسلمين هذه هي أخلاقهم الجبلية الأصيلة فإنهم لذلك سيتأخرون كثيراً حتى يتقدموا إلى هذا العالم المضطرب ببضاعتهم النقية الجيدة وبدينهم الحق.

فالإسلام الحق فيه الإجابة على أسئلة الناس الحائرة وفي ظل نظامه الخلقي

والاجتماعي يستطيع الناس أن يحققوا السعادة على الأرض، ولكن المرحلة الحالية التي تشهد هذه التحولات العجيبة من الكفر بالإله المادي والاتجاه نحو آلهة جديدة لم يستطع مفكرو المسلمين وعلماؤهم أن يستوعبوها، وليس في طوقهم وهم بهذه الحالة أن يقدموا للناس البديل لما هم فيه من شقاء وبؤس وضياع.

ولذلك فلابد من ثورة فكرية عقائدية جديدة تستطيع بعث المسلمين من جديد وتقديم غذاء جيد للجوع الروحي الذي يجتاح العالم في الراهن، فأين يا ترى يوجد هذا البعث وتتحقق هذه الثورة الفكرية العقائدية؟.

٩ سبتمبر ١٩٧٧

الفساد.. من سيحاسب من؟

يموج العالم في العصر الراهن بشيء يسمى الفساد الإداري واستغلال النفوذ والرشوة، فالفضائح السياسية والمالية نسمع عنها كل يوم تقريباً، ولا تكاد تخلو دولة من دول العالم من اكتشاف أنواع من الفساد في إداراتها وموظفيها كباراً وصغاراً. فالووترجيت واللوكهيد، وهدايا نيكسون ورشاوي الكونجرس وفضائح أوروبا وآسيا كل ذلك فقرات من مسلسل يومي للفساد السياسي والإداري والمالي.

والبلاد العربية الإسلامية من أعظم بلاد الله ابتلاء بكل هذه الأنواع. فالصعاليك (الصعلوك في لغة العرب الذي لا مال عنده) الذين يستولون شيئاً من أموال الناس سرعان ما يصبحون من أهل الملايين هذا في القمة، وأما العمال الصغار الذين يتولون المصالح الصغيرة كالجمارك والتراخيص والتموين فلا يكاد يسلم أحد من شرهم على طول حدود بلادنا الإسلامية والعربية.

وبجانب كثرة الفساد على هذا النحو كثر أيضاً الحديث عن الفساد، فالكل يشكو ويتهم الآخرين ويزعم أنه ينشد الإصلاح ولا يحب الفساد وكأن المفسدين ليسوا من أهل الأرض، وإذا جئت تناقش بعض الذين ينهبون عن الفساد وتعلمهم أنهم أيضاً لا يتقون الله فيما خولهم إياه وأنهم يسرقون أيضاً ويغشون أخبروك أن ما يفعلونه لا يساوي شيئاً إذا قيس بما يفعله الآخرون فالأمر عندهم نسبي فقط بمعنى أنهم

يختلسون ديناراً وغيرهم يختلس ألفاً.

والعجب حقاً أن الحكومات في بلادنا العربية تعمد إلى محاربة الفساد بطرق بدائية جداً ولعلها مشجعة على الفساد لا ملغية له.

ومن هذه الطرق تشكيل لجان التحقيق في الفساد!! وإحصاء تركات الناس ثم قياس الزيادة في نماء الثروة!!.

فأما تشكيل لجان حكومية للتحقيق في الفساد فهو وضع غير منطقي لأن المفروض أن الحكومة بجميع عمالها (موظفيها) وحدة واحدة وهي مسؤولة أمام الشعب لا أمام نفسها عن الفساد فكيف يحق للحكومة أن تحاكم نفسها، كيف يكون المتهم حكماً ومتهماً في آن واحد؟!

وأما قياس الزيادة في أموال الناس ومقارنة ذلك بدخولهم المنظورة فهو شيء يدعو إلى العجب حقاً فالدخول المشروعة متعددة منها الميراث والهدية والهبة والعمل (الراتب الوظيفي) والأعمال الحرة المسندة للزوجات والأولاد والأقارب في ظل القوانين التي تحرم على الموظف الحكومي العمل الحر، ولن يعجز أي موظف غبي أن ينسب الزيادة الهائلة في أمواله وممتلكاته إلى واحدة من المصادر السابقة، ثم نحن في عصر البنوك والحسابات السرية، وتهريب العملة فكيف ستستطيع لجان إحصاء الثروة صيد هذه الأسماك في أعماق هذه المحيطات.. ملهاة!! مأساة!.

وهنا يرد السؤال.. وما العمل وكيف الطريق إلى القضاء على الفساد الوظيفي والإداري؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد من اتباع الخطوات الآتية:

أولاً: لابد من تعريف من هو العامل (الموظف) وما الحكومة وما دورها الحقيقي في المجتمع وهنا يجب أن نعلم أن الحكومة مهمتها تنفيذية فقط وهي وكيلة عن الشعب والشعب هو الذي وكلها وليس الله سبحانه وتعالى فالله لم يوكل أحداً من عباده على أحد حتى رسوله قال الله له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٥٤] وما دامت هي وكيلة عن الشعب فلا يجوز لها التصرف في ماله إذا إلا بإذنه، بل لا يجوز لها أي تصرف مطلقاً إلا بإذن هذا الموكل، ومعنى هذا أنها مسؤولة أمام الشعب، وليس الشعب مسؤولاً أمامها ومسؤوليتها هذه في المهام التي

أنيطت بها ومنها الأمن والدفاع والعدل (أخذ الحق من الظالم للمظلوم) والرعاية (كفالة المحتاجين والفقراء..) والتنمية أصبحت مهمة أساسية من مهمات الحكومة الحديثة والحكومة بجميع موظفيها مسؤولة عن كل هذه المهمات.

ثانياً: لابد وأن يكون للشعب الصورة الصحيحة التي يستطيع بها أن يراقب الحكومة وأن يحاسب أفرادها، وأن يقاضيهم إذا كانت له خصومة مع أحدهم وأدنى هذه الصور هو حرية الرأي والتمكن من رفع قرار الاتهام وإذا كنا نقول بأن أمريكا بها فساد في القمة وأن نيكسون هو بطل فضيحة ووترجيت فيجب أن لا ننسى أيضاً أن الذي اكتشف هذه الفضيحة صحفي وأن القانون قد حماه حتى استطاع أن يطيح برئيس الدولة.

ثالثاً: من الذي سيحكم بين المدعي والمدعى عليه، فإذا ادعت الحكومة على فرد ما بأنه أساء أو سرق أو شهر أو سب وإذا ادعى فرد من الشعب أن أحد أفراد الحكومة أساء أو تعدى أو ظلم فمن الذي سيحكم؟ وهنا لابد من العلم أن السلطة الثالثة في الدولة ونعني بها السلطة القضائية يجب تحريرها من سلطة الحكومة لأنها قاضية عليها وليست تابعة لها، فسلطة القضاء يجب أن تكون السلطة العليا في الدولة ولذلك فالمكان الصحيح للتقاضي والتحقيق في الفساد هو القضاء وليس هو اللجان التي تشكلها الحكومة لتحاكم نفسها!!.

رابعاً: إذا تحققت الأمور السابقة فعند ذلك يجب وضع قانون واضح ليحاسب الناس على أساسه وفي ضوئه حتى نستطيع الحكم والتفريق بين ما هو فساد وما هو غير ذلك، إذ كثيراً ما يحاسب الموظفون على التوافه من التصرفات، وتترك العظائم أننا نختلف كثيراً في مفهوم الفساد ولذلك لا بد من وضع مفاهيم محددة حتى يستطيع الناس التفريق بين الممنوع والمشروع.

خامساً: لابد من التركيز على أن الأعمال والوظائف الحكومية كبيرة كانت أو صغيرة إنما هي تكليف وأمانة ومسؤولية لا تشريف وغنيمة ومحسوبية ولابد من تطبيق ذلك ويحصل هذا إذا أبعدنا الحريصين على المناصب الحكومية وكلفنا بها المخلصين الذين لا يحرصون عليها ولا يسعون لها ولذلك قال رسول الله ﷺ: [إنا

لا نولي هذا الأمر رجلاً طلبه ولا أحداً حرص عليه]، ثم يجب أيضاً جعل الراتب الحكومي راتباً للكفالة فقط حتى يزهد الناس في الوظيفة الحكومية وأن نقرب بين الرواتب العليا والدنيا ونلقي الفروق الشاسعة بينهما وتبقى الفروق لطبيعة العمل فقط وما يتطلبه من جهد وأدوات وما فيه من أخطار.

سادساً: لابد من توجه الأمة حكومة وشعباً إلى العناية بالتربية الخلقية وهذا يعني أن نوجه اهتمامنا إلى الأسرة والمدرسة لغرس المبادىء الفاضلة وتعليم الأمانة والصدق والعطف على الآخرين ومواساة المحتاجين وكذلك لننفر من الغش والكذب والظلم.. باختصار نحن في حاجة إلى ثورة خلقية وخاصة في ميدان الأسرة والمدرسة، فالموظف الغاش المختلس لا شك أنه كان ابناً عاقاً وتلميذاً غشاشاً كذاباً لم يجد التربية الصحيحة في هذه المحاضر.

سابعاً: لابد من وضع أهداف سامية تسير الأمة إليها كالعز والسيادة وتحقيق كلمة الله في الأرض، وإيجاد الفرد الصالح، وأما أن تكون أهداف الدولة لا تتعدى الرفاه والدنيا والوناسة، فكيف نعيب على الناس بعد ذلك إذا حصلوا على هذه الغايات بأي طريق؟!

هذه قواعد أساسية لابد وأن يضعها المسؤولون الذين يريدون حقاً القضاء على الفساد في أجهزة الدولة وإلا فلا نعجب إذا انتهت هذه الإجراءات التي تجري لمحاسبة الفساد في دولنا العربية والإسلامية إلى فراغ.

الجانب الخلقي في الأزمة الاقتصادية

يشهد العالم في العصر الراهن أزمة عنيفة في قضاياه الاقتصادية وتبدو ملامح هذه الأزمة في الصراع حول الطاقة، والأسواق ومشاكل التضخم والبطالة، وقد فجرت هذه الأزمة في كل هذه النواحي الصراع بين ما يسمى بالشمال والجنوب أي الدول الغنية والدول الفقيرة، وبين الدول الغنية بعضها مع بعض وكذلك بين الدول المنتجة للبترول والتي تكاد أن تفقد وحدتها في هذا الصراع الرهيب نحو البقاء في عالم متقاتل متصارع.

وهذه الأزمة العالمية تلفنا من كل صوب لأننا جزء من هذا العالم نتأثر بما حدث فيه، والفرد العادي في أي مجتمع يناله نصيب من هذه الأزمات التي تجتاح العالم، فالمسكن والطعام والمركب والكساء كل ذلك يرتبط بالطاقة والصناعة والتجارة الخارجية، والتضخيم والبطالة، ولذلك فليس هناك من إنسان بمنأى عن هذه الأزمة.

وبالرغم من الاجتماعات المستمرة والمؤتمرات والصراعات فإن الأزمة تزداد تفاقماً عاماً بعد عام. ويبدو أن استمرار الحال على ما هو عليه أن يصفي الناس بعضهم بعضاً في صراع رهيب على البقاء قبل نهاية هذا القرن.

وقد يظن بعض الناس أن هذه الأزمة راجعة فقط إلى قلة الإمكانيات وازدياد السكان ولذلك ينصرف النظر إلى توسيع دائرة هذه الإمكانيات ومحاولة التقليل من الانفجار السكاني، ولكن ثمة جوانب لهذه الأزمة لم تراع حق رعايتها ولم يبحث عن علاج حقيقي لها، وهذه الأزمة هي الجوانب الخلقية.

والحق أن معظم مشكلاتنا الاقتصادية هي مشكلات خلقية قبل أن تكون ندرة في الحاجات وزيادة في السكان، وهذه بعض الجوانب الخلقية التي أهملنا علاجها وتسبب وما زالت تتسبب في إيلام العالم وكثرة مشاكله:

أولاً: الإسراف والبذخ والترف، هذه الأمراض الثلاثة وهي من أخلاق الجاهليات القديمة وهي سمة مميزة لجاهلية هذا القرن، وهذه الأخلاق التي أصبحت سمة عامة للمترفين من أغنياء هذا العالم والتي تهدر ـ ولا نبالغ ـ أكثر من ربع اقتصاد العالم. فالرياش الفاخرة، وأدوات الزينة التي تكلف الملايين، وولائم الشهرة وأفراح الشهرة وحفلاتها التي تكلف أضعاف ذلك والإسراف في الطاقة والمياه وباختصار (عدم صون النعمة) الذي أصبح خلقاً مميزاً للإنسان المادي المحب لنفسه المترف هو من أكبر عوامل الأزمة الاقتصادية. وإذا راجع كل منا نفسه فإنه سيجد أن ما لا ينتفع به من طعام وشراب وماء وكهرباء وحفلات فاخرة من الممكن أن تعيش عليه أسرة بكاملها، ولذلك فالفرد العصري الجاهل بوجه عام فرد غير اقتصادي وقد اعتنى الإسلام بتربية الإنسان الاقتصادي الذي يقدر النعمة فنهى عن

الترف والبذخ وجعل الإسراف حتى في ماء الوضوء ـ وهو عبادة ـ حرام وذلك ليكون غيره من باب الأولى والأحرى وجعل الإسلام الفرد عابداً لله باقتصاده في مأكله ومشربه وحياته كلها، قال تعالى .واصفاً عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٧].

ثانياً: الجشع والطمع وحب الذات والتكالب على الحطام، وهذه كلها أصبحت أيضاً صفات أساسية لإنسان العصر المادي نتاج الحضارة الأوروبية الخبيثة، وهذا الجشع والطمع لا يقف عند حد فالذين يكسبون الملايين من الأموال كل يوم ومع ذلك يناورون ويغشون ويحتكرون ويغالون ليكسبوا مزيداً من الملايين هؤلاء أناس بلا أخلاق. فزيادة المال بالنسبة لهؤلاء لا يعني مطلقاً إلا إشباع صفة الطمع والجشع في الإنسان وذلك أن المال في ذاته وسيلة إلى المنافع وليس منفعة بذاته فأنت لا تلبس الدنانير إذا عريت، ولا تأكلها إذا جعت، ولا تقيك حر الشمس وبرد الشتاء ولكنها وسيلة إلى ذلك والزيادة المطلقة في هذه الوسائل ليس له ثمرة فعلية مطلقاً فيستوي في النهاية من يملك المليون ومن يملك مائة المليون لأن حاجات الإنسان محدودة في الطعام والشراب والمسكن. ومهما أوتي من الأموال الإضافية فإنها لا توجد له حاجات وطاقات فوق طاقات الإنسان وإنما تنحرف الفطرة فيكون الطعام تأنقاً وبذخاً وإسرافاً، والزواج إفساداً وعبثاً، والسكن شهرة وبذخاً وتعطيلاً لغرف وقصور ورياش بلا حاجة، وهكذا فالتسابق نحو المال إنما هو تسابق لإشباع الطمع والجشع وهي صفات دميمة أو تسابق لإشباع انحراف الفطرة وانحراف الفطرة مدمر للأمم والشعوب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٦].

وذلك أن انحراف الفطرة يؤدي إلى إهدار الإمكانيات وإيجاد الصراع والعداوة والبغضاء فأنت لا تكره غنياً يأكل الضروري ويشرب ويلبس ويسكن للحاجة إلى ذلك ولكنك تحسده أو تحتقره وتزدريه إذا رأيت أنه يتلف الطعام في موائد لا ينتفع بها، ولباس للشهرة، وسكن يتحول الذهب فيه إلى صنابير في دورات المياه، ومن هنا يتولد الحقد والحسد ثم تنفجر هذه الأحقاد في ثورات مدمرة لا تبقي ولا تذر.

ثالثاً: انعدام الشعور بالأخوة وحاجة الفقير، وهذه ثمرة ثالثة من ثمار الإسراف

والبذخ والطمع والجشع فالمسرف الطماع الجشع لا يمكن أن يشعر بحاجة الفقير والمسكين وهو في سبيل جشعه لا يمانع أن يزداد ماله من قوت المساكين وعرقهم وسعيهم وكدهم. وكمثال مباشر لهذه الأخلاق الخبيثة التي طغت على مجتمعنا فصاحب العمل الذي يوظف عمالاً هنا ويكسب من وراء عملهم الآلاف والملايين لا يرضى أن يسكن هؤلاء العمال في عماراته السكنية بنصف أجورهم، بل يحتاج العامل الفني (الذي يتقاضى ما بين ٩٠-١٥٠ دينار)، إلى مائة أخرى ليسكن في سكن مناسب مع العلم أن السكن على أكبر تقدير هو ثلث حاجة الإنسان واقتصادياً يجب أن يكون ربع دخل الإنسان وذلك أن الفرد العادي يحتاج ليعيش إلى سكن وطعام وكساء ودواء وتعليم وادخار، فإذا استغرق أجر السكن راتب العامل كله، فماذا يصنع في ضروراته الأخرى. وهؤلاء إما أن يتجهوا إلى السرقة والغش، وإما إلى الثورة والتدمير وكلا هذين الأمرين مدمر للمجتمعات.

* والعجيب أن الجشع والطمع حمل الأغنياء إلى البناء الفخم المترف وتركوا البناء التجاري المتوسط للهروب من السكان الفقراء والمتوسطين وإسكان الأغنياء، وكل هذه الأموال الفائضة التي توضع في (الرخام والمزايكو والمطاط، والموسيقى الموزعة على الشقق) تؤدي إلى زيادة الإنفاق فيما لا يفيد أصلاً وإن كان الأغنياء يظنون أنها تزيد الإيجارات وبالتالي يزداد دخلهم، وهذا الخلق الثالث الرديء أعني عدم الشعور بحاجات الفقراء ومحدودي الدخل سيؤدي حتماً إلى الدمار والخراب، فإن أقل ثمرات هذا الخلق هو الحقد والحسد والغش والسرقة واستعجال عذاب الرب ونقمته وهذا ما أصبحنا نسمعه في كل مكان.

* هذه في الحقيقة جولة سريعة في الجانب الخلقي الذي أهملنا بحثه للخروج من مشاكلنا الاقتصادية وإن كنا قد ذكرنا ثلاثة أخلاق فقط، فإنه يندرج تحت هذا آلاف من السلوك السيء الذي رمتنا به الحضارة الأوروبية. فالملايين من الدنانير التي تنفق على (المودات) والمجوهرات والتحف الفارغة، وزينة النساء والأضياع التافهة، والتدخين، كل هذا يعجل بدمار العالم ونهايته والعلاج من هذا الدمار قبل أن ينهي وجودنا هو أننا نستضرع المسؤولين أن ينظروا إلى الجوانب الخلقية وهم يحاولون حل المشاكل الاقتصادية والأخلاق، وإن كان معظمها ذاتياً ولا يفرض

بقانون فإن هناك جوانب من الأخلاق من الممكن أن يتدخل القانون لفرضها، وكذلك يجب أن نعالج المشاكل الاقتصادية بنظرة شمولية يراعي حق الجميع في الحياة الطيبة لا حق الأغنياء فقط في الكسب وزيادة رؤوس أموالهم بأي طريق ولو كان بالامتياز على غيرهم والنهب والسرقة.

التنفيس السياسي

* يُقال في اللغة نفس ينفس تنفيساً ونفساً أي وسع وأفسح وأطال، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ [من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة] أي وسع مؤمن على أخيه وأعانه في مصيبة.

والتنفيس يكون دائماً في أوقات الأزمات والمحن وكل مأزوم ومكروب ومضيق عليه يحتاج إلى ترسيع وتنفيس وإلا هلك وأهلك. فللإنسان طاقة يقف عندها، وكذلك للمجتمعات والجماعات طاقات ووسع واحتمال لا تتعداه وإذا زاد عن حده أدى إلى الانفجار والثورة.

وهذا المعنى النفسي معلوم جيداً في السياسة ولذلك يعمد محترفوها في أوقات الأزمات والمحن النفسية إلى إفساح المجال بمقدار معين للإعراب عن الضيق والتنفيس عن النفس. فإذا حصل الترويح والتنفيس عاد الضغط والإكراه حتى يبلغ الاحتمال مداه ثم أعيدت عملية التنفيس، وهكذا حتى يتضح الأمر ويصل إلى مداه، تماماً كما لجأ مصمموا القدور البخارية إلى إيجاد غطاء التنفيس عن القدر والذي يسمح بمرور الكميات الإضافية من البخار المضغوط ويبقى الضغط داخل القدر عند مدى معين وبهذا ينضج الطعام تحت الضغط العالي ولا ينفجر القدر.

* ومنذ أن حاول الاستعمار وعملاؤه زرع إسرائيل في جسم هذه الأمة وهم يخدرون الجسم إلى الحد الذي لا يحس بالجراحة وينشطونه إلى الحد الذي لا يموت مع هذه الزراعة، أو بالأحرى هم ينضجون هذا الطعام (الطبخة) العسيرة جداً والقاسية جداً على الاستواء بزيادة الضغط في القدور وبالسماح بإخراج الكميات الزائدة من البخار، وهكذا لا تزال عظامنا تحت الضغط والنيران حتى نقر بوجود

إسرائيل وأنها حقيقة واقعة وتستوي الطبخة جيداً ويعيش العربي مع الإسرائيلي.

* هذه مقدمة مطولة جداً لموضوعنا ضربنا له هذه الأمثلة الحسية لنقربه من الذهن وذلك أن كثيرين منا يخلطون بين النقد وتصحيح مسار الحكم، وتسديد الحاكم، وبين ما يجري على الساحة العربية من «التنفيس السياسي» الذي لا يراد به شيئاً مما سبق أصلاً وإنما يراد به فقط التخفيف عن صدور الناس بالقدر الذي يؤهلهم إلى السير في طريق الحاكم إلى منتهاه دون أن تتقطع قلوبهم أو ينفجروا انفجاراً مدمراً.

وقد أخذ هذا «التنفيس» في بلادنا العربية صوراً في غاية الغرابة والعجب فأول صور هذا التنفيس هو «النكتة السياسية» وهي تأليفة محبوكة تصور الواقع السياسي الخاطىء في أسلوب هزلي ضاحك ومع القهقهة والضحك من القلب الذي ينفجر بعد هذه النكتة يشعر القائل والسامع أنه نفث عن صدره وأخرج البخار الزائد الذي لو بقي لدمر حياته ودفعه إلى الثورة والعنف.

ويشبه هذا الأسلوب من أساليب التنفيس «الكاريكاتير» السياسي فهو في حقيقته رسم مضحك يصور الموقف السياسي الخاطىء ويدفعنا أيضاً إلى الضحك والقهقهة وبالتالي الراحة والرضا وبذلك نكون مؤهلين غداً إلى جرعة جديدة من الألم فجرعة جديدة من الضحك وهكذا. . ويرقى عن هذا درجة الكتابة السياسية الساخرة، وتكاد تكون جميع الكتابات السياسية العربية التي لا تنهج نهج الحاكم على هذا النحو وذلك أن المعارضة بالكلمة الجادة خطرة جداً في مجتمعاتنا وتؤدي إلى ما تؤدي إليه من سجن وحرمان وتشرد، وأما إذا خرجت هذه الكتابات في أسلوب هازل فإنها تصبح لدى الحكام نوعاً من التنفيس والتفريج عن قلوب المجروحين، وأما المسرحيات والتمثيليات السياسية فهي جميعاً في بلادنا العربية من أهم أساليب التنفيس والترويح عن أمة وشعب تقطع أوصاله بالسكاكين وهو يستسلم الساعات الطويلة لضحك جنوني على سياسات الحكام واعوجاجهم وهي تفيد أنها تعطي المشاهدين جرعة طويلة من الراحة والضحك والاسترخاء «والانشكاح»(حسب تعبير رواد المسرح) وبذلك يكونون مهيأين لجرعات جديدة من الألم والخنوع والذل، وهكذا دواليك. والمتدينون منا يمارسون لوناً آخر من ألوان التنفيس والترويح عن

النفس وهذا يتمثل في خطب الجمعة النارية حيث يصعد الخطيب المنبر منتفخ الأوداج محمر العينين فيلقي الناس بالحمم والزبد ساباً اليهود وأعوانهم، والمستعمرين وعملاءهم، منادياً بالجهاد المقدس لطردهم وتطهير البلاد والعباد منهم وتمتلىء قلوب الناس ونفوسهم بالحماس الفارغ وتنتهي الخطبة والصلاة ويشعر الخطيب أنه قد أدى واجبه بالقول ويشعر المصلون أنهم قد أدوا واجبهم بالسماع ويشعر الجميع براحة واسترخاء بعد قمة التوتر والحماس، وهكذا تتكرر الأدوار كل أسبوع فيعتاد المصلي أن يمتلىء ويفرغ ويمتلىء ويفرغ ثم يتبلد الذهن والشعور فلا يجد المتدين منا إزاء كل خطب ومكروه إلا أن يسترجع ويحوقل (استرجع: أي قال: إن لله وإنا إليه راجعون، وحوقل: أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)، ثم بعد ذلك يظن أنه قد أدى دوره وقام بواجبه، وهذا لون آخر من ألوان التنفيس.

* كل هذه الألوان السابقة لا تشكل في مجموعها نقداً حقيقياً ولا معارضة ولا تسديداً للحاكم ونصحاً له كما أراد الله سبحانه وتعالى، لأسباب يطول شرحها، ومع أن هذه الألوان المختلفة من ألوان التنفيس التي تمارس على الساحة العربية والإسلامية لا تشكل في مجموعها ضيقاً للحكام ولا إزعاجاً لهم، بل على العكس تساعد في تهيئة المناخ للسياسات المغلوطة أو كما قلنا سابقاً تنعش الجسم المخدر الذي تزرع إسرائيل فيه ببطء شديد، أو قل تساعد في إخراج كمية من البخار المضغوط في قدر يغلي بطعام غليظ.. أقول بالرغم من نفع هذه الألوان من ألوان التنفيس للسياسات الخاطئة، فإنه يلجأ أحياناً إلى إلغائها وكتمها فكم من مسرحية ألغيت ومن قصيدة شعرية صودرت، ومن خطيب منع من منبره ومن محترف للتنكيت والإضحاك أودع السجن!!

ويبدو أن الحكام الذين يعمدون إلى إلغاء هذه الأنواع من أنواع التنفيس عن الناس لم يستفيدوا بحكاية شوقي الشعرية الرمزية «الأسد والضفدع» الذي يشبه فيها الحكم بالأسد والمعارضة التنفيسية بالضفادع فيقول:

قالوا:

استوى الليث على عرشه　　　فجيء بالمجلس بالضفدع
وقيل للسلطان هذي التي　　　بالأمس أدت عالي المسمع

تنقنق الدهر بلا علة | وتدعى في الماء ما تدعى
فانظر إليك الأمر في دينها | ومر نعلقها في الأربع
فنهض الفيل وزير العلا | وقال يا ذا الشرف الأرفع
لا خير في الملك ولا عزه | إن ضاق جاه الليث بالضفدع
فكتب الليث أماناً لها | وزاد أن جاد بمستنقع

وهكذا بشفاعة الفيل عفا السلطان عن الضفادع وزادها مستنقعاً آخر تنقنق فيه إذ ماذا ستفعل الضفادع؟! ولكن هناك من السلاطين أيضاً من يزعجها نقيق الضفادع فتبعث في آثارهم وتقتفي حركاتهم.

* المهم أرجو أن لا نخلط دائماً بين «الأمر بالمعروف الشرعي» والتنفيس السياسي.

العرب والمستقبل البائس

عرفنا في المقال السابق أن الساسة العرب قد مارسوا ثلاث طرق لحل ما يسمى «بالمشكلة الفلسطينية» وأن هذه الطرق الثلاث هي: التهديد بحرب التحرير، وممارسة الحرب الجزئية، والضغط على أمريكا بسلاح البترول وغيره لتضغط على إسرائيل وقد وصلت السياسة العربية اليوم إلى مفترق الطرق، فإما أن ينجح الطريق الثالث (طريق أمريكا للسلام) وإما تعود السياسة العربية مرة ثانية إلى التهديد والوعيد والحرب الجزئية.

وقد عرفنا بيقين أيضاً أن إسرائيل دولة تعمل لحساب نفسها، وأنها تتخذ قرارها في أرضها ومن رجالها ثم تضغط شرقاً وغرباً لتنفيذ قراراتها، وأنها ليست ذيلاً منفذاً كما يدعي المدعون، ثم هي أيضاً ليست إلهاً متصرفاً في كل شيء ومسخراً للشرق والغرب كما يتهوك المتهوكون.

واليوم لنفهم الصورة بكل أبعادها ينبغي أن نعلم أن هناك أطرافاً ثلاثة على

الإجمال لا على التفصيل: الطرف الأول هم نحن، والطرف الثاني هم اليهود، والطرف الثالث هو الدول الكبرى.

فأما الدول الكبرى فقد علمنا في الأسبوع الماضي أنها تريد حلاً وسطاً للصراع بين اليهود والعرب، وذلك ليستمر تدفق البترول العربي إليها، وليتخلص من ظلموا اليهود منهم قديماً من عقدة الذنب تجاههم وليحولوا بين المسلمين وأن يتوحدوا ويكونوا قوة ثالثة في العالم.

ونخص من مواقف الدول الكبرى موقف أمريكا بالذات، فأمريكا التي تولت كبر هذه الأكذوبة وحملت ٩٩٪ من أوراق اللعبة كما قيل، تجابه اليوم موقفاً لا تحسد عليه: فقد صرح الرئيس الأمريكي كارتر بوجوب إيجاد وطن للفلسطينيين، وقد جاوز أعظم ساسة العرب تفاؤلاً إذ حدد قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ كأساس عادل لقسمة فلسطين بين العرب واليهود، وهذه الأقوال على كل حال تصطدم وتتناقض تماماً مع ما صرح به ساسة إسرائيل الآن.

وأما اليهود فقد وصلوا اليوم إلى الموقف الجلي الواضح الذي كانوا يخفونه قديماً وهو أنهم يطالبون بوطنهم الأصلي الذي منحهم الله إياه في التوراة والذي حققوه قديماً من الفرات إلى النيل، وقد أخرجوا منه ظلماً واليوم يحررونه من المعتدين!! ومناحيم بيغن (قاتل الأطفال والنساء) قد قال ذلك للعالم بكل صراحة ووضوح، وخلف هذا الزعيم الإسرائيلي جموع الشعب اليهودي الذي أعطاه ثقته في انتخابات عامة مع إعلانه لهذه الأهداف والغايات في حملته الانتخابية.

وأما الدول العربية فلها موقفان: الموقف الأول موقف الساسة بوجه عام وهم مع إعلانهم القبول بالحل السلمي الذي ارتضته الدول الكبرى ومازالت تضغط للوصول إليه إلا أنهم اليوم بين شقي الرحى. الشق الأول الشعوب العربية التي لا ترضى في قرارة نفسها بغير التحرير الكامل لأرض فلسطين من دنس اليهود بديلاً، وبين الموقف اليهودي المستند إلى الواقع والمتمسك بكل شبر وصل إليه في حرب تحطمت فيها الإرادة العربية أمامه، وصفق العالم فيها لجرأته وقوته وكان هذا عام ١٩٦٧. وأما الموقف الثاني للدول العربية، فهو موقف الشعوب وهي شعوب مغلوبة على أمرها لا

تشارك بأي صورة من الصور في صنع القرار السياسي. وهذه الشعوب وإن كانت لا ترضى بغير التحرير الكامل لفلسطين بديلاً إلا أنها واقعة دائماً بين الضغط والانفجار و(الترويح أو التنفيس السياسي كما ذكرنا هذا في مقال سابق).

وهنا نصل إلى السؤال: ما الحل، وقد وصلت جميع أطراف المشكلة إلى التقابل والتناقض؟ هل ستنتصر الإرادة الإسرائيلية في الاحتفاظ بالأرض؟ وما موقف أمريكا والساسة العرب إذن؟ هل يعني هذا تفجر الحرب من جديد وإذا كان ثمَّ حرب فعلى من ستكون الدائرة؟ أم ستنتصر الإرادة الأمريكية ويرضخ اليهود ويذعنون وينسحبون من الأراضي المحتلة مقابل ما يعطيهم العرب من صلح وسلام؟ وإذا تم هذا الأمر على هذا النحو، فهل يكون هذا نصراً للعرب أو نصراً لإسرائيل أو خسارة لهما جميعاً؟ وما موقف الشعوب العربية إذا تم السلام أو تمت الحرب؟!

* للإجابة على هذه الأسئلة نقول:

نحن الآن أمام احتمالات أهمها ما يلي:

أولاً: انتصار الإرادة الإسرائيلية وهذا يعني بالضرورة عدم الإذعان لمقترحات أمريكا الخاصة بالسلام، وسيجر هذا حتماً الساسة العرب إلى حرب لم يستعدوا لها يقنياً، وسيكون في هذا إحراج بالغ لأمريكا في العالم، وقد يضع هذا المنطقة بأسرها مرة ثانية في أحضان النفوذ السوفييتي، ولن توافق أمريكا بالطبع على هذه الحرب إلا إذا ضمنت عدم المساس بوصول البترول إليها، ولن يكون ذلك إلا في ظل حرب خاطفة لا يفيق العرب إلا بعد نهايتها، والذين يرون هذا الاحتمال قريباً لا يجدون مسرحاً لهذه الحرب إلا الأردن وجنوب لبنان وذلك بهدف إنهاء الوجود الفلسطيني، وأخذ أرض للمساومة عليها مستقبلاً وإذا قامت مثل هذه الحرب فسيعود إلى العيان مأساة دير ياسين ليس في قرية واحدة فقط، ولكن في مخيمات بأكملها وسيشترك في هذه المذبحة اليهود والنصارى، وبالرغم من أن هذا هو الحل الوحيد أمام الإدارة الإسرائيلية الجديدة، فإن هذا الحل سيصطدم بالإدارة الأمريكية، ويقينا لا تستطيع إسرائيل الدخول في حرب إلا تحت مظلة أو سماح لدولة كبرى وليس أمام إسرائيل اليوم غير أمريكا، فهل ستستطيع إسرائيل إقناع أمريكا بأنها الحامية لمصالحها في

المنطقة؟ وهل ستضمن أمريكا أن لا يتفجر الوضع وتزول الحكومات التي سارت خلفها طيلة هذه السنوات. قد يشجع أمريكا على المضي خلف الإرادة الإسرائيلية أن الشعوب العربية الموجودة الآن هي الشعوب التي رأت في اعتزال الزعماء العرب الذين حققوا أعظم هزيمة في التاريخ كارثة أكبر من تلك الهزيمة، وقد يشجعها أيضاً أن هذه الشعوب لا وزن لها في أي معادلة سياسية في هذه المنطقة.. وهذه حقيقة يجب علينا الاعتراف بها وعدم إنكارها، على كل حال إذا ضمنت أمريكا بقاء مصالحها في هذه المنطقة، وآمنت أنه لليهود القدرة على حراسة هذه المصالح فستقوم الحرب حتماً وسنجد أن كلام كارتر في دفاعه عن حقوق الإنسان ما هو إلا وسيلة من وسائل الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفييتي، وأن الشعب الفلسطيني لا يدخل يقيناً في حس كارتر عندما يتحدث عن حقوق الإنسان، وسيكون من السهل على أمريكا ابتلاع هذه الأقوال الكثيرة التي سقطت من فم الرئيس الأمريكي المفتوح كما يسمونه هناك.

ثانياً: الاحتمال الثاني هو انتصار الإدارة الأمريكية والضغط على إسرائيل للقبول بما قبل به الساسة العرب (المعتدلون) وهذا يعني في النهاية كارثة بالنسبة للشعوب العربية وكارثة أيضاً في نظر الشعب والحكومة الإسرائيلية وتتويجاً عظيماً ونصراً مؤزراً للسياسة الأمريكية، وتثبيتاً إلى حين ـ لأصدقائها في المنطقة العربية.

وبالرغم من أن وسائل الإعلام جميعها ستنطلق لتعلن ـ إذا تم هذا ـ انتصار الإرادة العربية ونجاح السياسة السلمية، وستؤلف كتب وتدبج مقالات في فنون النضال السلمي الذي استطاع به العرب أن يفوزوا بالقضية وأن يرجعوا الشعب الفلسطيني إلى وطنه ودياره.

أقول بالرغم من كل هذا فإنه يجب على العرب أن يسموا هذا اليوم الذي يتم فيه هذا بيوم الذل العربي، وذلك أنه سيجسد لنا المعاني التالية:

أولاً: إننا أعطينا صك الشرعية لمن ذبحونا وشتتونا وأخرجونا من ديارنا عندما تنازلوا لنا عن شيء مما اغتصبوه. ثانياً: أن العرب ولأول مرة في تاريخهم يجعلون

نصر أمريكا في الحفاظ على مصالحها نصراً لهم، وأنهم قد وكلوا غيرهم بمهمة التحرير والدفاع عنهم. وثالثاً: أن العرب وللأسف تفرق بين أفراد العصابة الواحدة، فتعادي المباشر بالقتل والسرقة فقط، وأما المخططون والمساعدون والمظاهرون لأفراد العصابة فهم يصادقونهم ويوادونهم ويتخذونهم أولياء. ورابعاً: أن العقلية العربية التي رأت في اعتزال رؤسائها وضياع الأنظمة الحاكمة كارثة أكبر من ضياع الأوطان والأموال وقتل الآلاف هذه العقلية هي هي لم تتغير.

ثالثاً: والاحتمال الثالث والأخير هي المماطلة والتسويف، ولكن ماذا سيقول الساسة العرب للشعوب التي تنتظر!! لقد أفرغت الجعبة من الوعود أو كادت، وسراب الحل السلمي قد أنهاه الزعيم الإسرائيلي بكلمات قليلة واضحة صريحة: «الإنسان لا يحتل وطنه الضفة الغربية منطقة محررة».

هذه هي الاحتمالات الثلاثة المنظورة: الحرب، الذل السلمي، التسويف. وهذه الاحتمالات الثلاثة تشكل جميعها مستقبلاً بائساً للعرب فبعضها شر من بعض وليس أمامنا إن أردنا خيراً إلا حل رابع وهذا مكان وقت تفصيله وبيانه الأسبوع الآتي إن شاء الله.

١٩٧٧/٦/٣

الانتظار ليس صناعة سياسية ولا عسكرية

*** العالم العربي اليوم في حالة انتظار!!**

وهذا الانتظار معلق باحتمالات ثلاثة ـ ذكرناها في الأسبوع الماضي ـ وهي: الحرب الخامسة التي تريد إسرائيل أن تخرج بها من أزمتها أو السلام الأمريكي، أو التسويف والتأجيل، وهذا التسويف والتأجيل في النهاية يعود إلى الاحتمالين الأولين، وإذا كان الاحتمال الأول (الحرب) يعني تغليب المصلحة الإسرائيلية والاحتمال الثاني يعني تغليب المصلحة الأمريكية، والاحتمال الثالث يعني أن

الصهاينة والأمريكيين كل منهم يحتاج إلى فترة من الوقت ليقنع الآخر بوجهة نظره أو ليجيء الآخر إلى وجهة نظره، فمعنى هذا أننا لا نملك من حلول مشكلتنا شيئاً وأننا لا نصنع إلا الانتظار.

وبالطبع السلم في مصلحة أمريكا لأنه ضمان لتدفق الثروة والبترول إليها.. ولكن لماذا تختار إسرائيل الحرب؟

وإسرائيل تختار الحرب لأنه خيارها الوحيد، فالسلم تراه في غير صالحها فشعور اليهود دائماً هو شعور اللص الذي اغتصب شيئاً في غفلة من صاحبه وضعف ومع أن صاحب الشيء يُراد منه أن يتنازل عن جزء من حقه وشهد العالم على ذلك إلا أن هذا اللص لا يمكن أن يرتاح مهما كانت المواثيق، ولذلك تطلب إسرائيل المستحيل ليكون هناك سلام حقيقي، فهي لا تطلب فقط الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسي والتجارة المتبادلة وإنما تريد منا أن نغير مناهج التعليم والتربية في بلادنا وهذا يعني التخلي عن تراثنا وسلخ جلودنا وطمس حضارتنا ليستطيع اليهودي في زعمهم أن يعيش مع العربي، وإذا كان كارتر قد ضمن لهم ذلك في مدى ثمانية أعوام فهو مخطىء حقاً، فالتراث والحضارة الإسلامية باقية ما بقي الجديدان والعداوة بين اليهود والعرب باقية أيضاً ما بقي الاسمان.

والانتظار الذي نصنعه نحن ليس صناعة سياسية ولا صناعة عسكرية، وإنما الانتظار يعني التعليق والتيئيس والتدويخ لنرضى بعد ذلك بما يقسمه الأعداء لنا من خيار.

وهنا يأتي سؤال: هل عدمنا الخيار في مشكلة فلسطين؟ وهل فقدنا كل أنواع المبادرات، ولم يبق في أيدينا من أوراق اللعبة شيء (كما يقولون) أم أن هناك خياراً رابعاً بأيدينا؟

فيما أظن أن جميع الاختيارات والحلول مازالت بأيدينا وإذا لم تكن فيجب أن تكون وهذه بعض منافذ نشير إليها إشارة فقط دون بسط وتدليل:

أولاً: في معركة (السلم) إن صح هذا التعبير فاليهود يملكون شهادة مزورة لحقهم في فلسطين وهذه الشهادة المزورة هي حقهم التاريخي في أنه كان لهم دولة في يوم ما في فلسطين، وحقهم الديني الذي تشهد به التوراة أما الحق التاريخي فهو

باطل لأنه ليس هناك من مكان في الأرض إلا وقد ملك بوضع اليد مرات عديدة، وأما شهادة التوراة، فقد كانت يوم قام اليهود يوماً من عمرهم بدين الله، ثم عندما تخلفوا عنه شتت الرب شملهم وقطعهم في الأرض أمماً، وإن كان احتلالهم الأخير لفلسطين بالقوة والحرب، فإن قوانين الأمم المتحدة التي تزعم إسرائيل أنها إحدى دولها لا تجيز ذلك، وباختصار إسرائيل لا أقول تمثل دور المغتصب، بل هي فعلاً اللص المحترف الذي يعيش على وطن مغتصب، وفي مقابل ذلك هناك أهل الوطن مازالوا يحملون في جيوبهم سندات (التطويب) من الحكومة العثمانية والإنجليزية والأردنية والمصرية.

هذه المقابلة ـ الساذجة جداً ـ بين حق اليهود في فلسطين وحق الفلسطينيين فيها تصور إلى أي حد أننا فشلنا في إقناع ما يسمى بالرأي العام بلغته وقوانينه التفاهة التي يتحاكم إليها، وتصور أيضاً إلى أي حد فشل إعلامنا العربي ليس فقط في أن يقنعوا من يمدون إسرائيل بالمال والسلاح أن للعرب الحق في فلسطين بل فشل الإعلام العربي أيضاً في أن يخبر العالم الغربي أن هناك شعباً حياً يسكن الكرة الأرضية يسمى بالشعب الفلسطيني!! وهذا يدل على أنه ليس صحيحاً أن دولنا تخوض حرباً سلمية ضد إسرائيل لأنه حتى هذه الحرب الكلامية الإخبارية لم تمارس إلا بشكل تافه جداً، (وأرجو أن نقرأ شيئاً عن دور الإعلام العربي في أمريكا).

وهذا الذي نسمعه بين الحين والآخر من قضية كسب الرأي العام العالمي إنما هو تافه جداً بما ينبغي أن يكون، فإذا علمنا أن جهوداً قليلة في كسب الرأي العام قد آتت ثمارها سريعاً وخاصة في أفريقيا علمنا إلى أي حد أننا نمارس انتظاراً مملاً تافهاً.

ثانياً: زعماء إسرائيل قد كفونا مؤونة نبش جذور القضية فقد كان الساسة العرب لا يقدمون مشكلة فلسطين للعالم إلا على أن الفلسطينيين شعباً مشرداً طرده اليهود من دياره وأنه شعب مسالم يحب الخير للناس جميعاً.. الخ هذه المقولة الهزيلة التي رددت على المسامع حتى آذتها.. وكان هؤلاء الساسة وأجهزتهم الإعلامية يأبون ويأنفون أن يقولوا إن اليهود قد جاءوا إلى فلسطين بعقلية عنصرية موغلة في القدم تزعم حقاً في فلسطين للآباء والأجداد، وكانوا يأنفون أيضاً أن يقولوا إن اليهود يحاربون في فلسطين بعقيدة دينية حتى لا يقول المتدينون منا أدخلوا الدين إلى

المعركة كما أدخل أعداؤنا الدين هناك، وحيث إن الدين يؤذي مسامع هؤلاء السادة فقد أبعدوه عن المعركة. . ومع إبعاده أيضاً في معركة سنة ١٩٦٧ قام بوق من أبواق الباطل ليبرر الهزيمة، فقال: لقد هزمنا لأننا كنا نقف على أرضية هشة وهذه الأرضية الهشة هي الأرضية الدينية!! المهم نأسف لهذا الاستطراد ونعود إلى الموضوع فنقول: إذا كانت إسرائيل قد أرجعت القضية إلى جذورها وأعلنت بكل صلافة أن الضفة هي (أرض يهودا والسامرة) وهي أرض محررة وأننا عدنا إلى وطننا بعد إبعاد طويل، فلماذا نستحي اليوم أن نقول إن إسرائيل سرطان يجب أن يزول، وأنه لا سلم مع هذا السرطان؟ لماذا لا نعيد ترتيب أوراق القضية ونعلن على الملأ من جديد أنه يجب على اليهود أن يعودوا من حيث أتوا، ولماذا لا نطلق اسار العقيدة الدينية الإسلامية الصحيحة لنقضي على العقيدة الدينية اليهودية المفتراة. ولماذا لا نبني الجيش المسلم ليهزم الجيش اليهودي، لماذا لا نرجع أسباب الصراع إلى أصولها وجذورها، وقد كشف عدونا عن وجهه الصريح؟ ثم السلم الذي تطلبه إسرائيل هو المستحيل بعينه لأنها تطلب منا أن نغير عقولنا ومناهج التعليم في بلادنا وأن نغير تربيتنا ليستطيع اليهودي أن يعيش بسلام مع العربي!! باختصار اليهود يريدون منا أن نغير طبائعنا ونسلخ جلودنا ونتخلص من تاريخنا وتراثنا ليكون السلام معهم حقيقياً، ولم يسموا كل ما تعهد به الساسة العرب إلا أنه هدنة وليس سلاماً، فهل نستطيع أن نفعل كل ذلك بأنفسنا ليرضى اليهود عنا؟ ولماذا؟ وفي مقابل أي شيء سنفعل ذلك!! باختصار إسرائيل تطلب المستحيل وإذا وصل عدوك إلى أن يطلب منك أن تنسلخ من دينك وتغير تاريخك وترفض تراثك ليتنازل لك عن قطعة أرض من أرضك لتعيش عليها ثم نرضى بذلك. . فبطن الأرض خير لك من ظهرها، ثم إذا وصل اليهود إلى هذا المستوى من طلب الباطل فلماذا لا نقولها الآن للعالم صريحة: إسرائيل بلد صنعه الباطل ويجب أن يزول.

رابعاً: إسرائيل كيان هش لأنه قام على باطل وزور واغتصاب، وهو كيان هش أيضاً لأنه كيان مفتعل معتسف فقد أخرج أفراد هذا الكيان من أوطانهم التي عاشوا فيها اعتسافاً وزوراً وبالحيلة والمكر فقد وعدتهم الصهيونية بعقيدة دينية هم أكفر الناس بها وأشدهم عداوة لها، وبرابطة قومية عرقية مزورة هم لم يراعوا حقها. فالتفريق بين اليهودي الشرقي والغربي قائم وبجنة موعودة على الأرض ملؤها السمن

والعسل والسلام، فكانت جحيماً منتظراً ملؤها المشاكل والهموم والخوف، والذين يعيشون في إسرائيل الآن فقط يعيشون بالوهم والأمل، الوهم الكاذب في السلام والأمل البعيد في السمن والعسل، ومثل هذا الكيان الهش لا يدوم لأنه يخالف سنن الله وطبائع الأشياء. باختصار إسرائيل وهم صنعناه بأيدينا ويوم نملك المبادرة لاستئصال هذا السرطان فلن يكلفنا ذلك غير إعداد حقيقي للرجال وترتيب آخر لأوراق القضية وهزة صغيرة لهذا الكيان المفتعل، كما حدث في رمضان عام ١٣٩٣هـ.

فهل نسحب الأوراق من يد أمريكا وإسرائيل ويكون الاختيار لنا والانتظار لهم؟

١٠/٦/١٩٧٧

على من ستطبقون حكم المرتد؟

تعاظمت الدعوة في هذه الأيام للعودة إلى ظلال الشريعة الإسلامية والاحتكام إلى أحكام القرآن والسنة، وبينما كانت هذه الدعوة محصورة في الجماعات الإسلامية وبعض علماء الإسلام انطلقت أخيراً من خلال الأجهزة الرسمية، والحكومات القائمة، وبصرف النظر عن أسباب هذه الدعوة وخلفياتها فإن الرجوع حق والاحتكام إلى شريعة القرآن واجب ونبذ هذه الشريعة كفر وردة.

والمشكلة الحقيقية التي يجابهها الداعون إلى تطبيق أحكام الشريعة هي نقطة البدء، من أين نبدأ بتطبيق الشريعة؟ ولست أدري ما السبب في بروز قانون العقوبات في الشريعة في البداية؟ ثم ما السبب أيضاً في أن تكون معاقبة الخصوم والمخالفين هي البند الأول في تطبيق الشريعة الإسلامية؟ هل لأن الداعين إلى الإسلام لا يرون أن هناك أهم وأولى بالتطبيق من الشريعة الإسلامية غير العقوبات؟ أم لأن المخالفين في الرأي والعقيدة هم أولى الناس بتطبيق الشريعة عليهم؟

* وقد قلنا بأن مشكلة البدء هي أعظم المشاكل وذلك لأننا ابتعدنا ابتعاداً عظيماً عن الشريعة الإسلامية وقد أصبح هذا الابتعاد في كل شأن من شؤوننا تقريباً، فنظم الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والثقافة قد اصطبغت جميعها بصبغة بعيدة عن الإسلام مما لا يخفى على مطلع عليم بالإسلام الحق الذي أنزله الله سبحانه

وتعالى. ولا يقول عاقل أيضاً إننا نستطيع أن نعود في كل هذه الشؤون إلى شريعة الإسلام بيوم واحد، ومعنى هذا أننا سنقدم ونؤخر في العمل بالشريعة الإسلامية إن كنا ننوي حقاً العودة إلى رحابها. وإذا كنا سنقدم ونؤخر فإن العقل والمنطق والحكمة والسياسة الشرعية كل ذلك يوجب البدء بالأهم، وإذا كنا سنبحث عن الأهم في تطبيق الشريعة، فإن إقرار الوحدانية لله سبحانه وتعالى والدعوة إلى ذلك هو أهم المهمات وأولى الأولويات.

وإقرار التوحيد يعني الإعلان بأن الدولة حكومة وشعباً إنما تقوم للإسلام وبالإسلام وهذا يعني أن الجميع في خدمة الإسلام، وأن سياسة الدولة العليا هي في توحيد الله والدعوة إليه ونبذ كل ما يخالف ذلك، ومما يخالف ذلك التسبيح بحمد الملوك والرؤساء صباح مساء، والاحتكام في أي خلاف لغير القرآن والسنة.. إن إعلاناً كهذا يعني بداية للطريق الصحيح في العودة إلى الإسلام يأتي بعد ذلك إقرار هذا المبدأ بالدعوة إليه بحكمة وعلى بصيرة وعلى مكث أيضاً ونعني بالمكث التريث والعمل الدائب المتسم بالصبر والأناة لتربية الناس على الإسلام لا لحملهم عليه بالعصا والإرهاب.. نقول إذا كان الداعون إلى تحكيم الشريعة يريدون الخير حقاً لأنفسهم وللناس فعليهم دخول البيوت من أبوابها والبيت الإسلامي لا يبدأ بتقطيع الرؤوس باسم الإسلام وإنما يبدأ بالدعوة الحكيمة إلى الله سبحانه وتعالى ومن الخير لأمة الإسلام أن يبدأ الحاكم فيها باتباع الحكمة في الدعوة إلى الله، ومن الحكمة إفساح المجال لصوت الحق أن يصل إلى الناس، وستكون أكبر خدمة للمسلمين في العصر الراهن من حكامهم أن يرفعوا أيديهم عن الدعاة الحقيقيين إلى الله سبحانه وتعالى، ويفسحوا صدورهم لسماع كلمة الله جل وعلا، ويسمحوا بأن تعاد صياغة مناهج التعليم والتربية وفق الإسلام، وأن يعملوا على تنقية مجتمعاتنا من الفساد بالهدوء والحكمة، وأن ينصفوا الشعوب من أنفسهم فيعيشوا في مستواهم ويسمعوا لشكاتهم وأن يتصفوا بالرحمة والعدل، وأن يعملوا على مداواة جراح الأمة المثخنة بالجراح والآلام، وأن يعملوا على إطعام الجياع، وإكساء العراة، ومسح الدموع من أعين الثكالى والمحرومين.

على حكامنا إن أرادوا حقاً الدعوة إلى الله والاحتكام إلى شريعة القرآن أن يقربوا أهل الأخلاق والدين والفضيلة والعفاف، وأن يبعدوا عن بطانتهم أهل النفاق

والكذب والغش والسرقة، وهذه بدايات متواضعة جداً للدخول في البيت الإسلامي الطيب الطاهر.

وأما البدء بتطبيق حكم المرتد، فإنه يحمل آفات عظيمة على الإسلام والمسلمين؟ فعلى من ستطبقون حكم المرتد في وقتنا هذا؟

هل ستطبقونه على المسلم المتأول لكلام الله وكلام رسوله؟ وما أكثر التأويل في زماننا؟ ولعله لا يخلوا مذهب عقائدي أو بدعة ظهرت في الإسلام إلا ولها الآن أنصار ومشايعون، ومن فضول القول أن نقول إن كل أصحاب غلة وفرقة يرون مخالفيهم مرتدين خارجين عن الإسلام أو على الأقل يلزمونهم الكفر. أم هل ستطبقونه على الذين تركوا الصلاة والصوم متعمدين مجاهرين؟ وما هو موقفكم غداً من العصاة المصرّين المجاهرين وكما هو معلوم من الإسلام أن من جحد شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة فهو كافر. فالحجاب الشرعي للمرأة من المعلوم من الدين بالضرورة فهل ستطبقون حكم المرتد على كل امرأة لا تلتزم بالحجاب الشرعي وعلى كل كاتب يقول بأن الإسلام رجعية والحجاب رجعية والزواج بأربع رجعية؟.

وما موقفكم غداً ممن يرفض الحكم بالشريعة والله يقول ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٤] ويقول ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥] فما موقفكم غداً ممن يحكم بغير شريعة القرآن أو يتحاكم إلى غير حكم الله هل ستطبقون عليه أيضاً حكم المرتد؟!.

يبدو بعد هذا الإيضاح أن تطبيق حكم المرتد سابق لأوانه جداً، فالمجتمع بكل طوائفه يعيش في ردة حقيقية إلا من عصم الله وهؤلاء المعصومون قلة ـ ولا نكابر ـ والإسلام الحق يحتاج منا إلى جهود طويلة مخلصة مثابرة والعبء الأكبر من ذلك يقع على الحكام وهم مسؤولون بين يدي الله غداً عن هذه الأمانة ودعواتنا لهم أن يوفق الله أهل الإخلاص والتقوى منهم إلى سلوك سبيله، وأن يلهم الجميع العودة الحقة إلى شريعته.

٥ أغسطس ١٩٧٧

الدوّامة

أصدق وصف من الممكن أن نصف به حالة الأمة الإسلامية اليوم هو أنها تعيش في الدوامة، فالتمزق السياسي، والنزاعات الإقليمية، والانفصال النفسي، وضياع الأهداف وابتعاد الآمال بالعزة والسيادة، واللهث وراء الأحداث المتناقضة المتشابكة وعدم فهم ما يدور.. كل هذه ملامح واضحة للدوامة التي تلف العالم الإسلامي.

وليس العالم الإسلامي وحده في هذه الدوامة، بل إن شعوب الأرض جميعاً قد أصبحت أجزاء تائهة وسط هذه الآلة الرهيبة التي تطحن الجميع بلا رحمة، فالأزمات النفسية، والصراعات الدولية، والتسابق الجنوني نحو مصادر الطاقة والمواد الخام، والأسواق والإنتاج الصناعي المجنون لكل شيء وبلا حساب، والركض اللاهث نحو أسلحة الدمار والفناء.. كل هذا وغيره جعل إنسان العصر هو إنسان الصراع أو الإنسان التائه، وجعل السمة الأساسية لعصرنا الرهيب هو «الصراع».

ولو خرجنا قليلاً بأنفسنا من الدوامة لنلقي نظرة عامة من خارجها لوجدنا أن البداية لهذه الدوامة المعقدة هو انتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط انجلترا وفرنسا اللتين خرجتا منتصرتين ظاهراً ولكن منهزمتين حقيقة واللتين أفسحتا المجال مرغمتين لدولتين أخريين هما أمريكا وروسيا، وببروز هاتين الدولتين منذ ذلك الوقت وإلى اليوم نشأ استعمار جديد حل مكان الاستعمار الإنجليزي والفرنسي التقليدي القديم.. وبحلول الاستعمار الجديد تغيرت كافة الأساليب الاستعمارية القديمة التي كانت تعتمد على الجيوش الغازية والمعاهدات التي تخول للمستعمر الاستئثار بالسياسة الخارجية والأمن الداخلي والحماية الخارجية إلى استعمار جديد يعتمد على المعاهدات الاقتصادية، والألاعيب السياسية والعملاء المدربين.

وإذا كان الاستعمار القديم قد خلق أبطالاً شجعاناً سواء من الجيوش الاستعمارية أو من الشعوب التي حارب أبطالها دفاعاً عن أرضها وحماها، فإن البطولة الجديدة التي خلقها الاستعمار الجديد ليست هي بطولة الحروب، وركوب الأخطار، وإنما هي اليوم اتقان فن الكذب والدهاء واللف والدوران والمناورة، فالاستعمار الجديد استعمار تصنعه أجهزة المخابرات التي لا يوجد في قواميسها وسيلة ممنوعة للوصول

إلى الأهداف، وهذه الأجهزة الرهيبة التي يستحيل على من هم خارجها أن يعرفوا ما يدور فيها يتحكمون بكل شيء تقريباً حتى برؤساء الدول العظمى التي تدير عجلة هذه الدوامة. هذا الأخطبوط الخفي الذي لا يعمل إلا في الظلام هو المحرك الحقيقي للدوامـة العالمية التي نعيشها اليوم، وهذه المظاهر والظواهر السياسية التي نشاهدها في كل مكان من ثورات وانقلابات وحروب وتصريحات وتهديدات يستحيل تفسيرها إلا وفق المعادلات المعقدة التي تحكم هذه السياسة الخفية، والذين يحاولون منا تفسير هذه الظواهر السياسية بعيداً عن فهم هذه المعادلات المعقدة يقعون في التناقض ثم في الحيرة والالباس ثم في اليأس واعتزال الفهم والتفكير. .

بعد هذا العرض السريع والموجز لمظاهر الدوامة التي تلف العالم يرد هذا السؤال: ألا يمكن أن نخرج من هذه الدوامة؟

والجواب: يجب أن نعلم أولاً أننا لا نعيش وحدنا في هذا العالم، وأن الحدود السياسية أصبحت الآن خطوطاً وهمية على الخرائط وأن الوقت الذي كانت تستطيع فيه دولة ما أن تغلق فيه الأبواب على نفسها وتعيش بعيداً عن العالم قد انتهى والعالم اليوم قد أصبح قرية صغيرة فمن بيتك اليوم ترفع سماعة التليفون وتخاطب صديقاً في أمريكا وصديقاً آخر (بمجرد إدارة القرص) في اليابان. والغزو الإعلامي الخارجي دخل البيوت إلى مخادع الزوجات وليس هناك مكان في العالم اليوم بمنأى عن الحرب المدمرة والمصالح الاقتصادية تشابكت بحيث لو حدث إضراب عمال في مكان ما من العالم لتأثرت أجزاء كثيرة له، ولو احترقت نصف آبار البترول في العالم اليوم دفعة واحدة لعاد الناس جميعاً إلى ما قبل الآلة ولاندثرت الحضارة الحديثة، وأي خلل في ميزان القوى، وفي ضبط النفس بين روسيا وأمريكا يعرض العالم للدمار. ولقد وقف العالم على هذه الهاوية مرات عديدة وكادت أن تقع الكارثة، وكل يوم يأتي يزيد من احتمال الوصول إلى حافة الهاوية. . باختصار لسنا وحدنا في هذا العالم، ولكن ثمة أمم ودول كانت تعاني مثلنا هذه الحالة من الضياع والدوار والشتات، ولكن بفضل رجال مخلصين من أبنائها استطاعت أن تخرج ولو قليلاً من الدوامة الروسية الأمريكية مع أنها مع ذلك لم تتخلص نهائياً وهذه الدول هي: الصين، واليابان، وألمانيا، ولست بصدد بيان الدور الذي اضطلعت به كل دولة منها

لتتخلص جزئياً من التكالب والسيطرة الروسية الأمريكية عليها. وأما منطقتنا الإسلامية والعربية منها بالذات فما زالت نهباً للصراع بين العملاقين، ومجريات الأحداث فيها لا يمكن فهمه بعيداً عن هذا الصراع.

وهناك أمران اثنان يجعلان هذا الصراع شرساً أليماً فالعامل الأول هو هذه المميزات الظاهرة التي تتمتع بها هذه المنطقة من التوسط الجغرافي بين دول العالم والثروات الهائلة التي يزخر بها الوطن الإسلامي العربي (البترول، والزراعة). والعامل الثاني هو وجود إسرائيل هذه الدولة التي عاشت عميلاً أميناً للشيوعية العالمية والرأسمالية العالمية في آن واحد والتي تختلف الدول الكبرى دائماً حول مصالح كل منها، ولكنها تلتقي دائماً حول بقاء إسرائيل في أرض فلسطين، ويستحيل على اليهود أن يقبلوا أمة إسلامية موحدة خارجة عن اللعبة العالمية والصراع الدولي والدوامة الرهيبة.

هذه الخطوط العامة التي نضعها بين يدي القارىء لملامح الدوامة الرهيبة التي تلف عالمنا الإسلامي سيستطيع بها أي فرد آتاه الله نصيباً من الذكاء والفهم أن يحل شيئاً من معضلة الحرب اللبنانية، وأن يفهم جانباً من معضلة الحرب ـ المصرية ـ الليبية، وأن يدرك لماذا وفي بلادنا الإسلامية بالذات يصاب الناس بالإحباط وخيبة الأمل والدهشة وعدم الفهم والتعصب الأعمى، وأيضاً بالتطرف واستعمال العنف أنها جميعاً محاولات يائسة للخروج من الدوامة.

٢٩ يوليو ١٩٧٧

لحساب من تعمل إسرائيل؟

أصبح واضحاً الآن أن منتهى آمال السياسة العربية هو إزالة إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ في مقابل السكوت النهائي عن وجود إسرائيل في بقية فلسطين، وإعطائها صك غفران لإساءاتها السابقة وصك أمان لحياتها المستقلة وفتح الطريق أمام نشوء علاقات عادية بين اليهود وجيرانهم من العرب، ويتصور السادة الرؤساء أن بهذا الحل سيحققون المكاسب التالية:

أولاً: التخلص من عقدة الفلسطينيين وذلك بجمعهم في «وطن» وإلقاء المسؤوليات والهموم الفلسطينية على الفلسطينيين. .

ثانياً: تفرغ الدول العربية التي تضررت بالحروب المتلاحقة مع إسرائيل لمعارك التنمية والخروج من الضائقات الاقتصادية التي تعانيها وخاصة مصر وسوريا.

ثالثاً: استمرار تدفق النفط إلى الغرب والشرق، وذلك بما يتيحه الاستقرار الذي سيوفره البعد عن الحروب، ويعني هذا استمرار تدفق الثروة والغنى على دول النفط، وتحررها ولو نسبياً من مشاكل الدعم للدول المواجهة.

وهذا الهدف النهائي أو مع ـ حسن الظن ـ المرحلي للساسة العرب قد تبلور بشكل نهائي عند الساسة العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ ولذلك قبلت الدول العربية بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ وقبلت أيضاً بمبادرة روجرز وكل هذه كانت خطوات نحو هذا الهدف، وجميع البيانات المشتركة التي أعلن عنها بعد لقاءات عربية ودولية كانت تحمل في طياتها هذه الغاية كالقول بأحقية كل دول المنطقة في العيش بسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها. . الخ.

وهذه الغاية النهائية المنشودة لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي ليست في الحقيقة من صناعة العرب ولا من اختراع زعماء السياسة ولكنها في الحقيقة هي الحل الوسط الذي تريده القوى الدولية الكبرى روسيا وأمريكا، بل وأيضاً الدول الشرقية والغربية عامة وهذا ما تعرب عنه جميع البيانات السياسية لهذه الدول في كل مناسبة تتعلق بهذا الصراع، وإن كان هناك خلاف قائم فإنما هو في التفصيلات والأشكال والسبل ليحقق ذلك فقط وليس في الجوهر أو المضمون، كالخلاف القديم بين روسيا وأمريكا هل يوصل إلى هذا الحل دفعة واحدة أو على دفعات (خطوة خطوة) والخلاف بين روسيا وأمريكا: هل يمثل الفلسطينيون في جنيف (مؤتمر السلام) بوفد مستقل أو بوفد ضمن الدول العربية، أو وفد ضمن الأردن. . الخ، وكلها خلافات شكلية لا يغير من المضمون شيئاً. .

هذا الهدف الغالي للدول الكبرى وللسياسة العربية أيضاً قد اتخذ الساسة العرب للوصول إليه طرقاً مختلفة نستطيع أن نجملها فيما يأتي:

أولاً: التهديد باستعمال القوة، وقد فعلت مصر هذا بعد هزيمة ٦٧ حيث أعلن مراراً عن إعادة تكوين الجيش المصري بعد الهزيمة وإعادة تسليحه بأفضل مما كان وتهديد عبدالناصر بالخطابات النارية كقوله: «سنحررها شبراً شبراً، وما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة. . الخ» هذه المقولات، التي لم تغن شيئاً في زحزحة الإسرائيليين عن مواقفهم أو رضوخهم لقرارات الأمم المتحدة أو انسحابهم.

ثانياً: استخدام الحرب الجزئية، وقد فعلت مصر هذا أيضاً لتمارس بحرب الاستنزاف على ضفتي القناة، ولكن هذه الحرب كانت خسارة عظيمة للعرب، فقد خربت آثار هذه الحرب مدن القناة الثلاث. . (السويس، وبور سعيد، والإسماعيلية) وهجر أهلها، وكلفت مصر الكثير من أموالها ورجالها وقادتها أيضاً. .

ولكن حرب ١٩٧٣م الجزئية التي باغتت اليهود في وقت ما كانوا يحلمون فيه بأن للعرب قدرة على الوقوف أمامهم وبأخذهم تصريحات الرئيس السادات بالحسم والحرب مأخذ الهزل، هذه الحرب كانت قمة موفقة لحرب الاستنزاف فقد صدمت المجتمع الإسرائيلي صدمة كبيرة ولكنه أفاق على أثرها أكثر تصميماً وتشبثاً بالأرض وأكثر عزماً على البقاء في مواقعه.

ثالثاً: استمالة الدول الكبرى لتضغط على إسرائيل بقبول (الحل العادل) وقد اتخذت هذه الاستمالة صوراً شتى فمن التهديد بقطع البترول عنهم، إلى التهديد بسحب الأرصدة (الأموال)، إلى السير في الفلك الروسي أو الأمريكي، وذلك بإعطاء التسهيلات العسكرية والاقتصادية وتحقيق مآرب أخرى لبعض الدول الكبرى ضد بعضها الآخر.

وهذه هي الورقة الأخيرة المتبقية في أيدي الدول، أعني أنه لم يبق من الساسة العرب لإقناع إسرائيل بقبول الحل الوسط إلا الضغط على الدول الكبرى لتضغط بدورها على إسرائيل لقبول هذا الحل العادل.

وهذه الورقة أعني هذا الطريق الثالث للوصول إلى الحل قد أعطاه الساسة العرب كل الأهمية وعلقوا عليه كل آمالهم، بل قال الرئيس أنور السادات إن أمريكا تحمل

في يديها ٩٩٪ من أوراق القضية ومعنى هذا أنها تستطيع إجبار اليهود على القبول بما تريد وقد علل الرئيس السادات هذا بأن إسرائيل تحصل من أمريكا على الزبد والسلاح أي على الضرورات العسكرية، والكماليات الغذائية، وهذا يعني أن إسرائيل في يد أمريكا تماماً وهذا يعني أن الضغط على أمريكا يعني الضغط على إسرائيل.

هذا الطريق الثالث الذي عول عليه الساسة العرب وأعطوه هذه الأهمية سيكون فشله أيضاً في تحقيق التسوية المنشودة بمثابة كارثة ونكسة جديدة بالنسبة للسياسة العربية، وهنا يطرأ سؤال، ما البديل أمام السياسة العربية إذا فشل هذا الطريق الثالث؟ ولا يمكننا الإجابة على هذا السؤال إلا إذا عرفنا أولاً الإجابة على الأسئلة التالية: من الذي يخطط سياسة إسرائيل هل هي أمريكا؟ أعني هل حقيقة القول بأن إسرائيل ذنب صغير للسياسة الأمريكية، أو كما يُقال: منفذ حقير لسياسة البيت الأبيض؟ أم هل عكس هذا هو الصحيح وهي أن أمريكا (بجلالة قدرها) تسير وفق السياسات الصهيونية والضغوط اليهودية التي تتحكم فيها؟ أم أن إسرائيل شيء آخر لا هو هذا ولا ذاك؟

القول الأول أعني القول بأن إسرائيل هي طفل أمريكا المدلل هو القول الذي أفرز سعي العرب في طريقهم الثالث أعني القول بأن الضغط على أمريكا يعني الضغط على إسرائيل، وهو القول الذي جعلنا نفقد القدرة والاعتماد على أنفسنا ونلقي بثقلنا كله: أموالنا وبترولنا وسياساتنا تحت أقدام الغرب ليقوم بدوره بإقناع طفله بالعدول عن حماقاته.

والقول الثاني وهو الغالب والشائع في كتابات الإسلاميين للأسف وهو يصور اليهود حكام العالم من شرقه وغربه وشماله وجنوبه وأن جميع الدول والحكومات تسير خلف الحكومة الخفية التي كونتها الأفكار الصهيونية، وهذا القول يفرز آراء مضحكة في السياسة والاقتصاد بل يكاد أن يلغي سنة الله في الكون ويجعل هذه الحكومة الخفية هي الرب الذي يملك التدبير في هذا الكون، ويفرز هذا القول أيضاً أشخاصاً يتلفتون وراءهم في كل خطوة خوفاً من العين الصهيونية التي تراقب الناس في السر والعلن، ويفرز أيضاً اتهام كل إنسان مهما كان معتقده ولونه بأنه عميل للماسونية والصهيونية. . !!

والحق أن إسرائيل ليست هذا ولا هذا فلا هي طفل أمريكا المدلل ولا هي سيدة أمريكا والمتصرفة في شؤونها، وإذا أردنا وصفاً مختصراً لإسرائيل وعلاقاتها الدولية مع العالم فإننا نقول: «إسرائيل هي العميل المحترف الذي يشتغل لنفسه، وإسرائيل دولة مستقلة سياسياً في حقيقتها، ولكنها تبدو تابعة منفذة في ظاهرها»، «إسرائيل هي هذا القرصان الماهر الذي استطاع أن يسرق وطناً بأكمله وأن يشرد شعباً بأكمله على مرأى العالم وبصره وقد استطاع أن يقنع جميع اللصوص والقراصنة العالميين ببعض المكاسب في مقابل السكوت والموافقة على هذه الجريمة». . «إسرائيل هي هذا المحامي المنافق الكذاب والبارع أيضاً الذي استطاع أن يلبس المعتدي لباس المظلوم وأن يخلع على صاحب الحق لباس الظالم، وأن يضلل القادة، ويسعر المتفرجين والمشاهدين ويحرق قلوب أصحاب الحق، ويفوز بالقضية».

هل عرفتم يا سادة من هي إسرائيل؟

إسرائيل وضعت أهدافها النهائية في عام ١٨٩٧ أي قبل ثمانين عاماً كاملة، نافقت السلطان العثماني عبدالحميد وقبلت قدميه ليسمح لها بمأوى لليهود في فلسطين فأبى فألبت عليه حتى أنهت الخلافة، ثم سارت في ركاب انكلترا لتسمح لها بمأوى في فلسطين وفعل الإنجليز ثم عندما أرادوا أن يجاوز اليهود هذا الهدف حاول الإنجليز منعهم فحاربوهم وتعقبوا ضباطهم في فلسطين لقتلهم. إسرائيل عملت لحساب الشيوعية، فنشرت مبادئها وقدمت لها الأموال الأمريكية الصهيونية لإقامة ثورتها في روسيا، وحصلت منها في مقابل ذلك على تدريب عصاباتها في تشيكوسلوفاكيا والحصول على الاعتراف بها في عام ١٩٤٨، ثم قالت بعد ذلك لروسيا لا، في مناسبات كثيرة.

إسرائيل عملت لحساب فرنسا وقدمت لها تسهيلات كثيرة وحصلت منها على مفاعلها الذري في ديمونة أسرار الكمية الذرية على الأسلحة التي انتصرت بها في ١٩٦٧، ودخلت حرب ١٩٥٦ تحت جناحها مع انجلترا واليوم تقول إسرائيل لفرنسا لا في مواقف كثيرة.

وإسرائيل عملت ومازالت تعمل لحساب أمريكا، وهذا أشهر من أن يدلل عليه،

ولكنها قالت لا لأمريكا في مناسبات كثيرة، فلم توافق لأمريكا على التفتيش على مفاعلاتها الذرية ولم توافق على مبادرة روجرز، واليوم تقول إسرائيل لأمريكا كارتر لا، وذلك رداً على مشروعاته وآماله في التسوية السلمية.

ولا يعني هذا بالطبع أن إسرائيل تعارض حيث تشاء وتوافق حيث تشاء، لا، ولكنها تحسب قوتها ومقدرتها وتقول نعم أو لا في الوقت والظرف المناسب لها ولقوتها وحجمها، وهي في كل ذلك تشتغل لحسابها، ويظن السذج أنها تشتغل لحساب الآخرين.. حقاً إنها ترضي الآخرين ليسكتوا أو ليساعدوا أو ليؤيدوا.. ولكنها لا تعمل في النهاية لحسابهم وإنما تعمل لحساب إسرائيل.

واليوم تقول إسرائيل لأمريكا «لا» للتسوية السلمية على هذا النحو ولن نتراجع شبراً واحداً عن (أرضنا المحررة) في الضفة الغربية وغزة، فماذا ستصنع أمريكا؟ وماذا سيصنع الساسة العرب؟ وما هي الخيارات أمام أطراف النزاع، الجواب على هذه الأسئلة في الأسبوع الآتي إن شاء الله..

٢٧ مايو ١٩٧٧

كارتر و«القاضي سليم»

* الرئيس الأمريكي كارتر قد صرح عدة تصريحات متناقضة حول قضية واحدة وهي قضية فلسطين، وهذه التصريحات المتناقضة صدرت عن الرئيس بعد قراءة لتقرير أو لقاء مع رئيس، فبينما كان الرئيس الأمريكي يقوم بحملته الانتخابية هاجم هو الرئيس فورد بأنه لم يعط إسرائيل الدعم الكافي لصمودها ضد جيرانها العرب الذين يريدون تدميرها، ومعلوم أن فورد قد ساعد إسرائيل بما لم يساعدها رؤساء أمريكا جميعاً الذين تعاقبوا قبل فورد منذ عام ١٩٤٨، وبهذا التصريح حصل كارتر على نصيب الأسد من دعاية اليهود في أمريكا وأصواتهم وبعد أن تولى كارتر الحكم وفاز على منافسه اعتمد تقريراً لمعهد برزنسكي وضع كأساس لحل (عادل) بين العرب واليهود وهذا التقرير يوصي بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام مناطق منزوعة السلاح وإقامة سلم دائم وعلاقات طبيعية بين إسرائيل

وجيرانها، ويبدو أن كارتر الذي أخذ على عاتقه منذ أول شهر تولى فيها الرئاسة أن يحكم بمبادىء خلقية وأن يدافع عن حقوق الإنسان. وجد أن الشعب الفلسطيني قد اضطهد فصرح تصريحاً غريباً وهو أن يكون قرار الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٧ والذي ينص على تقسيم فلسطين بين العرب واليهود هو الأساس لحل المشكلة وأن يعوض تبعاً لذلك العرب الذين تركوا ديارهم في حرب سنة ١٩٤٨ وهذا شيء لم يطالب به حتى رؤساء العرب أنفسهم الذين يسعون للصلح والسلام. وبعد هذه التصريحات تنامت حملة الدعاية ضد كارتر ووصف بأنه «صاحب الفم المفتوح» ولذلك وجدناه قد غير آراءه هذه ثانية عندما قابل الرئيس السادات، واقترح أن ينسحب الإسرائيليون إلى حدود ٦٧ شريطة أن تكون لهم حدود أخرى على نهر الأردن يبنون عليها وسائل لدفاعهم وأمنهم وهذا ما رفضه الرئيس السادات وأخبر أنه اختلف بشأنه مع كارتر. ويبدو أن كارتر غير رأيه ثانية أيضاً بعد لقائه مع الأمير فهد ولي عهد المملكة العربية السعودية.

والشيء العجيب حقاً أن كارتر نفى بشدة تصريحات بيغن عندما افتتح مستعمرة «قدوم ـ سبسطية» وقال عن الضفة الغربية أنها أرض محررة لأن الإنسان لا يحتل وطنه. وقد رد بيغن على استنكار كارتر قائلاً: «أن كارتر يؤمن بالتوراة فلماذا يستنكر تحريرنا لأرض الآباء وسأناقشه في هذا عند زيارتي له» وقد كان. فقد استقبل كارتر بيغن استقبالاً حاراً وكان نقاشهما السياسي مستنداً إلى نصوص التوراة وبينما كان بيغن (اليهودي المتعصب) يتلعثم أحياناً في قراءته لبعض نصوص التوراة كان كارتر يكمل له النص بقراءة سليمة من الذاكرة فكارتر يحفظ التوراة تماما. وغني عن البيان أن بيغن قد أقنع كارتر بوجوب بقاء اليهود في الضفة الغربية وباستحالة انسحابهم منها ولذلك افتتح ثلاث مستعمرات جديدة في الضفة الغربية بعد عودته، وظن البعض هذه خيانة من بيغن لكارتر ولكن الصحيح أنه اتفاق فإن كارتر قد سئل ـ كما نشرت التايم ـ عن فعلة بيغن هذه وموقف أمريكا منها، فقال كارتر: «أنا لا أستطيع أن أتكلم باسم بيغن وتصرف بيغن هذا يخالف موقف أمريكا الوطني». ومفهوم المخالفة لهذا القول يعني أن موقف كارتر الشخصي لا يتنافى مع موقف بيغن وتصرفاته السياسية وبذلك تخلى كارتر عن كل تصريحاته ومواقفه السابقة وتحول من النقيض إلى النقيض. وتشبه مواقف كارتر هذه القصة المشهورة عن القاضي سليم الذي ما كاد

يعين قاضياً حتى أتاه رجل فعرض عليه شكوى مؤثرة حزينة فتأثر لها ورأى ـ قبل أن يسمع الطرف الآخر ـ أن الحق معه فقال له: الحق لك وحكمت لك بكذا وكذا. ولكنه ما كاد يفعل حتى أتى خصمه وقص قصة أشد تأثيراً وأعمل في النفس من قصة خصمه فتراجع القاضي سليم عن حكمه السابق وقال: لا الحق معك أنت وحكمت له بكذا وكذا! ولكنه ما كاد يدخل ليستريح عند زوجته حتى بادرته قائلة: ويحك يا سليم!! كيف تصنع هذا يا رجل. تسمع من الخصم الأول ثم تحكم له دون أن تسمع من الطرف الآخر ثم تسمع من خصمه وتحكم له. فقال القاضي سليم: الحق معك أنت.

* والآن بصرف النظر عما يقال من تبرير لهذه التناقضات بأنها سياسية أو (دبلوماسية) فإنها توجب علينا أن نراجع حساباتنا مع أمريكا قبل أن تحل الكارثة. وذلك أن سياسة الكذب لا تعتمد على التناقض ولكن على الانسجام فالذين يكذبون في سياستهم يعتمدون تسوية كذباتهم وانسجامها ولذلك فإن تصريحات كارتر المتناقضة ما هي إلا تنازلات حقيقية وتغييرات جذرية لفهمه لقضية فلسطين ومعنى هذا أنه مستعد لتغيير موقفه غداً إذا لاح في الأفق أبواب جديدة من الضغط والتأثير وليس صحيحاً أيضاً أن الرئيس في بلد كأمريكا منفذ فقط لآراء المؤسسات السياسية القائمة بل إن طباع الرئيس ومزاجه وعقيدته ومثالياته وأخلاقه لها تأثير كبير في اتخاذ القرار السياسي في بلد كأمريكا وهذا يعني أن تعاملنا مع أمريكا فورد مثلاً ليس كتعاملنا مع أمريكا كارتر للاختلاف الهائل بين الرجلين. والطرف الآخر في مشكلتنا نحن هم اليهود وهم شعب كان وما يزال دائماً على استعداد لأن يدمر نفسه ويدمر العالم إذا حوصر في الموقف الصعب. وقد ذكرنا مراراً أن انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وغزة وإقامة كيان فلسطيني فيهما هو الموقف الصعب بالنسبة لإسرائيل وما زلنا نقول أنها لن ترضى به مطلقاً مهما حدث. وقد استطاعت إسرائيل كسب الجولة الآن بإقناع كارتر بعدم الانسحاب من هذه الأراضي والبحث عن حل آخر. والرؤساء العرب الذين تعاقبوا على زيارة أمريكا وحصلوا على وعود كارتر السابقة قد جاء بيغن بعدهم ونسفها من أساسها (والله أعلم ما الذي اتفقا عليه في الخفاء) والمشكلة التي كانت قائمة أمام أمريكا هي مشكلة البترول ويبدو أن إسرائيل قد دبرت امراً الآن لاحتلال منابع النفط والحيلولة دون قطع امداداته عن أمريكا في حالة

نشوب حرب جديدة، وبذلك أخذت إسرائيل الآن طرف الخيط من أمريكا التي كانت قد دربت فرقاً من جيوشها على حرب الصحراء عندما هدد كيسنجر باحتلال منابع النفط.

* الذي يبدو الآن أن الدول العربية قد فقدت خيار السلم وقد سقط سلاح الضغط على أمريكا الذي شهره العرب واستطاعت إسرائيل الآن إبطال مفعوله وليس أمام الساسة العرب الآن إلا القبول بالاستسلام الكامل لإسرائيل فيما حصلت عليه من أراض بل والتنازل لها عن حصة من البترول العربي، أو الاستعداد لحرب خامسة جديدة، ولقد حذرنا منذ قرابة عام بأننا سنصل حتماً إلى هذه النتيجة وأن إسرائيل لن تتنازل عن شبر واحد من الأرض حتى في مقابل السلام.

والآن على الدول العربية المسارعة بتحصين منابع النفط، والاستعداد للحرب الخامسة التي ستبدأها إسرائيل.. ولتعلم الأنظمة العربية التي أرادت أن تسابق إسرائيل في كسب ود أمريكا والحصول على تأييدها والقيام بالدور الذي تقوم به إسرائيل لأمريكا أنها لن تجاري إسرائيل في ذلك فقد صرح مسؤول كبير في المخابرات الأمريكية أن إسرائيل قد زودت الولايات المتحدة بمعلومات طيلة السنوات الماضية لا تقدر بثمن!! فقيام بعض الأنظمة العربية بدور الشرطي الأمريكي في المنطقة لن يفيد أيضاً في كسب ولاء أمريكا وإنما سيؤدي في النهاية إلى تقسيم الدول العربية بين روسيا وأمريكا وإلى قتل المسلم بيد المسلم ولاية لأعداء الله وهذه هي الردة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٥١]. أقول يجب على الساسة العرب الآن الدعوة إلى مصالحة حقيقية تحت شعار الأمة الإسلامية الواحدة واطلاع الشعوب على حقيقة الخلاف بين البلاد العربية عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٩].

ثم بعد ذلك قطع حبل التنازلات للعدو وملاقاته صفاً واحداً، وتوكيل طرف واحد للتفاوض عن الدول الإسلامية العربية كلها بدلاً من هذه التناقضات في المواقف وسماع مبعوث أمريكا كلاماً مختلفاً في كل بلد عربي يصل إليه، واطلاع

الأمة أولاً بأول عما يـدور من مفاوضات وبهذا نستطيع أن نقف صفاً واحداً في وجـه أعدائنا، وبذلك نطلع الرئيس كارتر أو القاضي سليم على مشكلتنا بصورة سليمة.

١٢ أغسطس ١٩٧٧

وا إسلاماه!!

* عندما أعلن الرئيس أنور السادات عزمه وتصميمه على السعي في سبيل السلام ولو ذهب إلى إسرائيل، وكان ذلك أمام البرلمان المصري. قضيت يوماً بائساً حزيناً، وحمل الناس الذين التقيت بهم في ذلك اليوم كلام الرئيس السادات هذا محمل الهزل والمناورة.. ولكنني قلت لهم أن إسرائيل ستستغل ذلك وإني أرى أن الرئيس السادات لن يستطيع أن يرجع عن عزمه هذا إذا أحرجه اليهود ودعوه إلى هناك، وقد كان.. ويوم ذهب الرئيس للقاء أعداء أمتنا التقليديين كان الله قد أكرمنا بحج بيته المقدس في مكة المكرمة وكان الناس مذهولين مندهشين لا يصدقون ما يسمعون ويلعنون ويكفرون ويدعون.. وجاءني أحدهم وقال: أتصدق حقاً أن الرئيس أنور السادات قد ذهب إلى اليهود وجلس معهم!! أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك!!.. وشغل الناس بأداء المناسك وخطب خطيب المسلمين في مسجد نمرة بعرفات فدعا على اليهود قائلاً: اللهم أهلك اليهود ومن والاهم.. وردد ذلك مراراً، ورد الناس وراءه في حرقة بالغة وألم قاتل. وتفرق الحجيج إلى ديارهم.. وعدنا لنشهد المأساة ولنقرأ ونسمع ما تقذفه المطابع من غثاء، وما تبثه الإذاعات من هراء عدنا لنعيش مأساة أمتنا في وقت أضحى فيه الحق باطلاً والباطل حقاً، والعدو صديقاً، والصديـق عدواً. عدنا لنجد النهار أشد ظلمة من الليل والليل لا ينتظر الناس فجرا وراءه..

لقد أعطى الرئيس السادات اليهود في خطابه أمام الكنيست منتهى ما طلبوه وما كانوا يحلمون به قبل أن تصل الليكود إلى الحكم.. فمنذ هزيمة ٦٧ وهم يقولون لنا الأرض في مقابل السلام.. وكذلك قالوا بعد ٧٣: قطعة أرض بقطعة من السلام.. وبعد وصول مناحيم بيغن قال: الأرض مقدسة وهي أرض الآباء والأجداد ولن نتنازل عن أرض يهودا والسامرة (الضفة الغربية) وقد أصر بيغن على هذا الموقف منذ تولى الحكم وإلى يومنا هذا ولم تغير زيارة الرئيس له شيئاً بل زاده ذلك إصرارا

وتمسكاً ويقيناً بأنه حتماً واصل إلى ما يريد. . الاحتفاظ بالأرض ونيل السلام وتحقيق الاستسلام. .

وغداً سيأتي اليهود إلى القاهرة أرض الكنانة التي حفظ الله برجالها أمة الإسلام من أكبر خطرين على مدار التاريخ: خطر التتار وخطر الصليبيين. وسيحفظ الله بشعبها ورجالها أمتنا أيضاً من خطر اليهود الذي لا يقل عن خطر التتار والصليبيين. . أقول غداً سيأتي فروخ اليهود إلى أرض مصر أعزة فاتحين يبحثون عن أمنهم وسلامتهم الأبدية - في ظنهم - وسيحاولون عزل مصر عن الأمة الإسلامية، سيحاولون استبدال صحراء سيناء بإخراج مصر من التصدي لأعظم خطر يواجه الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث خطر اليهود. فهل سينجحون؟!. لقد قال الرئيس السادات أنه لن يوقع صلحاً منفرداً مع إسرائيل ونرجو أن يتمسك بكلمته هذه وإلا فسيعني هذا الكارثة. .

كنا نظن أننا كمسلمين وكعرب لا نجمع على شيء إجماعنا على أن اليهود خطر يجب استئصاله من جسم الأمة إن عاجلاً أو آجلاً أو على الأقل يجب احتواؤه والإحاطة به، أو يجب هضمه وتذويبه والسيطرة عليه تحت أعلام الإسلام ورايات القرآن. ولقد وسع صدر المسلمين في تاريخهم الطويل أن يحمو المستأمنين والمعاهدين والمسالمين. . أقول كنا نظن أن هذه الحقيقة (الخطر اليهودي) لا مراء فيها ولا جدال بين رجلين ينتميان إلى هذه الأمة عقيدة وتاريخاً وثقافة وعاطفة. . ولكننا نجد الآن أن هذه الحقيقة أصبحت مجال خلاف بل وتضاد. . وقبل سنوات لم يجرؤ أحد أن يقول: نمد يدنا بالصلح والسلام مع اليهود إلا أصوات منكرة من بعض الشيوعيين في فلسطين ومصر، ولقد زين أولئك السلم مع اليهود بما شاءت لهم شياطينهم أن يزينوه ولكننا نجد اليوم رؤساء الدول الإسلامية إلا من رحم الله منهم يزينون لنا السلام ويحسنونه لأممهم بما لم يستطع اليهود أنفسهم أن يفعلوه وكأن السلام مع اليهود أضحى ضالة الأمة الذي تنشده منذ فجر التاريخ. .

والنفسية اليهودية التي نجابهها منذ سبعين سنة على أرض فلسطين هي نفسها النفسية اليهودية منذ بدء تاريخهم. فاليهود يحملون أوزار الماضي وحقد القرون وسيظلون يحتفظون بذلك ويحفظونه في صدورهم ما بقوا على الأرض إلا من شذ

منهم فليسوا سواء. . وما زالوا ينظرون إلى المسلمين اليوم بمنظار أسلافهم الذين أجلوا عن الجزيرة في خيبر والنضير وقينقاع، وقتلوا في قريظة. بل ويحنون إلى العودة إلى هناك ويسعون لذلك وليس المجال مجال التدليل على ما أقول، وكل قول غير ذلك هراء. بل مازال اليهود ينظرون إلى المصريين أنهم أولئك الفراعنة الذين أذلوهم في مصر وقتلوا أبناءهم واستحيوا نساءهم مع أن المصريين قد انتقلوا بحمد الله إلى الإسلام ولا يعادون اليهود لجنسهم كما كان الفراعنة، وإنما يقاتلونهم الآن وغدا إن شاء الله لخبثهم ومكرهم وظلمهم وتشريدهم لإخوانهم في العقيدة. . والحواجز النفسية التي يبنيها اليهود حول أنفسهم لا يمكن لأحد مهما كان أن يهدمها من صدورهم حتى لو أعطوا مفاتيح القاهرة ودمشق، ودخلوا المدينة المنورة فاتحين فلن يتخلى اليهود عن حقد القرون، الذي عاشوا به ومازالوا يعيشون. .

وإذا حاول الرئيس السادات أن يهدم هذه الحواجز النفسية بزيارته لهم، وتودده إليهم فإنه لن يصل إلى ذلك ولكنه قد يصل إلى بعض هذا عند الشعب المصري فقط ذلك الشعب الطيب الذي ينسى الإساءة ويعفو عن المظالم بكلمة واحدة من كلمات العواطف. ولكن هل في ذلك مصلحة للأمة في العصر الراهن. هل هناك مصلحة من كسر جدار العداء والبغضاء في نفوسنا لليهود الذين دنسوا مقدساتنا وما زالوا، وقتلوا أبناءنا وإخواننا وبناتنا ولا يزالون!؟ هل من المصلحة والواجب أن نصفح عن العدو ومازال في خنادقه يحاربنا، وأن نسامحه وما زالت دماؤنا تقطر وسكينه تلمع في يده. . ولقد قال الرئيس السادات نفسه أن الحرب كانت ستنشب قبل عشرة أيام فقط من زيارته للقدس!؟.

لماذا نريد إذن أن نكسر حاجز العداء من نفوسنا لليهود وهو أضعف الإيمان الذي نزاوله!؟ حتى كراهية اليهود وبغضهم يريد الرئيس السادات أن يجردنا منه، لا يا سيادة الرئيس إن بغض اليهود وكراهيتهم باقية في قلب كل مؤمن طالما هم معتدون مغتصبون محاربون لله ولرسوله لأن هذا منكر والرسول يقول: [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان]. (وفي رواية) [وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل]، فإذا تخلينا عن بغض اليهود الظالمين المعتدين بقلوبنا فقد تخلينا عن آخر ذرة من الإيمان في قلوبنا. .

ونرجو يا سيادة الرئيس أن تكون زيارتك للقدس اعذاراً لليهود أن يرجعوا عن غيهم ومكرهم وعلوهم وفسادهم، وأن تعود إلى مصر أرض الكنانة لتنفخ روح العزة والإباء في شعبها وجيشها، وأن تطالب المسلمين في كل الأرض أن يهبوا لرفع الظلم والعار عنهم وأن يبذلوا النفس والنفيس في ذلك وأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله!! . . ولقد قلت أن الله اختارك لتحكم مصر في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة وأن أقل واجب يفرضه عليك الدين ويأمر به الله ألا تتعامل مع عدو يريد أن يكون كلمة الشيطان والطغيان والظلم هي العليا، ويريد أن تكون كلمة الله هي السفلى. ولن يكون ذلك أبدا. .

واعلم يا سيادة الرئيس أن شهادة التاريخ لا ترحم وأنك ملاق ربك غدا وسائلك عن أمة محمد ماذا صنعت بها، وماذا صنعت لها. وأظنك لا تكذب بوعد الله!! وأنت الآن تتخذ أخطر قرار في تاريخ الأمة فإما أن تسير في ركابها وتحمل رايتها وتجاهد لإعزازها ونصرتها ولا تمكن عدواً ظالماً من رقابها، وبذلك تعيش أعظم أيام في حياتك ويخلد التاريخ ذكراك وما عند الله أكبر من ذلك. .

ونرجو ألا تكون الثانية. . وما زال أملنا في رجل دخل أول حرب فعلية مع اليهود وزلزل كيانهم، أن يصدق الله مرة أخرى. .

٢ ديسمبر ١٩٧٧

هل زيارة الرئيس للقدس هي إرادة الله وبشارة القرآن؟!

* نشرت جريدة الأهرام المصرية مقالاً للأستاذ محمد حسن التهامي نائب رئيس الوزراء في جمهورية مصر العربية بعنوان «عودة القدس». وفي هذا المقال ناقش صاحبه زيارة الرئيس أنور السادات إلى القدس من الناحية الروحية (على حد قوله) فذكر أن هذه الزيارة هي رسالة الله القدرية إلى بني إسرائيل، وأنها قد جاءت في القرآن الكريم، قال بالنص: «فأما الدوافع الروحية منها. وقد سألني عنها الكثيرون من المؤمنين والحجاج فتعجبت وقلت للسائلين ولنفسي قول الله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢] وما فيه من نور ووضوح. . أفلا تسمع قول الله تعالى في سورة الإسراء. . ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآيات: ٦، ٧، ٨]. . «ثم فسر الكاتب هذه الآية بأن الله رد الكرة لبني إسرائيل في عام ٦٧ وأنهم احسنوا فلهم ما تمنوا». . ويفسر الإحسان هنا بأنه احترام الرسالات والعيش مع أهل الأديان بسلام. ثم فسر الكاتب قول الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٢]. . الآية أن حبل الناس المقصود في الآية هو أن يعيشوا معنا بسلام. وأن هذا الحبل هو الرسالة التي قام بها الرئيس أنور السادات ليوصلها إليهم. يقول: «ذلك هو حبل الناس أي صلتهم بالناس ورباطهم مع الناس إن أرادوا الحسنى والتعايش مع الناس بما يقبله الناس. . » الخ.

وجعل الكاتب زيارة الرئيس إلى إسرائيل امتداداً لدخول عمر بن الخطاب وصلاح الدين إلى هذه الأرض. وركز في غير موضع من مقاله أن هذه الزيارة كانت تجسيداً لإرادة الله وتكليفاً منه حيث يقول عن شعوره وهو مرافق للرئيس في هذه الرحلة: «وهناك تجدد العهد في القلب وبالروح بالذكرى وبالإيحاء، وبجلال الموقف، ورهبة الخوف من الله، وبميزان المسئولية، والتكليف الذي أراده الله تعالى بوجودنا في مصلى الأنبياء والرسل فعندئذ ثبت اليقين بأن الله تعالى قد أراد بهذا الوجود خيراً». . ويقول في موضع آخر: «ولم يبق بعد هذه الرسالة التي أرادها الله تعالى إلى بني إسرائيل وإلى العالم أجمع إلا أن ندعوا لمصر ومن معها من العرب والمؤمنين بوحدة الكلمة. . »الخ. .

* ويهمنا في هذا الصدد أولاً الذب عن كتاب الله وبيان الحق في آياته التي استدل بها صاحب المقال ومعرفة ما إذا كانت هذه الزيارة تحقيقاً لإرادة الله حقاً أم لا. فنقول:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤]، معناه أي أخبرناهم في كتابهم التوراة أنهم سيفسدون في

الأرض وذلك بعلوهم على الناس وعبادتهم لغير الله سبحانه وتعالى وتحريمهم الحلال وتحليلهم الحرام وقتلهم الأنبياء بغير حق وهذا مفصل في القرآن ولا يتسع المقام لسرده، وذلك بعد أن كانوا قائمين برسالة الله من التوحيد والعبادة مطيعين لرسلهم من لدن موسى عليه السلام وقد كان هذا الفساد بعد إقامتهم اليهودية الأولى بقيادة يوشع بن نون (شعيا) ثم أخبر سبحانه أنه سيسلط عليهم من يحطم دولتهم ويزيل كبرياءهم، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٥]. وقد كان بالفعل فقد دخل الفرس إلى مملكتهم بقيادة نبوخذنصر وجاسوا خلال ديارهم في فلسطين وقتلوا من قتلوا منهم ونفوا الباقين إلى بابل. ولكن الله سبحانه مَنَّ عليهم مرة ثانية بالتجمع في فلسطين بعد أن مَنَّ عليهم (قادش) القائد الفارسي بالعودة حيث كانت مملكتهم الثانية التي قويت بقيادة داود ثم بقيادة سليمان عليهما السلام. ولكنهم بعد ذلك عادوا إلى الإفساد والعلو في الأرض فأرسل الله عليهم الرومان الذين دخلوا فلسطين وهدموا هيكلهم الذي بناه سليمان ونكلوا بهم واحتقروهم وشتتوهم في الأرض وجعلوا قبلتهم (الصخرة) مكاناً لمزابلهم. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٠٤] أي الهلاك الثاني لكم بعد الإفساد.. ﴿ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧]. أي ليبيدوا ويهلكوا ما أعليتموه من بناء ونحو ذلك ويخربوه وقد كان. فقد حطم الرومان حضارة بني إسرائيل في فلسطين وسووها بالأرض.. ثم أخبرهم تعالى وهددهم بأنهم إن عادوا مرة ثانية للإفساد في الأرض، عاد الله وسلط عليهم من يذلهم ويهلكهم كما فعل بهم على يد محمد ﷺ حيث أفسدوا في المدينة وخانوا وغشوا وتمالئوا فقتل الله منهم من قتل وأخرج منهم من أخرج كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٦، ٢٧].. وقد نزل هذا في بني قريظة. وأما في بني النضير فقد قال تعالى بعد إجلائهم عن المدينة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى

ﭐلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢]. .

* ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾. [سورة الحشر، الآية: ٣] فأخبر سبحانه هنا أنه هو الذي أخرجهم وأنه هو الذي ألقى في قلوبهم الرعب أنه هو الذي كتب عليهم الجلاء أي الإخراج من المدينة وأنه لو لم يفعل بهم الجلاء لعذبهم عذاباً آخر أكبر من هذا الجلاء. وهذه إرادة الله سبحانه وتعالى في بني إسرائيل التي أجراها على يد محمد ﷺ هي إرادته إلى يوم القيامة التي يجريها على من يشاء من عباده. كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٦٧] فإرسال الله عليهم عبر التاريخ وعلى مدار الزمان إلى قيام الساعة من يسومهم سوء العذاب هو إرادة الله الثابتة في قرآنه وتوراته وإنجيله وأي مطلع على هذه الكتب يعلم هذا بما لا يجد مجالاً للشك وذلك ليس ظلماً من الله ولكنه عقاب عادل في مقابل ظلمهم ومكرهم وسعيهم للفساد في الأرض وتجارتهم بالحروب وتعطشهم إلى دماء غيرهم كما قال تعالى واصفاً إياهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٦٤]. .

فإذا فهم هذا فيستحيل عقلاً وشرعاً أن تكون إرادة الله أن ينعموا بالاستقرار والسلام، بل ينبغي أن نحكم أن الذي يسعى في سبيل ذلك إنما يسعى مضاداً ومعارضاً لإرادة الله الكونية القدرية التي لا تتخلف. .

وإذا حدث لبعض الوقت ولفترة ما أن ينعم اليهود في الأرض بالاستقرار والسلام فلا يكون هذا إلا لعاملين اثنين لا ثالث لهما. .

العامل الأول: أن يقوموا برسالة الله في الأرض وأن ينشروا التوحيد ويقيموا الصلاة ولا يكون ذلك إلا باتباعهم محمد ﷺ والدخول في الإسلام. واليهود في فلسطين الآن ليسوا كذلك. .

والعامل الثاني: أن يمدهم الله سبحانه وتعالى بإمداد وحبل من عنده وأن يمدهم

الناس لتتحقق حكمة يريدها الله سبحانه وتعالى وهذا لا يكون إلا استثناء من القاعدة العامة في بقائهم مشتتين مقهورين إلى قيام الساعة. وقد فصل الله ذلك في القرآن حيث قال لرسوله والمؤمنين معه عنهم: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١١]. وقد كان، فقد كان ضررهم للرسول والمؤمنين مجرد الأذى فقط فلم يقتلوا من المسلمين في صدر الإسلام عدداً يذكر ولم يهزموهم في معركة مع تبجحهم وغطرستهم وحصونهم واستعانتهم بكل القوى المشركة المحيطة بهم. وقد فصل الله أسباب ذلك فقال: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ. . ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٢].

وفي هذه الآية يتبين لنا أن الذلة والمسكنة مضروبتان عليهم ومعنى الضرب هو اللزوم والمصاحبة وكأنه طابع لازم كما تضرب النقود بصورها وكتابتها. وفاعل ذلك هو الله وأنه لا انفكاك لهم عن ذلك إلا بحبل الله أي إمداد منه وسبب منه لحكمة يريدها، وكذلك حبل من الناس. ولا شك أن هذا الحبل الذي يصلهم الناس به وإن كان كائناً بمشيئة الله أيضاً إلا أننا منهيون كمسلمين عن ذلك. .

وخلاصة الأمر أن اليهود مطرودون من رحمة الله وأمنه وسلامه ما عاشوا وإذا تحقق لهم ذلك في وقت ما فإنما هو شيء عارض وشذوذ يخالف القاعدة. .

* وبذلك يتبين لنا إرادة الله حقاً باليهود وصنيعه بهم وعلى ضوء ذلك يقرر المؤمنون حقاً طريقهم معهم وأنه طريق الضرب على أيديهم وقتالهم لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. .

* وأما كلام سعادة الوزير أن الزيارة للقدس كانت تشبه فتح عمر ودخول صلاح الدين فأظنني لست بحاجة إلى عقد مقارنة لبيان فساد هذا القياس، وإذا كان مثل ذلك يحتاج إلى دليل وإيضاح بطلت فائدة الكلام وسقطت مهمة الدليل. .

وليس يصح في الأذهان شيء　　　إذا احتاج النهار إلى دليل

٩ ديسمبر ١٩٧٧

رياح الجاهلية تهب على العالم الإسلامي

* كان أعظم إنجاز حضاري للإسلام أن جمع قبائل العرب المتفرقة المتناحرة في هذه الجزيرة في وحدة إنسانية وحضارية يرفرف عليها السلام والعدل، وكان أعظم من ذلك تأليفه بين العرب الذين قاربوا بالإسلام وبين شعوب الشام والعراق ومصر والمغرب وفارس وما وراء ذلك، وقد كان يسكن هذه الأقاليم شعوب شتى من الكلدانيين والآشوريين والبابليين والقبط والبربر وشعوب أخرى كثيرة، ولم تمض فترة وجيزة حتى أضحت هذه الشعوب المتفرقة المتناحرة شعباً واحداً يدين بالإسلام ويتكلم بلغة القرآن ويرفض ماضيه الجاهلي، ويعيش لواقعه ومستقبله الإسلامي الحضاري. ولم يبق من هذه الشعوب على دينه الجاهلي القديم إلا فئات قليلة جداً لم يصلها الإسلام..

* وفي إطار هذه الوحدة الحضارية الأخلاقية عاشت شعوب هذه المنطقة (العالم الإسلامي) أعظم أيام حياتها على الإطلاق: عزة في الدنيا، وسيادة في الأرض، وهداية إلى طريق الرشد وامتثالاً للأخلاق الطيبة، وابتعاداً عن العصبيات الجاهلية، والنعرات الإقليمية والقومية..

* وبالرغم من أنه كانت تصطبغ الحياة السياسية للعالم الإسلامي بصبغة الحاكم إلا أن الشعور العام لشعوب هذه المنطقة كان مع الأخوة الإسلامية، فالخلافة الراشدة كانت إسلامية خالصة، ودولة بني أمية كانت سياسياً ذات صبغة عربية، ودولة بني العباس كانت فارسية الصبغة في السياسة والحكم، ودويلات الطوائف كانت بحسب حكامها، ودولة بني عثمان تعصبت في أواخر عهدها للأتراك. أقول بالرغم من كل ذلك فإن مشاعر العامة وسلوكهم كان مع الرابطة الإسلامية.

* وعندما أراد الإنجليز والفرنسيون اقتسام العالم الإسلامي عمدوا إلى تقسيمه جغرافياً أولاً، ثم ثقافياً وفكرياً وعقائدياً. فبلاد الشام الدولة الواحدة في كل تاريخها أصبحت أربع دول اخترعوا لها أسماء من تحت الأرض. فقبل خمسين عاماً فقط لم يكن أحد يعرف ما معنى سوريا، ولا ماذا تعنى كلمة فلسطين!! ولا ما هو شرق الأردن. ولم يكن ثمة شعب يسمى الشعب السوري أو الشعب الفلسطيني، أو

الأردني أو اللبناني، بل كان كل أولئك شعب واحد يدين بالإسلام وينتمي إلى العروبة. وانطلت حيلة ساسة فرنسا وبريطانيا على المغفلين والسذج فانطلقوا يرددونها في عماية وجهل، وهكذا صنع مع بقية العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. وبوحي من ملكة بريطانيا أسست الجامعة العربية فكانت أول منار سياسي يقوم على غير الإسلام شعاراً وتجمعاً. ورفعت الأعلام والبيارق الإقليمية لتعلن ميلاد تاريخ جديد لأبناء الأمة الإسلامية: ميلاد ملوك ورؤساء الأقاليم!!

* عندما قام فريق الضباط الأحرار بانقلابهم ضد نظام الملك فاروق، أعلنوا للعالم أن مبرر قيامهم هو تصحيح أوضاع نظام الحكم في مصر، ورفع العار عنها فيما لحق بها من هزيمة في فلسطين وأعلن عبد الناصر بعد ذلك أنه أول رئيس مصري يحكم مصر منذ ثلاثة آلاف سنة متخطياً تاريخ مصر السابق بعروبته وإسلامه إلى الفراعنة، وحملوا تمثال رمسيس الثاني (فرعون مصر) من الأقصر إلى ميدان في القاهرة. وأشادوا بدعاة الإقليمية المصريين من الكتاب والمؤلفين. ولكن عبد الناصر سرعان ما تحول عن مساره إلى المناداة بالقومية العربية فرفع شعارها، وألهب بخطبه الحماسية مشاعر أبناء العروبة شرقاً وغرباً الذين أذلهم الاستعمار وفرق جموعهم، فاستجابت له جماهير العروبة الذين اشتاقوا إلى بعث تراثهم القديم، وإحياء أمجادهم الغابرة، ولكن عبد الناصر بدلاً من أن يضع الدعوة إلى القومية العربية في مكانها الصحيح من الإسلام فرغها منه، واستورد مضموناً اشتراكياً أراد أن يصبغه بالإسلام فلم يستطع وابتدأ يضرب بسفينته بين القوى المتصارعة شرقاً وغرباً ويناور بها يميناً وشمالاً حتى تحطمت السفينة بمن فيها في حزيران سنة ١٩٦٧، وعاش بقية عمره يريد أن يجمع حطام السفينة ويزيل آثار العدوان فلم يستطع..

* كانت هزيمة عام ١٩٦٧ هزيمة للأمة كلها ونهاية لدعوة القومية العربية، وكانت مصر وما زالت وستظل إلى أمد يعلمه الله رأس هذه الأمة وحاملة لوائها، وقد أعلن الرئيس أنور السادات بعد عبدالناصر أنه لن يستمر معلقاً بين السلم والحرب، وطلب السلم مراراً قبل عام ١٩٧٣ وقال له كسينجر رأس أميركا المدبر في وقته: لا سلم مع اليهود إلا بكسر شوكتهم، فافعلوا هذا إن استطعتم!! وكانت معركة سنة ١٩٧٣ ثم طلب السلم الذي ما زالت خطواته إلى الآن دون جدوى..

* ومهما اختلف الناس حول النتائج التي ستسفر عنها هذه الخطوات فإن ثمة باب من الجحيم قد فتح على الأمة لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى مداه، وهذا الباب هو الدعوة إلى الإقليمية، ونبش آثار الجاهلية. فإذا كان الذين حولوا مسار القضية الفلسطينية من مسارها الإسلامي الديني إلى مسار قومي عربي قد أخطأوا وأساءوا لقضايا الأمة وشعوبها فإن الذين يطرحون قضية فلسطين في منطلق إقليمي أشد خطأً وأكبر إساءة للأمة وتاريخها. والمهم أن هذا المنطلق الجديد لعلاج هذه القضية قد أدى إلى التنابز بالألقاب وإحياء النعرات الجاهلية الإقليمية البائدة. وبالرغم من أن إحتلال اليهود لهذا الجزء من الوطن الإسلامي كان عاملاً للتقارب والاتحاد، إلا أنه بهذا الطرح الجديد قد أصبح عاملاً للفرقة والخلاف وإحياء للجاهليات القديمة التي عفا عليها الزمان.

* وبعد فليس هناك مسلم ولا عربي صحيح النسبة إلى العروبة يأبى أن تكون مصر وأن تظل رائدة ورأساً لهذه الأمة، ولا أن يكون رئيسها الأخ الأكبر لإخوانه وزملائه.. ولكن المسلمين لا يعلمون من مصر إلا أنها بلد المسلمين وكنانة الإسلام، وحامية أوطانه في كل تاريخها مع التتار والصليبيين، وكذلك مع اليهود والصهاينة. أما أن تكون مصر هي بلد الفراعنة، والأهرام وأبي الهول فلا.. فهذا أمر قد جاوزته مصر منذ أكرمها الله برسالة الإسلام ورفرفت عليها أعلام القرآن وتكلم أهلها بلغة العرب..

* ثم أما بعد، فإن رياح الجاهلية التي باتت تقصف بالإسلام والمسلمين شرقاً وغرباً يوشك أن تدمرنا. فثقافة بابل وأشور تطغى اليوم على ثقافة العباسيين في الرافدين، والشعوبية والباطنية والصليبية تعصف ببلاد الشام وتطغى ثقافتهم على ثقافة بني أمية، والعرب والبربر في المغرب يتنازعون على الصحراء، والقحطانيون في اليمن يقتتلون على الحكم والرياسة، والقرامطة يحيون في أقصى الجزيرة ذكر قرمط ويدفنون تراث محمد بن عبدالله، وبنو يعرب يحركون الجيوش في جنوب الجزيرة ليقتتلوا. ومن قبل فرطوا في يجزر بأكملها، ومصر تريد العودة إلى الفرعونية والقبطية..

* باختصار رياح الجاهلية تهب على عالمنا الإسلامي من كل جانب والمحزن في

الأمر أن الشعوبية والباطنية والقرمطية والإقليمية بكل صورها لها أبواق ووسائل إعلام وأجهزة كاملة لتزوير التاريخ وتغيير الحقائق والإسلام وحده لا صوت له في ديار الإسلام!! فليهنأ بنو إسرائيل النصر المؤزر، ليحققوا حلمهم الذي طالما انتظروه وهي دولة من الفرات إلى النيل وليقيموا العلاقات بين دولتهم وبين دول الطوائف والأقاليم من حولهم، وليشترطوا لأنفسهم ما يشتهون. فالعدو الذي يستطيع أن يهزمهم ويعرف مكائدهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم غائب عن الميدان.
إنه الإسلام ولا صوت له الآن!!

١٦ ديسمبر ١٩٧٧

الشعوب والسحرة..

* يركض الناس في هذه المنطقة (العالم الإسلامي العربي) وراء الأحداث بغباء وبلاهة، وتفاجئهم الأحداث فيصابون بالدهشة والإبلاس والحيرة، ويذهبون بعد ذلك في تفسيرها كل مذهب.. ويظلون يختصمون ويتشاجرون حتى يقع لهم حدث يذهلهم عن الماضي فينتقلون للتفكير فيه، وينسون الحدث الماضي تماما وهكذا، شأنهم في ذلك شأن تلاميذ مدرسة تجمعوا لمشاهدة (حاو) أو ساحر ماهر فلا يزال يذهلهم بحركاته وألاعيبه، وبين كل لعبة وأخرى يختصمون ويتشاجرون كيف خرجت البيضة من مؤخرة التلميذ، وكيف طارت الحمامة من فمه!!.

* ونحن في هذه المنطقة التي يتحكم فيها الساحر الأمريكي والحاوي الروسي، والشيطان اليهودي نرى في كل يوم ألاعيب مدهشة، وحوادث مضحكة مبكية!!.

* ويظن الناس أنه لا ارتباط بتاتاً بين الأسباب ومسبباتها، ولا بين الأمور ونتائجها. لأنهم يرون دائماً أن نتيجة كل شيء على غير أسبابها الظاهرة تماما. فقليل جداً من كان يعلم أن زحف الجيوش العربية نحو إسرائيل عام ١٩٦٧ سيؤدي إلى هزيمة لا مثيل لها في التاريخ. وقليل أيضاً تصوروا أو تخيلوا أنه سيأتي اليوم الذي يصاب بعض منا فيه بعقدة الذنب لأنهم حاربوا اليهود في الماضي، وأنهم كانوا يحاربون في غير قضية، ويموتون هدراً وغباء!!

* وهذا القليل الذي يرى نتائج الحوادث قبل أن تقع ومآل الأمور قبل وقوعها يعيش في أحزان متصلة وينظر الناس إليه دائماً نظرة الريبة والاستغراب وقد يثني الناس على فهمه وعقله بعد حدوث ما توقع ولكن السحرة الماهرون لا يمهلون الجمهور حتى يشغلوهم بحادث جديد.

* دعونا نسأل أنفسنا لماذا نفاجأ دائماً بالقرار السياسي؟ ولماذا نذهب دائماً في تفسيره كل مذهب!!.

والجواب باختصار: أننا نفعل ذلك لسببين:

أولاً: إننا لا نشترك في القرار السياسي، فالشعوب في الوطن الإسلامي كم وزن له مطلقاً في قرار سياسي، وتزييف إراداته سهل جداً في أي استفتاء. ونستطيع أن نجد للرأي ونقيضه مؤيدين ومشايعين. بل يستطيع الدهاة أن يستخرجوا من القرآن والسنة أيضاً ما يؤيد الرأي ونقيضه فإذا اتخذنا قرار الحرب مثلاً قال القائلون وأفتى المفتون:

﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [سورة محمد، الآية: ٣٥] وإذا اتخذنا قرار السلم خطب الخطباء وتكلم أهل الإفتاء قائلين: ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦١]، وإذا أردنا حب اليهود والإشادة بهم قلنا أنهم أبناء العمومة وقد قال الله فيهم: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٧]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الدخان، الآية: ٣٢]. وإذا اتخذنا قرار بغضهم ومذمتهم قلنا: إنهم.. وإنهم.. وقال الله فيهم: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ..﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٢].

وهكذا يستطيع المزيفون أن يزيفوا إرادة الشعب لأنه لا رأي له، وكذلك حكم الله وحكم رسوله.. لأن الذين يفتون بهذا أيضاً لا رأي لهم. واقتطاع الآيات وتحريف الكلم عن مواضعه سهل أيضاً لمن أراد ذلك.

وأما السبب الثاني فهو ما ذكرت في صدر المقال من أن الجمهور الذي يشاهد السحر تنحبس أنفاسه دائماً عن رؤية الماضي والمستقبل ويعيش فقط في ظل اللعبة الحاضرة والتي لا يربطها بأسبابها الماضية ولا يفكر بتاتاً في نتائجها الآتية، إنه يفكر فقط مشدوداً مدهوشا كيف ستنتهي هذه اللعبة العجيبة؟!.

* وتعالوا الآن نشاهد هل قرار السلم مع اليهود الذي اتخذته القيادات السياسية مفاجأة؟! ونتيجة غير متوقعة؟ أم هو نتيجة منطقية لأسباب ومسببات واقعية؟! وقبل أن نتفهم معا الجواب دعونا من أن نقع فريسة للحادث الوقتي الذي يشغل بالنا، وهو زيارة القدس ومؤتمر القاهرة.. للنس هذه الحوادث الحاضرة ولنفكر في أساس المشكلة ولبها. ولست في مجال استعراض تاريخ هذه المشكلة فإن هذا أمر يطول ولكن بتعريف موجز لمشكلتنا مع اليهود نقول: اليهود شعب مشرد منذ ألفي سنة وكانت له دولة يوماً ما في فلسطين ويريد العودة إلى هذا المكان ليبني دولته من جديد وهذه الأرض يحكمها شعب اعتنق الإسلام وهو جزء من أمته وقد تكلم العربية ونسب إليها. هذه القضية الواضحة انتقلت في مدى ثلاثين سنة فقط على النحو التالي: من قضية تهم كل مسلم إلى قضية تهم كل العرب فقط ثم إلى قضية تهم الفلسطينيين أولاً لأنهم حسب قول القائلين أهل المشكلة وأصحابها ثم قضية تحملها منظمات متنافسة على الأقل إن لم نقل متعادية متحاربة، وفي إطار هذا التنافس تختلف الأنظمة السياسية والشعوب أيضاً. من الذي يحق له أن يمثل الشعب الفلسطيني هل هي منظمة التحرير أم عرب الضفة؟؟ وهكذا بتقليص هذه المشكلة من أن تكون هماً يحمله كل مسلم في الأرض ويطالب شرعاً وديناً وسياسة بتحريرها إلى قضية يمثلها عرب الضفة الغربية فقط!! أو منظمة التحرير فقط!! ويظل السحرة والحواة يشغلون الجمهور بالألاعيب السحرية: من الخائن ومن الوطني؟ ويضحك الساحر اليهودي ملء شدقيه وهو يجد تلاميذ المدرسة يتخاصمون ويتجادلون ويقولون.. كيف خرجت هذه اللعبة العجيبة!!.

* صلينا المغرب وجلسنا بعد الصلاة، وعرفني أحد الزملاء بشاب في مقتبل العمر أراه لأول مرة وسألني: ما رأيك في الأحداث الجارية؟ فانبرى الشاب قائلاً قبل أن أجيب: بصراحة: السلم والصلح مع اليهود هو الخير. فنحن لم نكسب من الحرب

شيئاً، ومنذ وصولي إلى الكويت تأسفت على الأيام التي حاربت فيها وأنا جندي في الجيش الثالث (المصري). إن الفلسطينيين يحاربونني في رزقي هنا بل يحاربون كل مصري!!.

فقلت له: أي أخي أنظر خطورة القرار الذي وصلت إليه! لقد وصلت إلى أن اليهود أقرب لك من إخوانك الفلسطينيين وهم مسلمون وعرب أيضاً. فقال: لقد كنا في الجيش الثالث وكنا نتبادل القذف بالنيران مع اليهود كل يوم وكان بيننا وبينهم أمتار قليلة وكان معنا مهندس زراعي مصري وقال: والله لأذهب إلى اليهود لأعلم لماذا يحاربوننا.. وذهب إليهم فأكرموه غاية الإكرام وتحدث معهم طويلاً وخرجنا بنتيجة أنه لا فائدة من حربنا معهم!! بصراحة لو دعيت إلى الحرب مرة ثانية فلن أستجيب!. وقال آخر: لماذا أحارب من أجل الفلسطينيين.. هم أغنى منا وهم أولى بالدفاع عن وطنهم.. وكنا نتحدث مع بعض المثقفين فانبرى فلسطيني منهم قائلاً: أنا لا تمثلني منظمة التحرير.. لقد أثروا من ورائنا!! الخ.. انظروا إلى ما وصلنا، وكيف تناقضت آراؤنا في مشكلتنا بعد أن طورناها إلى الحد الذي أصبح لكل واحد منا رأي يخالف الآخر فيها، وانظروا على الجانب الآخر الأفكار اليهودية التي تجمع اليهود عليه في أول مؤتمر صهيوني لهم في سويسرا هي نفس الأفكار والمبادىء التي يعلنها اليهود ويفاوضون عليها في السلم ويقاتلون عليها في الحرب. الموقف اليهودي من إقامة الدولة اليهودية لم يتغير قيد شعرة منذ بدأ العمل الحقيقي لإقامتها والموقف العربي يتلون ويتغير ويتناقض كل يوم. وما ذلك إلا لأن السحرة والحواة يشغلون الناس عن المشكلة الحقيقة بألاعيب شيطانية تخطف أبصارهم، وتبلبل عقولهم، وحول هذه الألاعيب تتفرق الشعوب ويلعن بعضها بعضاً، وتتمزق الجماعات ويلعن كل منا الآخر ثم نلعن جميعاً الأمة التي ننتمي إليها، ويبدو من سير الأحداث أن الأمة التي ننتمي إليها لن تفيق إفاقة حقيقية، وتتخلص من سحر السحرة، ولعب الحواة، إلا إذا وجد العرب أنفسهم غداً عمالاً في مؤسسات اليهود نهاراً، وخماراً وسكارى في حاناتهم ليلاً، وقد وجدوا بناتهم وأخواتهم أيضاً يمتهن كل شيء ليحصلن على لقمة الخبز وعند ذلك قد تدب الحمية في النفوس من جديد، وعند ذلك أيضاً قد ينقلب السحر على الساحر ويقوم في الأمة من ينقذها بكتاب الله وسنة رسوله فيوحد صفوفها، وينهي خلافها وتفرقها، ويقودها إلى العزة والمجد.

٢٣ ديسمبر ١٩٧٧

من نحن؟ وأين نحن الآن؟

* ها قد وصلت العربة إلى القاع فعلاً، وابتدأنا نتحسس أقدامنا من جديد، فالذين ينظرون إلى الأمام قليلاً كانوا يعرفون أين ستقع العربة، وأما الآخرون فإنهم يفيقون تباعاً، وسنحتاج إلى عامين أو ثلاثة حتى يعرف المذهولون مكانهم الصحيح، وحتى يعود الشاردون من هول المفاجأة والانفجار!! وسيكون السؤال الذي يسأله الناس بعضهم بعضاً أين نحن الآن؟! وسيختلف الناس بالطبع كما هم مختلفون الآن، فبعضهم سيقول: نحن الآن في موقع جيد، وفي أرض خضراء، وواد فسيح، وسيقول آخرون، كلا بل نحن في مستنقع عفن، وفي أرض سيئة وواقع كريه ويبدأ هؤلاء وهؤلاء يعدون الضحايا ويحصون القتلى فالمستبشرون والمتفائلون بالواقع الجديد سيقولون عن الضحايا والقتلى أنهم أغبياء لأنهم لم يمسكوا بالعربة جيداً، ولم يحسنوا الركوب في القطار وأما المتشائمون والمستبصرون فسيقولون إنهم ضحايا وأنهم شهداء!! وهذه المعركة الكلامية ستستمر وقتاً طويلاً يؤيد كل فريق منا رأيه فيه بما تستطيع بلاغته أن تصل إليه وسيعمد القادرون منا ومن بيدهم زمام الأمور على دفع الأمور لتثبت صدق آرائهم ورجاحة عقولهم، وسنظل يخطىء بعضنا بعضاً، ويسب بعضنا بعضاً، حتى تأتي رياح جديدة تقذف بالعربة إلى انحدار جديد!!

* هذه البلاهة والغفلة الجماعية التي أصابت الأمة من أقصاها إلى أقصاها ـ إلا من رحم الله منهم ـ سببها الأول أنهم يقولون: أين نحن الآن؟ وكان الواجب أن يقولوا أولاً: من نحن؟ فبالجواب على هذا السؤال سنعرف أنفسنا، ونحدد هويتنا، ونضع صراطنا (استراتيجيتنا) في الحياة وعلى أساس هذا الصراط سنحدد علاقاتنا بكل الناس حولنا شرقاً وغرباً.

* إننا مختلفون تماماً حول هذا السؤال: من نحن؟ وباختلافنا فيه تختلف نظرتنا إلى كل الأمور وحكمنا على كل الوقائع، وتحديدنا للمصلحة والمفسدة، والنصر والهزيمة والمكسب والخسارة، فهل نحن عرب؟ وماذا تعني هذه اللفظة تماماً «العرب»، أعني من هم العرب؟ وما موقفهم من الإسلام؟ وأين تقع الإقليمية في مفهوم العروبة؟ وما هي مصالحهم المشتركة؟ وإذا كان العرب مسلمين فهل هم

مستعدون للالتزام بأحكام الإسلام؟ وإذا لم يكونوا مسلمين؟ فما البديل؟ وما النظام الاقتصادي الذي سيتبعونه إذا لم يلتزموا بنظام الإسلام، هل هو الاشتراكية؟ وأي نوع من الاشتراكية؟ هل هي الاشتراكية العلمية (الشيوعية) كما أجاب الرئيس جمال عبدالناصر، أم اشتراكية أخرى؟ أم هو النظام الحر الرأسمالي؟ وإلي أي حد سيسيرون في النظام الرأسمالي؟ وما العلاقة بين الدول العربية إذا اختلفت إجابة كل إقليم؟ أعني إلى أي حد سنصل في عداء بعضنا لبعض؟ هل إلى حد القطيعة والقتال وفرض الرأي بالقوة أم فقط عند حد الكلام والسباب، أم سنتعاون فيما اتفقنا فيه، ويكون لكل منا أموره الخاصة؟ وما الذي اتفقنا عليه أو يجب أن نتفق عليه؟ وما الأمور الخاصة بكل إقليم؟!

هذا إلى عشرات الأسئلة الأخرى لابد من الإجابة عليها لنحدد موقفنا من ذلك الشعار الذي رفعناه سياسياً وفكرياً في ثلث القرن الماضي.

* الإقليمية السياسية المعاصرة فرضها الاستعمار الفرنسي والبريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، وتعمقت هذه الإقليمية بتباعد الديار، والحجب السياسية القائمة، ثم جاء ضجيج القومية العربية فغطى على أصوات الإقليمية وحجبها عن الظهور وكاد يهدم الحدود السياسية الجغرافية، ولكن الانفصال النفسي والشعوري بين أبناء الأقاليم الإسلامية لم تستطيع عاطفة العروبة وضجيجها أن يلغيه، ثم جاءت هزيمة سنة ١٩٦٧ لتسكت ضجيج العروبة وتقتل عاطفتها، وتحيي من جديد بذور الإقليمية السياسية بل وتحيي أيضاً بذور الجاهلية المدفونة منذ آلاف السنين، والعجب في النمو السريع لهذه الأشجار الشوكية السامة التي ماتت منذ آلاف السنين.

* والآن يجب أن نسأل أنفسنا إلى أي مدى سنسير مع الفكر الإقليمي السياسي الجديد؟ هل سنسير إلى الحد الذي يكون لكل إقليم جاهليته الخاصة؟ وبالطبع مصالحه ونظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي الخاص؟ أم سنسير إلى الحد الذي يداوي كل إقليم من الأقاليم جراحاته ويلم شعثه ومن ثم يلتحم مع سائر أقاليم الأمة الإسلامية العربية؟ وعلى أي أساس سيكون اللقاء والالتحام إن كان ثمة تفكير في ذلك؟

* خلافنا واختلافنا ليس في معرفة من نحن فقط؟ بل إننا نختلف الآن من أعدائنا؟

والعدو الذي كانت تجمع الأمة على عداوته قديماً هو اليوم محل اختلاف؟ فهل اليهود اليوم أعداء؟ وإذا كانوا أعداء فكيف يجب علينا الآن مجابهة عداوتهم هل بالتدمير الفوري، أم بالتفتيت البطيء؟ أم نحن مضطرون الآن إلى تجميد الحرب معهم إلى حين؟ أم هم أصدقاء يمكن التعاون معهم وإلى أي حد يكون هذا التعاون؟ هل كما يقول الملك الحسن: المال العربي والعقل اليهودي لخلق جنة على الأرض (وكأنه ليس عند العرب عقول لتدبير أموالهم). وإذا قررنا التعاون مع اليهود فهل هو تعاون ينبع من صراط عرب واحد أم تعاون كل إقليم بمفرده؟

* العجب كل العجب إن جمهور الأمة يعيش الآن مع الرافضين بلا هدف واضح ولا نوايا معلنة، ومع القابلين بلا حدود واضحة ولا نوايا معلنة، ولذلك فالرفض والقبول يجب أن تعلم جماهير الأمة أنه جزء من اللعبة السياسية الكبرى التي يريدها الساحر اليهودي والشيطانان الأمريكي والروسي. والسباق الآن في لعبة القبول والرفض أيهما يحرق مخالب الآخر، وحرق المخالب يعني أن نفقد جزءاً من الأمة، والأعجب من هذا أن المخالب التي تحترق دائماً هي المخالب التي يريد اليهود حرقها سواء كانت في الجانب الروسي أو في الجانب الأمريكي!؟

* مرة ثانية نقول: وصلت العربة إلى هوة جديدة والذي لم يعلم بعد أننا سقطنا في الوحل والطين سيحتاج إلى فترة زمنية أطول ليتبين مواقع أقدامه ويتعرف على مكانه الجديد، وأما هذه البلاغة التي جعلت سقوطنا نصراً وذلنا فخاراً وعزة فإنها ستضمحل بعد سنتين أو ثلاث وهي الفترة الكافية لإفاقة الأمة من صدمتها الشديدة، تماماً كما استطاعت هذه البلاغة العجيبة أن تصور هزيمة ١٩٦٧ نصراً مؤزراً لأنه أخذ الأرض ولم يسقط النظام، ولم تستمر هذه البلاغة إلا سنتين أيضاً أو ثلاثة حتى أفاقت الأمة ثم وجدت الأمة أن النظام عاجز عن استرداد الأرض..!! وها نحن نبذل كل شيء تقريباً: تاريخنا وشرفنا، وعزتنا على أرضنا وأيضاً قسم من أبنائنا وكل ذلك لم يرض صلف اليهود وكبرياءهم ليتنازلوا لنا عن الأرض.

* ومرة ثانية نقول: لا تسألوا أين نحن الآن؟ فالمعركة حول هذا خاسرة وسنتفق عليها بعد عامين أو ثلاثة وعندها تكون العربة قد استعدت لسقوط جديد، ولكن يا قوم قولوا وأجيبوا أولاً: من نحن؟ هل نحن مسلمون؟ أم نحن عرب؟ أم نحن فراعنة

وبابليون وآشوريون وبربر وفينيقيون أم مصريون وسوريون وفلسطينيون واقليميون على اختلاف الأقاليم؟ ومن العدو؟ ومن الصديق؟.

٣٠ ديسمبر ١٩٧٧

هل حقاً سيعيد التاريخ نفسه؟

* اليهود يحاولون إعادة التاريخ للوراء لإنشاء دولة على غرار دولتهم في فلسطين منذ ثلاثة آلاف سنة، وهم في سبيل ذلك يحيون الأسماء القديمة نفسها قبل هذا التاريخ ويحملون معهم في عبورهم نحو هذا الماضي السحيق تصميماً لهيكل سليمان بنفس المواصفات التي كانت له يوم كان، وينشئون المستعمرات بنفس أسمائها القديمة، ومواصفاتها التي حملها التاريخ لهم، ويبنون الإنسان اليهودي تماماً كما كان ذلك الإنسان اليهودي في هذا التاريخ الغابر حيث يدرس نصوص التوراة نفسها وتعاليم حكماء اليهود في هذه الحقبة البعيدة.

* ولو كان اليهود يصنعون ما يصنعون في فراغ لما اهتم أحد بشأنهم، ولكن اليهود لا يتم لهم ذلك إلا باستئصال الشعب الذي كان يسكن في تلك البقعة من أرض الشام (فلسطين) وإلا بأن تقطع كل يد تحمل مدداً لهذا الشعب، ولن يتم لهم القرار في هذه الأرض إلا بأن يدفنوا تاريخ هذه البقعة منذ شتاتهم منها وإلى عودتهم فيها، والوصول إلى هذه الغاية المذهلة يعني اقتطاع هذا الشعب عن أمته العريضة التي كان ينسب إليها ثم بناء سور من الكراهية والنفور حوله، ثم تمزيقه وضرب بعضه ببعض ثم القضاء عليه وتذويبه تذويباً بطيئاً حتى يكون أثراً بعد عين، ثم في النهاية قطع آمال الأمة العريضة التي ينتسب هذا الشعب إليها أن تتطلع إلى هذه الأرض مرة ثانية، أو تفكر مجرد تفكير في العودة إليها، ولا يتم ذلك إلا بقطع الصلات الدينية والفكرية والثقافية التي تربط بين الأمة وهذه الأرض.

* إنه عمل رهيب حقاً، وهو نوع من الخيال لولا أن أجزاء كثيرة من هذه الخطة الجهنمية قد نفذت بالفعل ولم تبق إلا خطوات يسيرة وعقبات صغيرة يسهل اجتيازها والعبور فوقها.

* لم يكن غريباً أو عجيباً أن يعود اليهود إلى تاريخهم وأن يحفظوا توراتهم وتلمودهم وأسماء قراهم ومدنهم وشوارعهم في دولتهم القديمة، وأن يعودوا لإحياء لغتهم التي ماتت وأصبحت أثراً بعد عين فهم يعتقدون أنهم بذلك يحققون ذاتهم ويحيون هويتهم ويقيمون دولتهم ويحصنون أنفسهم، ولكن الغريب حقاً أنهم يحاولون أن يزيلوا تاريخ الأمة الإسلامية وأن يمحوا تراثها وأن يبدلوا عقائد وجلود أبنائها بل وأن يحققوا فيهم ردة جماعية نحو الجاهلية الأولى قبل ثلاثة آلاف سنة. وكان اليهود في إحيائهم لدولتهم القديمة يريدون أن يتعاملوا مع نفس الشعوب التي تعاملوا معها في ذلك التاريخ، إنهم يريدون انقلاباً كاملاً في التصورات والأفكار والعقائد والموازين، إنهم يريدون للعالم الإسلامي حولهم ردة حضارية تمحو تاريخ ألف وأربعمائة سنة وهذا شيء فوق التصور والفهم.

* منذ عام تقريباً كتبت في هذه الزاوية مقالاً بعنوان: «من ذا الذي يستطيع أن يعبر فوق هذا التراث» مهوناً من شأن المحاولات التي كانت تبذل في هذا الوقت لما يسمى بالحل السلمي مبيناً أنه لا مكان للقاء حضارتين متضادتين وعقيدتين متناقضتين على هذه الأرض أرض فلسطين، وقد كان ظني في ذلك اليوم أن اليهود دخلوا هذه الأرض على حين غفلة من أهلها دخول اللص في غيبة أهل البيت ويوم يتيقظ أصحاب المكان فلابد من طرد اللص، واليوم أعترف بخطئي وقصور نظري فما كنت أتصور أن للإعلام والدعاية هذه القوة الجبارة في تبديل العقائد وقلب الحقائق والموازين! ما كنت أتصور مطلقاً أنه بالإعلام والدعاية يصدق الناس أن الذئب يصبح حملاً وأن اللص يضحى صاحب الحق، وأن سفاكاً وقاتلاً للنساء والأطفال مثل بيجن يمسي شريفاً ومناضلاً وما كنت أتصور أن أياً من الناس يصدق ذلك، ولكنني اكتشفت أخيراً خطئي وعلمت يقيناً أن الإعلام والدعاية هو سلاح العصر الرهيب وأن أثره لا تعدله القنابل الذرية ولا أسلحة الدمار والفتك.

* الإعلام هذا السلاح الرهيب الذي يستطيع تبديل الحقائق في عيون الناظرين وقلب الموازين، وإزالة العقائد الراسخة، وتغيير الأديان والأخلاق، وتبديل الأنظمة والقوانين، هذا الإعلام سلاح الحرب الباردة الخطير الذي يمهد العقول والقلوب لقبول الأعداء ليكونوا حلفاء وأصدقاء، والذي يستطيع إشعال نار العداء والبغضاء بين

الأهل والإخوان والأصدقاء. إنه باختصار: أقوى أسلحة العصر على الإطلاق. هذا الإعلام لا تملك الشعوب في دولنا الإسلامية منه إلا وسائل تافهة لا تستطيع بها مقاومة أي غزو فكري أو عقائدي وأما وسائله الفعالة فهي بيد السلطات الحاكمة تسخره كيف شاءت، وتصيغ به عقول الناس فتبدل به العقائد والأفكار والأديان والأخلاق، وتستطيع به أيضاً إزالة التراث وتبديل التاريخ وتدمير الإنسان.

* واليوم أروني من يملك عقلاً سليماً في بلادنا الإسلامية لأثبت لكم أنه يؤمن بالشيء ونقيضه، ولا يعرف أين نحن الآن في مسيرة تاريخنا، ولماذا كنا نحارب اليهود؟ وماذا نريد منهم اليوم؟ وهل سيوافقون أو يرفضون؟ وما معنى الرفض؟ وما معنى القبول؟ وما هذا بالطبع إلا نتاجاً للحرب الإعلامية التي استهدفت تدمير الإنسان المسلم وتشتيت أفكاره، وتوزيع مصالحه والفصل بينه وبين تراثه، وقطع صلته مع ربه ومولاه وخالقه، وبذلك يصبح إنساناً ضائعاً تائهاً بلا هوية ولا أمل، ولا عقيدة ولا أخلاق ولا موازين وهذا الضياع الحضاري الذي تعيشه الأمة الآن هو خير دليل على ما أقول، والخوف كل الخوف أن يستمر هذا الضياع الحضاري مدة كافية نفقد فيها أنفسنا وتاريخنا وحضارتنا ثم نفيق فنجد أننا قد أصبحنا شيئاً آخر تماماً.. شيئاً يريد اليهود أن نكون مثله وبذلك ترجع عجلة التاريخ ثلاثة آلاف سنة كاملة فهل حقاً ستعود عجلة التاريخ إلى الوراء ويسكن اليهود خيبر ويعيدون سوق بني قينقاع، ويفلحون أرض النضير، ويعود الأوس والخزرج يقتتلون ويفتخرون بيوم بعاث، وينتصب الهيكل حول الصخرة، ويهدم المسجد الأقصى، وتعود الأمة إلى عبادة الأوثان والأصنام.

٦ يناير ١٩٧٨

نحو رحلة جديدة للبحث عن الذات

* لم يتخل الله بعد عن هذا العالم، ولن يتركه سدى أو عبثاً في أي يوم آت، فأمور العباد كلها بيده «يخفض القسط ويرفعه، يرفع له عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار»، ويقول عن نفسه جل وعلا: ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٩]، ويقول ﷺ في معنى الآية: [من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً،

ويرفع أقواماً ويضع آخرين]، وهذه الرؤيا الإيمانية لفعل الله في الكون والناس جزء من العقيدة وجزء من تفسير سنن الله في الكون والذين يفسرون أحداث الكون وتقلب الزمان دون نظر واعتبار إلى سنن الله فيه يضلون ويعمهون.

* والأمة الإسلامية التي انطلقت شرارتها من هذه الجزيرة المقدسة (أرض العرب) فبشرت بالإسلام ديناً وبالحق والعدل ميزاناً للحكم بين الناس، ورفعت الظلم عن المظلومين، وأزالت غشاوات الجاهلية عن أعين الشعوب المضللة المظلومة، وصهرت من انضوى تحت لوائها بأخوة عجيبة لم تفرق فيها بين الناس لأجناسهم وأوطانهم، هذه الأمة لا يمكن أن نفهم تاريخها على وجهه الصحيح دون نظر إلى الجانب الإلهي من تاريخها. فالجوانب المادية وحدها لا تفسر بتاتاً انتصار هذه الأمة على قوى الظلم الغاشمة في العالم والتي قوضتها في مدة يسيرة من الزمان، ولا يمكن أن نفهم أيضاً بقاء هذه الأمة إلى الوقت الحاضر وحفظ دينها وكتابها دون نظر وفهم إلى دفاع الله عنها وحفظه لها بالمقدار الذي يحفظ المؤمنين من هذه الأمة دينهم وعقيدتهم، باختصار كان الله مع هذه الأمة يوم كانت معه، وتخلى الله عنها يوم تخلت عنه.

* والهزائم العسكرية والسياسية ليست شراً كلها، بل قد تكون الهزيمة فرصة نادرة لتعديل المسار، والبحث عن الأخطاء والرجوع عن الغرور، وتنقية الصفوف، والمسلمون حتى في عهد النبي ﷺ لم تكن أيامهم عسلاً كلها أعني نصراً على الأعداء وظهوراً في كل معركة، بل كانت أيامهم دولاً.. يدالون مرة، ويدال عليهم أخرى، فقد انتصروا في بدر فكان هذا براعة استهلال وحسن طالع لأمة ناشئة، وهزموا في أحد فكان هذا تمحيصاً وتربية وتنقية للصفوف، ومعرفة حقيقية بأهداف الجهاد وأنه لله وليس للدنيا، وضاقت بهم الأرض في الخندق وزلزلوا زلزالاً شديداً حتى جهر المنافقون بعداوتهم للرسول وأسمعوه ما يكره وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٢] ثم كان النصر الذي لم يبذل له المسلمون صغيرة ولا كبيرة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٥] ثم كان الفتح ويومها توج النصر ثم كانت حنين لكسر الغرور والتعريف بالله.

وهكذا في كل تاريخ الأمة كانت أيامها دولاً وهزائمها دروساً، وتاريخ الأمة بعد الرسول ﷺ شاهد على ما نقول، فالهزيمة العسكرية الساحقة للخلافة العباسية على أيدي المغول جعلت الأمة، تضيق من ترفها الفكري، وخلافها العقائدي، وتمزقها الاجتماعي، ليقوم المصلحون من الدعاة لتصحيح مسار الأمة وإعادته نحو الكتاب والسنة، فكانت الحركة السلفية الكبرى التي قادها الإمام المصلح المجدد ابن تيمية وتلامذته المخلصون أمثال ابن القيم، وابن كثير، والذهبي، والحافظ المزي، ثم الإمام الفذ العز بن عبدالسلام الذي باع مماليك مصر ودفع الأمير قطز تلميذه لأن يقود الحملة ضد التتار والتي انتهت بهزيمتهم الساحقة، ثم قامت جموع الدعاة إلى الإسلام لتحول الجيوش التترية البربرية الغازية إلى الإسلام والحضارة والمدنية، واندفعت قوافل الدعاة إلى الله لتحول شعوب شرق آسيا إلى الإسلام بالدعوة فقط، فدخلت جزر أندونيسيا وشعب الهند الصينية في الإسلام بالدعوة إلى الله فقط، ودون جيوش غازية وهذا في عقب أعظم هزيمة مني بها العالم الإسلامي وهي هزيمته أمام التتار.

* ولم تكن الحروب الصليبية بأقل عبرة للأمة من حروب التتار، فقد فتحت الحروب الصليبية عين الشعوب الإسلامية على مدى التمزق السياسي الذي تعيشه الأمة ووجود إمارات متنازعة على السلطة والسيادة في كل مدينة من مدن الشام تقريباً وكذلك فتحت عينها على مدى الانحراف الطائفي الخرافي الذي عاشته مصر في عهد الفاطميين فكانت نهضة صلاح الدين الأيوبي البطل المجدد الإسلامي الذي أنهى تمزق الأمة السياسية واضطرابها الفكري والثقافي وردها إلى الكتاب والسنة وإلى الوحدة بمعناها الصحيح فكانت الهزيمة الساحقة للصليبيين وبداية عهد جديد من العزة والسيادة الإسلامية.

* ولكن الصليبيين الجدد استفادوا من الحروب الصليبية أيما فائدة فعرفوا مكمن القوة في الأمة وهي العودة إلى الكتاب والسنة، والوحدة السياسية فعملوا قبل غزوهم الصليبي الاستعماري الجديد إلى الحيلولة بين عودة الأمة إلى إسلامها وعودتها أيضاً إلى وحدة سياسية واحدة تستطيع بها الوقوف في وجه زحفهم الاستعماري الجديد ولذلك فقد حالوا وإلى اليوم بين الأمة وبين هذين المطلبين الأساسيين في أي نصر

قادم: العودة إلى الكتاب والسنة، ووجود وحدة سياسية تنظم بلاد الإسلام وخاصة من يتكلمون بالعربية منهم.

* ومشكلة المشكلات التي تعترض إفاقة الأمة واستفادتها من هزائمها العسكرية والسياسية المتلاحقة في العصر الحاضر هو في هذه القدرة الخرافية التي تملكها أجهزة الهزيمة والتي تستطيع بها تحويل الهزائم المتكررة للأمة إلى نصر في عيون الشعوب المسكينة المقهورة المغلوب على أمرها، ولكن ذلك لن يستمر أيضاً إلى الأبد، فعملية (غسيل المخ) المستمرة للأمة وفصلها عن تاريخها الإسلامي وعقيدتها الصحيحة لابد وأن تنهار أمام اليقظة الحتمية. . إن شاء الله.

* هذه اليقظة الحتمية هي في حقيقتها عملية بحث عن الذات يجب أن يمارسها كل فرد في الأمة وعندما نعرف ذواتنا وندرك تماماً أننا مسلمون وأن لا عيش لنا ولا وجود لنا على هذه الرفعة إلا بالإسلام، فعند ذلك تصحح جميع الأوضاع الفاسدة، ولعل أعظم الأمور خطراً على رحلة الأمة اليوم نحو عودتها للذات تتمثل في صبغ الحاضر الفاسد والمواقف الفاسدة بغطاء إسلامي وهذا أعظم تحريف للكلم عن مواضعه وأعظم تزوير في التاريخ، فالذين يعمدون إلى جبة الرسول وعمامته وردائه ويلبسونه لكل الزعماء ولكل الرجال على اختلاف عقائدهم وموقفهم وأهوائهم يزورون تاريخ أعظم رجل عرفته الأرض، وأشرف إنسان عرفه العالم فليتقوا الله في أنفسهم، وإذا كان علماء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها قد أنكروا أن يقوم ممثل ما نعلم يقيناً أنه ممثل بتمثيل أدوار الرسول الحقيقية فمن باب أولى أن نستنكر أن يخلع ثوب الرسول الحقيقي ومواقفه البطولية لخدمة باطل نعلم يقيناً أنه باطل، أقول. . تشويه الإسلام الحق وذلك بإلباسه بالباطل سينفر الناس منه وهذا من أعظم الصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى، ولذلك فيجب على الأمة وهي تخطو في رحلتها الجديدة نحو ذاتها الحقيقية أن تتجنب المزورين الغاشين، وأن تعلم أن الذات الإسلامية الحقيقية تبحث دائماً عن العزة في غير غرور، وعن كشف الباطل وحذره في غير خبث ومكر، وأنا الإسلام يعني دائماً إنكار الظلم وإقرار العدل، وأن تكون دائماً كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

١٣ يناير ١٩٧٨

محاولة كشف القناع

* نحمد الله إذ كان صوتنا من فوق هذا المنبر هو الصوت الوحيد منذ عام الذي يبشر بأن الدعوة إلى الإسلام مع اليهود ستنتهي إلى فراغ، ومازلنا نقول للآن أن ما يطلبه اليهود لليوم ليس هو آخر مرادهم ولا منتهى آمالهم، ولو أعطوه الآن لطلبوا غيره فوراً، وقد كانت رؤيتنا هذه مبنية على أساس النظرة الموضوعية للخلفية اليهودية التي تقوم على تراث ديني يدفعهم دفعاً إلى ما يفعلونه الآن، ولو تخلوا عنه لتخلوا عن يهوديتهم وانسلخوا من تراثهم وما زالت كثرتهم الساحقة ترى أن هذا شيء مستحيل. وكذلك اعتمدنا في نظرتنا هذه على الواقع المرير الذي تعيشه منطقتنا الإسلامية العربية، إذ هي تعيش الآن في فراغ حقيقي من القوة، القوة السياسية، والقوة المعنوية العقائدية، والقوة المالية. فالوحدة السياسية والتنسيق السياسي مفقود بين الأقاليم الإسلامية، والشعب يعيش في التيه والتخبط كركاب سفينة لا يعرفون شاطئاً ولا يرون نجاة قريبة، والقوة المالية الضخمة التي نملكها مهدرة ضائعة أو مسلوبة ومحبوسة بأيدي أعدائنا ونحن نتنافس حول قشور من الحضارة المغريات، وقوتنا العسكرية متخلفة جداً إذا قيست بما لدى العدو، وهذه الحال لا تجبر اليهود بل ويرون من الغباء أن يرضخوا لها وأن يعيروها أي اهتمام في تسوية أو صلح.

* والذين ركضوا للصلح مع اليهود كان وما زال ظنهم قائماً أن اليهود دولة تابعة للسياسة الأمريكية وأنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً وهذه خطيئة سياسية نبهنا إليها في مقال سابق بعنوان: «لحساب من تعمل إسرائيل» وقدمنا بالأدلة أن إسرائيل دولة تعمل لحساب نفسها ولكنها تستطيع استغلال الأوضاع الدولية والتناقضات العالمية، بل وتخلق التناقضات التي تعمي الأبصار عن حقيقة نواياها وغاية سياستها، فالمقولة القائلة بأن إسرائيل هي طفل أمريكا المدلل وأن كل ما تريده أمريكا تنفذه إسرائيل هذه المقالة مقالة جاهلة يجب أن نكف عنها، وأن نتعامل مع إسرائيل على أنها لص حاذق وعميل ماهر يعمل لحساب نفسه ويستغل أيضاً الشعب الأمريكي الجاهل بحقيقة الأوضاع تماماً كما تستغل جهلنا وعجزنا وفرقتنا هنا.. وما إخراج رجل مثل كارتر من مزرعته في جورجيا وهو فلاح لا يعلم به أحد في بلده ولا خارجها وتهيئته

ليكون رئيساً للولايات المتحدة إلا دليل واحد لنرى ما يمكن أن يعمله العمل الصهيوني المنظم في بلد كأمريكا، ولنتذكر فقط كيف كانت الدعاية الانتخابية لكارتر طافحة بوجود تأييد إسرائيل، وبأن معونة الرئيس فورد لها لم تكن كافية، ولنذكر الآن كيف أن كارتر لا يستطيع لو أراد أن يرجع عن وعوده السابقة، وكيف أنه قد فشل فشلاً ذريعاً في كل خططه الداخلية، ولم ينجح إلا فيما يوافق المصلحة اليهودية، كإحراج الروس فيما يسمى بحقوق الإنسان، ليضمن استمرار تدفق المهاجرين اليهود من روسيا إلى إسرائيل، وكذلك دفع مصر بوعوده الزائفة لتلتقي مع إسرائيل ثم تراجعه الذليل عن كل وعوده تقريباً، وها هو الرئيس الأمريكي كارتر الذي يعمل في الظاهر لإخراج الروس من أفريقيا والشرق الأوسط، يترك الصومال لتكون فريسة للنفوذ الروسي والكوبي الذي يدعم أثيوبيا لأن دعم الصومال العربي سيقوي موقف الدول العربية المناهضة لإسرائيل في البحر الأحمر.

باختصار اليهود يلعبون حيث يستطيعون اللعب ويعبثون بالدول والسياسات ويعصفون بأعدائهم بكل سبيل ولا يتركون وسيلة إلا ارتكبوها، وما زلنا نقول عنهم ـ جهلاً ـ صنائع الإنجليز وأطفال الأمريكان.

* من المقدمة الطويلة الماضية ندرك الحقائق التالية:

١ـ اليهود شعب جاء إلى فلسطين ليبني دولة بمواصفات معينة، هم يحددونها ولن يقبلوا أي صلح أو سلام يضعهم حيث لا يريدون.

٢ـ الدول العظمى الكافرة تريد بقاء إسرائيل بمواصفات قد قبلها ساسة العرب ولكن اليهود يعملون جاهدين للإفلات من القيود العالمية، وهم يستغلون التناقضات العالمية إلى أبعد الحدود.

٣ـ الذي يستطيع أن يكبت اليهود وأن يحصرهم في أرض معينة من فلسطين أو يزيلهم منها إلى الأبد هم المسلمون، ولكن المسلمين الآن ليسوا في وضع يمكنهم من ذلك وذلك لفرقتهم السياسية وشتاتهم العقائدي والفكري، وضياع ثرواتهم وأموالهم فيما لا يفيدهم، ولرغبة الدول الكبرى الكافرة أن يستمر حالهم على هذا النحو لتسلم لهم مصالحهم واستثماراتهم وأسواقهم.

* هذه الحقائق الثلاث وددت لو قرأها كل مسلم ووعاها كل عربي، وعند ذلك سينكشف عن أعيننا كثير من الغشاوة والجهل الذي يعمي أبصارنا ويجعلنا لا نرى دربنا نحو العزة والسيادة.

* وعلى أساس من الحقائق الثلاث يجب أن نبني صراطنا وأستطيع أن أقول إننا الآن نحتاج إلى ما يأتي:

أولاً: هل يستطيع ساستنا أن يخففوا الأنوار الباهرة التي يسلطونها على جهادهم (الميمون) نحو إسرائيل سواء جهادهم الحربي أو السلمي فهذا الضوء أعمى أبصارنا طيلة ثلاثين سنة عن حقيقة أنفسنا وعن حقيقة إسرائيل وأن يسلطوا هذه الأضواء أولاً على أخطائنا وعيوبنا.. نحن متفرقون فكيف نحارب؟ ونحن منا من يموت شبعاً وبشماً ومنا من يموت جوعاً وفقراً فهل يحارب المتخمون المترفون أو الفقراء الجائعون.. دعونا أولاً نمارس الرحمة والمساواة مع بعضنا البعض، دعونا لنتصافح ولنتحاب قبل أن نحارب، نحن أيها الساسة كم لا وزن لنا ولا رأي لنا ونحن نصدقكم دائماً حتى في القول ونقيضه. إن قلتم هذا أسود قلنا هذا أسود، وإن قلتم لا إنه أبيض عدنا وصدقناكم وكذبنا أنفسنا، بل وأقمنا الدليل أنكم كنتم صادقين في المرتين وذلك أننا طيبون عاطفيون نحبكم أو جبناء نخافكم فسياطكم لا ترحم، ونحن أيضاً غرباء في أوطاننا فهل من الممكن أن تدعونا قليلاً لنسترد عقولنا، ولنمارس التفكير. هل نستطيع أن نأمن في أرضنا وأوطاننا هل نستطيع أن نشعر أنكم منا وأننا منكم.. أطلقوا الحريات لنتكلم ولنناقش ولنبدي ما عندنا، وبالطبع سيخطىء كثير منا لأنه لم يتعود الكلام إلا فيما لا يفيد فلا تعجلوا فالأفواه التي كممت دهوراً طويلة لا تحسن الكلام بمجرد إعتاقها من إسارها.

* أيها السادة حطموا مسرحكم السياسي قليلاً وانزلوا إلى الشعوب المسكينة واسوا ضعيفها، وارحموا فقيرها واجبروا كسيرها واسمعوا منها فقد ملت السماع لكم وجلوس القرفصاء حول المذياع لتنسم أخباركم.

* باختصار؛ نريد إصلاح ما تسمونه بالجبهة الداخلية نريد مساواة حقيقية بين الغني والفقير، نريد أن يوضع كل رجل من الشعب في مكانه الصحيح.. نريد القضاء

على الرشوة والفساد والسرقات. . نريد أمناً وسلاماً لنا نحن الشعوب قبل أن تحققوا أمن وسلام اليهود، لا نريد أن تخطفوا أبصارنا بتحرير فلسطين لينهب من ينهب ويسرق من يسرق ونحن غافلون، وليموت من يموت، ويستشهد من يستشهد، ثم يُقال عنهم: إنهم حمقى مغفلون ماتوا في غير معركة واستشهدوا في غير قضية.

* وأما فلسطين ـ لك الله يا فلسطين ـ الذي تريدون تحقيقه بالحرب، لم تصلوا إليه، والذي تريدون تحقيقه بالسلم لا نريده، فخير لنا من أن يحتل اليهود أرضنا ونعجز عن إخراجهم ولا نرضى بذلك من أن يحتل اليهود أرضنا فنباركهم فيها ونهنئهم باحتلالها.

* وأنت أيها الشعب المسلم المسكين المغلوب على أمره متى تفيق، وتدع المسرح. . لقد شارفت المسرحية على النهاية. . أو كما يقولون. . انتهى الدرس يا غبي. .

٢٠ يناير ١٩٧٨

حديث إلى الساسة

في هذا العصر الرهيب الذي يبلغ الصراع فيه بين البشر مداه وتطغى فيه المادة، وتختفي فيه الأخلاق من السياسة، تكون المصالح المادية هي العامل الوحيد في توجيه السياسات الدولية، ويتنادى فيه كل قبيل من الناس إلى وحدة تجمع شتاتهم، وتجعل منهم قوة في وجه أعدائهم. . أقول في مثل هذا العالم المعاصر الذي يفترس فيه القوي الضعيف وتمكر كل دولة بأختها يصبح الغافلون اللاهون من أبناء أمتنا عن وحدة تجمع شتاتهم وعقيدة تؤلف بين قلوبهم أعظم إجراما وأكبر إثماً.

* بالرغم من أن القضية التي أجملتها في السطور السابقة قضية متفق عليها بين أبناء أمتنا الإسلامية العربية وخاصة بعد أن شاهدوا تكالب الشرق والغرب عليهم، وقيام دولة انطلقت بالعدوان من ضمير الغيب يوم كانت فكرة في قلوب أصحابها واستمرت كذلك في عالم الفعل والشهادة إلى يومنا هذا، وأعلنت أنها ستظل كذلك حتى تحقق نهاية أحلامها بإجبار هذه الأمة على السجود تحت أقدامها والاستسلام لمبادئها وأفكارها وعلوها عليها. وفتح أبوابها مشرعة لمشروعاتها واستثماراتها.

أقول بالرغم من هذا العدوان الصارخ لإسرائيل في الغيب والشهادة على أمتنا فإن العالم كل العالم وقف يؤيدها ويبارك خطواتها إلا مواقف يسيرة من بعضهم دفعهم إليها الخجل تارة والمصلحة أخرى. . وهذه القضية التي لم يبق رجل من أمتنا إلا وأحس بها وعقلها قضية واحدة من قضايا العالم الذي يقوم على النفعية والتعصب، وفقدان الأخلاق والمبادىء، ومدح الظالم المنتصر واحتقار المظلوم المنهزم. أقول ليس ثمة خلاف بيننا ـ فيما أظن ـ على الحكم على عالمنا المعاصر ودوله الكافرة التي تجردت من الأخلاق والمثل العليا. وليس ثمة خلاف بيننا أيضاً أنه لا حياة لنا ولا بقاء لنا في هذه الرقعة من الأرض حياة عزيزة إلا بوحدة تجمعنا، ورابط يربط بين قلوبنا، وسياسة مشتركة تنظم بها أمورنا وتقف بها ـ على الأقل ـ في وجه أعدائنا. كل ذلك فيما أظن لا أحد يخالف فيه ممن انتمى إلى عروبة أو إسلام. ويبدو أننا ملزمون أيضاً بأن نحكم على المخالف لهذه القضية بالخيانة والانسلاخ من هذه الأمة.

* وعلى كل حال ليس هذا ما قصدت بحديثي اليوم فليس من شأني أن أسود الصفحات في البديهات، وأن أبدىء وأعيد في المسلمات، ولكني بصدد قضية هي منذ أمد موضع الجدال والخلاف بين أبناء أمتنا وهي الوحدة التي تجمعنا، وما العقيدة التي تؤلف بين قلوبنا أو كما يقولون ما (الأيديولوجية) التي تجعلها مبدأ ومنطلقاً لجهادنا وعزتنا ولست بمناقش أيضاً أهل الباطل ـ والذي اعتقده أنا باطلاً ـ بآلهم لها مقام آخر وأعني بأهل الباطل الذين يدعون إلى وحدة الأمة بالعروبة مفرغة من الإسلام، وإنما فقط نقول لهؤلاء: ليس من الحكمة بتاتاً ولا من العقل أن نهمل في صراعنا من أجل البقاء عنصراً من عناصر القوة، وعاملاً من عوامل البناء والتصدي. وأظنكم لا تمانعون أن يكون الإسلام عاملاً من عوامل القوة والبناء في هذه الأمة وأستغفر الله من ذلك فليس الإسلام إلا كل القوة والبناء لهذه الأمة. ولكن دعوا هذه العقيدة لي وللمؤمنين معي بذلك. ويكفيكم إن كنتم على شيء من الحمية والوطنية ألا تهملوا الإسلام في معركتكم مع العدو الذي يحاربكم بكل شيء. وأما دعاة الإقليمية والشذوذ والذين لا يجدون عزتهم إلا في مقابر الفراعنة ومدافن بابل وآشور وحانات تل أبيب ومواخيرها فليسوا من هذه الأمة في شيء.

وأما أولئك الذين لا يجدون عزة وكرامة إلا بالانسلاخ من العروبة والإسلام

كليهما والالتحاق بمعسكر الإلحاد والشيوعية والدعوة الأممية إلى الثورة على كل شيء تعصباً وجهلاً فكيف يكونوا من أمتنا ـ وينتمون إلى أبناء جلدتنا.

* أتمنى أن يكون كلامي هذا مقنعاً لمن يخالفني الرأي والعقيدة وأتوجه إلى سواد أمتي الذين يشاركونني الرأي والعقيدة وخاصة إلى الساسة والرؤساء الذين شرفهم الله بزعامة هذه الأمة الشريفة المقدسة وكلفهم أيضاً بالسهر لترتاح وبالجوع لتشبع هي.. وأقول لابد من الجهاد لبعث روح هذه الأمة، وروحها هو الإسلام، ولبناء هذه الأمة وهذا الجيل بالذات وتسليحه بكل عوامل القوة وتوجيهه الوجهة الصالحة، ونفخ الغضب في عروقه واذكاء الحمية في نفوسه: الحمية لدينه وعقيدته وقومه ووطنه وأرضه. فليس بمسلم من تستباح حرماته فيسكت بل شعار المسلم عند الظلم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٩]. وسبيل هذا البعث سهل ميسر وهو في إمكانكم أيها السادة بل تحت أيديكم.. لابد من استحداث وزارات للدعوة الإسلامية في كل حكومة إسلامية.. يجب فتح جامعات وكليات متخصصة في الدعوة الإسلامية والتعريف بالإسلام.. لابد من الاهتمام بمناهج التربية والتعليم في مدارسنا كلها وإعادة النظر في الموجود الآن، يجب تعميق الدراسة الإسلامية في المدارس والجامعات، لابد من عقد ندوات فكرية يتداعى لها مفكرو الإسلام من كل صوب وليكن شعارها جميعاً: كيف نبعث أمة الإسلام من جديد؟ كيف نوقف زحف العالم المادي بجناحيه الشرقي والغربي على أمة الإسلام؟ كيف ننقذ أنفسنا من براثن العدو اليهودي الذي تسانده قوى البغي والعدوان جميعاً لاستئصال حضارتنا وتمزيق شملنا. يجب أن توجه وسائل الإعلام جميعاً في بلادنا في خدمة هذه المعركة. نريد يقظة عامة تستهدف كل فرد فينا.. الرجل والمرأة والشاب والشيخ. نريد أن يرفع الجميع هذا الشعار: الإسلام روح الأمة، ولا حياة لنا إلا بالإسلام.

* ولست في هذا الحديث بالطبع بمبعد المسؤولية عن أي فرد يعقل في هذه الأمة فكلنا مسؤول عن هذه الأمانة وعلى كل منا واجب بانتسابه إلى هذه الأمة، وإنما توجهت نحو الساسة لأنه بصلاحهم صلاح الرعية.

١٠ فبراير ١٩٧٨

كيف نصطاد الأرانب السحرية؟

* الحقيقة أننا ما زلنا مبهورين ومشدوهين أمام مارد الحضارة الأوروبية الذي يتعاظم أمامنا يوماً بعد يوم، وأننا ما زلنا للآن أيضاً لا نعرف كيف نتصرف سياسياً أو عسكرياً أو اجتماعياً أو تربوياً وتعليمياً ـ الزمن أسرع منا والغزو الفكري والثقافي والاقتصادي للكلاب المتصارعة علينا يصيبنا بالحيرة والارتباك. وقد أصبحنا في عالم عجيب ولا نملك فيه إلا النوايا الطيبة وهذه وحدها لا تكفي..

وهذه لمحة سريعة للواقع الأليم الذي تمر به أمة الإسلام في العصر الراهن، وتفصيل هذا الواقع أمر يطول شرحه ومشكلتنا هي أن نكون مستقبلاً أو لا نكون، فنحن بلا مراء ـ نعيش خارج عصرنا في الوقت الراهن وعندما أقول نحن فأنا أعني هذه الأمة الإسلامية والعرب منهم بالذات. فالفوضى الفكرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية أيضاً التي نعيشها لا حدود لها ولا ضوابط. ولذلك رفع مفكرو العرب والمراقبون السياسيون على هذه المنطقة اسم منطقة المفاجآت، ومنطقة كل شيء جائز وكل شيء محتمل!! وهذا حق. فمن كان يتصور أن أعظم الدول العربية استقراراً وأمنا والذي كان ملجأ لكافة اللاجئين السياسيين يقتل الإنسان في شوارعه على الهوية. ومن كان يتصور أن يتحول بعضنا من العداء الكامل مع اليهود إلى المطالبة بالسلم الكامل والود الكامل معهم. ومن كان يتصور بعد الاجماع العربي الكامل على حرب اليهود عام ١٩٧٣ إلى التمزيق العربي الكامل عام.. ١٩٧٧ ومن.. من..؟..

وهذا جانب يسير جداً من الانتقال من الضد إلى الضد ومن النقيض إلى النقيض..

* لا أريد أن أقول أن كل هذه الأمور تأتي عفواً وبلا تدبير ومكر في الخارج والداخل. فهذه هي البلاهة بعينها، ولا أريد أن أقول أيضاً أن كل هذه الأمور بتخطيط وتدبير كامل وإننا فيها كالدمى بيد المحرك لا فعل لنا مطلقاً وهذه أيضاً بلاهة كاملة. فليس صحيحاً أن سياستنا تصنع كلها في أرضنا فالاستقلال السياسي انتهى أمره في الأرض الآن، وليس صحيحاً أيضاً أننا يجب أن نكون صفرا لا فعل لنا مطلقاً

وأن روسيا وأمريكا هي التي يجب أن تتولى شؤوننا وتتحكم في مصائرنا . . ويكفي كما يظن البعض أن يروا منا النوايا الحسنة . .

* وباختصار نحن في دوامة والخروج من هذه الدوامة المعاصرة والمزمنة أيضاً لا يتأتى إلا بما يأتي :

أولاً: الاستقلال السياسي .

ثانياً: اجتماع الأمة حول أهداف واضحة ومحددة . .

ثالثاً: الاتفاق على خطوط عريضة (على الأقل) لعمل واحد من أجل الهدف المشترك الواحد . .

* والاستقلال السياسي لن يأتي إلا بأن تكون لهذه الأمة هوية عقائدية وذات واحدة تفرض عليها الاجتماع حول هدف واحد وغاية واحدة، وقد ذكرنا في مقالات سابقة أنه يستحيل أن تجتمع الأمة على عقيدة غير العقيدة الإسلامية التي ما زالت تعيش في قلوب أبنائها، وتذكي عواطفهم، وتحرك مشاعرهم. وكل عقيدة بديلة لهذا الأمل الذي نشأت عليه أجيال هذه الأمة منذ أربعة عشر قرنا فهو مهدد بالسقوط إن عاجلاً أو آجلاً وما هو إلا عبث وإرهاق لا نجني من ورائها غير السراب بل الصاب والعلقم. وعلى الذين لا يؤمنون إلا بالدنيا فقط ويحلمون مع ذلك بالعزة القومية أو باسترجاع الكرامة العربية أن يعلموا أيضاً أن بغير الإسلام لن يحصل لهم ما يريدون . .

* ويستحيل أيضاً أن يحصل لنا استقلال سياسي إلا إذا شاركت الأمة كلها في صنع القرار السياسي ولا يجوز بتاتاً أن يكون للحاكم وحده صلاحية ذلك فالحاكم في الإسلام نائب عن الأمة لا يعمل إلا بمشورتها ولا يسير إلا برأيها وقراره إذا كان عن غير موافقة الأمة ومشورتها فهو باطل، ولذلك فليس نافلة وتطوعاً أن يشارك المسلمون إمامهم بالرأي بل هو واجب مفروض إن تخلوا عنه فهم آثمون، وإن امتنع الحاكم عن أخذ رأي الأمة، ومشورتها فحكمه باطل. وهذا يعني أن ممارسة الأمة الإسلامية لحقها السياسي جزء من الدين الذي فرضه الله عليها كما قال ﷺ: الدين النصيحة (ثلاثاً)، قلنا: لمن؟؟ قال عليه السلام: لله، ولرسوله، ولكتابه، ولائمة

المسلمين وعامتهم. . والنصيحة هنا بمعنى الإخلاص. .

* وأيضاً استقلالنا السياسي يعني أن تكون لنا هوية خاصة وعقيدة خاصة في عالم تتقاسمه العقائد والأيديولوجيات والمصالح وكذلك في أن نشارك جميعاً شعوباً وحكاماً في صنع قرارنا السياسي وأن يكون هذا حقاً للأمة وواجباً عليها. وإذا تم لنا هذا الأمر الأول استطعنا بعد ذلك أن نحدد على ضوء عقيدتنا، ومشاركتنا جميعاً في صناعة مستقبل أمتنا أن نحدد الأهداف التي نريدها. وهذه هي الخطوة الثانية. . وأهداف الإسلام باختصار أن توجد الأمة الراشدة التي تحيا عزيزة مرهوبة الجانب، والتي تقيم الحق والعدل في الأرض والتي يجب أن تكون مناراً وهداية للعالمين تدعوهم إلى الله وتخلصهم من الضلال والتيه والبعد عن خالقهم ومولاهم. وهذه مهمة جليلة بل هي أعظم مهمة على سطح الأرض. . فإذا عرفنا هدفنا في الحياة كأمة ووضعنا الخطوط العريضة. وسلكنا الصراط المستقيم الذي يوصلنا إلى أهدافنا: كيف نحقق عزتنا على الأرض؟ عزتنا السياسية، وعزتنا الاقتصادية وعزتنا الاجتماعية والأخلاقية. كيف نكون مثالاً يحتذينا الناس ولا نكون أضحوكة وأمثولة للعالمين كما هو حادث الآن. .

* وهذه الأمور الثلاثة التي عرضتها آنفا هي في نظري المخرج من الدوامة الرهيبة التي تعمي أبصارنا وتقطع أنفاسنا في الوقت الحاضر إنها طرف الخيط الذي يجب أن نلتقطه لنخرج من هذه (الشرباكة): إذا عرفنا ذواتنا وهويتنا. وحددنا أهدافنا في الحياة والوجود ونصبنا صراطنا نحو هذه الأهداف فسنخرج سريعاً من الدوامة. . وأما إذا ظللنا ندور حول أنفسنا ونسأل ما الهدف؟ وأين الطريق؟ أو عصبنا أعيننا وسرنا خلف الراعي حيث نعق بنا فلن نصل إلى شيء مطلقاً وسنظل في التيه السياسي أبدا. وهؤلاء هم السحرة.

اليهود والأمريكيون والروس يلاحقوننا بألعابهم البهلوانية من كل جانب. الحرب في لبنان، الصدام في الصومال، المستعمرات في سيناء، هذه الأرانب السحرية التي تقفز هنا وهناك تعمي أبصارنا وتضلل عقولنا وتدور أعيننا حولها في دائرة كاملة كل يوم فتدور رؤوسنا ولا نعود نفقه شيئا. والحل سهل جداً لو فقهنا قواعد اللعبة الدولية الشريرة. ولكن كيف نعرفها

والأمة ما زالت دون سن الرشد، والذين يتولون شؤونها لا يطلعونها من أمرها على شيء. بل الأمة ما زالت تبحث لها عن هوية واسم. .

١٧ فبراير ١٩٧٨

بين الفدائية والتخريب..

* لا أريد أن أدخل في فلسفة طويلة للتفريق بين الخير والشر ولكن لابد من إيضاح بعض القواعد التي نستطيع بها الحكم السليم على الأشياء والأفعال وخاصة في عالمنا هذا العجيب الذي اختلطت فيه مفاهيم كل شيء بل الذي وأضحى الحق فيه باطلاً والباطل حقاً.

أولاً: لا خلاف أن الفعل الواحد قد يكون فائدة ومصلحة بالنسبة لأقوام ومضرة ومفسدة بالنسبة لآخرين. وقديماً قال الشاعر: مصائب قوم عند قوم فوائد. .

فالهزيمة في جانب قوم هي نصر حتماً في جانب آخرين والسرقة قد يعدها اللص الذي خلص بها فائدة ومنفعة ومصلحة ولكن المسروق منه الذي ضاع حقه يعتبرها مصيبة وضرراً. هذه واحدة.

ثانياً: ثمة أمور يتفق الناس عليها على اختلاف عقائدهم وأفكارهم ونظرتهم إلى الخير والشر وهي أن رد العدوان، والانتصار من الظالم وإرجاع المغصوب كل هذا من جملة الفضائل التي يتفق الناس عليها وإن كانوا يختلفون في الفعل الواحد هل يدخل في رد العدوان والظلم أم هو عدوان وظلم بذاته، وخاصة بعد دخول اليهود المسرح السياسي العلني والمعروف أن اليهود هم أهل الكذب والتلاعب بالألفاظ على مدار التاريخ فهم الذين ابتدعوا ما يسمى بالحرب الوقائية وما هي إلا العدوان. وهم الذين أطلقوا على المحارب الشريف الذي يحاربهم في أي مكان يكونون فيه: الإرهابي والمخرب. . .

ثالثاً: أحمق ولا شك من يكون له عدو واحد فيعمل جاهداً لتقوية جانب هذا العدو بجعل المحايدين مؤيدين له، وتحويل أصدقائه أنصاراً لعدوه وفتح جبهة

جديدة على نفسه كل يوم وكأنه يريد أن يحاربَ العالم وحده. وهذا إما أن يكون بلاهة وعماية كاملة أو خيانة وانحرافاً.

* وفق القواعد الثلاثة الآنفة لنناقش الفرق بين الفدائية والتخريب في قضية فلسطين.

أولاً: استرداد المسلمين لفلسطين كاملة واجب ديني يرتكز على مبررات أخلاقية، ومنطلقات عادلة وافق الناس على ذلك أم خالفوا. فنجد شعباً شرد من أرضه بلا ذنب، وشعباً آخر سكن مكانه بلا مبرر إلا الظلم والاعتساف والدعاوى الكاذبة في وعود التوراة التي لا تنطبق على هذه الفئة الضالة عن هداية الرسل جميعاً وأولهم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه.

وحرب هؤلاء الظالمين مشروعة بكل وسيلة وفي أي أرض إلا أرضاً نعتدي بها على سيادة آخرين ونجر بها من البلاء على أنفسنا أضعاف ما نكسب بها، وهذه حقيقة غابت فيما يبدو على بعض العاملين ممن حملوا السلاح لاسترداد فلسطين. فقد ارتكزوا على نصف الحق وهو أن اليهود معتدون ويجب حربهم وضاع عنهم نصف الحق وهو أنه لا يجوز أبدا أن يمر العمل الفدائي من البلاء على القضية أكثر مما يكسب لها وإلا كان هذا عماية وجهلاً. تماماً كالقصة الرمزية التي يقال فيها: أن رجلاً كان له دب غبي يربيه ويعتني به، وذات يوم نام الرجل أمام الدب فرأى الدب ذبابة على وجه صاحبه ولم يعرف كيف ينحيها عن وجه صاحبه إلا بأن أتى بحجر كبير وصك به وجه صاحبه ليطرد الذبابة. وهؤلاء الذين يخمشون وجه فلسطين ويقذفونها بالحجارة ليندبوا ذبابة من عينها أما أن يكونوا أغبياء أو خونة ولا واسطة بين ذلك.

ثانياً: المبرر الدولي والعالمي المتاح للقضية الفلسطينية هو أنه شعب مشرد يجب أن يعود إلى أرضه وأن له الحق في إقامة دولته المستقلة على هذه الأرض، هذا المبرر الدولي يجب التمسك به وتنميته والحفاظ عليه ولا يكون ذلك إلا بأن تكون طلائع هذا الشعب على مستوى المسؤولية فهماً ودراية وأخلاقاً وسلوكاً. ولا يقول عاقل في الأرض أن ترويع الآمنين المحايدين على الأقل أو خطف النساء والأطفال عملاً أخلاقياً يخدم قضية على هذا المستوى من الأهمية والتعقيد والزمّانة لأجيال لا يعلمها إلا الله.

ثالثاً: بالطبع لن أناقش رجلاً يقول أننا لا نحتاج إلى مبرر دولي وعالمي لقضية فلسطين لأن مثل هذا الإنسان يعيش بعيداً جداً عن عصر أصبح العالم فيه كأنه قرية واحدة. وإذا كنا نحتاج إلي هذا المبرر الدولي وجب علينا أيضاً ألا ندخل في إطار المتناقضات الدولية بين الشرق والغرب وألا ننحاز مطلقاً لأحد المعسكرين المتقاتلين على اقتسام العالم. فقد رأينا كيف تتحول الأمور إلى الضد إذا اختلفت المصالح وكيف أن الافتراق بين روسيا وأمريكا إنما هو اختلاف وافتراق في المصالح فقط وليس في العقائد والمبادىء. . فالذين يريدون من طلائع الشعب الفلسطيني أن يكون مطية للمصالح الروسية في المنطقة لا يمكن أن يكونوا من أهل قضية فلسطين مطلقاً.

رابعاً: الذين يريدون من الفلسطيني أن يصلح العالم كله وأن يحمل على ظهره جميع أوزار الأرض ويوهمونه بأنه لن يصل إلى فلسطين ويعيش على أرضها إلا إذا قوض عروش الدول العربية (الرجعية)!! وأزال الإمبريالية الأميركية من العالم وحول الشعب الفلسطيني من عقيدة الإسلام إلى عقيدة ماركس ولينين لا يمكن أن يوصفوا أيضاً إلا بالغباء أو العمالة. وذلك أن تحرير فلسطين في ذاته إذا توجه حقاً نحو التحرير فقط فإنه أيسر ألف مرة من حمل شيء من (الأوزار). وهذه العقيدة الخاطئة والمنطلق الخاطىء هي التي جرت البلايا والرزايا على الثورة الفلسطينية وأكسبتها كل يوم جديداً من الأعداء وأفقدتها مزيداً من الأصدقاء.

خامساً: قلنا في هذا المنبر قبل عام أنه لم يأت بعد الرجل الذي يستطيع أن يعبر فوق تراث هذه الأمة، ويلغي قرآنها وسنة نبيها الناطقان بعداوة اليهود والمحذران منهم، ويعفي الآثار على آلاف الشهداء ويدفن القضية الفلسطينية، ولقد هالنا بعد مدة ضخامة التضليل الإعلامي الذي صور الصلح مع اليهود أنه نهاية مطاف هذه الأمة ومنتهى آمالها. وحذرنا من هذا التضليل وقلنا يجب أن تنطلق الألسنة الصادقة لتضع كل أمر في نصابه الصحيح. ولكن للأسف قامت بمقابل هذا التضليل أبواق أخرى أشد ضلالة وعماية جعلت الخطأ خيانة، والاجتهاد كفرا، واتهمت الشعب الذي ضحى بكل شيء بالقصور والتقصير وما هو أكبر من ذلك، ودفعت هذا الشعب دفعاً إلى معاداة القضية، ولا يستطيع أي منصف أن يفسر حادث طائرة قبرص إلا بالعمى

الكامل أو الخيانة الكاملة ولو كنا نعلم نيات الخاطفين وما تخفيه صدورهم لحكمنا بأحد الأمرين.

سادساً: مرة ثانية وثالثة - ولا نمل نفتأ نقول الطريق إلى فلسطين هو في وحدة هذه الأمة وتآلف قلوب أبنائها واعتمادهم على أنفسهم بعد الله سبحانه وتعالى والحفاظ على شخصيتهم المستقلة ولا يكون شيء من ذلك إلا بالإسلام فهو دين هذه الأمة وأقوى رباط يربط بين أبنائها وهو القادر إلى إذابة الفروق وإذهاب الأحقاد، وإشعال الغضب الصادق في القلوب والحمية الصادقة، وهو بعد ذلك كله صلة برب العباد الذي بيده الملك كله يعز من يشاء ويذل من يشاء.. ولكن أنى يفهم العميان أن الله ليس بغافل عن تصريف هذا الكون بل هو الذي بيده الملك كله.. وهو القادر أن توجهنا إليه أن يوجهنا الوجهة الصحيحة لاسترداد حقوقنا وهزيمة عدونا، وأن يبارك لنا في كل أعمالنا.

سابعاً: لماذا لا تنهج الثورة الفلسطينية منهجاً إسلامياً يدرس القرآن والسنة والجهاد وفق منهج الإسلام وطريقته وبذلك تكسب هذه الثورة رضوان الله أولاً ويكون الشهيد في ظلالها شهيداً حقاً. وتكسب بذلك عطف الشعوب الإسلامية وتقدير العالم لقضيتها ومنهجها. والإسلام بعد هو دين الشعب الفلسطيني وهو دين العزة والكرامة والبصيرة والحق؟ لماذا؟ هل من جواب مقنع لإهمال الإسلام؟!

٢٤ فبراير ١٩٧٨

من يستطيع إيقاف سقوط العربة؟

مرة ثانية تتابع العربة العربية السقوط نحو القاع بسرعة رهيبة. وترتطم في سقوطها بصخور السفح المنحدر فتتمزق أوصالها، وتتناثر أشلاؤها، ويتساقط الركاب صرعى على جانبيها ويبقى الباقون مندهشين مذهولين، ويتساءل من بهم مسكة عقل وإدراك على أي سفح من سفوح المنحدر سترسو العربة قليلاً لالتقاط الأنفاس، ومداواة الجرحى، ومواراة القتلى وتسكين روع الخائفين..

قبل بضعة أشهر كانت النقلة التاريخية للعربة حيث طارت طيرانا وسقطت على سفوح القدس ولهول الصدمة وضخامتها بقي جميع الركاب إلا نفر يسير لا يصدقون ما يرون، وأفاق الركاب تباعاً واحداً إثر الآخر.. رجل يقول ارتفعنا إلى واد أفيح وآفاق جديدة.. إلى أرض السلام.. وآخر يقول.. سقطنا في الوحل والطين سقوطاً لا قيام بعده.. وبعد أن تلمس الجميع أرض السقوط وجدوا الأرض طينا، والورد شوكا، والحمائم صقوراً، والماء سراباً، والسلام متعذراً أو مستحيلاً.

ونشطت فرق المسرح السياسي وتوزعت الأدوار هنا الرفض.. وهناك رفض الرفض وها هم القابلون وهناك المعتدلون.. وشرعت (الجوقات) وحاملوا الأبواق وأدعياء الفلسفة والحكمة.. ينظرون ويفلسفون ويشجعون ويشجبون ويصفرون ويهتفون، وبدأ الجمهور التائه الضائع يتابع الفاصل الجديد طائر اللب والقلب لا يكاد يرجع إليه بصره، ولا يستطيع ملاحقة أنفاسه.

* وبعد أن تهيأ الجميع لنقلة جديدة وسقوط جديد وأفاق الجميع من هول الصدمة الأولى ابتدأت العربة تتدحرج نحو منحدر آخر وفي هذه المرة لا يقف على المسرح الممثلون المحترفون ولكن الجمهور بكامله إلا من عصم الله منهم يشترك في اللعبة القذرة، والمسرحية المحبوكة التي ألف فصولها، ووضع حوارها الشيطان الأمريكي والروسي واليهودي، ابتدأ اللعبة أدعياء تحرير فلسطين برصاصات طائشة لكاتب عربي لسنا الآن بصدد وضعه في الميزان، وليس هو مهما زعم الزاعمون العائق الأول ولا الأخير في تحرير فلسطين ودخلت الشعوب المسكينة بعد هذه الرصاصات الغادرة، وبدأ المسرح الجديد يدخله ممثلون جادون يأخذون أدوارهم التي رسمها غيرهم، وكأنها أدوارهم الحقيقية التي تمليها وطنيتهم أو أقاليمهم.. باختصار لقد تحول العالم العربي بأسره إلى مسرح حقيقي ليس فيه ممثلون ومتفرجون وإنما فيه ممثلون فقط، وأما المتفرجون فهناك خارج أسوار هذا الوطن في الغرب والشرق وفلسطين المحتلة يشاهدون هؤلاء الأغبياء الحمقى الذين يدفع بعضهم بعضاً من عربة هاوية نحو القاع ولا يحاول أحد مطلقاً أن يوقفها عن السقوط أولاً.

* كان بودنا أن تظل الشعوب العربية بعيدة عن لعبة الأمم التي تمارس على أرضنا

الإسلامية العربية منذ سقوط الخلافة العثمانية، وتقسيم تركة هذه الدولة المريضة، ولكن الشياطين الذين وضعوا هذه اللعبة (تقسيم العالم) جرعوا هذه الأمة كأس الذل والفرقة جرعة جرعة. . لقد كان آباؤنا وأجدادنا الأقربون يضحكون ويهزأون عندما وضعت حدود فاصلة بين بلاد الشام بعضها بعضاً، وبين أقاليم الجزيرة وبين مصر والشام، وكانت هذه الحدود الجغرافية نوعاً من السخرية التي تجاري الشعوب فيها حكامها دون أن تؤمن بشيء من ذلك، ولذلك رأينا كيف هب المسلمون على اختلاف أقاليمهم لنجدة فلسطين متطوعين بأموالهم وأنفسهم عندما علموا بدخول اليهود إلى هناك، ولن أنسى مطلقاً كيف جلست والدتي تقنع أخي محمد وكان دون العشرين من عمره أن يعدل عن قراره بالذهاب إلى فلسطين وهو يقول. . يا أمي سأموت شهيداً وسيجري الدم على جبهتي هذه. . وتتوسل إليه والدتي وتقول له: يكفي ذهاب أبيك يا محمد ليس لنا غيرك، فيقول: لا علاقة لذهابي بذهاب أبي، إنني مسؤول عن نفسي. . وكان عمري في ذاك الوقت ثمانية أعوام فقط، وذهب أخي وقتل شهيداً هناك على أرض فلسطين وعاد أبي من هناك بعد انقضاء الحرب وبعد أن عدوه مفقوداً، ونحن مع ذلك من صميم الريف المصري. . ولكن هذه الحدود الجغرافية السياسية تعمقت مع الأيام وأصبحت حقائق راسية رسو الجبال الشامخات ليس فقط على صفحات الخرائط وإنما في حنايا القلوب والصدور.

وابتدأت الخلافات السياسية بين الأقاليم تشعلها السياسة وأصحابها بسبب وبغير سبب وبالأمس كانت الشعوب الإسلامية العربية تتفرج على هذه الخلافات على أنها أنواع من التسلية واللهو والألاعيب السياسية، وخاصة أن هذه الشعوب كانت ترى الحكام على كل خلاف وسباب يلتقون ويقبلون الخشوم وكأن شيئاً لم يكن. . ولكننا في هذه الأيام ننتقل نقلة جديدة ونتجرع جرعة جديدة من كأس السم والذل الذي ركبه أعداء هذه الأمة القائمون على لعبة الأمم، وهذه اللعبة الجديدة أصبحت تعني إشراك الشعوب الإسلامية العربية في هدم بعضها بعضاً، وتمزيق بعضها بعضاً، وها نحن نرى اليوم أن الصدور أصبحت موغرة ومليئة بما يكفيها، وأن الألسنة أصبحت تنفث السم هنا وهناك، والأفواه يعلوها الزبد والحناجر تتمزق من الهتاف بسقوط قضايانا وسب أمتنا، ولعن شعوبنا وحط كرامة الرؤساء والقادة. . وهكذا بدأ التمزيق والشتات يصل إلى الأطراف والمنابع وإذا استمر الحال كما هو الآن بضع سنوات

أخرى فقد يصل الوقت الذي يقتل فيه بعضنا بعضاً. . بل سيأتي الوقت الذي لا يعرف القاتل فيه لم قتل. . ولا المقتول فيم قتل؟!! ولعل هذا هو الوقت المناسب الذي تنتظره إسرائيل لتحقق السلام الذي تريد لأنه سيكون سلاماً كاملاً ودائماً على أشلاء هذه الأمة التي قتل بعضها بعضاً، وسيكون هذا ـ لو عقلنا ـ هو المستقر النهائي للعربة العربية الهاوية.

* والسؤال الآن: من يرحمنا من هذا السقوط الرهيب؟ وما الذي يخلصنا منه؟ هل يخلصنا منه أن يجتمع القادة والزعماء حول مائدة واحدة ويقرروا قراراً ننتظره الآن وهو: فلنوقف العربة عند هذا الحد الآن حتى نهدأ قليلاً. .

أو يخلصنا منه أن تعي الشعوب اللعبة اللعينة التي دخلوا فيها الآن، وينتزعوا أنفسهم من هذه المسرحية القذرة التي لن تنتهي إلا بالقضاء عليهم أنفسهم. . ومتى يتم ذلك؟ وكيف؟

ليس لنا مهرب ولا مفر من سلوك أحد هذين السبيلين أو كلاهما معاً. فإما أن يعي القادة والزعماء حدود المسؤولية التي كلفهم الله بها وحملوها بموافقة الشعوب أو بالرغم عنهم، ويوقفوا سقوط العربة وهذا في ذاته إنجاز عظيم. . بصراحة لا نريد الصعود الآن ولا الانتصار على اليهود ولا حتى تحرير فلسطين. دعونا من هذه الأماني قليلاً. . ومكنونا من استرداد أنفاسنا ومداواة جراحنا وإصلاح صفوفنا وعند هذا الحد تكونون قد أسديتم للأمة أعظم خير في وقتها الراهن. وأما أن تعي الشعوب حدود مسؤوليتها في الوقت الحاضر وتكف عن هذه البلاهة والغباء وتفيق من سكرة الأحداث لتعي ذاتها وتتلمس طريقها. .

* وإما انتظار الفرج من أمريكا وروسيا وتنازل اليهود عن بعض فلسطين فهذه كلها أماني فارغة لأن هؤلاء الشياطين الثلاثة هم واضعو المسرحية ومخرجوها.

ومرة ثانية: من يستطيع إيقاف سقوط العربة؟ من؟

٣ مارس ١٩٧٨

* * *

كِتَابُ

مَشْرُوعِيَّةِ الجِهَادِ الجَمَاعِي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهداية للعالمين سيد ولد آدم، وإمام الغر الميامين، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد:

فإنني استمعت إلى بعض الأخوة من طلاب العلم، والعلماء، وكذلك بعض من ينسب إلى العلم ويدعيه، وليس كذلك، أن الجهاد الجماعي لا يجوز إلا للإمام العام إمام المسلمين وحده وإن كل جماعة تتأسس لجهاد، أو دعوة، أو عمل من أعمال البر والخير بدافع ذاتي من أهلها ليست جماعة مشروعة. وأن جماعات الدعوة الإسلامية التي قامت في العالم شرقاً وغرباً كالجماعات السلفية، وجماعات التبليغ، وجماعات الإخوان المسلمين وغير ذلك من هذه الجماعات أنها جماعات فرقة وتفرقة. وأن قيامها غير جائز، وبالتالي عملها غير مشروع.. وادعى بعض هؤلاء الذين استمعت إلى تسجيلاتهم أن هذه الجماعات تصنف مع أهل الاعتزال (المعتزلة) والخوارج، لأنهم خرجوا بتأسيسهم هذه الجماعات خرجوا على جماعة المسلمين، وعلى حكام المسلمين..

والذين قالوا ذلك ادعوا كذلك أن هذه الجماعات ليست من هدي الرسول ﷺ ولا من سنته، وأنهم اتخذوا غير طريقه وغير منهجه في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

ولما رأيت أن كثيراً من أبناء المسلمين وشبابهم قد خُدع بهذه الفتوى الباطلة، والقول الجُزاف الذي لا يستند إلى علم ولا عقل، أحببت بما أوجبه الله من البيان وعدم الكتمان أن أضع هذه الرسالة المختصرة، بياناً للحق، وكشفاً للغمة، وهداية

بحول الله إلى الطريق المستقيم، والله وحده المسئول أن يجعل عملي خالصاً، وأن يجعله صواباً سديداً إنه سميع عليم.

عبدالرحمن بن عبدالخالق اليوسف

الباب الأول

مفهوم الجماعة

الجماعة ما اجتمع من الناس على أمرٍ ما، وأقله اثنان وهو الصحيح لقول النبي ﷺ: [من يتصدق على هذا فيصلي معه] (أخرجه أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وابن حزم من حديث أبي سعيد الخدري)، والتصدق هو أن يثيبه بانضمامه معه في الصلاة ثواب الجماعة. كما قال النبي ﷺ [صلاة الجماعة تعدل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة] (متفق عليه من حديث ابن عمر). فدل الحديث على أن الاثنين جماعة، وقد صلى الرسول ﷺ ومعه رجل واحد فقط. فدلت السنة العملية والقولية على أن الاثنين جماعة.

ولا حد لأكثر الجماعة فقد تبلغ الآلاف وآلاف الآلاف وهم جماعة واحدة.

كما قال ﷺ: [يد الله على الجماعة] (أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه وصححه الألباني)، ويقال جماعة المسلمين لكل من اجتمعوا على إمام في زمن ما، كما قال ﷺ لحذيفة بن اليمان في حديث الفتن الطويل: [الزم جماعة المسلمين وإمامهم] (متفق عليه من حديث حذيفة).

وليس اللزوم هنا لزوم معتقدهم، ودينهم.. وإنما اللزوم لزوم جهادهم وفقههم لأن هذا هو معنى اللزوم بدليل قول النبي ﷺ: [ألا من وَلّي عليه وآل فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة] (رواه مسلم). وكذلك قوله ﷺ: [وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة] (رواه مسلم من حديث عوف بن مالك)، وكذلك قوله ﷺ: [من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية] (رواه مسلم). وهذه الأحاديث كلها تبين أن المقصود

بلزوم الجماعة هو لزوم طاعة الإمام في الخروج إلى الجهاد، ودفع الزكاة إليه ونحو ذلك مما هو من مهام الإمام.

فالمقصود هنا هو بيان أن الجماعة اثنان فأكثر وأن كل جماعة اجتمعوا على أمر لزم أن يكون لهم إمام مطاع. فجماعة الصلاة يجب عليهم الائتمام بإمامهم، وكذلك الشأن في جماعة السفر، وجماعة الجهاد (الجهاد والسرية).. والجماعة العامة، وكل جماعة أجمعت على أمر ما من أمور الدين والدنيا لا تكون جماعة إلا بإمام مطاع.

الباب الثاني

مشروعية الجماعة وحكم الاجتماع

كل أمر لا يتم إلا بالاجتماع عليه فالجماعة له واجبة. كما هو مقرر في أصول الفقه (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) فالجماعة فرض للقتال لأنه لا قتال ينكأ العدو، وينصر المسلمين إلا باجتماع وأمير وإمام.. وقيام أمة الإسلام لا يتم إلا بالإمام، ولذلك كان تنصيب الإمام فرضاً واجباً.. وكذلك الحال في كل منكر لا يمكن إزالته إلا بجماعة فالجماعة عندئذ تكون واجبة، وهكذا الحال في كل فروض الكفايات كإقامة الجمع والجماعات، وبناء المساجد، وغسل الميت وتكفينه، ودفنه، وتعليم العلم، ونشر الفضيلة والإيمان، ونحو ذلك مما أوجبه الله على عباده.. والخلاصة أنه بالنظر إلى القاعدة المعروفة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) فلما كانت إقامة الدين، ورد كيد المعتدين على أمة الإسلام، وحوزة المسلمين لا تتم إلا بإمام، فإن تنصيب الإمام واجب في الدين. وهذا إجماع المسلمين، كما أجمعوا على تنصيب الصديق بعد رسول الله ﷺ، لإقامة الدين، وتنظيم شئون المسلمين، والعمل لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. ثم سار المسلمون على ذلك أعني تنصيب خليفة وإمام جيلاً بعد جيل وقد نص الله على وجوب ذلك، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨] والأمانة هنا هي أمانة الحكم، وقال ﷺ: [من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية] (رواه مسلم).

والخلاصة أن الإمامة العامة فرض على المسلمين، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يبيتوا ليلة بغير إمام يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله، وإلا كانوا آثمين ولا شك أن جماعة الصلاة فرض على الكفاية أو الأعيان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة

ونقطة الالتقاء بين المذهبين أنه لا بد من جماعة تقام للصلاة وإلا فترك جماعة الصلاة نهائياً هدم لهذا الركن وتضييع للصلاة وإثم على الجميع.

ولا شك أن القتال واجب، ولما كان القتال لا يصلح إلا بقائد وإمام وجماعة تصدر عن رأي ومشورة وأمر وقرار فإن تنصيب إمام للجهاد واجب لا شك فيه، ولا يجوز أن يقاتل الناسُ متفرقين مختلفين بغير إمام ونظام لأن هذا مدعاة للفشل والهزيمة والضياع، وهذا أمر معلوم ببداهة العقول. وكذلك كان من هدي الرسول ﷺ والخلفاء من بعده تنصيب إمام للحج يصدر الناس عن رأيه ويرجعون إليه، فالحج عبادة لا تصح إلا بإمام وكذلك الزكاة عبادة لا تصح إلا بإعطائها لإمام وتوزيعها بنظام كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٣] فأمر بذلك الرسول ﷺ، وكان الخلفاء ينصبون في كل بلد من يجمع الزكاة من أغنياء البلد ويوزعها على فقرائه، كما قال ﷺ لمعاذ لما أرسله إلى اليمن: [إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس] (متفق عليه).

والشاهد قوله ﷺ: [تؤخذ من أموالهم] وقوله [فإذا أطاعوا فخذ منهم] فالإمام هو الذي يأخذ الزكاة، ويوزعها، ولم يترك الرسول لهم حرية توزيع الزكاة كل كما يشتهي بل لا بد وأن تجتمع لدى أمير الناحية ثم توزع حسب مصارفها الشرعية.

والشاهد أن الزكاة كالحج والصلاة، عبادات لا تصح إلا بجماعة وإمام. وكذلك الصوم لا بد فيه من إمام يحدد بدء الشهور ونهايتها ويجب على المسلم أن يلتزم برأي الإمام وجمهور الناس وألا يشذ عنهم في فطر أو صوم، كما قال ﷺ [الصوم يوم تصومون والفطر يوم تفطرون والأضحى يوم تضحون] (أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وحسنه وصححه الألباني).

وهذا كله يدل على أن هذه العبادات العظيمة أركان الإسلام لا تصح إلا بجماعة والتزام رأي الإمام والعمل فيها بنظام، وأن الشذوذ في شيء منها خروج من الجماعة

يوجب الإثم فمن شذ عن جماعة الصلاة مع قدرته عليها فلا صلاة له، ومن أخرج زكاته بعيداً عن السلطان القائم فلا زكاة له، ومن شذ عن صوم الناس فصام وحده وأفطر وحده فقد شذ وأثم. ومن حج وحده فجعل لنفسه يوماً يقف فيه بعرفة دون الناس فلا حج له.

وهكذا نعلم أن الجماعة لازمة في هذه الأركان.

ولا شك بلزوم الجماعة للجهاد، وأنه لا جهاد إلا بأمير وقائد، وإمام..

ولا شك أنه لا جماعة إلا بطاعة وإمام كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [سورة النور، الآية: ٦٢].

والمعنى أنه لا يجوز لمسلم إذا كان مع الرسول ﷺ في أمر جامع كالجهاد مثلاً فإنه لا يجوز له أن يترك الرسول ﷺ وموقفه في الجيش إلا بعد استئذان الرسول ﷺ. وأما إذا تسلل وانفلت دون إذن فإن هذا خروج من الطاعة، ومدعاة لسخط الله وعقابه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور، الآية: ٦٣].

ومعنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [سورة النور، الآية: ٦٣] أي مختفين عائذين بشجرة أو جدار أو نحو ذلك مختبئين خلفه، وها نحن نرى أن الله قد حذر من يخالف أمر الرسول، وهددهم بالفتنة أو العذاب الأليم والأمر هنا أمره العملي الجهادي (الحركي) ولا شك أن العبرة أيضاً بعموم اللفظ. والمعنى (أوامره) ولكن سبب النزول داخل حتماً في العموم بل هو أول داخل فيه لأنه الذي من أجله جاء النص.

والخلاصة أن الإسلام نظام جماعي يقوم على الجماعة في كل شيء تقريباً في الحياة العامة والأركان: الصلاة والصيام والزكاة والحج، وكذلك الجهاد، والسفر والناحية والبلد بل وفي كل شأن كما اتخذ الخلفاء لكل شيء أميراً كالسوق والصناعات ونحو ذلك.

الباب الثالث

واجبات الإمام

علمنا في الباب السابق أن الجماعة فرض واجب في كل عمل يراد القيام به، وإتمامه على الوجه الأكمل من أمور الدين وأمور الدنيا، وأنه لا يستقيم للمسلمين صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صوم، ولا جهاد إلا بجماعة، ونظام وإمام مطاع، وأنه لا يجوز أن تكون في بلاد المسلمين قرية ولا بلدة، ولا ناحية، بل ولا حرفة ولا صناعة إلا ولها أمير مطاع ومرجع يرجع إليه في النزاع. وهذا الذي سار عليه الرسول ﷺ وأصحابه وخلفاؤه من بعده.

والآن نأتي إلى الواجبات التي أناطها الله بالإمام العام فما هذه الواجبات؟ والجواب أن الله سبحانه وتعالى أناط بالإمام العام مسئوليات كثيرة جداً، وواجبات عظيمة، تشمل رعاية مصالح الدين، والدنيا، فمن واجبات الإمام العام (الخليفة) إقامة شرع الله في الأرض، والحكم بما أنزل الله، ومن ذلك إقامة الصلاة، وأخذ الزكاة وتوزيعها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد أعداء الله بالسيف واللسان، والحجة والبيان، وتهيئة المناخ الصالح لتنشئة أبناء المسلمين وتعليمهم وتربيتهم، والأخذ على يد السفيه، والحكم بين الناس بالعدل، ورد الباغي والظالم، وأخذ الحق للمظلوم والمهضوم، ورعاية مصالح الناس ومعايشهم، وقسم أرزاقهم بينهم بالعدل والسوية.

ولا شك أن هذه أمانة عظيمة وتكليف هائل شاق. كما قال ﷺ واصفاً الإمارة: [إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها] (أخرجه مسلم من حديث أبي ذر).

وللأسف أن كثيراً من الناس يظن الإمامة والإمارة مغنماً، حيث العلو على رؤوس الناس والتحكم في أموالهم ودمائهم وأعراضهم، والحال غير ذلك في ميزان الله سبحانه وتعالى. فالإمامة العامة في ميزان الله تكليف وخدمة للناس حيث الإمام أثقل الناس تبعة، وأعظمهم حملاً، وأشقهم مسئولية.. ومن أجل ذلك كان الصالحون من هذه الأمة يشفقون منها ويفرون منها.. فهذا الصديق أبو بكر يقول: (والله ما سألتها في ليل أو نهار) (أخرجه البخاري) أي ما سألت الله أن يؤمرني في دعائي قط ليلاً أو نهاراً.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ الخلافة كارهاً، ويقبلها مسئولية وتبعية ويتركها زاهداً ويقول لمن أشار عليه أن يولي ابنه عبدالله (بحسب آل الخطاب رجل واحد فإن كانت خيراً فقد أصابوا منه، وإن كانت غير ذلك فحسبهم أن يتحملها رجل واحد منهم).

والخلاصة أن مسئوليات الإمام في الإسلام مسئوليات عظيمة كبيرة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤١].

وهذه المسئوليات العظيمة تخالف مفهوم الناس اليوم عن الإمارة والحكم والملك فعامة الناس يرون الإمامة اليوم مغنماً وترؤساً وشرفاً. من أجل أن يتربع مكانه، ويحوز سلطانه، ولا يرى أحدهم أنه مسئول أمام الله عن شيء مما ذكرناه.

بل أساس الحكم في كثير من بلاد المسلمين اليوم أساس غير إسلامي وغير ديني يقوم على مصالح الدنيا فقط دون اعتبار لمصالح الدين.

فالحاكم الصالح اليوم من أهل الدنيا يرى أنه مسئول عن دنيا الناس فقط من تنظيم معايشهم وتقسيم أرزاقهم، وتيسير سبل حياتهم والحفاظ على صحتهم، وتعليمهم، والترفيه عنهم بالحرام والمباح.. هذا إذا كان صالحاً في نظر نفسه ونظر الناس.

وإلا فالكثير منهم مفسد للدين والدنيا، فلا الدين عنده له شأن يذكر، فلا هو مسئول عن إقامة الصلاة أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أو الذب عن عقائد

الإسلام، ولا هو مراع لمصالح الدنيا من البحث في تيسير سبل العيش وتنمية موارد الدولة، والعناية بحياة الناس وهناك من هم أشد فساداً من ذلك من أهل العقائد الزائفة، والبغضاء للإسلام وأهله ممن تسلموا أمور المسلمين في غفلة من المسلمين فزرعوا البلاد بالشر والفساد، وكل ما يصد عن سبيل الله، وقعدوا لأهل الإيمان بالمرصاد.. فإذا يمم الشاب وجهه شطر المسجد أخافوه وآذوه واعتقلوه في السجون والمعتقلات، بغير ذنب إلا أن يقول ربي الله، وإذا تحجبت الفتاة كان مصيرها التشهير والتعيير بل تعدى ذلك إلى الحرمان من أدنى حقوق الآدمية كالتعليم والسير في الطرقات!!

بل إن هؤلاء قد سلطوا سفلة الناس وأشرارهم ورفعوهم إلى أعلى المناصب فعاثوا في الأرض فساداً حيث دمروا اقتصادها، وهدموا أخلاق أبنائها، وبناتها وأهانوا كل كريم نافع في مجتمعه، ورفعوا كل لئيم مرتش لص.

وهكذا نصب هؤلاء الحكام أنفسهم حرباً لله ورسوله والمؤمنين، يصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً. بل أقاموا في بلاد الإسلام شُعباً للمخابرات تحمل اسم (شُعبة مكافحة النشاط الديني)!!

فانظر كيف تستخدم أموال المسلمين ومقدراتهم وثرواتهم للصد عن سبيل الله، ومحاربة الله في بلاد الله.

وهذا انقلبت الموازين فتحول الحاكم والإمام والخليفة من أن يكون عبداً لله يقيم الصلاة ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحرس الدين، ويحمي حياض المسلمين إلى أن أصبح عدوا لله يحارب الله ورسوله والمسلمين بمال الله، وأموال المسلمين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الباب الرابع

خطاب الله بفروض الكفايات خطاب للأمة كلها

علمنا في الباب السابق أن على الإمام المسلم واجبات عظيمة، وفروضاً كثيرة. ولا شك أنه يجب عليه قياماً بالأمانة أن يقوم بما كلف به هو أو من ينيبه لذلك من وزرائه وقواده، ونوابه. ولا شك أن الإمام المسلم إذا قصر في شيء من ذلك كان آثماً. ومع ذلك فإن إثم التخلف عن هذه الواجبات ليس على الإمام وحده بل على الرعية كذلك لأن فروض الكفايات يأثم الجميع بتركه. فإذا غُزِيتْ أرضُ المسلمين ولم ينهضْ الإمام المسلم للدفاع عنها وجب على المسلمين أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم ودينهم وإن لم ينهض الإمام لذلك وإذا أهمل الإمام المسلم إقامة الصلاة، ولم يعين أئمة للناس، ولم يبن المساجد، ولا اتخذ المؤذنين والأئمة فإن أهل كل ناحية وبلدة ملزمون شرعاً بفعل هذه الواجبات التي أهملها الإمام، وكذلك الحال في كل فروض الكفايات كتغسيل الميت ودفنه، وتعليم القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . ، فلو أهمل الإمام العام شيئاً من ذلك فإن الناس لا يعذرون بإهمال الإمام لها. بل عليهم التعاون فيما بينهم والقيام بهذه الفروض وإلا كانوا جميعاً آثمين.

والدليل على ذلك أن خطاب الله بفعل هذه الأمور خطاب لجميع الأمة، ولم يشترط الله لصحة وقوع هذه الواجبات إذن الإمام، بل لو عطل الإمام بعض هذه الواجبات كان آثماً، ولا يجوز للناس طاعته في ذلك، أرأيت لو أن إماماً أو حاكماً منع الناس من صلاة الجمعة وأقفل المساجد فهل يعذر الناس بترك الجمعة؟ لا شك أنهم لا يعذرون، بل هم آثمون إن أطاعوه في ذلك لأنه [لا طاعة لمخلوق في معصية

الخالق] (أخرجه الطيالسي وأحمد والطبراني والحاكم عن عمران بن حصين والحكم ابن عمرو الغفاري وأخرج البخاري ومسلم نحوه بلفظ [لا طاعة لبشر في معصية الله إنما الطاعة في المعروف])، وكذلك الحال لو أن الإمام منع الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الناس لا يُعذرون عند الله إن تعطل هذا الفرض والواجب. بل يجب عليهم مخالفة هذا الإمام الظالم الجائر الصاد عن سبيل الله، ويلزمهم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجب عليهم عصيان الإمام في ذلك لأن طاعته عندئذ معصية لله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وكذلك لو انتهكت حرمات المسلمين، واعتدي على أعراضهم وأموالهم من أعدائهم، وسكت الإمام على ذلك فإنه بذلك يكون آثماً جائراً ظالماً ولا يجوز للناس طاعته؛ بل يجب عليهم معصيته وحرب الكفار، والدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وكذلك الحال فيما لو أهمل الإمام أو الحاكم تعليم القرآن، ونشر العلم الشرعي وتنشئة أبناء المسلمين على الخير والفضيلة، فإن الناس لا يعذرون عند الله بإهمال الإمام لذلك بل يجب عليهم القيام بهذه الفرائض وإن أدى ذلك إلى معصية هذا الإمام. . لأن معصيته عندئذ هي الطاعة الواجبة لله ورسوله.

وهكذا يظهر واضحاً جلياً أن الأمة جميعها مخاطبة بأحكام الشريعة، والقيام بفروض الأعيان وكذلك فروض الكفايات وأنه لا عذر لها إن قصر الإمام في هذه الفروض، بل لو ركنوا إلى السلطان الظالم المهمل لحدود الله، وسكتوا عليه لكانوا بذلك آثمين معذبين يوم القيامة كما قال سبحانه وتعالى عن الأتْبَاع الغافلين الطائعين لأئمتهم في معصية الله: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٦]. وقال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٢١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة التي تبين أنه لا يغني عن الأتباع والضعفاء أنهم كانوا في أسر الملأ من الزعماء والرؤساء، الذين ضيعوا حدود الله، وصدوا الناس عن سبيله فهل بعد هذا يقول عاقل أو رجل فهم شيئاً من شريعة الله ودينه أن الناس معذورون بترك فرائض الدين إذا ضيعها الإمام؟!.

الباب الخامس

تغيرُ الأحكام بتغير الزمان والمكان

هناك أمر لا يفطن له كثير من طلاب العلم بل وكثير من العلماء، وهو أن الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان. فتنزيل الأحكام ينبغي أن يكون بحسب الأحوال فما تكون فرضاً في وقت قد لا يكون فرضاً في وقت آخر ومكان آخر..

فالهجرة مثلاً فرض في مكان وزمان لا يستطيع فيه المسلم إقامة حدود الله أما في مكان آخر فلا هجرة كما قال ﷺ: [لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية] (أخرجه البخاري من حديث مجاشع بن مسعود) فالهجرة كانت واجبة من مكة قبل فتح مكة حيث كان المسلمون يُستضعفون ويُمنعون من إظهار شعائر الدين، ولم يعذر الله منها إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، الآيتان: ٩٧، ٩٨].

ولا شك أن أهل مكة من المسلمين كانوا قبل الفتح مستضعفين بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٧٥]. والقرية الظالم أهلها هنا هي مكة بإجماع المفسرين. فكانت الهجرة واجبة منها قبل الفتح إلى المدينة أو غيرها ثم بعد الفتح سقط الوجوب، وأصبح الانتقال منها مباحاً أو مكروهاً فانظر كيف تغير الحكم بتغير الزمان، لِمَا حدث من المناسبة ولا شك أن وجوب الهجرة باق ولكنه في مكان دون مكان، وزمان دون زمان.

وهكذا الحال في أحكام كثيرة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستئذان الإمام وعدم استئذانه والسفر إلى أرض العدو ونحو ذلك. .

وكثير من العلماء وطلاب العلم وللأسف يفتون بفتاوى يظنونها لكل جيل وقبيل، وزمان ومكان ولا يراعون خصوصية، واستثناءً، كالجواب على السؤال الذي هو موضوع هذه الرسالة، فبعض طلاب العلم هؤلاء يعيشون في دولة تطبق من الشريعة ما شاء الله كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة، وتعليم العلم الشرعي، ونشر الفضيلة والعناية بالموتى وإقامة المساجد ونحو ذلك مما هو مفروض على الحاكم. . فيفتون إذا سئلوا أيجوز للمسلمين أن يجتمعوا ويؤلفوا بينهم (جمعية) أو جماعة تقوم بواجب من هذه الواجبات؟

فتكون فتواهم أنه لا يجوز تأسيس وإقامة هذه الجمعيات والجماعات إلا بإذن الإمام وينسى هؤلاء ويغفلون أن هناك من الحكام والأئمة من يحرم إقامة هذه الفرائض، ويصد الناس عنها، فضلاً على أنه لا يهتم بها ولا يعبأ بشأنها.

فهل يسكت المسلمون الذين يُبتلون بأمثال هؤلاء الظلمة الفسقة من الحكام. . هل يسكتون عن إقامة هذه الفرائض؟

هل يترك المسلمون أرض الإسلام تستباح من أعداء الله لأن الإمام قد فتح بابه لهؤلاء الأعداء كما فعل حاكم أفغانستان ظاهر شاه الذي فتح أبواب بلاده للشيوعيين الملاحدة. . وأرادوا بل قلبوا قلب أفغانستان البلد المسلم إلى بلد شيوعي كافر يطبق فيها حكم الكفر والإلحاد. .

هل يسكت المسلمون ويستكينوا أو يهبوا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، والدفع عن أعراضهم وأموالهم وذراريهم. . أم هل ينتظر المسلمون الإمام العام، أو المهدي المنتظر أو المسيح المخلّص. . لا شك أنهم يجب عليهم القيام بما يستطيعون من دفع الشَّرَ عَنْ أنفسهم، والدفاع عن دينهم وأعراضهم وأموالهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٠]. وقد فعل سبحانه وتعالى فانظر كيف نصر الله من هب لنصرة دينه وإعلاء شريعته والدفاع عن نفسه وعرضه.

وانظر كيف قال رسول الله ﷺ: لمن سأله قائلاً يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال: [امنعه]. قال: فإن أبى، قال: [قاتله]. قال: فإن قتلته؟ قال: [هو في النار]. قال: فإن قتلني، قال: [أنت في الجنة] (متفق عليه).

فانظر كيف أوصاه الرسول ﷺ بما يجب عليه من الدفاع عن حاله غير منتظر إذن إمام، وسماح سلطان.

ولا شك أنه إن لم يندفع الكفار المغيرون إلا بجَمْع وجماعة وأمير فإن الجماعة هنا تكون واجبة لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما أسلفنا.

وكذلك الحال في كل فروض الكفايات التي يهملها الحكام لا يجوز السكوت عليها وتضييعها بل يجب التجمع لها وأداؤها بل إن الحاكم المسلم الحريص على الخير لا يجوز انتظار إذنه إذا كان الواجب مضيعاً مضيقاً، كدفن الميت وإقامة الجمعة والجماعة، وتشييد مسجد وأمر بالمعروف ونهي عن منكر، ودفع عدو هاجم المسلمين من ناحية ما. .

فأهل هذه الناحية يجب عليهم أن يهبوا لدفع العدو عنهم حتى يمدهم الإمام ويتولى الأمر دونهم، ولا يجوز للمسلمين التولي عن الزحف وترك أرض الإسلام لأعداء الإسلام، والعجب بعد ذلك لبعض طلاب العلم الذين يفتون خاطئين ومخطئين أنه لا يجوز تجمع أبداً لإقامة واجب من هذه الواجبات، التي أسلفنا القول فيها، وهذا من قصر نظرهم، وضعف بصيرتهم وجهلهم بأحوال المسلمين حولهم، وانغلاقهم في الزوايا التي يعيشون فيها ولا يدرون عما يعايشه الناس حولهم، وعدم ممارستهم لدعوة حقيقية ترجع المسلمين إلى دينهم، وتأخذ بأيديهم إلى أسباب العز والنصر والتمكين.

ولا شك أن أعظم ما دخل من الخطأ على طلاب العلم هؤلاء أنهم لم يراعوا قاعدة تغيير الأحكام بتغيير الزمان والمكان. .

وأفتوا للناس فتوى عامة ظنوها صالحةً لكل زمان ومكان. والحال إنها إن صلحت لأمكنتهم التي يعيشون فيها فإنها لا تصلح لغير بلادهم.

الباب السادس

فضل الجمعيات والجماعات على العالم الإسلامي

لو أن الذين أفتوا بحرمة التجمع والجماعة على أداء فريضة من فروض الكفايات: أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو إقامة لجمعة وجماعة، أو أداء للزكاة على وجه أفضل أو حج بصورة جماعية، موافقة للسنة، أو مقاتلة لأعداء الله ودفع للظالمين، أو قيام في وجه سلطان كافر ظالم محارب لله ورسوله، أو استنقاذ للمستضعفين من المسلمين..

أو.. أو.. مما يطول شرحه من فروض الكفايات المعطلة. أقول لو أن الذين أفتوا بحرمة الجماعة والتجمع في كل ذلك نظروا إلى المنافع العظيمة، والآثار الجليلة التي أسدتها الجماعات والجمعيات الإسلامية إلى المسلمين في شرق الأرض وغربها.. وكانوا متجردين من الهوى والعصبية، وأزالوا عن أعينهم غشاوة الجهل بالعالم الواسع، ونظروا أبعد من أنوفهم لما أقدموا على أقدموا عليه من الفتوى الباطلة والقول الجزاف.

فإنكار فضل الجماعات الإسلامية على المسلمين أمر لا يجحده وينكره إلا من اتصف بالصفات التي ذكرناها آنفاً.. وإلا فما هذه الصحوة الإسلامية والبعث الإسلامي الجديد الذي نعيشه اليوم إلا أثر من آثار جهاد جماعات تآلفت واجتمعت على الدعوة في سبيل الله وتحمل تكاليف الجهاد بالمال والكلمة والسيف واللسان.

هل نشوة النصر التي يعيشها اليوم الشعب الأفغاني المسلم الذي انتصر على أعتى قوة باغية في العالم، وعلى مدار التاريخ إلا ثمرة لعمل جماعات للجهاد تآلفت كل

منها على البذل والتضحية والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله . .

هل يمكن أن يقوم عمل كالذي عمله هؤلاء المجاهدون إلا بجماعة وأمير ونظام وتخطيط وسياسة شرعية، ووعي بالواقع المحيط. . . . .

هل كان يجب على هؤلاء أن ينتظروا إذن الإمام؟؟

وأين ذلك الإمام الذي يجب أن يُنتظر إذنه ومشورته؟ أروني في العالم كله الذي نعيشه اليوم إماماً يستحق هذه الكرامة؟! ويجب على الجماعة المسلمة القائمة بالحق الظاهرة عليه المحاربةلأعداء الله أن تأخذ إذنه ومشورته قبل أن تقوم بعملها الذي تعمل؟!

ألا يفخر كل منا اليوم بهذا الشباب المسلم الذي يعود إلينا من ديار الغرب أمريكا وأوربا وقد تسلح بالعلم المادي، وحاز من علم الشريعة والدين أضعاف ما يحمله من تخرجوا من جامعاتنا الإسلامية في قلب الوطن الإسلامي بل ويحمل من الخلُق والفهم أضعاف ما يحمله من تربوا عندنا. . ألا نشعر بالفخر أن أمثال هؤلاء الشباب العائد من ديار الكفر، وقد جاوز محنة الفساد والإفساد، واستعلى على الفتن كل الفتن بأجلى مظاهرها، وأسأل الذين يفتون بغير علم - هل كان هؤلاء الشباب إلا ثمرة لعمل الجماعات الدعوية المنظمة التي لها أمير وقائد، ونظام وتمويل وعمل مدروس؟.

أرأيتم لو كان هؤلاء الشباب نهباً مشاعاً وهم متروكون لكتاب يقرؤونه، أو موعظة عابرة هل يمكن أن يكون قد اهتدى هذا الجم الغفير، أو قامت هذه المراكز الإسلامية في كل مكان، وبنيت هذه المساجد في كل ناحية، وتحولت الكنائس إلى مساجد، ومنتديات للعلم والتفقه. . . . .

ثم تعالوا إلى عالمنا الإسلامي هل يسهم الإعلام الرسمي في أغلب دولنا الإسلامية والتوجه الحكومي إلا إلى إفساد الناشئة وتضييع الدين، وإخراج الفرد التافه في كل شيء انظروا وتلفتوا حولكم هل هذا الشباب الذي تجدونه متمسكاً بدينه عاضاً على سنة نبيه متحدياً للباطل والفجور بكل صورة إلا ثمرَةَ لعمل الجماعات الإسلامية وللأسف أقول أن المؤسسات الحكومية الدينية في أغلب دولنا الإسلامية

ما باتت تخرج لنا ـ في الأغلب ـ إلا أناساً قد مسخت عقيدتهم وفسدت طويتهم، من الذين باعوا دينهم بدنياهم، ولبسوا لكل حالة لبوسها، وساروا مع كل ركب وشهدوا له بالرشد مهما كان توجهه، وسخروا دينهم من أجل دنيا غيرهم، فكانوا من شرار الخلق والخليقة . . . . .

ولو كان أمر الله ودينه متروكاً لهؤلاء، لما بقي في ديننا عرق حي، ولا شمعة مضيئة ولكن الله اختار ويختار في كل وقت من يقوم بدينه لا يخاف في الله لومة لائم.

وهؤلاء الذين يختارهم الله سبحانه وتعالى هم ثمرة هذه الجهود المخلصة، وهذا العمل الدؤوب الذي تقوم عليه جماعات للدعوة في كل مكان من أنحاء العالم الإسلامي وهؤلاء هم بحول الله هم طلائع الجيل المثالي القرآني الذي سيحقق الله لهم موعوده، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٠].

الباب السابع

الدافع الحقيقي لمن أفتى بتحريم جماعات الدعوة

ولعل سائلاً يسأل لماذا وقع من وقع في هذا الخطأ الظاهر، فالأمر لا يحتاج إلى كل هذا النظر والتفكير بل هو من بداهة العقول فلا يوجد نص واحد يحرم إقامة جماعة ونظام بل الإسلام كله كما أسلفنا، يقوم على النظام بدءاً بالإمام العام ووجوب أن يصدر المؤمنون جميعاً عن رأي ومشورة وقرار من إمام مطاع؛ ومروراً بالصلاة التي تجب لها الجماعة والطاعة والنظام، والصوم الواجب الذي يجب أن يكون نظاماً جماعياً يحدد فيه البدء والنهاية للجميع. والزكاة التي لا يجوز أن يؤديها الفرد دون نظام وجماعة وإحصاء، ومتابعة. والحج الذي يجب أن يكون له إمام، يحدد أيامه، ويصدر الناس عن رأيه ومشورته. والجهاد الذي لا يقوم إلا بأمير وقائد ونظام وخطة، ولا يعرفُ دينٌ ونظامٌ في الأرض قديماً وحديثاً يوجب على أتباعه ألا يسافر ثلاثة منهم إلا وقد أمّروا أحدهم، وألا يسكن ثلاثة منهم في ناحية إلا وقد اتفقوا فيما بينهم على الجماعة والنظام والطاعة.. لا أعرف ديناً في الأرض كلها ولا نظاماً في العالم أجمع يأمر أتباعه بذلك فكيف يقول بعد هذا كله ويفتي من يفتي وهو يرى أحوال المسلمين المزرية، ودينهم المضيع وقرآنهم التي هجرت أحكامه، وسنة نبيهم المهانة في كل مكان، واستضعاف رجالهم ونسائهم وولدانهم، وركوب أعدائهم عليهم من كل جانب.. وكل هذه الأمور لا يمكن إصلاح شيء منها، ولا القيام بفرض من فروضها وواجب من واجباتها إلا بتكاتف وتآزر وتشاور، وتعاون، وجماعات منظمة عاملة دائبة يسلم فيها السابق الأمانة للاحق.. ويتواصل فيها العمل والمدد حتى تنزاح الغمة ويذهب الكرب..

أقول للأسف بالرغم من وضوح الأمر إلى هذا الحد. فليس في الدين ما يمنع الجماعة بل الدين يحث عليها يأمر بها ويوجِبْها ويفرِضْها على أتباعه في كل شئونهم تقريباً، وحال المسلمين لا يصلح إلا بجماعة ونظام، وأمور المسلمين معطلة ضائعة. . وفروض الكفايات كلها تقريباً مهملة، بالرغم من وضوح الأمر وبيانه فإنه تصدر مثل هذه الفتاوى الباطلة من بعض من نحسن فيهم الظن ونربأ بهم عن الانحراف والميل ولكن الذي دفع بعضهم إلى هذه الفتاوى ما يأتي:

أـ الحرص الشديد على الدعوة:

أن بعض هؤلاء الذين أفتوا بما أفتوا به إنما دفعهم دافع الحرص على الدعوة، وهم يرون أن كل من يجتمع على أداء فريضة من فرائض الدين يتعرضون للتعذيب والتنكيل من أعداء الله المجرمين ممن تسلموا أمور المسلمين وهم لصوص متغلبة وذئاب مفترسة. .

ولذلك رأى هؤلاء المخلصون من الدعاة أن الدعوة الفردية أسلم، والبعد عن التكتل والنظام آمن للدعوة وأقل ضرراً وشراً، وأقول لهؤلاء، أخطأتم الطريق، وحرّمتم ما حرمتم بدافع الخوف والجبن لا بدافع الإخلاص والعزم، فالدين لا يقيمه الجبناءُ. والطغاةُ لا يهزمهم الضعفاءُ. والفروض الإسلامية التي شرحناها آنفاً لا تقوم إلا بجماعة، والسكوت عن هذه الفرائض إرضاءً للظلمة جريمةٌ ما بعدها جريمة: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٣].

ب ـ الظن أن أسلوب الجماعة لم يكن على عهد رسول الله ﷺ:

والسبب الثاني الذي حمل بعض من أفتى بحرمة العمل والجهاد الجماعي أنهم في زعمهم لم يروا له نظيراً على عهد رسول الله ﷺ، وهذا خطأ جسيم وفي الأمثلة التي سردناها وبيناها أدلة كافية لمن كان له أدنى فكر أو نظر. .

وللأسف أنني سمعت في شريط مسجل سئل فيه أحد هؤلاء المفتين أيجوز أن نؤسس فيما بيننا جماعة لمساعدة المحتاجين ونجعل صندوقاً نجمع فيه، ثم نساعد

منه المحتاج والمدين والعاجز عن الديْن ونحو ذلك؟ فقال هذا المفتي: لا يجوز ذلك لأن التنظيم لم يكن على عهد رسول الله!!..

وادعى هذا المتصدر زوراً للفتيا أنه لم يكن للرسول ﷺ صندوق! وإنما كان يوزع ما يأتيه من المال لساعته بين من حضر عنده!!..

وهذا جهل عظيم بالدين، وجهل بالسنة والسيرة والتاريخ كله، وهدم لأمة الإسلام من أساسها.. فقد كان للرسول ﷺ بيت مال وكان بلال هو القائم عليه، وأحياناً كان الرسول ﷺ يفرق المال الذي كان يأتيه وقعةً واحدة، وأحياناً كان يتجمع لديه ويرصده في بيت المال لحاجة المسلمين المستقبلية، كإجازة الوفود، وتسديد الديون، ونفقة الجيش..

نعم ما كان الرسول ﷺ يدخر من ماله الخاص. ولكن مال المسلمين كان يكون في بيت المال ويوزع للحاجة. وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون وجميع الخلفاء من بعدهم ولا يستقيم أمر الأمة إلا بذلك، أن يكون لهم بيت مال عامر يرصد المال فيه ويوزع للحاجة وينفق في مصالح الأمة.

وأما تعاون مجموعة من الناس على فعل هذه الأمور المستحبة من مساعدة المحتاج وسداد الدين وتنفيس كربة المكروب فإن هذا من أعظم أبواب البر والإحسان..

ولولا أني سمعت من يفتي بحرمة هذا لقلت لا يفتي بحرمة مثل هذا الصندوق والاجتماع عليه عاقل. ولكنني سمعت ذلك بنفسي من شريط مسجل من رجل يزعم أنه من العلماء وأن الوفود تأتي إليه لطلب العلم، وأن الجموع تتلقى عنه..

ولولا هذا البلاء الذي حل بالأمة حتى تصدر فيها هؤلاء ما سودت هذه الصفحات ولا كتبت هذه الكلمات ولا أشغلت نفسي بهذه الأمور التي كنت أظن في يوم ما أن الاشتغال بها كمن يشتغل بإقامة الدليل على ظهور النهار والشمس طالعة..
ولكن ماذا نصنع إذا ابتليت الأمة بمجموعة من العميان قد نصبوا أنفسهم في مجال القيادة، وأوهموا الناس أن الرسول ﷺ لم يجابه باطلاً، ولا أقدم على خطر، ولا أسس أمة ولا جماعةً، وأنه حرم كل تنظيم وترتيب ودعا الناس ألا يتدبروا أمراً، وألا

ينظروا في عواقب فعلٍ، بل عليهم أن يفعلوا الفعل دون نظر في عواقبه ومآله، وأن كلاً منهم يجب أن يكون أمة وحده، لا يلتزم بجماعة ولا يطيع رأياً لغيره، وأن يعيش مع أئمة الفسق والجور على ما يشاؤون ويطيعهم في الطاعة والمعصية، ولا يخرج عليهم بقول يكدر خاطرهم وينكر منكرهم ويذكرهم بمعاصيهم، وأنهم إن ألفوا جماعة لإنكار منكر، أو دفع عدو أو مساعدة محتاج، أو تنظيم زكاة، أو بناء مسجد فقد أثموا وخرجوا عن هديه وسنته!!؟.

ماذا نفعل إذا ابتلينا بمن يفتي بكل ذلك وهو معدود عند الناس من أهل العلم والتقوى والإحسان والدين؟!.

والخلاصة أن بعض هؤلاء الذين أفتوا بما أفتوا به إنما جاءهم الخطأ من حرص كاذب على الدين وأهله، أو جهل بالسنة العملية، والسيرة النبوية الشريفة، وجهل بالحياة كل الحياة.. ولعل في هذه الرسالة المختصرة تبصرة وذكرى.

ج ـ عدم التفريق بين الجماعة الخاصة والجماعة العامة:

والسبب الثالث الذي من أجله وقع من وقع في خطأ الفتيا بتحريم الجماعة هو عدم تفريقهم بين التجمع على أداء فرض خاص، كالجهاد في سبيل الله، وإخراج الزكاة وتعليم العلم، وبناء المساجد والمدارس، وإطعام الجائع، وإنكار بعض المنكرات التي لا يمكن إزالتها إلا بتعاون وتضافر..- ونحو ذلك. وبين الجماعة العامة التي هي جماعة أهل الإسلام التي يتعين لها وجود الإمام العام المبايع من جمهور الناس.

ولا شك أن هناك فروقاً كثيرة بين الجماعة الخاصة وجماعة الدعوة، والسفر، وجماعات البر والإحسان ونحوها وبين جماعة المسلمين. من هذه الفوارق أن الأمير في الجماعة العامة أمير ظاهر يجب على كل مسلم بيعته وطاعته، وأما أمير الجماعة الخاصة فلا يجب على المسلمين جميعاً طاعته، ولا بيعته، بل من استحسن أمره وارتضى سيرته، وعمله ودعوته فله أن يلتزم بجماعته ومن كره ذلك، ورأى ما هو أفضل وأليق فله ذلك ولا حرج عليه.

ومن الفروق أيضاً أنه لا يجوز أن تتعدى جماعة المسلمين العامة، فإذا بويع

لإمام فلا يجوز تنصيب آخر ولا مزاحمته كما قال ﷺ: [إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما] (متفق عليه)، وقال: [من جاءكم وأمركم جميع على رجل يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه بالسيف كائناً من كان] (متفق عليه).

وأما في الجماعة الخاصة فيجوز تعددها، بل يستحب بتعدد الواجبات، وبما يكفل سد الثغرات والقيام بفروض الكفايات.. فأين الجماعة الخاصة من الجماعة العامة؟..

هناك فرق هائل بين هذا وهذا.. ومن خفي عليهم هذه الفروق ولم يميزوا بين جماعة وجماعة ظنوا أن كل مجموعة من الناس اجتمعت على إقامة فريضة مضيعة، وواجب شرعي مهمل؛ كبناء مدرسة أو مسجد أو تعليم جاهل، ونشر علم واتخذوا أميراً لهم، ووضعوا نظاماً أن هؤلاء خارجون على السلطان مفرقين لجماعة أهل الإسلام. وهذا من خطأ الفهم وعدم التمييز بين الجماعة الخاصة وجماعة المسلمين العامة.

د ـ سلبيات بعض الجماعات:

والسبب الرابع الذي من أجله أفتى بعض من أفتى بحرمة الجماعات جماعات الدعوة هو ما ظهر في بعضها من سلبيات كالتزام بعض البدع، والانحراف عن بعض السنن، وظهور التنازع والتفرق بين أتباع وأنصار كل جماعة من هؤلاء ونحو ذلك من الأمور السلبية.. ومن أجل ذلك أفتى بعضهم بأن هذه الجماعات مدعاة للفرقة والاختلاف، أو مظنة لنشر بعض البدع، وترك بعض السنن وما دام الأمر كذلك فهي حرام.

هذا القول فيه قصور عظيم وتقصير بالغ.. فإذا وجدت هذه السيئات والسلبيات فلا يجوز أن تعمينا عن الإيجابيات والحسنات، فالداعي المجتهد الذي يدعو إلى الله ويدخل في عمله بعض الأخطاء، بل بعض البدع والتجاوزات لا يجوز أن نبطل عمله، ولا نلغي جهاده وحسناته. ومَنْ من الناس لا خطأ له، ولا هفوة عنده.. وقد عد رسول الله ﷺ من الخير [قوم يهدون بغير هديي ويستنون بغير سنتي] (متفق عليه) كما جاء في حديث حذيفة. فإذا كان هذا من الخير وفيه هذا الدخن. فإنه لا يجوز أن

نلغي جهاد قوم ونحرم عملهم لأنه في عملهم شيء من الدخن والدخل.

وأما التنافس بين جماعات الدعوة فأصله مشروع؛ أعني أن التسابق في الخير، والتنافس في نشر الفضيلة وحيازة السبق مشروع بل مستحب. والمنهي عنه هو التنافس بالباطل ومزاحمة وإزاحة من سبقك عن الخير، بل يجب الدعاء له، والحرص أن تعمل مثله أو أكثر كما كان الأوس والخزرج يتنافسون في فعل الخير، وكما أراد عمر أن يسبق أبا بكر في غزوة العسرة فجاء بشطر ماله، فأتى أبو بكر بماله كله فقال عمر: (والله لا أسابقك أبداً) (أخرجه الدارمي وأبو داود والترمذي وصححه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم).

وأما الحسد والتباغض فهو حرام في الجماعات والأفراد، وهو لا يقع حيث تكون الجماعة فقط، بل يقع أيضاً بين الأفراد.. ومعلوم أن العلماء هم أكثر الناس حسداً لبعضهم وللأسف، وبغياً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٣] أي ما اختلف في الكتاب إلا أهله بسبب البغي وهو الحسد والبغضاء بين بعضهم البعض وهذه الآية إن كانت في الأمم السابقة إلا أن أمتنا قد وقع فيها مثله وأكثر منه، ولذلك وضع علماء الحديث أصلاً عظيماً وهو عدم قبول جرح الأقران بعضهم في بعض، لأن كثيراً من هذا الجرح يكون سببه الحسد. وهل مات البخاري رحمه الله إلا محسوداً مطروداً، من إمام أهل زمانه فهل نحرّم العلم؟ ونلغي وجود العلماء لأنهم يتحاسدون!!؟

وهل إذا قام في القطر أو المدينة عالم فذ وجب علينا تحريم قيام عالم آخر حتى لا يتنافسا ويتنازعا؟ وكذلك الحال في الجماعات.....

لا يجوز أن يكون ما يقوم بين البعض منهم من الحسد والتباغض سبباً للقول بتحريم جماعة ثانية، بل إن لتعدد جماعات الدعوة والجهاد من المزايا أضعاف ما للتعدد من المساوىء، فإن كل جماعة تقوّم الأخرى وتحفزُها للعمل، وإن التنافس بينهم يؤدي في الأعم الأغلب إلى زيادة الخير، وإحسان العمل وبالتالي فالقول بتحريم الجماعة لأنها سبب للفرقة قول ضعيف لا يقوم على علم.. ولو كان كل تميز يسبب فرقة سبباً في إلغاء هذا التميز لألغينا مسمى المهاجرين والأنصار، والأوس

والخزرج. . ألا ترى أنه كان للمهاجرين راية وتميز، ومشيخة، ورموز، وكان للأنصار كذلك معنى ومحتوى وراية خاصة في الجهاد ورموز وقادة. . وبسبب هذا التمايز كان يحصل أحياناً تحاسد وعداوة وعصبية. . كما حدث في غزوة المصطلق. . ولكن الرسول ﷺ نهاهم عن العصبية للمسمى والانتماء، وأبقى ﷺ الانتماء كما هو، فالمهاجري بقي على اسمه والأنصاري بقي على اسمه، ونهى كل منهم أن يتعصب لجماعته ومسماه وكان كل منهم مع انتمائه ونسبته جندياً في الميدان الواحد، ومجاهداً في الجيش الواحد وللهدف الواحد. وتعدد جماعات الدعوة لا يتعدى أن يكون تعدد تلاميذ المشايخ. . فهل يحرم أن يكون لكل شيخ تلاميذ مخصوصون ينقلون عنه العلم ويتفقهون على يديه وينشرون علمه وفقهه؟. . لو كان هذا غير جائز لكان يجب أن نلغي حلقات المشايخ، وتلاميذ المذاهب وتفقه كل طالب على إمام بعينه. . وهذا لا يقوله من كان عنده مسكة من عقل. . فلماذا إذن يفتي من يفتي أنه لا يجوز تعدد الجماعات لأنها تفرق؟. .

وهل فرقة جماعات الدعوة اليوم كفرقة تلاميذ المشايخ بالأمس ومعلوم لكل من علم التاريخ أنه كانت تحدث بين تلاميذ المشايخ أتباع المذاهب المختلفة من الفتن والأحقاد بل والشرور شيء عظيم جداً، وكله بسبب العصبية والبغي فهل من أجل ذلك نقول بحرمة المذاهب والتفقه عليها، وتحريم وجود المشايخ والتلاميذ والمذاهب لأن هذا يؤدي إلى الفرقة والاختلاف!!.

وكذلك الحال تماماً مع جماعات الدعوة ما هي في حقيقة أمرها إلا مناهج تربوية، ومذاهب دعوية، تختلف فيما بينها في الأولويات والأساليب، والشمول والتخصص وكثير من الاختلاف فيما بينها اختلاف مقبول.

نعم هناك انحراف أحياناً وبدعة أحياناً، وقصور أحياناً وكل هذا قد أسلفنا فيه القول أنه ليس مبرراً لتحريم جماعات الدعوة إلى الله، التي تقوم بسد الثغرات وأداء فروض الكفايات التي تلزم الأمة جميعها.

وأظن الآن أنه قد بيّنَ الصبحُ لِذِي عينين، ووضح السبيل، وأصبح القائل بتحريم جماعات الدعوة ملقياً للكلام على عواهنه، ومفتياً بغير علم، ومحرماً ما أوجبه الله

وألزم به عباده من التواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى، والاعتصام بحبل الله ودينه والتآزر من أجل أن نكون أمة داعية إلى الله سبحانه وتعالى، آمرةً بالمعروف ناهية عن المنكر.

والحمد لله أولاً وأخيراً،،،

* * * *

* * *

كتاب

أصول العمل الجماعي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين والمرسلين الداعي إليه على بصيرة هدى المقيم لخير أمة أخرجت للناس ديناً ومنهجاً تدعو إلى الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

والحمد لله على أنه أقام طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين مقاتلين لأعداء الله مجاهدين في سبيله لا يخافون في الله لومة لائم حتى يقاتل آخرهم الدجال. ونسأل الله أن يجعلنا من هذه الطائفة الظافرة المنصورة.

وبعـــد:

فقد بينا في كتاب (مشروعية الجهاد الجماعي) بحول الله وقوته الأدلة الواقعية الكافية على مشروعية العمل الجماعي الذي يراد من ورائه قضاء فريضة كفائية كالقتال في سبيل الله، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تعليم العلم ونشر الإسلام، أو بناء مؤسسات الدين من مساجد ومدارس.

وذكرنا من مبررات هذا العمل ما يجعل على كل مسلم متبصر وجوب الانخراط فيه حيث استبيحت حرمات المسلمين، وضيعنا أحكام القرآن، ونشأت أجيال من أبناء الإسلام على غير الملة، وغزانا العدو في عقر ديارنا واستباح نساءنا وأطفالنا ومقدساتنا.. فأصبح لزاماً على المسلمين التنادي لصدِّ عدوان أهل الكفر على ملة الإسلام وإلا كانوا جميعاً آثمين... ولما كان صد هجوم الكفار هذا على أمة

الإسلام لا يمكن إلا بالتعاون والتضافر والتآزر والجماعة، فإن الجماعة من أجل ذلك أصبحت واجبة من باب (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

وذكرنا أيضاً أن بعضاً من أهل الغيرة على الإسلام قد أسسوا الجماعات الدعوية، والمؤسسات الخيرية من أجل القيام بهذا الأمر، وأن بعضاً من هذه الجماعات والمؤسسات قد عمَّ خيرها ونفعها، وبعضاً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يعفوا عنهم إنه غفور رحيم.

وقد عجبت أشد العجب لمن أفتى بعدم جواز قيام جماعات للجهاد والدعوة، ومؤسسات للخير والبر والإحسان زاعمين أن ذلك ليس من هدي سيد المرسلين، ولا أحد من سلف الأمة الطيبين الطاهرين، ولا العلماء العاملين، وأنه لا يجوز هذا مع قيام أي سلطان إسلامي، وادعوا أن هذا فرقة والفرقة عذاب وتتبعوا سيئات بعض الجماعات الدعوية ونشروها في كل مكان وقالوا: انظروا هذه هي سيئات التجمع للدعوة إلى الله ونصر الدين.

وقد رددنا بحمد الله على كل هذه الشبهات بما عرَّاها، وكان من جملة رَدِّنا أنه لم يأت في كتاب ولا سنة ولا قول لأي من سلف الأمة ينهى فيه أن تتجمع جماعة من المسلمين على فعل خير وبر وتقوى، فكيف تؤصِّلون أصلاً لا سند له من كتاب ولا سنة ولا قول سلف صالح من هذه الأمة، بل الكتاب والسنة والإجماع كلهم داعون إلى التعاون على البر والتقوى، والتآزر، والجهاد الجماعي من أجل رفعة الدين، وجعل كلمة الله هي العليا في الأرض كلها، ودحر الباطل وأهله في كل مكان.

وقلنا أيضاً إن سلفنا جميعاً لم يعرفوا إلا الجهاد الجماعي إمَّا في إطار الإمام العام الذي كان كل مسلم يعتبر نفسه جندياً عنده، منتظراً الأمر منه للخروج والجهاد، وإمَّا عاملاً في الجماعة الخاصة وذلك عن غيبة الإمام أو ضعفه عن القيام بواجبه.

وضربنا مثلاً لذلك: بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكيف جاهد في إطار جماعة منظمة عاملة تأتمر بأمره وتجاهد بمشورته، وكيف وقى الله بجهاده أمة الإسـلام كثيراً من الأخطار التي كانت تتهددهـا. . (وقد جمعنا مجموعة المقالات عن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب مستقل.

شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب إمام السلفية المعاصرة والعمل الجماعي.

وأما المثال الآخر فهو شيخ الإسلام وإمام السلفية المعاصرة قاطبة الإمام محمد ابن عبدالوهاب «الذي أسس جماعة عاملة للدعوة إلى الله، ولم ينتظر إذن خليفة المسلمين في الأستانة آنذاك ولا نائبه الشريف بمكة، ولا أمرائه المتفرقين في نجد والجزيرة، وذلك بعد أن عم الجهل وانتشر الشرك، وفشا الزنا، وتركت أحكام الإسلام.. ولذلك أسس شيخ الإسلام ابن عبدالوهاب جماعة وعهداً وبيعة، بل نظاماً سياسياً كاملاً مصغراً بدءاً بالدعوة إلى التوحيد ونشر الإسلام وتعليم أحكامه، وانتهى بالقتال في سبيل الله دفاعاً عن النفس والعقيدة وهو في كل ذلك لم يعلن خروجاً عن الخلافة، ولا أنه هو وحده الجماعة الإسلامية، وإن كان أعداؤه قد اتهموه بذلك.. ولكنه بريء من ذلك فما كان إلا داعياً إلى الله على بصيرة، قائماً بدعوة جماعية على مقتضى الكتاب والسنة، تبغي عز الإسلام ونصره، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وقد حقق الله له مراده فها نحن نعيش آثار بركة دعوته، وثمرة جهاده.. ولو بقي شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب معلماً ـ على نمط معلمي اليوم ـ وشيخاً في بلدته (حريملة) أو في (الدرعية) التي رحل إليه وقنع بأن يكون شيخاً في مسجد، ومعلماً في حلقة. لكان العالم الإسلامي اليوم قد عَمَّه الخراب والدمار والشرك والبوار واقرأوا جيداً التاريخ لتعرفوا النقلة الهائلة التي نقلت فيها دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب العالم الإسلامي من واقع جاهلي كامل إلى واقع إسلامي آخر، ولم يكن ذلك يتحقق لولا منهج الدعوة الجماعية الذي أسسه شيخ الإسلام والمسلمين محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ورضي عنه.

وقد عجبت أشد العجب لأن ينكر بعض تلاميذ هذا الشيخ الجليل، ومن استضاؤوا بنور دعوته، وأصبحوا موحدين بفضل الله ثم بفضل جهاده أن يتنكروا لطريقة أستاذهم وشيخهم ويقولوا كما يقول أعداء دعوته.... كل من أسس جماعة للدعوة والجهاد فهو خارجي معتزلي !! وليس النظام من دين الله!! والتحزب ليس من الإسلام!!

والعجب كل العجب أن بعض هؤلاء التلاميذ أعطوا للحكام المعاصرين حقوقاً لم تعط للصديق ولا للفاروق ولا عرفها المسلمون في كل تاريخهم ولا دوَّنها حسب علمي

عالم موثوق في شيء من كتب العلم وهو أنه لا يجوز أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلا بإذن الإمام!! ولا يجوز رد عدوان على ديار الإسلام إلا بإذن السلطان!!.

وهؤلاء للأسف أعطوا الحاكم صفات الرب سبحانه وتعالى، فالحق ما شرعه، والباطل ما حرمه، وما سكت عنه فيجب السكوت عنه، وعندهم إن ما أهمله الحاكم من أمر الدين ومصالح المسلمين فيجب على أهل الإسلام إهماله والتغاضي عنه حتى لا يغضب أمير المؤمنين!!.

والخلاصة أن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب قد أقام مشروعه لنصر الإسلام على العمل الجماعي فأسس هو والإمام محمد بن سعود النواة المباركة للدعوة والجهاد الذي أثمر تطهير الجزيرة من الشرك والخرافة، ومن ثم إقامة شرع الله في الأرض ولم ينتظر في ذلك إذن الخلافة، التي كانت تبسط سلطانها على العالم الإسلامي كله من وسط أوروبا والمحيط الأطلسي غرباً إلى حدود إيران شرقاً، ومن القرم والبحر الأسود في أواسط آسيا شمالاً إلى بحر العرب جنوباً. . وينضوي تحت لوائها أكثر من مائتي مليون مسلم في ذلك الوقت.

وقد بدأ شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب مشروعه الإسلامي في قرية واحدة من قرى نجد لا يقطنها أكثر من ألف وخمسمائة إنسان فقط!! وكان كل من حول هذه القرية مُعادين ومعارضين لهذا التوجه الجديد، والمشروع الجديد بل عدُّوا ذلك خروجاً على الأمة، وتكفيراً للمسلمين!! وجنَّدوا الحملات تلو الحملات للقضاء على هذه الدعوة.

ولا شك أن أعظم مشروع انتفع به المسلمون منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا هو مشروع شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب الذي ما زلنا نعيش في بركة دعوته إلى اليوم.

هذه مقدمة سريعة أحببت الدخول بواسطتها إلى الموضوع الأساسي وهو الإجابة على هذا السؤال: إذا كان العمل الجماعي واجباً ـ اليوم كما كان بالأمس. . على أهل الإسلام نصرة لدينهم، فما هي الأصول والقواعد التي يقوم عليها هذا العمل؟ وهذا أوان الشروع في ذلك فأقول مستعيناً بالله سبحانه وتعالى.

الأصل الأول: الارتباط بالحق

أول واجب على المسلم أن يرتبط بالحق أبداً، وأن يلتزمه مطلقاً، وألا يصرفه عنه صارف. والحق في لغة العرب هو الثابت المستقر، وضده الباطل وهو الزائل المضمحل الكاذب. والحق الذي نعنيه هنا هو المعصوم الذي لا يتطرق إليه الخطأ ولا يدخله الزيف.. وليس عندنا في الإسلام معصوم إلا كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أهل الإسلام جميعاً على قول واحد.. هذه هي الأصول المعصومة التي لا يتطرق إليها خلل ولا يتصور منها باطل.. فالقرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل العزيز الحميد، وسنة رسوله معصومة؛ لأن الله عصم نبيه أن يتكلم عنه بغير الحق، وأن يبلِّغ عنه إلا ما يريد الله سبحانه وتعالى.. وإجماع الأمة كذلك معصوم بعصمة الله سبحانه وتعالى؛ لأنها أمة مرحومة لا تجتمع كلها على الباطل، بل لابد وأن يكون منها ما يقوم به الحق إلى آخر الدنيا كما قال ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك]. ومعنى هذا أن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت على أمر فلا يمكن أن تجتمع كلها عليه إلا أن يكون هو الحق، كما اجتمعوا على أن القرآن لم يحرَّف، واجتمعوا على قتال المرتدين مانعي الزكاة، واجتمعوا على خلافة الصديق، وأن الصلوات خمس، وصيام رمضان حق، والجهاد ماض إلى قيام الساعة، ونحو ذلك كثير مما اجتمعت عليه الأمة في كل عصورها، فمن شذ في ذلك فهو كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٥].

والارتباط بالحق يوجب على كل مسلم أن يجعل كتاب الله وما صح عن رسوله، وما أجمعت عليه الأمة وخاصة في عصر الصحابة نصب عينه ولا يحيد عنه لقول قائل

مهما كان هذا القائل إماماً متبعاً أو جماعة خاصة، أو هوى أو عرفاً، فكل شرط ليس في كتاب الله مما اشترطه الناس فهو باطل وإن كان مائة شرط، وكل عهد وبيعة، وأمر ونهي يخالف الحق الثابت في كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فلا يجوز لأحد اتباعه وطاعته، كما قال الإمام الشافعي (رحمه الله): (أجمعت الأمة أنه لا يحل لأحد أن يترك سنة استبانت له لقول قائل كائناً من كان هذا القائل). فأول ما يجب على جماعة الدعوة أن يكون قيامها أولاً من أجل الله وفي سبيله وابتغاء مرضاته ـ وهذا له تفصيل في غير هذا الموضع ـ ثم أن يكون همُّ كل فرد فيها أن يتبع الحق، وأن يعلم أن الجماعة كلها يجب أن تكون في خدمة الحق الذي هو الإسلام وأن يكون رائد الجميع الوصول إلى الحق والالتزام به والتحري عنه.

وقد بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذروة في ذلك سمعاً وطاعة لله ورسوله، ورضى بما يحكم ويأمر حتى لو خالف أهواءهم وما عليه آباؤهم وعشائرهم، وبذلك تجردوا عن كل عصبية تخالف الإسلام، وعن كل عائق يحول بينهم وبين اتباع كلام الله وكلام رسوله، بل بلغ من التزامهم بالحق أن يجادلوا الرسول ﷺ ويناقشوه فيما يرون أنه الحق، كما جاء في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ جاءه مال فأعطى بعض الناس وترك رجلاً هو أعجبهم لديّ، فقلت يا رسول الله: مالك عن فلان؟! والله إني لأراه مؤمناً، فقال رسول الله ﷺ: [أو مسلماً] وقد راجع سعد بن أبي وقاص رسول الله المرة تلو المرة في هذا الرجل الذي لم يعطه رسول الله من المال الذي جاءه حتى قال له رسول الله [أقتالاً أي سعد] ثم فسر الرسول سبب تفرقه هذا وأنه يعطي بعض ضعاف الإيمان من المال ويترك الأقوى إيماناً خوفاً على ضعاف الإيمان من الكفر والردة [إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ مخافة أن يكبَّه الله على وجهه في النار]، والشاهد أن سعداً لم يمنعه إيمانه برسول الله وأنه معصوم قولاً وفعلاً من أن يراجعه المرة تلو المرة، وأن يستفسره في هذا الأمر لما يرى في قلبه من وجوب الشفاعة لأخيه المسلم، وأن رسول الله ربما تركه لعدم العلم بحاجته أو لسبب آخر.. والشاهد أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا من فرط ارتباطهم بالحق، وتعظيمهم له في قلوبهم كانوا يناشدون حتى رسول الله ﷺ فيه وهو يؤمنون بعصمته ونزاهته وعدله... وقد شهد لهم الرسول بهذه الفضيلة فقال في حديث الشفاعة الطويل: [فما أنتم بأشد مناشدة لي في الحق استبان لكم من مناشدة

المؤمنين ربهم يومئذ يقولون: يا رب إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا! فيقول لهم الله سبحانه وتعالى: [اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه] والشاهد أن الرسول هنا يثني على الصحابة ويذكر موقفاً لأهل الإيمان في الآخرة وهو مناشدتهم الله (والمناشدة من النشيد وهي رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ونحو ذلك) في إخوانهم الذين سقطوا عن الصراط. فالمؤمنون مع علمهم الأكيد بأن الرب جل وعلا هو الحكم العدل، وهو البصير بعباده، وأنه يجازي كل إنسان بعمله ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٤٩] وأنه هو الذي حكم بأن يسقط عن الصراط من أهل الإيمان من يسقط، ولكن أهل الإيمان لم يمنعهم إيمانهم بذلك من الشفاعة لإخوانهم المؤمنين الذين سقطوا عن الصراط، ومن الإلحاح على ربهم، بل ومناشدته أن يعفوا عنهم بأنهم كانوا يصلون ويصومون مع هؤلاء الذين نجوا وعبروا القنطرة وجسر جهنم. والرب الرحيم سبحانه وتعالى أحبَّ منهم هذه المناشدة والدعاء فهو سبحانه وتعالى وإن كان قد عاقب من سقطوا عن الصراط بما يستحقون إلا أنه جل وعلا يحب أن يشفع المؤمن لأخيه المؤمن. وأن يشعر بشعوره ومن أجل ذلك قبل شفاعتهم، واستجاب لمناشدتهم ولم يجعل هذا منهم تدخلاً فيما لا يعنيهم. ولا اعتراضاً على حكمه في عباده، بل قال لهم الرب الرحيم الودود: [اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه] ولا يزالون يراجعون الله المرة تلو المرة حتى يقول لهم: [اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردلة من إيمان فأخرجوه]. ويقولون في نهاية المطاف: يا رب لم يبق إلا من حبسه القرآن.

والشاهد من كل ذلك أن أهل الإيمان من فرط تعلقهم بالحق ناقشوا فيما يرونه من الحق رسول الله ﷺ، وناشدوا فيما اعتقدوه من الحق رب العزة سبحانه وتعالى، فأين ذلك فيمن يقيم بينه وبين الحق حاجباً وحاجزاً من إمام متبوع أو جماعة مطاعة، أو رئيس محبوب أو عصبة أو هوى يقدم قول أولئك وهواهم على كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

والخلاصة أن الارتباط بالحق معنى شريف جداً يجعل صاحبه متجرداً له باحثاً عنه بكل سبيل فإذا استبان الحق له فهو معه أبداً لا يحيد عنه، ولا يتأتى ذلك إلا

بتقوى الله عز وجل، والتبصر في أمر الدين، وإماتة الهوى وحظوظ النفس، والعصبية والحمية الجاهلية وهذه أمور تحتاج إلى جهاد مرير للنفس ومجاهدة بليغة في الله سبحانه وتعالى. قال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٧٠].

وهذه ثلاث آيات محكمات توضح هذه القضية وخلاصتها أن يكون المؤمن مراقباً لله في كل أحواله، قائماً لله أي لا يقول ولا يعمل إلا من أجله وفي سبيل مرضاته، وعلى هدى منه جل وعلا، وأن يكون قائماً بالقسط وهو العدل في جميع أقواله وأعماله وألا يحمله كراهية عدو على أن يظلمه مهما بلغت عداوته لهذا العدو، ولا يحمله كذلك محبته لقريب أن يشهد معه بباطل، لينفعه مهما كان هذا القريب.
ومرة ثانية أقول: بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذروة من ذلك فهذا رسول الله يرسل أحد الصحابة إلى خيبر ليأتي بنصف ثمرتها حسب العهد الذي كان بين اليهود ورسول الله أن يكون لليهود نصف ثمارها وللمسلمين نصف ثمارها. فأراد اليهود أن يرشوه لينقص من حق المسلمين فقال لهم: (اعلموا يا معشر يهود أنكم والله أبغض الناس إلي، وأن رسول الله أحب الناس إلي ووالله لا يحملني بغضكم ولا حبي لرسول الله أن أظلمكم ثمرة واحدة).

فقال اليهود: «بهذا قامت السموات والأرض». أي على العدل.

فانظر إلى فعل وقول هذا الصحابي الجليل كيف لم تحمله محبة الرسول وبغض اليهود أن يميل عليهم من أجله. وانظر إلى أحوال كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم كيف يستبيح لنفسه أن يشهد بالزور ويستحل الظلم في حق من يخالفه الرأي وهو من أهل دينه وملته، ويشهد بالباطل حميَّة لمن يحبه، وهذا المرض للأسف منتشر بين كثير من منتسبي الجماعات الإسلامية فإنه يحملهم التعصب

لجماعاتهم على المحاباة لها، والشهادة لها بالزور واستحلال الكذب على الجماعات المنافسة أو المخالفة، ونادراً ما تجد من يشهد بالحق، وهذا من الأمور التي زهَّدت كثيراً من الناس في الانضمام إلى جماعات الدعوة، واتخذها بعض الكتاب دليلاً على تحريم العمل الجماعي، وقد بينا مراراً وتكراراً أن المعصية والظلم وعدم القيام بالحق موجودة في الأفراد كما هي في الجماعات، وكما يوجد التعصب للجماعة يوجد كذلك التعصب للشيخ والكتاب والمدرسة الفكرية والعقائدية والبلدة، والإقليم والقبيلة ألا ترى أنه يوجد عصبة لنجد، واليمن، والشام، ومصر، على مستوى علماء الدين، وطلبة العلم وقد تدفع هذه العصبية إلى غمط الآخرين، والشهادة بالباطل للمحبين والتابعين. . فالعصبية كلها مذمومة لشيخ أو وطن، أو جماعة أو حزب، أو قبيلة، أو مدرسة، ولا يعني هذا أن نلغي الأوطان والمشايخ والأحزاب والمدارس. وعلى كل مسلم هداه الله ووفقه أن يكون قيامه كله في كل شؤونه لله، وشهادته لله، وارتباطه بالحق وحده المعصوم وألا يمنعه ولا يحول بينه وبين الحق حائل من عصبية أياً كانت هذه العصبية، ولا يعين على ذلك إلا الله وحده.

الأصل الثاني: الالتزام بجماعة المسلمين وإمامهم

ذكرنا أن الأصل الأول من أصول العمل والجهاد الجماعي هو وجوب التزام المسلم بالحق، ودورانه معه حيث دار، واستقامته على الجادة والصراط المستقيم عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨] وقوله تعالى أيضاً: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٣٥]. وذكرنا أن الحق المعصوم الذي لا يجوز لأحد المحيد عنه هو كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أمة الإسلام جميعاً على قول أو رأي أو موقف واحد فهذا ما لا يجوز لمسلم مخالفته بحال.

والآن نأتي إلى الأصل الثاني من أصول العمل الجماعي المهتدي بهدي الكتاب والسنة من السلف الصالح، وليس العمل الجماعي الذي ينحرف عن الصراط، ويعدل عن الجادة، ويهتدي بغير هدي رسول الله ﷺ، وهو:

الالتزام بجماعة المسلمين وإمامهم.

والجماعة إذا أطلقت في الإسلام فإنها تعني جماعة أهل الإسلام العامة ويقابلهم الكفار والمنافقون، والتزام هذه الجماعة يعني:

أ ـ ألا يخرج المسلم برأي أو قول يخالف به إجماع الأمة في أي عصر من عصورها وإلا كان خارجاً مشاقاً. فقد أجمعت الأمة مثلاً في عصر الصحابة وجميع عصور الإسلام على عصمة القرآن، وحفظه، وعدالة الصحابة الذين دونوه ونقلوه، وعلى وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من جحدها اكتفاءً بالقرآن، وأجمعت كذلك على أن الصلوات خمس، وأن خير القرون القرن الذي كان فيه رسول الله ﷺ، وعلى أن الخلافة شورى في أهل الإسلام، وعلى بقاء طائفة ظاهرة منصورة قائمة

بالحق ظاهراً وباطناً حتى تقوم الساعة وأن كل من يدعي النبوة بعد رسول الله ﷺ فهو كافر كذاب، وأن كل من ادعى المهدية من لدن رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا فهو كذاب ملبس أو ضال منحرف، وأجمعوا كذلك على أن الجهاد وقتال الكفار فريضة ماضية إلى يوم القيامة، وبالتالي فكل من خالف في شيء من ذلك أو مثله مما أجمعت عليه الأمة فهو خارج عن سبيل المؤمنين.

والخلاصة أنه لا يجوز لمسلم الخروج برأي أو قول أو اجتهاد يخالف به إجماع الأمة في أي عصر من عصورها، ومن شذ شذ في النار.

ب ـ والالتزام الآخر بجماعة أهل الإسلام هو الالتزام بإمامهم بيعة له، وسمعاً وطاعة، ولزوم ما اتفقوا عليه، وارتضوه فإذا اتفق جمهورهم على إمام وجب على الجميع الإتفاق عليه وبيعته، ومن شذ عن جمهورهم فقد شذ في النار، لقوله ﷺ [إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما]. وقوله [من جاءكم وأمركم جميع على رجل يريد أن يفرق جماعتكم أو يشق عصاكم فاقتلوه بالسيف كائناً من كان] (متفق عليهما). وإذا اتفقوا على سلم أو صلح أو هدنة، أو فعل مصلحة من مصالح المسلمين وجب على الجميع طاعتهم في ذلك والإقرار به حتى لا تشق العصا، وتتفرق الجماعة، وذلك أن هذه الأمور جميعها وما يماثلها تخضع للاجتهاد، والاجتهاد يصيب ويخطىء، ويستحيل أن يجمع المسلمون في هذه المسائل على رأي واحد. ولذلك وجب على الإمام أن يشاور أصحابه في ذلك فإذا أشاروا عليه، وارتأى جمهورهم رأياً ما وجب على الجميع بعد ذلك طاعته واتباعه، كما قال رسول الله ﷺ موصياً امراءه: [وإن أنت استنزلت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلهم على حكم الله وحكم رسوله لأنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله وحكم رسوله أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك] (رواه مسلم).

وفي هذا الحديث من الفوائد ما يلي:

١ ـ أن الاجتهاد حق للإمام الخاص كإمام الجيش ونحوه، وليس الاجتهاد وقفاً على الإمام العام فقط.

٢ ـ أن الأمير الخاص يجب أن يستشير أصحابه؛ لأن الرسول يقوله له [فأنزلهم على حكمك وحكم أصحابك].

٣ ـ أن الأمير قد يصيب حكم الله وقد يخطىء وهو مأجور على كل حال.

٤ ـ أنه يجب على الأقل أن يتبع الأكثر وأن يرضى العدد القليل باجتهاد العدد الأعظم الذي يؤيده رأي الأمير واجتهاده.

٥ ـ أن من خرج في الأمور الاجتهادية عن حكم الأمير وأصحابه فهو شاذ منحرف لأن الأمور الاجتهادية الخاضعة للمصالح والمفاسد يستحيل معرفة الصواب فيها على الفور. وهذا هو الشاهد من هذا الحديث العظيم.

والخلاصة أنه لا يجوز لمسلم يجد الإمام العام للمسلمين إلا ويجب عليه بيعته ولزوم جماعة الإسلام لقول رسول الله ﷺ: [الزم جماعة المسلمين وإمامهم] (متفق عليه)، وقوله ﷺ: [من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية] (رواه مسلم).

إذا لم يكن جماعة ولا إمام:

وأما في الأزمان والأماكن التي لا إمام فيها ولا جماعة لأهل الإسلام فإن المسلم مطالب:

أ ـ إما بالسعي في إيجاد ذلك إن كان هناك سبيل إلى ذلك.

ب ـ وإلا الانعزال مطلقاً إذا لم يكن ثمة حيلة ولا سبيل إلى ذلك كما هو الحال في آخر الزمان وحصول الابتلاء الشديد حيث لا يوجد فقط إلا دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها، وحينئذ يأتي قول رسول الله ﷺ: [اعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك] (متفق عليه من حديث حذيفة بن اليمان). وسيأتي لهذا الحديث تفصيل وبيان في مقام آخر إن شاء الله تعالى.

ولا شك أن هذا الوقت الذي يشير إليه الرسول ﷺ ويأمر فيه بالعزلة عن الناس جميعاً ليس هو وقتنا هذا، ومن حمل هذا الحديث على اختلاف جماعات الدعوة

فقد أخطأ خطأً عظيماً بل ضل ضلالاً بعيداً، إذ كيف يكون الدعاة في جماعات الدعوة المهتدية (دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها) وسيأتي لهذا الحديث تفصيل وبيان في مقام آخر إن شاء الله تعالى.

جماعة الخير والدعوة الشرعية:

وتطلق «الجماعة» أيضاً اصطلاحاً على جماعة الخير والبر والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وهذه الجماعة لا شك في مشروعيتها سواء مع وجود الإمام العام أو في غير وجوده وقد ذكرنا أدلة المشروعية بل الوجوب مستوفاة في رسالة مستقلة بعنوان «مشروعية العمل الجماعي».

ولأن كثيراً من الناس تختلط في أذهانهم الأمور فيجعلون الحكم، واحداً في الفرق، والأحزاب، والجماعات، والهيئات ولا يميزون بين تجمع مشروع وتجمع مبتدع وتجمع ضال منحرف، ولا يميزون كذلك بين الظروف والملابسات، وتغير الأحكام بتغير الزمان والمكان.

ومن أجل ذلك نبين هنا أن الجماعات على أقسام:

١ ـ جماعة ضالة اجتمعت على بدعة مكفرة وَشَذَّت عن إجماع الأمة أو كتاب الله أو سنة رسوله بشذوذ مُكفِّر فهم كفار مارقون، وإن تسموا بمسمى الإسلام.

كالفرق الضالة المنحرفة الذين ابتدعوا عقائد، أو مناهج مخالفة لدين الإسلام، أو الذين خرجوا على المسلمين بالسيف كالخوارج المارقين ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين.

٢ ـ جماعة من أهل الإسلام اجتمعت على شيخ أو إمام أو عمل من الأعمال الصالحة، ولكنهم في اجتماعهم أخذوا من الإسلام وتركوا، وقدموا اجتهاد إمامهم وشيخهم على اجتهاد غيره كأتباع المذاهب المعروفة، أو كان منهم نوع تعصب لرأيهم ومنهجهم، أو بعض أمور مبتدعة لا تخرج من الدين، أو خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فلا شك أن جماعتهم مشروعة وفيهم من الحق بحسب ما التزموه، ومن الباطل بحسب ما أخذوه ولا شك أن مثل هذه الجماعة مشروعة لأن أصلها تعاون

على البر والتقوى والدين والله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢]. وهذه الجماعات على ما فيها من الابتداع فهي في حكم المُجمع على مشروعيتها كالإجماع على جواز الاجتماع على إمام والتسمي باسمه واتخاذ مذهبه في الاجتهاد كما سُمِّيت الحنابلة، والشافعية، والمالكية، والحنفية، وكما كان لكثير من الصحابة والتابعين من أهل الفتيا تلاميذهم، وخواصهم، وكما كان لكثير من الشيوخ، كمسافر بن عدي الذي أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعته في أول أمرهم، وعبدالقادر الجيلاني، ونحوهم كثير من السلف والدعاة والمصلحين، والأئمة... ولا يضير هؤلاء بالطبع ما يقع من انحراف بعدهم في اتباعهم فهذه سنة الله في الدعاة والمصلحين أنه تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما يُؤمرون، وهؤلاء هم النصارى من شر أهل الأرض اليوم ويزعمون أنهم على دين عيسى عليه السلام، وهؤلاء اليهود اليوم هم شر الخلق والخليقة ومع ذلك يزعمون أنهم على دين موسى، وهل المسلمون اليوم يزعمون أنهم على دين محمد ﷺ هم كذلك إلا من هدى الله منهم، والمهم أن انحراف الأتباع بعد مضي الزمان لا يدل على حرمة الاجتماع، وعلى أن الضلال والفساد كان منه.

٣ ـ جماعة مهتدية قائمة بالحق على هدي الكتاب والسنة وإجماع الأمة ومنهج السلف الصالح. لا يتحركون إلا وفق أحكام الدين، ولا يجاهدون إلا على بصيرة كما كان شأن الجماعات الإسلامية المجاهدة العاملة على مدار تاريخ الإسلام أخُصُّ من ذلك جماعة شيخ الإسلام ابن تيمية العاملة المجاهدة وقد أفردنا ذلك بكتاب أسميناه موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من العمل الجماعي، والجماعة المجاهدة المجددة للدين التي أسس بنيانها شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب والتي أقامت الدين بعد أن انفرط عقده، وأعلت منار التوحيد بعد أن هدم ركنه. وما زلنا نعيش آثار هذه الدعوة المباركة إلى اليوم.

والخلاصة أن أي جماعة تجتمع على مقتضى الكتاب والسنة والالتزام بإجماع الأمة، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم هي جماعة مهتدية راشدة ما دام أن اجتماعها وفق هذه الأصول ووفق قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢]. وسواء كان ذلك في وجود الإمام العام أو غيابه،

وذلك أن وجود الإمام العام لا يلغي وجود الجماعة الصغرى، وجماعة الدعوة والبر والإحسان.

فإذا كان الإمام العام راشداً قائماً بالحق فإن الجماعة الصغرى سند لهم وقوة. ألا ترى أن الأوس وعلى رأسهم سعد بن معاذ، والخزرج وعلى رأسهم سعد بن عبادة، كان كل منهما سنداً وقوة للرسول والإسلام وكانت كل جماعة منهما تنافس الأخرى في السبق والجهاد والامتثال لأمر الله ورسوله، وكان كل منهما يقول: «يا رسول الله ضعنا حيث شئت وأمرنا بأمرك».

ولما كلف رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة وهو من الخزرج أن يقتل كعب بن الأشرف اليهودي لم يقر للأوس قرار حتى يحققوا منقبة مساوية من أجل ألا يسبقوهم فطلبوا من الرسول مثلها فأرشدهم إلى قتل سلام بن أبي الحقيق في خيبر فخرجت جماعة منهم إليه فقتلوه. فهل كان هؤلاء إلا جماعات على مستوى القبيلة؟

ولكل جماعة رأس مطاع وهم في تجمعهم سند وقوة للدين والإمام، فهل قام الرسول ﷺ بتمزيقهم؟ وقال: لا ولاء إلا للإسلام فقط، ولا تجمع إلا على الرسول والإمام فقط.. أم أن رسول الله أقر اجتماعهم وإمامتهم الخاصة، وولاءهم القبلي، بل إنه قد حصل من الخزرج تعصب للقبيلة وموالاة لها وخروج على أمر الرسول الذي أنكر استطالة عبد الله بن أبي الخزرجي المنافق في عرضه واتهامه لأم المؤمنين عائشة زوجة النبي ﷺ وقال مخاطباً الصحابة جميعاً: [يا معشر المؤمنين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي]. وكان رسول الله ﷺ يعني عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي فقام سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج (أي أميرهم) وكان رجلاً صالحاً ولكن أخذته الحميَّة فقال لسعد بن معاذ: كذبت ـ لعمر الله ـ لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت. لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافق!! فتثاور الحيَّان الأوس والخزرج وهموا أن يقتتلوا ورسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ (رواه الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها).

والشاهد أن رسول الله ﷺ لم ينه عن هذه التجمعات التي يمكن أن تؤدي فيها العصبية إلى مثل هذا. بل بقى للأوس اجتماعهم ورئاستهم، وللخزرج كذلك، وكانوا كما أسلفنا متعاونين في أكثر أمورهم على البر والتقوى متنافسين في خدمة الدين، وأحياناً يقع منهم التعصب والإخلال، في أصل الموالاة، ومع ذلك لم يكن هذا ليلغي اجتماعهم وجماعتهم.

وهكذا شاهد تاريخ الإسلام كله في ظل الخلافة الراشدة وخلافة بني أمية بعد ذلك، وخلافة بني العباس وبني عثمان وغيرهم من الجماعات الخاصة الدعوية، والجهادية، والعلمية، والقبلية ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ولا أعلم دليلاً من كتاب أو سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ أو قول عالم ممن يُحتج بعلمه يفتي بأنه لا يجوز تجمع راشد ملتزم بآداب الكتاب والسنة في ظل الإمام العام، أو أن لا تجمع إلا بإذن الإمام العام.

وأما مشروعية الجماعة وقت انحراف الإمام العام أو تقصيره أو غيابه فهو أمر لازم واجب. ألا ترى في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (وإذا أسأت فقوموني). إنها دعوة إلى الضغط على الإمام المنحرف ولا يكون ذلك إلا بقوة الجماعة لا بقوة الفرد الذي يمكن أن يؤخذ إذا لم يكن هناك نصير له، وكذلك يفهم من قوله ﷺ [إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم قال: لا.. ما صلوا] (رواه مسلم).

فهذا إقرار ضمني من الرسول ﷺ بمشروعية الجماعة لتغيير منكر الإمام وكذلك بوجوب الإنكار عليه عند رؤية المنكر الذي هو دون ترك الصلاة، ووجوب قتاله عند تضييع الصلاة، ولا يكون هذا ولا هذا إلا في إطار جماعة عاملة فاعلة تستطيع أن توصل رأيها عند فسق الإمام، وتستطيع أن تزيله، إذا ترك الصلاة أو كفر كفراً بواحاً لا تأويل له ولا تفسير إلا بالكفر.

ولا شك أن من رأى ضيعة الدين والإسلام وزوال أحكام الشريعة، وتبدل أصول الدين ثم هو يفتي بعدم مشروعية الجماعة من أجل إزالة هذه المنكرات أقول: لا

شك أن من أفتى بذلك فقد أخطأ الطريق. وأمر الناس بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو قوام حياة هذه الأمة وسر وجودها، ولولاه ما بقي الدين والإسلام، وإذا كان المقصود من إنكار المنكر وزواله، ومن الأمر بالمعروف حصوله فلعمر الله إن هذا وهذا لا يتأتي إلا بعمل جماعي وليس بعمل فردي وأنيّ للفرد الناهي عن المنكر ـ لو وافته الشجاعة ونهى ـ أن يصل إلى إزالة المنكر؟! وأنيّ للآمر بالمعروف وهو فرد ضعيف أن يملك حصول ما يأمر به من المعروف؟!

والخلاصة أن الجماعة أقدر من الفرد في الوصول إلى هدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحال الأمة اليوم يستدعي بل يوجب وجوباً لا محيص عنه التنادي والتعاون من أجل نصر الدين، وإعلاء شريعة رب العالمين، وإزاحة المنكرات العظيمة التي أشاعها المجرمون العابثون الذين نفتح لهم الأبواب ويلقون التأييد والتشجيع، وأما أهل الحق والدعاة المخلصون فهم الغرباء المنبوذين المدفوعون عن أبواب الظلمة الغاصبين.. فهل في مثل هذه الأحوال والأزمات يُفْتَى أنه لا يجوز اليوم تجمع على نصر الدين، وإعلاء كلمة رب العالمين؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

والخلاصة أن جماعة الدعوة المشروعة هي التي تقوم وفق المواصفات الآتية:

١ ـ أن يكون التزامها بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة.

٢ ـ أن تكون موالية لجماعة المسلمين وإمامهم الواجب الطاعة.

٣ ـ ألا تشق عصا المسلمين، ولا تخلع يداً من طاعة وألا تكون لها ولاية خاصة قاضية أو مقدمة على الولاية العامة للإسلام وأهله.

٤ ـ ألا تقدم مصلحة أفرادها على مصلحة المسلمين العامة بل أن تكون مصلحتها هي مصلحة الإسلام والمسلمين.

٥ ـ ألا تدعو إلى عصبية ولا تنصر عصبية.

ولا شك أن أي جماعة من جماعات البر والتقوى والخير والدعوة التزمت ذلك فهي جماعة مشروعة.

وأما حكم هذا التجمع فهو إما واجب حتمي إذا دعت الحاجة إليه لما أسلفنا من نصر الدين، أو أنه دعوة إلى الخير لا تتحقق إلا بالاجتماع، أو إنكار منكر لا يحصل إلا باجتماع، أو دفع شر وضرر عن الأمة لا يتحقق إلا باجتماع.

وقد تكون مستحبة إذا كان الأمر دون ذلك، وقد تكون مباحة إذا كان تجمعها من أجل أمر مباح كنفع مادي دنيوي كتجمع النقابات، والجماعات المهنية (الأطباء، والمدرسين، والعمال.. إلخ). ونحو ذلك مما يقصد منه نفع أصحاب مهنة، أو بلد، أو نحو ذلك.

وكل تجمع على باطل فهو باطل كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

والخلاصة لكل ما أسلفنا أنه يجب على كل مسلم في أي مكان في الأرض أن يلوذ بإمام المسلمين حيث يوجد، وأن يلزم جماعة المسلمين حيث توجد، وأن يلزم جماعة المسلمين العامة وألا يخرج على إجماعهم بقولٍ أو رأي ويجب عليه أن يدخل فيما دخل فيه جمهورهم. ولا شك أن الجماعة العامة لا تلغي الجماعة الخاصة بل هي درع للإمام، وقوة للمسلمين، ولا يجوز أن تكون بديلاً أو نقيضاً لجماعة المسلمين العامة وإمامهم، وأما في غيبة الإمام العام فالكل يأثم بالقعود عن وجوده لأنه من فروض الكفايات التي لا يجوز تضييعها، ويجب على المسلمين جميعاً في كل مكان أفراداً وجماعات أن يكون عملهم لنصر الإسلام ووحدة المسلمين.

الأصل الثالث: حدود الالتزام بجماعة الدعوة

عرفنا في الفصل السابق أنه يجب على كل مسلم في أي مكان من الأرض أن يلوذ بإمام المسلمين حيث يوجد، وأن يلزم جماعة المسلمين العامة، ولا يخرج على إجماعهم بقول أو رأي، وأن يدخل كذلك فيما دخل فيه جمهورهم من الأمور العملية، وعرفنا كذلك أن الجماعة العامة لا تلغي الجماعة الخاصة بل إن الجماعة الخاصة المهتدية درع للإمام، وقوة لأهل الإسلام وقلنا إن من مواصفات الجماعة الخاصة المهتدية أن تكون على منهج الكتاب والسنة، وعمل السلف الصالح، وأن تكون في خدمة الإسلام، لا أن تجعل الإسلام في خدمة عصبيتها، وأن يكون هدفها إعلاء كلمة الله، والتعاون على البر والتقوى. والآن نأتي إلى السؤال الذي يُطرح وهو أنه عندما تذكر الجماعة الخاصة، ما حدود الطاعة في هذه الجماعة؟ وما حدود النظام فيها؟ وهل طاعة المقدَّم في هذه الجماعات كطاعة الإمام العام، والخروج من طاعته كالخروج عن بيعة إمام المسلمين؟ وهل الالتزام بنظام جماعة الدعوة كالالتزام بجماعة المسلمين؟ أم ماذا؟

وإذا كان الالتزام بحدود من النظام والطاعة في الجماعات الخاصة (جماعات الدعوة) واجباً فما مشروعية ذلك؟ أي ما الذي يدل على مشروعية الطاعة لأمير الجماعة الخاصة من الكتاب والسنة؟

وللإجابة على كل ذلك نقول:

١ ـ قد عرضنا بحمد الله آنفاً أدلة مشروعية الجماعة الخاصة سواء في حضور الإمام العام أو غيبته، بما يغني عن إعادته هنا. وبأدلة لا يمكن ردّها أو معارضتها إلا مكابرةً ولجاجاً.

٢ ـ وأما مشروعية الطاعة والنظام في الجماعات الخاصة ففي الكتاب والسنة عشرات الأدلة من ذلك ولكن قبل عرض هذه الأدلة فإننا نقول إن هذا من البديهيات والمسلَّمات. ومعلوم أنه في البديهيات وفي الأمور المسلّمة لا نحتاج إلى أدلة من الكتاب والسنة لأن الكتاب والسنة لم يأتيا بتوضيح الواضحات ولا تحصيل الحاصل؛ لأن الجدال في إثبات تحصيل الحاصل عبث ولعبٌ كإقامة الدليل على أن الشمس طالعة وقت طلوعها، وأن الواحد نصف الاثنين، وأن الليل يعقبه نهار والنهار يعقبه ليل مثل هذه الأمور لا يحتاج في إثباتها إلى أدلة من الكتاب والسنة لأن المخاطب إذا احتاج إلى أدلة لإثبات ذلك فإنه لا يفيد معه شيء ولا يصح معه دليل.

وليس يفيد في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ونحن نقول: (النظام خير من الفوضى). هل هذه البديهية تحتاج إلى دليل لإثباتها ونقول أيضاً (لا جماعة إلا بطاعة) هل هذه البديهية تحتاج في إثباتها إلى دليل من الكتاب والسنة؟! هل يمكن أن تُسمَّى جماعة إلا إذا كان لها رأس وفيها أمر وطاعة، وقرار ثم التزام بالقرار وعمل به. إن هناك فرقاً بين الجماعة والمدرسة الفكرية، أو النادي، أو التجمع الغوغائي والعشوائي ومن لا يستطيع أن يفرق بين هذا وهذا فإنه يحتاج إلى درس طويل في البديهيات والمسلمات.

٣ ـ وأما الأدلة الشرعية على مشروعية الطاعة في الجماعة الخاصة فأكثر من أن تحصر. منها قوله ﷺ: [إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمَّر أحدهم]. رواه أبو داود عن أبي هريرة وأخرجه الإمام أحمد بلفظ [لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمَّرُوا عليهم أحدهم].

وهذا الحديث أصل في الجماعة الخاصة، وأنه لا يحل لأي من المسلمين ثلاثة فصاعداً يكونوا في فلاة (وهي نوع من العزلة) أو في سفر وهو عمل مشترك مباح أو واجب أو مستحب إلا ويجب عليهم أن يكون، منهم أمير، ولا شك أنه يقاس على ذلك جماعة الغربة في بلاد غير المسلمين وكذلك كل أمر مشترك يقوم به المسلمون معاً.

ولا شك أن جماعة الدعوة والتي يناط بها مهمات عظيمة كأمر بمعروف، ونهي

عن منكر، وفعل للخير، ونشر للفضيلة، وسد لحاجات المسلمين، وقيام بفروض عظيمة من فروض الكفايات، بل إن بعض الجماعات الدعوية تقوم اليوم بأعظم فروض الكفايات وهو الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار، فهل يتصور عاقل أن تكون مثل هذه الجماعات التي تتصدى لمثل هذه الأعمال العظيمة الجليلة بلا رأس ولا نظام ولا قرار، ولا التزام ولا طاعة؟!..

ومن الأدلة على ذلك أيضاً الأوامر العامة في الكتاب والسنة بالالتزام بجماعة الإسلام، والتعاون على البر والتقوى، والاعتصام بحبل الله جميعاً، والنهي عن الفرقة والخصام ووجوب أن يكون لكل جماعة من المسلمين أمير خاص، وألا يخرج جيش إلا مع أميره، وقائده، وألا تُترك مدينة ولا قرية إلا وفيها أميرها وقائدها فإن رسول الله ﷺ ما ترك المدينة قط في سفر إلا وأمَّر رجلاً، علماً بأنه ما كان يبقى فيه غالباً إلا الأطفال والنساء. وهذه النصوص الكثيرة والوقائع المتعددة، والبناء العام لشريعة الإسلام كلها شواهد أنه يجب عند التصدي لأي عمل جماعي أن يكون له أمير ونظام وقرار.

٤ ـ ولا شك أن جماعة الدعوة إلى الله جماعة مشروعة في كل وقت وزمان، وهي اليوم فرض واجب في كل مكان سداً للثغور التي انفتحت على أمة الإسلام وتكميلاً للنقص الحاصل من أولي السلطان، ودَرْءاً للأخطار العظام التي باتت تهدد أمة الإسلام، دفعاً لأعداء الله في الخارج والداخل الذين يعملون جاهدين لإطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولا شك عند كل ذي لب وبصيرة أن جماعات الدعوة هي اليوم حاملة لواء الإسلام، القائمة بنشر نور الله في العالمين، ولا شك أن القائمين في هذه الجماعات المحتسبين وقتهم وجهدهم وعطاءهم لله لا يريدون من ورائه علواً في الأرض ولا فساداً، وإنما يريدون وجه الله الكريم، هم خير البرية كما قال رسول الله ﷺ: [ألا أخبركم بخير البرية؟] قالوا: بلى يا رسول الله، قال: [رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه] رواه الإمام أحمد.

ولا شك أن القائمين اليوم في كل مكان جهاداً بالكلمة ونشراً للدين، وإزهاقاً للباطل لهم نصيب من ذلك، فإن الباطل كما يُقمع بالسيف، فإنه يقمع بالحجة والبيان، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا

﴿نَصِفُونَ﴾[سورة الأنبياء، الآية ١٨ :] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۞ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[سورة الفرقان ، الآيتان : ٥١ ـ ٥٢] .

ولا شك أن مثل هذه الجماعات التي هذه أهدافها وغاياتها والحاجة إليها لا يمكن أن تؤدي دورها، وتقوم بمهامها إلا وفق نظام، وتحت إمرة قائد، وفي إطار قرار محترم مطاع، وإلا كانت مجرد تجمع غوغائي عشوائي، تلقى فيها الأقوال والآراء، ولا يخرج من وراء ذلك عمل ولا خطة ولا نظام.

٥ـ وأما مستند الطاعة في الجماعات الخاصة فإنه علاوة على ما سبق التزم بالشرط الاختياري الذي شرطه المسلم على نفسه، وقد قال ﷺ: [المسلمون عند شروطهم]. والفرد الداخل في الجماعة الخاصة يدخل في ضمن شروط اختيارية قد وافق عليها وبالتالي فإذا قبلها فقد أخذ على نفسه عهداً بالإلزام والوفاء وهذه الشروط إذا كانت موافقة للكتاب والسنة فالالتزام بها حق لقوله ﷺ: [المسلمون عند شروطهم] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١] والآية عامة يدخل فيها كل عقد سواء كان عقداً مع الله أو مع الناس. . وأما إذا كان الشرط باطلاً فلا يجوز الوفاء به لقول ﷺ: [كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط] (رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها).

وقد أسلفنا فيما سبق بيان مواصفات الجماعة المهتدية فإذا كانت الشروط الداخلية فيها موافقة للكتاب وسنة النبي ﷺ فهي شروط جائزة يجب لمن قبلها أن يلتزم بها من باب الوفاء بالشروط والالتزام بالعهود وأما إذا كانت شروطاً مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة فلا يجوز الوفاء بها قولاً واحداً.

٦ـ وقد يقول قائل: وما الداعي للمسلم اليوم أن يلتزم شيئاً هو يلزم به نفسه، ويدخل في شروط تقيده ويجب عليه أن يعمل بمقتضاها وما مصلحة المسلم في ذلك؟ ونقول: إن هذا من باب المشروع المستحب [فمن نذر أن يطيع الله فليطعه] كما قال ﷺ، والداخل في إطار جماعة الدعوة المهتدية بمثابة الناذر أن يطيع الله في إطار خطة ونظام وعهد. . نعم قد ألزم نفسه، وقيد حريته. ولكنه ألزم نفسه بطاعة ومعروف وجهاد في سبيل الله، وترك حياة البطالة والكسل والغفلة والهوى، أو على

الأقل الراحة والدعة أو على أقل الأقل ترك العمل الفردي المحدود إلى العمل الجماعي الواسع عظيم القدر والأثر فإن عمل الجماعة غير عمل الفرد، وكلما اتسعت الجماعة وتعددت أوجه نشاطها، وزادت فاعلية أفرادها كلما كان أثرها أعظم ونفعها أعم، فالداخل في إطار العمل الجماعي ناذر لله معاهد له أن يعمل في إطار وخطة ونظام، ولا شك أن هذا نذر مشروع مستحب بل هو اليوم من ألزم الطاعات وأعظم القربات، لأن حاجة المسلمين إليه اليوم أشد حاجة.

٧ـ ولا شك أن حدود الطاعة في هذه الجماعات الخاصة إنما هي في حدود الشروط الموضوعة المتفق عليها، وفي حدود ما قامت من أجله الجماعة وما تريد تحقيقه من أهداف، وكذلك في حدود الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة. . إذا كان الأمر كذلك فالطاعة واجبة والالتزام واجب، ونقض هذا أو التقصير فيه إنما هو إخلال بالشرط، ونقض للعهد، وعدم وفاء بالنذر ولا شك أن ذلك كله معصية لله عز وجل.

٨ ـ ولا شك أن حدود هذه الطاعة غير حدود الطاعة في إطار الجماعة العامة والإمام العام فإن الطاعة هناك فرض واجب أشد إلزاماً، والخروج منها قد يؤدي إلى الخروج من الإسلام كما قال ﷺ: [من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية].

وقوله ﷺ: [من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية] رواه مسلم.

وأما جماعة الدعوة فالأصل في الالتزام فيها إنما هو ما سلف من النذر والعهد، وتغليب المصلحة الشرعية، ومعلوم أن هذا غير ذلك.

وأظن الآن أنه قد وضح السبيل لكل ذي عينين وبصيرة، وقد وُضع الأمر كله في نصابه.

الأصل الرابع: إحاطة الإسلام من جميع جوانبه

خير من الاقتصاد على بعض شرائعه

الإسلام دين الله وصبغته، وقد جاء لهداية الإنسان في كل شأن من شؤون حياته على هذه الأرض ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة النحل، الآية: ٨٩]. ولا يوجد نشاط إنساني، ولا فعل متصور لجارحة من جوارح الإنسان إلا ولله فيها حكم شرعي ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٦]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق، الآية: ١٨].

ومن أجل ذلك كان الإسلام قضية كبرى، ودينا شمولياً يستوعب حياة الإنسان كلها، ومشكلاته جميعاً على الأرض، ويرشده في كل ذلك إلى الحق الذي يحبه الله ويرضاه.

* ومهما تعددت قضايا الناس، وتنوعت مشاكلهم، ومعاملاتهم فإنهم واجدون لذلك هداية وحُكماً: إما نصاً في كتاب الله وسنة رسوله، وإما اجتهاداً في إطار هذه النصوص، وقواعدها المقررة وكلياتها العامة، وأهدافها التي تدعو إليها. ولا يوجد نظام آخر ولا دين آخر على الأرض اليوم يحدد للإنسان كل مسار حياته بدءاً بإزالة النجاسات ومروراً بحل كل مشكلاته، ونهاية بتزكية نفسه، وتهذيب روحه إلا الإسلام.

الدين الإسلامي لا يقوم إلا في إطار الأمة والجماعة:

ولا شك أن الإسلام نظام جماعي لأنه دين لا يقوم به إلا أُمَّة ولا يمكن تحقيقه إلا

من خلال الجماعة، لأن هذا الذين جعل غاياته إقامة كل شريعة الإسلام على الأرض، ومحاربة كل من يقف في طريقها وجعل كلمة الله هي العليا في الأرض كلها ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣٩].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٣].

ولا شك أنه في غيبة الخلافة الإسلامية الراشدة القائمة بذلك فإن على الفرد أن يتقي الله حسب استطاعته، وأن يبذل غاية مستطاعه، وأن يقوم بالحق ولو كان وحده. . ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتمسك بكلمة الحق، وعدم كتمان العلم، وجهاد الكفار باللسان إذا لم يمكن بالسيف. هذا فضلاً عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج، وصلة الرحم، وأكل الحلال، والبعد عن الحرام، والبصيرة في الدين إلى آخر ما فرضه الله على كل مسلم ولو كان وحده.

ومعلوم أن الفرد مهما كان قوياً مجاهداً فإنه لا يحق وحده أهداف الرسالة من نصر الدين، والانتصار على الكافرين واخضاع الناس لشريعة رب العالمين. بل لابد من الأمة والجماعة القائمة بالحق.

ولذلك فإنك لا تستطيع أن تقول إن شريعة الإسلام مطبقة، وإن الكتاب والسنة معمول بهما، إلا في إطار خلافة راشدة، ترفع لواء التوحيد، وتوالي بالإسلام وعلى الإسلام وتقاتل الكفار لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وأما في إطار حكام الطوائف والأقاليم الذين اهتم كل واحد منهم بحماية ملكه وسلطانه، وجعل الموالاة والمعاداة على أساس التبعية له، والانتماء لحدود دولته فإن هذا أمر مستحدث في الدين، قد أحدثه الغربيون في أمة الإسلام بعد أن أزالوا خلافتهم، وقسموا أوطانهم، واستعمروا بلادهم ونصبوا من شاءوا ممن يواليهم. .

ولا شك أن هذا الواقع اللاستثنائي الذي تعيشه الأمة ليس هو الأصل في

تاريخها، ولا هو المشروع في كتاب الله وسنة رسوله ولا شك أن الرضى بذلك رضى بغير حكم الله، وإقرار ذلك عن طمأنينة القلب كفر مخرج من دين الله؛ لأنه في حقيقته إقرار ببقاء أمة الإسلام ضعيفة مستكينة، يطؤها أعداء الله، ويحكم فيها بغير حكم الله وشريعته.

ومن أجل ذلك قلنا وما زلنا نقول إن أمام المسلمين واجبات تنوء بها الجبال، ومهمات لا يهتم بها ولا يحملها إلا الأبطال فإعادة أمة الإسلام إلى مجدها التليد، ورفع راية التوحيد على كل أصقاع الأرض ليس ضرباً من الخيال، ولا هو من المحال بل هو الحق الذي لا شبهة فيه والذي بشرنا به الله ورسوله في الكتاب ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ **[سورة التوبة، الآية: ٣٣]. [ولن يترك الإسلام بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله فيه بعز عزيز يعز الله به الإسلام وأهله، وبذل ذليل يذل الله به الشرك وأهله].**

[إنكم ستفتحون، القسطنطينية وإنكم ستفتحون روما] وقال ابن عمر (مدينة هرقل تفتح أولاً).

وأما هذه الرؤية الشمولية للواقع الكائن، وما ينبغي أن يكون لا يجوز بتاتاً أن نقول إن جماعة واحدة من جماعات الدعوة إلى الله ـ والتي أثبتنا مشروعيتها بل وجوبها بما لا مجال للطعن فيه إلا مكابرة ـ تستطيع أن تقوم بكل ذلك. بل إن الواقع الإسلامي اليوم ليفرض على كل فرد أو جماعة أن يبذل قصارى جهده، وغاية كده وجهاده، لعله أن يرفع لبنة في البناء المتهاوي إلى مكانها، أو يسد خرقاً أو يقفل ثغرة من الثغور يدخل العدو من خلالها إلى هذه الأمة.

ولا شك أيضاً أنه كلما توسعت جماعة الدعوة واستطاعت أن ترقع في ثوب الإسلام أكثر من خرق، وأن تقفل في وجه أعدائه أكثر من ثغر، وأن تبني في صرح الإسلام أكثر من لبنة كان هذا أفضل وأكمل.

فكيف ترى لو أن عالماً من علماء المسلمين اهتم بتربية مجموعة من التلاميذ على فضائل الدين، وأوقف نفسه على ذلك كان ذلك منه حسنا، فماذا لو أنه مع اهتمامه الأول كان يتصدى للرد على الملاحدة والزنادقة والمنحرفين، وماذا لو أنه مع ذلك

كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وماذا لو أنه كان كذلك قائماً بالشفاعة الحسنة لإخوانه المسلمين ومتفقداً للأرملة والمسكين، وباذلاً جزءاً من وقته لإصلاح ذات البين بين المتخاصمين.

وانظر هذا في سيرة علم من أعلام الأمة المعاصرين كشيخنا عبد العزيز بن باز حفظه الله، ألا ترى أن مثل هذا في الناس يعمل عمل أمة.. وهكذا الشأن في عمل جماعات الدعوة إلى الله فلو أن جماعة قصرت نفسها على مهمة واحدة من مهمات الدين، وخصصت عملها كله في شأن واحد من شؤون المسلمين لكان هذا حسناً وليس بسيء، أما إذا وفقها الله سبحانه وتعالى فتعددت منافعها، وتشعبت أعمالها، لكان هذا فضلاً على فضل وإحساناً على إحسان.

ولكن الذي نحذر منه دائماً ألا يظن أن الاقتصار على شعبة من شعب الإيمان هو الإيمان كله. فلا يجوز لجماعة تقاتل العدو أن تحتقر من يقوم بتعليم العلم وتصحيح المعتقد، وتزكية النفوس؛ لأن جهاد الكفار وحده لا يغني عن ذلك، بل نحن نجاهد الكفار من أجل أن يزكوا أنفسهم، ويصححوا معتقدهم، ويقيموا صلاتهم على الوجه المطلوب. فكيف يرضى من المجاهد مع جهاده في سبيل الله أن يكون سيء الاعتقاد، فاسد الطوية، مصلياً صلاة، حكم الشرع ببطلانها أو فسادها.

والخلاصة أن هذا الدين لا يصلح إلا لمن أحاط به من جميع جوانبه، وآمن بكل ما جاء به الرسول من ربه عقيدة وشريعة، واتقى الله ما استطاع، وعمل من الدين بما وسعه جهده.

الدعوة السلفية هي دعوة الإسلام الشمولية:

ولست واجداً بحمد الله وتوفيقه دعوة اليوم تمثل شمولية الإسلام، وتقوم على حقائقه العلمية من الدعوة الموسومة بالدعوة السلفية التي لا تنتمي إلى فرد أو حزب أو جماعة معينة وإنما تنتمي فقط إلى الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح، وهذه الدعوة لا تشرف بالرجال، ولكن الرجال يشرفون بالانتساب إليها، والدخول فيها،

وهي معصومة لأن الحجة فيها لكلام الله وكلام رسوله فقط، وقواعدها التي أصبحت من قواعدها في حكم الإجماع ولا شك أن كل جماعة من جماعات الدعوة تقوم على أساس من هذه الدعوة فهي جماعة مباركة ما التزمت الحق، وعملت بالكتاب والسنة، والتزمت منهج هذه الدعوة.

كما أن كل عالم التزم هذه الدعوة فهو عالم مبارك متبع للصفوة من هذه الأمة أصحاب النبي وخيار التابعين، وأهل الحديث، وأهل التوحيد، وأهل السنة والجماعة جيلاً بعد جيل.

ولقد مثل أعلام هذه الدعوة وخاصة في عصور النكبات شمولية الإسلام، وادرس في ذلك سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ينبئك تاريخهما ومنهجهما في الدعوة، كيف يحيي الفرد أمة، وكيف تنشأ الجماعة بالفرد العامل، وكيف يمكن أن يعاد للإسلام مجده في عصور الانحطاط وأن ذلك لا يكون إلا من خلال جماعة عاملة، وأمة قائمة وأن شمولية الإسلام توجب على الدعاة أن يعملوا في كل اتجاه وأن يحاولوا أن يسدوا كل الثغور، وأن هدف الإسلام العظيم هو إعلاء كلمة الله في الأرض كلها والذي لا يتأتى إلا بجهاد جماعي ترفع فيه راية التوحيد التي يكون هم حامليها وغايتهم الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

الأصل الخامس: لنحذر الأقوال الجانحة في العمل الدعوي

قدمنا بحمد الله أدلة لا تدفع على أن العمل الجماعي اليوم لنصرة الإسلام فريضة واجبة، وليس مجرد عمل صالح مشروع.

وقدمنا الشروط الأساسية التي يجب توفرها في الجماعة الصالحة، وبينا حدود العلاقة الواجبة بينها وبين جماعة المسلمين، وكيف تكون الموالاة والأخوة في إطار جماعة الدعوة وفي ظلال أمة الإسلام العامة.

وذكرنا الأدلة الوافية على أن النظام والطاعة في إطار جماعة الدعوة لا يتناقض بتاتاً ـ مع الموالاة والولاء لجماعة الإسلام وإمامها العام، وسقنا أمثلة من سيرة أصحاب النبي الكرام، وسلفنا الصالح بما يثلج صدر كل مؤمن.

واليوم نأتي إلى إلقاء نظرة على الواقع المعاش وما يجب أن يكون عليه العمل الجماعي للدعوة إلى الله . .

١ ـ الأهداف الكبرى للرسالة الإسلامية:

لا يمكن أن نعرف ما يراد أن نفعله اليوم إلا إذا عرفنا الأهداف التي نريد أن نصل إليها والغايات التي نريد تحقيقها. وإذا كان هدفنا هو ارضاء الله سبحانه وتعالى، والقيام بدينه، والتزام شريعته فإن الله سبحانه وتعالى قد حدد لنا أهداف الدين. ومن هذه الأهداف:

١ـ الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها كما قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣٩].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٨]. ومعنى هذا أنه يجب على المسلمين أن يقاتلوا حتى لا يبقى مؤمن يعذب، ويفتن عن دينه في الأرض كلها وحتى يعلو التوحيد الشرك في بقاع العالم جميعاً.

ولا شك أن اتباع الرسول واجب عليهم القيام بهذه المهمة عملاً يقول سبحانه: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠].

٢ ـ العمل لتكون أمة الإسلام أمة واحدة تلتف حول علم واحد يتخذ قراره بعد مشورة. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٧٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.. ومن أعظم الأدلة في ذلك إجماع أهل الإسلام جميعاً على وجوب تنصيب إمام يدين له كل أهل الإسلام بالطاعة والولاء، وأن الخروج من بيعته خروج من الدين وأن من مات وليس في عنقه بيعة له مات على شعبة من نفاق.

الواقع المعاصر:

ولا يحتاج أن نستفيض في الواقع المعاصر فكل زاوية فيه تدمي القلب، وتعصر النفس ألماً على أمة الإسلام التي أصبحت أمماً، والتي يتحكم فيها اليوم اللصوص المتغلبة الذين أصبحت أموال المسلمين ودماؤهم وأعراضهم نهباً لهم، والذي أصبح دين الله عندهم هدفاً وغرضاً يرمي بكل نبل، ولا شك أن الرضا بهذا الواقع كفر وردة، والراكنون إليه نفاق وظلم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٣]. وأي ظلم أعظم من الصد عن سبيل الله، وإشاعة الفاحشة في بلاد الإسلام، والعمل لتكون

كلمة الله هي السفلى، واعلاء كلمة الكفر والباطل..، وهل الواقع المعاش إلا كذلك؟

المسلمون ومناهج التغيير:

ودعاة الإسلام اليوم، ومشايخ الدين، وطلاب العلم متفرقون فيما يجب فعله خروجاً من هذا الواقع المرير إلى أفق الكتاب والسنة وتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية.

وتكاد أن تكون الآراء في هذا الصدد بعدد مشايخ الدين وطلاب العلم ودعاة الإسلام ولعل العذر في ذلك أن الأفق الذي تريد الوصول إليه عظيم جداً، وحجم الكارثة التي وصل إليه المسلمون عظيم جداً كذلك. وقد اتسع الخرق على الراقع كما يقولون..، وضاعت الأهداف والغايات لأنها أصبحت من قبيل الخوارق والمعجزات، والتبديل الذي يحتاج إلى تبديل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١١] وأنَّى أن نغير أمة الإسلام التي أصبحت مهيضة كسيرة، بل كسيحة لتقف على قدميها مرة ثانية، وتطاول أمم الكفر والباطل، وكما ضاعت الأهداف ضاعت الأولويات كذلك، فمن أين نبدأ والنار تلتهم منزلنا من كل صوب؟ وكيف نرقع وقد اتسع الخرق من كل جانب؟ ومتى نقيم جداراً في البناء ومعاول الهدم قد وصلت إلى القواعد والأساسات؟ وكيف نبني أمتنا من جديد والهدامون يعملون ليل نهار وكلما جئت تبني أزاحوك عنها إلى مكان بعيد؟

ومتى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبني وغيرك يهدم

ومن أجل ذلك تعم الحيرة مشايخ الدين وطلاب العلم ورجال الدعوة ويصدر كل منهم رأياً يخالف الآخر ولهم العذر في ذلك فحجم الكارثة أكبر من كل اجتهاد..

ومع ذلك فلا بأس من التنبيه على بعض الأقوال الجانحة والساقطة في هذا الصدد فمن ذلك:

(١) اليأس من الإصلاح والقنوط من تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية ومن ثم

الرضا بالعزلة، والانقطاع للعبادة الفردية، وترك الدعوة إلى الله ولا يخفى أن هذا في الوقت الحاضر إثم عظيم لعموم الآيات في وجوب الدعوة والبيان وعدم جواز كتمان العلم، ووجوب الجهاد والإلتحاق بالطائفة المنصورة إلى قيام الساعة.

(٢) التعويل على العمل الفردي، والجهود العلمية المتواضعة كنشر كتب العلم، وتحقيق بعض مسائل الخلاف والظن ـ أن ذلك يمكن أن يحقق أهداف الرسالة الإسلامية ويغير واقع الأمة وهذا قول ساقط مخالف لسنن الله في الخلق، ثم أنه قول خادع لأنه يوهم أصحابه أنهم من المجاهدين القائمين على الحق وليسوا كذلك؟ ثم إن اتباع هذا القول إذا ظنوا أن هذا هو الجهاد الواجب، وعمل الرسل وهونوا أو حقروا من شأن القيام في وجه الباطل ومحاربة أعداء الأمة بالكلمة والسيف، والجهاد الجماعي، فإنه عملهم قد ينقلب إلى الصد عن سبيل الله وتعويق مسيرة الجهاد في سبيله.

(٣) ومن الأقوال والمناهج الساقطة كذلك تحميل جماعة الدعوة كل صلاحيات وعمل الإمام العام، وإلغاء كل الأولويات والقفز فوق كل حاجز، والدخول إلى معارك يمكن تأخيرها والظن أن الوصول إلى النتائج يمكن أن يكون بغير الأسباب وكل هذا من الجهل بسنن الله في الكون والجهل بالواقع المعاصر، والسياسة الشرعية الواجب اتباعها حسب الظروف والملابسات.

(٤) ومن المناهج الجانحة في الدعوة تحويل العمل الجماعي ليكون هدفاً في ذاته يحقق المنافع المادية لأصحابه حيث تحمل الجماعة أفرادها إلى المناصب الدنيوية، وتتكالب على المراكز والمؤسسات جاعلة الدين وسيلة إلى الدنيا والدعوة في خدمة الأفراد والإسلام صيداً للدنيا وهذا من أعظم الفساد في الأرض والصد عن سبيل الله.

ولعله هذا أعظم ما زهَّد الناس في العمل الجماعي عندما رأوا بعض الجماعات بدلاً من أن تكون في خدمة الدين، حولت الدين ليكون في خدمة دنيا أفرادها.

(٥) من أسقط المناهج والأقوال في الدعوة جعل نصر الدين وخروج أهل الإسلام من محنتهم المعاصرة منوطاً بترك كل المؤسسات القائمة في المجتمع:

الجامعات، والمدارس، سواء منها ما يدرس الدين أو الدنيا، والوزارات كلها بلا استثناء، والمؤسسات جميعها حكومية أو أهلية، دنيوية أو دينية، والتحول إلى دراسة فرع أو أكثر من فروع العلم الديني مع العيش عالة على ما يتفضل به المحسنون. . والعجيب أن أصحاب هذا القول يقدمون برنامجهم هذا، وحلهم الإسلامي هذا لمعضلات الأمة الإسلامية على أنه الحل الذي لا حل غيره، والدين الذي لا دين سواه. . وهذا من أكثر المناهج سفاهة وجنوحاً.

(٦) وفي الساحة الإسلامية كذلك يعرض بعض الدعاة حلاً يقوم على الدعوة إلى المعروف فقط وترك النهي عن المنكر، وليسقط المنكر في زعمهم ـ من نفسه ـ وترك الجهاد كله بالسيف وكلمة الحق في وجه الظلم والكفر والطغيان.

ـ ومن أعظم المخاطر في مناهج الدعوة إلى الله التمسك بجانب من الحق وترك الجانب الآخر، وأخطر من ذلك رد الحق الذي يتمسك به الطرف الآخر. . ولو أن كل داع إلى الله لم ينكر الحق الذي عند الدعاة الآخرين لاكتملت الصورة، وعمل بكل الشريعة، وقام المسلمون بكل الدين، وتحمل كل منهم جانباً من الحق والواجب ولم نكن كما قال الله تعالى في بعض أتباع الرسل السابقة: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٥٣].

والإسلام لا يصلح إلا لمن حاطه من جميع جوانبه والدعوة إلى الله اليوم تحتاج إلى قتال بالسيف للعدوان على أمة الإسلام، ولا يجوز تأخير ذلك عن وقت الحاجة إليه، وتحتاج إلى جهاد اللصوص المتغلبة الذين يسطون على مال الأمة وأعراضها ودمائها، وتحتاج إلى أخذ على يد الذين يخرقون سفينتنا ويريدون قاصدين أو جاهلين ـ إغراق أمتنا.

وتحتاج الأمة إلى تعليم الجاهل، وتنبيه الغافل وردع المعاند المكابر، وتربية النشء على الدين وتخريج العلماء العاملين المخلصين، وكل عمل من ذلك يحتاج إلى ميدان وإلى رجال وجهاد ومال.

وسد الثغور المفتوحة على أهل الإسلام يحتاج إلى آلاف الرجال العاملين، وآلاف الآلاف من أموال المحسنين، وجهود آلاف الرجال المخلصين المصلحين،

وتحتاج كذلك إلى أن يكون الزمن جزءا من العلاج، وأن يعمل في صالحنا إذا كان التقدم في البناء من نصيبنا لا من نصيب أعدائنا ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٤٤].

وعلى الذين ما زالوا يمارون في مشروعية العمل الجماعي أن يتقوا الله فيما يقولون، وأن يقوموا بما أوجبه الله عليهم لنصرة الحق والدين.. ويعلموا أن الله سائلهم يوم القيامة عن أمة الإسلام التي باتت يستبيح اللصوص أموالها، وينتهك الفساق أعراضها، ويدوس الكفار مقدساتها، ويعيش فيها الإسلام غريباً في دياره، حزيناً في محرابه، ملاحقاً في السجون والمعتقلات، ويسير الكفر منتعشاً في ساحتها مزهوا في ميادينها.

ثم بعد ذلك يفتي من يفتي ويقول من يقول: لا يجوز اليوم أن يجتمع مسلم مع ثان وثالث ليقولوا كلمة حق، أو يتصدوا لظالم، أو يساعدوا محتاجاً أو يردوا عدواناً عن أمة الإسلام.. سبحانك هذا بهتان عظيم.

ألا إني أقول مرة ومرة: ليتق الله هؤلاء، ولا يلقوا القول على عواهنه، وليعلموا أن الله سائلهم عما فاهت أفواههم وألّفت أقلامهم من قول قد شل آلاف الآلاف من شباب الأمة عن الجهاد في سبيل الله ونصر دين الله، واعلاء كلمته في الأرض... فلينظر هؤلاء كم من شاب فتنوه، وكم من داع خذلوه، وكم من مريد للجهاد في سبيل الله أقعدوه. قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٨]. ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٤].

من للجهاد اليوم في فلسطين وأفغانستان وأرتيريا وجنوب السودان؟؟

من للدعوة اليوم في كل بلد تنتهك فيها حرمات الله، وينفخ فيها الشيطان، ويبيض فيها ويخرج الأفراخ والأعوان؟

وهل يتأتي هذا إلا بأن تهب الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها وهي تقول لبيك اللهم لبيك للجهاد ونصرة الدين!!

وختاماً أقول لهؤلاء المثبطين القاعدين: إذا رضيتم لأنفسكم القعود عن نصرة الدين فلا تجمعوا جريمة أخرى في تثبيط القائمين والمجاهدين.

اللهم أني أحب كل داع إليك، وكل باذل في سبيلك وكل عامل لإعلاء كلمتك في الأرض في أي ساعة من ليل أو نهار، اللهم فاجعل لي نصيبا مع كل هؤلاء لحبي لهم، ودعائي من أجلهم أن ينصرهم الله ويؤيدهم وأن يبارك في جهادهم.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر، الآية: ١٠].

الأصل السادس: وجوب تحديد الأهداف قبل شق الطريق

لا شك أن هم الدعاة إلى الله هو رفع الأمة إلى مستوى العمل بالإسلام، والعيش تحت ظلال القرآن، وتطبيق شرع الله في أرضه، باختصار عبادة الله وحده لا شريك له.

ولا شك أن هذه مهمة شاقة وعسيرة وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ البون الشاسع بين واقع الأمة الإسلامي الحالي، وبين شريعة الله عز وجل فقد تحولت أمة الإسلام الواحدة إلى أمم شتى، ودويلات متناثرة لكل دولة علم وسلطان وإمام، وقد تحول الولاء والبراء من موالاة المسلم للمسلم إلى الموالاة في المواطنة والدولة، بحيث أصبح من الجرائم التي يعاقب عليها القانون الانتقال من جزء من أرض الإسلام إلى جزء آخر دون الإذن الرسمي الذي وضعت له شروط وقيود وحدود تجعل الكافر في كثير من الأحيان مقدماً على المسلم، وتجعل المواطن ولو كان كافراً عربيداً مقدماً في الحصول على المنافع من المسلم التقي الصالح إذا كان غير مواطن.

ثم إنه في كثير من دول الإسلام قد حدث الفصال التام بين شريعة الله ونظام الحياة، فلا سياسة ولا اقتصاد ولا اجتماع، ولا أخلاق تحكمها شريعة القرآن وإنما شرائع الطواغيت والشيطان.

وهذا أمر يطول شرحه والمقصود أن أول ما يجعل مهمة الدعاة إلى الله عسيرة في الوقت الحاضر هو البون الشاسع بين واقع الناس، وبين المستوى الذي يدعو إليه كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

إن الوصول إلى الرأي الفقهي والحكم الشرعي (فيما يمكن عمله لنصر الدين) ليس أمراً سهلاً كما يتصوره الكثيرون؛ وذلك أن تعقيدات الواقع الذي نعيش فيه، والعلم بالمصالح والمفاسد وما يمكن تحقيقه وما لا يمكن، أمر ليس في إمكان كل

مجتهد؛ وذلك أن كثيراً من العلماء وطلاب العلم ربما يكونون على دراية ببعض علوم الكتاب والسنة، ولكن كثيراً منهم قد يكون في جهل كبير بواقع الناس، وحقيقة الأنظمة والقوانين التي تحكم هذا الواقع، ولا شك أن من يجهل الواقع لا يستطيع أن يهتدي إلى الحكم الشرعي الصحيح، والأسلوب الأمثل في كيفية الدعوة والجهاد.

ألا ترى أنه لو بعث فينا اليوم بعض أعلام السلف من الصحابة والأئمة وعرضنا عليه كثيراً من مشكلاتنا فإنه لا يستطيع أن يفتي فيها إلا بأن يعلم واقعنا الذي نعيشه.. فماذا لو سألنا مثلاً ابن عباس رضي الله عنهما أو أحد الأئمة الأربعة عن حكم الضمان الاجتماعي، وأعمال البنوك الإسلامية الحالية، والموقف الشرعي من الحكام المعاصرين، والنظرة الشرعية لقوانين الإقامة والجنسية، والحدود السياسية التي تفصل بين أبناء الأمة الإسلامية، وما هو السبيل الأمثل للتعامل اليوم مع القضية الفلسطينية والجهاد في أفغانستان.. إلى مئات بل آلاف المشكلات والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعترض مسيرتنا الإسلامية..

هل يستطيع أي علم من أعلام السلف، وأئمة الإسلام السابقين أن يفتنا في قضية، من هذه القضايا إلا بعد أن يعرف ويعلم ما هو الضمان الاجتماعي الذي نسأل عنه؟ وماذا تصنع البنوك الإسلامية اليوم؟ ومن هم الحكام المعاصرين وما موقفهم من شريعة الله ودين الإسلام؟ وما هي قوانين الإقامة والجنسية؟ وما معنى الحدود السياسية؟.. إلخ.

وهذا مثال فقط أضربه لنعلم أن مما يعقّد الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر أن الوصول إلى الحكم الشرعي الصحيح فيما يعترضنا من مشكلات ليس بالسهولة التي يظنها كثير من الناس لأن هذا يحتاج إلى علم بالكتاب والسنة أولاً، ثم دراسة وبصر بواقع الناس والمجتمعات وهذا لا يتيسر لكثير من طلاب العلم والعلماء. ونادراً ما نجد العالم العامل الفقيه الذي له بصر بدنيا الناس وواقعهم وله دراية وفهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣ـ وأما الأمر الثالث الذي يجعل نقل المسلمين إلى مستوى العمل بالإسلام صعباً شاقا. أن أعداء الإسلام المعاصرين قد استفادوا من تجارب المجرمين في كل

العصور السالفة، وقد أصبح إجرام اليوم منظماً مقنَّناً مدروساً، ثم إنهم قد استفادوا بمعطيات العصر ووسائله الحديثة في حربهم للإسلام. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٣].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٣١] لقد كان الإجرام وحرب الإسلام قديماً بسيطاً وبدائياً إذا قيس بإجرام اليوم وطرق الصد عن سبيل الله المعاصرة، فإجرام الأمس لم يكن يعرف الحرب النفسية، ولا الإعلام القذر، ولا الرصد الدائم، والإحصاء المستمر لكل تحركات المؤمنين، وتخزين هذه المعلومات في بطن (الكمبيوتر) الحاسوب، ولا بتجنيد أجهزة كاملة في الدولة لا عمل لها إلا مكافحة النشاط الديني.. إلخ.

وهذه الأمور الثلاثة هي بعض المعوقات والمشكلات التي تجعل عمل الدعاة إلى الله ومحاولاتهم نقل الأمة الإسلامية من واقعها المعاصر إلى أفق الكتاب والسنة أمراً مستعصياً. ومن أجل مجابهة هذا الواقع والتغلب عليه يجب علينا اتباع الآتي:

١ ـ الإيمان واليقين بأن الانتصار على هذا الواقع، ورفع الأمة إلى مستوى الكتاب والسنة يستحيل أن يكون إلا من خلال جهاد جماعي ينتظم جمهور أبناء الأمة الإسلامية حيث يكون كل فرد داعياً وكل داع له دور مخصوص وعمل معين يكمِّل به أعمال إخوانه الدعاة الآخرين. ولا شك أن من يظن أن ينتصر الإسلام، وتعلو كلمة الله بدعوات فردية متناثرة. كمن يظن أن يتغلب جيش للمسلمين لا خطة له ولا أمير ولا قائد وإنما جنود متفرقون يقاتلون كيفما اتفق ويقابلون جيشاً منظماً للعدو له قائد وخطة. فمن ظن أن مثل تلك الجموع المتفرقة التي لا قائد لها ولا نظام يمكن أن تتغلب على عدو له قائد وخطة ونظام فهو مدخول في عقله، جاهل بسنن الله سبحانه وتعالى.

وللأسف أن بعض الدعاة إلى الله يجادلون في هذه السنن الكونية، ويحاربونها بكل سبيل، ويدعون طلاب العلم والدعاة إلى الدعوة الفردية ويقولون هذه طريقة الرسول ﷺ!! ويزعمون أن رسول الله ﷺ انتصر على قريش، ودانت له العرب، وغزا

فارس والروم، ولم يكن له خطة ولا نظام، ولا أمة ولا جماعة!! ونجد بعض هؤلاء قد لا يمارس من أساليب الدعوة إلا مجرد نشر كتاب أو إلقاء درس.

ويظن أنه بذلك سيخرج اليهود من أرض الإسلام ويقيم شريعة الله في الأرض. ويحمي ديار الإسلام من المنافقين والفجّار.

وهؤلاء إلى جانب محاربتهم لسنن الله الكونية ومجافاتهم لسنة رسول الله القولية والعملية، وجهلهم بالسيرة والتاريخ بل بالبديهيات فهم مع ذلك ثرثارون متشدقون. قد يعلمون في قرارة أنفسهم أن الدين لا يُنصر إلا بجهاد للكفار والمنافقين. وأن الجهاد في سبيل الله لا يكون إلا بخطة ونظام وإمارة، وقيادة ولكنهم يغطُّون قعودهم بتلك الثرثرة الفارغة كقولهم: إن الوقت غير مهيىء، وإن من السياسة ترك السياسة، وأن الرسول ﷺ مكث ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد، وأن إيجاد الأمة يجب أن يكون قبل وجود القائد.. إلخ.

هذه الثرثرات الفارغة التي لا يراد من ورائها إلا القعود عن نصرة الدين، وتعليق أمل المسلمين بأسباب يعلم كل أحد أن الله لم يرتب عليها وحدها نصر الدين، ولا هزيمة الكافرين.

٢ـ وأما الأمر الثاني الذي لابد وأن يسلكه الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى فهو معرفة الهدف الذي يريدون الوصول إليه من كل فعل يبذلونه، ثم السعي وفق هذه الأهداف المرجوة، واتخاذ الأسلوب المناسب. فمثلاً لو كان هدفي من دعوة أحد من الناس أن يهديه الله ويوفقه للإسلام، فيجب عليَّ بعد ذلك أن أتخذ الأسباب الموصلة في العادة إلى ذلك كإلانة القول له، والاجتهاد في البيان والشرح، والنصح له كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه، الآية: ٤٤] وهذا الرجاء بحسب موسى لا بحسب الله سبحانه وتعالى، وذلك أن الله يعلم أن فرعون لا يهتدي، ولكنه أمر موسى عليه السلام بإلانة القول له، لأن لين القول هو الذي يمكن في العادة من أن يقرِّب الخصم، ويليِّن القلب، وأما لو كان هدفي من دعوة الشخص أن ألقمه الحجر فقط، وأقيم عليه الحجة وكفى فإنني سأتخذ الوسيلة المناسبة من البيان مع الزجر، والتوبيخ والتقريع، والذم الحامل على الإغاظة والإحناق

وهكذا. . . وانظر إلى سياسة الرسول ﷺ من قريش لقد كان همه ﷺ جذبهم للإسلام، وإرشادهم إليه، والإبقاء على قوتهم والبعد عن إذلالهم؛ لما كان يرجوه ﷺ من أن يكونوا عصب الدين، وقبيلة الإسلام، ورجال الحكم من بعده، ولذلك لم يتعمد قط إذلالهم ولا تنفيرهم من الدين، ولا تحطيم قوتهم، ومن ذلك أنه ﷺ لم يستعجل العذاب لهم، والدعاء عليهم، وأخذه الفداء من أسراهم في بدر، واللين معهم في صلح الحديبية، والعفو عنهم في الفتح، وتولية المناصب العليا لهم بمجرد إسلامهم كما فعل مع خالد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل. . إلخ وشرح هذا يطول والمهم هنا هو كشف جانباً من السياسة النبوية الحكيمة في الدعوة إلى الله والتي كانت نابعة من أهداف موضوعة ومقاصد بعيدة، وتخطيط وبصيرة، ولم تكن مجرد أعمال متناثرة لا رابط لها، ولا فقه ولا فهم وراءها. وإنما كانت سياسة مبنية على نظر في العواقب، وتقدير للأمور وتخطيط للمستقبل. . وقد شرحنا بحمد الله جانباً عظيماً من هذه السياسة النبوية الكريمة في الدعوة إلى الله في كتابنا (فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله).

والقصد هنا البيان أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون في إطار خطة موضوعة وسياسة رشيدة، ونظر في العواقب والخواتيم، واختيار للأسلوب الأمثل الموصل للغرض والهدف.

والخلاصة: يجب على الدعاة إلى الله أن يعرفوا أهدافهم التي يريدون الوصول إليها، وأن يدرسوا ذلك بعناية عظيمة ثم يتخذوا بعد ذلك الأسلوب والطريق والوسيلة التي توصل إلى هذه الأهداف.

هذا بنظري أهم ما يجب على الدعاة إلى الله اليوم إدراكه من أجل جعل هذا الدين واقعاً في حياة الأمة الإسلامية وهو باختصار أنه يستحيل نصر الدين بغير الأسباب التي جعلها الله أسباب لنصر الدين كالجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، وقتال الكفار، وقمع المنافقين، وبناء أمة الإسلام بالتربية والتزكية والتعهد والرعاية، ثم بوجوب معرفة كل هدف يراد الوصول إليه، ومن ثم اتخاذ الأسلوب والوسيلة المناسبة، وأما الدعوة العشوائية بلا أهداف مرسومة، ولا خطة موضوعة، فإنما هو خبط عشواء، وإلهاء للنفوس، وتغرير بالأماني الكاذبة، وعيش في الأحلام، ومخالفة لسنن الله.

الأصل السابع : القرار في جماعة الدعوة للإجماع ثم للأكثرية وللسواد الأعظم

قدمنا في الفصول السابقة من أصول العمل الجماعي أن أهداف الإسلام النهائية بعيدة عن التحقيق بالنظر إلى واقعنا المعاصر. فأين نحن اليوم من قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣٩]!!.

فالخضوع اليوم يكاد أن يكون في الأرض كلها لغير الله سبحانه وتعالى إلا مواقع قليلة.. ولا شك أن تحقيق هذه الغاية النهائية للدين لا يتحقق إلا بجهاد إسلامي يسع الأرض كلها ويكون بحجم التحديات التي تواجه هذا الجهاد.. ومن أجل ذلك قلنا أنه لا جهاداً حقيقياً يُغَيّر الواقع إلا الجهاد الجماعي والعمل المتواصل الذي يكمل فيه اللاحق ما بدأ فيه السابق... ويكون فيه الآخرون على درب الأولين.

وذكرنا أيضاً أن لا جماعة إلا بطاعة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا من بديهيات الأمور على كل حال، وذكرنا أيضاً أن الأمر والقرار الشرعي لابد وأن يكون صادراً عن علم بالشريعة، ومعرفة بالواقع المعاصر.. وأن من علم الأحكام الشرعية ولم يعلم الواقع أنزل الآيات والأحاديث على غير منازلها ووضعها في غير مواضعها، ومن علم الواقع ولم يعلم الشريعة كان كمن علم الداء ولم يعلم الدواء فإنه يداوي بغير طب، وقلنا كذلك إن القرار والأمر يجب أن يكون صادراً وفق قواعد الاجتهاد الشرعي والمعرفة بالمصالح والمفاسد. وهذه قضية أشرنا إليها إشارة، وتفصيلها في غير هذه الرسالة.

واليوم نأتي إلى قضية هامة من قضايا العمل الجماعي وهي من يملك القرار في جماعة الدعوة؟

والجواب أننا بحمد الله نظرنا طويلاً في هذا الأمر وقد ألفت فيه رسالة منذ سبعة عشر عاماً تقريباً بعنوان (الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي) وكان فيها فصل خاص بالفروق الأساسية بين جماعة الإسلام وجماعة الدعوة. وقد وصلنا منذ ذلك الوقت، وزادتنا الأيام والأحداث علماً ـ إلى الحقائق التالية:

١ـ أنه لم يوجد ولا يوجد الرجل الذي أحاط علماً بكل أحكام الدين، وبواقع أمة الإسلام، ويستطيع أن يصف الدواء لكل علة، والقرار الصائب في كل مشكلة، وإن كان يوجد هذا الرجل فلا بد أن يكون رسولاً لا ينطق عن الهوى، ويوحى إليه في كل أمر. ومع أن هذا لا ينطبق إلا على رسول الله ﷺ فقط فإن الله سبحانه وتعالى أمره بالرجوع لأصحابه ومشاورتهم فقال له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ الآية... [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

والآيات هذه نزلت بعد أحد، وكان من شأن الشورى في هذه الغزوة أحد أسباب الهزيمة، ومع ذلك أمره سبحانه وتعالى أن يشاور أصحابه.. وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في كل وقائع التطبيق تقريباً، كأخذ الفدية في بدر، ومصالحة غطفان في الخندق، وتأمير الأمراء، ونحو ذلك من مصالح المسلمين العامة، بل ومن أمور الرسول الخاصة كحادث الإفك... وكذلك كان الشأن في خلفائه الراشدين من بعده.

٢ـ لا يجوز للإمام أن يخالف رأي جمهور الأمة:

والمطلع في سيرة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين يجد أنه ليست هناك واقعة واحدة خالف فيها رسول الله ولا خلفاؤه الراشدون ما يشير به جمهور الأمة، بل صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بكر وعمر: [لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما] وقد رجع رسول الله إلى رأي جمهور أصحابه وإن كان على خلاف رأيه في وقائع كثيرة منها الخروج إلى الكفار في أحد، والبقاء على حرب الكفار في الطائف، والعدول عن مصالحة غطفان في الخندق، علماً أن الرسول كان قد أبرم الصلح وكتب العهد ولكنه لم يوقع عليه بعد... وكذلك الحال مع خلفائه الراشدين ولا يعرف حالة واحدة انفرد الإمام فيها بالرأي وخالفه جمهور الناس وأمر الناس بعد ذلك بطاعته.

والنصوص القرآنية والحديثية قاضية بذلك. فقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

[سورة الشورى، الآية: ٣٨] ظاهر في أنه لا يجوز للإمام أن يقطع برأيه دون المسلمين، ولا يجوز أن يلزمهم برأيه الذي يخالفونه ويعارضونه، وكذلك قول الرسول ﷺ لكل أمير يوليه سرية أو جيشاً: [وإن أنت استنزلت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلهم على حكم الله وحكم رسوله لأنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله وحكم رسوله أم لا ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك] (رواه مسلم). فقوله ﷺ: [ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك] ظاهر أنَّهُ لابد من اجتماع الآراء في ذلك أو اتفاق معظمهما على الأقل حتى يصدق فيه قول رسول الله ﷺ: [ولكن على حكمك وحكم أصحابك]..

وهذا النص يصلح مستنداً أن الجماعة الصغرى يجب أن تكون في هديها واجتهادها على نمط الجماعة الكبرى. وعلى كل حال إذا كان هذا هو المسلك في الجماعة العامة فإنه في الجماعة الخاصة أولى؛ لأن الإلتزام فيها اختياري وتلك الإلتزام بها جبرياً مفروضاً.

٣ـ المصلحة الشرعية تقتضي إلزامية الشورى:

ولا شك أن المصلحة الشرعية تقتضي إلزامية الشورى ووجوب العمل برأي الأغلبية؛ لأن هذا أولاً أدعى للبعد عن الاستبداد وسد ذرائع اتباع الهوى والمنافع الخاصة، وجعل المسؤولية مسؤولية جماعية، وتحميل الأمة والجماعة نتيجة قرارها، وسد باب الطعن في الأمراء، وتحقير اجتهادهم.. وهو كذلك من أعظم أسباب لمِّ الشمل ووحدة الكلمة، وعدم الاعتراض على الأمر لأنه يكون صادراً بجمهور المستشارين، ورضا الأمة والجماعة... ثم إن الإمام العام أو الأمير الخاص هو في النهاية فرد من الأفراد قد يكون له من إخوانه ورعيته أكفاؤه وأمثاله، بل قد يكون هناك من هو أكفأ منه، ولكن الظروف حالت دون جعله في الصدارة. فلماذا إذن يصبح رأيه هو الفيصل الذي لا رأي بعده؟ ولماذا إذا أجمعت الأمة أو اتفق جمهور المهتدين على رأي كان له أن يخالفهم ويمضي أمره، وتلزم الأمة أو الجماعة به؟ إن هذا يؤدي في النهاية إلى ما ذكرنا من الفساد والفرقة والخلاف..

ولا شك أنه لا يجوز في هذا الصدد أن نستدل بقوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن

فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٦] وقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠٣] ونحو ذلك من الآيات لأنه استدلال الجهلاء السخفاء الذين ينزلون القرآن في غير منازله. . فإنَّ هذه الآيات تبين أن أكثر الناس يبقى على عناده وكفره ولا يتبع الحق، ويدخل في الإسلام. وأما ما نحن بصدده فهو أن نسبة الصواب مع جمهور المهتدين أكثر منه مع الواحد والاثنين، ولا يمنع أن يكون أحد المهتدين أحياناً معه الحق دون جمهورهم ولكن هذا شذوذ وندرة. فلا شك أن عامة المسائل التي اتفق عليها جمهور الصحابة مثلاً كان الحق معهم دون من شذ منهم، ولا يمنع أن يكون الحق مع القليل أحياناً ولكنه كما قلنا شذوذ عن القاعدة. والشاذ كما يقال لا حكم له. ومعلوم أن الصحابة قد أخذوا في جمع القرآن بقول الكثرة والتواتر، وتركوا نقل الواحد والاثنين وهذا منهم عمل برأي الأغلبية.

*** والخلاصة أن المصلحة الشرعية بكل أبعادها تقتضي اليوم أن يكون القرار النهائي لإجماع الأمة، ثم جمهورها ولا يجوز بتاتاً ـ قطعاً لدابر الفرقة ـ أن يكون القرار النهائي للفرد مهما كان هذا الفرد علماً وورعاً ومعرفة بالواقع؛ لأنه لا يوجد المعصوم، وبالتالي فالاجتهاد الجماعي دائماً أقوى من الاجتهاد الفردي، ونسبة الحق مع الجماعة أكبر منه مع الواحد.**

ثم إن المؤسسات أبقى من الأفراد فعمر الأفراد محدد وقليل، وعمر الأمم والجماعات أطول من هذا بكثير، ودوام الأمة والجماعة هو بدوام الألفة والمحبة، ولا ألفة ولا محبة إلا في ظل القرار الجماعي الذي يشعر الجميع أنهم قد شاركوا وأسهموا فيه، وأن رأي الأغلبية هو المقدم في النهاية على رأي الفرد والأقلية.

وهنا نأتي إلى السؤال المعروف: ومن له الحق في الشورى؟

هل الأمة كلها؟ فهذا متعذر أو مستحيل، وفي الجماعة: هل هم الأفراد جميعاً؟ وهذا كذلك صعب أو متعذر.

والجواب أنه بالنظر إلى الشريعة المطهرة يتضح الآتي:

١ ـ أن الأمور الشورية هي في مجالات التطبيق فقط وما يسميه علماء الأصول

بتحقيق المناط فأصول الأحكام ليست محلاً للنظر والاجتهاد كحرمة الخمر والزنا، ووجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج.

٢ـ أن الشريعة لم تحدد من الذين يستشارون في الأمر؟ وكم عددهم؟ وكيف؟ وإنما تركت ذلك للاجتهاد. وقد رأينا أن الرسول كان يستشير خلاصة أصحابه كالصديق والفاروق ومن له اختصاص بالأمر المشاور فيه. وكذلك كان الصديق رضي الله عنه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاور كبار المهاجرين أولاً، ثم كبار الأنصار، ثم مشيخة قريش على الترتيب.. وكان إذا اتفق فريق منهم على شيء أمضاه، وكان قراء القرآن وأهل العلم به هم خاصته ومستشاروه. ونخلص من ذلك أن سن القوانين التي تحقق هذا الهدف بالصورة المثلى هو المطلوب، وأن الكيفيات متروكة للاجتهاد والمهم هو حصول النتائج وأن تكون الشورى وأن يكون الالتزام بالحق وأن يكون الرأي في النهاية للأمة؛ لأنها هي التي ستتحمل آثار القرار، ولا شك أن حال جماعة الدعوة لا تختلف كثيراً عن ذلك.

(والمسلمون عند شروطهم) كما قال رسول الله ﷺ.

ولا شك أنه كلما اتسعت دائرة الشورى، وكان الرأي لأهل الاختصاص، وتحمل الجميع تبعة القرار كلما كان هذا أدعى إلى الألفة والوئام.

والخلاصة أن القرار في جماعات الدعوة يجب أن يكون قراراً جماعياً مدروساً، قد انبنى على فهم دقيق بالواقع المعاش، وعلم عميق بالشريعة المطهرة، ونظر في العواقب وتقدير للمصالح والمفاسد.

ولا شك أن القرار الذي صدر محققاً ذلك سيكون قراراً في مكانه، وسيتحمل الجميع نتائجه بصدر رحب؛ لأنه صدر منهم وشاركوا فيه، وبالتالي يجب أن يتحملوا نتائجه.

كتاب

شيخ الإسلام ابن تيمية

والعمل الجماعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذي بنوره تتم الصالحات، والصلاة والسلام على النبي الجامع لكل خصال المكرمات، قائد الأمة، وإمام المتقين، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن سار على سنته إلى يوم الدين. وبعد

فقد كتبت رسالة بعنوان (مشروعية العمل الجماعي) أَرُدُّ بها على من زعم أنه لا يجوز أن يجتمع جماعة من المسلمين على عمل من أعمال الدين كمساعدة المحتاجين، ورد عدوان من الكافرين، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو نشر لرسالة الإسلام، أو نحو ذلك من فروض الكفايات التي أوجبها الله سبحانه على الأمة..

وقد كانت رسالة نافعة شافية بحمد الله لبيان مشروعية العمل الجماعي.. ولكن بعض الأخوة لما اطلع عليها طلب مني إضافة بعض الوقائع من سيرة السلف الصالح. وبعضهم أيضاً طلب تأصيل وبيان منهج العمل الجماعي وبيان كيفياته، وخاصة أن هناك من الجماعات الإسلامية الدعوية من تتبنى أسساً وقواعد في الدعوة لا سند لها من الكتاب والسنة بل قد تكون معارضة لما جاء في الكتاب والسنة..

وقد رأيت أن هذا من واجبي، ولكنه يحتاج إلى كتابة فصول كثيرة، ولما كان الوقت لا يتسع لمثل هذا دفعة واحدة فإني سأحاول إن شاء الله إنزاله على حلقات في شكل رسائل صغيرة حتى إذا اكتملت كانت كتاباً كاملاً شافياً في الموضوع إن شاء الله تعالى.

وبينما أنا بصدد كتابة بعض هذه الفصول إذ سمعت شريطاً مسجلاً لبعض طلاب

العلم يرد فيه بطريقة الغوغاء والدهماء على رسالتي المذكورة، ويذكر في جملة ما يذكره أن علماء الإسلام لم يكن أحد منهم يعمل في جماعة، ونص بالخصوص على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. ولما كان هذا القول ينم عن جهل كبير بتاريخ أمة الإسلام، وأعلام السلف، وجهادهم جيلاً بعد جيل؛ فإنني شرعت أوضح جانباً من الحياة العملية لأعلام السلف الذين جاهدوا في إطار الجماعة العامة (جماعة الإسلام)، وكذلك في إطار الجماعة الخاصة (جماعة الدعوة) وقد رأيت أن أبسط هذا الموضوع من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، فهذان الشيخان يعطيان المثل والنموذج الأوفى لمفهوم العمل الجماعي في الإطار العام، والإطار الخاص، ثم لأن هذين الرجلين يمثلان القدوة المثالية عند عامة الشباب المسلم في وقتنا المعاصر.

وهذه الرسالة التي بين يديك أيها القارىء الكريم توضح الجانب العملي الجهادي (الحركي) من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكيفية عمله في إطار الجماعة الإسلامية (جماعة المسلمين) وكذلك في إطار جماعته الخاصة من أصحابه وأتباعه ومؤيديه.

ولعل الله أن يكشف بهذه الرسالة الغشاوة التي ما زالت تغطي عيون كثير من طلاب العلم الشرعي، وتنير السبيل للدعاة إلى الله ليأتسوا بإمام جليل عاش عصراً مليئاً بالفتن والأحداث يشابه إلى حد كبير عصرنا الذي نعيش فيه، واستطاع ـ رحمه الله ـ أن يجنب أمة الإسلام ـ بفضل الله ـ كثيراً من الشرور وأن يضع لأهل الإسلام الضوابط والقواعد والأصول الشرعية للجهاد الإسلامي في مثل هذه الفتن والأحداث.

هذا والله المسئول أن يجعل هذا في سبيله ومن أجله إنه هو السميع العليم.

كتبه

عبدالرحمن بن عبدالخالق

الكويت ٢٢ من ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ

الموافق ٢٢ من أكتوبـــر سنة ١٩٨٩م

أولاً: الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية
كان قائد جماعة خاصة

كل من يدرس بإمعان سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية سيجد أنه كان قائد جماعة تلتزم بأمره، وتعمل بمشورته وتصدر عن رأيه وتعيش معه سراءه وضراءه، ويأخذها الظلمة بما ينقمون على الشيخ، وتحارب تحت لوائه، وتتواصل معه بكل أنواع الصلات. وإليك البيان لكل ذلك:

١ـ الشيخ يرسل رسالة إلى جماعة من داخل السجن:

١ـ كتب شيخ الإسلام وهو في سجن الإسكندرية رسالة إلى (جماعته) هذه يقول فيها:

«﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [سورة الضحى، الآية: ١١] والذي أُعَرِّف به الجماعة ـ أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة فإني ـ والله العظيم الذي لا إله إلا هو ـ في نعم من الله ما رأيت مثلها قط في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى أبواب فضله، ونعمته وخزائن جوده، ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال. . »الخ، وبعد أن يسترسل الشيخ في بيان نعم الله على العبد المؤمن إذا ابتلاه يقول: «وأنا في هذا المكان (يعني سجن الإسكندرية) أعظم قدراً وأكثر عدداً ما لا يمكن حصره وأكثر ما ينقص عليّ الجماعة!! فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم. . » الخ.

ويسترسل الشيخ ـ رحمه الله ـ في رسالة من أعظم رسائله في بيان عذوبة البلاء في سبيل الله وما فيه من الخير لعباده. يسترسل قائلاً لجماعته:

«والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير كثير، ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله وإن لم يكن خدمة الجماعة باللقاء، فأنا داع لهم بالليل والنهار قياماً ببعض الواجب من حقهم وتقرباً إلى الله تعالى في معاملته فيهم..» الخ.

ثم يوجه إليهم ـ رحمه الله ـ لا أقول موعظته بل (أوامره) على حد تعبيره:

«والذي آمر به كل شخص منهم أن يتقي الله ويعمل لله مستعينا بالله مجاهداً في سبيل الله ويقصد بذلك أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله» أ.هـ ـ (الفتاوي ج٢٨ ص٣٠ـ٤٦).

٢ـ رسالة أخرى للشيخ من السجن يوضح فيها سبب استعماله الخشونة مع بعضهم أحياناً:

وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة أخرى من السجن أيضاً يعتذر فيها لبعض أفراد جماعته من أنه قد يستخدم (الخشونة) والشدة مع بعضهم أحياناً من أجل تقويمه (وتنعيمه) ـ على حد تعبيره ـ، ويبين منهجه ـ رضي الله عنه ـ في التربية والقيادة، ومثل هذه الرسالة لا تصدر إلا من قائد ومرشد لأتباعه. وهاك بعض المقتطفات من هذه الرسالة: «**وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي، فتعلمون ـ رضي الله عنكم ـ أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ـ فضلاً عن أصحابنا ـ بشيء أصلاً، لا باطناً ولا ظاهراً**، ولا عندي عتب على أحد منهم. ولا ألوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة، والإجلال والمحبة، والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو الرجل: إما أن يكون مجتهداً مصيباً أو مخطئاً، أو مذنباً. فالأول: مأجور مشكور. والثاني مع أجره على الاجتهاد: فمعفو عنه مغفور له. والثالث: فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين.

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان قصر، فلان ما عمل، فلان أوذي الشيخ بسببه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كيد فلان. ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب والأخوان. فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل مثل هذا يعود على

قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة وممن يغفر الله له إن شاء الله. وقد عفا الله عما سلف.

وتعلمون أيضاً: **أن ما يجري من نوع تغليظ، أو تخشين على بعض الأصحاب والأخوان**: ما كان يجري بدمشق ومما جرى الآن بمصر فليس ذلك عضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض. بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً وأنبه ذكراً وأحب وأعظم، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح الله بها بعضهم بعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى. وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما يحمد معه ذلك التخشين.

وتعلمون: أننا جميعاً متعاونون على البر والتقوى، واجب علينا نصر بعضنا بعضاً أعظم ما كان وأشد. فمن رام أن يؤذي بعض الأصحاب أو الأخوان، لما قد يظنه من نوع تخشين ـ عومل به بدمشق أو بمصر الساعة أو غير ذلك ـ فهو الغالط. كذلك من ظن أن المؤمنين يبخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر، فقد ظن ظنّ سوء ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة النجم، الآية: ٢٨] وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة أو قبل الساعة إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت عليه وأجل وأرفع). أ. هـ ـ (الفتاوي ج٢٨ ص٥٢ـ٥٦).

فهل بعد ذلك يظن ظان أن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كان مجرد عالم يلقي درساً ويمضي، حاشاً وكلا. بل كان قائداً وإماماً لجماعة عاملة قائمة للدعوة والجهاد في سبيل الله متآلفة ومتعاونة ينصر بعضها بعضاً ويوالي بعضها بعضاً.

وكان شيخ الإسلام رحمه الله يقوم بما تقتضيه الأمانة والولاية الدينية نحو هذه الجماعة من الرعاية والتقويم والنصح لله وفي الله. وانظر قوله **«وتعلمون أنّا جميعاً متعاونون على البر والتقوى، واجب علينا نصرة بعضنا بعضاً أعظم مما كان وأشد»** وقوله **«وما غاب عنا أحد من الجماعة أو قدم إلينا الساعة أو قبل الساعة إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كان وأشد»** وقوله **«إن ما يجري من نوع تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والأخوان. فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه»**. . الخ.

٣ـ جماعة الشيخ تغيّر المنكر باليد أحيانا:

يقول ابن كثير أيضاً: (في أحداث سنة ٦٩٩هـ) «وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك، وكان يُخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء. **وفي بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف وأراقوا الخمور وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، وفرح الناس بذلك**» أ. هـ.

وهذا نص واضح أن الشيخ رحمه الله كان يخرج هو وأصحابه فيكسرون آنية الخمور ويشققوا الظروف (وهي القِرَب وأمثالها التي فيها الخمر) ويريقونها، وأنهم كانوا يعزرون أصحابها والتعزير هنا يقتضي الضرب ونحوه. فأي مثال أبلغ من هذا أنه كان للشيخ **جماعة** وأنصار وأصحاب وأعوان يقتدون بفعله ويأتمرون بأمره.

ولا شك أنه لم يكن كل الناس موافقين لما يقوم به شيخ الإسلام والحال أنه مجرد عالم محتسب ليس موظفاً عند الدولة ولا هو تابع لأحد الأمراء فكيف يمارس هذه السلطات، ولذلك حسده الكثير من المشايخ العاطلين عن العلم والفضل والعمل، وكذلك الأوباش من أهل الفسق ثاروا عليه كما يروي ابن كثير (في أحداث عام ٧٠١هـ) «وفي هذا الشهر **(شهر شوال من عام ٧٠١هـ) ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم ثم سكنت الأمور**» أ. هـ (البداية ص١٩ ج١٤).

وفي هذا النص دليل على أن الشيخ رحمه الله كان يرى مشروعية إقامة الحدود، وتعزير الخارجين على حكم الكتاب والسنة ولا شك أن الشيخ رحمه الله كان يفعل ذلك مستنداً إلى قبوله لدى عامة الناس، وإلى جماعته وكثرة أتباعه، وكذلك إلى هيبته عند بعض ذوي السلطان ممن كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة أو يميلون إلى ذلك وأما الحلولية والصوفية والمقلدة من أعداء الدليل والحق فإنهم حسدوا الشيخ وثاروا عليه مراراً، وألّبوا عليه بعض جهلة الأمراء والسلاطين ممن ينفرون من

مذهب أهل السنة والجماعة، وكان على رأس هؤلاء نصر بن المنبجي الذي كان على معتقد ابن عربي الإلحادي الاتحادي القائل بوحدة الوجود وكذلك بعض القضاة مقلدة المذاهب من أمثال ابن مخلوف قاضي المالكية، فإن هؤلاء وغيرهم كثيرون جداً حسدوا الشيخ، وبالغوا في أذاه والوشاية به، وأقاموا في وجهه عاصفة إثر عاصفة وزوبعة بعد أخرى، ولكن الشيخ ما كان ينحني لعاصفة أو زوبعة قط.

٤ ـ علماء السوء يحسدون الشيخ من أجل كثرة أتباعه وجماعته:

يقول ابن كثير رحمه الله: «**وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه في الحق، وعلمه وعمله، ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم ثم اتفق** أن الشيخ جمال الدين المزي الحافظ قرأ فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري، تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه القاضي الشافعي بن صصري وكان عدو الشيخ فسجن المزيّ، **فبلغ الشيخ تقي الدين، فتألم لذلك وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هناك فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزي** فحلف ابن صصري لا بد أن يعيده إلى السجن وإلا عزل نفسه فأمر النائب بإعادته تطييباً لقلب القاضي فحبسه عنده في القوصية أياماً ثم أطلقه. ولما قدم نائب السلطنة ذكر له الشيخ تقي الدين ما جرى في حقه وحق أصحابه في غيبته فتألم النائب لذلك، ونادى في البلد أن لا يتكلم أحد في العقائد ومن عاد إلى تلك حل ماله ودمه ورتبت (أي صودرت) داره وحانوته، فسكتت الأمور. وقد رأيت فصلاً من كلام الشيخ تقي الدين في كيفية ما وقع في هذه المجالس الثلاثة من المناظرات» (البداية ص٣٧ ج١٤).

٥ـ اتباع الشيخ يسجنون من أجل قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والشواهد في هذا النص كثيرة على أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان

يعيش في كثرة من الأتباع والأنصار والأصحاب، وأنهم قاموا معه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان، وأنهم عُزِّرُوا وسُجِنُوا، وأن الشيخ رحمه الله كان له من الهيبة والقوة والسلطان ما يستطيع به أن يذهب بنفسه ليخرج أصحابه من السجن!!، ولا شك أن الشيخ رحمه الله وجماعته كانوا يلاقون العنت والقوى المناوئة الكثيرة، وكانت الأيام معهم دول، فقد يفلحون في إزالة منكر الآن ثم يعيده أهل القوى المضادة أنصار البدع والمنكرات، كما ذكر ابن كثير في (أحداث عام ٧٠٦هـ) **أن صلاة الرغائب المبتدعة التي كانت تصلى في النصف من شعبان رجع الناس إليها مرة ثانية بعد أن كان شيخ الإسلام قد أبطلها لمدة أربع سنين** (البداية ص٤١ ج١٤).

وكذلك يروي الإمام ابن كثير رحمه الله في أحداث (سنة ٧٢٦هـ) قال: «وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي **القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ ابن تيمية في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم(!!) وعزر جماعة منهم على دواب (والمعنى يطاف بهم في الأسواق على دواب ليشهر بهم أمام الناس جميعاً)، ونودي عليهم ثم أطلقُوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة)** (البداية ص١٢٣ ج١٤).

فهذه من الأيام التي كانت عليهم وأما من الأيام التي كانت لهم فيروي ابن كثير أيضاً (في أحداث سنة ٧٠٢هـ): «وفي يوم الاثنين رابع الشهر (من رمضان) رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالتصر (في موقعة شقحب التي كانت مع التتار) **وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد**». (البداية ص٢٥ ج١٤).

ولكن عادت الشدة عليهم ثانية في أواخر حياة شيخ الإسلام فيروي ابن كثير (في أحداث سنة ٧٢٦هـ): «وفي يوم الأربعاء عشر القعدة **درّس بالحنبلية برهان الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي بدلاً من شيخ الإسلام ابن تيمية وحضر عنده القاضي الشافعي وجماعة من الفقهاء وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين**»!! (البداية ص١٢٤ ج١٤).

والخلاصة أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان إمام أمة، يطبق الحدود الشرعية فيما يستطيعه ويغير المنكر باليد واللسان ويبث أنصاره ودعاته في كل مكان، وكانت الأيام معه ومع أعدائه دول: مرة يتغلب عليهم ومرة يغلبونه ويقهرون أصحابه وجماعته ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٠] لكن لا شك أن العاقبة كانت له فقد أحيا أمة وسنة، وأمات باطلاً وبدعة، ورد أعظم عدوان على أمة الإسلام من التتار والصليبيين والملاحدة والباطنيين، وكما هزمهم في سوح المعارك هزمهم كذلك في ميادين الحجة والبيان ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٨].

وقد بارك الله في أثره وقطع دابر أعدائه ومحا ذكرهم من الأرض وأبقى ذكره الحسن إلى آخر الدهر.

وكان شيخ الإسلام في كل ذلك قائد جماعة، ومرشد أمةٍ، وفارس معركة، ومربياً لجيل عظيم من الدعاة والعلماء، والعباد المخلصين، وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان للجيل المثالي الذي رباه هذا العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ورضي عنه.

ثانياً: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
يتصرف تصرف الإمام العام
ويعلن الجهاد على التتار ويستنفر الأمة

الأمر الثاني الذي يَدُلُّكَ على أن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ لم يكن مجرد عالم له تلاميذ يتلقون عنه العلم، ويقبع في مسجد من مساجد المسلمين أنه قام بدور الإمام العام في غيبة الإمام العام الراشد، وأعلن الحرب على التتار وأفتى بكفرهم وإن اعتنقوا الإسلام وتظاهروا به، واستنفر الشعوب الإسلامية لملاقاتهم وحربهم، وقام يحث أمراء المسلمين المتفرقين، وأفتى بوجوب التصدي للتتار الذين يدعون الإسلام. وتصرف شيخ الإسلام في كل ذلك تصرف مرشد أمة، وقائد جماعة من الأنصار، وإمام عامّةٍ وإليك ما يدل على ذلك.

١ ـ بيان عام من الشيخ يستنفر فيه الأمة لقتال التتار:

هذه أولاً رسالة عامة يرسل بها الشيخ إلى كل مؤمن ومسلم تصل إليه يقول فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين ـ أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليهم نعمه باطنه وظاهره، ونصرهم نصراً عزيزاً، وفتح عليهم فتحاً كبيراً، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، وجعلهم معتصمين بحبله المتين، مهتدين إلى صراطه المستقيم ـ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله

إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على صفوته من خليقته، وخيرته من بريته، محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً».

وبعد أن بين لهم ـ رحمه الله ـ ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، وما منّ الله به على أمة الإسلام من الخيرية ويأمرهم بشكر الله على نعمة الإسلام ويخبرهم أن الأمة بعد رسول الله ﷺ انقسمت إلى عامل بما جاء به الرسول ﷺ من الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيله ومنقلبين على أعقابهم، مرتدين عن الإسلام.

أ ـ أقسام الناس بحب الدين:

أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يفصل الواقع ويقسم الناس الموجودين في عهده بحسب التزامهم بالإسلام وارتدادهم عنه ومَنْ مِنَ الفرق هكذا ومَنْ مِنَ الفرق كذلك، وما الواجب نحو كل طائفة.

فقال رحمه الله:

«وما أنزل الله في القرآن من آية إلا وقد عمل بها قوم، وسيعمل بها آخرون. فمن كان من الشاكرين الثابتين على الدين، الذين يحبهم الله عز وجل ورسوله؛ فإنه يجاهد المنقلبين على أعقابهم، الذين يخرجون عن الدين، ويأخذون بعضه ويدعون بعضه، كحال هؤلاء القوم المجرمين المفسدين، الذين خرجوا على أهل الإسلام، وتكلم بعضهم بالشهادتين، وتسمى بالإسلام من غير التزام شريعته؛ فإن عسكرهم مشتمل على أربع طوائف:

كافرة باقية على كفرها: من الكرج، والأرمن، والمغل.

وطائفة مسلمة ارتدت عن الإسلام، وانقلبت على عقبيها: من العرب، والفرس، والروم، وغيرهم. وهؤلاء أعظم جرماً عند الله وعند رسوله والمؤمنين من الكافر الأصلي من وجوه كثيرة. فإن هؤلاء يجب قتلهم حتماً ما لم يرجعوا إلى ما خرجوا عنه، لا يجوز أن يعقد لهم ذمة، ولا هدنة، ولا أمان، ولا يطلق أسيرهم، ولا يفادى بمال ولا رجال، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، ولا يسترقون مع بقائهم على

الردة بالاتفاق. ويقتل من قاتل منهم، ومن لم يقاتل؛ كالشيخ الهرم، والأعمى، والزَّمِنِ، باتفاق العلماء. وكذا نساؤهم عند الجمهور.

والكافر الأصلي يجوز أن يعقد له أمان وهدنة، ويجوز المنّ عليه والمفاداة به إذا كان أسيراً عند الجمهور، ويجوز إذا كان كتابياً أن يعقد له ذمة، ويؤكل طعامهم، وتنكح نساؤهم، ولا تقتل نساؤهم إلا أن يقاتلن بقول أو عمل، باتفاق العلماء. وكذلك لا يقتل منهم إلا من كان من أهل القتال عند جمهور العلماء، كما دلت عليه السنة.

فالكافر المرتد أسوأ حالاً في الدين والدنيا من الكافر المستمر على كفره. وهؤلاء القوم فيهم من المرتدة ما لا يحصي عددهم إلا الله فهذان صنفان.

وفيهم أيضاً من كان كافراً فانتسب إلى الإسلام ولم يلتزم شرائعه؛ من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، والكف عن دماء المسلمين وأموالهم، والتزام الجهاد في سبيل الله وضرب الجزية على اليهود والنصارى، وغير ذلك.

وهؤلاء يجب قتالهم بإجماع المسلمين، كما قاتل الصديق مانعي الزكاة؛ بل هؤلاء شر منهم من وجوه، وكما قاتل الصحابة أيضاً مع أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ الخوارج بأمر رسول الله ﷺ، حيث قال ﷺ في وصفهم: [تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة] وقال: [لو يعلم الذين يقاتلون ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل] وقال: [هم شر الخلق والخليقة، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتيل من قتلوه]. فهؤلاء مع كثرة صيامهم وصلاتهم وقراءتهم، أمر النبي ﷺ بقتالهم، وقاتلهم أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ، وسائر الصحابة الذين معه، ولم يختلف أحد في قتالهم، كما اختلفوا في قتال أهل البصرة والشام؛ لأنهم كانوا يقاتلون المسلمين. فإن هؤلاء شر من أولئك من غير وجه، وإن لم يكونوا مثلهم في الاعتقاد؛ فإن معهم من يوافق رأيه في المسلمين رأي الخوارج. فهذه ثلاثة أصناف.

وفيهم صنف رابع شر من هؤلاء. وهم قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه. فهؤلاء الكفار المرتدون، والداخلون فيه من غير التزام لشرائعه، والمرتدون عن شرائعه لا عن سمته: كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين، حتى يلتزموا شرائع الإسلام، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى تكون كلمة الله ـ التي هي كتابه وما فيه من أمره ونهيه وخبره ـ هي العليا. هذا إذا كانوا قاطنين في أرضهم، فكيف إذا استولوا على أراضي الإسلام: من العراق؛ وخراسان، والجزيرة، والروم، فكيف إذا قصدوكم وصالوا عليكم بغياً وعدواناً ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، الآيات: ١٣، ١٤، ١٥].

وبعد أن قرر ـ رحمه الله ـ حقيقة التتار وأنهم كفار يجب قتالهم لأنهم دخلوا في الإسلام ظاهراً دون الالتزام بشعائره، وأنهم مُقاتلون مُحاربون لأهل الإسلام، استولوا على أراضيه، وكذلك حال الفرق الباطنية الكافرة المرتدة، الموالية للتتار شرع ـ رحمه الله ـ يبين للمسلمين أن الواجب الشرعي هو قتال هذه الفرق فقال:

ب ـ الجهاد في سبيل الله أفضل العمل وهو ماض إلى يوم القيامة:

واعلموا ـ أصلحكم الله ـ أن النبي ﷺ قد ثبت عنه من وجوه كثيرة أنه قال: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة] وثبت أنهم بالشام.

فهذه الفتنة قد تفرق الناس فيها ثلاث فرق: الطائفة المنصورة، وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين. والطائفة المخالفة، وهم هؤلاء قال: أخبرني به؟ قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر، وتقوم لا تفتر؟ قال: لا. قال: فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله». وهذه الأحاديث في الصحيحين وغيرهما.

وكذلك اتفق العلماء ـ فيما أعلم ـ على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد.

فهو أفضل من الحج، وأفضل من صوم التطوع، وأفضل من صلاة التطوع.

والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود». فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي ﷺ وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعان منها أنهم كانوا مرابطين بالمدينة. فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو، ويخيف العدو فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات. قال رسول الله ﷺ: [رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل] رواه أهل السنن وصححوه. وفي صحيح مسلم عن سلمان، أن النبي ﷺ قال: [رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً أجري عليه عمله، وأجري عليه رزقه من الجنة، وأمن الفَتَّان] يعني منكر ونكير. فهذا في الرباط فكيف في الجهاد.

وقال ﷺ: [لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد أبداً] وقال: [من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار] فهذا في الغبار الذي يصيب الوجه والرجل، فكيف بما هو أشق منه؛ كالثلج، والبرد، والوحل.

ولهذا عاب الله عز وجل المنافقين الذين يتعللون بالعوائق، كالحر والبرد. فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٨١]. وهكذا الذين يقولون: لا تنفروا في البرد، فيقال: نار جهنم أشد برداً. كما أخرجاه في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: [اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربي أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر والبرد فهو من زمهرير جهنم] فالمؤمن يدفع بصبره على الحر والبرد في سبيل الله حر جهنم وبردها، والمنافق يفر من حر الدنيا وبردها حتى يقع في حر جهنم وزمهريرها.

جـ النصر حَتْمٌ لأهل الإسلام:

واعلموا ـ أصلحكم الله ـ أن النصرة للمؤمنين والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وهؤلاء القوم مقهورون مقموعون. والله سبحانه وتعالى ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فابشروا بنصر الله تعالى وبحسن عاقبته: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٩] وهذا أمر قد تيقناه وتحققناه، والحمد لله رب العالمين. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [سورة الصف، الآيات: ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤].

د ـ من عاش ليجاهد التتار فقد مَنَّ الله عليه:

واعلموا ـ أصلحكم الله ـ أن من أعظم النعم على من أراد الله به خيراً أَنْ أحياه إلى هذا الوقت الذي يجدد الله فيه الدين، ويحيي فيه شعار المسلمين، وأحوال المؤمنين والمجاهدين، حتى يكون شبيهاً بالسابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك، كان من التابعين لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم. فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله تعالى على هذه المحنة التي حقيقتها منحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة، حتى والله لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ـ كأبي بكر، وعمر وعثمان، وعلي، وغيرهم ـ حاضرين في هذا الزمان، لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين.

ولا يفوت مثل هذا الغزاة إلا من خسرت تجارته، وسفه نفسه، وحرم حظاً عظيماً من الدنيا والآخرة؛ إلا أن يكون ممن عذر الله تعالى، كالمريض، والفقير، والأعمى

وغيرهم، وإلا فمن كان له مال وهو عاجز ببدنه فليغز بماله. ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: [من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا]، ومن كان قادراً ببدنه وهو فقير فليأخذ من أموال المسلمين ما يتجهز به سواء كان المأخوذ زكاة، أو صلة، أو من بيت المال، أو غير ذلك؛ حتى لو كان الرجل قد حصل بيده مال حرام وقد تعذر رده إلى أصحابه لجهله بهم ونحو ذلك، أو كان بيده ودائع أو رهوناً أو عوارٍ قد تعذر معرفة أصحابها فلينفقها في سبيل الله، فإن ذلك مصرفها (وأرجو أن يستفاد بهذه الفتوى في تجهيز المجاهدين في سبيل الله في أفغانستان وفلسطين وأي بقعة من بقاع الإسلام يقوم فيها جهاد مسلح مع الكفار).

ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد؛ فإن الله عز وجل يغفر ذنوبه، كما أخبر الله في كتابه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة الصف، الآية: ١٢]. ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة ولا يمكن رده إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه، فإن ذلك طريق حسنة إلى خلاصه، مع ما يحصل له من أجر الجهاد (تابع الفتوى السابقة).

وكذلك من أراد أن يكفر الله عنه سيئاته في دعوى الجاهلية وحميتها فعليه بالجهاد؛ فإن الذين يتعصبون للقبائل وغير القبائل ـ مثل قيس ويمن، وهلال وأسد ونحو ذلك ـ كل هؤلاء إذا قتلوا فإن القاتل والمقتول في النار، كذلك صح عن النبي ﷺ أنه قال: [إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل أخيه] أخرجاه في الصحيحين. وقال ﷺ: [من قتل تحت راية عمية: يغضب لعصبية، ويدعو لعصبية فهو في النار] رواه مسلم، وقال ﷺ: [من تعزى بعزاء أهل الجاهلية فأعضوه هَنَ (الهَنُ: الذّكر، وهو الأير) أبيه ولا تكنوا] فسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان! فقال: اعضض أيْرَ أبيك!! فقال: يا أبا المنذر! ما كنت فاحشاً. فقال: بهذا أمرنا رسول الله ﷺ. رواه أحمد في مسنده.

ومعنى قوله: [من تعزى بعزاء الجاهلية] يعني يعتزي بعزواتهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يالقيس! ياليمن! ويالهلال! ويالأسد، فمن تعصب لأهل بلدته، أو مذهبه، أو طريقته، أو قرابته، أو لأصدقائه دون غيرهم، كانت فيه

شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله تعالى معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله. فإن كتابهم واحد، ودينهم واحد، ونبيهم واحد، وربهم إله واحد، لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه ترجعون. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ * وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [سورة آل عمران، الآيات: ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل الفرقة والبدعة.

هـ ـ عليكم بالجماعة والطاعة والجهاد:

فالله! الله! عليكم بالجماعة والائتلاف على طاعة الله ورسوله، والجهاد في سبيله؛ يجمع الله قلوبكم، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة. أعاننا الله وإياكم على طاعته وعبادته، وصرف عنا وعنكم سبيل معصيته، وأتانا وإياكم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقانا عذاب النار، وجعلنا وإياكم ممن رضي الله عنه وأعد له جنات النعيم، إنه على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل. والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم. أ.هـ. الفتاوي (ج٢٨ ص٤١٠، ٤٣١).

لقد نقلت هذه الرسالة لشيخ الإسلام كلها تقريباً لأنها أشبه (بالبيان العام) في وقتنا، ولأن فيها من الفوائد الجليلة والبصيرة العظيمة أشياء تفوق الوصف، والشاهد فيها بيان موقف هذا العالم العامل الجليل، وكيف كان يُجَيِّشُ الأمة، ويستنفرها للجهاد، ويبصرها بمن يجب قتالهم ومن يجب الكف عنهم ومن يجب نصرتهم، ثم هو بعد ذلك مقدم صُفوفهم ومثل هذه الرسائل التي يخاطب شيخ الإسلام ابن تيمية فيها الأمة مباشرة كثيرة جداً وهي ليست مجرد رسائل إرشادية تعليمية بيانية بل هي

رسائل عملية أشبه بالمراسيم التي يصدرها الخلفاء والأمراء. فهو يقول للناس افعلوا كذا، واخرجوا إلى المكان الفلاني، وقاتلوا هؤلاء، وكفوا عن هؤلاء، وهكذا. . (**وبهذا أستطيع أن أقول بأن شيخ الإسلام ابن تيمية مارس الجهاد الجماعي بأوسع مظاهره وأعلى صوره. . وكانت الجماعة عنده أحياناً هي جمهور الأمة الإسلامية من أهل السنة وأحياناً أخرى إخوانه وخاصته ممن كان يطلقهم بمهمات محددة**).

٢ـ رسالة أخرى لعموم الناس يوضح فيها الشيخ آثار جهاد التتار:

وهذه رسالة أخرى لشيخ الإسلام يوضح المقصود. يقول (انظر الفتاوي ج٢٨ من ص٤٢٤ إلى ص٤٦٦):

«بسم الله الرحمن الرحيم. . إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . (كانت هذه الرسالة (البيان) من الشيخ بعد أحداث سنة ٧٠٠هـ عندما غزا التتار دمشق وحاولوا دخولها وهرب الناس منها فقام شيخ الإسلام يخطب فيهم وثبتهم، وكان من فضل الله أن رجع التتر على أعقابهم بعد أن أهلكهم الثلج والبرد الشديد الذي نزل في هذه السنة).

أما بعد. . فقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده. . فإن هذه الفتنة (يعني فتنة التتار) التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام قد جرى فيها شبيه بما يجري للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ».

أ ـ مقارنة للشيخ بين غزوة الخندق، وصمود أهل دمشق للتتار عام ٧٠٠هـ:

وبعد أن يبين بالتفصيل والوقائع كيف شابهت غزوة المسلمين في عهده مع التتر غزوة الخندق من معظم الوجوه كاليأس من النصر، وتعاظم أمر النفاق والمنافقين، والحصار مع البرد والجوع، وفرار الناس واعتذارهم بأعذار واهية أن بيوتهم عورة وأنهم يخافون على أهلهم ونسائهم. . وتجريد المنافقين ألسنتهم الحداد على المسلمين من أهل الحمية والدين والغيرة والشجاعة. . يقول:

«وكان مختصر القصة: أن المسلمين تحزّب عليهم عامة المشركين الذين حولهم، وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد، وأشجع، وفزارة، وغيرهم من قبائل نجد، واجتمعت أيضاً اليهود: من قريظة، والنضير، فإن بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك، كما ذكره الله تعالى في «سورة الحشر». فجاءوا في الأحزاب إلى قريظة وهم معاهدون للنبي ﷺ، ومجاورون له، قريباً من المدينة ـ فلم يزالوا بهم حتى نقضت قريظة العهد، ودخلوا في الأحزاب. فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة، وهم بقدر المسلمين مرات متعددة فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء والصبيان في آطام المدينة، وهي مثل الجواسق، ولم ينقلهم إلى مواضع أخر. وجعل ظهرهم إلى سلع ـ وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام ـ وجعل بينه وبين العدو خندقاً. والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة. وكان عدواً شديد العداوة، لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايتهم فيهم أعظم النكايات.

ب ـ النصارى، والفرس، وبعض المستعربة، يخربون مع التتار.

وفي هذه الحادثة (يعني غزو التتار لدمشق) تحزب هذا العدو من مغل (أي المغول) وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم. ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام، مع قلة من بإزائهم من المسلمين. ومقصودهم الاستيلاء على الدار، واصطلام (أي حَرّقَهم والمقصود الايقاع بهم وسلب أموالهم وأولادهم) أهلها. كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين.

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق ـ على ما قيل ـ بضعاً وعشرين ليلة. وقيل: عشرين ليلة.

وهذا العدو (يعني التتار) عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر، وكان أول انصرافه راجعاً عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة.

واجتمع بهم الداعي، وخاطبهم في هذه القضية. وكان الله سبحانه الله وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم: ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف.

وكان عام الخندق برد شديد، وريح شديدة منكرة، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٩].

ح ـ حكمة الله سبحانه في نزول الثلج والمطر والبرد في هذه السنة:

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد، على خلاف أكثر العادات. حتى كره أكثر الناس ذلك. وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإن لله فيه حكمة ورحمة. وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله به العدو؛ فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد؛ حتى هلك من خيلهم ما شاء الله. وهلك أيضاً منهم من شاء الله. وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال. حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونا في الثلج إلى شعره، ونحن قعود لا نأخذهم؟ وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين، لو يصطادونهم؛ لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة.

د ـ تحزب الأحزاب على أهل السنة والجماعة عام ٧٠٠هـ:

وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠، ١١].

وهكذا هذا العام. جاء العدو من ناحيتي علو الشام، وهو شمال الفرات. وهو قبلي الفرات. فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغت القلوب الحناجر؛ لعظم البلاء؛ لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وتقرب العدو، وتوجهه إلى دمشق.

هـ ـ وتظنون بالله الظنونا:

وظن الناس بالله الظنونا. هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام. وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة؛ وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر. وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام. وهذا يظن أنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن، ونحوها. وهذا ـ إذا أحسن ظنه ـ قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو، سنة سبع وخمسين. ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم، كما خرج ذلك العام. وهذا ظن خيارهم. وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية، وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة، وخرافات لاغية. وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب، ليس له عقل يتفهم، ولا لسان يتكلم.

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات؛ لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب. ولا يميز في التحديث بين المخطىء والصائب. ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء؛ بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادىء الرؤية.

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء. ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١١]. ابتلاهم الله بهذا الابتلاء. الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم. وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات. ما استوجبوا به أعلى الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٢]. وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية. والخلافة الرسالية. وحزب الله المحدثون عنه. حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١].

و ـ أحوال المنافقين عند الخندق وعند حصار التتار لدمشق:

فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم.

وأما الذين في قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة. فذكروا هنا، وفي قوله: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٦٠] وفي قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٢].

وذكر الله مرض القلب في مواضع. فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٩].

والمرض في القلب كالمرض في الجسد، فكما إن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال، من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أو أفسد عمله وحركته.

وذلك ـ كما فسروه ـ: هو من ضعف الإيمان؛ إما بضعف علم القلب واعتقاده، وإما بضعف عمله وحركته. فيدخل فيه من ضعف تصديقه، ومن غلب عليه الجبن والفزع؛ فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك، كلها أمراض. وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه.

وعلى هذا فقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٢] هو إرادة الفجور، وشهوة الزنا، كما فسروه به. ومنه قول النبي ﷺ: [وأي داء أسوأ من البخل؟].

وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور، وقال النبي ﷺ: [إنما شفاء العي السؤال].

وكان يقول في دعائه: [اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء].

ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، كما ذكروا إن رجلاً شكا إلى أحمد ابن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: لو صححت لم تخف أحداً. أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده ألا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٧٥] أي يخوفكم أولياءه. وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٠].

وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٤] وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣] وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٨] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٩] وقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٣].

فدلت هذه الآية ـ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٢] ـ على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان: من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو. فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا؛ لكثرة العدو. فارجعوا إلى المدينة. وقيل: لا مقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى دين الشرك. وقيل: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام

تسكن؛ بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز أو اليمن، وإما إلى مصر. وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة. كما قيلت في تلك. وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض.

ونفي المُقام بها أبلغ من نفي المَقام. وإن كانت قد قرئت بالضم أيضا. فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان، فكيف يقيم به؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٣].

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون ـ والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة ـ: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل.

وأصل العورة: الخالي، الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: أعور مجلسك إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو.

وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، فلا نأمن على أهلنا، فائذن لنا أن نذهب إليها، لحفظ النساء والصبيان. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٣] لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٣] فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة. صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة، كمصر. ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا. وهم يكذبون في ذلك. فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق، لو دنا العدو. كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ. وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد. فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٤] فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة ـ وهي الافتتان عن الدين بالكفر، أو النفاق ـ لأعطوا الفتنة. ولجاءوها من غير توقف.

وهذه أحوال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم. ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام ـ وتلك فتنة عظيمة ـ **لكانوا معه على ذلك. كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات**، إما في حق الله، وإما في حق العباد. كترك الصلاة، وشرب الخمور. وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين، وحريمهم، وأخذ أموال الناس. وتعذيبهم، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا، قديماً وحديثاً، في هذه الغزوة. فإن في العام الماضي، وفي هذا العام: في أول الأمر، كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر، ثم فر منهزماً، لما اشتد الأمر.

ز ـ الفرار من العدو موجب للخسران في الدنيا والآخرة:

ثم قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل. فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ: [إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه] والفرار من القتل كالفرار من الجهاد. وحرف ﴿ لَّن ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٦] ينفي الفعل في الزمن المستقبل. والفعل نكرة. والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها. فاقتضى ذلك: أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً. وهذا خبر الله الصادق. فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن. فإن هؤلاء الذين كفروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم؛ بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم. وقل في المقيمين. فما منع الهرب من شاء الله. والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد، ولا قتل؛ بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون. وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٦] يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة، ثم تموتون. فإن الموت لا بد منه. وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل. وهذا جهل منه بمعنى الآية. فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلاً. لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً. ثم ذكر جواباً ثانياً. أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل. ثم ذكر جواباً ثالثاً، وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة. فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٧].

ونظيره: قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ الآية [سورة النساء، الآية: ٧٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٦]. فمضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم ممن حضر الصفوف فسلم، وكم ممن فر من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد ـ لما احتضر ـ لقد حضرت كذا وكذا صفاً، وإن ببدني بضعاً وثمانين، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح، ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير. فلا نامت أعين الجبناء.

حـ ـ المثبطون عن الغزو:

ثم قال تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٨]. قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل

المدينة، فإذا جاءهم أحد قالوا له ويحك! اجلس، فلا تخرج. ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن ائتونا بالمدينة، فإنا ننتظركم. يثبطونهم عن القتال. وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً. فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم. فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة. فانصرف بعضهم من عند النبي ﷺ، فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ. فقال: أنت ههنا، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلي، فقد أحيط بك وبصاحبك.

فوصف المثبطين عن الجهاد ـ وهم صنفان ـ بأنهم إما أن يكونوا في بلد الغزاة، أو في غيره، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول، أو بالعمل، أو بهما. وإن كانوا في غيره راسلوهم، أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة، ليكونوا معهم بالحصون، أو بالبعد. كما جرى في هذه الغزاة.

فإن أقواماً في العسكر والمدينة وغيرهما صاروا يعوقون من أراد الغزو، وأقواماً بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلمَّ إلينا. قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: ١٨، ١٩] أي بخلاء عليكم بالقتال معكم، والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة. وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله، أو شح عليهم بفضل الله: من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره. فإن أقواماً يشحون بمعروفهم، وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله. وهم الحساد.

ط ـ المنافقون شجعان عند الأمن، جبناء عند الخوف:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٩] من شدة الرعب الذي في قلوبهم، يشبهون المغمى عليه وقت النزع؛ فإنه يخاف ويذهل عقله، ويشخص بصره، ولا يطرف. وكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٩] ويقال في اللغة (صلقوكم) وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي. ومنه (الصالقة) وهي التي ترفع

صوتها بالمصيبة. يقال: صلقه، وسلقه ـ وقد قرأ طائفة من السلف بها؛ لكنها خارجة عن المصحف ـ إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً. ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغاً في خطبته؛ لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير. كما قال ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٩]. وهذا السلق بالألسنة الحادة، يكون بوجوه:

تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم؛ فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين، وقاتلتم عليه، وخالفتموهم؛ فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة.

وتارة يقولون: أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا، والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا.

وتارة يقولون ـ أنتم مع قلتكم وضعفكم ـ تريدون أن تكسروا العدو، وقد غركم دينكم، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٩].

وتارة يقولون: أنتم مجانين، لا عقل لكم، تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم.

وتارة يقولون: أنواعاً من الكلام المؤذي الشديد. وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي حراص على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم. قال قتادة: إن كان وقت قسمة الغنيمة، بسطوا ألسنتهم فيكم. يقولون: أعطونا، فلستم بأحق بها منا. فأما عند البأس فأجبن قوم وأَخْذَلُهم للحق. وأما عند الغنيمة فأشح قوم. وقيل: أشحة على الخير، أي بخلاء به، لا ينفعون، لا بنفوسهم ولا بأموالهم.

وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم: من منع الحق، وأخذ الباطل. كما قال النبي ﷺ: [إياكم والشح: فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا]؟ فهؤلاء أشحاء على إخوانهم، أي بخلاء عليهم، وأشحاء على الخير أي حراص عليه. فلا ينفقونه. كما قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [سورة العاديات، الآية: ٨]. ثم قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ

﴿عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٠].

فوصفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد. وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض؛ فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف، وتكذيب خبر الأمن.

الوصف الثاني: أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم؛ بل يكونون في البادية بين الأعراب، يسألون عن أنبائكم؛ إيش خبر المدينة؟ وإيش جرى للناس؟.

والوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا، وهم فيكم، لم يقاتلوا إلا قليلاً. وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس في هذه الغزوة كما يعرفونهم من أنفسهم، ويعرفه منهم من خبرهم.

ي ـ المؤمنون شجعان ثابتون عند الخوف أسوتهم رسول الله:

ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١]. فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو، كما ابتلي رسول الله ﷺ، فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه. فليتأسوا به في التوكل والصبر، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها، وإهانة له. فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ خير الخلائق؛ بل بها ينال الدرجات العالية، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذاباً. كالكفار والمنافقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٢]. قال العلماء: كان الله قد أنزل في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٤] فبين الله سبحانه ـ منكراً على من حسب

خلاف ذلك ـ أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبله بـ (البأساء) وهي الحاجة والفاقة. و(الضراء) وهي الوجع والمرض. و(الزلزال) وهي زلزلة العدو.

فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم. قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٢] وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال. وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لحكم الله وأمره. **وهذه حال أقوام في هذه الغزوة: قالوا ذلك** (يشير الشيخ هنا إلى نفسه وأصحابه ومن استجاب لدعوته بوجوب قتال التتار).

وكذلك قوله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٣] أي عهده الذي عاهد الله عليه، فقاتل حتى قتل، أو عاش. و(النحب) النذر والعهد. وأصله من النحيب. وهو الصوت. ومنه الانتحاب في البكاء، وهو الصوت الذي تكلم به في العهد. ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق في اللقاء ـ ومن صدق في اللقاء فقد يقتل ـ صار يفهم من قوله ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٣] أنه استشهد، لا سيما إذا كان النحب: نذر الصدق في جميع المواطن؛ فإنه لا يقيه إلا بالموت. وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد. كما قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٣] أي أكمل الوفاء. وذلك لمن كان عهده مطلقاً: بالموت، أو القتل.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٣] قضاءه، إذا كان قد وفى البعض، فهو ينتظر تمام العهد. وأصل القضاء: الإتمام والإكمال.

ك ـ البلاء بالخوف لتمييز الصفوف وليجزى الصادقون بصدقهم، والمنافقون بنفاقهم:

﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٤]. بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم، حيث صدقوا في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٥].

فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين، وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم: آمنا؛ لا من قال، كما قالت الأعراب: ﴿ءَامَنَّا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨] والإيمان لم يدخل في قلوبهم؛ بل انقادوا واستسلموا. وأما المنافقون فهم بين أمرين: إما أن يعذبهم، وإما أن يتوب عليهم، فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزاة.

وأيضاً فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة، ليجزي الصادقين بصدقهم، وهم الثابتون الصابرون، لينصروا الله ورسوله، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين؛ فإن منهم من ندم. والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. وقد فتح الله للتوبة بابا من قبل المغرب عرضه أربعون سنة. لا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها.

وقد ذكر أهل المغازي ـ ابن إسحاق ـ أن النبي ﷺ قال في الخندق: [الآن نغزوهم، ولا يغزونا] فما غزت قريش ولا غطفان، ولا اليهود المسلمين بعدها؛ بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة. كذلك ـ إن شاء الله ـ **هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس، والمستعربة، والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزونا**. ويتوب الله على من يشاء من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق، بأن ينيبوا إلى ربهم، ويحسن ظنهم بالإسلام، وتقوى **عزيمتهم على جهاد عدوهم**. فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار، كما قال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٥] (وقد كان فإن الريح بعد هذه الغزوة كانت على التتار حتى أذال الله دولتهم، وأذهب ريحهم).

ل ـ قاتل الله مع أهل الإيمان في الخندق بالريح والبرد وفي حصار دمشق كذلك:

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا: ريح شديدة

باردة. وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيراً. إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين، فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم، والبرد الشديد، والريح العاصف، والجوع المزعج، ما الله به عليم.

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء (أي الصحو وهو الدفء وشروق الشمس)، غير مرة. وكنا نقول لهم: هذا فيه خِيرَةٌ عظيمة. وفيه لله حكمه وسر، فلا تكرهوه، فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان (ملك التتار الذي غزا دمشق)، وجنوده، حتى أهلكهم، وهو كما فيما قيل: سبب رحيلهم. وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه. وكان مبدأ رحيل **قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلت مصر عقيب العسكر، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين**، وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه (وذلك بعد استنفار شيخ الإسلام ابن تيمية لهم). فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو، جزاء منه، وبياناً **أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقع الفعل وإن تباعدت الديار**.

م ـ فرق الله بين الأحزاب في الغزوتين:

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان، وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي. فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق. بل من طالعها علم صحة ذلك، كما ذكره أهل المغازي. مثل عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة، وسعيد بن يحيى الأموي، ومحمد بن عائذ، ومحمد بن إسحق، والواقدي، وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافاً إليهم عسكر حماة وحلب، وما هنالك، وثبت المسلمون بإزائهم. وكانوا أكثر من

المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة، وأذلهم الله تعالى، فلم يقدموا على المسلمين قط. وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم، فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار، كما جرى في غزوة الخندق، حيث قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين.

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم. وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات. وبعضهم في جزيرة فيها. فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم، وخالطوهم؛ وأصاب المسلمون بعضهم. وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب، بعد أن جرى ـ ما بين عبور قازان أولا وهذا العبور ـ رجفا ووقعات صغار، **وعزمنا على الذهاب إلى حماة غير مرة؛ لأجل الغزاة؛ لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بَقُوا. ـ أي من التتار ـ وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماة، ومن معهم من العسكر، ومن أتاه من دمشق، وعزموا على لقائهم**، ونالوا أجراً عظيماً. وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمانات؛ إما ثلاثة، أو أربعة. فكان من المقدر: أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل (تيزين) و(الفوعة) و(معرة مصرين) وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي.

وقيل: إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم؛ بسبب الرفض، وأن عند بعضهم فرامين (جمع فرمان والمقصود بأمان وحلف ونحو ذلك) منهم، لكن هؤلاء ظلمة، ومن أعان ظالماً بلي به. والله تعالى يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٦].

وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب، من أهل «سيس» والإفرنج. فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم، وهي الحصون ـ ويقال للقرون: الصياصي ـ ويقذف في قلوبهم الرعب. وقد فتح الله تلك البلاد. **ونغزوهم**

إن شاء الله تعالى، فنفتح أرض العراق وغيرها، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه؛ فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس. وخرجت عن سنن العادة. وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين، وعنايته بهذه الأمة، وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين ـ بعد أن كاد الإسلام أن ينثلم، وكر العدو كرة فلم يلو عن. . وخذل الناصرون فلم يلووا على. . وتحير السائرون فلم يدروا من. . ولا إلى. . وانقطعت الأسباب الظاهرة. وأهطعت الأحزاب القاهرة، وانصرفت الفئة الناصرة، وتخاذلت القلوب المتناصرة، وثبتت الفئة الناصرة، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة، واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة، ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة، وأظهر على الحق آياته الباهرة، وأقام عمود الكتاب بعد ميله، وثبت لواء الدين قوته وحوله، وأرغم معاطس (أي أنوف، والأنف هو الذي يعطس الإنسان به)، أهل الكفر والنفاق، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق.

فالله يتم هذه النعمة بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة، وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. أ. هـ (الفتاوي ج٢٨ ص٤١٠ـ٤٦٦).

وبعد أن أتم الشيخ رسالته قال:

«كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده، لما رجعت من مصر في جمادي الآخرة (وكان الشيخ قد ذهب إليها لاستنهاض همم المِصْرِيِّين من أجل مساعدة أهل الشام في غزو التتار)، **وأشاعوا أنه لم يبق منهم أحد. ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم، وقصد الذهاب إلى إخواننا بحماة، وتحريض الأمراء على ذلك، حتى جاءنا الخبر بانصراف المتبقين منهم. فكتبته في رجب والله أعلم. والحمد لله وحده. وصلى الله على أشرف الخلق محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين»** (الفتاوي ج٢٨ ص٤١٠ـ٤٦٦).

الفوائد المستفادة من هذه الرسالة العظيمة:

وأرجو أن نستفيد من هذه الرسالة العظيمة الفوائد التالية:

١ـ أن شيخ الإسلام كان مجدداً للدين حقاً فقد مارس رحمه الله عامة فرائض الإسلام وأحكامه، وأنزل آيات الكتاب والسنة النبوية على الواقع القائم وكأنها آيات لم تتنزل إلا عليهم، وهذا يدلك على عظمة القرآن الخالد، وعلى أن التاريخ يعيد نفسه ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٤٣] ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا . . ﴾ الآية [سورة البقرة، الآية: ٢١٤].

وهذا شيخ الإسلام يقول لمعاصريه «ما أشبه الليلة بالبارحة: المؤمنون الصابرون هم المؤمنون، والمنافقون هم المنافقون؛ فكلامهم كلامهم وشبهات أسلافهم هي شبهاتهم: . . اختلفت الوجوه والأسماء فقط ولكن المواقف هي المواقف». وهذا هو تجديد الدين بمعناه الصحيح جعل القرآن جديداً والسنة جديدة فكأن القرآن والسنة تنزلت عليهم. . فأصبحت الآيات تحكي واقعاً قائماً. . لا ماضياً غائباً. .

٢ـ الجهاد في سبيل الله فريضة ماضية إلى يوم القيامة وهو أعظم شعائر الإسلام وأعلاها قدراً، والعالم الحق هو المجاهد في سبيل الله.

٣ـ قيام شيخ الإسلام ابن تيمية بما أوجبه الله عليه من محاربة الكفار، والدفع عن الإسلام، ولم ينتظر وجود إمام عام لأنه لم يكن هناك إمام عام بالمعنى الشرعي الكامل، وإنما جاهد مع الأمراء الموجودين حسب ما تيسر له، وخرج بنفسه وإخوانه وأصحابه، ودفع عن أرض الإسلام وحمى الإسلام ما استطاع.

٤ـ كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يمارس هذا الجهاد مع عامة المسلمين على ما فيهم من بدع وخرافة، وتعصب، وغير ذلك من الأمراض الكثيرة وكان يرى أن الجهاد مع هؤلاء مشروع بل واجب ليدفع ضرراً أعظم وهو الخطر الماحق من التتار والفرق الباطنية والزنادقة الملحدين. ولم يمنع شيخ الإسلام كون أهل السنة في وقته في العموم أهل مذاهب وخرافة وجهل بدليل أنهم كانوا أيضاً يكفرونه ويؤذونه،

وقد مات في السجن بحكم مشايخهم المتمذهبين والذين يزعمون أن شيخ الإسلام كفر لأنه حرم شد الرحال إلى زيارة قبر الرسول!! وأفتى بما يخالف المذاهب الأربعة في الطلاق!! وكل ذلك لم يكن مانعاً عنده أن يحارب مع هذا الجمهور من أهل السنة؛ يحارب أعداءهم من الكفرة المارقين، والتتار الظالمين.

٥ـ شيخ الإسلام ابن تيمية لم يرده الجهاد في سبيل الله أن يظهر الحق في مسائل الفروع والأصول ويرد على كل من يراه يخالف الدين من مذهبي متعصب، أو مبتدع منحرف، أو صوفي مشرك أو غير ذلك. بل كان يجاهد التتار، ويجاهد المنافقين، بل ويعلم كذلك الجاهلين من أبناء المسلمين، ويبين الحق في كل مجال. وهذا سرّ من أسرار عظمة هذا الشيخ الفذّ. . الذي عرف حقيقة أولويات الجهاد الإسلامي، وحارب في كل اتجاه، وعلى كل الجبهات، وبلغ الغاية رحمه الله في كل ذلك.

٦ـ مرة ثانية نقول كان للشيخ ابن تيمية رحمه الله جماعته الخاصة، وإخوانه وأصحابه الأبرار. انظر إلى قوله في الرسالة السابقة:

«ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم وقصد الذهاب إلى إخواننا بحماه«أ. هـ.

ثالثاً: شيخ الإسلام ابن تيمية يقوم بمهام رؤساء الدول فيذهب بنفسه سفيراً إلى ملك التتر غازان، ويرسل رسولاً إلى ملك قبرص يأمره فيها بعدم الإساءة إلى أسرى المسلمين وردهم إلى بلدانهم:

مرة أخرى نقول:

يخطىء من يظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان مجرد عالم منقطع إلى تعلم العلم وتعليمه، أو كان مجرد صاحب مدرسة فكرية أو عقائدية، وأن طلابه وإخوانه المحيطين به كانوا مجرد طلبة يتلقون العلم عنه، ويتأدبون بآدابه، في البحث والمناظرة وطلب العلم فقط.. ولقد كررت هذه العبارات كثيراً لتُفهم وتُوعى. ومرة أخرى أقول إن شيخ الإسلام ابن تيمية كان عالماً عاملاً قائماً بما يستطيع من الواجبات الكفائية التي أهملتها الأمة في وقته.. فقد كان الواقع السياسي كما قدمنا من سقوط الخلافة العباسية، وتغلب المغول المتوحشين الذين دخلوا بالإسلام اسماً ولم يلتزموا بشرائعه بل حاربوا أهله، وتغلب الصليبيين في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي، وتسلط الباطنيين على أقاليم ومدن كثيرة أخرى، وتوزع ما بقي من دولة الإسلام، في مصر والشام على سلاطين ونواب لهم من المماليك: بعضهم مصلح وكثير منهم مفسدون. ولكنهم كانوا هم البقية الباقية من الأمة المنتمية إلى أهل السنة والجماعة..

هذا والشعوب الإسلامية في حال يرثى لها من التفرق والتمزق وكثرة الأهواء، والمرض والتقليد، والجمود وكثرة البدع والتصوف الذي عم وطم، والندرة الشديدة لمن هم على عقيدة السلف الصالح..

في هذا الجو السياسي والعقائدي والاجتماعي الخانق عاش شيخ الإسلام ابن

تيمية. . وقد ذكرنا مراراً أنه حارب على كل الجبهات، وكان من هذه الجبهات التي حارب عليها وكان له فيها دور عظيم الجبهة السياسية التي مارس فيها شيخ الإسلام أحياناً دور الإمام، وأمير الجماعة، ومقدم الأمة. . ولا شك أنه كان يستند في ذلك إلى الجموع التي تؤيده؛ وتنفذ أمره. . وتُنْفِذُ وعيده وتهديده، وسنختار في هذا الصدد بعض المواقف من حياة شيخ الإسلام التي تبين بها لما لا يدع مجالاً للشك أن شيخ الإسلام مارس دور القائد السياسي، وأمير الجماعة المتنفذة. وإمام قوة من قوى الضغط والثقل في المجتمع الإسلامي.

وهذه المواقف باختصار هي رسالته إلى رئيس قبرص (سرجوان) الذي يأمره بها بتسليم أسرى المسلمين وعدم المساس بهم، ويتهدده بأسرى النصارى في بلاد المسلمين، هذا إلى دعوته إياه إلى الإسلام.

والموقف الثاني سفارة الشيخ إلى قازان ملك التتار ومفاوضته له في أسرى المسلمين وزجره عن إهانتهم وتهديده ووعيده واستخلاص أسرى المسلمين منه. . والموقف الثالث: تجريد شيخ الإسلام حملة لمحاربة فرقة النصيرية الجبلية، وإلزامهم شرائع الإسلام.

وإليك بعض التفاصيل لهذه المواقف العظيمة من مواقف شيخ الإسلام التي تدلك على أنه كان إماماً وقائداً إلى جوار كونه مرشداً ومعلماً رضي الله عنه. . قال في رسالته إلى سرجون حاكم قبرص:

١ـ رسالة شيخ الإسلام إلى ملك قبرص النصراني:

(أ) «من أحمد ابن تيمية، إلى سرجوان عظيم أهل ملته، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين، وعظماء القسيسين، والرهبان، والأمراء، والكتاب، وأتباعهم. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، إله إبراهيم وآل عمران. ونسأله أن يصلي على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين. ونخص بصلاته وسلامه أولي العزم الذين هم سادة الخلق، وقادة الأمم. الذين خصوا بأخذ الميثاق، وهم: نوح،

وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد. كما سماهم الله تعالى في كتابه».

أ ـ دعوته إلى الإسلام:

وبعد أن بين له حقيقة دين الإسلام، وحقيقة دين النصارى وتفرق النصارى فيه، وأن الإسلام الحق هو ما بعث به رسول الله محمد ﷺ. مدح سرجوان لما عنده من الديانة والفضل فقال:

ب ـ مدحه لسرجون النصراني لما عنده من الديانة والفضل ومحبة العلم:

«وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله، لما بلغني ما عنده من الديانة والفضل، ومحبة العلم وطلب المذاكرة، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكراً من الملك: من رفقه، ولطفه، وإقباله عليه، وشاكراً من القسيسين ونحوهم.

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة؛ فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه؛ فإنه لا بد للعبد من لقاء الله، ولا بد أن الله يحاسب عبده، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٦].

وأما الدنيا فأمرها حقير، وكبيرها صغير. وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال. وغاية ذي الرياسة أن يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليم انتقاماً منه. وغاية ذي المال أن يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، لما آذى نبي الله موسى.

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده المرسلين، كلها تأمر بعبادة الله، والتجرد للدار الآخرة. والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا.

ولما كان أمر الدنيا خسيساً رأيت أن أعظم ما يهدي لعظيم قومه المفاتحة في العلم والدين: بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله».

وقال أيضاً:

«وإن رأيت من الملك رغبة في العلم والخير كاتبته، وجاوبته عن مسائل يسألها، **وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا؛ لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله»**.

ثم ذكّره شيخ الإسلام بموقفه من قازان ملك التتار فقال:

«ولما قدم مقدم المغول قازان وأتباعه إلى دمشق، وكان قد انتسب إلى الإسلام؛ لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه؛ حيث لم يلتزموا دين الله، وقد اجتمعت به وبأمرائه، وجرى لي معهم فصول يطول شرحها؛ لا بد أن تكون قد بلغت الملك؛ فأذله الله وجنوده لنا، حتى بقينا نضربهم بأيدينا، ونصرخ فيهم بأصواتنا. وكان معهم صاحب سيس مثل أصغر غلام يكون به، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه، ويشتمه، وهو لا يجترىء أن يجاوبه، حتى إن وزراء غازان ذكروا ما ينم عليه من فساد النية له، وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل، وأخبرني التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس (مدينة في جنوب تركيا بالقرب من أضنة استولى عليها النصارى في الحروب الصليبية التي بدأت عام ٤٩١هـ) أن يدخل بينكم وبينه فيه، حيث مناكم بالغرور، وكان التتار من أعظم الناس شتيمة لصاحب سيس، وإهانة له؛ ومع هذا فإنا كنا **نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم، والذب عنهم»** أ. هـ.

وصاحب سيس هذا هو رئيس النصارى في مدينة سيس جنوب تركيا وكانت أجزاء من ساحل الشام وتركيا خاضعة لهم بعد الحملات الصليبية المتكررة.

د ـ تذكر شيخ الإسلام لسرجون أنه استنقذ أسرى النصارى واليهود من التتار ولم يرض بأن يستنقذ أسرى المسلمين وحدهم:

ثم شرع شيخ الإسلام يبين لسرجون حاكم قبرص كيف أن شيخ الإسلام عمل على تخليص أسرى النصارى من يد قازان التتري ولم يَرْضَ أن يفك أسرى المسلمين فقط فقال:

«وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم

غازان، وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين. قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطْلَقونُ. فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى، الذين هم أهل ذمتنا؛ فإنا نَفْتَكُّهم، ولا ندع أسيراً، لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة. وأطلقنا من النصارى من شاء الله فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله».

هـ ـ إحسان المسلمين لأهل الذمة من النصارى:

ثم بين له الشيخ رحمه الله أن المسلمين ما زالوا يحسنون إلى أهل الذمة من النصارى الذين بأيديهم فقال:

«وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم؛ كما أوصانا خاتم المرسلين حيث قال في آخر حياته: [الصلاة، وما ملكت أيمانكم] قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٨]».

و ـ لا نخاف التتر وسننتصر عليهم:

ثم بين له أنهم لا يخافون من التتر وأنه سينتصرون عليهم في النهاية، وذلك حتى لا يطمع النصارى في ممالاة التتار على أهل السنة والجماعة من المسلمين فقال له:

«ومع خضوع التتار لهذه الملة، وانتسابهم إلى هذه الملة؛ فلم نخادعهم، ولم ننافقهم؛ بل بينا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام الموجب لجهادهم، وأن جنود الله المؤيدة، وعساكره المنصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية: ما زالت منصورة على من ناوأها مظفرة على من عاداها. وفي هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون. أمسك العسكر عن قتالهم، فقتل منهم بضعة عشر ألفا، ولم يقتل من المسلمين مائتان. فلما انصرف العسكر إلى مصر، وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد، وعدم الدين: خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد، قد ملأت السهل والجبل؛ في كثرة، وقوة، وعدة، وإيمان، وصدق. قد بهرت العقول والألباب. محفوفة بملائكة الله التي ما زال يمد بالأمة الحنيفية، المخلصة لبارئها:

فانهزم العدو بين أيديها، ولم يقف لمقابلتها. ثم أقبل العدو ثانياً، فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل، وانصرف خاسئاً وهو حسير، وصدق الله وعده، ونصره عبده، وهو الآن في البلاء الشديد والتعكيس العظيم، والبلاء الذي أحاط به. والإسلام في عز متزايد، وخير مترافد؛ فإن النبي ﷺ قد قال: [إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها]. وهذا الدين في إقبال وتجديد. وأنا ناصح للملك وأصحابه ـ والله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة والإنجيل والفرقان.

زـ ترغيب وترهيب سرجون:

وبعد ذلك قام شيخ الإسلام رحمه الله باستخدام أسلوب الترغيب والتهديد والوعيد، وكذلك الوعظ والتذكير فقال لسرجون:

«فيا أيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله. ثم أما يعلم الملك أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان ما لا يحصي عددهم إلا الله، ومعاملتنا فيهم معروفة، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة، ولا ذو دين؟! لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوته؛ فإن أبا العباس شاكر للملك ولأهل بيته كثيراً، معترفاً بما فعلوه معه من الخير، وإنما أقول عن عموم الرعية. أليس الأسرى في رعية الملك؟! أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان فأين ذلك؟!

ثم إن كثيراً منهم إنما أخذوا غدراً، والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات، فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدراً؟! أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا، وتكونون مغدورين؟! والله ناصرهم ومعينهم؛ لا سيما في هذه الأوقات، والأمة قد امتدت للجهاد، واستعدت للجلاد. ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في طاعته، وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد، وقد ظهر بعض أثرهم، وهم في ازدياد.

ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية (الفداوي بمعنى الفدائي)، الذين يغتالون الملوك في فرشها، وعلى أفراسها، من قد بلغ الملك خبرهم؛ قديماً، وحديثاً.

وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم، ولا يخيب طلباتهم، الذين يغضب الرب لغضبهم، ويرضى لرضاهم. وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم للمسلمين لما غضب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف. فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عاقل؛ لا مسلم، ولا معاهد؟!».

ثم بعد ذلك هدد شيخ الإسلام سرجون بأن الكَرَّةَ القادمة هي لأمة الإسلام وأنه يوشك أن يأخذ المسلمون ما بأيدي النصارى:

«ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم على الساحل؛ بل وقبرص أيضاً ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة، وقد وعدهم النبي ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة. فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد، كما ينتقم لغيرهم؟! وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا منها ما نالوا من غيرها؟! ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسنى، وإلا فمن بغي عليه لينصرنه الله.

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين. وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن، والمعاونة على النظر في العلم، واتباع الحق، وفعل ما يجب. فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان، ولا يرضى أن يكون مع هؤلاء النصارى المقلدين، الذين لا يسمعون ولا يعقلون؛ إن هم إلا كالأنعام؛ بل هم أضل سبيلاً».

حـ الشيخ يذكر هدفه من الرسالة:

ثم يذكر الشيخ رحمه الله بعد ذلك الداعي له إلى كتابه هذا الكتاب إلى ملك قبرص فيقول:

«والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا؛ لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة، وهما شيئان. (أحدهما) له خاصة، وهو معرفته بالعلم والدين، وانكشاف الحق، وزوال الشبهة، وعبادة الله، كما أمر، فهو خير له من ملك الدنيا

بحذافيرها. وهو الذي بعث به المسيح، وعلمه الحواريين. (الثاني) له وللمسلمين، وهو مساعدته للأسرى الذين في بلاده، وإحسانه إليهم، وأمر رعيته بالإحسان إليهم، والمعاونة لنا على خلاصهم؛ فإن في الإساءة إليهم دركاً على الملك في دينه ودين الله تعالى، ودركاً من جهة المسلمين، وفي المعاونة على خلاصهم حسنة له في دينه، ودين الله تعالى وعند المسلمين؛ وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك.

ومن العجب كل العجب أن يأسر النصارى قوماً غدراً أو غير غدر ولم يقاتلوهم، والمسيح يقول: (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك)؟! وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين؛ فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين في قبرص. لا سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء، وضعفاء، ليس لهم من يسعى فيهم. وهذا أبو العباس مع أنه من عباد الله المسلمين، وله عبادة، وفقر، وفيه مشيخة، ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة. ودين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير، والضعيف. **فالملك أحق أن يساعد على ذلك من وجوه كثيرة؛ لا سيما والمسيح يوصي بذلك في الإنجيل، ويأمر بالرحمة العامة، والخير الشامل، كالشمس والمطر.**

والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص الأسرى والإحسان إليهم كان الحظ الأوفر لهم في ذلك في الدنيا والآخرة. أما في الآخرة فإن الله يثيب على ذلك ويأجر عليه، **وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى؛ بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق، لا سيما من أخذ غدراً، والله تعالى لم يأمر المسيح ولا أحداً من الحواريين. ولا من اتبع المسيح على دينه؛ لا بأسر أهل ملة إبراهيم، ولا بقتلهم، وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمداً رسول الأميين؟! فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم».**

ثم يعود الشيخ بعد ذلك إلى أسلوب الوعد والاستمالة والوعيد.. فيقول:

«وما زال في النصارى من الملوك والقسيسين والرهبان والعامة من له مزية على غيره في المعرفة والدين؛ فيعرف بعض الحق، وينقاد لكثير منه، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره، فيعاملهم معاملة تكون نافعة له في الدنيا والآخرة. ثم

في فكاك الأسير وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه، فمهما عمل الملك معهم وجد ثمرته.

وأما في الدنيا فإن المسلمين أقدر على المكافأة في الخير والشر من كل أحد، ومن **حاربوه فالويل كل الويل له**، والملك لا بد أن يكون سمع السير، وبلغه أنه ما زال في المسلمين النفر القليل منهم من يغلب أضعافاً مضاعفة من النصارى وغيرهم، فكيف إذا كانوا أضعافهم؟! وقد بلغه الملاحم المشهورة في قديم الدهر وحديثه: مثل أربعين ألفاً يغلبون من النصارى أكثر من أربعمائة ألف، أكثرهم فارس. وما زال المرابطون بالثغور مع قلتهم واشتغال ملوك الإسلام عنهم يدخلون بلاد النصارى، فكيف وقد من الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم، وكثرة جيوشهم، وبأس مقدميهم، وعلو هممهم، ورغبتهم فيما يقرب إلى الله تعالى، واعتقادهم أن الجهاد أفضل الأعمال المطوعة، وتصديقهم بما وعدهم نبيهم حيث قال: [يعطى الشهيد ست خصال: يغفر له بأول قطرة من دمه. ويرى مقعده من الجنة. ويكسى حلة الإيمان، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين. ويوقى فتنة القبر. ويؤمن من الفزع الأكبر يوم القيامة].

ثم إن في بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين؛ فإن فيهم من رؤوس النصارى من ليس في البحر مثلهم إلا قليل. وأما أسراء المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون، ولا من ينتفعون به، وإنما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى رحمة لهم، وتقرباً إليه يوم يجزي الله المصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين».

ط ـ تعريف بحامل الرسالة ووجوب الإحسان إليه:

ثم يذكر الشيخ رحمه الله تعريفاً بحامل كتابه إلى ملك قبرص وهو أبو العباس، وأنه كان دائماً ما يمدح الملك عند المسلمين.

«وأبو العباس حامل هذا الكتاب قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا واستعطف قلوبنا إليه؛ فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته في الخير، وميله إلى العلم والدين، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه، وطلب الخير لهم؛ فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس، يريدون المخلق خير الدنيا

والآخرة، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعونهم إلى الله، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم. وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التي فيها طعن على بعضهم، أو طعن على دينهم؛ فإما أن يكون المخبر كاذباً. وإما ما فهم التأويل، وكيف صورة الحال. وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصي والفواحش والظلم: فهذا لا بد منه في كل أمة؛ بل الذي يوجد في المسلمين من الشر أقل مما في غيرهم بكثير، والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم».

ى ـ السهم الأخير للشيخ في نحر سرجون:

وفي نهاية الرسالة يلقي شيخ الإسلام بآخر سهامه في نحر ملك قبرص فيكتب له قائلاً:

«وأما ما عندنا في أمر النصارى، وما يفعل الله بهم من ادالة المسلمين عليهم، وتسليطه عليهم: فهذا مما لا أخبر به الملك؛ لئلا يضيق صدره؛ ولكن الذي أنصحه به أن كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ومال إليهم كانت عاقبته معهم حسنة بحسب ما فعله من الخير؛ فإن الله يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨]».

وفي الختام يقول شيخ الإسلام هذه الكلمات الجامعة لكل ما في هذه الوثيقة السياسية الفذة:

«والذي أختم به الكتاب الوصية بالشيخ أبي العباس، وبغيره من الأسرى، والمساعدة لهم، والرفق بما عندهم من أهل القرآن، والامتناع من تغيير دين واحد منهم، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله. ونحن نجزي الملك على ذلك بأضعاف ما في نفسه. والله يعلم أني قاصد للملك الخير؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد، ونعطف على خلق الله، وندعوهم إلى الله، وإلى دينه، وندفع عنهم شياطين الإنس والجن.

والله المسئول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله، ويختم له بخاتمة خير. والحمد لله رب

العالمين. وصلواته على أنبيائه المرسلين. ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين، والسلام عليهم أجمعين» (انتهى من الفتاوي ج٢٨ ص٦٠١ـ٦٣٠).

٢ـ الفوائد المستفادة من هذه الوثيقة السياسية المدهشة:

ومن هذه المقتطفات من الرسالة نعلم مدى **الحِسِّ السياسي الرهيف لشيخ الإسلام ابن تيمية، ففي هذه الرسالة حذر سرجون من التحالف مع التتار ضد المسلمين وبين له أن التتار لا يُرهبوننا وأننا منتصرون عليهم في النهاية وخوفه كذلك من التتار وأنهم لا عهد لهم ولا ذمة ولا دين، ويمكن أن يغدروا بالنصارى، وكذلك بين شيخ الإسلام مَالَهُ من يد وكرامة على سرجون وأهل ملته فقد فك أسراهم مع أسرى المسلمين عندما فاوض غازان ملك التتر في ذلك. واستعمل الشيخ أسلوب الترغيب والترهيب بذكاء بالغ مع سرجون ولم يجعل له خياراً إلا الرضوخ للأمر، وهذا قمة الذكاء والسياسة.** هذا مع أدب العبارة والمدح في مكان المدح وبيان صفاء النية والسريرة مع رغبة الخير لهذا النصراني الكافر، الذي يُعذب أسرى المسلمون في بلاده؛ والدعاء له بالخير، وجعل ما يحصل لأسرى المسلمين في بلاده من تعذيب وإهانة أنها من قبل شَعْبِه الجاهل وليس من قبله هو، كل ذلك بأسلوب بديع وسياسة حكيمة **تخبرك أيَّ رجلٍ سياسي يمارس السياسة الإسلامية النظيفة الطاهرة كان شيخ الإسلام، وكل ذلك مع دعوته إلى الإسلام وإرشاده إلى الخير. . وهل يمكن لإنسان أن يكون لديه هذا الفقه السياسي، وهذا الأسلوب الحكيم في مخاطبة الملوك ورؤساء الدول إلا من كان على علم تام بسياسات الدول وأخلاق الملوك والشعوب، عقائد الناس، وأساليب الحكمة، ثم من كان يملك ما يَعدُ ويُوعد به وإلا كان كلامه هراءاً وسفاهة. . وهذا بيت القصيد فلولا أن الشيخ كان يملك القدرة والنفوذ و(الشعبية) والزعامة التي يستطيع بها أن يؤثر في الأحداث وينفذ ما يريد لكان كلامه هذا ضرباً من التطاول والتعاظم والادعاء في غير محله، ولكنه بلا شك كان قادراً على ما يقول، ولذلك وصل إلى ما أراد.** واستطاع فكاك أسرى المسلمين في قبرص ومن يد غازان كما سيأتي.

٣ـ سفارة شيخ الإسلام إلى قازان:

الواقعة الثانية التي تعطيك الدليل أن شيخ الإسلام تصرف في الواقع العملي تصرف رئيس دولة، وقائد أمة هي سفارته إلى قازان ملك التتار. واجتماعه به، ومحاولته معه أن يعطي الأمان لأهل دمشق، وألا يغزوهم ما دام يزعم أنه مسلم.

وإليك بعض النقول في ذلك.

يقول ابن كثير رحمه الله:

وقعه قازان

أـ أحوال أهل دمشق بعد غزو التتار لبلاد الشام:

«لما وصل السلطان إلى وادي الخازن عند وادي سَلَمِيَّة فالتقى التتر هناك يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول (لعام ٦٩٩هـ) فالتقوا معهم فكسروا المسلمين وولى السلطان هاربا فإنا لله الأولين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين والله تعالى يوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين، ويتمها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين.

وذلك: أن السلطان ـ أتم الله نعمته ـ حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته، وصحة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همته، وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين: من جهاد أعداء الله المارقين من الدين، وهم صنفان:

أهل الفجور والطغيان، وذوو الغي والعدوان، الخارجون عن شرائع الإيمان، طلباً للعلو. في الأرض والفساد، وتركاً لسبيل الهدى والرشاد. وهؤلاء هم التتار، ونحوهم من كل خارج عن شرائع الإسلام وإن تمسك بالشهادتين، أو ببعض سياسة الإسلام.

والصنف الثاني: أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المنافقون للشرعة والطاعة. مثل هؤلاء الذي غُزُوا بأمر السلطان من أهل الجبل. والجرد، والكسروان. فإن ما منَّ الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام، هو من عزائم الأمور التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الإسلام«أ. هـ.

وبعد أن يبين الشيخ رحمه الله العقائد الباطلة لهذه الفرق والتي بموجبها وجب قتالهم وحربهم، ثم يذكر الشيخ ما قام به هذا الجيش في حربه لهؤلاء المارقين المخالفين لأحكام الدين. ويقول «الحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره، وإخلاء الجبل منهم، وإخراجهم من ديارهم».

ثم يوصي بعد ذلك السلطان بما يجب عليه أن يفعله حسما لمادة هذا الشر فيقول:

«تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد، وإقامة الشريعة في البلاد. فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرى كثيرة من يقتدون بهم، وينتصرون لهم. وفي قلوبهم غلّ عظيم. وإبطان معاداة شديدة، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم. ولو أنه مباطنة العدو. فإذا أمسك رؤوس الذين يضلونهم - مثل تنبي العود - زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله.

ويتقدم إلى قراهم. وهي قرى متعددة بأعمال دمشق، وصفد، وطرابلس، وحماة وحمص، وحلب بأن يقام فيهم شرائع الإسلام، والجمعة والجماعة، وقراءة القرآن. ويكون لهم خطباء ومؤذنون، كسائر قرى المسلمين، وتقرأ فيهم الأحاديث النبوية. وتنشر فيهم المعالم الإسلامية. ويعاقب من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام.

فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا: نحن قوم جبال. وهؤلاء

دمشق في خوف شديد على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ثم إنهم استكانوا واستسلموا للقضاء والقدر، وماذا يجدي الحذر إذا نزل القدر، ورجع السلطان في طائفة من الجيش على ناحية بعلبك والبقاع، وأبواب دمشق مغلقة والقلعة محصنة والغلاء شديد والحال ضيق وفرج الله قريب، وقد هرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلى مصر، كالقاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوابي والي البر، جمال الدين بن النحاس والي المدينة، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام، وبقي البلد شاغراً ليس فيهم حاكم سوى نائب القلعة.

وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاءوا إلى باب الجابية فكسروا أقفال الباب البراني وخرجوا منه إلى بر البلد، فتفرقوا حيث شاءوا لا يقدر أحد على ردهم، وعاثت الحرافشة (والمعنى اللصوص والعاطلون) في ظاهر البلد فكسروا أبواب البساتين وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوا ذلك بأرخص الأثمان، هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة، فاجتمع **أعيان البلد والشيخ تقي الدين بن تيمية في مشهد علي واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه، وأخذ الأمان منه لأهل دمشق**، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر **فاجتمعوا به عند النبك**، وكلمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد» أ. هـ (البداية ج١٤ ص٧).

وهذا تلميذ من تلاميذ الشيخ وصاحب من أصحابه وهو أبو عبدالله محمد بن الشيخ الصالح عمر بن السيد أبي بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي. كان هذا الشيخ الجليل مع شيخ الإسلام يوم حادثة قازان فحكى يقول كما ذكر ابن كثير:

ب ـ حكاية خروج الشيخ لملاقاة قازان:

«وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام **تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه**

قال لترجمانه قال للقان (أي الملك): **أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضي وإمام وشيخ على ما بلغنا فغزَوْتَنا وبلغَت بلادَنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام**، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فَمَا وَفَّيت. قال وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور وَنُوَبٌ، **قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل**. قال وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل له ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكُلُّه مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، ثم قال إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه «اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره» قال وقازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديه. قال فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين ابن صصري وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، **والله لا نصحبك** من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم. قال فانطلقنا عصبة وتأخر هو في **خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه**، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو **ثلاثمائة فارس في ركابه**، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أَبَوْا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فَشَلّحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره، وقد تقدم ذلك» (البداية ص٨٩ ج ١٤).

ح ـ شيخ الإسلام يجعل سفارته إلى قازان يوم من أيام الله:

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقد جعل هذا اليوم يوماً من أيام الله وظل يذكره، ويُذَكِّر به إلى آخر حياته، لما كتب رسالة من سجنه الأخير الذي مات فيه والذي كان بسبب فتواه في عدم جواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة، فجعل أهل البدع هذه الفتوى منه دليلاً ـ في زعمهم ـ على أنه يحتقر الرسول ولا يتأدب معه ويفتي بحرمة زيارته (هكذا) فحكموا بسجنه ومنعه من الكتابة والتأليف!! ومن

اجتماع أحد من أصحابه به. فكتب رسالة من داخل السجن إلى أصحابه يبين لهم أن جهاده اليوم في هذه الفتوى ورسالته (الإخنائية) وهي الرد على الإخنائي الذي تصدى للشيخ في هذه الفتوى ونشر هذا في الناس من الجهاد الذي يعادله ويماثله جهاده في مواقفه السابقة يوم قازان، ويوم خرج إلى الجبلية (الرافضية الإسماعيلية النصيرية) ويوم ناظر الأحمدية الاتحادية الرفاعية.

وهذا نص رسالة الشيخ في التذكير بيوم قازان.

بسم الله الرحمن الرحيم

وكذلك في رسالة شيخ الإسلام إلى ملك قبرص ذكره بهذه الواقعة مع قازان فقال:

«ولما قدم مقدم المغول قازان وأتباعه إلى دمشق وكان قد انتسب إلى الإسلام، لكن لم يرض الله ولا رسوله ولا المؤمنون بما فعلوه حيث لم يلتزموا دين الله وقد اجتمعت معه وبأمرائه وجرى لي معهم فصول يطول شرحها لا بد وأن تكون قد بلغت الملك، فأذله الله وجنوده لنا، حتى بقينا نضربهم بأيدينا ونصرخ فيهم بأصواتنا» أ. هـ (الرسالة القبرصية من الفتاوي).

د ـ شيخ الإسلام قائد جماعة ومرشد أمة:

أظن بعد هذا كله أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قام بما أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه من سَدّ ما يمكن سده من الثغور التي فتحت على أمة الإسلام وكان في كل ذلك قائد جماعة، ومرشد أمة.

وقد قدم في كل ذلك النموذج الذي يجب أن يحتذى والمثال الذي يظل لمن بعده مثلاً يحتذى، بل قمة سامقه تستعصي على المطاولة.

رابعا: موقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من القتال في سبيل الله

كان لشيخ الإسلام رحمه الله موقف مشهور من القتال في سبيل الله وقد قام بجوانب كثيرة في هذا القتال منها:

١ـ إعطاء الرؤية السياسية:

إعطاء الرؤية السياسية والعقائدية الواضحة للفرق والحكومات في عهده. والإفتاء بمن يجب قتالهم، ومن يحرم قتالهم؟ ومتى يجب تقديم ذلك ومتى يجب تأخيره؟ وتفصيل أحوال الناس ومواقفهم من الجهاد فقد أفتى في حق التتار وأخبر أنهم مع إعلانهم الإسلام إلا أنهم كفار معتدون يجب حربهم، وأفتى بكفر الجبلية الإسماعيلية، وطالب بحربهم والقضاء على فتنتهم وإلزامهم شرائع الإسلام. وكذلك أمر بحرب الصليبيين وإن كان يرى أن خطرهم في حقيقته أقل من خطر الطائفتين السابقتين..

٢ـ استنفاره للأمة من أجل ملاقاة أعدائها:

تصديره بيانات، ونداءات لأبناء الأمة الإسلامية في وجوب حرب التتار، والباطنية، ودعوة سلاطين العالم الإسلامي وأمرائه إلى التعاون والتناصر من أجل الوقوف في وجه أعداء الأمة. من التتر، والصليبيين، والباطنية. وكانت هذه النداءات بمثابة إعلان حرب على أعداء الأمة، ونفير عام لأمة الإسلام. وهذا الجانب غير الجانب السابق فالجانب السابق هو الفتوى والرؤية السياسية فقط.

وأما هذا الجانب فقد كان بمثابة إعلان الحرب، واستنفار الأمة، وفرق بين الموقفين.

٣ـ خوضه للمعارك بنفسه:

وأما الجانب الثالث فهو قيامه بنفسه رحمه الله بخوض المعارك قائداً لأصحابه ومجموعته أحياناً، وقائداً ميدانياً وجندياً في جيش قومه أحياناً.

٤ـ قيامه بنفسه بالسفارة مع الملوك وبإرسال الكتب إليهم:

والجانب الرابع الذي مارسه شيخ الإسلام ابن تيمية في القتال والجهاد في سبيل الله فهو قيامه بالتفاوض بنفسه مع رؤساء الدول المناوئة لأمة الإسلام فقد ذهب بنفسه إلى قازان ملك التتار وفاوضه في وجوب رجوعه عن حرب المسلمين، إن كان مسلماً يزعم الإسلام. وقال له: «آباؤك الكفار كانوا أفضل منك صنيعاً مع المسلمين». وطالبه كذلك بفك أسرى المسلمين الذين عنده، ولم يَرْضَ أن يأكل من ضيافتهم شيئاً قائلاً لهم بكل شجاعة «هو مال حرام اغتصبتموه من المسلمين». وكذلك أرسل خطابه إلى ملك قبرص يأمره بفك أسرى المسلمين.

هذه أربعة جوانب أساسية قام شيخ الإسلام ابن تيمية في الجهاد في سبيل الله وهي تغطي كل مطالب الجهاد فقد قام شيخ الإسلام بدور القائد السياسي والمرشد الديني، والحاكم المسلم الذي يعلن الحرب، ويفاوض العدو، كما قام بدور القائد العسكري، والجندي الصالح، هذا إلى جانب مهمته وكونه عالماً ومرشداً ومربياً، وداعياً إلى الله سبحانه وتعالى.

٥ـ نماذج من القتال الذي مارسه الشيخ:

ولما كنا قد بينا في الفقرات السابقة جميع الجوانب تقريباً إلا الجانب الخاص بمباشرته ـ رحمه الله ـ للقتال في سبيل الله بنفسه قائداً أحياناً، وجندياً أحياناً. فإننا نعقد هذا الفصل لإلقاء الضوء على هذا الجانب من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

أ ـ قتاله لأهل الجبل (الكسروانيين) من أبناء الفرق الباطنية:

قال الإمام ابن كثير في أحداث سنة ٦٩٩هـ:

«وفي يوم الجمعة العشرين منه (أي من شهر شوال) ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه **خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم،** وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثير منهم، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله».

وهنا نجد شيخ الإسلام رحمه الله أمير مجموعة تقوم بقتال بعض الخارجين عن أحكام الإسلام ممن كانوا يدعونه وهم أعدى أعداء الأمة فهم الذين انضموا إلى التتار عندما جاءوا وكانوا أعظم عون لهم على غزو العالم الإسلامي، وهم كذلك الذين كانوا مع الصليبيين ضد المسلمين.

وكان هذا العمل الذي حث عليه الشيخ ابن تيمية رحمه الله سلطان مصر والشام وقتذاك محمد بن قلاوون (الناصر)، وأمره أن يسمح له بتجريد جيش لهؤلاء الخارجين وأفتاه بوجوب قتالهم، وخرج الجيش مع نائب السلطنة في الشام وهو جمال الدين آقوش الأفرم كما مر، ولكن كان الشيخ في هذه الحملة قائد جماعة، وهو مفتي القوم.. ولقد ظل شيخ الإسلام يذكر ذلك في كتبه ورسائله، ويحدث تلامذته به ويعتبر هذا اليوم من أيام جهاده التي مَنّ الله بها عليه، ولقد كتب بخصوص ذلك رسالة إلى السلطان محمد بن قلاوون نقتطف فقرات منها يقول فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الداعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومن أيد الله في دولته الدين، وأعز بها عباده المؤمنين، وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين، نصره الله ونصر به الإسلام، وأصلح له وبه أمور الخاص والعام، وأحيى به معالم الإيمان، وأقام به شرائع القرآن، وأذلّ به أهل الكفر والفسوق والعصيان.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإنَّا نَحْمَدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير. ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

أما بعد. فقد صدق الله وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. وأنعم الله على السلطان، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تعهد في القرون الخالية. وجدد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية. وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق، أفضل كانوا يعلموننا ويقولون لنا: أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين. ومن قتل منكم فهو شهيد.

وفي هؤلاء كثير لا يقرون بصلاة، ولا صيام، ولا حج ولا عمرة، ولا يحرمون الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة **والنار**. من **جنس الإسماعيلية، والنصيرية والحاكمية، والباطنية، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين**.

فتقدم المراسيم السلطانية بإقامة شعائر الإسلام: من الجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، وتبليغ أحاديث النبي ﷺ في قرى هؤلاء من أعظم المصالح الإسلامية. وأبلغ من الجهاد في سبيل الله.

وذلك سبب لانقماع من يباطن العدو من هؤلاء، ودخولهم في طاعة الله ورسوله، وطاعة أولي الأمر من المسلمين.

وهو من الأسباب التي يعين الله بها على قمع الأعداء.

فإن ما فعلوه بالمسلمين في أرض (سيس) نوع من غدرهم الذي به ينصر الله

المسلمين عليهم. وفي ذلك لله حكمة عظيمة. ونصرة للإسلام جسيمة.

قال ابن عباس «ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو»ولولا هذا وأمثاله ما حصل للمسلمين من العزم بقوة الإيمان، وللعدو من الخذلان، ما ينصر الله به المؤمنين، ويذل به الكفار والمنافقين.

والله هو المسؤول أن يتم نعمته على سلطان الإسلام خاصة، وعلى عباده المؤمنين عامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً». (العقود الدرية ص١٨٢ـ١٩٤) انتهى.

والشاهد في كل ذلك أن دور شيخ الإسلام هنا كان التحريض على القتال، وبيان الوجه الشرعي في حرب هؤلاء المفسدين والخروج بنفسه مع جماعته للحرب، وقيامه كذلك بدور الإرشاد والبيان، وتطبيق الحدود من استتابة هؤلاء المارقين، ثم من إرشاد السلطان بما يجب عليه مستقبلاً قطعاً لدابر الفتن. .

ولو أن وصية شيخ الإسلام هذه قد فطن لها الحكام والأمراء وطبقوها لما كنا نعاني مما نعاني منه اليوم من فرق الضلال هذه.

والشاهد كذلك مما نحن بصدده من بيان دور شيخ الإسلام في العمل الجماعي أنه يمارس القتال بنفسه من خلال جماعته وأنصاره وأصحابه.

ب: قتال التتار:

كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دور عظيم في حفز همم المسلمين لقتال التتار. فقد دخل هؤلاء المجرمون بغداد سنة ٦٥٦هـ أي قبل ميلاد شيخ الإسلام بخمس سنوات فقط وكانوا وقتذاك كفاراً معلنين للكفر، ولكنهم لم يلبثوا حتى أعلنوا إسلامهم ولكنهم استمروا مع ذلك في غزو ممالك الإسلام وتشريد وقتل المسلمين، وكانوا في فترة كفرهم قد دهموا بلاد المسلمين، ومهد لهم خبثاء الباطنية الذين كانوا

قد استُوْزِرُوا لخلفاء بني العباس، ووصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة.

ولما سقطت الخلافة هاب الناس جميعاً التتر، ولم يكد يقف أمامهم إلا المماليك بقيادة قطز والذي كسرهم في موقعة عين جالوت (رمضان سنة ٦٥٨هـ) ولكن التتار بعد ذلك أعلنوا إسلامهم، واستمروا مع ذلك على غزوهم للعالم الإسلامي وتورع الناس عن حربهم، وكانت كرّتهم الثانية على أهل الإسلام أشد من هجمتهم الأولى ولكن شيخ الإسلام الذي شب في خلال هذه الفتنة الماحقة التي لحقت بالإسلام والتي اجتمع فيها الأعداء من كل جانب على المسلمين، فالتتار المعلنون لإسلامهم الزائف من جانب، والصليبيون من الجانب الآخر، والفرق الباطنية تحارب مع هؤلاء وهؤلاء ضد أهل الإسلام، وأما أهل السنة والجماعة فإنه كان عليهم أن يواجهوا هذه القوى جميعاً، هذا ولم يكن حكومة مركزية قوية بل خلافة اسمية لبني العباس لا وجود لها في الواقع وأمراء متخاصمون من المماليك.

وكانت مصر في ذلك الوقت هي عاصمة أهل السنة، وبلاد الشام تابعة لمصر، ولكنها مهددة بالتتار الذين وصلوا أسوار دمشق مرة ثانية بعد أن أخرجوا منها في كرتهم الأولى. والصليبيين الذين يحتلون أجزاء كثيرة من الأراضي الساحلية، ثم بالفرق الباطنية التي تعتصم بالأماكن الجبلية الوعرة في لبنان وسورية..

في هذه المعادلة الصعبة نشأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ولم تكن المعادلة الداخلية لأهل السنة بأحسن حالاً من ذلك فالتصوف الإلحادي ينخر في عظام الأمة، والفقهاء والقضاة المتنفذون والمتبوعون هم من مقلدة المذاهب، والحرب دائرة بينهم، وعموم الأمة في جهل عظيم..

وبالرغم من أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نشأ في هذه المعادلة العسيرة إلا أنه بفكره الثاقب استطاع أن يستوعب هذه المعادلة سريعاً، وأن يعمل على حلها وإخراج المسلمين من حلقتها الرهيبة.

٦ـ جهاد الشيخ على جميع الجبهات:

وكان لا بد من أن يشتغل على جميع الجبهات، فبدأ بإصلاح الجبهة الداخلية

لأهل السنة فدعا إلى الدين الحق ووضع الأصول والقواعد لحقيقة الدين، وبث أنصاره وأصحابه الذين اجتمعوا إليه في كل مكان، وبدأ يرتب الأخطار الخارجية حسب أولوياتها فوجد أن التتار هم أعظم خطر خارجي يهدد الأمة فأفتى بكفرهم وإن أعلنوا الإسلام وبدأ يحشد المسلمين لحربهم، وسافر من الشام إلى مصر لاستنهاض أمرائها بوجوب المجيء للشام لحرب التتار وعدم جواز الانتظار حتى يجتاحوا بلاد الشام ويأتوا إلى مصر..

ثم أفتى بوجوب قتال الفرق الباطنية الموالية للتتار التي تشكل (طابوراً خامساً) ومرضاً خبيثاً في جسم الأمة، وجرد الحملات عليهم، ثم شرع في تهديد النصارى وردعهم عن غزو بلاد الإسلام مذكراً إياهم أن الدائرة ستكون عليهم، ثم وهو في كل ذلك يحارب المذهبية المتعصبة، والبدع والخرافات الجاهلية. التي أفسدت حياة المسلمين، ويؤلف الرسائل، ويجادل ويناقش، ويقيم المناظرات، ولا يمضي يوم حتى يكثر أتباعه، وتشتد شوكة جماعته، فيقيمون الحدود ويعزرون، ويزيلون المنكرات من أوساط المسلمين. ولا شك أن شيخ الإسلام كان عمله عمل دولة بمعنى الكلمة وليس عمل شيخ علم فقط.

والخلاصة أن شيخ الإسلام جَيّشَ الأمة كلها من أهل السنة لحرب التتار، وخرج في عدة معارك بنفسه في موقعة شقحب التي كسر فيها التتار في حصار دمشق، وخرج بنفسه لقتال الجبلية الباطنية الموالين للتتار المحاربين لأهل السنة والجماعة، وانشغل كذلك بمحاربة الصليبيين وإرسال الكتب والرسل لهم، وإنذارهم وتخويفهم أن يقيموا حلفاً مع التتار لأن العاقبة ستكون عليهم بذلك..

ومع كل هذا الجهاد العملي والقتال لأهل الكفر والمنافقين فإنه لم يغفل أبداً عن تأصيل منهج أهل السنة والجماعة، والرد على كل المنحرفين عن جادة الحق سواءً من الكفار الأصليين كالنصارى، أو المنتحلين للإسلام وليسوا من أهله كالتتار والباطنيين الرافضة، وكذلك الزنادقة الرفاعية أهل الألاعيب الشيطانية من أكلة النيران واللعب بالحيات، وضرب أنفسهم بالسهام والحراب، وكذلك جاهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما انتشر بين أهل السنة والجماعة من بدع وانحرافات كالتعصب المذهبي والتقليد والجمود، وترك الاستدلال بالكتاب والسنة، وكذلك،

ما انتشر فيهم من البدع والخرافات كشد الرحال إلى المزارات، والعكوف عند القبور ودعاء الأموات وما استحدثوه من بدع في العبادات والعادات مما يخالف شريعة الإسلام.

وقد كان يرى رحمه الله أن تخليص الدين من كل ذلك واجب وأي واجب وأنه لا يجوز تأجيله ولا السكوت عنه انشغالاً بحرب التتار والصليبيين، ولم يقل كما يقول كثير من الذين لا يعلمون حقيقة دين الإسلام: ليس هذا أوان بيان هذه الأحكام التي تفرق بين المسلمين، أو يجب أن ننشغل بما هو أولى وأهم من حرب التتار والصليبيين الذين يريدون هدم الإسلام بل رأى من واجبه بيان الدين كاملاً، وإزالة كل غبش وظلام وبدعة تحوم حوله، ليبقى صراط الله مستقيماً لكل سالك، وليبقى الدين نقياً طاهراً كما أنزل.. علماً أن دخول شيخ الإسلام في هذه الأمور الفرعية التي عارض بها المنحرفين من أهل السنة قد جَرَّتْ عليه معظم البلاء الذي تعرض له. فقد كان سجنه الأول في مصر الذي استمر أربع سنوات بسبب نشره لمعتقده في أسماء الله وصفاته، وسجن في المرة الثانية بدمشق بسبب فتواه بأن طلاق الثلاث تقع واحدة مخالفاً بذلك رأي الأئمة الأربعة جميعاً، مما أحنق أتباع المذاهب من المقلدة عليه، وأما سجنه الثالث والذي مات فيه في القلعة فقد كان بسبب فتواه أنه لا يجوز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة، وأنه لا يجوز شد الرحال بنية زيارة قبر الرسول ﷺ.. فأفتى مشايخ السوء أنه يقول بعدم جواز زيارة قبر الرسول (هكذا) وقالوا هذا إهانة للرسول يستحق بها ابن تيمية التأديب والتعزير فسجن من أجل ذلك، من عصر الاثنين السادس عشر من شعبان سنة ٧٢٦هـ إلى أن توفاه الله ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ أي أنه مكث سنتين وشهرين مسجوناً وكان ذلك بسبب الفتوى الآنفة والتي قال فيها أنه لا يجوز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة. والعجيب في الأمر أن شيخ الإسلام ابن تيمية فرح فرحاً كبيراً بهذا السجن الأخير وقال أنا كنت منتظراً لذلك والشاهد أن شيخ الإسلام جعل بيان الحق في هذه المسائل (الفرعية) أو ما يسميه بعض الناس الأمور الخلافية أهم من السكوت والتصدي لما هو أكبر مما يراه الناس كقتال التتر أو الصليبيين.. ولم يقل مثلاً لا يجوز أن نشغل المسلمين بهذه المسائل الفرعية في هذه الأوقات الحرجة العصيبة من تاريخ الأمة، ولم يقل كذلك إن هذه الأمور قد تؤخرني عن الاضطلاع بما هو أهم من التصدي لقتال التتار

والصليبيين وغيرهم ولا شك أن المصلحة الشرعية الحقيقية هي ما ارتآه شيخ الإسلام وسار فيه. . فإن بيان الحق واجب وكتمان العلم من أكبر الآثام، ولقد كان ببركة جهاد الشيخ العلمي أن استنار الطريق للمسلمين ولو سكت أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه البدع العقائدية والعبادية التي نشأت في عهده لكان سكوته إقراراً، وكان هذا يعني بقاءها واستمرارها، والشاهد من كل هذا الاستطراد هو البيان أن شيخ الإسلام رحمه الله لم يشغله شأن حرب التتار وأعداء الأمة عن بيان الحق، كما أنه كذلك لم ينشغل ببيان هذه القضايا العلمية عن حرب أعداء الأمة، وتوحيد الصفوف، وجمع الكلمة من أجل التصدي لحرب التتار، والصليبيين، والرافضة الباطنيين. ولا شك أنه كان في جيوش المسلمين من أهل السنة التي حاربت هذه الطوائف والأعداء كثير من المبتدعة والجهال بل لعل هذا كان عامة هذه الجيوش من أهل السنة. . ولم يقل الشيخ رحمه الله فلنجلس للتدريس حتى نوجد جيشاً لا بدعة فيه قط، ولا جاهل فيه أبداً، ولا مخالف لنا فيه مطلقاً، لأن هذا لا يكون إلى أبد الدهر. وإنما حارب بالأمثل والمناسب والموافق من أهل السنة القريبين إلى الحق: دفع بهم أهل الباطل الكائدين للإسلام وأهله. علماً أن شيخ الإسلام رحمه الله لم يسلم أيضاً من أهل السنة هؤلاء الذين حارب في صفوفهم، ودافع بكل قوته عنهم، وجمع كلمتهم من أجل حرب التتار، واستخلص أسراهم من التتر معرضاً نفسه للقتل، واستخلص كذلك الأسرى منهم من الصليبيين، ولقد كان أهل السنة هؤلاء كما رأينا في عناد بعضهم وعداوة كثير منهم لشيخ الإسلام ابن تيمية وحسدهم وملاحقتهم له، ولكنه رحمه الله ارتفع على كل هذه الأحقاد والصغائر والانتقام لنفسه. . بل كان يرى أنهم مأجورون في عداوتهم له لأنهم مجتهدون، في ذلك ويبدو عليهم الإخلاص لله في عداوتهم له!! ومن أجل ذلك قال «كل من آذاني فهو في حلّ مني. . لا أحب أن يعذب مؤمن بسببي»!!.

بمستوى هذه الهمة العالية عاش شيخ الإسلام، مقدراً للمصالح الشرعية الحقيقية، مرتفقاً فوق حظ النفس، ورغباتها الصغيرة، كريماً في أعدائه الذين سجن واضطهد وعذب بسببهم، واضعاً عداءه كله مع أعداء الله الحقيقيين من التتار والصليبيين والملاحدة الزنادقة والباطنيين، وأما أهل السنة والجماعة من المبتدعة والمقلدة، فإنه أحبهم ووالاهم، ودافع عنهم، وعندما قدر في يوم من الأيام أن

يضرهم لم يفعل فعندما أراد السلطان محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام وكان يحب شيخ الإسلام ويعظمه أن ينتقم من أعداء ابن تيمية واستشاره أن يضرب عنق ابن المنجي قاضي قضاة المالكية الذي أفتى بسجن ابن تيمية لم يرض شيخ الإسلام بذلك وقال «كل من آذاني فهو في حل مني». .

وفي هذا درس عظيم بليغ لمن يسيرون على منهج الخوارج في كل عصر، الذين يجعلون عداءهم كله لأهل السنة والجماعة يأخذون عليهم الصغيرة، والزلة، ويشنون عليهم الغارة لذلك، ويتركون أهل الكفر والنفاق، وصدق رسول الله ﷺ [يقتلون أهل الإسلام، ويتركون أهل الأوثان]!! فهل يتعلم هؤلاء السبابون الشتامون المعادون لعلماء أمة الإسلام المتطاولون عليهم باليد واللسان هل يتعلمون من شيخ الإسلام ابن تيمية ومن على طريقه من أهل السنة والجماعة الحقيقيين الذين يوالون أهل الإسلام ويجعلون عداءهم فقط في أهل الكفران.

والخلاصة أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بنى صراطه في الدعوة (استراتيجيته) على ما ذكرنا من التصدي لجميع الأخطار التي تجابه أمة الإسلام وقاوم كل خطر بما يستحقه وكان له في كل ميدان السهم المعلى، وبذلك رأب من صدع الإسلام في وقته ما شاء الله أن يرأب، وترك تراثاً من العلم والبيان والإرشاد منيراً ما بقي من الزمان، ووضع أصولاً لأهل السنة والجماعة لم تزل منارات لهم إلى يومنا هذا. . وكان في كل ما صدر قائد أمة، وإمام جماعة شاركته أفراحه وأحزانه، بل تعرضت للأذى معه بسبب مواقفه وفتاويه.

يقول ابن كثير رحمه الله: قال البرزالي:

«وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا، وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في السفر وإعمال المطى إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين.
قال: وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزر جماعة منهم على دواب ونودي عليهم

ثم أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة، وسكتت القضية» (البداية ص١٢٣ ج١٤).

وهذا هو سجنه الأخير الذي مات فيه رحمه الله، سجن بسبب الفتوى في مسألة الزيارة، ولكن أعداءه (وللأسف أنهم من أهل السنة الذين ظل ينافح عنهم طيلة حياته ويعمل من أجلهم) لم يسجنوه وحده بل سجنوا أيضاً جماعة من أصحابه بسبب فتوى الشيخ **فهل يظن ظان بعد ذلك أن جهاد الشيخ كان جهاداً فردياً، وسعياً انفرادياً بل كان عملاً جماعياً.**

وللعجب أيضاً فإن الكتاب السلطاني الذي ورد بسجن الشيخ السجن الذي مات فيه كان أيضاً من السلطان محمد بن قلاوون نصير الشيخ.

ولكنه أمام سعي العلماء الحاسدين، وأئمة العامة الناقمين على الشيخ اضطر السلطان أن يأمر بحبس ابن تيمية وسجنه وخاصة أن هؤلاء العلماء قد صوروا للسلطان أن ابن تيمية قد أهان رسول الله لأنه أفتى بعدم جواز شد الرحال إليه!! وأنه بذلك مارق من الدين!! وعلى كل حال لقد فرح شيخ الإسلام بالسجن لأن ذلك سيكون انتصاراً لعلمه وفتاويه وللحق الذي نادى به، لأن الحق إذا ارتبط بالمحنة كتب له البقاء والخلود والقبول أيضاً، ويحكي ابن كثير ذلك فيقول:

«قال البرزالي: وفي يوم الاثنين عصر سادس عشر شعبان اعتقل الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين بن تيمية بقلعة دمشق، حضر إليه من جهة نائب السلطنة تنكز مشدا الأوقاف وابن الخطيري أحد الحجاب بدمشق، وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بذلك. وأحضرا معهما مركوباً ليركبه، وأظهر السرور والفرح بذلك، وقال أنا كنت منتظراً لذلك، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة، وركبوا جميعاً من داره إلى باب القلعة، وأخليت له القاعة وأجري له الماء ورسم له بالإقامة فيها، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورسم لهما ما يقوم بكفايته» (البداية ص١٢٣ ج١٤).

وهكذا يكون العلماء في العلم سماحة وفقها واستعذاباً للآلام في سبيل نصرة الحق والدين.

والحمد لله رب العالمين

كتاب

المسلمون والعمل السياسي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تعريف بالكتاب

يختلف الدعاة اليوم حول العمل السياسي، وخاصة ما يتعلق منه بمجالس التشريع في الدول (الديمقراطية)، وتكوين الأحزاب السياسية من منطلق ديني، وتكوين الاتحادات والنقابات والهيئات، والتجمعات، وكذلك حول دخول الدعاة والعلماء في المعترك السياسي من حيث نقد الحكام، وتوجيه مسيرة الأمة، وكذلك قد وصل الاختلاف بين الدعاة إلى تولي المناصب القيادية في الحكومات الإسلامية المعاصرة ومدى موافقة هذا أو مخالفته للإسلام الصحيح. . الخ.

وهذه الرسالة على صغر حجمها تجيب الإجابة الشافية بحول الله وتوفيقه على كل ذلك.

إنها منطلق جديد للدعوة إلى الله.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد،

فإن شباب الدعوة الإسلامية يختلفون فيما بينهم اختلافاً كثيراً في كيفية الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر، وخاصةً حول الوسائل الحديثة للدعوة، وكيفية الاستفادة منها، والدخول إليها، وتطويعها للإسلام ومن هذه الوسائل التي كثر حولها الاختلاف، الحزب السياسي، ومجالس التشريع، (البرلمانات، ومجالس الأمة.. الخ). والنقابات، والاتحادات، والتجمعات، والجامعات والمدارس والمعاهد، وكذلك يختلف الدعاة حول تولي المناصب القيادية في الدول الإسلامية المعاصرة، أو الدول الأجنبية الكافرة، وهل مثل هذا العمل مشروع أم لا، وهل هو طريق موصل إلى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أم لا....

وقد رأيت من واجبي حسم هذا الخلاف بحول الله وقوته، وإزالة الشقاق في ذلك، وبيان الرأي فيه مع الحجة والدليل آملاً من الله سبحانه وتعالى وراغباً إليه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يجعل منه فاتحة خير على الأمة الإسلامية بأسرها، وأن يجعل منه منطلقاً لأبناء الأمة ودعاة الإسلام ليحققوا لأمتهم العز والنصر والتمكين، وأن يعملوا لإزالة سلطان الكافرين وتصدر المنافقين المبطلين، ليتولى أمور الأمة أهلها، وتعود الأمانة إلى أصحابها، والأمور إلى نصابها. تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

وأرجو ألا يبخل إخواني عَليَّ بالنصح والتسديد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فلنعمل جميعاً على سد ثغور الإسلام، ورتق الفتق في ثوبه، وجمع صفوف أبنائه، والانطلاق نحو العمل الجاد، والجهاد بكل أنواعه وأساليبه حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

عبدالرحمن عبدالخالق
الكويت في الثاني من ربيع الآخر سنة ١٤٠٦هـ
الموافـق ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٨٥م

الباب الأول

مقدمات في العمل السياسي

تعريفه، حكم العمل السياسي، السياسة النبوية، سياسة الراشدين، حال المسلمين بعد سقوط الخلافة، واقعنا اليوم، اختلاف الدعاة في العمل السياسي

تعريف:

المقصود بالسياسة في العرف والاصطلاح الشائع اليوم هو: (قيادة الناس والاهتمام بالأمور العامة، وشؤون الحكم، وعلاقات الدول بعضها ببعض).

أولاً: السياسة من صميم الدين:

ومما لا شك فيه أن موضوع السياسة من صميم الدين، ومن تكاليف رب العالمين لأمة خير الأنبياء والمرسلين. والأدلة على هذا أكثر من أن تحصر، بل هذا من المعلوم من الدين ضرورة، فكل مسلم لا يجوز له أن يجهل أن الإسلام قد جاء لإنشاء أمة، وإقامة نظام ودولة، تقيم العدل، وتحارب الكفر والفساد وتطبق الأحكام، ورسولنا محمد ﷺ لعله الرسول الوحيد بين الرسل الذي جمع في حياته بين مهمة الدعوة وواجبات الحكم والسيادة، فقد كان هادياً ومبشراً ونذيراً (كان هناك بعض الأنبياء ممن جمعوا بين ذلك كداود وسليمان، وأما الرسل فلم يتمكن رسول من الحكم الكامل والرسالة إلا نبينا محمد ﷺ)، وكذلك قد كان حاكماً وقاضياً، وقائد جيش، بل قد جعله الله مرجعاً للمسلمين في كل شجار وخلاف، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥] ولم يجعل الله له مندوحة من تر

تطبيق أحكام الدين حيث يقول له: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩] وأمره بتكوين الجيوش والخروج للغزو والقتال ولو بنفسه فقط حيث يقول له: ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٤].

بل إن الله أمر المؤمنين ألا يغادروا أماكنهم إذا كانوا مع النبي ﷺ في أمر جامع غزوة أو غيرها إلا باستئذان كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [سورة النور، الآية: ٦٢]، وهذا بالطبع يتنافى تماماً مع القول بأن الرسول مبلغ فقط أو مجرد مرشد أو موجه بل هو قائد مسؤول محاسب أمام الله على تصرفاته في قيادته، ومما يدلك على هذا عتاب الله له لأنه أذن لمجموعة من المسلمين أو المنافقين استأذنته قبل أن يعرف عذرهم، وهل هم صادقون أم كاذبون. قال تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٤٣] وكان هذا في غزوة تبوك.

والخلاصة أن النبي كان قائد أمة، وحاكم جماعة، وإمام دولة مع كونه نذيراً للعالمين، وبشيراً للمؤمنين، ومبلغاً للناس أجمعين، ولا شك أيضاً أن الرسول ﷺ قد ترك الناس على هذا الأساس، أعني أنهم أمة قائمة بأمر الله، وأنه لا بد وأن يكون فيهم خليفة يقوم بالأمر من بعده، بل توفي الرسول ﷺ وقد عقد راية لحرب الروم، وعين القائد على ذلك وهو «أسامة بن زيد» وكذلك أمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب فقال: [أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب] (رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع (٢٣١).

وعين رسول الله ﷺ من يؤم المسلمين بالصلاة بعده فقال: [مروا أبا بكر فليصل بالناس] (رواه البخاري وأحمد والترمذي وابن ماجه (صحيح الجامع (٥٧٤٢)، وكان هذا منه إعلاناً بأنه الإمام والخليفة بعده، لأن الصلاة هي ركن الدين الأعظم بعد التوحيد.

كل هذا يدلك على أن إقامة الأمة والدولة والحكم من صلب الدين ومن واجباته

الأساسية ولذلك أجمع المسلمون على ذلك في كل عصورهم. وأنه يجب تولية إمام وخليفة وجاء القرآن بذلك، والسنة كذلك، كما قال ﷺ: [من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية] (رواه مسلم)، وقال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨]، والمقصود هنا أمانة الحكم.

ثانياً: هل مارس رسول الله العمل السياسي قبل الهجرة؟!

وقد يظن ظان أن الرسول ﷺ لم يمارس العمل السياسي إلا بعد الهجرة وإقامة الدولة وهذا خطأ فاحش، لأن العمل السياسي أوسع من مفهوم الحكم، فقد بدأ النبي ﷺ منذ أول يوم لدعوته يدعو إلى عقيدة مغايرة للمعتقد السائد، ويجمع الناس حول هذا المعتقد، وهذا في حقيقته عمل سياسي حسب مفهوم الناس وعرفهم اليوم، وكذلك أوجد النبي الجماعة السرية، ثم الجماعة العلنية التي تدعوا إلى تغيير نظم المجتمع، وعقيدته، وتستخدم كل وسائل الإعلام المتاحة من الاتصال الفردي، والخطبة، والمناداة، والمشاعر الخاصة، والحرب الإعلامية المضادة للفكر والعقيدة الجاهلية السائدة، وهذا كله عمل سياسي، وكذلك لجأ رسول الله ﷺ إلى طلب الحماية والنصرة من بعض الكفار كما فعل مع نفر من أشراف الطائف (هم أخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب أبناء عمرو بن عمير ابن عوف من ثقيف) في «الطائف» والنجاشي في «الحبشة» حيث كتب له الرسول ﷺ التماساً بأن يؤوي المسلمين الفارين بدينهم، وكذلك عاهد الرسول الأنصار بعد إسلامهم في «العقبة الثانية» على النصرة، وهذه كلها أعمال سياسية بالمفهوم المعاصر. وكل هذه الأمور صنعها الرسول ﷺ قبل أن يهاجر، وبهذا يتبين أن النبي مارس العمل السياسي بالمفهوم العصري لكلمة «سياسة»، ولكن بالطبع حسب الضوابط الشرعية، والسياسية الربانية الإلهية وليس بمسلك السياسة الجاهلية اللادينية.

بل إن أعداءه مارسوا معه أيضاً سياستهم الجاهلية، وتجبرهم وغطرستهم، فقاتلهم الرسول بسياسة الإسلام الربانية المثلى.

والخلاصة: أن الرسول ﷺ في دعوته كان داعياً إلى الله نبياً ورسولاً. ممارساً للسياسة الربانية الإلهية.

ثالثاً: نتائج السياسة النبوية:

وكلنا يعلم اليوم النتائج الباهرة للسياسة النبوية الإسلامية، فقد استطاع في عشرين عاماً من دعوته ﷺ أن يتغلب على جميع العقبات التي اعترضت طريقه، وقد تغلب على المشركين الذين ناوؤه وأخرجوه، وحاربوه، والمنافقين الذين تآمروا ضده، وأفرغوا وسعهم في تعويق حركته وشل رسالته، واليهود الذين حاربوه بالإشاعات والأكاذيب ثم بدسائسهم، ومؤامراتهم، وسيوفهم. وتغلب أيضاً على القبائل الجاهلية، والأعراب والانتهازيين. واستطاع أن يحدث انقلاباً لا مثيل له في التاريخ قط في عقيدة أمة فينقلها من الشرك إلى التوحيد، ويخلقها ـ بفضل الله ـ خلقاً آخر في الأخلاق والصفات والمسلك، والعقيدة، وأن يقضي على آفات عظيمة كانت تتهددهم، كالفرقة، والخمر والميسر والزنا ومئات الشرور الأخرى. وهذه شهادة (دائرة المعارف البريطانية) عن الآثار والنتائج المذهلة التي حققها الرسول محمد ﷺ في حياته:

«جاء محمد بدعوة جديدة هي دعوة الإسلام، وكان هذا الرسول ﷺ أوفر الأنبياء والشخصيات الدينية حظاً من النجاح، فقد أنجز في عشرين عاماً في حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين من اليهود والنصارى رغم السلطة الزمنية التي كانت تساند هؤلاء، ورغم أنه كان أمام الرسول ﷺ تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والقمار ومعاقرة الخمر واضطهاد الضعفاء، والحروب الكثيرة بين القبائل العربية» أ. هـ (مادة قرآن: دائرة المعارف البريطانية).

بل وأن يهيىء هذه الأمة التي كانت بتلك المثابة لتكون خير أمة أخرجت للناس، وتخرج من هذه الجزيرة لتحطم عروش الطواغيت جميعاً، وتقيم أعظم أمة عرفتها الأرض على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمان بل على مدى الزمان كله إلى قيام الساعة عقيدة ومنهجاً وأخلاقاً وديناً.

ومثل هذا النجاح لا مثيل له في التاريخ قط، ولا شك أن ذلك كان بفضل الله أولاً ثم بالسياسة الحكيمة التي اتبعها الرسول ﷺ مع أصحابه وأعدائه.

ولا شك أن شرح السياسة النبوية أمر يطول. ولكن المهم هنا أن نذكر أن الرسول ﷺ قد مارس سياسة شرعية كان من نتائجها هذا النجاح العظيم الذي شرحنا بعض أبعاده وآثاره.

رابعاً: السياسة في عهود الخلافة:

ومعلوم أن شؤون المسلمين السياسية تولاها الخلفاء بعد رسول الله ﷺ خليفة إثر خليفة ـ قرباً وبعداً من الدين ـ وسياساته المثلى.

فكانت الخلافة الراشدة أعظم فترات التاريخ إشراقاً ثم «بنو أمية» و«بنو العباس» و«بنو أيوب» و«بنو عثمان» وغيرهم من حكم باسم الله، وتحت راية القرآن وسنة رسول الإسلام ﷺ.

ومعلوم أيضاً أن المسلمين حكاماً ومحكومين في كل هذه الفترات مارسوا السياسة الشرعية حسب مفاهيمهم واجتهاداتهم وكل ذلك في إطار التحاكم إلى الكتاب والسنة مرجعاً للجميع، وحاكماً على الإمام والرعية، وهادياً لكيفية التعامل مع غير المسلمين في أرض الإسلام والسلام، وفي أرض الكفر والحرب، وكان الجميع حكاماً ومحكومين يمارسون سياساتهم الشرعية أو التي ظنوها شرعية.

خامساً: الوضع الشاذ بعد سقوط الخلافة:

ولكن بعد سقوط آخر سلاطين (آل عثمان) (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م) سقطت الخلافة الإسلامية التي استمرت ثلاثة عشر قرناً من الزمان. وقابل المسلمون بذلك في بلادهم الإسلامية أوضاعاً شاذة (الحق أن هذه الأوضاع الشاذة لم تبدأ بسقوط الخلافة وإنما بدأت بوقوع أقاليم العالم الإسلامي إقليماً بعد إقليم تحت سيطرة الاستعمار. فقد ابتدأ الاقتطاع من جسم الدول الإسلامية قبل سقوط الخلافة بكثير. ولكن المسلمين في كل إقليم كانوا يعللون أنفسهم أنهم ما زال لهم خلافة وسلطان)

لم يكن لها شبيه طيلة القرون السابقة. وأهم أوجه الاختلاف ما بين الأوضاع المعاصرة والماضي ما يلي:

(١) قُسمت أمة الإسلام إلى أقاليم جغرافية متعددة.

(٢) كانت معظم هذه الأقاليم واقعة تحت سلطان العدو الكافر (انجلترا وفرنسا وإيطاليا، وهولندا، وروسيا).

(٣) أقام الكفار في كل إقليم حكومة تابعة لهم من أهالي البلاد ممن يطيع أمرهم ويستطيع أن يضبط الأوضاع في بلده.

(٤) بدأ الكفار باستبدال القوانين والنظم الإسلامية المطبقة في حياة الناس بقوانين ونظم كافرة من عندهم.

(٥) عمد الكفار إلى تغيير مناهج التعليم لإخراج أجيال جديدة تؤمن بالمفهوم الغربي للحياة، وتعادي العقيدة والنهج والشريعة الإسلامية.

(٦) ألغيت الخلافة الإسلامية نهائياً، وأصبح العمل لاستردادها والدعوة إليها جريمة يعاقب عليها القانون.

(٧) تحولت مقدرات المسلمين، وأموالهم، وثرواتهم نهباً للمستعمر الكافر الذي استغلها أسوأ استغلال واستذل المسلمين أعظم الذل.

ومعلوم أن المسلمين في كل مكان جاهدوا لتغيير هذه الأوضاع، وثاروا على الاستعمار والكفار في كل مكان إلى أن تحقق الاستقلال السياسي لكثير من أقاليم العالم الإسلامي، ولكن هذا الاستعمار لم يخرج من بلاد المسلمين وأقاليمهم إلا بعد أن ترك واقعاً مغايراً للدين يستحيل تغييره إلا بجهاد طويل. وهذا الواقع المخالف للدين يتمثل فيما يأتي:

سادساً: واقعنا اليوم:

(١) قيام حكومات من أبناء المسلمين أنفسهم، يتكلمون بلغتنا، وهم من بني جلدتنا، ولكنهم ورثوا واقعاً خلفه الاستعمار يتمثل في النظم والقوانين الغربية، والأجيال التي ربيت وفق الثقافة والمنهج الغربي.

(٢) الحكومات التي خلفها الاستعمار بوجهٍ عام كانت قد صُنعت على عين الاستعمار ووفق تربيته، ومناهجه، وميوله، وقد أصبحت مصالح الاستعمار ببقاء هذه الحكومات وهددت هذه الحكومات بالإزالة عند أي محاولة للتغيير والتوجه إلى الشريعة الإسلامية أو العودة إلى نظام الخلافة. هذا مع ارتباط مصالح هؤلاء الحكام أنفسهم بالبقاء بالحكم الذي جعل لهم امتيازات هائلة، وسلطات مطلقة يصعب التفكير في التنازل عنها. فضلاً عن التخلي عن شيء منها.

(٣) كان هم المستعمر الأول منذ وطئت قدماه أرض الوطن الإسلامي أن يعمل على تأصيل احتلاله، وتنفيذ مآربه ومخططاته في الحيلولة النهائية بين المسلمين والعودة إلى الدين من جديد، ولذلك فكر في وضع عقبات يصعب أو يستحيل إزالتها مع الزمان، تكون هذه العقبات حائلاً بين المسلمين والعودة إلى دينهم، وكان أعظم ما توصل إليه في ذلك، هو استبدال التشريع الإسلامي والقوانين الإسلامية، بدساتير وقوانين منقولة من دساتير وقوانين الكفار، وبذلك أقْصِيت الشريعة عن الحكم، وأعطيت مهمة التشريع لسلطة الحاكم الفرد، أو الحزب الحاكم، أو المجالس النيابية ولم تقيد سلطة التشريع هذه بكتاب أو سنة أو بمصادر التشريع الإسلامية فقط بل جعل التشريع من أي مصدر كان يستوي في هذا القرآن أو الإنجيل والتوراة أو القانون الإنجليزي والفرنسي، أو العرف والعادة أو أي مصدر من مصادر التشريع فالقرآن والسنة ليسا أكثر من مصدر من هذه المصادر لأفضل لهما على غيره. ومعلوم أن هذا هو الكفر بعينه لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥]، ولقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩]، ولقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨٥].

(٤) نظام اقتصادي يقوم على غير الإسلام، فإما نظام رأسمالي يبيح الربا، والامتيازات، ويسيء توزيع الثروة، ويقسم الناس إلى طبقات متفاوتة، وإما

نظام شيوعي اشتراكي يهدر الطاقات، ويهدم الحافز، ويقتل كل إبداع، ويحرم الفرد من أهم حرياته وغاية وجوده.

(٥) نظام تربوي يخرج أشباه المتعلمين ممن يتكلمون كثيراً ولا يفقهون إلا قليلاً، وممن يحملون شهادات عليا ولكن لا يمكن الاعتماد عليهم في دين أو دنيا وهكذا تعتمد البلاد الإسلامية اليوم في كل ميادين حياتها على خبراء من غير المسلمين حتى في النظافة والقضاء على الفئران والحشرات ناهيك بالبناء والصناعة والطرق، والحرب.. الخ.

(٦) ازدواجية كاملة في الحياة حيث تعليم ديني ولا ديني، وقضاء شرعي، وقضاء مدني إسلام وكفر، ومطالبة بالشريعة، وعداء للشريعة، هذا إلى تخبط سياسي واقتصادي وتربوي واجتماعي لا مثيل له في كل دول العالم التي نجد فيها نسبة ما من التجانس والتقارب إلا في العالم الإسلامي حيث الاختلاف هو اختلاف الضد مع الضد.

هذا هو باختصار شديد الواقع الجديد الذي آلت إليه حال الأمة بعد سقوط الخلافة. وقد نشأ تبعاً لذلك التفكير في كيفية العمل السياسي والدعوة إلى الله في مثل هذه الأوضاع.

سابعاً: اختلاف الدعاة اليوم حول المفهوم السياسي:

وعندما نشأت هذه الأوضاع الشاذة اختلف المسلمون في العمل السياسي اختلافاً بيناً وكان اختلافهم في بعض نواحيه راجعاً إلى الاختلاف حول الحكم على الحكومات القائمة والحكام الموجودين: هل هم مسلمون أو كفار؟ فمن رأى أنهم كفار أفتى بأنه لا يجوز موالاتهم، ونصرهم، وطاعتهم، وتولي الولايات (الوظائف) لهم، وطلب الإذن بالدعوة منهم بل رأى أنه يجب حربهم والقضاء عليهم، وأنه يجوز بل يجب الخروج عليهم، بل اشتط بعض الناس فرأى أن توثيقهم لعقود الزواج والطلاق باطل كذلك، وأن الصلاة في مساجدهم التي يعينون لها الأئمة غير جائزة، لأنه لا يجوز للكافر أن يتولى مساجد المسلمين، أو يشرف عليها.

وطائفة أخرى من علماء المسلمين ودعاتهم رأوا أن هؤلاء الحكام وإن كانوا يحكمون بغير ما أنزل الله فهم مسلمون يصلى وراءهم، ويطاع أمرهم في غير معصية، ويقاتل معهم، ولا يجوز الخروج عليهم، ويطلب إذنهم وسماحهم في الدعوة والجهاد، وكل عمل سياسي. . الخ.

والحق أن في هذه المسألة تفصيل وقد شرحنا هذا التفصيل في مواضع كثيرة من كتابنا «فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله «و«الدعوة إلى الله».

والمهم هنا التذكير بأن دعاة الإسلام يختلفون اليوم حول كيفية الدعوة إلى الله اختلافاً بيناً. فمع إيمان الجميع تقريباً أن الإسلام نظام شامل للحياة كلها، وأنه لا فرق فيه بين العبادة والسياسة والمعاملة والأخلاق، وأنه لا يجوز الفصل بين أحكامه، إلا أن كثيرين يرون من الحكمة ترك الاشتغال بالسياسة إلى أقوال أخرى لعلماء ومرشدين وقادة كلها تدعو إلى الانخراط في كل عمل يعز الأمة وينصرها، وأن الإسلام لا يوجد فيه الفرق بين الدين والسياسة، ولا الدين والمعاملة، ولا الدين والأخلاق والنظم والقوانين. فالدين جاء لتنظيم الحياة كلها، والدعوة إلى الله لا بد وأن تكون بالوسائل المكافئة لوسائل الأعداء.

والخلاصة: أن هناك في الدعوة الآن قولان رئيسيان: قول يرى وجوبَ قصر الدعوة إلى الله على الطرق القديمة التقليدية والوسائل السابقة كالخطبة والتأليف والاتصال الفردي، والدروس والمحاضرات، والمدارس والجامعات، ونحو ذلك، وقصر الدعوة كذلك في أبواب العلم والتوحيد والعبادة، والأخلاق وبعض المعاملات الخاصة. وقول آخر يرى وجوب استخدام الوسائل الحديثة كالحزب، والوظيفة القيادية، والأجهزة الحكومية والجمعيات، والنقابات، والاتحادات الطلابية والعمالية، والمهنية، ووسائل النشر الحديثة، كالمذياع، والتلفاز، والمجلة، والصحيفة. ولو أدى استخدام هذه الوسائل إلى الصراع مع أهل الباطل فكرياً وعملياً لأنه من المعلوم أن امتلاك مثل هذه الوسائل واستخدامها سيؤدي بالضرورة إلى الصدام الفكري والحركي والعملي مع الأحزاب والتنظيمات الأخرى والعقائد المضادة التي تحاول أيضاً هي بدورها الوصول والاستيلاء على هذه الوسائل، والتي تستطيع من خلالها التشريع، والتقنين، والتربية، وصبغ الشعب

بالصبغة التي يريدون، وتوجيهه إلى المنهج الذي يحبون.

ولا شك أيضاً أنه يوجد بين هذين الرأيين الرئيسيين آراء أخرى منها: وجوب العزلة عن هذا المجتمع كلياً، وبناء مجتمع آخر بعيد عن هذه المجتمعات، ومنها: القول بأن الوسائل السلمية في الدعوة لا تجدي نفعاً وأنه لا بد من تحطيم المجتمع القائم بالقوة تمهيداً لقيام مجتمع آخر على أنقاضه.. إلى أقوال كثيرة ليس المجال مجالُ بسطها وشرحها. والرد عليها، وخاصة بعد أن أثبتت التجارب المريرة خيبتها الذريعة وجهلها المطبق.

ولذلك فلن نناقش هنا القول بالعزلة والخروج من المجتمع ولا القول بأن الوسائل السلمية لا تجدي نفعاً، وقد ناقشنا هذه الأقوال في مواطن أخرى.

وإنما سنهتم فقط بمناقشة القولين الرئيسين الأوليين وهما:

(أ) القول بأن الدعوة يجب أن تكون بالوسائل التقليدية السابقة وأنه لا يجوز أو لا يستحسن استخدام الوسائل الحديثة (الأحزاب، والجمعيات، والنقابات، والاتحادات.. الخ) وأن الدعوة يجب أيضاً أن تقتصر على تطهير المعتقد، وتصحيح العبادة، وتربية الأخلاق، والبعد بالنفس عن المعاملات المحرمة.

(ب) والقول الثاني الذي يرى وجوب استخدام كل وسيلة ما دام أنه لم يأت نصٌ بتحريمها وسلوك كل طريق يؤدي إلى هدف من أهداف الدعوة كهداية الناس أو إقامة الحجة. أو نصر دين الله في الأرض، ونقل السلطان من أيدي الكفرة والظلمة والفسقة إلى أيدي المؤمنين.

وأنت إذا نظرت إلى كل قول من هذين القولين رأيت فيه جوانب من الصواب لا يجوز إغفالها وجوانب من الخطأ يجب التنبه إليها.

فالقول الأول: فيه من الصواب أنه يأمر بالتأني في تربية الجيل المسلم، وتنشئته نشأة صالحة طيبة، وتطهير عقيدته، وأخلاقه ومعاملاته، وتأخير الزج به في المعترك السياسي، الذي يكون من مستلزماته الظهور، والفتنة والغرور، وقسوة القلوب، والاستعانة بالحطمة من الناس، وطلاب الدنيا، ممن يحبون ركوب الموجة، وأن

تحملهم الدعوة إلى المناصب والوجاهات، والمراكز ثم تكون الدعوة بعد ذلك في آخر أولوياتهم بل قد يتنكرون للدعوة عندما يصلون إلى مبتغاهم وأهدافهم، وهكذا تكون الدعوة سلماً لهم ومطية إلى أهدافهم. وكذلك قد يدخل ميدان الصراع والجهاد مع الباطل أناسٌ من عامة الناس لم يتربوا على عقائد الدين وأخلاقه، فيمارسون صراعهم السياسي بأخلاق الجاهلية من كذب وغش وخيانة أمانة، ونقض عهد، وإخلاف وعد.. فيكونون بممارساتهم السيئة وأخلاقهم الردية دعاية سيئة للدين، وسُبَّة على الإسلام والمسلمين، وتنفيراً عن رسالة رب العالمين. وقد يموت هؤلاء في جهاد وفتنة وهم بعد لم يصححوا عقيدتهم، ولم يؤمنوا الإيمان الواجب بربهم وإلههم، ولم يصححوا ـ أيضاً ـ عباداتهم، ومعاملاتهم فيموتون على شرك أو بدعة، أو ضلالة أو إثم.. وهم أمام الناس والعالم دعاة مجاهدون!!.

ثم إن من صواب «الرأي الأول«أيضاً أن المتعجلين للدخول في المعترك السياسي قد يدخلون بقوى صغيرة، وبمجموعات ناشئة غضة، لا تقوى على مواجهة قوى جاهلية متمرسة، حاقدة، فتكون النتيجة بالطبع إحباط هذه القوى الإسلامية الناشئة، وتشتيتها وتضييعها.. الخ.

ولا شك إن هذه انتقادات صحيحة، ومخاطر واقعة بالفعل، وليست متوهمة أو مظنونة ولكنها مع ذلك ليست دليلاً شرعياً على عدم جواز استخدام هذه الوسائل العصرية أو ما يسمى بالوسائل السياسية في الدعوة إلى الله. بل هذه محاذير يمكن تجاوزها، والاحتياط لها، والاستفادة من الثغرات والتجارب التي مر بها الآخرون في هذا السبيل، ولا يجوز بتاتاً أن تكون هذه المخاوف سبيلاً إلى ترك الساحة السياسية نهباً لأعداء الإسلام وحدهم، ومسرحاً ومراحاً لكل عقائد الكفر، وأن يبقى الإسلام بعيداً عن الاتصال بالناس والتأثير فيهم، وتوجيه مسارهم.

ولا شك ـ أيضاً ـ أن من أخطاء المنهج الأول أنه يفرض أقوالاً في الدين لا دليل عليها كتحريم الجماعة والحزب، والجمعية، والنقابة.. الخ، ومثل هذه الأمور الأصل فيها الإباحة ولكنها تكون واجبة أحياناً كجماعة المسلمين، وجماعة الدعوة القادرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة فعالة من باب «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وقد تكون مستحبة كالجمعية والهيئة التي تتعاون على

فتح جامعة أو مدرسة، أو نشر كتاب، ونحو ذلك. وقد تكون مباحة فقط إذا كان تجمعاً همه نفع دنيوي لأصحابه، ولا شك أيضاً أن هذه التجمعات قد تكون إثماً أو حراماً إذا كان تجمعها على باطلٍ وشرٍ وزورٍ من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

ثم إن من أخطاء «المسلك الأول» تحجير الدين، وتأخير الإسلام والمسلمين، والإكتفاء بوسائل بدائية لحرب أعداء الدين، ففي الوقت الذي يحارب الكفار المسلمين بالمؤسسات والأحزاب والنقابات والجمعيات والهيئات والدول والأنظمة، ووسائل الإعلام الفتاكة المؤثرة نريد أن نحاربهم بالأعمال الفردية المتناثرة، وبتأليف رسالة، وخطبة جمعة.. الخ فيصبح الشأن كمن يريد أن يواجه الطائرة بالرمح، والدبابة بالحصان، والصاروخ بالقوس والنشاب.. الخ.

ولا شك أن هذه معركة خاسرة، وضلال في الفهم والعمل، وأنه مهما استخدمت هذه الوسائل التقليدية في الدعوة والجهاد فإنها يستحيل أن تؤدي إلى نصر الدين، وإعزاز المسلمين، وتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية العظمى التي نص الله عليها بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٨]. فكيف يظهر الإسلام على الأديان كلها وهو لا يستخدم وسائل مكافئة وأساليب مناسبة للقضاء على الأديان الباطلة؟!.

ولكننا من خلال مناقشة الرأيين السالفين، وبيان جوانب الصواب والخطأ في كل منهما على وجه الإجمال لا التفصيل نحب هنا أن نضع (الضوابط الشرعية) التي يجب سلوكها والالتزام بها في أي عمل سياسي من أعمال الدعوة إلى الله.

الباب الثاني

الضوابط الشرعية في العمل السياسي الإسلامي

أولاً: لا تفريط في شيء من الحق:

الأصل الأول للسياسة الشرعية الإسلامية في مجال العمل السياسي أنه لا يجوز للمسلم أن يتنازل عن شيء من الحق، أو أن يخلط الدين الذي أنزله الله بباطل المشركين. وذلك أن الدين من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الحكيم فيما يشرع. وهذا يعني أنه كله حق وأنه لا يجوز اعتقاد نقصه أو خطئه. قال تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢١]. وهذا بشأن تحليل «الميتة». وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الكافرون، الآيتان: ١، ٢]، وهذا عندما عرض الكفار على الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة ثم ينظروا أي السنوات أعظم بركة وخيراً. . !!

فعقيدة الدين لا يجوز خلطها بغيرها، وشريعة الإسلام لا يجوز كذلك خلطها بغيرها، والانتقاء منها حسب الهوى والمصلحة المزعومة. بل لا إسلام إلا لمن أسلم قلبه وعمله ووجهه لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومعنى ذلك أنه لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف التنازل الاعتقادي عن شيء من الدين والرضا القلبي بأن نأخذ من الإسلام ومن غيره. وأما الرضوخ والجبر لشيء مخالف من الدين، في ظرف من الظروف فهذا أمر آخر. كما جاء في «صلح الحديبية» مثلاً حيث قبل الرسول ﷺ برد المسلمين إلى الكفار، مع ما فيه من قبول

بالذل وإسلام المسلم لأعدائه. وقد قبل الرسول ﷺ بذلك، لما كان في هذه الاتفاقية من بنودٍ تتحقق معها عزة الإسلام مستقبلاً، كالسلم وفتح مكة أمام الدعوة الإسلامية، واعتراف قريش بأن للمسلمين دولتهم وكيانهم، ودينهم، وفتح المجال لدخول القبائل حلفاء للرسول وغير ذلك من أمور كانت في صالح المسلمين، وأما ذلك الشرط فإن الرسول أجاب عنه: بأن الله سيجعل للمسلمين المضطهدين بمكة فرجاً ومخرجاً. وقد كان.

وليس المجال بيان المصالح العظيمة، والفتح الكبير في شروط «الحديبية»، ولكن المقصود هو التنبيه أن الرسول ﷺ في هذا العمل السياسي قد رجح جانب المصالح العظيمة في هذا المصلح، ولا شك أن ذلك كان بوحي من الله ـ سبحانه وتعالى ـ والمهم أن هذا ولا شك للتشريع (أي الدائم)، ليستفيد المسلمون من ذلك في ظروف مشابهةٍ. . وعلى كل حال ليس هذا من التنازل عن شيء من الحق لأن هذا ليس تغييراً للتشريع، ولا للأحكام لأن أصل النصرة ظل موجوداً في الدين، بل هو من أصول الإسلام كما قال ﷺ: [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه] (متفق عليه). ومعنى يُسلمه: يخلي بينه وبين أعدائه، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٧٥]. فالآية آمرة بوجوب نصر المؤمنين إخوانهم ممن يعذبهم من الكفار ويستذلونهم. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ استثنى من هؤلاء من يكونون تحت كفار معاهدين للمسلمين. كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٧٢].

ومن الأمثلة أيضاً عقد الرسول ﷺ مع تميم أن يرجعوا برجالهم في (الخندق) ولهم ثلث ثمار المدينة. ومع أن الرسول ﷺ كتب العهد بينه وبينهم ولم يوقعه إلا أن الأنصار رفضوا العهد وقالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أهذا شيء أمرك الله به فنطيع أم شيء تحبه أم شيء تصنعه لنا؟! فقال: [بل رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة، فأحببت أن أنفس عنكم إلى حين] فقالوا: والله يا رسول الله لا نعطيهم إلا السيف!! (ذكره ابن اسحاق بالتحديث عن عاصم بن عمر عن الزهري إلى عيينة بن حصن،

والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان، انظر البداية ص١٠٤ ج٤).

والمهم أن الرسول ﷺ هم وشرع في إرضاء هؤلاء الكفار بضريبة عظيمة وذلك حتى ينفس عن المسلمين بعد أن رأى كل قوى الشر في الجزيرة: اليهود، وقريش، وغطفان، وتميم، قد اجتمعت عليهم دفعةً واحدةً. وأن همهم كان استئصال المسلمين، فأراد رسول الله ﷺ دفع مفسدةٍ أعظم بمفسدةٍ أقل، فسار في هذا الصلح. وهذا يدل في التشريع على «جواز ارتكاب أخف الضررين»، و«دفع المفسدة العظمى بمفسدة أخرى أقل منها ضرراً».

ولكن الله برحمته وإحسانه برسوله تولى بنفسه الدفاع عن المسلمين حيث يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا . . ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٩] الآيات. وقال تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢٥] وظل المسلمون يرددون في هتافهم بعد ذلك: «الله أكبر، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

والأمثلة على ذلك كثيرةٌ جداً. والمهم البيان أن مثل هذه المواقف ليست تنازلاً عن عقيدةٍ أو شريعةٍ من الدين، ولكنها قبولٌ بموقفٍ تفرضه الظروف وتحتمه الملابسات، ومثل هذا ليس تبديلاً للدين، ولا تغييراً للتشريع، ولا ردّاً لأحكام الله، وإنما هو موقف يقابل فيه المسلم ظرفاً وضرورة.

ثانياً: لا تحريم لوسيلة إلا بنص أو استدلال شرعي صحيح:

يجب التفريق في الدين بين الحقيقة الثابتة، والوسائل المتغيرة، فعقائد الدين، وشرائعه، وعباداته، وأخلاقه، حقائق ثابتة لا يجوز فيها التغيير ولا التبديل، ولا الإضافة (البدعة) ولا الحذف.. الخ.

ولكن الوسائل تتغير فالقرآن مثلاً كلام الله حق ثابت محفوظ بحفظ الله وعنايته والمسلمون مأمورون بحفظه وصيانته من كل تحريف أو تغيير أو تبديل. ولكن وسائل نقل القرآن وتعهده، وحفظه ودراسته، وتدريسه متغير، فبعد أن كان صحائف متفرقة، وسوراً محفوظة في الصدور، جُمع في عهد الراشدين في مصحفٍ واحدٍ، وبعد أن كان خطاً غير منقوطٍ ولا مشكولٍ، أُعجِمَ وقسِّمَ ووضعت له ضوابط كثيرةٌ

لتسهيل النطق به وتعلمه وحفظه. واستفاد المسلمون بعد ذلك من معطيات العصر، فطُبع ثم سُجل على أشرطة صوتية، ومرئية، . . الخ.

وهذا الباب يُسمى بـ «المصالح المرسلة» وهو باب عظيم في «أصول الفقه» مفادُه: أن كل أمرٍ لم تأت الشريعة بإلغائه، أو بإيجابه، ورأينا فيه مصلحة ما جاز لنا فعلُه بشرطين:

(١) ألا يُفَوِّتَ ما هو أعظم منه مصلحةً ونفعاً.

(٢) ألا يؤدي إلى ضررٍ مماثل له أو أكبر منه.

وهذا الباب إذا استعملناه في مجال الدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ والجهاد في سبيله وفق أصوله وشروطه فتح لنا أبواباً عظيمةً في الدعوة، واستطعنا الاستفادة من معطيات العصر العظيمة، ووسائله المتقدمة كالصحف والإذاعة، والتلفاز، والجامعات، والمؤسسات، والجمعيات، والتجمعات، والأندية، والنقابات، والأحزاب. . الخ.

فهذه المؤسسات الجديدة والوسائل المستحدثة ليست شراً في ذاتها، ولم يأت نصٌّ شرعي بإلغائها، ولا جاءت نصوص كذلك بوجوب الأخذ بها، فهي إذن من باب «المصلحة المرسلة». ولا شك أن بعضها يندرج تحت نصوص عامة كقوله تعالى مثلاً: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

وقد ذهب بعض الناس إلى عدم جواز استخدام الحزب السياسي، والجمعية الخيرية، والتجمع أو التكتل السياسي، والجمعيات الطلابية أو المهنية بحججٍ كثيرة منها:

(أ) أن في استخدام هذه الوسائل إقرارٌ بالأنظمة القائمة وهي مخالفة للإسلام، وتقرير للتشريع الجاهلي، وطلب إذن للدعوة، ولا يجوز طلب الإذن لأن الله قد أمر المسلمين بذلك، وأوجب عليهم أن يدعو إلى سبيله، فلا معنى لطلب إذن من بشر كائناً من كان.

(ب) أن في هذه الوسائل مخالفة لهدي الرسول ﷺ الذي ما دعا بهذه الطرق، ولا

اتخذ هذه الوسائل.

(ج) ومنها: أن الدخول في هذه الوسائل واستخدام هذه المؤسسات يلزم منه ارتكاب مخالفاتٍ شرعية كثيرة.

(د) ومنها: أنه لم تتحقق مصالحٌ شرعية من وراء استخدام هذه الوسائل بل تخلى كثيرٌ ممن استخدموها عن مبادىء الدين الأساسية، وعن كثير من أحكامه الشرعية.. الخ.

والجواب على هذه الحجج بما يلي:

(١) أولاً يجب الإقرار بأن هذه المؤسسات والوسائل ليست حراماً وإثماً بذاتها، بل هي مصالح مرسلة لم يأت نص شرعيٌ بإلغائها. وهذه واحدة.

(٢) ومنها: أن إقامة أحزاب أو جمعيات أو تجمعات في أي نظام «ديمقراطي» يسمح بتعدد الآراء والاتجاهات لا يعني بالضرورة إقرار المخالفين، ولا الرضا بما هم عليه من الباطل. وإنما يعني فقط الرضا بالطريق السلمي، والدعوة العلنية سبيلاً ومنهجاً للتغيير، والتخلي عن سياسة العنف والسرية. وهذا في حد ذاته محمود في الدين، بل الأصل في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - هو السلم والإعلان، وأما السرية في الدعوة فإنما هي للحالات الإستثنائية، والظروف الشاذة التي يُضطهد فيها المسلمون فلا يجدون مفراً عند ذلك من أن يبلغوا دعوة الله سراً. وأما القتال في الإسلام فله أصوله ومناهجه، وهو لا يجوز إلا بأمير معلن، وإنذار ودولة، وعلمٌ وجهاد، وسياسة وصراط واضح جلي، أو في دفاع عن النفس وفق ضوابط وشروط خاصة كذلك وليس هذا مجال تفصيلها. وإنما المهم هنا بيان أن الطريق السلمي للدعوة هو الأساس، ولو أن الكفار لم يحاربوا رسول الله ﷺ ما حاربهم، ولو سمحوا لدعوته أن تصل وتبلغ ما قام في وجوههم.. وهذا مع الكفار، فكيف مع المسلمين؟!.

وبالتالي فالنظام الذي يسمح للرأي المخالف أن يعلن، ويسمح للمسلمين بأن يؤلفوا حزباً لدعوتهم، أو جمعية لتحقيق بعض أهداف دينهم كنشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنشاء الجامعات والمدارس والمعاهد، والعناية

باليتامى والمساكين.. الخ. أقول: النظام الذي يسمح بذلك يجب التمسك به والحرص عليه، لأن بديل هذا النظام هو الحكم الاستبدادي عسكرياً كان أو غيره وهذا يضطر المسلمين إلى الدعوة سراً، وفي هذا من العسر والمشقة ما فيه.

وإذا كان النظام «الديمقراطي» الحر يسمح كذلك لأعداء الدين، ومخالفي الإسلام بإظهار مخالفاتهم ومعتقداتهم، وآرائهم، وتغيير المجتمع بوسائلهم فإن الحق دائماً أقوى، والمسلمون في بلاد الإسلام بوجهٍ عام يستندون إلى قاعدةٍ عريضةٍ من البشر وعقيدة قائمة في النفوس، وواقع طيب في كثير من جوانبه، ولا شك أنهم إذا استطاعوا أن يستخدموا إمكانياتهم بشكلٍ طيبٍ فإنهم سيصلون إلى أهدافهم في صبغ الحياة بصبغة الإسلام في وقتٍ قليلٍ جداً، ولكن المشكلة لا تكمن في النظام «الحر» هذا، وإنما تكمن في أن أعداء الإسلام دائماً وأبداً يقطعون الطريق على المسلمين عندما يقتربون من أهدافهم، ويقاربون الوصول إلى تطبيق الإسلام فتثور ثائرة أعداء الدين في داخل الوطن الإسلامي وخارجه، ويعمدون إلى تغيير النظام «الديمقراطي» الحر برمته وكليته ويلجؤون إلى الحكم الاستبدادي العسكري كما حدث في مصر، وتركيا، والسودان وأماكن كثيرة أخرى من العالم الإسلامي.

وللأسف فالنظام «الديمقراطي«يظل نظاماً مرضياً عنه ومرعياً من قبل أعداء الدين طالما أن الموجة لهم، والدولة معهم، والناس في ركابهم، ولكن يوم تتحول الموجة للدين، وينشط الدعاة إلى الله، وينصرف الناس عن الباطل إلى الحق، هنا يكشر أعداء الدين عن أنيابهم ويكفرون بالديمقراطية التي يتشدقون بالإيمان بها، وينقلبون فوراً إلى الاستبداد والتجبر.

وهذا ديدنهم منذ الرسالات الأولى، ألا ترى أن «فرعون«سمح لـ «موسى» بمقابلته ومناظرته، وكان فيما قال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ...﴾ (الشعراء: ١٨، ١٩) وأن موسى رد بردٍ أفحم فرعون وأسكته ثم سأل فرعون موسى عن ربه فأخبره وأقام عليه الحجة وأسكته، فلجأ فرعون رأساً إلى التسلط والتجبر، بعد هامش الحرية الذي سمح به لموسى. حيث قال له: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩). ثم لما أقام موسى له برهاناً آخر أعجزه وحيره وأقام حاشيته عليه.

اضطر فرعون ثانية إلى التنازل عن السجن، وحشد ما حشد من سحرته وكهنته، ثم لما كانت الهزيمة الماحقة لفرعون وسقوط كل حججه وبراهينه عمد إلى القمع والتعذيب والنكال. فاتهم السحرة زوراً أنهم متآمرون وأنهم دبروا هذه المكيدة مع موسى، واستثار حب المواطنة عند قومه، فزعم أن هذه المؤامرة يراد بها إخراج المصريين من وطنهم، وإحلال بني إسرائيل والسحرة مكانهم.. وفي غمرة هذه الأكاذيب فعل ما فَعَل بالمؤمنين، ثم لما خرج موسى بقومه من مصر مكذباً بذلك دعايات فرعون، ما كان من فرعون إلا أن تعقبهم، وأراد اللحاق بهم إمعاناً في الانتصار لنفسه الذليلة وكرامته المجروحة، وألوهيته التي كذبتها الأحداث فأهلكه الله.

والشاهد من هذا الاستطراد هو بيان النظام الحر «الديمقراطي» الذي يُعطي المسلمين نوعاً من الحرية لدعوتهم، لا شك أنه يُستبدل فوراً ويلجأ أعداء الإسلام إلى العنف والتنكيل والظلم عندما يشعرون أن امتيازاتهم الظالمة، ومصالحهم الخسيسة، وشهواتهم الدنيئة قد هددت من قبل المسلمين، وأن أهل الإسلام أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من تطبيق الشريعة، وحينئذ يلجؤون إلى سلوك سبيل فرعون.

ومهما يكن من أمر فإن المسلمين مأمورون بالدعوة بكل حال، وحرية الدعوة أرفق بهم، وأحسن لهم، وأمكن لدعوتهم، ويجب على المسلمين الاستفادة من هامش الحرية المسموح به في أي دولة من دول العالم نشراً للدين، ودعوة إلى الله، فإذا ركب أعداء الله رؤوسهم ولجؤوا إلى أسلوب فرعون وسياساته فإن هذا لحكمةٍ يريدها الله من البلاء والابتلاء، ولا بد في النهاية أن تحل لعنة الله بالمكذبين، وأن تكون العاقبة للمؤمنين الصالحين: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥].

ونعود فنقول: إن الحزب السياسي، والجمعية الخيرية، والتجمع والنقابة والاتحاد، هذه المؤسسات التي يسمح بها النظام الحر (الديمقراطي) يجب على المسلمين المبادرة إليها، واتخاذها سبيلاً، وطريقاً لنشر دينهم وتمكين عقيدتهم، وتجميع قواهم، وتدريب وتعليم عناصرهم، بل يجب على المسلمين أن يسعوا إلى مثل هذا التشريع الذي يسمح بذلك لو كان النظام القائم لا يسمح به، لأن هذا حقٌ

من حقوقهم، بل واجب من واجباتهم، أن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن يكونوا جمعيات وجماعات، وأحزاب تدعو إلى الله وتنشر دينه، وتعلي كلمته.

ونستطيع أن نستدل من واقع السيرة النبوية جواز استصدار مثل هذه الجمعية أو الحزب أو حتى مجرد الأمان والعهد، والحماية لفرد أو مجموعةٍ بأن تنشر الدين وتدعو إلى الله. وأن استصدار هذا التشريع جائزٌ في ظل دولةٍ كافرة قلباً وقالباً، فكيف بدولةٍ تعلن الإسلام في بعض جوانب حياتها. ومما يدل على ذلك :ـ

* أن النبي ﷺ طلب من بعض الكفار الحماية ليتمكن من تبليغ دين الله بعد أن منعته قريش وآذته. فقد جاء في (الصحيحين) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: [ما لقيتُ من قومك كان أشد منه يوم أنْ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت] (رواه الشيخان).

فإذا كان النبي ﷺ عرض نفسه على كافر ليحميه حتى يبلغ رسالة ربه، فإذا جاز هذا فمن باب أولى ـ والله تعالى أعلم ـ أنه يجوز الحصول على إذن بالدعوة إلى الله، وتأسيس مؤسسة هدفُها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الدين والخير.

وقد يقول قائل: إن ما حدث للرسول ﷺ كان شيئاً فرداً عابراً؟ وهذا خطأ أيضاً، فالنبي ﷺ ما فتىء في مكة يطلب مَنْ يحميه ليبلغ رسالة الله، فقد عرض نفسه كذلك على «الأخنس بن شريق»، و«سهيل بن عمرو»، فأبيا أن يجبراه ثم لما عرض نفسه على «المطعم بن عدي» أجابه لهذا، ومعلوم أن «المطعم بن عدي» مات مشركاً، ومع ذلك حفظ له الرسول ﷺ جميله، وقال يوم أسارى بدر:

[لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له] (رواه البخاري وأحمد وأبو داود عن جبير بن مطعم، وهو في صحيح الجامع رقم: ٥١٥٩). ويعني الرسول بـ «النتنى»: أسارى بدر.

ومن أجل ذلك رثى «حسان بن ثابت» «المطعم» بشعر بليغ كان منه:

فلو كان مجدٌ مخلد اليوم واحـدا   من الناس نحّى مجده اليوم مطعما

أجرتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا عبادك ما لبى محل وأحـــرما

فإذا جاز مثل ذلك في وقت ضعف من المسلمين فلا شك أنه جائزٌ ما وجد هذا الضعف. ومعلوم ما آلت إليه حال المسلمين اليوم والتي أصبحوا يحتاجون معها إلى من يناصر دعوتهم، وقضيتهم، وإلى أي مظلةٍ يحتمون بها، ويجتمعون تحتها، فإذا اتفق الناس ـ محقين أو مبطلين ـ أن كل أحد يجوز له أن يؤسس ما يشاء من تجمعات أو أحزاب أو جمعيات أو هيئات ليدعو إلى ما يريد، فلا شك أن المسلمين هم أولى الناس باقتناص هذه الفرصة، والاستفادة من هذه الفسحة، وسواء كان ذلك في ديار الإسلام أم في ديار الكفر. ولا شك أيضاً أن المؤسسات والهيئات الإسلامية التي أسست في ديار الكفر في أمريكا وأوروبا كانت ملجأ وملاذاً للمسلمين، وطريقاً لنشر الدعوة، ومحصناً للحفاظ على المغتربين. ولا شك أيضاً أن مثل هذا حصل للمسلمين. في عهد النبوة عندما لجأت طائفة منهم إلى بلاد الحبشة فراراً من ظلم قريش، وقد طلب الرسول ﷺ بنفسه من النجاشي أن يضيف المسلمين ويقربهم، ويحسن جوارهم، وذلك حال كفر النجاشي، ثم دعاه الرسول ﷺ بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم وكتم إسلامه عن قومه.. وقد كان المسلمون هناك مجتمعين على رئاسة جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ، وفي هذا من الأدلة على جواز إنشاء تجمعات في ديار الكفر حال ضعف المسلمين وعدم وجود خلافة إسلامية تجمع شملهم وكذلك علي جواز طلب اللجوء، والحماية من الكافر، فكيف إذا كان المسلم مضطهداً بوطنه وطالب بحقه الشرعي بأن يؤسس جماعة، أو ينشىء حزباً يقر بوجوده الحاكم والمحكوم ويزاول نشاطه في الدعوة إلى الله بحريةٍ ودون مصادرة، ومطالبة وإرهاق.

ولا شك أن هذا حق مشروع لكل مسلم، وأن المطالبة بذلك من أي دولةٍ وحكومةٍ كانت مقرة بالإسلام أو غير مقرة هو عملٌ شرعي لا يجوز حوله الخلاف.

ومعلوم أن بديل الإذن العلني بتكوين حزب وجماعة للدعوة، وتجمع على البر والخير هو الدعوة السرية، ولا خيار عند المسلم إذا مُنعَ من الدعوة علناً أن يدعو إلى الله سراً، وأن يؤسس ما شاء من أحزابٍ أو جماعات للدعوة إلى الله لأنه مأمور بذلك، وحيث أن أهداف الدين لا تتحقق إلا من خلال جماعة وتعاون وتعاضد،

ولذلك فالجماعة واجبة لأن ما لا يتم الواجب إلا به يكون واجباً.

والخلاصة في هذا الصدد: أن أخذ الترخيص لحزب إسلامي أو جماعة أو جمعية للدعوة إلى الله حق مشروع للمسلم، ولا يضير المسلم أن يطلب هذا الحق ممن تولوا مقاليد الأمور في الحكم على أي صفة كانوا مقرين بالإسلام أو غير مقرين به أو كفاراً أصليين، وأن الدعوة إلى الله سراً إنما هي بديل للدعوة العلنية، وأن اللجوء إليها إنما هو في حالات الاستثناء والضرورة.

* وأما تحريم إنشاء الأحزاب السياسية، بدعوى أنه لم يتحصل للمسلمين نفعٌ من ورائها، وأنه يُخشى على الداخلين فيها أن يجرفهم تيار الحياة السياسية، وأن يفسدوا هم بدل أن يصلحوا غيرهم، فقول باطلٌ أيضاً، لأن التجارب القليلة التي جرب بها المسلمون هذا الطريق قد أثبتت أن وراء ذلك منافع عظيمة: في إعلان إسم الإسلام، وإنكار المنكر، والأمر بالمعروف والدفع عن المسلمين، والقيام في وجه الباطل. وعدم تخلية الساحة السياسية للعقائد الفاسدة، ولولا تمالؤ الشرق والغرب على حرب الأحزاب الإسلامية، والتوجهات السياسية لرجالات الإسلام ووقوف الحكومات الاستبدادية في وجه هذا التوجه لكانت الدولة اليوم كلها للإسلام، ولكان الذين يتسلمون زمام الأمور في كل بلاد المسلمين هم رجال الدعوة والإسلام، ولكن في كل بلد إسلامي كان هَمُّ أعداء الإسلام الأول هو قتل الزعامات الإسلامية القادرة على قيادة الجماهير، وتوجيه الأمة ومحاولة تشويهها بكل سبيل، وقطع الطريق عليها، ومنذ سقوط الخلافة وإلى يومنا هذا تحاول معظم الحكومات جاهدةٍ أن تحول بين المسلمين وبين سلوك هذا السبيل لأنها تعلم تمام العلم، وتوقن تمام اليقين أن قيام حزب إسلامي معناه توجه جماهير الأمة كلها إلى الدخول فيه ومساندته وبذلك تسقط كل الأحزاب، وتنهار كل العقائد والمبادىء الباطلة. ولذلك فإن حكومات السوء تعمل بكل جهدها ألا يقوم حزب علني في بلاد المسلمين يحمل شعار الإسلام ويدعو إلى الله لأن هذا معناه بروز قيادة إسلامية، ووصول الإسلام إلى سدة الحكم في سنوات معدودات.

* وللأسف أن الذين يُفتون اليوم بعدم جواز الأحزاب السياسية الإسلامية يقدمون خدمة جليلة لأعداء الدين من حيث لا يدرون، لأنهم بذلك يجعلون الدعوة

إلى الله محصورة في إطار وسائل ضعيفة، ويظهرونها دائماً بمظهر الخارج على الشرعية والقانون، ويجعلونها تسلك الطرق الجانبية الخفية السرية، ويدعون الطريق الواسع اللاحب لأعداء الدين، ليقودوا الأمة، كما يريدون ويوجهوها إلى حيث يشاؤون.

وأما أن بعض من اشتغل بالسياسة من الدعاة فتنته المظاهر، وتنازل عن بعض الحق، وجامل على حساب الدين، وباع شيئاً من دينه لإرضاء الناس. فالعيب في ذلك ليس في السبيل السياسي ولكن العيب في الأشخاص، وإلا فكثير من علماء الدين قد باعوا دينهم من أجل الدنيا، وأفتوا بما يرضي السلاطين، وأهواء الناس، وكتموا الحق إرضاءً للعامة وحفاظاً على مناصبهم، والعيب ولا شك ليس في المنصب الديني، ولا في المشيخة نفسها، وإنما هو في النفوس والقلوب والتربية السيئة.

ولا يخفى أن كثيراً من الدعاة المسلمين، خاض التجربة السياسية، وغشي الحكام ونصحهم في الله، وحاول تأسيس الأحزاب الإسلامية، وكان في كل ذلك مجاهداً صابراً محتسباً ملتزماً. بل المؤمن الحق لا يزيده العمل من أجل الله في أي ميدان من الميادين إلا قوةً وعزيمةً وإخلاصاً، ووفاءً لدينه، وحفاظاً على حدود الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأما الجمعيات الدينية فلا ينكر فضلها إلا جاحد، فالجمعيات الدينية التي قامت بعد سقوط الخلافة قد جددت شباب الدين، وقامت بتربية الشباب المسلم والدعوة إلى الله، وبناء المساجد، والخدمة العامة في كل صورها تقريباً، وسدت الخلل الهائل بترك الحكومات للواجبات الدينية فقامت هي بهذه الواجبات ولولا أن الله قيض للدين هذه الجمعيات والمؤسسات الدينية الكثيرة لانتهى الإسلام من الأرض إلا قليلاً.

ولا شك أن الحزب «السياسي» هو مرحلة متقدمة ـ في العمل السياسي ـ من الجمعية الدينية، فالحزب السياسي يستطيع أن يقوم بما تقوم به الجمعيات الدينية مضافاً إلى ذلك المشاركة في صنع القرار السياسي أو الوصول إلى صنع القرار

السياسي نفسه، وكذلك التشريع، ولا شك أن الحزب السياسي الإسلامي بما له من إمكانيات: إصدار الصحف وتأسيس الشعب، وإقامة المؤتمرات العامة، والدعوة إلى العضوية، وشرح برامجه الإصلاحية، وأهدافه، وعقيدته، يستطيع أن يحطم كل دعوة مخالفة، وأن يستحوذ على سواد الناس، وبالتالي أن يهيمن على القرار السياسي.

والخلاصة: أن هذا الأسلوب من أساليب الدعوة أسلوب تفرضه وقائع الحال، وضرورات العصر، وهو سبيل وإن لم يكن منطبقاً تماماً على الأسلوب النبوي، إلا أن له من الشواهد والأدلة في عصر النبوة ما يؤيده، ويثبت مشروعيته، والعبرة إنما هي في تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية، والوصول إلى تطبيق شرع الله في الأرض وليست العبرة بالوسائل والكيفيات التي تخضع للظروف المتغيرة، والذين يفرضون نفس الوسائل النبوية في تحقيق الأهداف عليهم أن يقولوا بوجوب الدعوة السرية ثم العلنية، ثم الهجرة، ثم الدولة ثم الجهاد.. وهذا ما لا أعلم أحداً من أهل العلم يُفتي به.. فلا شك أن هذه أساليب مشروعة لممارسة الرسول لها، ولكن قد يبدأ داع دعوته بالعلنية لا بالسرية ولا يكون بذلك مخالفاً نهج الرسول ﷺ، وقد لا يضطر إلى الهجرة من بلده إلى بلد آخر، وقد يضطر، وقد يستطيع إقامة الدولة الإسلامية وقد يموت دون تحقيق هذا الهدف، وقد يجد أنصاراً وقد لا يجد، وقد يتحول الحكام بأنفسهم إلى الدين بمجرد الدعوة، وقد يتحولون بتحول الشعوب وسواد الناس ويحكمون بالإسلام حفاظاً على مراكزهم وسلطاتهم، وقد يختارون العداوة للدين وأهله ويطول الامتحان بأهل الدين والدعوة.. فالظروف متغيرة، وبالتالي يجب أن تكون الوسائل متطورة متغيرة والمسلم الداعي عليه أن يسير في حدود المستطاع ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦] ولا يجوز رفض وسيلة مستطاعة بحجة أن الرسول ﷺ لم يستعملها.

ثالثاً: المصالح والمفاسد هي الأساس والطريق للحكم على الوسائل:

ولا شك أن طريق الحكم على وسيلةٍ ما بأنها صالحة أو لا هو بمقدار ما تحققه من المصالح الشرعية، أو تخلقه من الأضرار والمفاسد. فالنظر في العواقب، وتدبر

الأمور، وحساب الأرباح والخسائر الدينية، هو ما يجب النظر إليه، والتعويل عليه.
بل إن الوسائل المشروعة نفسها في نشر الدعوة، وحرب الباطل لا يجوز الإقدام والإحجام عن شيء منها إلا بالنظر في العواقب، وحساب الأرباح والخسائر الدينية والشرعية، فالهجرة ليست مطلوبةً لذاتها وكذلك الحرب ليست هدفاً في حد ذاتها، وإنما بما تحققانه من مصالح ومنافع للمسلمين كرد عدوان، وكسر عدو، وفرار بالدين، وتفويت فرصةٍ على الكافرين بخنق الدعوة، وإسكات صوتها، وهكذا تطلب الهجرة لمنافعها الشرعية، وتركب الحرب لآثارها الشرعية ومنافعها العظيمة وخيرها العميم، وما الشر الجزئي الذي يوجد في الحرب والهجرة، إلا تضحيات واجبة في سبيل منافع عظيمة، فهو من باب بذل القليل لحصول النفع الكثير. كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٦]، وقد أثبت سبحانه أن في القتال حياة للأمة الإسلامية ونشراً لعقيدتها وتمكيناً لها، وما الشهادة في سبيل الله إلا إتلاف للجزء من أجل حياة الكل وبذل القليل من أجل الحصول على الكثير ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢٤]، وهذا في الدعوة إلى الجهاد، والقتال، فالقتال حياة وإن كان فيه موت وشهادة للبعض إلا أن فيه حياة للكل الباقي.

وهكذا يجب أن يكون النظر في كل خطوةٍ من خطوات الدعوة، ووسيلة من وسائلها، وأسلوب من أساليبها. . كم يحقق من المنافع للأمة والدين والإسلام والمسلمين، وكم يحقق من المفاسد الشرعية، فإن كان النفع أعظم، والتضحيات والمفاسد أقل، كان العمل مشروعاً بل واجباً أحياناً، وأما إن كانت المفسدة أكبر والأضرار أعظم من المنافع فإن الواجب الاحجام. ومما يدلك على ذلك أن الرسول ﷺ استشار أصحابه في قتال قريش في بدر أو الرجوع دون قتال عندما علم أن الهدف الذي خرج من أجله وهو اللحوق بعير أبي سفيان قد فاته بهرب العير من طريق آخر، ومجيىء قريش لاستنقاذ تجارتها، فاضطر الرسول ﷺ لاستشارة أصحابه ولو كان الأمر مجرد قتال أيا كانت النتائج، وكأنه أمر تعبدي صرف لا دخل للنتائج فيه لما استشار الرسول ﷺ أصحابه ولقال لهم: قاتلوا أيا كانت النتائج، بل إن الرسول ﷺ استشارهم وكل منهم بدأ يزن الأمور، ويقابلها: هل يُقاتلون أم لا حتى

تحقق لهم برأي أغلبيتهم أن القتال أولى من الفرار، فسُرَّ الرسول ﷺ بذلك. ومع ذلك أخذ الحيطة والحذر واستحسن رأي سعد بن معاذ الذي رأى ألا يباشر الرسول ﷺ القتال بنفسه وأن يكون له عريش في مؤخرة الجيش وعنده ركائب جيدة يستطيع بها الرجوع إلى المدينة إن حصلت هزيمة للمسلمين، وذلك حفاظاً على شخص النبي ﷺ وخاصةً أن هناك في المدينة مسلمون كثيرون لم يخرجوا في الغزوة لأن الرسول ﷺ كان متعجلاً للخروج ولم يخرج معه إلا من كان ظهره حاضراً.

والشاهد من هذه الواقعة أنه يجب النظر في الأمور وتقدير العواقب، وحساب الأرباح والخسائر الشرعية قبل ركوب أي أمر من الأمور، والإقدام على أية وسيلة من الوسائل.

وعندما نقول الأرباح والخسائر، والمصالح والمفاسد، فنحن نعني المصالح والمفاسد الشرعية، والأرباح والخسائر التي تمس الدين والعقيدة والمسلمين، ولا يجوز هنا النظر إلى أهواء النفوس ورغبات الدنيا، وإلا فالتكاليف الشرعية، وتكاليف الدعوة والجهاد خاصة تكرهها النفس كما قال تعالى في القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٦]، فالقتال مكروه والسيف فتنة، والحرب للمسلمين سجال يدالون ويدال عليهم، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٠]، وفي الحرب من الخسائر ما فيها، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما فيه من تحمل الأذى، وحصول الضرر، وخاصة في هذه الأيام التي أصبحت كلمة الحق فيها شاقة متعبة، وقد يكون قول كلمة حقٍ واحدة يكلف الداعي روحه، أو الخروج من وطنه وأهله وماله، أو مصادرة حريته، وإيداعه السجن السنوات الطوال.. لا شك أن الجهاد والدعوة في سبيل الدين أمر مُرٌّ يحتاج إلى صبر وجلدٍ وليس مما تهواه النفوس، ولا شك أيضاً أنه لا يجوز ترك ذلك إيثاراً للدعة والراحة، ورُكوناً إلى السلامة والعافية، ففي هذا ولا شك أعظم الضرر والفساد، وليس هذا من المصالح الشرعية بحال، بل هذا مجلبةٌ لسخط الله، وزيادة الشر والفساد، واندحار أهل الدين، وظهور أمر الكافرين والمنافقين، ودوران الدائرة على أهل الصلاح، واستئصال الخير، وضياع الدنيا والآخرة. وأرجو بهذا التوضيح أن يكون قد ظهر ماذا نعني بالمفاسد والمصالح الشرعية: أنه ليس الحفاظ

على الفئة المؤمنة ساكتة هادئة وادعة حيث لا جهاد ولا عمل، ولا محاربة للباطل وحيث يصول الباطل ويجول...، لا بد من التضحيات ولكن ليكون بهذه التضحيات مزيد خير وبركة للأمة الإسلامية، فبالتضحيات تشتد العزائم، ويظهر صدق الدعاة، ويتعاطف الناس مع أهل الدين، ويعلو كعبهم في المجتمع ويزداد شرفهم، وترتفع درجاتهم في الجنة، ولذلك فلا دعوة إلى الله بغير تضحيات، ولا دون شهداء، وآلام، ولا نصر دائماً، بل لا بد لأهل الدين من نصر يشجعهم، وهزيمة تصقلهم، ويشتد بها عودهم، ويتعلمون معها الصبر والعزيمة، وينتفي عنهم الغرور والخفة والطيش.

وتلك سنة الله في الدعوات والرسالات. فالمهم في هذا الصدد أنه لا بد من التدبر في كل أمر والنظر في عواقبه، وبذل الجهد للشورى فيه، وألا يصدر المسلمون في أي خطوة من خطواتهم إلا عن خطة مدروسة ورأي قد استشير فيه واستنار تماماً لسالكه ولا بد أن يكون الدعاة في كل ذلك، شجعاناً بلا تهور، ومقدامين بلا انزلاق، وحكماء فقهاء يلبسون لكل حالة لبوسها، ويقابلون كل مقام بما يناسبه، ويزنون أمورهم بكل عقل وروية.

وهكذا كان رسولهم وقائدهم ﷺ الذي كان يأخذ لكل أمر عدته وأهبته، ويستشير أصحابه، ويحارب حيث يرجى نفع الحرب، ويُسالم حيث يكون السلم أفضل وأرفق، ويعاهد حيث يفيد العهد، ويوادع حيث تنفع المواداعة، ويقدم حيث يحسن الإقدام، ويحجم حيث يكون الإحجام هو الحكمة والعقل، ويبرم أموره سراً حيث يكون للسرية معنى، ويصدع بأموره حيث الصدع هو الأولى والأحرى والأفضل، وهو في كل ذلك النبي الحكيم المتوكل على الله في كل شؤونه المتبرىء من حوله وقوته، المسلم أموره لله، الذي ينتظر فرجه ورضوانه.

وهذا الصراط الذي يجب أن يسلكه الدعاة إلى الله.

رابعاً: النتائج بيد الله:

يجب أن نعتقد أن نتائج الدعوة هي بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو الذي يشرح

صدر من يشاء من عباده لدعوته، وهو الذي يعز جنده إذا شاء، ويمن على أوليائه بالنصر وقتما يريد، أو يؤخر ذلك لحكمةٍ يشاؤها ويريدها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة القصص، الآية: ٥٦]، وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٥]، وقوله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٠]، وقوله: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ١٠]، وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٥].

خامساً: الزمن جزء من العلاج:

يجب أن نعتقد أن الزمن أعظم معين للدعاة إن هم فهموه وعرفوا كيف يستغلونه، وكيف يجعلونه في صالحهم، وأنه كذلك قد ينقلب إلى سلاح ضدهم إن هم أساءوا فهمه واستغلاله. فبذرة الدعوة إذا تعوهدت بالسقي والحماية نمت وترعرعت وكانت الأيام لها عوناً وقوةً حتى يأتي الوقت الذي تكون شجرة باسقة، ودوحة فينانة، وإن أهملت كانت الأيام وبالاً عليها حيث تذبل شيئاً فشيئاً ويقوى عدوها عليها يوماً بعد يوم حتى تموت، وقد شاء الله أن ينصر رسله حسب السنن الكونية في النماء والترعرع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ.. ﴾ [سورة القصص، الآيات: ٤، ٥، ٦، ٧].

والشاهد أن الله قص علينا كيف طغى فرعون وتكبر وملأ الأرض فساداً ثم بين أنه لإزالة هذا الفساد بدأ وضع بذرة الخير في مولودٍ يولد ثم يتعرض لأصناف من البلاء والفتون ثم يعود ليكون المخلص في سلسلة متأنية من الأحداث تربي الفئة المؤمنة وتمحصها وتخلصها في النهاية حسب إرادة الله. وقد كان الزمن والأيام في كل ذلك هو طريق الخلاص ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن

﴿يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٢٨]. . وقال له قومه ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٢٩]، ولقد قال رسولنا ما يشبه ذلك عندما قال لخباب: [ليوشك أن تخرج الظعينة من صنعاء اليمن إلى بُصرى الشام لا تخاف إلا الله] (رواه البخاري ومسلم).

وأبلغ شاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٩] وذكر صفتهم ثم قال عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٩].

فإذا ألقينا بذرة الدعوة وتعهدناها، وصبرنا عليها وجعلنا الأيام في صالحنا، حيث نضيف كل يوم عضواً جديداً إلى معسكر الإسلام، ويفقد معسكر الكفر كل يوم عضواً، عند ذلك تكون العاقبة للمتقين، فلنكن زراعاً مهرة، ولتكن الأيام والزمن أعظم حليف لنا، وحذار أن تكون في صالح عدونا حيث نهمل دعوتنا، ونترك غرستنا فتكون النهاية علينا.

سادساً: نحن نضرب بسيف الله:

المؤمن إذا أخلص النية وأصلح القصد، وتحرى الصواب، وأفرغ الوسع، فإنه يضرب بسيف الله، ويتكلم بنور الله وكلمته، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٨]، وهذا الحق هو ما ينطق به الرسل وأتباعهم. وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ. .﴾ [سورة الأنفال، الآية: ١٧]، والحال أن الذين قتلوا في بدر من المشركين قُتلوا بسيوفٍ في أيدي المؤمنين من الأنصار المهاجرين ولكن هؤلاء كانوا يضربون بسيف الله ويقتلون بأمر الله ومشيئته. بل كانوا هم سيف الله وقدره ومشيئته، وأمره الشرعي والكوني القدري.

وهكذا أهل الإيمان في كل عصرٍ ومصرٍ إذا أفرغوا الجهد وأخلصوا النية، وقاموا

لله كانوا هم مشيئة الله وقدره. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ. .﴾ [سورة الأنفال، الآيتان: ٥٩، ٦٠]. فأخبر أن الكفار لا يعجزوه وبين أنه يقتلهم بأيدي المؤمنين، ولذلك أمر أهل الإيمان بالاستعداد لهم.

سابعاً: لا راية مع راية التوحيد:

لا يجوز مطلقاً لأهل التوحيد والإيمان أن يرفعوا رايةً أخرى مع راية التوحيد، وهذا يعني أنه لا يجوز بتاتاً الانصهار أو الاندماج أو تكوين صفٍ واحدٍ مع أحزابٍ أو هيئات ترفع رايةً وعلماً ولهم أهداف في الحياة تخالف هدف الإسلام كالشيوعية والبعثية ونحوها من الأحزاب الإلحادية اللادينية أو التي يسيرها ملاحدة لا دينيون أو مشركون وثنيون من أهل التصوف والتخريف بل يجب على أهل الإسلام والتوحيد أن يرفعوا رايتهم المستقلة ولو لم يكن تحتها إلا رجل واحد، وإن يعلنوا عقيدتهم المستقلة ولو لم يكن لهم أنصارٌ قط، وحسبهم الله معيناً وناصراً سبحانه وذلك أنه إن حصل إندماج أو تعاون وحلف يتوازى فيه التوحيد والشرك، والإيمان والكفر فإنه لا بد أولا وأن يحصل تنازل عن بعض الحق، ثم أن نتغاضى عن بعض الباطل بل قد نؤيده ونعلي مناره، ثم لا بد من الانفصال في نهاية المطاف لأنه سيكون أشبه برجل يتزوج امرأة وكل منهما طامعٌ في ثروة الآخر، وطامع في أن يرث ماله فكيف تتصور الحياة الزوجية، لا شك أن كلاً منهما سيكذب على الآخر، ويحاول خيانته في ماله، ويتمنى موته قبل نفسه، وقد يقتله إن سمحت له الظروف لينفرد بتركته وهذا ما يحدث غالباً في اتحاد الأحزاب الإسلامية مع غيرها من الأحزاب التي تقدم على عقيدةٍ مضادةٍ للإسلام، فهي تُريد أن تنشر الكفر لتعيش وتبقى ويبقى جمهورها، والإسلاميون حريصون على نشر الإسلام لتتوسع قاعدتهم، وكل منهم يحاول خداع الآخر وسبقه، ولا بد وأن يأتي الإنفصام، وكثير ما يُستغل المسلمون، ويكونون مطية لهؤلاء المخادعين لأن أهل الأحزاب الأرضية الكافرة أقدر على الكذب والمناورة، واللف والدوران، والغاية عندهم تبرر كل وسيلة ولو كانت خسيسة دنيئة، والخيانة تجري في دمائهم باسم السياسة، ولذلك فالحذر أن نرفع مع راية

التوحيد راية أخرى للشرك والكفر والوثنية والإلحاد أو أن نكون مطايا لأهل الباطل ليصلوا إلى باطلهم وزورهم.

ثامناً: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر:

لا يجوز أن يكون نصر الدين قاصراً على المخلصين المؤمنين بل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينصر دينه بمن يشاء، ويؤيد دعوته بمن يريد، وقد يكون فيمن يؤيد الله بهم دعوته مؤمنون صالحون لهم أجرهم عند الله، وكذلك قد يوجد فيهم، فجار وكفرة يستعملهم الله لخدمة هذا الدين، ولا يكون لهم مثقال ذرة من أجر يوم القيامة. وفي هذا يقول ﷺ: [إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر] (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة)، وفي رواية: [وبأقوام لا خلاق لهم] أي لا نصيب لهم من الأجر يوم القيامة، وقد قال هذا بمناسبة أن رجلاً قاتل مع المسلمين ـ بشجاعة ـ في أحد وأبلى في الكفار بلاءً حسناً، ولكن الرسول شهد له بأنه من أهل النار. والعبرة ولا شك بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد يكون من الكفار والفجار أناس يخدمون الإسلام خدمة عظيمة جليلة في رد عدوان، أو حماية مسلم، أو رفع ظلم عن المسلمين، أو نشر القرآن، أو طبع كتب أو كسر شوكة الكفار، ويكونون في كل ذلك غير مخلصين في عملهم، مبتغين غير وجه الله بجهادهم، أو غير مؤمنين بالإسلام أصلاً، وقد يكون بعض هؤلاء مناصراً للمسلمين لبعض منافعه الخاصة، فكثيرٌ من النصارى انضم إلى المسلمين ـ يقيناً منهم ـ أن منفعتهم في أن يكونوا في صف المسلمين، أو جاهدوا مع المسلمين عصبية لعربية أو وطن، وكان لجهادهم هذا أثرٌ بالغ في نصر الدين، وإعزاز رسالة رب العالمين، ومثل هؤلاء لا يجوز بتاتاً صرفهم عن نصرة الدين، ولا رفض جهادهم ونصرتهم ما داموا أنهم متبرعون بها، قائمون بها من عند أنفسهم. أقول هذا لأننا سنجد كثيرين ممن يتطوعون بأنفسهم لنصرة الدين، لا رغبة في الدين نفسه، ولا إخلاصاً للعمل لوجه الله، ولكن لأن مصالحهم الدنيوية قد ترتبط مع انتصار الإسلام، أو لأن ظروفهم وارتباطاتهم تضعهم كذلك، وقد يكون هذا منهم اختياراً لأقل الضررين، وقد حدث هذا كثيراً في السيرة والتاريخ. فالنبي ﷺ لم يرفض نصرة عمه أبي طالب، وكان قد مات على دينه، ولقد

انتصر الإسلام بمن شقق الصحيفة التي كتب بها المشركون مقاطعة بني هاشم، والذين شققوها هم من الكفار أنفسهم. وكذلك قاتل في أحدٍ من كان مصيره النار. وقال فيه الرسول: [إنَّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوامٍ لا خلاق لهم]. وخرج منافقون كثيرون في الغزو مع الرسول وما كان رسول الله ليشق بطونهم، ويفتش عن خبيئاتهم، ويرجع من لا يظهر الإخلاص منه، وكذلك تحالف الرسول مع «خزاعة» وهم كفار بعد صلح الحديبية، ونصرهم عندما اعتدت عليهم «بكر» وهم حلفاء «قريش»، وكذلك وقف بعض نصارى العرب مع المسلمين في حرب «الفرس»، انتصاراً للعرب، وحمية لقومهم، ومثل هذا لا يجوز للمسلمين رفضه مطلقاً، بل من سار منهم مختاراً في ركب الدين، وأراد أن ينصر رسالة رب العالمين، وينضوي تحت لواء المسلمين، ويحارب في صف المؤمنين فإنه لا يُمنع من ذلك، ولا يُحال بينه وبين ما أراد من نصر الدين، بدعوى أنه غير مخلص أو أنه لا أجر له عند الله، أو أنه كافر أو فاجر لا خلاق له في الآخرة. فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينصر دينَه بمن يُريد، ويُسَخِّرُ عباده كما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، وقد يدفع الله عن المؤمنين بالكافرين، وقد ينصر الله المؤمنين بأن يسلط الكفار بعضهم على بعض والحكم لله أولاً وأخيراً وبالطبع لا يُعارضُ هذا قوله ﷺ: [اذهب فإني لا أستعين بمشرك] (متفق عليه). لأن ذلك رجل جاء يشترط على الرسول أن يحارب معه ويقتسم معه في المغنم لأن هذا يرفع راية مع راية الرسول ويجعلُ من المسلمين الخارجين للغزو وكأنهم جماعة تريد الغنيمة، وتقطع الطريق وتستعين بالانتهازيين وطلاب الدنيا، والفرق هائلٌ بين هذا وهذا وبين ما قررناه ـ آنفاً ـ من شخص أو أشخاص يتطوعون بأنفسهم لنصر الدين، ويحاربون تحت راية المسلمين ولا يشترطون على المسلمين شيئاً يناقض أهدافهم، أو يرفعون مع راية الإسلام راية ثانية. وشتان بين هذا وهذا، وعلى كل حال فالحديث هذا إن قلنا أن العبرة بعموم لفظه فهو مخصص بمخصصاتٍ كثيرة: فقد استعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية أدراعه وهو كافر وقال له الرسول ﷺ: [بل هو عارية مضمونة مستردة] (عارف بالطريق). واستعان بخريت (رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي) من «بني الديل» ليدله على الطريق من مكة إلى المدينة، وفدى أسرى «بدر» بتعليم أبناء المسلمين للقراءة والكتابة.. الخ. ومثل هذه مخصصات كثيرة عند من يقول:

إن هذا داخل في باب (الاستعانة)، وإلا فحديث [اذهب فإنا لا نستعين بمشرك] إنما هو في مثل تلك الحالة التي جاء فيها هذا الأعرابي يعرض على النبي ﷺ أن يشاركه الغزو، ويقاسمه الغنيمة فقال له رسول الله ﷺ: [اذهب فإنا لا نستعين بمشرك] وذلك بعد أن عرض الرسول عليه الإسلام فرفض. ولو قبله الرسول ﷺ بمثل هذا العرض الذي عرضه لكان هذا قدحاً في الجهاد الإسلامي ولكانت صورته صورة غزو من أجل المغنم وليس الأمر كذلك، فإن للمسلمين رسالةً وهدفاً، وكذلك لا يناقض هذا الحديث تحالف رسول الله ﷺ مع قبيلة «خزاعة» ضد «قريش» و«بكر» فإن النبي ﷺ كان بهذا يمثل جبهة سياسيةً في مقابل جبهة أخرى، وكان لا بد للرسول من أن يقبل مَنْ ينضم إليه، وينضوي تحت لوائه، ويطلب حمايته، ولو كان هذا الطالب من الكفار ما دام أنه آثر الانضمام والالتجاء إلى أهل الإسلام، والقتال تحت رايتهم، والعياذ واللياذ بهم.

وفي هذه المسألة تفصيل ليس هنا مكان شرحه وبسطه، والمهم الآن هو بيان أن جبهة الإسلام في مقابلة الكفر لا يُشترط أن تكون إسلاميةً خالصةً بل إن كان مَنْ آثر أن يكون في جانب المسلمين فإنه لا يُدفع ويُطرد بل يُقبل ويُنصر، ويُدافع عنه، ما دام أنه قد آثر صف المسلمين، وأحب نصرهم، واختارهم على غيرهم.

ومثل هؤلاء ليس من الدين بل ولا العقل والمنطق أن يُطردوا ويُزجروا، ويُمنعوا من الوقوف في صف المسلمين، ونصرهم للدين، مهما كانت نياتهم وأغراضهم، اللهم إلا أن يكونوا عملاء للكفر مدسوسين في صف المسلمين، فهؤلاء شأنهم شأن آخر يجب الحذر منهم وعدم اتخاذهم بطانة، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٨].

ولا شك أن هناك فرقاً شاسعاً بين مَنْ يلوذ بالمسلمين محباً لهم راغباً في نصرهم وإن كان على غير دينهم وملتهم، وبين مَنْ يلجأ إلى المسلمين مريداً فتنتهم، وشق صفوفهم والتطلع على عوراتهم. . ولا شك أنه لا يخفى حال هذا وهذا والواجب هو الحذر والحرص ووضع كل أمر في نصابه، وعدم الحكم على الصنفين بحكم واحد، وجعل كل من ليس مسلماً على نمط وشكل واحد، فإن هذا ينافي السياسات الشرعية بل الحكمة والعقل.

تاسعاً: قنوات الاتصال يجب أن تكون مفتوحةً مع الجميع:

شاع عند المسلمين في الآونة الأخيرة، وعند الدعاة منهم والمتحمسين للدين بصورة خاصة أنه لا يجوز الاتصال مطلقاً بالكفار أعني بالجهات السياسية منهم، وهم يتصورون أنه في ظل دولة إسلامية لا تكون علاقة دولة إسلامية مع الكفار إلا عن طريق الحرب فقط، وأنه ليس هناك لقاء مطلقاً، وهذا خطأ بالغ وجهل بالسيرة والتاريخ والسياسة الشرعية في التعامل مع غير المسلمين، فالرسول ﷺ كانت قنوات الاتصال بينه وبين الكفار على اختلاف أشكالهم قائمة، فقد جلس مع اليهود وجادلهم، وناقشهم، وعاهدهم، ثم حاربهم لما نقضوا عهده، وانتصر على بعضهم ثم عاهدهم كما حدث مع يهود خيبر، حيث أقرهم الرسول في خيبر وشارطهم على نصف ثمارها.. وكان الاتصال بهم دائماً في حدود ما شورطوا عليه، وكذلك فعل الرسول مع النصارى، ناقشهم واستضاف بعضهم وأمنهم على أنفسهم كما حدث مع «عدي بن حاتم الطائي»، ودعاه للإسلام، وكذلك ناقش نصارى «نجران» وعاهدهم وصالحهم، وكذلك مع جميع أصناف المشركين في الجزيرة: وادع بعضهم، وعاهد آخرين، وحارب بعضاً منهم ممن آثروا حربه، ووضع الحرب بينه وبينهم كما فعل مع «قريش» في «الحديبية»، ثم حاربهم عندما نقضوا عهده، ثم عفا عنهم وهم ما زالوا على كفرهم بعد أن انتصر عليهم.

وكذلك فتح الرسول ﷺ قنوات الاتصال مع كل ملوك الأرض في الجزيرة العربية وخارجها يدعو ويعظ ويرسل الرسل، ويستقبل رسلهم، ويكرمهم على كفرهم وبقائهم على دينهم، ويؤمنهم في أرض الإسلام، ويقبل هدايا الملوك التي يرسلونها له وهم على كفرهم، ولا شك أن طائفةً عظيمةً جداً من الدعاة اليوم يجهلون أموراً كثيرة من ذلك، وإن قرأوها في السيرة لا يدركون معانيها، بل إن كثيراً منهم ليظن أن مجرد لقاء بين مسلم ويهودي، أو مسلم ونصراني، أو قبول هدية، أو عقد مناظرة، أن كل ذلك يناقض الدين، بل قد يتهم من يفعل ذلك بالمروق والكفر والعمالة والخيانة.. الخ، والحق أن الاتصال السياسي في نفسه بين أي مجموعة أو جماعةٍ أو حكومةٍ إسلامية، وبين كفار ليس إثماً في ذاته ولا كفراً ولا مروقاً ولا عمالةً وإنما المهم ما يُقال وما يُتفق عليه، وما يتم من عهود ومواثيق، وما يتوصل إليه من نتائج.

ولا يُتصور مطلقاً أن تكون هناك هيئة سياسية إسلامية ولا علاقة بينها وبين غير المسلمين إلا القتال، بل إن القتال نفسه لا بد فيه من إنذار ورسل، وإستقبال رسل منهم، ودعوة إلى الإسلام.. وقبول بالعهد، والسلم، إن كان هذا في صالح الجماعة المسلمة، فكيف إذا كان اللقاء مع فئة غير إسلامية من أجل دعوة، أو تسوية مشكلة، أو تعاون على بر، أو مناظرة حول قضية مختلف فيها، أو تشاور فيما ينفع الطرفين.. ونحو ذلك.

إن اللقاء بين مسلمين وكافرين، أو مخالفين، مهما كان خلافهم ليس إثماً في ذاته ولا يُدان به شخص وإنما الاثم حقاً، والإدانة: أن يكون هناك اتفاق ضد مصلحة المسلمين، أو تعاون على الإثم والعدوان، أو تفريط في عقيدة حقة، أو إقرار لعقيدة باطلة ونحو ذلك.

ومن أجل هذا يجب على الدعاة إلى الله أن ينفتحوا على الجميع ويحاوروا الناس كافة، وتكون قنوات اتصالهم دائماً مفتوحة مع كل الأطراف، وكل الاتجاهات مع التزامهم جانب الحق، ووقوفهم مع عقيدتهم ودفاعهم عن دينهم، وألا يبرموا قراراً، أو يعطوا عهداً إلا إذا كان فيه مصلحة لعقيدتهم ودينهم، وتمكيناً لهم.

إن انفتاح المسلمين هكذا على الجميع، ومحاورتهم لكل مخالف، ودعوتهم الناس كافةً إلى الحق، وتمسكهم به، وتقديرهم لمصالحهم الشرعية، وتحالفهم مع غيرهم، حيث يكون في التحالف قوة لهم، ورفضهم التحالف مع غيرهم حيث يكون على حساب دعوتهم وعقيدتهم، واهتدائهم في كل ذلك بسيرة نبيهم، وخلفائه الراشدين، واستفادتهم بعبر التاريخ، وسير الأحداث، سينتهي بهم ولا شك بالتمكين في الأرض، وإعلاء عقيدتهم ودينهم، ولكن انغلاق المسلمين عن الناس وعدم معرفتهم بهم، وظنهم أن الجميع أعداء لهم، وأن كل من يخالفهم في العقيدة فلا يجوز الجلوس معه، ولا التحدث إليه.. إن مثل هذا مدمر للدعوة الإسلامية مزيح لها عن صدر الحياة، وقيادة الناس، والتأثير في الأحداث، بل سيؤدي في النهاية إلى عزل الدين عن واقع الحياة، ووضعه في مسجد أو مدرسة دينية، وترك مجرى الحياة لغير المسلمين، فحذار ثم حذار من أفكار الجهالة التي انطلقت هنا وهناك التي تجعل مجرد اقتراب المسلم من غير المسلم كفراً وإثماً وفجوراً.

إن المطلوب هو ألا تخلط عقيدة الإسلام بغيرها، وألا تتحالف مع كفار ضد المسلمين، وألا نركن إلى الظالمين وننسى عقيدتنا وإسلامنا، أما أن نلتقي مع أي أحد ونعلن ديننا، ولا نتنازل عن عقيدتنا، وننظر ما يصلح لنا ويُعلي من شأننا فنستعمله، وما يفسد ديننا ودنيانا فنتجنبه فهذا مما لا شك في حله بل في وجوبه.

عاشراً: إدراك أبعاد الخريطة السياسية:

يجب على أي مجموعة إسلامية أن تمارس الدعوة إلى الله بجميع أبعادها، وقد علمنا أن البعد السياسي هو أحد أبعاد الدعوة إلى الله، بل عمل الدعوة في أصله ونتائجه عمل سياسي....

أقول: يجب على كل مجموعةٍ وهيئةٍ وجماعةٍ تمارس الدعوة بهذا المفهوم الواسع لمعنى «الدعوة» أن تدرس جيداً «الخريطة السياسية» وخاصة في المنطقة التي تعيش فيها، والتي تحيط بها.

ونعني بـ «الخريطة السياسية»: دراسة التكتلات والجماعات والأفكار والعقائد التي تحيط بها، وكيفية عمل وحركة هذه التكتلات والجماعات والقوى المختلفة، وما مدى قربها وبعدها من الدين، وما مدى عداوتها ونصرتها له، وأيهما أخطر على الدين وأشد عداوة، وأيهما أقرب، وأيهما أقل خطراً وضرراً، وعلى أساس هذه الدراسة الواعية الذكية تكون الحركة، والتوجه، ويكون العمل السياسي ناجحاً. ألا ترى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد عرَّف المسلمين تعريفاً تفصيلياً بأعدائهم الذين يُحيطون بهم، وبكيفية التعامل معهم، تقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء، الآيتان: ٤٤، ٤٥]، فالله سبحانه وتعالى هنا يعلم المسلمين بكيد اليهود، وأنهم لضلالهم يعملون لإضلال المسلمين كذلك، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يغتروا بظاهر تدينهم لأن الله أعلم بأعداء المسلمين من المسلمين أنفسهم، ثم يُفَصِّلُ الله نفسيةَ اليهود، وأهدافهم وعقائدهم، وما ينوون فعله مع المسلمين، ثم طريقة التعامل معهم.

وكذلك فعل الله في تعريف المسلمين بالمنافقين، وخصائصهم وأعمالهم،

وطريقة كيدهم لأهل الإسلام. ثم الأعراب الجاهليين، وأن منهم صالحون محبون للدين، ومنهم انتهازيون يتربصون بالمسلمين الدوائر. قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٩٨]، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٩٩]، وكذلك أعلم الله رسوله والمؤمنين بشأن مشركي العرب وحميتهم وجاهليتهم، وكيفية التعامل معهم، وكذلك النصارى، ودينهم وجهالاتهم وضلالاتهم، ونفسية رهبانهم وقساوستهم، وكيفية التعامل معهم.

ولقد كان من الرعيل الأول من المسلمين مَنْ سَبَرَ غور الأمم والشعوب، وعرف القبائل ودرس الأنساب، وعرف نفسيات الناس، ولذلك كان تعاملهم معهم على أحسن الوجوه، والدارس لسيرة الرسول ﷺ يعلم إلى أي مدى كان رسول الله ﷺ يعلم الناس ويسبر أغوارهم، ويعرف كيف يتعامل معهم، وكذلك الشأن في خلفاء الرسول الراشدين، لقد كان «أبو بكر» عالماً بالأنساب، دارساً لنفسيات الناس، وكان «عمر» من أعلم الناس بشعوب الأرض ومقالاته في الشعوب التي غزاها لا تزال حية إلى اليوم، فقد قال في المجوس والروم مقالات هي بحق خلاصات عظيمة لنفسية هذه الشعوب. وهذا «عمرو بن العاص» أحد دهاة العرب الأربعة وأحد سياسي العالم المعدودين يسمع المستورد القرشي يقول: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تقوم الساعة والروم أكثر الناس]!! فقال عمرو بن العاص للمستورد القرشي: «أبصر ما تقول» قال: أقولُ ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال عمرو: «لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة. وأمْنَعُهُم من ظلم الملوك» (رواه مسلم، ج٥، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب١٠).

فانظر هذه الكلمات الموجزة التي توزن بالذهب والتي لخص فيها عمرو بن العاص أسباب قوة الروم ـ أي الأوروبيين ـ لأن المسلمين كانوا يسمون جميع أهل أوروبا بالروم، نظراً لأن روما كانت يوماً ما عاصمةً لمعظم أوروبا بل معظم العالم. انظر كيف يصف عمرو بن العاص الأوروبيين بما يدل على خبرةٍ عجيبةٍ جداً بنفسياتهم ونظام حياتهم، فهم أحْلم الناس عند فتنة وهذا ظاهرٌ جداً أنه عندما تقع بهم أزمة ومصيبة فإنهم يفكرون فيها تفكيراً عميقاً قبل اتخاذ قرار وهذا أمرٌ مشاهد في حالهم إلى اليوم، وكذلك هم أسرع الناس إفاقةً بعد مصيبةٍ، فانظر كيف قامت أوروبا بعد الحرب الثانية التي دمرتها، وكيف عمرت في سنوات معدودات، وكيف نهضت «ألمانيا» بعد الهزيمة المنكرة في الحرب العالمية الأولى، ثم كيف قامت لتكون اليوم أعظم دول أوروبا بعد الهزيمة الساحقة في الحرب العالمية الثانية، وأما الصفة الثالثة فهي أنهم أسرع بل أوشك الناس كرة بعد فرة، أي عوداً إلى الهجوم بعد الانكسار، وهذا واقعٌ ومشاهدٌ وأنهم خير الناس لمسكين ويتيم، ولا شك أنهم من أعظم الناس على مدى التاريخ رعايةً وعنايةً بمساكينهم وأيتامهم، ثم هم أمنع الناس من ظلم الملوك ومن أجل ذلك أججوا الثورات الطويلة ضد الظلم والعسف وهم الذين اخترعوا النظام الديمقراطي الذي يجعل الحكم للشعب بعكس كثير من الشعوب التي قد ترضى بالعيش في ظلم الملوك والأمراء قروناً وقروناً. . حتى يخلصهم غيرهم، ويستنقذهم سواهم.

إن هذه الخبرة العظيمة بنفسية الشعوب هي التي مكنت المسلمين من التغلب عليهم وهذا «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ يخبره المسلمون في فتح (الشام) أنهم لاقوا عناءً عظيماً وبلاء من قائدٍ روماني يسمى «الارطبون» راوغ المسلمين طويلاً وأوقع بهم في بعض الوقائع، وهزمهم في بعض المعارك بحيله وفكره ودهائه، فيقول «عمر»: «سنحارب أرطبون الروم بأرطبون العرب»!! ثم يرسل لهم «عمرو بن العاص»!! داهية العرب وسياسيها الفذ، والذي يتغلب بالفعل في سنوات معدودات على «أرطبون» الروم. ويقابل مكيدة الروم بمكيدة العرب وتكون الغلبة لأهل العقيدة الصحيحة والتفكير السليم والمنهج الأعلى والأقوى.

باختصار: إن دراسة الخريطة السياسية أمر مهم بل شيء أساسي في أي حركة

إسلامية سياسية صحيحةٍ، فمن يفهم نفسيات الناس، وأخلاقهم وصفاتهم، يعلم كيف يتعامل معهم وأما من لا يفهم ذلك ولا يهتم بذلك فإنه يكون كما قيل في القصة الرمزية كالدب الذي يرى على أنف صاحبه وهو نائم ذبابة فيذهب ليزيحها عن أنفه فيأتي بحجر عظيم ثم يقذف به أنف صاحبه حتى يطرد هذه الذبابة!!.

وكم في العمل والجهاد والدعوة الإسلامية من أمثال هذه الدببة التي تفسد حيث تريد الإصلاح، وتستشرف للفتنة حيث يحسن الاختباء، وتختبىء من المواجهة حيث يتحتم اللقاء، وتضرب حيث يكون الصفح والحلم هو الأولى والأليق، وتصفح وتحلم ـ زاعمة ـ حيث يكون الجهر بالسوء هو القاطع لمادة الشر والحاسم للفساد.. وكل هذا إنما هو من الجهل بالخريطة السياسية والجهل بالقوى والتكتلات المحيطة بالجماعة المسلمة، واحتقار شأن الآخرين، وعدم تقدير الأمور بمقاديرها الصحيحة، ولا شك أن هذا جهالة أي جهالة.

فلندرس الخريطة السياسية للمجتمع الذي نتحرك فيه، والعالم الذي نعيش فيه قبل أن نقدم على أي عمل، ولندرس نفسيات الناس والشعوب، وأخلاق الأمم، وعقائد الجماعات، لنعرف كيف نتصرف التصرف اللائق، وكيف نضع كل إنسان حولنا في الوضع الصحيح، مناصراً أو عدواً، أو إمعة تافهاً أو منافقاً خبيثاً، أو جاهلاً مطاعاً، أو سيداً أو كريماً، أو زنديقاً لئيماً.. ولا نستطيع أن نصدر مثل هذه الأحكام إلا بعد دراسة وفهم سليم لمن حولنا، فلندرس الخريطة السياسية جيداً قبل الحركة ولنتخذ الأسلوب المناسب للدعوة بعد هذه الدراسة.

هذه القواعد العشر هي أهم ما يحضرني الآن من القواعد «السياسية» التي يجب على الدعاة إلى الله السير بمقتضاها حتى تكون سياستهم شرعية، وحركتهم بالدين حركةً صاعدةً، وحتى يكسبوا في كل يوم موقفاً جديداً، وحتى يحققوا في كل يوم خطوةً نحو الهدف، وبغير ذلك تظل الدعوة إلى الله أعمالاً غوغائية، ويظل المسلمون نهباً لتجار السياسة من المنحرفين والكافرين والمارقين.

الباب الثالث

شبهات وجوابها

مما قدمنا يتضح أن الإسلام لا يعرف هذا التفريق بين الدين والسياسة، بل هذا مفهوم غربي كافر، جاء ليفصل الكنيسة عن الحياة، وأما في الإسلام فإن المسجد هو مكان العبادة، والشورى، وتوجيه الأمة في كل شؤونها، وعقد ألوية الجيوش، واستقبال الوفود، وإعلان الحرب.. وخليفة الإسلام هو قائد الأمة، وزعيمها، وإمام الصلاة، والمدافع عن حرمات الله، ومنفذ الحدود، وقائد الجند، ومرجع الناس في كل خلافاتهم، وأقضياتهم، وهو القائم بأمر الله المنفذ لحدوده، وقد كان هذا قبل الخلفاء هو مهمة رسول الإسلام ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

ولا شك أن أعداء الدين همهم اليوم هو الفصل بين المسلمين الدعاة منهم خاصةً وبين العمل السياسي تارةً يقولون: ما لكم وللسياسة، وتارةً يقولون: لا يجوز تسييس الدين، وتارةً يقولون: لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة، وتارةً يتهمون أهل الدعوة والجهاد بأنهم ما دعوا إلى الله إلا لمآرب سياسية وأغراض دنيوية، يريدون بهذا صرفهم عن الاهتمام بشؤون المسلمين، وإعلاء كلمة الله في الأرض، ليخلو الجو لأعداء الله، فيعيثوا في الأرض فساداً كما يريدون، ويحكموا المسلمين بأي قانون ونظام يريدون، ويجعلوا كلمة الدين هي السفلي، وكلمة الكفر والباطل والشرك هي العليا، ويحولوا بين دعاة الإسلام وبين السعي لعز أمتهم، وكرامة دينهم وإبلاغ رسالة ربهم، وإخضاع الناس لحكم ربهم، وأمر خالقهم وبارئهم.

وقد يغتر الدعاة بأقاويل أعداء الله هذه فيظنوا أن البعد عن السياسة الشرعية أحفظ

لقلوبهم، وأخلص لربهم ودينهم، أو أن السياسة مشغلة عن الدعوة لله، ظانين أن الدعوة فقط هي تأليف رسالة، وإضافة كتاب إلى المكتبة الإسلامية، أو الانزواء في مسجد وزاوية، والإكثار من التعبد والزلفى، وبهذا يفسح المجال للأفاقين والكذابين واللصوص المتغلبة على أموال المسلمين ومقدراتهم، وتبقى الساحة السياسية في بلاد الإسلام نهباً لجهلة العساكر، ومحبي الزعامة، والفرق الباطنية الخبيثة، وأعداء الأمة فيمسكون زمام الأمور، ويعيثون في الأرض ظلماً وفساداً، فيتخذون أرض الله دولاً، وعباد الله خولاً حيث ينتهكون الأعراض، ويستبيحون الأموال، ويقصون الإسلام عن واقع الناس، ويستبدلون بشريعة الله الظاهرة شرائع الكفر الباطلة، ودعاة الإسلام غفلى يعللون أنفسهم بالأماني، ويشتغلون بالنوافل، مضيعين للفرائض، ويفصلون بواقعهم بين الدين والحياة، والدين والحكم، والدين والعدل، والدين وإعلاء كلمة الله في الأرض، والدين والجهاد في سبيل الله، وبذلك يقرون أعين الكافرين، وينفذون غافلين مخطط أعداء الدين، ويتركون قيادة الناس للمجرمين والمخربين والمفسدين، أليس هذا من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر؟!!

ولما كان بعض الدعاة إلى الله المخلصين الطيبين قد يقفون في هذا الأمر، أعني ترك العمل السياسي ظانين أنه مشغلة عن الدعوة والدين، وقد يتمسكون في تركهم هذا ببعض الشبهات والتأويلات. أحببت هنا أن استعرض أهم الشبهات وأرد عليها حتى لا يكون بعد ذلك هناك عذر لمعتذرٍ، ولا حجة لمتخلف، ولا مستمسك لقاعد.

أولاً: إن الداعي إذا دخل المعترك السياسي فإنه لا يسلم من بعض المخالفات الشرعية:

كثير من الدعاة يحجم عن خوض المعترك السياسي والذي شرحناه ـ آنفاً ـ بأنه لا بد للداخل في هذا الميدان من أن يرتكب بعض المخالفات الشرعية. كمخالطة المخالفين، ومشاركة العصاة. . الخ. وهذا تصور خاطىء للعمل السياسي الإسلامي لأن حقيقة ذلك هو الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله في الأرض وجهاد الكافرين بالقلم واللسان، وإزاحة أهل الباطل عن التصدر

على مصالح المسلمين والتسلط على رقاب الناس، وقيادة الأمة، وكل هذه أمور مشروعة بل غايات شريفة ولا شك. وقد شرحنا ـ آنفاً ـ ضوابط السياسة الشرعية، وقواعد العمل السياسي الإسلامي (انظر ص٢١ ـ ٥٣)، وأنه التزام بالحق والأخلاق، وعدم تفريط في شيء من الدين، مما أغنى عن إعادته هنا.

وأما مخالطة الناس فمطلوبة في الأمر المباح الذي لا بد منه، وفي الأمر الواجب المفروض، والمسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم، ثم لو فرضنا جدلاً أن بعض هذه الخلطة، وبعض أساليب الدعوة الحديثة ووسائلها لا يخلو من ارتكاب مخالفات شرعية. . لو افترضنا هذا جدلاً فإن هذا يكون من المعفو عنه ـ إن شاء الله تعالى ـ فإن الخير لا يتمحض مطلقاً في مثل هذا المجتمع الذي نعيش فيه، فلا يستطيع مسلم أن يمارس تجارة ولا زراعة، ولا صناعة، ولا عملاً، إلا بأن يرتكب بعض الحرام مما فرضه الواقع المخالف للدين، وعلى المسلم في هذا المجتمع الذي نعيش فيه ألا يصمد للحرام صمداً، وألا يطلبه لذاته كأن يرابي أو يقامر، أو يغش، أو يرتشي، ولكن أن يتاجر فيفرض عليه مَكْس، وضريبة، ويتعامل مع بنك ربوي لا حيلة له إلا في التعامل معه، وأن يتعلم فلا يكون له مندوحة من جامعات يقع فيها اختلاط وخلط بين تعاليم الإسلام وتعاليم الكفر، وأن يتولى عملاً من أعمال المسلمين فيفرض عليه بعض الشر الذي لا بد منه، ولا مندوحة له عنه، فإن مثل هذا ولا شك من المعفو عنه ـ إن شاء الله تعالى ـ رفعاً للحرج، ولأنه يستحيل أن يتمحض الخير. فلو فرضنا جدلاً أن ممارسة بعض الأساليب والوسائل الحديثة للدعوة: كالجمعية والحزب والنقابة، والوظيفة الحكومية ونحو ذلك لا بد فيها من ارتكاب بعض المحرمات فهل يُترك ذلك من أجل هذه المحرمات، وبالتالي يكون الفساد أعظم، والشرك أكبر، ويستولي على أمور المسلمين ومؤسساتهم وأحزابهم ونقاباتهم، ووظائفهم، وأعمالهم أعداء الدين.

لا شك أننا إن رجعنا إلى نصوص الشريعة، وسياسة النبوة، والخلافة الراشدة، وجدنا أنه يجب دفع المفسدة العظمى بالمفسدة القليلة. وهذا من باب «ارتكاب أخف الضررين» وقد فصلنا هذا في كتابنا: «فصول في السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله».

ثانياً: قولهم: إن العمل السياسي مشغلةٌ عن الدعوة:

وأما القول بأن العمل السياسي مشغلةٌ عن الدعوة إلى الله فهذا خطأ أيضاً لأن العمل السياسي الإسلامي يجب أن يكون دعوة إلى الله وإلا ما كان هذا سياسة شرعية، وإنما كان علواً وفساداً في الأرض، واستغلالاً للدين، واستبدالاً لطغيان بطغيان ولجاهلية بمثلها، فالعمل السياسي الإسلامي يجب أن يكون في ذاته دعوة إلى الله، فجمعُ الناس يجب أن يكون على أساس الدين، ولإعلاء كلمة رب العالمين، ولا تجوز مجاملةُ أحدٍ في دين الله، ولا مراعاة خاطر كبير أو عظيم. بل عاتبَ الله رسوله عندما انصرف عن «ابن أم مكتوم» الأعمى إلى صنديد من صناديد قريش يدعوه. قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ. .﴾ [سورة عبس، الآيات: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦].

فالسياسة الإسلامية تختلف شكلاً ومضموناً عن السياسة الجاهلية المادية الخبيثة: السياسة الإسلامية سياسة طاهرة، تبتغي رفع شأن الإسلام والمسلمين، وتكريم أهل الدين وتحقير الكفر والكافرين، وإبلاغ رسالة رب العالمين، وإخراجاً للناس من الظلمات إلى النور وبالتالي فلا مجال فيها لمجاملةٍ على أساس الدين، ولا لتجميع لكل من هب ودب من أجل إكثار العدد، وتكثير السواد، وقيادة الجماهير. . لا، السياسةُ الشرعيةُ الإسلامية بغير ذلك، إنما هي تأليفٌ وتربيةٌ وتوحيدٌ لأمة الإسلام، والفرقة الناجية، وأهل التوحيد والصلاة والقبلة، في واجهة واحدة ضد أهل الكفر والزندقة والإجرام، والسياسة الشرعية إعلاء كلمة الله، وليست توصيلاً لأناس مسلمين، واستبدالاً لحزبٍ جاهل بحزبٍ آخر يدعي الإسلام ولا يلتزم به، وينادي بالدين ولا يتأدب بأخلاقه.

وبهذا المفهوم الذي ننادي به للعمل السياسي الإسلامي نقول: إنه ليس مشغلة عن الدعوة بل هو الدعوة ذاتها، وهو الجهاد ذاته، فالسياسي المسلم داعية، ومربٍ، وخطيب ومجاهد، وقائد وساعٍ في مصالح الناس، ومتعهد لشؤونهم ومفزع وملاذ لأهل الحاجات، والمساكين والفقراء، ومدافع عن حوزة الدين، ومنافح عن عقيدة الإسلام وحرمات المسلمين، ومؤلف لقلوبهم، وساهر على مصالحهم، هذه هي السياسة الشرعية التي نريدها. دفاعاً عن حرمات المسلمين وأوطانهم ومقدساتهم

وقيادة لجيوشهم، وحرباً لأعداء الله داخل أوطان المسلمين وخارجها . . وهذه هي الدعوة الحقيقية والجهاد الحقيقي، وأما تأليف الكتب وتدريس العلم والوقوف عند هذا الحد فهذا جانب من الدعوة والجهاد ولكنه ليس هو جهاد النبي ولا هو عمل الصحابة والسلف. . ومثل هذا الجهاد العلمي قد يكون جائزاً الاكتفاء به في أوقات الأمن والراحة وعزة الإسلام وامتداد الخلافة والسلطان. . ولكنه حتماً غير جائز الاكتفاء به في أيام الشر والفتنة وغلبة أعداء الله على ديار الإسلام والمسلمين وتبدل الأوضاع، وسقوط الخلافة وضياع الدين، وتجبر المجرمين، وانتهاك أعراض المسلمين. في مثل هذه الأحوال يصبح الجهاد العلمي وحده تقصيراً وإثماً، لا يعذر الله به إلا أهل الأعذار من المستضعفين وذوي العاهات، والذين لا يستطيعون حيلةً، ولا يهتدون سبيلاً. فمثل هؤلاء قد يعذرهم الله بقعودهم وعدم بذل أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، وأما أهل الاستطاعة فلا عذر لهم لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وهذه بيعة الله لأهل الإيمان جميعاً وليس لطائفةٍ مخصوصة منهم فمن أوفى ما عاهد الله عليه فقد أوفى وله الجنة، ومن قعد فلا شك أنه معرض لسخط الله وعقوبته. نعم قد يكون الجهاد العلمي والتعليمي فقط بدايةً وتمهيداً للأرض، وإيجاداً للرجال، وبناءً للأفراد القادرين على حمل الأمانة، ومصارعة الباطل، وخوض غمار الجهاد كله قولاً للحق، ودفعاً لأهل الباطل، وحرباً للكافرين، والمنافقين. . أما أن يكون تأليف الكتب، وتنقية التراث، وتصفية المكتبة الإسلامية مما علق بها، أن يكون هذا هو الجهاد والدعوة فلا. . وخاصة في أيامنا هذه التي أصبح حتماً على كل أحد أن ينفر في سبيل الله، وأن تمارس الأمة كلها الجهاد بكل أنواعه، وعلى كل حال فإن الجهاد في تنقية التراث جهاد ولكنه يقي ثغرةً واحدة من ثغور الإسلام، وهو جهاد لا غنى عنه لتصحيح المعتقد، وتقويم العبادة، وتنقية تراث الأمة، وتصحيح التربية. ولكنه ليس نهاية المطاف وخاتمة العمل. بل هو البداية، والحمد لله الذي حفظ لنا أصول ديننا، فهذا كتاب الله بين أظهرنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، وهذه السنة التي قيض الله لها الجهابذة عبر القرون فحفظوها ودونوها وفصلوا بين صحيحها وضعيفها حتى أتتنا ـ بحمد الله ـ نقية صافية خالصةً.

ولا شك أننا لو عملنا اليوم بكتاب الله وما صح لدينا من سنة الرسول ﷺ مما اتفق

عليه أئمة النقد وجهابذة الحديث لكفانا هذا هدايةً، وقياماً بأمر الله، ولا شك أيضاً أن المؤلفات الطيبة الكثيرة في العقائد ومسائل الإيمان والتفسير، والفقه وأصوله.. كافيةٌ جداً لو فقهناها، وطبقنا ما فيها ونَشَّأْنا الأجيال عليها، ثم اهتدينا فيما يستقبلنا من مشكلات وأحداث جديدة بما نستنبطه من كتاب الله وما صح عن رسوله ﷺ.. لو فعلنا ذلك لكنا من أعظم المهتدين، والمجاهدين.

ولا شك أن الجهد العلمي الذي نحتاجه زيادة على ما سلف إنما هو من باب «التحسينات والتتميمات» وليس من باب «الفرائض والأصوليات». إننا فقط نحتاج إلى عقليات علمية لفهم كتاب الله، والإهتداء بما جمعه جهابذة السنة، ثم البصيرة فيما يواجه المسلمين اليوم من مشكلاتٍ وما يعترضهم من عقبات، والجهاد لبناء الأمة وفق هذه التعاليم الربانية، والحكمة النبوية.

إن طريق الجهاد اليوم هو في جمع الأمة وتربيتها على هذا التراث العظيم ولا يمكن أن يكون الجهاد مجرد إضافة لكتاب جديد إلى مكتبة الإسلام العامرة الطيبة. وأن يكون هو السبيل الذي لا سبيل غيره لنصر الدين، وإعلاء رسالة رب العالمين، بل الجهاد الحق هو في الاهتداء بالقرآن والسنة الصحيحة وجهاد الكفار بذلك كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الفرقان، الآيتان: ٥١، ٥٢].

والجهاد بالقرآن والسنة إنما يكون ببناء جيل إسلامي حسب مواصفاتهما، ودفع هذا الجيل للصراع مع الباطل القائم حتى يتم للمسلمين النصر والتمكين، وإنه ليستحيل بناء هذا الجيل إلا تحت مؤسسات، ومن خلال جمعيات وتجمعات وجماعات، وذلك أن العمل الفردي الآن ذاهب مضمحل، ضائع، ويستحيل أن يُوجد عمل قوي مؤثر إلا من خلال مؤسسات قائمة وتعاون وتعاضد، وتكاتف.. وهذا التعاون والتعاضد والتعاهد على نصر الدين، وإعلاء رسالة رب العالمين، واختطاط سبيل موحدة، وصراط مستمر مستقيم لنقل أهل الإسلام من حال إلى حال، ومن ضعفٍ إلى قوة، ومن قوة إلى أكبر منها، ومن موقع متخلف إلى موقع متقدم هو ما نعنيه بالعمل السياسي، وهذه هي الدعوة الحقيقية اليوم إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

إن غرس المؤسسات الإسلامية اليوم في الأرض الإسلامية هو واجب المسلمين. هذه المؤسسات التي يستطيع شباب الإسلام التحرك من خلالها لنصرة دينهم، وإعادة بناء أمتهم.. وتتمثل هذه المؤسسات في: المساجد والمدارس والمعاهد، ودور الرعاية، والجمعيات والتجمعات، والأحزاب والهيئات، وكل ما من شأنه أن يجمع المسلمون عليه من خير وبر وإحسان ودعوة وبناء وتربية. لا بد من إعادة حياة الأمة الإسلامية وفق منهج القرآن والسنة، وإذا كانت الدول والحكومات الحاضرة التي انفلتت من الدين، وحاربت رسالة رب العالمين، وسارت على خط المستعمرين، تربي أبناء الإسلام على عقائد الكفر، ونشر الانحلال والميوعة بين أبناء الإسلام، وتشغلهم بالتافهات عن الجد والمثاليات، وعظائم الأمور، فإنه من أجل ذلك يجب أن يجاهد المسلمون بأنفسهم ومن خلال مؤسساتهم الخاصة لإعادة بناء الأمة ومزاحمة الباطل الذي ينشره أحزاب الفساد، وتحويل مقدرات الأمة إلى خدمة أبنائها الحقيقيين، ودينها وعقيدتها وتراثها بدلاً من هؤلاء الذين يستغلون اليوم مقدرات الأمة الإسلامية لهدم عقيدتها وتراثها وأخلاقها ورجالها ونسائها.. إنها حرب سلمية يجب أن يخوضها الدعاة إلى الله لتحويل مسار المجتمع، وتحويل دفة الحياة نحو الدين، ولا بد من خوض هذه الحرب السياسية على كافة الأصعدة، وفي كافة المجالات، ولا يجوز بتاتاً أن تكون من خلال منبر المسجد فقط ولا من خلال الكتاب الإسلامي، والدرس السري، بل يجب أن تكون أيضاً من خلال الصحيفة والإذاعة، والتلفزيون، والجامعة، والمنصب الحكومي، والحزب السياسي، والجمعية الدينية، والمجتمع النقابي، والمدارس، والمعاهد، وكذلك يجب أن تشمل هذه الحرب السلمية الكلمة بكل أنواعها، والأساليب بمختلف صورها يجب أن تشمل: المحاضرة والخطبة، والقصيدة الشعرية، والقصة، والمقالة. ولا يجوز بتاتاً ترك الساحة الإعلامية والأدبية لفكر مناوىء للدين ليصول ويجول، بل يجب تحطيم كل فكر مخالف وإحلال الأدب الإسلامي الرفيع، والقيم الإسلامية العليا، مكان الأدب الساقط، والقيم المادية السفلى التي باتت تغزونا في عقر دارنا.

هذا هو العمل السياسي الذي نعنيه ولا شك. إن القول بأن مثل هذا العمل مشغلةٌ عن الدعوة قول فيه تغرير وجهل كبير. بل العمل السياسي على هذا النحو هو الدعوة

الحقيقية، ويكفينا أن الرسول ﷺ قال لحسان بن ثابت:

[اهجهم «أي قريش» وروح القدس تؤيدك].. وقال له أيضاً: [الشعرك أشد عليهم من وقع السهام] (رواه مسلم)، فحسان جعله النبي ﷺ مجاهداً بالقصيدة الشعرية التي كانت تسد فراغاً لا يسده غيرها، إذ لا يكفي الانتصار عسكرياً على الكفار، بل يجب النصر أيضاً عقائدياً وفكرياً وأدبياً.

واليوم يحتاج المسلمون في عملهم الدعوي والجهادي والسياسي إلى إعلام ناجح، يتمثل في حسن عرض الرسالة الإسلامية، وفي قوة الرد على الخصوم، وفي رشاقةٍ وحسن التعبير عن قضايا الدين، وليس بكثرة العدد ينتصر المسلمون في جهادهم السياسي، بل أيضاً في رسالتهم الإعلامية الموجهة التي يجب أن تكون على مستوى الأحداث، والتي يجب أن تحطم ما دونها من عقائد وأفكار وقيم، ولن تتمكن من ذلك إلا إذا كانت قوية محكمة.

ثالثاً: قولهم: أن هذا الأسلوب من أساليب العمل لم يمارسه الرسول ﷺ والأصل اتباعه في كل شيء من أمر الدين وبخاصة الدعوة إلى الله:

الشبهة الثالثة هي ما ذكرناه ـ آنفاً ـ وهذا القول مردود بالأدلة التالية:

(١) أن قد ثبت بما قدمناه أن الرسول ﷺ قد مارس العمل السياسي بكل معانيه الطيبة الخيرة من تكوين أمة وجماعة، والدعوة إلى عقيدة تحطم كل العقائد الموجودة، وتنادي بوجوب إزاحة بل إزالة كل عقبة تقف في وجه دعوة الإسلام، ووجوب جعل السلطان لأمة الإسلام، ثم قد مارس رسول الله ﷺ كل أعمال الحكم والسيادة، من تولية الولاة، وإرسال الجيوش والبعوث، والرسل، وتنظيم الدولة، وإقامة الحدود، وعقد المعاهدات، وهذا في حال القوة وأما في حال الضعف فإن رسول الله ﷺ قد طلب النصرة، وطلب الحماية، وقَبِلَها من الكفار ودعا إلى الله سراً، ثم جهراً، وجاهر الكفار بالعداوة وأنذرهم بالقتل وأعلمهم أن دينه خير الأديان وأن سيفتح الأرض، وينال كنوز كسرى وقيصر.. وأن أمته ستكون أقوى الأمم وخيرها، وأعظمها سلطاناً وأمناً

وتمكيناً. . وكل هذا في عرف الناس اليوم من الأعمال السياسية. فليسمه الناس ما شاؤوا سياسة أو غير ذلك إنها طبيعة الدعوة إلى الله، ومنهج القرآن، وسنة الرسول ﷺ، وعلى الذين يكتفون بمجرد تعلم العلم الشرعي وتعليمه أن يعلموا أنهم لم يسلكوا سبيل رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله، ولم يتبعوه حقاً وصدقاً. وإنما اشتغلوا بجزء من الدين، وجانبٍ من الإسلام.

ولا شك أن الرسول كَوَّنَ الجماعة المعاهدة المبايعة له على الموت في سبيل الله والجهاد في سبيل نصرة الدين، ونظم هذه الجماعة، وعلَّمَها، ورباها على عينه وكانت هذه الجماعة بعد ذلك هي طليعة الأمة، ونواة الدولة ونستطيع أن نطلق على جماعة الرسول الأولى «حزب الله»، وقد أقام الرسول كل المؤسسات الممكنة في وقته. واستطاع بهذه الجماعة أن يهزم كل تجمع وتحزب أمامه من العرب واليهود والنصارى والقبائل، والأعراب، وما ترك رسول الله ﷺ الدنيا حتى كانت راية الإسلام تخفق فوق الجزيرة كلها من أقصاها إلى أقصاها، وحتى أصبحت الأمة مهيئة لغزو الروم وفارس، بل إن النبي ﷺ بنفسه غزى الروم في السنة التاسعة، وجبنوا أن يلقوه.

(٢) الدليل الثاني على وجوب العمل السياسي: أن غايات الإسلام لا تتحقق إلا بالعمل السياسي بكل أبعاده، فإن الإسلام ليس تبشيراً وإنذاراً فقط، وليس دعوة تبليغية وعظية فقط، إنما هو دين وحكم وسيادة وأمة، وقضاء، وكلمة الله تعلو على كل كلمة للكفر، وراية التوحيد لا بد وأن تعلو فوق كل رايات الشرك. وهذه الغايات يستحيل الوصول إليها إلا بعمل سياسي منظم صاعد، يحقق مرحلة تلو مرحلة، وخطوة إثر خطوة، ويسير وفق خطة موضوعة، وتدرجٍ زمني مدروس، وهذا هو مفهوم العمل السياسي. وإذا كان الواقع القائم الآن يتنافى مع هذه الغايات، فالنظم والحكومات القائمة لا تتناسب شكلاً ولا موضوعاً مع هذه الغايات الشريفة بل قد تكون عاملة بضد ذلك، ساعية في تعويق أمة الإسلام وتشتيتها ودحرها، وجعلها فريسةً لأعدائها. وبالتالي فإنه يجب تغيير الأوضاع الراهنة ليكون الحكم الإسلامي في وضع يمكنه به تحقيق مراد الله في الأرض، ووضع شريعته موضع التنفيذ ومعلوم أن هذا التغيير للأوضاع القائمة، وأن

تحقيق غايات الرسالة الإسلامية كل ذلك لا يتحقق إلا بالعمل السياسي، و«ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وهل نتصور أنه يمكن لأمة الإسلام أن تكون أمة الإسلام حقاً، وأن تحقق مراد الله بمجرد الوعظ والإرشاد، والتبليغ والأعمال الفردية التي يمارسها كل إنسان بمفرده حسبما يريد وكيفما اتفق، ويتركها إذا شاء.. الخ.

لا شك أن هذا قولٌ مخالف للصواب والمنطق، والعقل، فضلاً عن مجافاته للشرع والدليل والنص.

(٣) ولو افترضنا أن الواجب الآن هو الوعظ والتبليغ، وتصفية التراث، وتربية الأفراد، فإن هذا جميعه لا يتحقق بصور سليمة إلا من خلال العمل السياسي الحركي.. فإن الجماعة أقدر من الفرد في الوعظ والتبليغ، وإن التجمع والتعاون أقدر على الجهود العلمية التي تحتاجها الأمة لتنقية تراثها، وتصفية مصنفاتها وكذلك يستحيل تربية الأفراد تربية إسلاميةً صحيحةً إلا من خلال الجهاد والعمل الجماعي، وتكاليف الدعوة، هنا تظهر «معادن» الرجال على حقيقتها، وتبرز التضحيات، ويبني الأفراد بناءً سليماً، ويدربون تدريباً عملياً على أخلاق الإسلام من الصبر، والحلم، والشجاعة، والإقدام، وإيثار ما عند الله على هذه الدنيا الفانية، وبذل النفس والنفيس في سبيل الله. وأما الجهود العلمية المحضة فإنها لا تربي إلا بمقدار يسير جداً، بل قد يكون الفرد علاَّمةً وجَمَّاعَةً، ومُحققاً ولكن تنقصه كثيرٌ من أخلاق الدين الواجبة، وصفات المجاهدين الطيبة. فقد يمتلىء حسداً من أقرانه، وبخلاً بماله، وضناً بدنياه، وعدم مبالاة بانتهاك حدود الله، وسكوتاً على الشر والفساد والظلم، فيدخل بذلك في جملة المعذبين المفتونين، فإذا فسدت نيته وسريرته، وكان عمله العلمي الشرعي لدنياه فقط وللشهرة والمراءاة ضل سعيه وفسد عمله.. والمهم من كل ذلك أن التربية الحقيقية للأفراد لا تتم إلا بعمل جماعي موضوعي يأخذ هذا الدين بجميع نواحيه ولا يقتصر منه على ناحيةٍ دون ناحية، في إطار هذا العمل الجماعي الموضوعي الذي تواضع الناس اليوم على تسميته بالعمل السياسي تكون المحاسبة على الكسل والتهاون، وبروز الكفاءات الصالحة،

والقيادات الجيدة، والأخلاق الحميدة من الإخلاص وإنكار الذات، وأداء الأمانة، وبذل النفس في سبيل الله، وتحمل مشقات الجهاد والدعوة، والسهر على راحة المسلمين، والتألم لآلامهم والفرح بانتصار الدين، وبهذه المشاعر يعيش المسلم دينه كاملاً، ويحيا في آلام أمته وآمالها ويسعى في سبيل نهضتها ورقيها وسعادتها، إذا دعا لنصر الأمة كان دعاؤه من القلب، وإذا تألم لهزيمة الأمة كان ألمه من القلب كذلك.

وهكذا نوقن ـ إن شاء الله ـ أن العمل السياسي فريضةٌ دينية، وأنه لا يجوز لمسلم قط التخلف عن ركب الجهاد في سبيل الله، ونصرة دين رسول الله ﷺ، وأنه لا بد لكل مسلم أن ينخرط في عمل سياسي ينصر الدين، ويُعلي كلمة رب العالمين ويحقق السيادة والتمكين لأمة خير الأنبياء والمرسلين.

ولنعلم أن القعود عن ذلك معناه تمكين أعداء الدين من الشيوعيين والملحدين وطلاب الدنيا والرياسات والمجرمين من رقاب المسلمين، فالقعود اليوم إثمٌ لا شك فيه، وعلى كل مسلم أن ينصر الله بما استطاع كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [سورة الصف، الآية: ١٤].

والحمد لله رب العالمين، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين المجاهدين، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولتعلمن نبأه بعد حين.

* * * *

* * *

كتاب

الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

* الحمد لله الذي من على هذه الأمة الإسلامية بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس طالما كانت آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر مؤمنة بالله عز وجل، والحمد لله إذ اختار لهذه الأمة أقوم المناهج، وأسلس السبل، وهداها صراطه المستقيم لتسعد في الدنيا بالسير فيه، وتسعد في الآخرة بجنة الله ورضوانه.

* والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأكرم الناس خلقاً، وأعظمهم سياسة وحكماً، وخيرهم تابعاً، ملك فحكم بالعدل والمرحمة، وما رؤي متبوع في الأرض كان أكثر مشورة لأصحابه منه، وبذلك وغيره ألف الله له القلوب، وألان له غلاظها.

* وصلاة الله ورضوانه على خلفائه الراشدين الذين ساروا بالإسلام أجمل سيرة، فما استأثروا دون الأمة برأي، ولا حملوها على ما تكره وبذلك فداهم الحر والعبد، وأحبهم القريب والبعيد إلا من في قلبه إحنة وفي عقيدته زيغ.

وبعد،

* فإن موضوع الشورى في الإسلام من أخطر الموضوعات وأجلها لأنه أهم الأمور في تسيير شئون المسلمين، ورسم سياستهم ولقد كان أيضاً هو أول الأركان هدياً وإقصاء من نظام الحكم الإسلامي كما قال الحسن البصري رحمه الله: «أفسد أمر هذه الأمة اثنان: عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة» (تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٧٩)، ولذلك بقي هذا الحكم معطلاً في

ظل الأنظمة الإسلامية التي تلت ذلك اللهم إلا لمحات قليلة كانت الشورى تطبق تطبيقاً جزئياً تافهاً. ولذلك فقد فسدت أنظمة الحكم، وسارت وفق الهوى والاستبداد أزماناً طويلة حتى ألف المسلمون هذا الفساد والاستبداد، وظنوا مع مرور الزمن أن هذا جزءاً من النظام الإسلامي نفسه، ومن تشريع رب العالمين.

ولقد هالني يوماً أن يقدم لي أخ مجموعة من المجلات كتب فيها بحثاً عن الشورى فما قرأتها حتى أصابني غم شديد لأن كاتب المقال جعل هذه الصور المشوهة حجة في دين الله عز وجل بل تطاول إلى مقام الرسول ﷺ فزعم أنه كان يبرم الأمور بغير شورى، وما دام الأمر كذلك عنده فالحاكم المسلم له ذلك. ثم زعم أيضاً أن الأخذ برأي الأغلبية نظام غربي وليس من الإسلام ولا يقول به إلا من تأثر بهذه النظم التي وصفها بالفساد والفشل.

* فرأيت لزاماً علي دفاعاً عن حق الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وتصحيحاً لما نسب للإسلام زوراً أن أبين هذا الأمر الخطير، فأصدرت أربع مقالات متتابعة في مجلة البلاغ الكويتية في الرد على تلك المقالات، ثم رأيت أن جلاء أمر الشورى جلاء موضوعياً وبحثها بحثاً مستفيضاً كاملاً لا بد له من دراسة أخرى فأخرجت بحمد الله ست مقالات أخرى في جريدة المجتمع تلقاها الناس بقبول حسن، والحمد لله على توفيقه، ثم استكملت بقية بحوث الشورى في فترات متقطعة لزحمة الأعمال حتى ظننت بحمد الله أن الأمر قد جاء وافياً مبرزاً لهذه الحقيقة موضحاً لها.

* وقد قرأت كثيراً مما كتب الأقدمون والمحدثون بهذا الشأن ولست أدعي مع ذلك إحاطة بالموضوع، ولا وفاء له من كل وجه، ولكنه محاولة أظنها ستسهم كثيراً في توضيح هذا الأمر الذي تضاربت فيه الأقوال، وتصارعت فيه الآراء. ولقد ظننت أيضاً بعد تمامه أن الموافق لي في الرأي سيفرح بذلك كثيراً لأنه سيلمس الدليل لمساً، وأما المخالف فإنه سيغير رأيه إن شاء الله هذا إذا كان خلافه لنقص في الدليل أو لعدم وضوح في الحجة، وأما من اتبع هواه فلا يملك أحد له هداية إلا إذا أقلع عن الهوى.

* وقد قسمت البحث بعد تمامه إلى ستة فصول فالفصل الأول يتحدث عن حقيقة

الشورى وما هيتها وهو بمثابة المدخل لهذا البحث، والثاني يتكلم عن ورود هذا المبدأ مجملاً في القرآن ليس تطبيقه حسب ظروف الأمة المسلمة ولذلك فقد طبق لصور كثيرة من سنة الرسول ﷺ وفي سنة خلفائه الراشدين من خلفائه، والفصل الثالث يتحدث عن طرق العمل بالشورى في الإمامة العامة وهي الخلافة والحكم أو الجماعات الخاصة كجماعة الدعوة وغيرها. والفصل الرابع يتحدث عن مجالات الشورى في الإسلام وهو مقسم إلى ستة أقسام: سياسة الأمة في الحرب والسلم، وأولويات التطبيق للأحكام الشرعية، واختيار الإمام أو الخليفة، وتوجيه النظام المالي، ورقابة الحكم وتسديده، وبحث أحكام المعاملات الحادثة وكل ذلك داخل في العمل الذي يقوم به رجال الشورى.

وأما الباب الخامس فإنه يتحدث عن أهل الشورى وطرق اختيارهم.

والباب السادس هو زبدة البحث وثمرته ويتكلم عن كيفية الوصول إلى الرأي الأخير في الشورى.

وقد ألحقنا بهذا البحث المناقشات التي دارت مع الأستاذ محمد سلامة الذي رددت عليه في مجلة البلاغ وذلك لما في هذه المقالات من فوائد عديدة، ففيها رد على كثير من الشبه حول هذا الموضوع الخطير.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا البحث المخلصين من هذه الأمة وأن يكون في جلائه خروجاً من الاستبداد والظلم الذي تعيشه الأمة، وحماية لجماعات الدعوة الإسلامية من فساد التنظيم، وضعف الإرادة، وإرشاداً للفرد المسلم حتى يؤسس بيته وعمله ونظام حياته وفق الشورى، وأسأله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت ٢٠ من المحرم سنة ١٣٩٥ هـ

الموافق ٢ فبرايـــر سنة ١٩٧٥م.

مدخل إلى الشورى

مر على الناس ـ في هذه الأرض ـ أزمان من الظلم والتسلط والاستبداد وكلها كانت من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، فالظلم من طبائع النفوس ولا ينفك عنه إلا من علمه الله ووفقه وهداه.

وكانت رسالات الله إلى الناس داعية أول ما تدعو إلى العدل والإنصاف وهو ثمرة توحيد الله والإيمان به، فالكافرون هم الظالمون والمؤمنون هم الأتقياء العادلون الرحماء. وعلى هدي هذه الرسالات قامت في الأرض في فترات من حياة الناس حياة طيبة زاخرة بالحب والألفة والتراحم والتكافل والعدل. خلصت الناس من عبادة العباد إلى عبادة الإله الواحد سبحانه وتعالى.

والإنسان يتسلط على أخيه الإنسان حالما يملك طريقاً إلى ذلك ولهذا ذاق الناس ظلم الأغنياء لأن المال قوة بأيديهم وظلم ذوي السلطان لأن السلطان قوة بأيديهم ولذلك كان من هدي الإسلام تفتيت هاتين القوتين وتوزيعهما حتى لا تتجمع واحدة منهما في أيد قليلة أو يد واحدة فيقع الناس تحت القهر والظلم.

ففي المال كانت الزكاة، والميراث، ونصيب الفقراء من الفيء والغنائم وتحريم الربا والاحتكار والغش، وكل هذا حتى لا يكون المال متداولاً في أيد قليلة تتسلط بواسطته على رقاب الناس.

وفي السلطات كانت الشورى ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك لتولية الحاكم الكفء وعزله إذا ذهبت كفاءته ونصحه إذا ظلم ومعاونته على الخير ومنعه من الغي.

فما الشورى، هذا التشريع الرباني الفريد الذي يقوم نظام الحكم العادل عليه؟ وكيف نستطيع تطبيقه على وجهه الأكمل وذلك في الولايات العامة والإمارات الخاصة؟ هذا ما سأحاول في مقالات متتابعة ـ مستعيناً بالله عز وجل ـ أن أجلو وجه حقيقتها وأن أنفي ما علق عليها من شبه الضالين وتحريف المغالين والله سبحانه أسأل القصد والإعتدال، إنه السميع العليم.

حقيقة الشورى:

عندما ندرس الشورى الإسلامية دراسة شاملة، لا بد لنا من بيان العدد من القضايا التي يقوم عليها هذا النظام وتتلخص في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١ـ ما حقيقة الشورى في الإسلام؟ وما تعريفها، وما هي حدودها؟

٢ـ أهل الشورى من هم؟ هل هم جميع المسلمين أم أناس مخصوصون؟ وإذا كانوا مخصوصين فما الاعتبار في اختصاصهم؟ وكيف الوصول إليهم؟ وهل هو بتعيين من الإمام؟ أم بالترشيح من الناس أم بغير ذلك؟.

٣ـ ما هو ميدان العمل عند أهل الشورى؟ هل هو ميدان النصوص فهماً وتطبيقاً؟ أم ميدان الجديد من المعاملات تشريعاً وتقنيناً؟ وهل هو ميدان الحرب والسياسة فقط؟ أم ميدان الحياة بكاملها؟

٤ـ الحكم الأخير في الشورى هل هو لغالبية المستشارين؟ أم لاجتماعهم؟ أم هو للإمام فقط:

ومقال اليوم ـ إن شاء الله ـ سيكون لبيان حقيقة الشورى والتعرف عليها ليظهر لنا مدلول لفظها ـ الشورى ـ واضحاً جلياً.

وجاء ـ أشار ـ بمعنى استخرج العسل واجتناه من مواضيعه، وجاء معنى أومأ بيده أو برأسه.

فكان المستشير يطلب إشارة الناس إلى مواضع الحق والخير في الأمر المشار فيه.

والمعنى المنقول لكلمة الشورى هو: استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق.

وحسب التعريف السابق ندرك الحقائق التالية:

١ـ لا بد لتحقيق الشورى من تصفح الآراء والأفكار في الأمر المشار فيه من كل صاحب رأي وفكرة.

٢ـ الأمور المقطوع بأنها حق ليست مجالاً للشورى، ولا هي داخلة فيها. فالحقائق الثابتة في أمور الدين والدنيا ليست مجال نقاش وآراء لأنه مجمع على أنها حق ولا مجال للاختلاف فيها.

وحسب ما مضى ندرك ـ نحن المسلمون ـ أن حقائق الإسلام الثابتة التي اذعنا وانقدنا لله بمقتضاها ليست من مجالات الشورى عندنا: فكون الإسلام حق والصلاة واجبة والجهاد فرض والخمر حرام والزنا حرام أمور قد سلمنا بها بشهادتنا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وعرض هذه الأمور وأمثالها على الشورى كفر بالإسلام وخروج من دائرته.

وليس بقبيح لو اجتمع قوم من غير المسلمين ليتشاوروا أدين الإسلام حق أم لا؟

بل يجب عليهم أن يتشاوروا ويذكر بعضهم بعضاً بذلك كما وعظهم الله عز وجل بهذا عندما قال تعالى:

﴿ ۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ، الآية: ٤٦].

فنحن لا نستنكر اجتماع غير المسلمين للتشاور في شأن دين الإسلام ولكننا نرى أن المسلم يكفر إذا ما دعا الناس للتشاور في شأن القصاص هل هو عدل أم لا، وفي قطع يد السارق هل هو حق أم لا، وفي شأن الخمر هل نحرمها أم لا؟

لأنه بذلك يهدم إسلامه السابق إذ من مقتضى الإيمان الإقرار بحكمة الله

وعلمه والإيمان بتشريعه كله سبحانه وتعالى . .

٣ـ الأمور التي تدخل في إطار الشورى غالباً ما يكون الحق والمصلحة فيها مظنون من الجميع ولا يستطيع أحد أن يجزم به، وقد يعلم الحق في بعض أمور الشورى إذا كان عند أحد المستشارين نص واضح جلي من الكتاب أو نص صحيح صريح من السنة وسأضرب لكل نوع مما سبق أمثلة يتضح بها المقام إن شاء الله :

مثال الأمر الأول وهو الذي يظن الحق فيه ولا يقطع به: أمور الحرب والسلم والمعاهدات، فكم من دول دخلت حروباً وهي تظن أن النصر معها والمصلحة في خوضها ثم باءت بالخيبة.

وكم من دول أخرى أبرمت معاهدات وعقدت صلحاً وهي تظن الخير لها في ذلك وكان العكس هو الصحيح.

وهذا الأمر يعم كل الأمم ولا يخص دولة دون دولة، فقد أبرم رسول الله ﷺ صلح الحديبية وهو مسلم لأمر الله تبارك وتعالى غير عالم بنتائجه إلا أنه قال: [إنه ربي، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني]. فقد كان منفذاً لأمر الله تبارك وتعالى مؤمناً بأن العاقبة ستكون له بمشيئة الله سبحانه وتعالى وقد أنكر صحابته غالبيتهم أمر هذا الصلح إنكاراً شديداً، ولكن كانت عاقبته أن كان أعظم فتح في الإسلام.

وقد أشار بعض المسلمين على الرسول ﷺ بالبقاء في المدينة في غزوة أحد، وألح عليهم آخرون بالخروج، والكل يقدر جانب المصلحة في ذلك ومع ذلك لم يكن أحد منهم يقطع أين يكون الخير، قد كان احتمال النصر مع الخروج وارداً بل محققاً لولا مخالفة الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والشاهد أن أمور الحرب والسلم والسياسة والمعاهدات أمور لا يقطع عند المشاورة فيها الحق والخير والصواب، وإنما بترجيح جانب المصلحة، ولذلك كان رسول الله ﷺ يوصي قواده الذين يرسلهم في الغزو قائلاً :

[وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا].

فيستفاد من قول الرسول ﷺ [فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا] أن حكم الله في هذه الأمور مظنون وليس بمقطوع به. ألم تر أن الله عاتب رسوله والمؤمنين لقبولهم فداء الأسرى في بدر، وأخبرهم أن الحكمة والمصلحة كانت تقتضي قتل الأسرى في هذه الغزوة وذلك حتى تخضد شوكة الكفار فلا تقوم لهم قائمة بعد.

وليس أمام أمير مسلم يحاصر أهل حصن وينزلون على حكمه احتمال واحد لإبرام الصلح على أساسه بل أمامه عشرات الاحتمالات والشروط وكلها يستند إلى نصوص من الكتاب والسنة، فهل يقتل مقاتلتهم ويسبي نساءهم وذراريهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني النضير وبني قينقاع. أم يمن عليهم جميعاً، أو يفادي برجالهم أسارى المسلمين ببلاد الكفار كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . . ﴾ [سورة محمد، الآية: ٤] وهل يترك لهم معابدهم ويسمح لهم باستحداث شيء جديد، أم يترك لهم الموجود منها فقط أم يصالحهم على هدم البعض وتحويله إلى مساجد؟ وهل يصالحهم على ترك أرضهم لهم أم يأخذها منهم؟ . . كل هذه احتمالات واردة وكل منها قد فعله المسلمون في حروبهم وكلها في شأن أمر جزئي وهو:

استنزال قوم من الكفار من حصن من حصونهم، أي قبول بلدة.

ما مصلحة المسلمين، والنزول على حكمهم بعد حصارهم؟

وأقول: من يستطيع اليوم أن يقطع بالحق والخير والمصلحة للمسلمين في شأن يهود فلسطين عندما ينصر الله المسلمين ـ وهذا آت لا محالة بإذن الله! هل يجلون من فلسطين إلى الديار التي أتوا منها، أم تقتل مقاتلتهم وتسبى نساؤهم وذراريهم كما فعل بيهود بني قريظة، أم يُمَّن عليهم ويعيشون كمعاهدين وأهل ذمة؟ وإذا كان ذلك فما هي نوع الحريات التي تعطى لهم والتي تمنع منهم؟ أم يجلى من هاجر بعد عام ١٩٤٨ ويترك من هاجر منهم قبل ذلك؟ وهل تعود الأرض إلى أربابها الذين تركوها وهاجروا من أهل فلسطين، أم تكون غنيمة للمحاربين؟ وهل توزع أم تكون أرضاً خراجية؟ وأملاك اليهود التي أحدثوها هل تصبح ملكاً للدولة أم للمحاربين؟

إحتمالات كثيرة وآراء مختلفة متباينة، ويستطيع كل صاحب رأي من الآراء السابقة أن يدعم أقواله بآية من كتاب الله أو حديث من أحاديث رسول الله ﷺ، ولكن من زعم أن الحق والصواب والمصلحة في رأيه هو فقد أخطأ خطأ بيناً وتحكم في دين الله عز وجل ولا يستطيع أحد أن يجزم بالصواب والمصلحة في مثل هذه الأمور إلا بعد وقوعها ومعرفة نتائجها وعلى قياس هذه النتائج يكون تقدير الرأي والحكم عليه بالمصلحة أو المفسدة.

وللقارىء عذري ـ إن أطلت في بيان هذا الأمر وضرب الأمثلة من الوقائع السالفة والوقائع المرتقبة والحديثة.

وذلك أن بعض الناس ممن يزعم العلم الديني يفتي في مثل هذه الأمور ويجزم بأن الحق معه ويرمي بالجهل والفسق بل والكفر أحياناً من خالفه الرأي.

ولكن هناك أموراً أخرى من أمور الشورى قد يعرضها إمام المسلمين للمشاورة ويكون الحق فيها معلوماً بالنص عند بعض الناس، وهذا مثاله الحادثة المشهورة في مشاورة عمر بن الخطاب للمسلمين في دخوله ومن معه أرض الشام بعد أن وقع بها الطاعون، فإن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر: ما أرى أن ترجع بل أنت قادم لأمر لا بد من نفاذه ثم أنفر من قضاء الله!؟ ولكن آخرين وجدوا المصلحة في غير ذلك وقالوا: يا أمير المؤمنين، ارجع بمن معك، ولا تقدمهم على هذا الوباء فتعرض نفسك ومن معك للخطر!!

فشاور عمر المهاجرين الأول ثم الأنصار فلم يختلف عليه اثنان أن يجب عليه الرجوع فقال لأبي عبيدة: يا أبا عبيدة، نفر من قضاء الله إلى قضاء الله! ثم جاء عبدالرحمن بن عوف ـ وكان غائباً ـ فلما علم بذلك قال: عندي في ذلك علم عن رسول الله ﷺ، قال رسول الله: [إذا وقع الطاعون بأرض فلا تدخلوها ولا تخرجوا منها] فانحسم الأمر وعرف الحق المقطوع به وليس المظنون لأن مستنده نص ظاهر جلي، ولو علمه عمر أولاً ما استشار الناس في هذا الأمر، ولو علمه أبو عبيدة قبل هذا ما قال لعمر: كيف تفر من قضاء الله؟!

والمقصود بهذه الأمثلة بيان أن بعض أمور الشورى قد يتوصل إلى الحق فيها إذا

كان هناك دليل ظاهر جلي وليس هناك دليل مخالف له أو معارض، والبعض الآخر لا يمكن القطع فيه بالحق والخير والمصلحة قبل حدوثه.

الحق في أمور الشورى:

ولكن يجب أن نعلم أنه على مقدار تقوى الله عز وجل والعلم بشريعته والتمسك بها يكون الوصول إلى الحق في أمور الخلاف ومعرفة الصواب في أمور الشورى والاجتهاد. مما يدل على ذلك أن رسول الله ﷺ حاصر بني قريظة قرابة شهر في حصونهم وصياصيهم ثم قبلوا النزول من حصونهم ولكن على حكم سعد بن معاذ ـ الذي كان حليفاً لهم في الجاهلية ظناً منهم أنه سيكون رحيماً بهم، وقبل الرسول ﷺ عرضهم هذا، ثم دعي سعد من المدينة حيث كان يمرض فيها من سهم أصابه في الخندق. فقال سعد بعد أن جلس للحكم: حكمي نافذ على الجميع؟ فأشار رسول الله ﷺ: أن نعم، وكذا فعل رؤساء اليهود، فقال سعد: فإني أحكم بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى نساؤهم وذراريهم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

[لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات] وهذا هو الشاهد من سوقي لهذه القصة، فإن سعداً رضي الله عنه باجتهاد الصادق وخوفه وتقواه وعلمه حكم هذا الحكم في الذين خانوا العهد مع رسول الله ﷺ ومعنى قول الرسول السابق [لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات] أي هذا حكم الله فيهم، ومعنى ذلك أنه لو أنزلت آيات فيهم لكان مضمونها هو الذي حكم به سعد بن معاذ رضي الله عنه.

فإذا كانت الشورى هي اشتراك مجموعة من الناس في الاجتهاد للتوصل إلى ما يرضي الله في الأمور التي تعرض للمسلمين ويطلبون حلها فإن أقرب الناس إلى الحق في ذلك هم الذين يتجردون لله عز وجل ويقولون الحق ولا يخافون في الله لومة لائم. فنسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وإحسانه.

الفروق الأساسية بين
الإمامة العامة والجماعات الخاصة

في الفصل السابق عرفنا أن الشورى: استطلاع الرأي من ذوي الخبرة للوصول إلى أقرب الأمور للحق، فإنها لا تكون إلا حيث يجهل الحق فإن علم فلا شورى، وأن الأمور التي لا تعرف نتائجها كشئون الحرب، وسياسة الدولة، هي أهم ميدان للشورى (وسيأتي تفصيل هذا الأمر والأقوال فيه في مجالات الشورى إن شاء الله تعالى). وعرفنا أيضاً أن أسعد الناس حظاً بالوصول إلى الحق في أمور الاجتهاد والشورى هو الذي يخلص دينه لله سبحانه وتعالى، ويقول الحق لا يخاف فيه لومة لائم.

وقد رأيت قبل استكمال بحث الشورى أن أضع أمام القارىء الفروق الأساسية بين الإمامة العامة وهي الولاية أو الخلافة، وبين الإمارات الخاصة وأعني بها الجماعات التي يؤلفها المسلمون لتنظيمهم شأن من شئون دينهم أو دنياهم وذلك أن الناس في وقتنا أصبحوا يخلطون بين الإمامة العامة التي هي خلافة الإسلام الكبرى التي يقيمها المسلمون لتطبيق شريعة الله عز وجل، وتنظيمهم شئون حياتهم ومعاشهم، وبين الجماعات التي يؤلفونها للدعوة إلى دين الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعطون أحياناً لأمير جماعة الدعوة ما لا يجوز أن يعطى إلا لإمام المسلمين العام ويقع الناس بسبب ذلك في حيرة وإرباك. وتبلغ هذه الحيرة أقصاها في وسائل الطاعة، والخروج من الجماعة، والشورى.

ولذلك أحببت قبل أن أستطرد في بحث الشورى أن أفرق بين هاتين الجماعتين، حتى لا ينزل كلامي في الشورى في غير منازله. وسيكون بحث موضوع الشورى

متعلقاً بكونه أحد قواعد الشريعة وعزائم الأحكام في الحكم الإسلامي وكونه نظاماً واجب الاتباع في سياسة جماعات الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

تعريف ـ أولاً ـ الإمامة العامة:

فالإمامة العامة أو الخلافة هي التي يناط بها إقامة شرع الله عز وجل، وتحكيم كتابه، والقيام على شئون المسلمين، وإصلاح أمرهم، وجهاد عدوهم.

ولا خلاف بين المسلمين على وجوبها ولزومها، وإثمهم جميعاً إذا قعدوا عن إقامتها وإن كان هناك خلاف فيمن هو أحق بها؛ والشروط التي يجب توافرها فيمن يتولاها ولا خلاف بينهم أيضاً ـ كما أوجبت ذلك نصوص الكتاب والسنة وسيأتي بيان لهذا: إن الطاعة واجبة لولي الأمر المسلم ما لم يأمر بمعصية، وإن الخروج عن الجماعة والشذوذ موجب للعقوبة الأخروية والميتة الجاهلية. وقد اتفق أهل السنة على ما دلت عليه النصوص الواضحة من وجوب النصح للإمام المسلم وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر ولو أدى ذلك إلى قتل الآمر، وإن ذلك أيضاً أفضل الجهاد، وكذلك اتفقوا على أنه لا يجوز الخروج على ولي الأمر المسلم، ودفعه بالقوة ما لم يروا كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان، وأما المعتزلة فإنهم رأوا الخروج عليهم بالقوة إذا فعلوا منكراً، وجعلوا هذا داخلاً في قوله ﷺ: [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان].

فجعلوا الإنكار باليد عاماً في تغيير منكر الإمام وغيره، ورأى أهل السنة أن هذا العام مخصوص بالأحاديث الآمرة بتغيير مناكر الإمامة ـ غير الكفر ـ باللسان والقلب فقط.

ثانياً: الجماعات الخاصة:

وأما الجماعات الخاصة التي تستلزم الإمارة فإنها متعددة وذلك بحسب مصالح الدين والدنيا التي تناط بها، وأشهر هذه الجماعات ثلاث هي: جماعة الدعوة، وجماعة السفر، وجماعة الغربة.

فأما جماعة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى فقد استلزم وجودها إهمال أولياء أمور المسلمين الحكم بشريعة الله، وتحكيم كتابه ومجاهدة أعداء دينه، مما أطمع في المسلمين أعداءهم، وأذهب شوكتهم وساعد على نشوء أجيال من أبناء المسلمين تجهل الإسلام وتعادي رسالته، ولذا كان تأليف الجماعات للدعوة لله تبارك وتعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، وتحكيم شريعته، وتربية ناشئة المسلمين على الإسلام فرضاً لازماً، ومن قال بغير ذلك فقد جهل دين الله تبارك وتعالى. وذلك أن الفرد لا يستطيع وحده أن يسهم كثيراً في سد هذه الثغرات. والقيام بهذه التكاليف، ولذلك كان التعاون لازماً مفروضاً كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢] ومن ألزم التقوى والبر: الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحكيم شريعة الله، والعمل لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى وتربية ناشئة المسلمين على الإسلام وهذه أمور قد أهملها من تولوا أمور المسلمين في عصورنا هذه، فتعين أن يقوم بها المسلمون أنفسهم، ولن يستطيع الأفراد أن يقوموا بها، فلذا لزم تأليف الجماعات والهيئات لسد هذه الثغرات.

وأما إمارة السفر فالأصل فيها قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: [إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم] رواه أحمد، والحكمة في إمارة السفر هو تنظيم شأن الجماعة المسافرة، وإبعادها عن التنافر والخلاف وتعاونها، على الخير والمنافع العامة وكذلك الشأن لجماعة العزلة والغربة، فاتحادات الطلاب والمغتربين المسلمين في ديار الغرب ضرورة لازمة للمحافظة على إسلامهم وإيمانهم وتعاونهم على البر والتقوى ولا يتأتى هذا إلا بتنظيم الجماعة وتعيين الأمراء.

الفروق الأساسية:

وبهذا التعريف العام لجماعة المسلمين وإمامهم، وجماعات الدعوة والسفر والغربة وإماراتها والوظائف والغايات المنوطة بكل منها نستطيع إجمال الفروق فيما يلي:

١ ـ المستند الشرعي :

المستند الشرعي للإمامة العامة هو إجماع المسلمين على وجوب القيام بها، قال الماوردي في الأحكام السلطانية: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»، وكذلك الأوامر الشرعية التي لا تحصى كثرة التي تلزمنا وجوب تطبيق شريعة الله وأحكامه ومعلوم ـ عقلاً ـ أنه يستحيل تطبيق شريعة الله كاملة، وأحكامه تامة إلا بحكم إسلامي شرعي، ولم يخالف في هذا قديماً إلا الأصم من المعتزلة، وتلامذة الغرب في العصر الحاضر كما قال علي عبدالرزاق في كتابه: «الإسلام وأصول الحكم» بأن الرسول ﷺ لم يقم بتأسيس دولة بالمعنى المفهوم في عصرنا وما كان إلا رسولاً فقط، وما كانت أعماله التي تبدو ـ كما زعم ـ من سياسة الملك والرئاسة إلا وسيلة لتثبيت الدين وتأييد الدعوة، وقد أخذ هذا الفكر الخبيث ينتشر في أوساط المسلمين حتى أصبحت هذه القضية المسلمة المجمع عليها تحتاج إلى إثبات وبيان، وإذا لم يكن أمر الإمامة واقعاً فلا أقل من اعتقاد وجوبه على المسلم لأن نفي الاعتقاد وجوب الواجب والمعلوم من الدين ضرورة كفر بإجماع المسلمين.

وأما جماعات الدعوة فمستندها الشرعي هو الأوامر الصريحة الواضحة من كتاب الله تبارك وتعالى بوجوب تغيير المنكر، ونشر المعروف وقد جعل سبحانه وتعالى هذا صفة لازمة من صفات الأمة حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠] ومعلوم أن هذا التغيير الآن لا يكفي فيه الأفراد بعد أن تخلت الحكومات عن فعله بل قد تلبست بضده من نشر الفاحشة وترويجها وإشاعة المنكر وقتل المعروف فتعاون الأفراد هنا لازم واجب. فقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢] يصبح واجباً لازماً إذا كان الأمر الذي يجب أن نتعاون عليه واجباً لازماً، وهذا شأن فروض الكفايات التي لا تؤدى بفرد واحد، والدعوة إلى الله تبارك وتعالى من ألزم هذه الفروض بل هي ألزمها. والجماعة من لوازم الدعوة، فمصالح الأمة التي أهملها من يتولون أمور المسلمين الآن لا تحصى كثرة فالجهاد في سبيل الله، ولا أعني به القتال فقط بل الجهاد بمعناه العام الشامل معطل كله وها هو الإسلام يرمى من كل صوب بسهم، فسهام إلى عقائده، وسهام إلى شرائعه، وسهام إلى آدابه

وأخلاقه، ولا راد ولا مدافع إلا القليل القليل. ولذلك تتراكم الشبهات وتكثر وتنشأ ناشئة المسلمين فتتشرب هذه الشبهات وتشربها قلوبهم فينشئون على بغض الإسلام وأهله ورسالته، فمن لهذا الجهاد غير الجماعات؟! وهذا الفسق يعلو كل يوم والفضيلة تختفي ولا يكفي في علاج هذا الطوفان فعل الأفراد بل لا بد من التعاون والتعاضد. **ولذلك يجب أن يعلم الناس أن الإسلام الآن ليس نشاطاً محظوراً، بل هو نشاط واجب ولازم والقوة أو السلطان الذي يقف في وجه هذا النشاط ـ ما دام أنه ملتزم بأدب الإسلام ـ قوة أو سلطان كافر، وقد أوضحت هذا جلياً بحول الله وقوته في رسالتي المسماة: «الحد الفاصل بين الإيمان والكفر».**

ب ـ الطاعة والالتزام:

وأما الفرق الثاني بين الإمامة العامة والجماعات الخاصة ففي الطاعة فهي في الإمامة العامة مطلقة لا يقيدها إلا المعصية فقط، وهذه الطاعة ثابتة للإمام العام في عنق المسلمين حتى مع جوره وظلمه يدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: [السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة] متفق عليه.

وكذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: [بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى آثره علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول للحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم]، وفي رواية: [وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان]. متفق عليه. فقوله رضي الله عنه: [وعلى آثره علينا] معناه أننا نطيع الإمام ولو آثر غيرنا علينا، وكذلك قوله: [وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً] أي لا يجوز الخروج على الإمام بالفسق الذي لا يبلغ حد الكفر وطاعته مع هذا الفسق أيضاً واجبة. ولا يعني هذا بالطبع عدم نصحه بل هو واجب كما قلت في صدر هذا البحث، بل جعل الرسول القيام للإمام الظالم الفاسق ونصحه أفضل الجهاد كما قال ﷺ: [أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر] وجعل الرسول ﷺ من يقتله هذا الإمام الجائر عند نصحه من سادات الشهداء كما قال ﷺ: [سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله].

وهذه الطاعة المبينة آنفاً غير الطاعة الثابتة لأمير جماعة الدعوة أو أمير جماعة الغربة أو السفر فالطاعة في كل الجماعات السابقة طاعة عرفية مشروطة، وأعني بقولي عرفية أنها بحسب ما تتعارف عليه الجماعة وبحسب ما تشترطه، وبالطبع لا يلزم الطاعة مع الفسق والجور، فقد أوجب الرسول الطاعة للإمام العام مع فسقه وجوره للفساد الحاصل من عصيانه والخروج عليه، ولا يتأتى فساد من عصيان أمير جماعة السفر والغربة والدعوة كفساد الحاصل هناك. **فالطاعة والالتزام في هذه الجماعات مشروط ببقائها في نظامها الموضوع وشروطها المنصوص والمتعارف عليها.**

جـ الوحدة والتعدد:

وهناك اتفاق على أن ولاية أمور المسلمين يجب أن تكون بيد واحدة هي الخلافة أو الإمامة الكبرى، ولكن بعض المقررين للأمور الواقعة في عصور خلت من تاريخ الإسلام قالوا بجواز تعدد الإمامات العامة. ولا يخفى ما في قولهم من البعد والشطط.

وهذه الأقوال انطبعت أيضاً على العاملين في حقول جماعات الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، فرأى البعض أن تعدد الجماعات غير جائز، واشتط البعض فزعم أن من انضم إلى جماعة ما هم المسلمون وحدهم وما عدا ذلك فليسوا بمسلمين، وكان من أسباب هذه الأقوال الظن الخاطىء بأن جماعة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى هي الجماعة المسلمة فقط وأن أمير جماعة الدعوة يقوم مقام الإمام العام والخليفة، ولذلك أعطى مفارق جماعة الدعوة حكم مفارق بيعة الإمام العام، وليس هذا بسديد، بل مفارق جماعة الدعوة مخل بعهد وبيعة خاصة ولا تنطبق عليه أحاديث مفارق الإمامة العامة ومنها قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: [من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية] متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما حكم التعدد للجماعات الإسلامية فالحق أنه راجع لطبيعة الجماعات وأعمالها وظروف المجتمعات التي تعيش فيها.

فالمصلحة الشرعية تحتم أحياناً التعدد في المجتمع الواحد وتحتم أحياناً التوحد والاجتماع وتجيزه أحياناً أخرى، ويحدد الحكم في هذا النظر الشرعي الصحيح

المبني على دراسة وافية للنصوص الشرعية، وطبيعة المجتمعات، والدعوات القائمة والمهمات المنوطة بها وهذا كلام فيه إجمال كثير ولتفصيله مجال آخر إن شاء الله تعالى. والمهم في هذا الصدد بيان أن القول بحرمة تعدد جماعات الدعوة في المجتمع الواحد أو البلد الذي تحده حدود سياسية واحدة قول متعجل. وكذلك القول بالجواز مطلقاً تنقصه الرؤية الواضحة لأحوال الدعوات ومشاكلها.

حدثني الشيخ داود أحمد فيصل الداعية المسلم في نيويورك وصاحب جماعة الدعوة إلى الإسلام هناك قال: «في نيويورك وحدها أكثر من أربعين جماعة تدعو إلى الإسلام، ولكن كل جماعة تدعو إلى إسلام، غير إسلام الجماعة الأخرى». فمن يقول بجواز التعدد إذا كان على هذا النحو من الفساد والبلبلة والصد عن سبيل الله.

ولكن إذا تعددت مصالح الأمة التي أهملها كثير من الحكام كبناء المساجد وتربية النشء على أساس الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفع شبه الضالين، وتنقية عقائد المسلمين فقامت لكل مصلحة من هذه المصالح وواجب من هذه الواجبات جماعة تفرغ جهدها فيها فهل يقال هنا بحرمة التعدد؟ كلا إن التعدد هنا واجب حيث أنه يجب سد هذه الثغرات جميعاً، والقيام بهذه الواجبات جميعاً.

ولكن ما يحز في القلب أن يرى المسلم ـ في أيامنا هذه ـ أن همَّ جماعات الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ـ إلا من رحم الله منهم ـ قد انصرف إلى هدم بعضهم البعض، وأنهم ينفقون من أوقاتهم وأعمالهم في هذا الهدم أكثر مما ينفقون في البناء!

د ـ الشورى:

أعتذر للقارىء من الإطالة في شرح الفروق السابقة وتعريف جماعة المسلمين وإمامهم والمهمات المنوطة به، وتعريف جماعات الدعوة وأمرائها والمهمات المنوطة بها وذلك حتى نستطيع أن نكون على وعي بالإطار الذي سننزل الشورى فيه. فنظام الشورى المنصوص عليه في القرآن والمعمول به في السنة وسيرة الخلفاء الراشدين هو النظام الواجب الإتباع في الإمامة، وأما جماعات الدعوة فهناك بعض الفروق كما سترى عند التمثيل والتطبيق إن شاء الله تعالى.

مبدأ الشورى..

ومرونة.. التطبيق

للشورى في الإسلام قاعدة من قواعد الحكم، ونظام صالح للجماعات وسيرة كريمة للأفراد، وإليك بيان لهذا الإجمال:

دل الكتاب، والسنة، وأقوال الخلفاء وسيرتهم، وأقوال السلف، وأقوال علماء العصر على أن الشريعة الإسلامية جاءت مقررة لمبدأ الشورى وإليك الأدلة على ذلك:

أولاً: الكتاب:

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد التي استشار الرسول ﷺ فيها المسلمين في الخروج إلى عدوهم أو البقاء في المدينة، فأشير عليه من جمهورهم وغالبيتهم بالخروج، وذلك من الذين لم يشهدوا بدراً وكان فيهم تحرق إلى لقاء العدو. ولقد كان ما كان من مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ بالبقاء فوق الجبل وهزيمة المسلمين واستشهاد سبعين منهم، فأمر الله رسوله ﷺ عقب هذه الغزوة بالعفو عمن صدر منهم خطأ كالرماة والذين فروا، والذين تعجلوا الخروج ولم يأخذوا بالرأي الأحكم وهو البقاء في المدينة، وأمره أيضاً أن يستغفر لهم، وأن يستمر على مشاورته إياهم في مثل هذه الأمور، التي هي سياسة الحرب، ومكايد العدو. . ونزول الأمر بالشورى في مثل

هذه الظروف يؤكد حتميتها ولزومها.

واعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ: ﴿وشاورهم في بعض الأمر﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] ليبين أن الشورى ليست في كل الأمور، (وسيأتي لهذا الأمر تفصيل إن شاء الله تعالى في مجالات الشورى).

واعلم أيضاً أن عامة السلف والفقهاء قالوا بأن أمر الله لرسوله ﷺ بالشورى كان للوجوب وليس للندب أو الاستحباب، وخالف في ذلك الإمام الشافعي رحمه الله وقاس الأمر هنا على قوله ﷺ: [البكر تستأذن] أي عند الزواج، قال الشافعي: لو أجبرها أبوها على الزواج جاز!! وقد رد هذا القول الفخر الرازي في تفسيره (٥/ ٨٣) بقوله: القياس في مواجهة النص باطل.

واعلم أخي أن المقيس عليه عند الشافعي في هذه المسألة باطل أيضاً لأن الصحيح أنه لا يجوز للأب أن يجبر ابنته على الزواج لأن هذا مخالف لنص حديث رسول الله ﷺ الآنف.

ولكن بعض السلف ـ مع قولهم بالوجوب في حق الرسول ﷺ ـ نفوا أن يكون هذا الوجوب عن حاجة عند الرسول للمشاورة، بل قالوا: لقد أغناه الله عن المشورة بما أوحى له وهداه ووفقه ولكن أمره بذلك ليقتدي به من بعده الأئمة والخلفاء، وليكون هذا سياسة دائمة في الأمة إذا رأى الناس أن رسول الله ﷺ وهو من هو كان مأموراً بذلك ومطبقاً له.

ولكن الفخر الرازي نفى هذا القول بقوله: «والتحقيق في القول أنه تعالى أمر أولي الأبصار بالاعتبار فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢] وكان عليه السلام سيد أولي الأبصار، ومدح المستنبطين فقال سبحانه: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٣] وكان ﷺ أكثر الناس عقلاً وذكاءً وهذا يدل على أنه كان مأموراً بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي، والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة» (المرجع السابق). وخلاصة هذا الكلام أن الشورى لازمة للاجتهاد ولا تقدح في شخص المستشير بل هي دلالة على رجاحة العقل، وأضيف هنا إلى كلام الفخر الرازي رحمه الله أن الشورى تكون أحياناً في أمور دنيوية صرفة، كالخبرة

بشؤون القتال، ومنازل الحرب ومكايد العدو، وأصلح الناس للإمارة، ولا يقول أحد بأن رسول الله ﷺ كان أعلم الناس بشؤون الدنيا ولذلك فهو مستغن عن المشورة فيها وهو القائل صلوات الله وسلامه عليه: [أنتم أعلم بشؤون دنياكم] فليس نقصاً في حق الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ولا طعناً في منزلته أن يكون أمر الله في الآية السالفة الوجوب، وذلك لتتجمع له الخبرة التامة، والعلم الشامل لتصريف شؤون الأمة الإسلامية الناشئة وليكون هذا سنة للخلفاء بعده ليلتزموا هذا المنهج الكريم.

٢ـ قال تعالى في مدح المؤمنين الذين ادخر لهم الخير: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها.

وإذا أردت أن تعلم لزوم الأمر هنا فاعلم أنه جاء بالجملة الإسمية التي تفيد الإستمرار والثبوت وأنه جاء بعد الاستجابة لأمر الله وهي الإسلام ثم الصلاة وهي عماد الإسلام وجاء خلف الشورى الزكاة وإنفاق المال فوضع الشورى بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أكبر الأدلة على لزومها.

ثانياً: الحديث الشريف:

جاء في السنة ما يثبت أن الرسول ﷺ ما ترك المشاورة قط بل قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله لأصحابه».

وجاء أيضاً أن الرسول ﷺ كان يحرص دائماً على مشاورة الشيخين أبي بكر وعمر، بل جاء في حديث الإمام أحمد رحمه الله أن الرسول قال لهما: [لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما] وهذا الالتزام من الرسول ﷺ يدل على تأكيد هذا الأمر ووجوبه. ومما جاء في شأن الوقائع التي شاور فيها الرسول ﷺ أصحابه: مشاورتهم يوم بدر في الخروج إلى العير، ومشاورتهم في قتال قريش عندما خرجت له، ومشاورتهم في منزل الحرب وهي ثلاث مشاورات كلها في غزوة بدر، وكذلك شاورهم في أحد في القعود في المدينة أو الخروج للعدو وشاورهم يوم الخندق في

مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، وقال في حديث الإفك: [أشيروا عليَّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء! وأبنوهم بمن؟ والله ما علمت عليهم إلا خيراً!!].

ثالثاً: سنة الخلفاء وسيرتهم:

وأما خلفاء الرسول ﷺ الراشدون فإنهم ما تركوا المشورة وخاصة في المسائل الهامة كتولية الإمام وشن الحروب وتصريف أمورها وتولية الأمراء على أقاليم الإسلام، فتولية أبي بكر وعمر وعثمان كلها كانت بمشورة وإن اختلفت صورها وظروفها.. وحروب الردة وفارس والروم كلها كانت بمشورة المسلمين علانية في المسجد. (وسأعرض لبعض هذه المشورات في الكلام على مجالات الشورى إن شاء الله تعالى). ولذلك جاء عن عمر بن الخطاب قوله: «من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو والذي بايعه تغرة أن يقتلا» (البخاري ـ الاعتصام ص٧٥).

مرونة التطبيق:

فيما قدمت من آيات وسنَّة، وأقوال للخلفاء والأئمة دلالة واضحة على أن الشورى قاعدة من قواعد الشريعة، ومبدأ من مبادىء الحكم في الإسلام.

ولكن يجب أن نعلم أن هذه القاعدة كانت من المرونة، والقابلية للتكييف بحيث لا تلزم المسلمين بصورة من الصور، ولا بكيفية من الكيفيات تكون واجبة التطبيق وجوب المبدأ نفسه. فليس في الآية ولا السنة بيان بعدد المستشارين ولا بكيفية استشارتهم، ولا في صفتهم، وليس فيها إلا أن الإمام يجب عليه أن يستشير الناس فيما يعرض له من شؤونهم، وأنهم إذا وصلوا إلى قرار أخير بعد الشورى فإنه لا يجوز العدول عنه، ويجب بعد ذلك التوكل على الله عز وجل وعدم التردد والخوف ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

وهذا يعني أن التحكم يجعل كيفية ما من الكيفيات أمراً شرعياً مقرراً تحكم باطل. إلا أن كانت مستندة إلى نص من النصوص، أو مما تقتضيه (المصلحة المرسلة) والصالح العام للمسلمين. وفي هذه الحالة الثانية الأمر خاضع للنظر والترجيح.

وحتى نفهم هذا الكلام المجمل أحب أن نفرق في فهم شريعة الإسلام بين أمرين: العبادات والمعاملات.

فالعبادات وهي القرب التي شرعها الله تبارك وتعالى لنتقرب بها إليه كالصلاة والزكاة والصيام والحج الأصل فيها للتحريم.. ولا يجوز إثبات شيء منها إلا بنص وذلك أن الله لا يعبد إلا بما شرع هو سبحانه وتعالى وهذا أيضاً شأن كيفياتها، وحركاتها وسكناتها، ولذلك تكفل الشارع ببيانها أتم البيان فبين كلماتها وكيفياتها وأوقاتها، ومقاديرها وحركاتها وسكناتها، وكل عمل من هذه الأعمال في هذه العبادات ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو مردود على فاعله، ولا يقبله الله عز وجل كما قال ﷺ: [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] متفق عليه.

وأما المعاملات فالأصل فيها الإباحة، ولا يجوز تحريم شيء منها إلا بنص عن الله أو عن رسوله ﷺ. فالمعاملات من بيع وتجارة وهبة، وولاية، وسياسة، وتنظيم لشؤون الدنيا الأصل في كل ذلك الإباحة، ولا يجوز تحريم شيء منها إلا بنص، ولا يجوز أيضاً أن يعطى شيء من هذه المعاملات وغيرها صفة شرعية محددة لم ينص الله عليها، ولا رسوله ﷺ. فليس في تنصيب الأئمة مثلاً صفة شرعية محددة وكيفية واحدة بل الأصل فيها أن تكون عن شورى كما سبق ونص عمر بن الخطاب على ذلك.

وببيان هذا الأصل تعلم خطأ من ذهب من الفقهاء إلى أن البيع لا يجوز إلا بصيغة تفيد الإيجاب والقبول (بعت وقبلت) ولذا ذهب من قال بهذا إلى تحريم ما يعرف ببيع المعاطاة، وهو أن تعطي البائع مبلغاً من المال وتأخذ منه السلعة دون كلام يفيد الإيجاب والقبول، وهذا بيع جائز نفعله جميعاً فأنت تشتري الآن صحيفتك اليومية، وكثيراً من السلع المعلومة دون أن تلفظ بكلمة واحدة مع البائع فهل هذا بيع باطل شرعاً؟! بل وأنت تضع عشرين فلساً في الآلة فتخرج لك (قارورة البارد) فتشربها وتنصرف والطرف الثاني في هذا العقد ليس إنساناً وإنما هو آلة، وكل هذه البيوع مباحة لأن الأصل في المعاملات هو الإباحة ولا يجوز تحريم شيء منها إلا بنص، فالذين نظروا إلى المعاملات نظرتهم إلى العبادة أخطأوا خطأ فاحشاً لأنهم حجروا على الناس استحداث الجديد منها، وضيقوا القديم بكيفيات وهيئات

وشروط لم يأذن بها الله سبحانه وتعالى، ولا رسوله ﷺ. فالذين قالوا لا ينعقد النكاح إلا باللغة العربية قد حجروا واسعاً، والذين قالوا شركات المساهمة حرام لأنها لم تكن معروفة في عهود الفقهاء الأولى!! قد أخطأوا خطأً فاحشاً، وضيقوا على الناس حياتهم بل الأصل في هذه المعاملات هو الحل ولا يحرم منها إلا بنص.

وكذلك أخطأ من نظر إلى العبادة نظرته إلى المعاملة فظن أن الأصل فيها التوسعة، وعدم الالتزام، ولذلك فهو ينفر ويغضب إذا قيل له يجب أن تُسوى الصفوف في الصلاة، ويُلزق القدم بالقدم، ويُسجد على هيئة معينة، ويُركع بكيفية خاصة. أقول مثل هؤلاء ينفرون إذا ذكروا بهذا ومثله، وظنوا أن هذا من التحجير والتضييق بل ليس هذا من التحجير والتضييق، وإنما الشأن في العبادة أن تؤدى كما شرعها الله تبارك وتعالى بكيفياتها، وحركاتها، وسكناتها وبذلك نفهم قول الرسول ﷺ: [صلوا كما رأيتموني أصلي]، ونفهم أيضاً أن الذين لا يتقيدون في مناسك الحج بمنهج الرسول ﷺ وعبادته مخطئون لأنه يقول: [خذوا عني مناسككم] فالأصل في العبادة التقيد التام، والحرفية المطلقة وعدم الابتداع، ومن أحدث في أمور العبادة ما ليس مأموراً به فهو مردود عليه.

وأما شؤون الدنيا وتنظيمها فالأصل فيها الإباحة مع التقيد التام بحدود الله تبارك وتعالى، فلا يفعل فيها حرام، وأما الابتداع فيها والاستحسان فهو أمر مباح بل مطلوب شرعاً.

هذه ـ أخي القارىء ـ قاعدة هامة من قواعد فهم الشريعة، فاحرص عليها فإنك محتاج لها طيلة حياتك.

وإذا فهمت هذه القاعدة ـ فاعلم أن الشورى من المعاملات التي شرعها الله لننظم بها شؤون حياتنا الدنيوية على أكمل وجه وأتمه وشؤون حياتنا الدينية أيضاً.

ولما كانت خاضعة دائماً إلى ظروف المجتمعات ونموها ورقيها، وتعدد مصالحها فإن الله عز وجل قرر المبدأ فقط (الشورى) ولم يقرر لنا كيفية معينة لتطبيقها. وذلك حتى نتصرف في الكيفية على النحو الذي يرضي ربنا، ويحقق لنا

مصلحتنا الدينية والدنيوية ولذلك ـ أكرر مرة ثانية ـ يخطىء من يفرض على الناس صفة معينة لمبدأ الشورى ويقول: هذه هي الصفة الشرعية وغيرّها باطل. بل الصفة التي تحقق مصلحة الأمة والجماعة، ويتحقق بها تنفيذ هذا المبدأ فهي الصفة التي يحبها الله ويرضاها. ولذلك يجب أن ينظر في الصفة الصالحة نظرة المصلحة العامة ولا نحجر على الناس بصفة معينة، فأي الصفات حققت مصلحة الجماعة فهي صفة شرعية واجبة أوجبتها هنا (المصلحة المرسلة) وسيأتيك إن شاء الله شرح لهذا الأصل الفقهي عند الكلام على القرار الأخير في أمر الشورى.

مجالات الشورى

مـدخـل:

مضى القول بأن الشورى في حقيقتها استطلاع الرأي من أهل الخبرة للوصول إلى أقرب الأمور للحق، وأن الحق في أمور الشورى لا يقطع به لأن المقطوع بأنه حق لا يدخل في مجالات الشورى ـ وسيأتي إن شاء الله تفصيل لهذه الجملة الأخيرة ـ وعرفنا أيضاً أن أسعد الناس حظاً في الوصول إلى الحق هم الذين يتجردون لله سبحانه وتعالى، ويتخلصون من هوى أنفسهم، ومضى كذلك القول بأن الشورى مبدأ واجب التطبيق وقاعدة من قواعد الحكم في الإسلام، وأنه مع ذلك مرن في التطبيق واتخاذ الشكل المناسب في كل عصر من عصور الإسلام.

والآن أخي القارىء نحن مع المجالات التي سيعمل أهل الشورى فيها، وهذا للإجابة عن هذا السؤال: ما العمل الذي سيزاوله أهل الشورى عندما يجتمعون؟ وفي أي القضايا سيبحثون ويناقشون؟

وللإجابة عن هذا السؤال أحب أن أذكر بأن هناك فروقاً أساسية بين نظام الشورى في الإسلام وأي نظام آخر، وسيأتي لهذه الفروق فصل مستقل، إن شاء الله تعالى.

ونستطيع أن نرد هذه القضايا إلى ستة أبواب رئيسية هي:

أولاً: سياسة الأمة في الحرب والسلم:

الأمة الإسلامية تحمل عقيدة نشطة تلزم أتباعها بالحفاظ عليها أولاً ثم الدعوة إليها، وذلك أنها تحمل كلمة الله وتطبق نظامه وشريعته، ومن أجل ذلك فالأمة تعمل ـ أو هكذا فرض عليها ـ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى،

وبذلك ينقسم الناس مع هذه الأمة إلى مؤمن موال مؤيد وكافر معاند محارب أو مستأمن مسالم أو معاهد له شروطه ومدته، والأمة في حركتها النشطة بدعوتها، وقيامها بنشر رسالة الإسلام التي تؤمن أنها رسالة الله، وانقسام الناس معها على هذا النحو فإنها تخوض حروباً، وتبرم عهوداً، وتجنح للسلم أحياناً، وفي كل هذه الأحوال يحتاج الأمر منها إلى دراسة وافية لقوتها وقوة أعدائها، والشروط التي ينبغي أن توقع العهود بها، ومتى تجنح للسلم، ومتى تنشط في الحرب، وهذا كله لا يحتمله عقل واحد، ولا يحوطه رأي واحد، ولا يستطيع رجل واحد مهما بلغ علماً وتقوى أن يصدر فيه عن الحق دائماً، ولذلك كان أول مجالات الشورى في النظام الإسلامي هو تنظيم وتخطيط سياسة الأمة في الحرب والسلم، ولأهمية هذا الباب من أبواب الشورى حصر كثير من علماء السلف الشورى فيه فقالوا قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] هو في الحروب وما جرى مجراها. وذلك أنهم رأوا الرسول ﷺ يكثر من استشارة أصحابه في هذا المجال كما استشارهم في بدر وأحد وفي فداء الأسرى، وفي مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة. . الخ.

وأحب في هذا الصدد أن أبين للأخوة الكرام أن هناك فرقاً يجب مراعاته دائماً بين النص من الكتاب أو السنة، والعمل بهذا النص. فالنص لا يتغير مدلوله وحكمه في أي عصر من عصور الإسلام ولا في أي مكان من الأرض، ولكن ظروف العمل بالنص تختلف حسب المكان والزمان والملابسات ـ وأرجو أن ننتبه جيداً إلى هذا حتى لا يفهم كلامي على غير وجهه ولا يؤول إلى ما لا أريد وأقصد.

ففي القتال مثلاً آيات كثيرة بعضها يأمر بقتال من يقاتلنا فقط كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٠].

وأخرى تأمر بقتال المشركين كافة كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦].

وهناك آيات تأمر بالسلم إذا جنح إليه العدو كقوله تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦١] وأخرى تأمر بالقتال وعدم الدعوة إلى

السلم: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [سورة محمد، الآية: ٣٥] وليس هناك اختلاف بين هذه الآيات فلكل آية ظروفها وملابساتها وإذا كان هناك نسخ في بعضها قرره العلماء فإنما كان ذلك بحسب المدى الذي وصلت إليه أمة الإسلام، فالمسلمون قبل بدر سمح لهم بالقتال وكان حراماً عليهم، وسمح لهم بقتال من قاتلهم فقط، والانتصار ممن ظلمهم فقط وأخرجهم من ديارهم، ثم لما تألبت العرب عليهم ورمتهم عن قوس واحدة في الخندق، وأصبح بعد النصر في هذه الغزوة للمسلمين طاقة بقتال الناس والكفار جميعاً أمرهم بذلك. ولا يعني هذا عند من يفهم شيئاً من دين الله عز وجل أن المسلمين في حال ضعفهم مفروض عليهم أن يعلنوا الحرب على الناس جميعاً من أول وهلة، ولكن السياسة الشرعية تقتضيهم أن يعملوا بكل نص حسب ظروفه ومقتضياته وأحواله دون إلغاء لما سواه من النصوص.
ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عطل العمل بسهم المؤلفة قلوبهم وقال: لقد كان هذا وفي المسلمين ضعف أما الآن فلا، ولكنه لم يلغ النص ولم يعارضه وإنما ترك العمل به فقط في الظروف الذي أداه اجتهاده إلى أنه لا لزوم للعمل به فيه. وأنه عطل حد السرقة في عام الرمادة ولا يسمى هذا منه إبطالاً أو نسخاً.
وملابسات الأمة الإسلامية وظروفها في كل عصر من العصور تلزمها اجتهاداً تضع به كل نص من النصوص في مكانه وملابساته الصحيحة ولا يمكن أن يصدر بهذا رأي رجل واحد، واجتهاد حاكم واحد ولا بد أن يجتمع لذلك ويقرر ذلك مجموع علماء الأمة ومجتهدوها ولا مكان ولا مجال له إلا بالشورى.

وأزيد هذا الأمر وضوحاً وهو واضح ـ بحمد الله ـ فأقول: لا يزعم زاعم منا أنه يقوم بكل أوامر الإسلام التي أمره الله بها وإيما يفعل ـ إن رزقه الله التقوى ـ في حدود الاستطاعة التي جعلها الله مناطاً للتكليف حيث قال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦] وقال أيضاً: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦] فالمؤمن التقي يفعل في حدود استطاعته، ومعنى ذلك أنه يجد ويجتهد ويبذل الوسع والجهد المستطاع ومع ذلك لا يزعم لنفسه أنه قائم بكل ما كلفه الله به من عمل واجب كحضور جماعة الصلاة دائماً والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله . .

وكذلك الشأن بالنسبة للأمة فإن الواجب على الأمة بمجموعها من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى دين الله هو بحسب إمكانياتها وجهدها ووسعها. وإذا كان الفرد المسلم يستطيع أن يصل بمفرده إلى حدود وسعه وطاقته وما يجب عليه نحو أوامر الله عز وجل. فإن الفرد الواحد لو كان مجتهداً لا يستطيع وحده أن يقرر مدى طاقة الأمة وما ينبغي عليها أن تقوم به نحو تنفيذ أوامر الله عز وجل لها بقتال الكفار والدعوة إلى دينه ولا يستطيع أيضاً أن يصل إلى الكيفيات والأحوال التي تشن فيها الحرب أو يركن فيها إلى السلم ولذلك كان لا بد من الشورى في هذا الميدان. أعني ميدان سياسة الأمة في الحرب والسلم والمعاهدات والدعوة، وستكون الشورى لاختيار حكم الله المناسب للظروف والحالة والمكان والزمان، ولن يعني هذا مطلقاً تعطيل أحكام أخرى في هذا المقام. وهذا سر قول الرسول ﷺ لقواده في الغزو: [وإن أنت استنزلت أهل حصن فطلبوا منك أن تنزلهم على حكم الله وحكم رسوله فلا تفعل لأنك لا تدري أتصيب فيم حكم الله أم لا] وقد مضى شرح لهذا النص في موضع آخر من هذا الكتاب.

وخلاصة هذا الأمر أن الميدان الأول من ميادين الشورى هو سياسة الأمة الإسلامية مع غيرها من الأمم قتالاً أو سلاماً أو عهداً أو صلحاً ولا يقرر هذا الحاكم المسلم بمفرده بل بمجموع آراء الأمة وفكرها، وهذه هي الشورى. وتبادل الرأي في هذا الصدد هو لاختيار حكم الله المناسب للظروف والحالة بحسب قوة الأمة وحالة عدوها..

ثانياً ـ أولويات التطبيقات للأحكام الشرعية:

المشكلة الأولى التي ستقابل أي حكم إسلامي بمفهوم الكلمة الشرعي ـ لا بمعنى الكلمة العرفي الكاذب ـ هي أولويات التطبيق للأحكام الشرعية ـ فالأمة الإسلامية بعد ضياع الخلافة منها، وقيام الدول في أرضها على أسس وطنية أرضية لا على أساس عقائدي إيماني، وإزاحة التشريع الإسلامي من منصة الحكم ومزاحمة القوانين الأخرى للتشريع الإسلامي نشأت فيها بذلك أوضاع بعيدة كل البعد عن تشريع الإسلام وروحه، فقانون العقوبات الإسلامي بوجه عام مبعد مقصى، وكذلك قوانين

السياسة الخارجية، وطائفة كبيرة من الأحكام الإقتصادية والاجتماعية بعيدة عن تشريع الإسلام، ولذلك فستكون المشكلة الأولى ـ كما قلت آنفاً ـ من أين يبدأ الحاكم الإسلامي تطبيق الشريعة الإسلامية. أمن السياسة الخارجية أم من إقرار قانون العقوبات فيقتل القاتل، ويقطع يد السارق ويرجم الزاني . . .

أم بتعديل النظام الإقتصادي فيحرره من الربا والامتيازات المحرمة، أم بتطهير المجتمع من الرذائل والفسق فيمنع الخمر، ويغلق أماكن الفساد واللهو المحرم ويأمر النساء بالستر والتعفف. وهل يبدأ بهذا كله دفعة واحدة وفي يوم واحد؟ أم يتدرج في الإصلاح والبناء؟ وإذا كان سيتدرج فما هو الأهم من ذلك ليقدمه على المهم؟

وهنا يأتي دور الأولويات في تطبيق الشريعة، وهذه الأولويات سيختلف النظر فيها كثيراً. إذ بينما يرى أناس أن النظام الاقتصادي يأتي في المقدمة سيرى آخرون أن تطهير المجتمع أولى من ذلك، وسيدافع آخرون عن رأيهم بأن السياسة الخارجية هي أهم المهمات، وسينادي آخرون بتطبيق قانون العقوبات أولاً وقبل كل شيء، ولا شك أن مجلساً للشورى يجتمع فيه أولو العلم والفضل من المسلمين سيقرر بعد نظر ونقاش الخطة التي يراها أمثل لتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً، وهذا هو المجال الثاني من مجالات الشورى إنه بحث الأولويات في تطبيق شريعة الإسلام وذلك حسب ملابسات الوقت وأحوال الناس واستعداداتهم والقوة المهيأة لحكومة إسلامية تريد تطبيق الإسلام وسط هذا الطوفان الهائل من أفكار الجاهلية ومعتقداتها ووسط طوفان آخر من الفسق والرذائل عم وجه الأرض كلها بالفساد والانحلال ولن تكون هذه مهمة يسيرة أبداً بل أنها مهمة شاقة للغاية لأنها تقتضي علماً واسعاً وحكمة عظيمة ولا يفهم هذا إلا من عرف منهج التشريع الرباني وتدرجه حسب استعداد النفوس وقبولها وعرف أيضاً منهج الإسلام في تربية الجماعة المسلمة والأمة المسلمة وأما من أوتوا نصيباً قليلاً من العلم فإنهم يظنون أن حاكماً مسلماً يستطيع أن يطبق الشريعة الإسلامية في الأمة بين عشية وضحاها وهذا سذاجة وجهل وإذا كان الأمر بهذه الأهمية والخطورة فلا يمكن أن يكون لرأي واحد وصول إلى الحق في هذا الأمر الخطير، ولذلك كانت الشورى في هذا الصدد من أهم الأمور.

وأعيد القول هنا أيضاً بأن الشورى من أوليات تطبيق الحكم الشرعي لا تعني

مطلقاً أن الحكم الذي تأخر في التطبيق قد كفر به وجحد، وإنما تعني أن وسع الأمة وطاقتها لم تحتمله بعد، وهكذا تتدرج الأمة في مراقي العمل بالشريعة كما يتدرج الفرد فيتكلف من الأعمال ما يطيق شيئاً فشيئاً حتى يبلغ الكمال الذي قدره الله له، وهكذا تتدرج الأمة في تطبيق الأحكام حسب استطاعتها حتى تبلغ الكمال المقدر لها، ولا يستطيع تقدير هذه الاستطاعة إلا أهل الرأي والخبرة والمشورة من المسلمين.

ثالثاً: اختيار الإمام أو الخليفة:

الأمير أو الإمام أو الخليفة.

الأسماء الثلاثة السابقة أطلقها المسلمون على من يتولى شؤونهم. وسر اختيار هذه الأسماء ليس غامضاً، ولا بعيداً، فالأمير بمعنى الآمر وقد اختار هذه التسمية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قيل له: يا خليفة خليفة رسول الله فقال: أنتم المؤمنون، وأنا أميركم. فسمي أمير المؤمنين، وأما الخليفة فهو من يأتي بعد سابق له، وقد سمي بذلك أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأنه خلف رسول الله ﷺ في القيام بشؤون المسلمين، وتوحيدهم، والدعوة إلى الإسلام وقتال المخالفين، وإقامة شرع الله في الأرض.

وأما الإمام فهو المقدم في الأمر ويطلق على من يتقدم للصلاة بالناس وقد أطلق على الأمير والخليفة الإمام لأنه المقدم في أمور المسلمين عامة، وفي الصلاة خاصة، والمقتدى برأيه.

والحاصل أن الحاكم في الإسلام يطلق عليه الخليفة لأنه يخلف من سبقه في القيام بشؤون المسلمين ويطلق عليه الأمير والإمام.

وهذا المنصب منصب عظيم خطير لأن المسؤولية فيه مزدوجة فالإمام في الإسلام مسؤول عن أعماله أمام الله تبارك وتعالى، ومسؤول أمام الأمة أيضاً فهو ليس حاكماً مطلقاً لا يسأل عما يفعل بل يسأل ويراجع ويناقش لقوله تبارك وتعالى:

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩] الآية، فبعد أن أمر تبارك وتعالى بطاعة أولي الأمر أخبر أنه قد يحصل التنازع في أمر ما وعند ذلك يجب رد ما تنوزع فيه إلى حكم الله وحكم رسوله ﷺ، ومعنى هذا إقرار الله لمبدأ اختلاف وجهة نظر الناس مع وجهة نظر ولي الأمر، ولم يقل سبحانه وتعالى مثلاً: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ولا تنازعوهم في شيء، بل اسمعوا لهم وأطيعوا مطلقاً، وذلك أن أولياء الأمور ليسوا بمعصومين ولا بمنجاة من الخطأ بل هم معرضون لذلك، وقد يوفق إلى الصواب غيرهم، وهنا كانت القاعدة الربانية للوصول إلى الحق في أمور الاختلاف. وهي رد ما تنوزع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولذلك أعلن الصديق أبو بكر من أول يوم تولى فيه خلافة المسلمين هذا المبدأ «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وأعلنه عمر بن الخطاب أيضاً رضي الله عنه حيث قال: «إذا أحسنت فأعينوني وإذا أسأت فقوموني». .

وأما المسؤولية أمام الله تبارك وتعالى فقد نص عليها رسول الله ﷺ في قوله المشهور [كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته. .] الحديث.

ومهمة الحاكم في الإسلام مهمة شاقة عسيرة لأنها ذات طرفين: الطرف الأول القيام بشؤون الدين تطبيقاً وتحكيماً والطرف الثاني القيام بشؤون الدنيا، ورعاية مصالح الأمة في هذه الدار. وأما الحاكم في غير النظام الإسلامي فمهمته دنيوية خالصة لا يضيره عند قومه أن يكون جاهلاً بالدين غير عالم به.

وإذا كانت مهمة الأمير في الإسلام ذات شقين وميدانين، فإن من مقتضيات هذا أن يكون الأمير عالماً بالدين مجتهداً فيه، عالماً بالدنيا ذا رأي وسياسة وحكمة في معرفة شؤونها. وليس هذا بالطبع أمراً سهلاً ميسوراً، فدراسة الدين دراسة واسعة عظيمة تحتاج إلى اجتهاد وانقطاع وتوفر زمناً ليس قصيراً ودراسة الدنيا تحتاج إلى معرفة بأنواع الناس، وعوائدهم، وأفكارهم، وعقائدهم وبسياسات الحرب والسلم،

وعلم بالتاريخ ومجاري الأمور وكل هذه الآن علوم عظيمة مستقلة، لا بد من الإلمام بشيء كثير منها لمن يتصدى لمثل هذه الأمور، ومن الجهل والغباء الظن بأن الصحابة والخلفاء رضي الله عنهم قد ساسوا الدنيا وفتحوها ولم يكونوا على علم بهذه الأمور. وليس المجال الآن مجال بيان المدى الذي وصله الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من علم ودراية بهذه الأمور الدنيوية ومكان هذا كتب التاريخ والرجال.

هذا المنصب الخطير العظيم، الإمامة العامة للمسلمين ليس هناك من طريق سليم شرعي للوصول إليه إلا طريق الشورى، فالشورى هي النظام الإسلامي الوحيد الذي يأتي عن طريقه الإمام أو الحاكم أو الأمير أو الخليفة كما يحلو لنا أن نسميه.

وقد يكون هذا مخالفاً لما دونه علماء السياسة من المسلمين الذين جعلوا من طرق الوصول إلى الحكم التغلب العام (الغلبة) وحيازة الشوكة (والشوكة هي القوة الضابطة للنظام والأمن) وأعطوا الشرعية ووجوب الطاعة لمن توصلوا إلى الحكم والخلافة على هذا النحو.

إلا أن كلامهم هذا ليس في حقيقته إقراراً لهذا المبدأ، ولكن رضوخاً له في ظروفه الاستثنائية، وهو كما يقولون من باب (ارتكاب أخف الضررين) فالخروج على طاعة الإمام والخليفة الذي جاء إلى الحكم تسلطاً وقهراً وحاز الشوكة والغلبة أكثر ضرراً من الرضوخ له، وإقراره، وهذا ما جعل بعض كتاب الغرب يتهم الإسلام بمساندة الظلم، وإقرار التسلط. واتهامهم هذا في حقيقته قصور نظر، وعدم إدراك. وليس هذا مجال الرد على هذه الشبهة.

فالمهم هنا إثبات أن المبدأ الأساسي في الظروف الطبيعية الآمنة لاختيار الحاكم هو الشورى، وليس هناك طريق غير ذلك، وإن كان يتجاوز عن هذا المبدأ إذا وصل الحاكم المسلم المنفذ لشرع الله للحكم عن طريق الغلبة وفرض السلطان ويفتي بطاعته ويحرم الخروج عليه، وليس هذا إقرار لطريقة وصوله إلى الحكم ـ فالتسلط وفرض السلطان بالقوة مرفوض شرعاً ولكن حقناً للدماء وارتكاباً لأخف الضررين.

وإذا كانت الشورى هي المبدأ الأساسي لوصول الحاكم إلى الحكم فالواجب أن

لا يجعل الواقع التاريخي دليلاً شرعياً يتبع ويقاس عليه، وذلك أن الواقع التاريخي خاضع تماماً للظروف والملابسات التي تأخذ مجراها، وتفرض نفسها.

خلافة أبي بكر:

فخلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كانت خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين، ولم يكن لأبي بكر في الصحابة شبيه أو نظير أو مكافىء في الفضل والسبق والمكانة، والمنزلة، ومع ذلك فالصورة التي اختير بها هذا الصحابي الجليل كانت صورة استثنائية تحفظ لا يقاس عليها لأنها كانت ذات ظرف خاص وملابسات معينة حتمت هذه الصورة للاختيار. وحتى أقدم الدليل على كلامي هذا سأثبت للقارىء الكريم تفسير عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذا الظرف وهذه الملابسات وهذا التفسير لعمر يتضمنه أصح كتاب بعد كتاب الله تبارك وتعالى وهو صحيح البخاري، وقد آثرت أن أنقل هذا الأثر بطوله لما فيه من الفوائد العظيمة التي تتعلق بموضوعنا هذا وبموضوعات أخرى لن تصرفنا عن موضوعنا الأساسي وسنستفيد منها فائدة بليغة إن شاء الله تعالى.

روى البخاري بإسناده إلى ابن عباس قال:ـ كنت أقرىء رجالاً من المهاجرين منهم عبدالرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى، وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها إذ رجع إلي عبدالرحمن فقال: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم، قال عبدالرحمن: فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعوها على مواضعها فقال عمر: أما والله ـ إن شاء الله ـ لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.

قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة. فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زاغت الشمس حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالساً إلى ركن المنبر فجلست حوله، تمس ركبتي ركبتيه، فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب فلما رأيته مقبلاً قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف، فأنكر علي وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقل قبله! فجلس عمر على المنبر فلما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

أما بعد فإني قائل لكم مقالة قد قدر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب علي: ـ إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها، وعقلناها، ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل، والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على كل من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف.

ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ أو أن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ الا ثم أن رسول الله ﷺ قال: [لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم، وقولوا عبدالله ورسوله]، ثم أنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن وقى الله شرها، وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا، وأنه قد كان من خيرنا حين توفى الله نبيه ﷺ إن الأنصار خالفونا، واجتمعوا وخالف عنا علي والزبير، ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار، فانطلقنا نريدهم بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقال: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى أتينا في سقيفة بني ساعدة، فإذا

رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة فقلت ما له؟ قالوا يوعظ. فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يَحْضُنُونَا من الأمر فلما سكت أردت أن أتكلم ـ وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر ـ وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك. فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ـ فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ـ فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتآمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول إلي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب. منا أمير ومنكم أمير يا معشر المهاجرين، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف، فقلت أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

قال عمر: وأنا والله ما وجدنا فيما حضرنا أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فأما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساداً، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو والذي بايعه تغرة أن يقتلا.

وهذا الأثر العظيم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وتلك الخطبة التاريخية فيها كثير من الفوائد والأصول لسنا بصدد التعرض لها الآن ولكننا سنناقش فقط مكان الشاهد من هذه الخطبة على ما نحن بصدده ألا وهو اختيار الحاكم فعمر يعلن في أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى منبره، أن أمر بيعة الحاكم يجب أن تسبقها الشورى، وأن من تعجل البيعة قبل الشورى فإنه لا يتابع في بيعته، لا الذي بايع، ولا من بويع، ويقول هذا الكلام بالنص الصريح الواضح:

«من بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو الذي بايعه تغرة أن يقتلا» وقد كرر هذه المقالة في خطبته مرتين: مرة في بداية ذكره لمسألة البيعة ومرة في نهاية خطبته، وهذه الخطبة ليست خطبة مرتجلة بنت تفكير سريع، واستثارة، وإنما هي وليدة تفكير طويل، وإعداد استمر أكثر من أسبوع، فقد عزم عمر على بيان أمر بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بموسم الحج وكانت آخر حجة له، ولكن عبدالرحمن بن عوف نصحه بالعدول عن هذا لأن الموسم يجمع غوغاء الناس الذين سيَفهم قسم منهم هذه الخطبة على غير وجهها ويطيرها في كل مكان. ولذلك انتظر حتى أتى المدينة ثم خطب بها.

ثم يعلل عمر رضي الله عنه النهي عن متابعة البيعة لمن بايع إماماً بغير مشورة بقوله «تغرة أن يقتلا» والمعنى كما قال ابن حجر القسطلاني أن من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وبصاحبه، وعرضهما للقتل. وذلك لمخالفة جماعة المسلمين وجمهورهم، وانفرادهما واستعجالهما بالأمر دون المشورة العامة في المسلمين.

ثم علل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقوع بيعة أبي بكر الصديق على هذا الأمر الذي ينهي عنه بأن ظروف تلك البيعة كانت ملجئة وقاهرة، فقد اجتمع الأنصار لمبايعة أمير منهم ولو تم ذلك ما كان للمهاجرين أن يخالفوهم وإلا حدث شر كبير، وما كانت لتجتمع العرب بأسرها على رجل من أهل المدينة الذين كانت لهم ثارات وحروب قديمة مع بعضهم البعض، فالأوسي لا يرضى عن الخزرجي وكذلك العكس فكيف بسائر العرب، وكانت لقريش منزلة خاصة عند سائر العرب حيث كانت تحترم وتقدم في الجاهلية وتقول العرب أهل بيت الله فلا نؤذيهم ولا نتعرض لهم. ولذلك قال أبو بكر للأنصار في خطبة السقيفة: «ما ذكرتم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش» ويعني بالأمر الخلافة.

ولخشية عمر من مبايعة الأنصار رجلاً منهم تعجل أبي بكر ولم تكن عن مشورة كاملة، ثم أخبر بأن أبا بكر ليس في المسلمين مثله سابقة وعلماً ودراية بالسياسة والدين ولين جانب وقوة في الحق، ولذلك اجتمعت عليه القلوب سريعاً ولم ينازعه في الأمر أحد إلا ما كان من غضب سعد بن عبادة الخزرجي لنفسه، وتأخر بيعة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه ثم لحوقه المسلمين في ذلك، وإعلان هذا على الملأ.

ولذلك قال عمر: «أنا والله ما وجدنا فيما حضرنا أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فأما بايعناهم على ما لا نرضى، وأما أن نخالفهم فيكون فساداً».

وقال أيضاً في شأن أبي بكر: «وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر» ومعنى هذا أنه بلغ في السبق والمنزلة بحيث أن من أراد أن يلحقه تقطع عنقه من النظر والمبايعة ولا يستطيع ذلك.

ومعنى هذا أن بيعة أبي بكر الصديق حالة فريدة تحفظ ولا يقاس عليها غيرها.

وقد مهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذا الأصل الذي أعلنه أمام جمهور الصحابة، وأعني أصل المشاورة لاختيار الحاكم بأن هناك من القرآن ما هو منسوخ تلاوة لا حكماً ودلل على ذلك بآية الرجم وآية النهي عن الانتساب إلى غير الآباء التي يقول فيها الرسول ﷺ: [من انتسب إلى غير أبيه ـ وهو يعلمه ـ إلا كفر] وكذلك هناك من السنة والقواعد الدينية ما قد لا نجد النص الصريح المفرد عليه وقد يكون هذا الأمر من الظهور والوضوح بحيث لا يحتاج إلى نص فكون الإمام في الإسلام يجب أن يكون عن شورى عامة هو من القواعد الجلية الواضحة، والمسلمات البديهية التي لا تحتاج إلى نصوص مفردة لاثباتها، ولولا الخوف من أن يطول مقام الشرح لهذا الأمر لأوردت عشرات من الآيات والأحاديث التي تدل على هذا بما يفهم منها وما يستنبط لا بالنص الظاهر، ولذلك وافق الصحابة جميعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما قاله ولم يعترض عليه معترض واحد، وهو الذي كان يسمح للمرأة بأن تعترض عليه.. أقول لم يعترض عليه معترض واحد من الصحابة وفيهم الفرسان والشجعان وهو يكرر هذه العبارة مرتين: «من بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو والذي بايعه تغرة أن يقتلا».

ولم يقل له أحد: اثبت ما لم يثبت الشرع، وزدت في الدين ما ليس منه، وخالفت سنة رسول الله، وتزيدت على القرآن بل جميعهم رضي الله عنهم أقروه فيما قال، وفهموه عنه تعليله لوقوع بيعة أبي بكر الصديق على ما وقعت عليه. وليس هناك إجماع أبلغ من هذا.

رابعاً: توجيه النظام المالي:

النظام المالي في الحكم الإسلامي نظام محدد واضح من حيث مصادر الثروة العامة وبيت المال وكذلك وجوه الصرف، وفي كل نصوص واضحة جلية في الكتاب والسنة، ومع ذلك فهناك كثير من الفرعيات لا يمكن البت فيها برأي الفرد الحاكم ولا بد من الرجوع فيها إلى آراء أهل الشورى وحكمهم النهائي، وكذلك هناك كثير من الملابسات والحالات الخاصة الاستثنائية توجب إيقاف العمل ببعض الفرعيات، أو استحداث فرعيات أخرى. وعملية التشريع هذه بالإيقاف أو الأحداث لا يمكن ولا يجوز أن يكون الرجوع فيها كمصدر وحيد للتشريع إلى رأي الفرد الحاكم بل لا بد من الرجوع في ذلك إلى حكم الشورى.

وهذا بيان للإجمال السابق:

مصادر الثروة (بيت المال في النظام الإسلامي):

أولا: المصدر الأول من مصادر بيت المال هو **الزكاة**، والزكاة نظام محدد في السنة من حيث الأموال التي تجب فيها **الزكاة**، والمقادير التي يجب إخراجها، ويكاد أن لا يكون لأهل الشورى نظر في هذا الأمر إلا من حيث الإشراف والمراقبة وسيأتي للإشراف والمراقبة باب خاص من أبواب مجالات الشورى إن شاء الله تعالى.

ثانياً: الركاز:

الركاز كلمة جاءت في الفقه تحمل معنى الثابت في الأرض من المعادن التي ركزها الله فيها كالذهب والنحاس والبترول والفضة والملح (وليس هذا معدناً ولكنهم يدخلونه في الركاز، وكذلك ما ركزه الناس من كنوز كالآثار القديمة والأموال). والمعروف أن بيت المال يدخله الخمس من هذا الركاز وأما الأخماس الأربعة الباقية فهي لمن حصل باجتهاده وتنقيبه على هذه الكنوز.

وقد تكون هذه القسمة غريبة في وقت ظهرت فيه الثروات الضخمة كالبترول والذهب والنحاس بهذه الكميات الهائلة، وقد يقول قائل وكيف يملك هذا المال كله فرد منقب أو أفراد مشتركين. وهو حق يجب أن يكون للأمة بكاملها.

وهذا القول خطأ من قائله في التصور والفهم فالشركات المنقبة عن البترول في بلاد العرب وأرض الإسلام والتي تحصل على نصيب الأسد من هذه الكنوز شركات أهلية أجنبية وليست شركات حكومية، والعجب أن النسبة التي تدفعها هذه الشركات لحكوماتها هي نسبة قريبة مما قرره الرسول ﷺ منذ أربعة عشر قرناً وهي تصل أحياناً إلى ٢٥٪ أي الربع، والمال القومي في أمريكا مثلاً عماده الأول هو هذه الضريبة على هذه الشركات التي تغزونا وتمتص خيرات بلادنا.

ولو كان مبدأ الحرية الاقتصادية الذي نادى به الإسلام معمولاً به في أرض الإسلام لكانت ثرواتنا جميعها اليوم بأيدينا، وشركاتنا هي التي تستخرج بترولنا من أرضنا بل وتبحث في أماكن أخرى عن مشاركة وإنتاج ولكننا وقعنا في خطأ الغفلة أولاً فأعطينا ثروتنا بعقود جائرة باطلة تسمى عقود الامتياز لأعدائنا، ثم نطالب اليوم بتأميمها وهو خطأ جديد نصحح به خطأ قديماً، ولست أعني بالتأميم استرداد السيطرة على هذه الثروة بشركات أهلية إسلامية إذ أن سيادتنا على ثرواتنا هي جزء من مفهوم قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٩] ولكني أعني به سيطرة الدولة على كل شيء وهذا أمر مرفوض في الإسلام لأنه تكريس للكسل والتضخم الوظيفي وإتلاف للمال العام وأما التأميم بمعنى نقل السيطرة والإشراف على مصادر الدخل من الأيدي الأجنبية إلى أيدي المسلمين فهو أمر واجب لازم.

وخلاصة هذا الأمر أن مبدأ الركاز مقنن معروف في الإسلام ولكن بالظروف الحادثة والمشاكل الجديدة يصبح نظر أهل الشورى لازماً لإيجاد الصيغة المناسبة لتطبيق هذه الأحكام، ويستحيل عقلاً أن يكون لعقل واحد ورأي واحد النظر الأول والأخير في مثل هذه الأمور الخطيرة. وخاصة أن مثل هذه الأمور قد تحتاج إلى تشريع متدرج يناسب ظروف الانتقال والبنية الاقتصادية بنية معقدة جداً ليس من اليسير تبديلها وتغييرها سريعاً. وتقدير الظروف والمناسبات وإمكانية التغيير والتبديل لا بد وأن يشترك فيه أهل الخبرة والرأي من المسلمين وهذا هو ميدان الشورى وعملها.

ثالثاً: الغنائم:

المصدر الثالث من مصادر الدخل في الإسلام هو الغنائم ولقد كانت أعظم مصدر من مصادر الدخل يوم كان علم الجهاد في سبيل الله قائماً، والفتوح تتوالى إثر الفتوح، واليوم يفقد المسلمون هذا المصدر بقعودهم عن الجهاد في سبيل الله، بل يفقدون ما في أيديهم من ديار وأموال. ومع ذلك يردد غوغاؤهم بأن الجهاد فريضة يجب أن تلغى ليس فقط من واقع المسلمين بل ومن عقولهم وحسهم!! ونظام الغنائم في الإسلام نظام مقنن أيضاً فيه نصوص واضحة جلية وقد اختلف المسلمون في عهد عمر بن الخطاب على أرض العراق الزراعية هل تقسم للفاتحين من جنود المسلمين حسب نصيبهم المقدر شرعاً أو توضع عليها ضريبة سنوية ويبقى فيؤها للمسلمين على مدار الزمن للإنفاق في عدة الحرب وتجهيز الجيوش. واستطاع عمر رضي الله عنه ببصره الثاقب، واجتهاده الموفق إقناع المسلمين بإبقائها دون قسمة وفرض ضريبة سنوية عليها وهذا ما عرف باسم الخراج.

ولا شك أنه ستوجد مثل هذه الغنائم في حالة محاولة المسلمين استرداد أرضهم وأموالهم وشرفهم في فلسطين، ولا بد أن ينشأ لذلك اجتهاد لوضع هذه الأموال مواضعها، وتصريفها حسب مصارفها الشرعية، وهذا كائن لا محالة بإذن الله لأنه مقتضى وعد الرسول ﷺ الذي يخبر به عن الله تبارك وتعالى ﴿ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٩] ولا يمكن بالطبع الفصل في كل هذه القضايا برأي الحاكم الفرد بل هذا الأمر متروك لأهل الشورى من المسلمين.

رابعاً: الصدقات..

الزكاة فريضة إجبارية تخرج على كل حال وأما الصدقات فنعني بها هنا التطوع الاختياري ببذل المال في سبيل الله وهذا متروك لتقوى المسلمين واختيارهم في الأحوال العادية، فالأوقاف، والصدقات الجارية وجعل حصة معلومة من المال بعد الموت إلى بيت مال المسلمين كل ذلك ساعد قديماً على نشر العلم، ورفع علم الجهاد في سبيل الله وبالتالي في نهضة المسلمين وتقدمهم، ولكن هذه الصدقة تصبح إجبارية إلزامية في أحوال الأزمات والحروب، فللدولة في الإسلام أن تفرض فريضة

إجبارية إلزامية في أموال المسلمين وذلك في أوقات المجاعات والحروب، وهذه الفريضة بالطبع لا تخضع لاجتهاد الحاكم وحده، بل لا بد أن يشارك في تقديرها علماء الأمة وأهل الرأي فيها، ومن المفروغ منه أنه لا يجوز فرض مثل ذلك إلا في حالة عدم وفاء المصادر السابقة وذلك لقوله ﷺ: [لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه].

خامساً: الضرائب:

المصدر الخامس والأخير من مصادر الثروة أو بيت المال في الإسلام هو الضرائب، والمعروف المشهور أن الضرائب أو ما تسمى في الفقه بالمكوس محرمة شرعاً لأنها أخذ للمال بغير رضى وطواعية.

ولكن بعض علماء السنة كان له نظر في ذلك بحسب المصالح فلم ير هذا الفريق من العلماء بأساً أن يفرض الحاكم ضريبة ما لسد ثغرة من الثغور في قيام الأمة ونهوضها كالحرب والتعليم والطرق. وفسر المكوس المنهي عنها شرعاً بالمكوس التي تؤخذ من الناس على وجه الظلم ولا يعود على دافعها من نفع منها، أما ما يأخذه الحاكم المسلم وينفقه في مثل الوجوه السابقة من ميزانية الحرب والتعليم والصحة وغير ذلك فإنه يعود بالنفع في النهاية على مجموع الذين دفعوا هذه الضرائب والمكوس.

والفرق بين الضرائب والصدقات المفروضة أن الضرائب تفرض في الحالات العادية، وأما الصدقات المفروضة فإنها تفرض في حالات الاستثناء فقط.

ولا شك أن تقدير هذه الضرائب يعود إلى رأي أهل الشورى من المسلمين.

وجوه الصرف في النظام المالي الإسلامي:

المصادر السابقة للدخل بعضها قد حدد له سلفاً الوجوه التي ينفق فيها وذلك بنصوص شرعية واضحة. فالزكاة قد حددت مصارفها من قبل الله تبارك وتعالى، وكذلك الغنائم فصلت قسمتها، وهناك مصادر أخرى يحدد مصارفها الضرورة والحاجة. فالصدقات في الضرورات كالأزمات والحروب والضرائب في حاجات الأمة المختلفة. وإذا كان هذان المصدران محتاجين إلى موافقة الأمة المتمثلة في

أهل الشورى لإقرارهما. فإن الصرف أيضاً يحتاج إلى تقدير الأمة وإشرافها.

والمصارف السابقة المحددة بنصوص قابلة هي الأخرى للاجتهاد والرأي من وجهين:

الوجه الأول: تقدير حاجة كل قسم من الأقسام التي تصرف فيها الزكاة وإعطاؤه حسب الدخل الحاصل من هذه الفريضة. فالفقراء والمساكين والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والرقاب والغارمون وأبناء السبيل والإنفاق في سبيل الله العام. كل قسم من هذه الأقسام يحتاج أن تقدر له حاجته حسب دراسة منظمة وتقدير صحيح.

وأما الوجه الثاني: فهو أن بعض هذه الأقسام المنصوص عليه شرعاً قد نضطر إلى الاستغناء عنه فترة ما لأنه لا يوجد مثلاً، أو لا فائدة في وقت ما من القسم له. ولذلك منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء لمن أعطاهم الرسول تأليفاً لقلوبهم كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصين الفزاري محتجاً أن ذلك وقد كان في المسلمين ضعف، وأما الآن فقد أغنى الله المسلمين عنهم. وأعز الإسلام. فإما ثبتوا على الإسلام، وإلا فالسيف حكم.

والعجيب أن الإمام أبو حنيفة أفتى بأن سهم المؤلفة قلوبهم قد انقطع بإعزاز الله للإسلام، واستدل بفعل عمر هذا، ولم يجعل هذه المسألة من مسائل الوقت والظروف، وفي هذا نسخ الآية من القرآن باجتهاد صحابي، وهو أمر مرفوض، والحق الذي لا مراء فيه إن شاء الله وهو ما قرره الإمام الشوكاني وغيره حيث قال: «والظاهر جواز التأليف عند الحاجة إليه، فإن كان في زمن الإمام قوم لا يطيعونه إلا للدنيا، ولا يقدر على إدخالهم تحت الطاعة إلا بالقسر والغلب فله أن يتألفهم ولا يكون لفشو الإسلام تأثير لأنه لم ينفع في خصوص هذه الواقعة».

وهذا ما ارتضاه أيضاً الشيخ رشيد رضا رحمه الله حيث أورد القول السابق وعقب عليه بقوله: «وهذا هو الحق في جملته، وإنما يجيء الاجتهاد في تفصيله من حيث الاستحقاق، ومقدار الذي يعطى الصدقات، ومن الغنائم إن وجدت، وغيرها من أموال المصالح **والواجب فيه الأخذ برأي أهل الشورى كما كان يفعل الخلفاء في الأمور الاجتهادية**، وفي اشتراط العجز عن إدخال الإمام إياهم تحت طاعته بالغلب

نظر فإن هذا لا يطرد بل الأصل فيه ترجيح أخف الضررين، وخير المصلحتين».

وخلاصة الأمر أن النظام المالي في الإسلام خاضع كلية للشورى في الإسلام: أما من حيث الإشراف والمراقبة أو من حيث تقدير الضرورة والحاجة والمصلحة في تشريع مصادر إضافية لجمع المال كالصدقات والضرائب أو من حيث تقدير حاجة كل قسم وهذا ميدان عظيم من ميادين الشورى في الإسلام.

بقي أن أسجل في نهاية هذا الفصل أن أمم الغرب ـ وهذا من أسباب رقيها الدنيوي وتغلبها علينا ـ وقد طبقت جوانب هامة من هذا النظام من حيث الأخذ بحكم الإسلام في الركاز وجعل هذا ميداناً للعمل الحر والشركات الأهلية التي تفرض الدولة عليها ضريبة للدخل تقارب كما قلت ما نص عليه الرسول ﷺ، وبذلك استطاعت هذه الشركات الأهلية أن تنمي مصادر دخلها، وأن تعزز ميزانية دولها، والاستعمار الاقتصادي الذي نعاني منه الآن إنما هو استعمار لشركات أهلية أجنبية وليس لحكومات أجنبية. ولذلك فإني أوصي في هذا المقام أن ترفع الدول الإسلامية يدها عن كل أنواع الركاز، وتطرح هذا للشركات الأهلية الإسلامية وستستطيع أي شركة ناجحة أن تقوم مقام الشركات الأجنبية فالخبرة البشرية تشترى وكذلك المعدات والآلات، والمال نملكه والحمد لله، وستستطيع هذه الشركات الأهلية الإسلامية ـ إن وجدت ـ أن تستخرج أعظم ثروة وهي البترول من أرضنا، بل وستجد لها مجالاً في بلاد أخرى للتنقيب عن البترول والمعادن.

خامساً: رقابة الحاكم وتسديده:

الميدان الخامس لعمل أهل الشورى هو رقابة الحكم وتسديد الحاكم فالحاكم في الإسلام ليس حاكماً مطلقاً ولكنه حاكم مقيد بدستور الشرع ونصوص الكتاب والسنة، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى لكل مسلم حق الإنكار للمنكر سواء صدر هذا من عامة الناس أو خاصتهم فالقائد والإمام في الإسلام معرض للنقد والإنكار عليه متى خالف نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

وإذا كانت الدساتير في عهود الظلم والجاهلية قد جعلت ذات الحاكم فوق النقد، وجعلت من تعرض لنقده كأنما تعرض لنقد الدولة وقدسية النظام، وبهذا جعل

الأمراء والحكام والملوك آلهة تعبد من دون الله سبحانه وتعالى، فالذي يحكم ولا معقب لحكمه هو الله والذي لا يسأل عما يفعل هو الله سبحانه وتعالى وذلك أنه العليم بكل شيء وأما غيره فمعرض للخطأ والزلل والغفلة بل وللهوى والميل مع المصلحة، وقد عجبت أشد العجب عندما ناقشت بعض المتحمسين للإسلام والذين يؤلفون جماعات للدعوة إذ وجدت آراءهم ومعتقداتهم في أنفسهم أنهم فوق النقد، وأن نقدهم إنما هو نقد للنظام ذاته أي للإسلام نفسه.. إن فهمكم هذا لا يختلف عن فهم سدنة الحكم الجاهلي في أشد عهود الطغيان تسلطاً وقهراً. فإذا كان ذواتكم هي ذوات النظام والنظام عندكم هو الإسلام نفسه لأنكم تدعون السير على هداه إذن أصبح النقد لكم كفراً بالله تعالى لأنه اعتراض على تشريعه..

وماذا تعترفون أنتم بهذا الفهم عن حكم طغياني أن يقول للناس كما قال فرعون ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ.. ﴾ [سورة غافر، الآية: ٢٩] لقد امتاز الإسلام عن جميع مذاهب الأرض أنه جعل كلمة الحق والصدع بها حقاً لكل مسلم بل واجباً على كل مسلم بل كان مما أخذ رسول الله ﷺ به العهد على بعض أصحابه [أن يقولوا الحق لا يخافون في الله لومة لائم] قالوا: الحق لنا يجب أن يقال سراً خوف الفتنة ولغيرنا لا بأس أن يقال جهراً. قلنا كلامكم هذا هو الفتنة.. لقد دعا عمر الناس إلى قول الحق له وذلك عندما قيل له: اتق الله.. قال: لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها وقال أبو بكر في خطبة العرش «أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» فنبذ الطاعة حال معصية الإمام حق للأمة. وقال عمر: «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» ولم يقل فانصحوني سراً.. حتى لا تقتلوا النظام ولا تهدموا الإسلام. فأنتم بالله خير أم عمر؟ أم أبي بكر؟ ولقد كان الخير في الأمة عندما كانت النصيحة جهراً، فلما آلت إلى السرية والاستخفاء، فسد الناس أمراء وعامة وليس هذا مجال تفصيل هذا الأمر. والمهم هو أن نعلم أن حق الإنكار على الحاكم حق لكل مسلم بل هو واجب على كل مسلم يعلم أن ثم منكراً أظهره أميره فعليه بيانه، وبذلك تستقيم أمور الرعية ويستقيم الحاكم لأنه سيخاف الفضيحة والنقد وأما إذا آلت الأمور إلى السرية والمداراة فسدت النفوس وحلت الموعظة واستشرى الشر ووجد الاستبداد.

وإذا كان التقويم والتسديد للحاكم حقاً بل واجباً على كل مسلم كان وجوبه على أهل الشورى ألزم وأحرى فهم المفوضون من الأمة المؤتمنون من الحاكم، ولذلك فإن حق التسديد والتقويم واجب يفرضه الالتزام بالدين ويفرضه أيضاً التفويض من الأمة، والإستئمان من الحاكم فهو واجب مثلث أو قيل هو واجب من ثلاث جهات من الله الذي أخذ العهد على أهل العلم بالبيان وعدم الكتمان ومن الأمير الذي ائتمن أهل الشورى على تقويمه وتسديده، ومن عموم الناس الذين فوضوا في شؤونهم أهل الشورى.

وإذا كانت الدول التي تدعي الديمقراطية قد أعطت النائب في البرلمان أو مجالس الأمة حقاً خاصاً سمي بالحصانة أي براءة الذمة والحماية لقول كلمة الحق. فإن الإسلام قد أعطاها لكل مسلم، فكل مسلم في ظل نظام إسلامي صحيح يحمل هذه الحصانة وهي براءة ذمته من الدخيلة والتهمة حتى يثبت عكس ذلك، وحمايته ليقول كلمة الحق. فكلمة الحق فرض على كل مسلم، ولا تتم هذه الكلمة إلا بحماية وأمانة وأمن، وقد تقرر في أصول الفقه إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، إذاً يجب على الحاكم المسلم أن يؤمن الحصانة والحماية وبراءة الذمة لكل مسلم ليقول كلمة الحق وذلك أن قول كلمة الحق واجب أوجبه الله عليه ولا يتم هذا الواجب إلا بهذه الحماية فيجب أن توجد الحماية والحصانة.

وإذا كانت هذه النعمة قد سلبها المسلمون مثلما سلبوا كثيراً من النعم بتهاونهم وتفريطهم فإنها قد أسهمت إسهاماً كبيراً في إطالة ليلهم وإبعاد نهارهم. فمن تشرق عليهم شمس الحرية؟ فيقول أحدهم كلمة الحق يبذلها الصغير للكبير، والمحكوم للحاكم..؟ وما أرى هذا الليل زائلاً سريعاً وذلك أن كثيراً من المقلدين الجامدين قد زيفوا مفهوم الطاعة في الإسلام فجعلوها طاعة عمياء خرساء فقد رددوا [اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد] دون فهم ودون وعي، وحجبوا نصوص الطاعة عن نصوص التقويم والتسديد والنصح فخلقوا الاستبداد والطغيان بل أن كثيراً من المتحمسين للإسلام الذين زعموا الدعوة إلى الله وكونوا الخلايا والتنظيمات أمروا الأتباع بالسمع والطاعة، بلا مناقشة وفهم واسلطوا عليهم سيفاً أسموه مصلحة الدعوة وسرية الحركة، وقادوهم في هذه العماية إلى التهور تارة والإنجحار تارات ثم إلى التمزق والضياع، ولو كانت هناك أعمال تحت الشمس وفي وضح النهار أقول لو

كان هناك نصح وتناصح وتربية على الصدع بكلمة الحق وعلى النقد البناء لجنبوا الدعوة المزالق والتبدد والضياع. ولذلك فإن الليل ليل المسلمين سيطول حتى تنشأ أجيال تتعلم الصراحة والوضوح وكلمة الحق لا تخاف في الله لومة لائم. ولم أر في حياتي كلمة حق واحدة علنية أعقبت فتنة أو عطلت مصلحة؟ ولكنني وجدت أن إخفاء النصيحة والضيق بها يولد قالة السوء في السر ثم يولد الجيوب التي تعمل في الخفاء ثم ينتج الضياع والتمزق. فمن يقدِّر من قادة المسلمين قيمة الكلمة الطيبة والنصيحة الخالصة العلنية فيقبلوها من قائلها لا يهابون ولا يخافون.

وإذا كان الإسلام قد أعطى كل فرد في الجماعة الإسلامية حق النصح والتقويم والتسديد لقائده وأميره، فإن هذا الحق بل الواجب في ذمة أهل الشورى وهم أهل الحل والعقد أشد وجوباً ولزوماً لأن هذا جزء من مهمتهم الأساسية التي رشحوا من أجلها.

وغير خاف أن إعطاء الحصانة للنائب عن الأمة في النظام الديمقراطي مفخرة لهذا النظام يجب أن نعترف بها، ويجب أيضاً أن نعترف أن التطبيقات السيئة لنظام الإسلام في الحكم قد حجبت طويلاً كلمة الحق عن الظهور وهذه التطبيقات السيئة ليست حدثاً شاذاً للأسف وإنما مرت عبر عصور طويلة ما زالت إلى يومنا هذا حتى أن كثيراً من المنتسبين للإسلام لا يفهم من قيام دولة للإسلام إلا القتل والصلب ومنع الرأي المخالف. وهذا خطأ في الفهم.

ونحن إذ نعترف بأن الإسلام قد أعطى الحماية والحصانة لكل فرد في الأمة أن يقول كلمة الحق التي يراها ويظنها حقاً، فإنما نعترف بشيء واقع في الإسلام قدمنا عليه الأدلة والبراهين ولا يوهن هذا الحق سوء التطبيق في عصور التسلط والقهر.

وعلى هذا فأي مجلس شورى في ظل نظام إسلامي صحيح ستكون إحدى مهامه الرئيسية تقويم الحاكم ونصحه وإرشاده، كما كان لها من قبل توليته وعزله وإلغاؤه. ولذلك فالحاكم نائب عن الأمة في تنفيذ حكم الله سبحانه وتعالى التي اختارته وهي التي تملك عزله. وهي التي وكل إليها تقويمه إذا حاد، وتسدده إذا أخطأ.

وليس الحاكم في الإسلام نائباً عن الله ـ حاشا وكلا ـ ولو كان ذلك صحيحاً لكان

منصوصاً عليه من الله بأن فلان قد اخترته لكم فاسمعوا وأطيعوا وذلك كما تقول الشيعة بأن الإمام لا بد وأن يكون منصوصاً عليه من الله، ولذلك اعتقدوا في الأئمة النصحة وأنهم لا يقولون خطأ أبداً، وأما عند أهل السنة قاطبة فالإمام نائب الأمة وهو يصيب ويخطىء. الأمة هي التي تملك توليته وهي تملك عزله، ويجب عليها وجوباً شرعياً نصحه وتسديده وتقويمه. وفي هذا الإطار عليهم له حق الطاعة ما دام لم يأمر بمعصية ولم ينه عن طاعة.

وبهذا نعلم أن من الواجبات الأساسية لمجلس شورى في ظل نظام إسلامي نصح الحاكم وتسديده وهو واجب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادساً: بحث أحكام المعاملات الحادثة:

في كل يوم تستجد للناس معاملات وأقضيات لم تكن في أسلافهم، وقد أتم الله سبحانه وتعالى دينه في حياة رسوله ﷺ، فلا شرع إلا ما شرع، وبعض هذه المعاملات الحديثة قد يشتبه بما حرم الله أمثاله، فيخاف المسلم الوقوع في الحرام، ولذلك شرع لنا الاجتهاد لإلحاق كل معاملة بأصولها من الحل والحرمة. فالأطعمة والأشربة التي تتصف بما حلل الله من الطيبات تلحق بالحلال والأطعمة والأشربة التي يتصف بالوصف التي جعله الله علة في التحريم كالخبث والإسكار فإنها تلحق بأصولها من الحرام. والمعاملات التي غلب عليها التراضي والعدل ألحقت بالحلال، والمعاملات التي غلب عليها الغش والحيلة والحظ والغرر ألحقت بأصولها من التحريم. وهكذا وهناك معاملات تنشأ يشتبه الحرام فيها والحلال فيغلب بعض الناس فيها الحلال لما فيها من الحل والخير ويغلب بعض الناس الحرام لما فيها من الحرام والشر وهكذا والوصول إلى الحكم الصحيح وخاصة في معاملات سيبنى عليها قضايا وحقوقاً واجب في ظل حكم إسلامي والحكم في الإسلام أصلاً هو حكم الله ولذلك كان المجتهد يجتهد إلى ما يظن أنه حكم الله وقد مضى هذا مشروحاً في أول بحث الشورى.

ولم يعرف تاريخ الإسلام ولا يجوز أن يعرف الوصول إلى الحكم الشرعي بطريق التصويت لأنه حكم الله سبحانه وتعالى لا يعرف بالكثرة أو القلة وإنما يعرف بالنص

فإن لم يكن فبالاجتهاد كما مضى، وليست الأصوات والكثرة دليلاً على الحق في ذاته، ولذلك فلا يجوز قطعاً في التعرف على حكم شرعي أن نراعي فيه كثرة القائلين أو قلتهم، وإنما الإجماع فقط جعل حجة شرعية لأن الأمة كلها يستحيل أن تجمع على الباطل فإن الله قد عصمها من ذلك لولا هذه العصمة لما كان هذا محللاً ولكن الله لم يعصم الكثرة من الوقوع فيه، بل قد يكون الباطل مع الكثرة والحق مع القلة ولهذا أمثلة كثيرة.

والحاكم المسلم سيحتاج في الوصول إلى أحكام شرعية في معاملات كثيرة كثر فيها الرأي والخلاف. والطريقة لمعرفة الحق والصواب في هذا الأمر إنما هو الاجتهاد ولا بد أن يكون مجتهداً لأن الاجتهاد شرط من شروط صحة الإمامة العامة، فالإمام العام لا يكون مقلداً قط اللهم في حالات الضرورة والقهر، ذلك يكون كالميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله يؤكل ذلك كله اضطراراً. وكذلك يذعن لحكم المقلد اضطراراً لا اختياراً وقد أخطأ خطأ فاحشاً من قاس حالات الضرورة على حالات الاختيار والشورى والمهم أن الحاكم المسلم بصدد الوصول إلى حكم شرعي لحادثة أو معاملة جديدة سيجتهد، ومن أركان هذا الاجتهاد أن يسأل أهل العلم، وأهل الشورى هم أهل العلم أو أهل العلم يجب أن يكونوا أهل شورى، وكذلك كان القُرَّاء وهم الحُفّاظ الفقهاء هم أصحاب الشورى في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبسؤال أهل العلم يصل الحاكم أو الأمير إلى ما يظن أنه حكم الله في هذه الحادثة أو المعاملة الجديدة.

وهكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا نزل به الأمر لا يعرف حكمه بالنص من الكتاب والسنة جمع له المهاجرون فسألهم ثم الأنصار فسألهم فيما كان عند أحدهم من نص حكم به، فإن اجتمعوا على شيء قضى به. فإن اختلفوا اجتهد رأيه رضي الله عنه. وهذا هو المسلك الصحيح في الوصول إلى الحكم الشرعي. الحكم بالنص فإن لم يكن فالحكم بإجماع أهل الفضل والعلم في الأمة فإن لم يحصل اجتهد الإمام رأيه ونسب القول إليه فيقال حكم عمر في هذه المسألة بكذا وقضى فيها بكذا.

وذلك حتى يكون لمن بعده الاختيار في نقض هذا الحكم إذا خالف الحق أو حدثت منه مفسدة أو وجد الخير بخلافه.

وسيأتي تفصيل طريق الوصول إلى الحكم الأخير في الشورى في الفصل الخاص بذلك إن شاء الله تعالى والمهم هنا أن نعلم أن من مهمات الشورى. إبداء الرأي فيما يجد من معاملات وأقضيات وحوادث لاستنارة الإمام وتوجيهه إلى الرشد.

خـــلاصـــة:

مر بك الآن ستة ميادين يعمل فيها رجال الشورى هي باختصار تولية الإمام الكفء وعزله بشروط في ذلك موضحة في كتب السياسات ونصح الإمام وتسديده وتقويمه عند الميل والانحراف. وكذلك تنظيم نظام المال ووضع كل شيء منه في نصابه حتى أن راتب الإمام لا يعينه إلا أهل الشورى، فلم يعين راتب أبي بكر وعمر إلا أهل الشورى من المسلمين فانظر كيف يستبد الملوك والرؤساء والأمراء اليوم بالمال العام ويفرضون لأنفسهم وذويهم منه ما يشاؤون ويحرمون منه من شاؤوا وكل ذلك باسم الإسلام وتحت ظله.

وكذلك فمن مهمة رجال الشورى بحث الأوليات في تطبيق حكم الإسلام وذلك للظروف الطارئة على بلاد المسلمين وتغيير أنظمتهم بأنظمة كافرة بل وجميع أوضاعهم الاجتماعية والتعليمية والخلقية ولا بد به الشورى لبحث أهم الأعمال والقرارات بالبدء في التنفيذ.

وكذلك فأهل الشورى هم مخططوا سياسة الأمة حالة سلمها وحربها فتنظيم السياسة الخارجية للأمة من مهمات الشورى.

وأخيراً فالإمام يسترشد بأهل الشورى آرائهم في الوصول إلى الحكم الشرعي للمعاملات الحادثة والقضايا الجديدة وقد مر بك ذلك والحمد لله مفصلاً.

أهل الشورى وطرق معرفتهم

من التعرف على مجالات الشورى في الصفحات السابقة نحكم بأن الذين يتولون مثل هذه الأمور التي يتوقف عليها مصلحة الأمة في دينها ودنياها لا بد وأن يكونوا على مستوى هذه المسؤولية لقول الله تبارك وتعالى ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨] والشورى أمانة عظيمة فيجب أن تسند إلى أهلها الذين يقومون بها على وجه حسن ونعلم أيضاً أنه لا بد وأن يكونوا حائزين على ثقة الناس وحبهم واحترامهم حتى تكون آراؤهم وقراراتهم مقبولة عند الناس. ومعنى هذا أنه لا بد من توفر شرطين فيمن يجعلون أهل الشورى، وهو العلم والقبول عند الناس.

وإذا تتبعنا وقائع الشورى في المجتمع المسلم الأول في عهد الرسول ﷺ والخلافة الراشدة، وجدنا رسول الله ﷺ يشاور في الأمور العامة التي تخص الناس جميعاً يشاور الناس جميعاً كما فعل في بدر شاور الناس كلهم وخاصة الأنصار الذين أخذ عليهم العهد في العقبة على النصرة، وذلك ليتأكد لديه إن كانوا سينصرونه خارج المدينة أم لا. ولذلك تكلم عنهم سعد بن معاذ وكان سيد الأوس رضي الله تعالى عنه فقال خطبته المشهورة.

وكذلك في أحد استشار الناس جميعاً في الخروج أو البقاء لأن الأمر يهمهم جميعاً وأشار عليه البعض بالخروج والبعض بالبقاء وكان عامة الرأي على الخروج فخرج وإن كان ذلك مخالفاً لرأيه صلوات الله وسلامه عليه.

واستشار السعدين فقط في مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة ليرجعا بقوميهما وذلك في غزوة الأحزاب، وسر اختصاصه السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة بذلك أن الأمر يخص الأنصار لأنهم أصحاب الثمار في المدينة، والسعدان هما

رؤساء الأوس والخزرج فهم النواب عن قومهم. ورفضا رضي الله عنهما الصلح ومزقا كتابه فأقرهما الرسول ﷺ، رجع عن رأيه.

واستشار الناس جميعاً في شأن من سبُّوا زوجته عائشة رضي الله عنها وكان ذلك في المسجد وقال: من رجل يعزرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي. واستشار علياً وأسامة بن زيد فقط في شأن فراق عائشة بعد أن قال أهل الإفك فيها ما قالوا وذلك أنهم الصق الناس ببيته واعلم بمن يخرج ويدخل. وأما حوادث استشارة الخلفاء بعده فمعروفة مشهورة بكليتها كذلك على نحو هديه صلوات الله وسلامه عليه. فأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه استشار الناس في حرب فارس والروم وكذلك فعل عمر ابن الخطاب واستشاروا أيضاً في اختيار الأمراء وقسمة الأرض وتولية الخلافة، واستشار عبدالرحمن بن عوف الناس جميعاً حتى النساء والعامة في أيهم يختارون للخلافة عثمان بن عفان أم علي بن أبي طالب وحوادث الشورى في عهدهم كثيرة مشهورة. ومن هذه الحوادث يتجلى لنا الحقائق التالية:

١ـ أن أهل الشورى هم عموم الناس إذا كان الأمر سيتعلق بعمومهم كاختيار الخليفة والحاكم وإعلان الحرب فهذه الأمور العامة لا بد فيها من رأي عام وموافقة عامة لأن الاختيار هنا هو لعموم الناس فالحاكم نائب عن الناس في تولي أمورهم وتسيير قضاياهم، ولذلك لا نولي إلا من يجوز ثقة عامتهم ولذلك قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه للأنصار لما رأوا أنهم أولى الناس بالخلافة لأن المدينة عاصمة الخلافة هي دارهم قال لهم: «إن الناس لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش» أي أن عموم الناس لا يرضون أميراً إلا إذا كان قريشياً لأنهم أشرف العرب نسباً وأوسطهم داراً، وليس لهم عند أحد من العرب تارات قديمة وأما الأنصار فلم يكونوا كذلك بل أن الأنصار لا يرضى بعضهم إمامة بعض فالأوسي لا يرضى بإمامة الخزرجي لما كان بينهم من تارات قديمة. ويعني هذا أن الإمام العام لا بد وأن يستشار فيه عموم الناس ولا بد أن يرضى عنه جمهورهم وأغلبيتهم.

٢ـ وأما الأمور الخاصة فيستشار فيها أهل هذه الخصوصية وأهل العلم والدراية بها. ففي تنفيذ الأعمال العسكرية يستشار أهل الرأي في ذلك وفي الأعمال الصناعية أهل الخبرة فيها وهكذا.

٣ـ وفي سياسة الأمة وإدارة شئونها بوجه عام فمجلس شورى يختار من أهل العلم والرأي من المسلمين بشروطه السابقة بعلم ورضى الناس عنهم ولذلك كان القراء أصحاب مشورة عمر رضي الله عنه كهولاً كانوا أو شباناً (البخاري) وكان أهل بدر لأنهم السابقون إلى نصرة الإسلام، هم أهل الحل والعقد وأهل الشورى كما نص علي بن أبي طالب عندما جاءه من يبايعه بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه قال: «ليس هذا لكم إنما هو لأهل بدر وأهل الشورى فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة فتجتمع وتنظر في هذا الأمر».

هل يشرع الانتخاب لمعرفة أهل الشورى:

بعض الناس الذين لم يستطيعوا التفريق بين الأمور التعبدية والقرب العبادية كالصلاة والصيام والحج يظن أن الأمر في السياسات الشرعية وأنظمة الحكم وشئون المعاملات المختلفة لا بد وأن يكون فيه نص شرعي أو سابقة في عهد الخلفاء ليصبح مشروعاً ويستدل في مثل هذه الأمور خطأ بقول الرسول ﷺ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] فيجعل حكم العبادات والقرب هو حكم المعاملات. وهذا خطأ قد بيناه في صدر هذا البحث وقد قلنا آنفاً أن أوامر الشورى في الإسلام قد جاءت عامة مرنة لم تلزم المسلمين بعدد معين لرجال الشورى، ولا بطريقة بعينها لكيفية اختيارهم، ولا بنظام خاص للاقتراع بينهم، بل أمرت هذه النصوص الحاكم بالشورى، والتزمت المسلمين أن لا يصدروا في جميع أمورهم إلا عن الشورى كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] أما كيفيتها وتنظيمها فقد وكل هذا إلى عرف الجماعة ومستواها، وظروفها في العصور المتعاقبة.

ولذلك فإن من قال أن الانتخاب ليس نظاماً إسلامياً لأنه لم يأت به دليل شرعي فهو جاهل بالفروق بين المعاملات والعبادات.

وإذا نظرنا إلى فعل الرسول ﷺ وجدناه أنه يستشير الشيخين أبي بكر وعمر كثيراً بل ويقول لهما: [لو أجتمعتما في رأي ما خالفتكما] ويستشير السعدين أحياناً كما فعل في غزوة الأحزاب ومصالحة غطفان، ويستشير الأنصار في بدر.

ويستشير الناس عامة في أحد، ويستشير علياً وأسامة في فراق عائشة في حادثة الإفك وهكذا.

ولقد اعتبر أهل بدر بعد ذلك رجالاً للحل والعقد ولم يقطع أمر في زمن الخلفاء إلا بمشورتهم وكان هذا انتخاباً طبيعياً لهم، فالرجال الذين لم يجبنوا في لقاء كبدر لا بد وأنه يكونوا أهل ثقة المسلمين جميعاً ومحل احترامهم وتقديرهم بعد أن كانوا محلاً لرضى الله حيث قال ﷺ: [وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم].

ثم كان قرَّاء القرآن وحفَّاظه والعالمون به بعد ذلك هم أهل الشورى، فالبخاري يقول في صحيحه: «وكان القرَّاء أهل مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباباً»، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين] فهؤلاء العلماء بكتاب الله رفعهم إلى منزلة الشورى علمهم وسبقهم.

وحقيقة أنه لم يحصل في العصور المتتالية للإسلام انتخاب لمجلس شورى، وذلك أن المستشارين بالفعل لو كان انتخاب ما نجح غيرهم فعلمهم وسابقتهم في الإسلام، وجهادهم في سبيله أهلهم بطبيعة الأمور لتلك المنزلة وهذه المكانة.

ولا ينافي هذا إشراك الأمة في اختيارهم فالحاكم الآن لا يستطيع بمفرده الوصول إلى خيار الناس وفضلائهم وأهل الخبرة فيهم.

ولا ينافي الإسلام أيضاً أن يكون للحاكم حق في اختيار عدد محدود من الأفراد ليكون من رجال الشورى وأهل الحَلِّ والعَقدِ فيهم. وسلب هذا الحق منه إذا وجد أن المصلحة في ذلك ليست أيضاً باطلة شرعاً. بل كل ذلك من المصالح المرسلة التي لم يأت الشرع بإلغائها ولا الالزام بها.

فتفويض الأمة الكامل لانتخاب مجلس للشورى جائز شرعاً وجعل عدد محدود باختيار الإمام جائز شرعاً. ويقدر هذه المصالح رأي الأمة وجمهورها. وللظروف والملابسات دخل عظيم في اختيار الأسلوب المناسب لتطبيق هذه الأحكام.

كيف نصل إلى الرأي الأخير في الشورى؟

السؤال الأخير في موضوع الشورى، هو: كيف الوصول إلى الرأي الأخير في الشورى. هل الإمام مخير في أن يقبل مذعناً لرأي أغلبيتهم أم له أن يرفض ذلك ويعدل إلى رأي القلة؟ هل يجب أن يلتزم بإجماعهم أم له أن يرفض رأياً أجمعوا عليه ويمضي ويحمل الأمة على رأيه هو وإن خالف هذا الإجماع.

في هذه المسألة نجد للباحثين المعاصرين والمحدثين من المسلمين آراء.

رأي يقول بأن الإمام مخير في قبول رأي الأكثرية من أهل الشورى أو رفض ذلك، والحكم الأخير له مطلقاً سواء وافق آراء الناس أم خالفها ويجب على الأمة ـ مع ذلك ـ السمع والطاعة له ما دام أن هذا اجتهاده ورأيه، بل لا يجوز له ـ في نظر هؤلاء ـ أن يذعن لآرائهم، وأن يرضخ لجمهورهم. .

ويرون أن الشورى بالنسبة للإمام ما هي إلا للاستنارة. والتوضيح فقط. فهي كما يقال إعلام للأمير لا إلزام.

ورأي آخر يقول بل الإمام في الإسلام ملزم برأي الأغلبية، ويجب عليه تنفيذ ما اتفقوا وأجمعوا عليه، ولا يجوز له أن يخالف جمهورهم ولذلك يقولون الشورى ملزمة للأمير لا معلمة له فقط.

ورأي ثالث يقول بل الأمر في ذلك حسب رأي الأمة إن رأت أن تجعل الأمر للأمير مطلقاً فعلت وإن رأت أن تقيده بآراء أكثرية المستشارين فعلت لأن الإمام نائب عن الأمة والأمر دائر على المصلحة فإن وجدت الأمة أن مصلحتها في تفويض الحاكم لكفاءته وظروف الناس كان لها ذلك، وإن رأت أنه يجب تقيد صلاحياته بإجماع أهل الشورى أو برأي أكثريتهم فلها ذلك أيضاً.

ونحن نناقش بحول الله هذه الآراء جميعاً فنعرض حجة كل فريق منهم وأدلتهم ونناقش هذه الأدلة ونرجح بالدليل الرأي الصواب بحول الله وقوته.

أولاً: أدلة القائلين بأن الشورى معلمة فقط:

استدل هؤلاء بالأدلة الآتية:

أ ـ قول الله عز وجل لرسوله ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] فأضاف الشورى للمسلمين، وجعل العزم ـ وقد فسروه بالرأي الأخير ـ للرسول وحده. قالوا فهذا دليل على أن الاختيار إنما هو للأمير فقط.

ب ـ وأما الدليل الثاني فهو قولهم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه استشار الناس في المرتدين وخالفته الأغلبية وقالت: كيف نقاتل أقواماً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال.. والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وزعموا ـ فأذعن المسلمون لرأيه ونزلوا عند حكمه وحاربوا المرتدين وتركوا أقوالهم.

ج ـ وأما دليلهم الثالث فهو زعمهم أن رسول الله ﷺ صنع أشياء كثيرة برأيه ولم يقبل فيها آراء أصحابه: كصلح الحديبية وقتال بني قريظة.

د ـ والدليل الرابع قولهم أن الحكم بالأغلبية نظام غربي ديمقراطي وليس نظاماً إسلامياً، فالقائلون بوجوب الأخذ برأي الأغلبية متأثرون ـ في زعمهم ـ بالنزعة الغربية التي تسود الآن المجتمعات الإسلامية.

هـ ـ وأما دليلهم الخامس فهو قولهم لو كان الحكم برأي الأغلبية شيئاً مقرراً في الشريعة الإسلامية لكان أحد بحوث الفقهاء ولحدد نصاب الشورى في الفقه ووضعت قوانينه ونظمه كما هي بقية بحوث الفقه.

و ـ إن الكثرة قد جاء ذمها في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠٣] هذه الأدلة هي التي تذرع بها القائلون بأن الإمام في الإسلام غير ملزم شرعاً ـ بل ولا يجوز أن يلزم ـ برأي الأغلبية.

ولنناقش معاً هذه الأدلة لنرى هل هي أدلة صحيحة تقوم بها الحجة أم لا..

أ ـ الاستدلال بالآية على المراد غير صحيح لأن الآية تلزم بوجوب الشورى ولا تنص على كيفية الوصول للرأي الأخير فالله يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] وهذا أمر من الله ظاهره الوجوب وإذا كان واجباً في حق الرسول فغيره أولى بهذا، ثم يقول له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] ولم يبن الله مستند هذا العزم والرأي الأخير الذي يكون عليه العزم هل هو رأي من استشارهم أم رأيه هو بل قال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] أي على رأي ما ولم ينص ما هذا الرأي هل هو رأي الرسول نفسه بعد الشورى أو رأي من استشارهم. ومن قال هنا أن العزم يكون على رأي الرسول الذي اختاره، ولو كان هو الرأي المخالف لرأي من استشارهم فقد تحكم على القرآن وقال فيه بغير علم وحمل الآية ما لم تحمل.

وقد فسر الرسول ﷺ الآية عملياً عندما استشار أصحابه في أحد فأشار جمهورهم بوجوب الخروج للقاء العدو خارج المدينة مخالفين بذلك رأي الرسول ﷺ ولما أخذ برأيهم خشوا أن يكونوا قد ألزموا الرسول بشيء يكرهه فأرادوا بعد أن لبس الرسول ﷺ لامة الحرب ودرعه أن يتنازلوا عن آرائهم فقال لهم النبي ﷺ: [لا يحل لنبي أن يخلع لامة الحرب بعد إذ لبسها حتى يفصل الله بينه وبين عدوه] وهذا معنى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] أي إذا استقر الرأي على أمر فلا يجوز العدول عنه.

وبهذا يتبين أن هذا الدليل لا حجة فيه للقائلين بأن نص في أن الإمام مخير في الأخذ برأي الشورى أو رأي نفسه.

ب ـ وأما الدليل الثاني وهو الزعم بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ألزم المسلمين برأيه في حرب المرتدين فهو باطل كل البطلان لأن أبا بكر الصديق لم يلزم المسلمين بشيء على غير إرادتهم ولكنه رأى قتال مانعي الزكاة وإن صلوا وخالفه في هذا جمهور المسلمين كما سلف فناقشهم وأقنعهم أن الزكاة أخت الصلاة ومن منع الزكاة كمن منع الصلاة ولذلك يقول عمر رضي الله عنه وقد كان زعيم هذه المعارضة «فوالله ما رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى علمت أنه الحق» فعمر اقتنع برأي أبي بكر قبل أن يعزم المسلمون على قتال المرتدين ثم جاء الحديث الصحيح

الذي قاله عبدالله بن عمر موافقاً لرأي أبي بكر وهو قوله ﷺ: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله] (البخاري ومسلم) فالمسلم لا يأمن سيوف المسلمين بنص الحديث حتى يؤدي الصلاة والزكاة بعد أن يكون شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ولما وضحت هذه الحجج للمسلمين أخذوا برأي أبي بكر الصديق عن اقتناع وإيمان ولم يكن إذعاناً لرأيه وهم مقتنعون بوجوب الطاعة للإمام فقط وإن خالف رأيهم.

ولو كان هذا واقعاً ـ لكان الصحابة آثمين أعني لو أن الصحابة رضوان الله عليهم أطاعوا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهم يرون أن المرتدين لا يجوز قتالهم لأنهم مسلمون لكانوا آثمين أشد الإثم بل وعاصين لله لأنهم أطاعوا أميرهم في معصية عظيمة وهي قتل أناس مسلمين لا يجوز قتالهم. فهل يريد أصحاب هذا الرأي أن يصفوا الصحابة بذلك؟

بالطبع لا.. ولكن أوقعهم في هذا الخطأ الشنيع عدم سير الأمور سيراً حقيقياً وتعجلهم في إصدار الحكم والأخذ بظواهر ظنوها أدلة وما هي بأدلة.

ج ـ وأما الدليل الثالث وهو الزعم بأن رسول الله ﷺ فعل أشياء كثيرة بغير شورى كصلح الحديبية الذي كان على خلاف رأي الصحابة وقتال بني قريظة ـ فهو جهل فاضح أيضاً وقد بينت هذا في مقال طويل وذلك في معرض الرد على الأستاذ محمد سلامة الذي ادعى هذه الدعوى وخلاصة ذلك أن صلح الحديبية كان بأمر من الله تعالى بدليل قول الرسول ﷺ لعمر [إنه ربي ولن يضيعني]، وأما غزوة قريظة فقد جاء في صحيح البخاري أن جبريل جاء قبل الظهر ليقول للرسول ﷺ [إن ربك يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة].

ونحن نقطع أن رسول الله ﷺ ما قطع في أمر ما من أمور المسلمين العامة إلا بوحي أو شورى بل قال أبو هريرة رضي الله عنه «ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ لأصحابه».

ولم يثبت أن رسول الله ﷺ أخذ برأي الأقلية في أي من الأمور التي شاور فيها

أصحابه أبداً وسيأتي تفصيل ذلك لهذا الأمر عند بيان قول القائلين بوجوب الأخذ برأي الأكثرية.

د ـ وأما القول بأن الأخذ برأي الأكثرية نظام غربي وديمقراطي وليس من الإسلام هو خطأ من وجوه كثيرة.

أولاً: أنه ليس كل شيء في النظم الغربية باطلاً ومخالفاً للإسلام بل بعض هذه النظم والقوانين لا تخالف الإسلام فكون الحاكم يجب أن يرضى عنه جمهور الأمة، لا ينافي الإسلام وهو أحد القوانين في النظم الديمقراطية وكذلك عزل الحاكم إذا أساء، ولا نستطيع أن نلغي مثل هذه القوانين من نظام الإسلام لأنها أصبحت جزءاً من النظام الديمقراطي.

ثانياً: حصر عمر رضي الله عنه الحكم في ستة عندما فوضته الأمة في اختيار نائب له فأبى أولاً ثم رضخ بعد إلحاح لهذا ثم أخبر أنه إذا اجتمع أربعة على واحد وخالف اثنان فلا يعتد برأيهما فينصب خليفة للناس وإذا انقسم الستة إلى ثلاثة وثلاثة فعبدالله ابن عمر مرجح لأحد الرأيين ولو كان الأخذ بقول الأغلبية منافياً للإسلام لما وافق الصحابة عمراً على رأيه هذا ولقالوا له: لقد ابتدعت بدعة عظيمة في الإسلام فكيف يكون الاختيار بترجيح واحد أو بموافقة الأغلبية بل الأمر لك وحدك.

وإقرار الصحابة له وعدم وجود مخالف في ذلك إلى يومنا هذا دل على أنه إجماع على أن نظام العدد والتصويت معمول به في شريعة الإسلام وفي سنة الراشدين. وليس نظاماً غربياً كما يدعي المدعون، فليس رأي الأكثرية عورة يجب نزعها من الإسلام نزعاً ونسبتها للغرب.

هـ ـ وأما الحجة الخامسة وهي أن نظام العدد والتصويت لو كان من شرائع الإسلام لذكرته كتب الفقه، وحددت نصابه ونظامه فهو أيضاً قول مقذوف على عواهنه. فكتب السير ذكرت حادثة عمر هذه وجعلت بيعة الإمام بموافقة أهل الشورى وجمهور المسلمين بل قال أبو بكر الصديق للأنصار يوم السقيفة «إن العرب لا تجتمع إلا على هذا الحي من قريش» أي أن جمهور العرب يجمعون ويجتمعون

على قريش ولا يمكن أن يرضى جمهورهم عن أنصاري.

وسيأتي في بيان مسوغات الأخذ برأي الأغلبية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما كان ليخالف جمهور مستشاريه قط بل أن الرسول ﷺ ليقول لأبي بكر وعمر [لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما].

وإذا كانت كتب الفقه التي اهتمت بالفروع قد كتبت في عهود تعطل فيها العمل بالشورى في ظل أحكام أخذت الوراثة في الحكم، والاستئثار بالأمر دون المسلمين، فهل يكون هذا الواقع حجة في دين الله؟ ألا إنها حجة واهية.

و ـ وأما الحجة السادسة لأصحاب القول الأول وهي أن الكثرة قد جاءت مذمومة في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠٣] الآية في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٦] قالوا وزعموا: ويؤخذ منها أن الكثرة على ضلال، وما دام الأمر كذلك فلا يؤخذ برأيهم ولا يحكم بحكمهم.

ولم أر قولاً في الباطل كهذا القول. إذ هو إنزال للآيات في غير منازلها وتطبيق لها في غير واقعها. فالكثرة المذمومة هنا هي كثرة الكفر والضلال لا مجموع الأمة وجمهور خيارها.

فالأمة بمجموعها معصومة عن الخطأ كما هو مقرر في أصول الفقه، وجمهور الأمة أقرب إلى الصواب من القلة في الأمور التي لا نص فيها فانظر كيف يستدل بالآيات في غير مواضعها، وتنزل على غير أحكامها ومنازلها.

وبهذا النقاش الموضوعي تتداعى تلك الحجج الوهمية التي تذرع بها من قال بأن الإمام في الإسلام غير ملزم برأي الأغلبية ومن قال أن اتباع رأي الأغلبية مناف للشريعة الإسلامية.

ولنأت الآن إلى نقاش أصحاب الرأي الثاني وهم القائلون بأن الشريعة الإسلامية توجب على الإمام الشورى، وتوجب عليه أيضاً الرضوخ لرأي جمهورهم والحكم مطلقاً بالرأي الذي يجمعون عليه وتتلخص حجتهم في الأدلة الآتية:

أ ـ حدوث وقائع كثيرة تدل على أن رسول الله ﷺ نزل عن رأيه لرأي جمهور أصحابه، بل عدم ورود حادثة واحدة تدل على أن الرسول تمسك برأيه في أمر شورى أعني أمراً ليس موحى به. وكذلك كانت سنة خلفائه الراشدين إنهم ما تمسكوا بآرائهم في وجه الشورى قط بل قضوا دائماً بالنص أو بما اتفق عليه جمهور الأمة.

ب ـ قالوا، لا فائدة من الشورى لو أن الأمير له الخيار بعد الشورى أن يختار ما يشاء ولو خالف إجماع أهل الشورى.

ج ـ قالوا: إنه لو كان هذا مقرراً في الشريعة وهو أن الأمير غير ملزم إلا برأيه لكان هذا مدعاة إلى التسلط والقهر، وإلغاء لرأي الأمة، وإتلافاً لإجماعها وهي معصومة من الخطأ كما تقرر في الأصول، والأمير غير معصوم من الخطأ. فكيف يحكم غير المعصوم على المعصوم.

د ـ قالوا: لو فرضنا جدلاً أنه ليس في الشريعة الإسلامية ما يقرر بأن الأخذ بحكم الأكثرية واجب وقد اتفقنا على أنه ليس في الشريعة أيضاً ما يحرم ذلك. فإن الأولى والأحرى أن نشرع ذلك الآن لأن المصلحة المرسلة تقتضي ذلك.

هـ ـ قالوا أيضاً يكفي الأمة ما لاقت من عصور الاستبداد وإبرام الأمور في غيبتها، وإهدار آراء علمائها وذوي الرأي فيها.

هذه هي أصول الأدلة التي استدل بها من يقول بأن الإمام في الإسلام ملزم برأي أغلبية مستشاريه. ولنناقش هذه الأدلة أيضاً نقاشاً موضوعياً.

أ ـ أما أن الرسول ﷺ في أمور الشورى وهي غير الأمور التي جاء بها الوحي قد نزل عند رأي أصحابه ولم يخالف رأي جمهورهم قط. فنعم. فقد فرح رسول الله ﷺ برأي أصحابه الذين استشارهم في بدر فقد وافق أبو بكر على لقاء نفير قريش وكذلك عمر، وقد ألهبت خطبة المقداد المشاعر، وقد سره جداً أن يكون رأي الأنصار كذلك وذلك في خطبة سعد بن معاذ الخالدة التي قال فيها «والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد» ونحن نقطع الآن أن رسول الله ﷺ لو أشير عليه بالرجوع لرجع إلا أن يكون في الأمر وحي من الله، ولو كان في بدر وحي لما استشار الرسول أصحابه ولقال لهم: إن الله يأمركم بلقاء قريش الآن.

وكذلك في أحد رأينا أنه رضخ لرأي جمهور صحابته الذين تشوقوا للقاء العدو وإن كان هذا على خلاف رأيه، وهو يعلم مقدار الآلام التي ستتحملها الأمة فقد رأى في الرؤيا ما يدل على ذلك فقد رأى في رؤياه أن بقراً تذبح وأن ثلماً في ذباب سيفه وقد أوله ﷺ بقتل عدد من أصحابه وقتل رجل من أهل بيته. ومع ذلك أذعن رسول الله ﷺ للخروج.

وفي الخندق رجع عن رأيه لرأي السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وذلك بعد أن كتب كتاباً مع رؤساء غطفان، وأقرهم على قطف ثمار المدينة ولكن أحد السعدين أخذ الكتاب ومزقه بل وبصق عليه وقال (والله لا نعطيهم إلا السيف) وهنا نجد أيضاً أن رسول الله ﷺ قد أذعن لرأي مستشاريه وهم أصحاب الشأن في ثمار المدينة لأنهم رؤساء الأوس والخزرج.

وفي حصار الطائف أبدى رسول الله ﷺ رغبته في الرجوع عن حصار الطائف بعد مكث استمر كما قالت بعض الروايات أربعين ليلة وحصل للمسلمين في هذا الحصار بلاء شديد فقد قتل منهم رجال بالنبل، ولما استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلمي فقال ما ترى؟ فقال له معاوية ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك.. فأمر رسول الله ﷺ عمراً أن يؤذن بالرحيل فضج الناس وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ فأعدوا على القتال ورجع رسول الله ﷺ عن رأيه، ولكن بعد أن أصيبوا بجراحات أخرى من القتال قال رسول الله ﷺ: إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك (انظر زاد المعاد ص١٩٧ ج٢) وفي هذا دليل ظاهر على نزوله ﷺ عند رأي أصحابه وعدم إجبارهم عليه لأنه رأي وليس بوحي.

ومن تلك الوقائع كلها يظهر جلياً أن رسول الله ﷺ ما كان يعدل عن رأي جمهور أصحابه قط بل قال ﷺ لأبي بكر وعمر: [لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما].

وكذلك كانت سيرة الراشدين رضي الله تعالى عنهم فإنهم ما حملوا الأمة على رأي كرهته قط، ولا خالفوا جمهورهم أبداً. بل أن عمر كان يجمع المهاجرون للشورى فإن أجمعوا على رأي قضى وإن اختلفوا جمع الأنصار فإن أجمعوا على رأي قضى به، وبذلك كانت سيرتهم محمودة في أصحابهم، وإن كان أخذ على عثمان

شيء فإنما هو لعدم الرجوع الدائم للأمة في بعض الشؤون وبذلك انتقضت عليه كثير من الأمور وظهر الإنكار عليه من كثير من الصحابة كعلي وعائشة رضي الله عنهما.

ب ـ وأما الأمر الثاني وهو أنه لا فائدة من الشورى لو أن الأمير له الرأي النهائي وإن خالف أكثرية الناس، فليس هذا الكلام صحيحاً بإطلاق، ولكنه صحيح من وجه. ففائدة الشورى عندئذ هي تنوير الإمام ليس إلا، وهي بلا شك فائدة جزئية وهي تفيد مع أفذاذ من الناس يملكون البصيرة والخبرة والتقوى وقلما اجتمعت هذه الخصال في رجل، اللهم إلا رجلاً كأبي بكر وعمر وهيهات أن يوجد في الأمة مثال يقرب من ذلك فضلاً أن يكون مثله، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: [وزنت بالأمة فرجحت، ووزن أبو بكر بالأمة لست فيها فرجح، ووزن عمر بالأمة لست فيها وأبو بكر فرجح] (البخاري) فهم رجلان كل منهما كان بباقي الأمة.

جـ وأما الأمر الثالث فهو أن تمكين الإمام من الأخذ برأيه مطلقاً وافق الشورى أو خالف فإنه ذريعة للاستبداد، والنفوس يستحيل أن تبرأ من الهوى مطلقاً ومن المنافع الشخصية أبداً، وإذا كان قد سلف في الأمة خلفاء لم تكن لهم منفعة شخصية فأنى لنا أن نجد هذا دائماً. وهذا وجه حسن.

وقالوا أيضاً إجماع الأمة معصوم من الخطأ ورأي الإمام ليس معصوماً فلو كان للإمام أن يخالف مجموع الأمة لجعلنا غير المعصوم حكماً على المعصوم ثم لا شك أنه إذا تعادلت الآراء فرأى الإمام رأي، والصواب أحرى أن يوجد عند الجماعة منه عند الفرد، وكذلك نسبة الصواب مع المجموعة الكبيرة أكبر من نسبته مع المجموعة الصغيرة.

د ـ وأما الدليل الرابع وهو أن القول بالأخذ برأي الأغلبية ولزومه للإمام لو لم يكن مقرراً في الشريعة لوجب الأخذ به عملاً بالمصلحة المرسلة فهذا أيضاً دليل جيد إذ قد جاءت الشريعة بمصالح العباد فالمصلحة التي اعتبرتها الشريعة هي مصلحة إلى يوم القيامة، والمصلحة التي أهدرتها هي مفسدة إلى يوم القيامة، وأما المصلحة التي لم يأتي نص بإهدارها ولا باعتبارها فإذا رأيناها مصلحة وجب الأخذ بها أخذاً بالمنافع والمصالح.

والزام الحاكم برأي الأغلبية فيه منافع عظيمة للأمة إذ أنه يحول بين الحاكم وبين الاستبداد، ويجعل للرأي مكانة ومنزلة، ولجمهور الشورى مكانهم ومنزلتهم، ويعصم كثيراً من الآراء الفردية المرتجلة التي قد تدمر الأمة بأسرها. ولعل هذا الدليل هو أقوى الأدلة على وجوب القول بهذا الأمر فقد لاقى المسلمون من الاستبداد بالرأي الفردي ويلات كثيرة ولن تشرق شمسهم إلا في ظل حكم شورى يضع للرأي الجماعي منزلته ومكانته.

هـ ـ هذه هي مجموع الحجج التي استند إليها القائلون بوجوب أخذ الحاكم برأي الأغلبية وهي كما ترى أمور واضحة صريحة شمسها ساطعة لا يحجبها سحاب أو ضباب.

وأما القول الثالث وهو أن الأمر في هذه المسألة يرجع إلى رأي الأمة فإن رأت الأمة أن تفوض الإمام في اختيار الرأي المناسب من آراء الشورى فعلت وإن شاءت أن تلزمه برأي جمهورها فعلت إذ ليس الشريعة ما يوجب هذا وذلك، وما ينفي هذا أو ذاك. فهو رأي أيضاً ساقط للأدلة التي سقناها إليك آنفاً مبينين أن الأخذ برأي الأغلبية هو السنة التي سار عليها رسول الله ﷺ والراشدون من خلفائه وهو الذي تقتضيه المصلحة المرسلة، والظروف المعاشية التي تحياها الأمة إذ يستحيل على الأمة أن ترد جميع أمورها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية وغيرها لرأي فرد واحد من الناس مهما كان هذا الأحد في الوقت الحاضر، ولا بد من إشراك الأمة إشراكاً حقيقياً ليس بالرأي فقط بل بالاجتهاد الملزم للإمام ما دام أنه رأي الجمهور والأغلبية.

ويمكن أن يقال بأن الرأي الثالث يعمل به أحياناً في ظروف خاصة حيث تعطي الأمة الإمام الحاكم صلاحيات معينة في اتخاذ قرارات مناسبة في ظرف من الظروف الطارئة كظروف الحروب والقلاقل الاجتماعية وأما في غير ذلك فقد عرفت بالأدلة القاطعة أنه يجب على الإمام الإلتزام برأي أغلبية مستشاريه.

وأظن الآن أنه في البيان السابق قد وضح الحكم، واتضحت السبل وعلم يقيناً بالأدلة الصريحة من مقتضيات الحكم الشوري في الإسلام الأخذ برأي الأغلبية

المستشارة. [والمستشار مؤتمن] كما قال رسول الله ﷺ فمن تستأمنهم الأمة وتوليهم مهمة النظر في أمورها وتصريف سياستها يجب على الحاكم المسلم أن ينفذ ما أجمعوا عليه ويجب أيضاً أن يكون رأي أغلبيتهم هو الرأي الراجح الذي يجب الأخذ به، وليس هذا النظام نظاماً من صنع الغرب، ومن اختراع الديمقراطية كما ادعى المدعون، ولكنه نظام إسلامي خالص، انتقل من حضارتنا إلى حضارة الغرب كما انتقلت حسنات كثيرة، واليوم ينكره فريق منا أشد الإنكار لأنهم عاشوا في ظروف التسلط والقهر، وألفوا نظماً فاسدة انتسبت للإسلام زوراً، ونسبت تسلطها هذا للإسلام والإسلام الحق بريء من ذلك.

أخطر من الشورى

تابعت باهتمام المناقشة حول الشورى في مجلة البلاغ، وكان ذلك بطلب من الأستاذ محمد سلامة جبر الذي أراد معرفة رأيي في الموضوع.

قرأت مقالي الأستاذ محمد سلامة جبر الأولين ثم رد الأستاذ إبراهيم الصديقي، ثم قرأت المقال الثالث الذي رد فيه على الأستاذ إبراهيم وما انتهيت منه حتى رأيتني أحمل عبئاً كبيراً، وألماً مضافاً إلى الآلام التي أحملها ـ ويشاركني في حملها كل مسلم يحس بآلام المسلمين ومشاكلهم ـ.

فقد كان عنوان المقال خارجاً عن مضمون البحث وموضوعيته (الفقه الفقه يا معشر المتفقهين!) وتحت هذا العنوان عنوانان آخران مثيران (لو كان أبا حنيفة حياً وسمع هذا الكلام لمات بالسكتة القلبية!) (من أعطى أبا بكر وعمر وعثمان شهادة الدكتوراه..) وهذه العناوين الثلاثة لا علاقة لها بموضوع الخلاف وهي الشورى، وإنما هي وعظ وإرشاد للمتفقهين وتشنيع على الأستاذ الذي خالف الأستاذ محمد سلامة رأيه حول الشورى.

وقلت في نفسي إذا كان هذا هو العنوان فكيف بالموضوع ذاته؟.

لقد قدم الأستاذ محمد سلامة رده مستدلاً بآيات وأحاديث وأقوال لبعض العلماء، ولا شك أن الاستدلال بهذه الآيات في موطن الرد يلزم منه أن المقصود بها هو المردود عليه فتعالوا ننظر طرفاً مما استدل به:

«العلم نكتة واحدة كثرها الجهل» هذا قول نقله عن الغزالي ولا يعني هذا إلا أن الأستاذ إبراهيم الصديقي رجل جاهل..

يدل على هذا المقصود الشرح الآتي بعد الاستشهاد السابق:

لقد كانت الكلمة الواحدة تكفي في عصر الصحابة.. ثم لما عمّ الجهل، وفشا وطمّ، احتجنا إلى مجلدات لبيان مسألة واحدة، فهل ألف الأستاذ محمد مجلدات لبيان مسألة واحدة مما يجهله الناس أم أنه محتاج كغيره إلى هذه المجلدات لبيان المسألة الواحدة؟.

- استدل أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها [إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعاً، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا] فهل يعني الأستاذ أن غريمه الذي خالفه الرأي في لزوم الأخذ بالشورى للإمام رأساً جاهلاً! أم ساق الحديث لمعنى آخر لا نفهمه نحن؟

- [أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار] وهذا يوحي بأن غيره تجرأ وأنه لم يتجرأ.

ثم ساق الأستاذ محمد سلامة، كلاماً طويلاً في وجوب التسليم لحكم الرسول ﷺ وأنه ليس مسلماً من لم يفعل ذلك، وهذا معناه أن الرجل الآخر الذي خالفه الرأي كأنما قال لا أرضى بحكم الله ورسوله وإنما أرضى بحكم البشر ثم ختم هذه المقدمة بقوله بالنص:

«فلعلني أطلت في التمهيد إلا أنه كلام لا مفر عنه فلقد تطاول الكثيرون على الأحكام، وتجرأوا على الفتيا بلا برهان، وزعموا أن ذلك هو الإسلام، وإن كان قد وقع ذلك ممن نعلم أمرهم، ونكشف جهلهم وعوارهم فما ذلك بالأمر العجيب، ولا هو علينا بمستبعد غريب» أ. هـ.

ولم يكتف الأستاذ بهذا كله قبل أن يقاضي الرجل فيما قال وما رد به النصوص حتى رماه بما هو أعظم من ذلك حيث قال:

«أما أن يجرؤ هذا على الفتوى برأيه، دون سند من علم يستنير به أو أهلية يتقدم بها، فهذا ما أخافه كل خوف على أنفسنا، فإنما هلك من كان قبلنا بالرأي والهوى،

وضل من ضل بفتنتهم، وتقديمهم المعقول على المنقول»، ثم استدل بعد ذلك بآية نزلت في شأن اليهود حيث قال: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧١]. .

فتذكرت السياق القرآني الذي جاءت فيه هذه الآية فإذا هو كما يلي:

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ. . .﴾ الآية! [سورة المائدة، الآيتان: ٧٠ ـ ٧١].

فقلت سبحان الله آية في اليهود يقذف بها مسلم في وجه أخيه المسلم حيث خالفه الرأي في مسألة الحق فيها ـ إن شاء الله ـ كما سترى أيها القارىء مع الذي سيقت إليه كل هذه التهم ورمى بكل هذه النصوص!

وهنا أيقنت أننا أمام قضية أخطر من بحث قضية الشورى أنها قضية الفرقة والخلاف، قضية الرمي بالجهل والفسق والكفر من المسلم للمسلم. قضية الطريق الوعر في الوصول إلى الحق. وليس ما عرضته الآن أمامك أيها القارىء إلا حلقة من حلقات طويلة للفرقة والخلاف الذي نعيش فيه، ولا أعني بالفرقة اختلاف الرأي ولكني أعني به رمي المسلم للمسلم بما قرأت، وما تقرأ كل يوم على صفحات الكتب والمجلات.

فهل كتب علينا أن نتجرع كل يوم آثار هذه الفرقة! وإلى متى؟ وممن؟ من الذين يهتمون بالثقافة الإسلامية والنصح للمسلمين! هذا منطق مرفوض، وأسلوب عقيم يجب أن نعمل جميعاً على رفضه وإقصائه.

وإذا كان الأستاذ محمد سلامة جبر قد طلب رأيي في الموضوع، وهو صديق عزيز فلن تمنعني صداقته من أن أقول له. لقد أخطأت يا صاحبي الطريق وغاليت في الأمر ورميت أخاك الذي يخالفك الرأي بما لا يجوز مسلم لمسلم قطعاً. وهب أن الحق معك أفهكذا تكون الدعوة إليه وأنت ممن يشهد على نفسه باتباع مسلك السلف والتمسك بالمأثور؟

وما دمنا في صدد رمي الأخ أخاه بما ليس فيه فقد جاءت عبارة في مقال الأستاذ إبراهيم الصديقي يقول فيها: ثم أين هذا من إيراده لقول ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان) فهل يمكن أن يكون هذا القول قاعدة لبناء دولة وفتوى دستورية شرعية اقتنع بها الكاتب أم أنه قول ربما قيل لظروف سياسية أكثر منها شرعية.

ولنا هنا أيضاً عتاب مع الأخ إبراهيم الصديقي الذي رمى الإمام ابن تيمية ـ وإن كان رميه بتغليب جانب الشك ـ بأنه قال قوله السالف لظروف سياسية وليس لبيان حكم شرعي نقول: هل اطلعت على رأيه في الكتاب المذكور وعلى السياق الذي ساقه فيه حتى تصدر هذا الحكم.

وهل سمعت أن ابن تيمية الذي أمضى سنوات طويلة من عمره سجيناً ومات في سجنه كان يدبج فتاواه لإرضاء الحكام والسلاطين وهو الذي وقف حياته على الجهاد في سبيل الله فرد على أهل الأهواء من معطلة الصفات وتفاتها ومن المتصوفة المغالين ودعاة الباطنية، والرافضة، والمقلدين الجامدين وكتبه وسيرته شاهدة بذلك. ونحيلك على كتابه المذكور لتعلم أنه قال هذا القول في إمامة الضرورة والاضطرار لا في حكم الشورى والاختيار. هذا ولقد كان لسوء استدلال الأستاذ محمد سلامة بهذا النص نصيب في تجويزه إمامة غير المجتهد وهذا لم يقله أحد من سلف الأمة إلا في حكم الضرورة والإجبار كما سلف عن ابن تيمية رحمه الله.

لقد تعرض الأستاذ محمد سلامة جبر في كلامه في الشورى لقضايا بالغة الخطورة واستدل بأدلة عليها لا يخلو دليل مما استدل به على نقاش ولست بخائض غمار هذا الأمر إلا أن يكون لدى قراء المجلة ما يدعوهم إلى هذا الأمر وعند ذلك اتجشم مشقته، وأحمل تبعته.

ومن الأمور الخطيرة التي وصل إليها جواز إمامة المقلد هكذا على إطلاقها ونسبة هذا القول إلى الإمام ابن تيمية رحمه الله والسلف. وقد ذكرت أن كلام ابن تيمية في هذا الصدد إنما هو في إمامة الجبر والإكراه لا الشورى والاختيار. والأمر الخطير الآخر هو أن استشارة الإمام المجتهد لأهل الشورى مستحبة لا واجبة وقد ورد

الوجوب الثابت في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] بأدلة في غاية العجب.

* الأمر الأول: أنه مستغن بالوحي عن الشورى.. ومعلوم أن مجال الشورى هو ما لا نص فيه من الله، فالرسول ﷺ مأمور أن يستشير أصحابه رضوان الله عليهم فيما لا وحي فيه من الله. لأنه كان مفروض عليه أن يجتهد في مسائل كثيرة وهذه المسائل هي مجال الشورى، وغير الرسول ﷺ من الأئمة يجب عليهم الاستشارة فيما لا نص فيه من الله عز وجل أو في مجالات تطبيق النصوص.

وأما القول بأن الرسول ﷺ قد أمره الله بهذا تطييباً لخاطر أصحابه فإنما هي دعوى تحتاج إلى دليل وبرهان على ذلك من قول الله أو قول رسوله ﷺ؟

وأما قول الأخ محمد سلامة بأن رسول الله ﷺ قد تركها في الأمهات من المسائل فليس بصحيح إطلاقاً فالتوجه إلى بني قريظة كان بأمر الله حيث أتاه جبريل فقال له: (إن الله يأمرك أن تذهب إلى بني قريظة!) ومعلوم أن هذا أمر لا يحتاج إلى استشارة ولذلك جمع الناس في المسجد في صلاة الظهر وقال لهم: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة!].

وأما عزمه على مصالحة قبائل غطفان الذي استدل به الأستاذ محمد سلامة فلست أدري هل يحتاج العزم على فعل ما إلى استشارة ومعلوم أن العزم هو أمر يراه الإنسان لم يخرج بعد إلى الوجود!.

* وأما صلح الحديبية ـ الذي استدل به أيضاً على أن الرسول انفذه دون استشارة فهو استدلال غريب لأن هناك نصوصاً صريحة واضحة تدل على أن الرسول انفذ هذا الصلح بأمر الله تبارك وتعالى ومعلوم أن ما فيه نص من الله فليس من مواطن الشورى. ألا ترى أن ناقة الرسول بركت قبل مكة. وقال رسول الله ﷺ [لقد حبسها حابس الفيل عن مكة!] ومعلوم أن ناقة الرسول كانت مأمورة. ألا ترى أن مكان مسجد الرسول ﷺ الحالي بالمدينة المنورة لم يعينه إلا بروك ناقته ﷺ. وأصرح من قول الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما اعترض على الصلح:

[إنه ربي ولن يضيعني] أي نص أوضح من هذا يبين أن صلح الحديبية كان بأمر

ووحي. لو كان غير ذلك لقال رسول الله ﷺ لعمر: (يا عمر إنه رأي رأيته راجحاً وعليك التزام أمري إن كنت مؤمناً).

ولكننا علمنا أنه ﷺ لما قال [إنه ربي ولن يضيعني] إنه فعل ذلك بأمر الله تبارك وتعالى.

ولو قلنا مع الأخ محمد سلامة أن الشورى لم تلزم الرسول ﷺ فما هو موقفنا من وصف الله للمؤمنين بالجملة الإسمية التي تدل على الثبات والاستقرار ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨]؟؟!.

ألا يرى الأخ الكريم أن في قوله بأن الرسول ﷺ ترك الشورى في أمهات المسائل تكذيب للأثر الصحيح حديث أبي هريرة [ما رأيت أحداً أكثر استشارة لأصحابه من رسول الله لأصحابه] وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان أكثر استشارة لأصحابه من أبي بكر لأصحابه، ومن عمر لأصحابه، ومن عثمان لأصحابه، ومن علي لأصحابه.

ثم ألا يرى معي الأخ الكريم أن إطلاق هذا القول إنما هو خدمة جليلة للاستبداد بالرأي، وقتل الحريات، وإماتة النصيحة في وقت نحن أشد ما نكون إلى تقييد سلطة الحاكم، فضلاً عن أنه مصادمة للنصوص.

البحث طويل وهناك أمور كثيرة جداً تحتاج إلى نقاش، ولعلي أوفق إلى بيان بعضها والله أسأل للجميع التوفيق والسداد والصلاح.

الشورى وعلماء السلف

قلت أن منطق التجهيل والتفسيق، وإخراج المسلم من دائرة السلف لخلاف في الرأي أمر مرفوض، وقلت أن رمي المسلم لأخيه المسلم بالآيات التي نزلت بشأن اليهود أسلوب مستنكر وفتنة عظيمة ـ وكان قد مضى شيء من ذلك وقع فيه الأخ محمد سلامة جبر في رده على الأخ إبراهيم الصديقي.

وقلت أيضاً بأن قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] على ظاهرها من الوجوب في حق الرسول ﷺ وأجبت عن شبهات الأخ محمد سلامة ودعواه أنها ليست للوجوب لأن الرسول ﷺ ترك الشورى في أمهات المسائل ـ وحاشاه ذلك ﷺ وإذا كانت للوجوب في حقه ﷺ وهو من هو نظراً ورأياً ورجاحة عقل واستناداً إلى الوحي وتأييداً بروح القدس فكيف بمن بعده ﷺ؟.

واليوم أنا معك أخي القارىء لنناقش أمراً خطيراً آخر، ذلك هو دعوى الإجماع على ما ذهب إليه الأخ محمد سلامة، من أن الشورى ليست واجبة في حق الرسول ولا في حق الإمام المجتهد بل هي جائزة!! وادعى أن ذلك هو الإجماع الذي لا مخالف له ولا محيد عنه وأنه حكم الله وحكم رسوله وقول السلف قاطبة، وأن من لم يقل ذلك فقد خالف حكم الله ولم يرض به حيث قال بالنص:

«أقول هذا لأمر قررته، وحكم قضيته (هكذا!!) لم أقل فيه برأيي ـ وأعوذ بالله من القول بالرأي ـ ولا أفتيت باجتهادي فلست من أهل ذلك المقام، وإنما حكيت ما لا أعلم له مخالفاً من علمائنا الأعلام، ولا أعرف له راداً من أسلافنا الكرام» (البلاغ العدد ٢١٨ ـ ص٣٢).

واليوم أخي القارىء سأعفيك من رأيي وتعال ننظر ما قال السلف في هذه الآية

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

قال أبو حيان في البحر المحيط عن ابن عطية قوله: «الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب هذا مما لا خلاف فيه» أ. هـ (البحر ج٣ ص٩٩).

ونقل هذا القول أيضاً الشوكاني في فتح القدير (ج١ ص٣٦٠).

أرأيت قوله أن الشورى من قواعد الشريعة أتكون القاعدة أمراً جائزاً أو أمراً مستحباً؟ ثم أرأيت قوله بأنه إذا ثبت أن الإمام لا يستشير أهل العلم والدين وجب عزله!! ثم أرأيت قوله بأن هذا مما لا خلاف فيه!.

عجباً أرأيت هذه الدعوى لابن عطية التي ينقلها عنه من سلف ويثبتونها في كتبهم والتي يقول فيها ابن عطية ـ وقوله حق ـ إن السلف قاطبة على هذا هي العلم الموافق للنص أو ما ذهب إليه الأستاذ محمد سلامة، من أن الشورى أمر جائز وحالة استثنائية ولا تجب إلا على إمام مقلد. وهل يجوز أن يكون هناك إمام مقلد!!؟.

ـ لهذا كلام مستقل يأتي إن شاء الله ـ.

قال الفخر الرازي في تفسيره ج٣ ص٨٣.

«ظاهر الأمر للوجوب فقوله وشاورهم في الأمر يقتضي الوجوب».

وهذا نص لا يحتاج إلى تعليق. ثم انظر معي كيف يرد الفخر الرازي قول من يقول بأن الأمر هنا للاستحباب:ـ

«وحمل ذلك الشافعي على الندب فقال هذا كقوله عليه السلام البكر تستأمر في نفسها ولو أكرهها الأب على النكاح جاز لكن الأولى ذلك تطييباً لنفسها فكذا هنا».

قال الفخر الرازي قبل ذلك:ـ «والتحقيق في القول أنه تعالى أمر أولي الأبصار بالاعتبار فقال فاعتبروا يا أولي الأبصار وكان عليه السلام سيد أولي الأبصار، ومدح المستنبطين فقال سبحانه:ـ

﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٣]، وكان ﷺ أكثر الناس

عقلاً وذكاء وهذا يدل على أنه كان مأموراً بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه وحي، والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة فلهذا كان مأموراً بالمشاورة، وقد شاورهم يوم بدر في الأسارى وهو من أمور الدين. . »، ثم انظر بعد ذلك كيف يعيب الرازي من يخصصون النص بالقياس فيقول بعد النص السالف مباشرة :ـ

«والدليل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس أن النص كان لعامة الملائكة في سجود آدم ثم ان إبليس خص نفسه بالقياس وهو قوله خلقتني من نار وخلقته من طين فصار ملعوناً فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزاً لما استحق اللعن بهذا السبب».

هذه بعض آراء السلف واضحة صريحة وهذا حجاجهم فيما ذهبوا إليه. ولكن العجب أن الأستاذ محمد سلامة قد رد الوجوب في الآية بما لا أظن أن أحداً من السلف قاله فقد قال بأن الرسول ﷺ قد ترك الشورى في أمهات المسائل وقد أجبت عن هذا في المقال السابق، وحيث قلت أنني سأعفي القارىء من رأيي في هذا المقال فإني سأستشهد في هذا الأمر بسيد من سادات السلف حفظ مسند الإمام أحمد وهو خمسة وثلاثين ألف حديث وكتب خير سيرة للرسول والخلفاء ودول الإسلام وكتب خير التفاسير ذلكم هو ابن كثير رحمه الله قال في كتابه التفسير ج٢ ص١٤٢: «﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه. كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير. . وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل، . . .

وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، . . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين. فقال له الصديق إنا لم نجيء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال، وقال في حديث الإفك [أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء!! وأبنوهم بمن؟ والله ما علمت عليه إلا خيراً]، واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها، فكان يشاورهم في الحروب ونحوها».

انتهى منه بلفظه مع حذف بعض الفقرات الزائدة عن مواضع الاستشهاد لأنها استطراد لما حدث بعد الشورى.

أرأيت أخي القارىء ـ بعد هذا كيف أن دعوى ترك الرسول للشورى في أمهات المسائل دعوى بلا برهان. فالعجب بعد ذلك من أن الأخ محمد سلامة قال:ـ «حكيت ما لم أعلم له مخالفاً. . وأعوذ بالله من القول بالرأي» سبحان الله إذا لم يكن هذا رأي فأين الرأي إذن؟!!.

وإذا كان الرسول تاركاً للشورى في أمهات المسائل فلماذا يفعلها في أموره الخاصة والمحرجة أيضاً!!.

والأمر الخطير كل الخطر فيما ذكره الأخ محمد سلامة هو ادعاؤه الإجماع على كل ما قاله وهذا يعني أن كل قول مخالف إنما هو خروج عن سبيل المؤمنين لذلك قال ما قال في شأن الأخ إبراهيم الصديقي وقد علمت ـ أخي القارىء ـ من صدر المقال أن وجوب الشورى هو الذي كان عليه عامة السلف قبل ابن عطية ولذلك قال: «هذا مما لا خلاف فيه» فكيف يدعي الأخ الكاتب الإجماع على أن الشورى غير واجبة. هذا أمر خطير جداً!!.

واعلم أخي القارى، أن الخلاف في الآية فقط إنما هو هل الشورى تلزم الرسول أم لا؟.

ولذلك قال ابن كثير رحمه الله:ـ «وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجباً عليه أو من باب الندب تطييباً لقلوبهم» على قولين.

إذن الخلاف هو في شأن الرسول وليس في شأن الأئمة بعده. وأما رأي الشافعي رحمه الله فقد علمت رد الفخر الرازي له واعلم أيضاً أن الشافعي قاس أمر الشورى على مشاورة البكر في الزواج وهو يراها غير واجبة بل للأب أن يزوج ابنته بغير رضاها وهذا أيضاً خلاف للحديث فالأمر المقيس له باطل أيضاً بل يجب على الأب استئذان ابنته البكر في الزواج كما دلت على ذلك النصوص وليس هنا مجال تفصيل هذا الأمر.

لا غنى لولي الأمر عن المشاورة:

وأما الإمام ابن تيمية رحمه الله وهو من هو منزلة في علماء السلف فإنه يقول:ـ «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ» أ. هـ.

انظر قوله «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة» لتعلم أنه يقول بوجوبها لأن ما لا غنى لك عنه فهو واجب وما يجوز أن تستغني عنه فليس بواجب وقد اعتمد رحمه الله على الوجوب بالآية النازلة في حق الرسول ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] (انظر السياسة الشرعية ص١٣٥).

ثم استدل على ذلك أيضاً بحديث أبي هريرة أنه ﷺ كان أكثر الناس مشورة لأصحابه. ثم روى القول الثاني في تفسير الآية وهو أن الله قد أمر بالشورى نبيه لتأليف قلوب أصحابه ورواها بصيغة التضعيف (وقد قيل) ثم قال بعد ذلك (فغيره ﷺ أولى بالمشاورة) أي إذا كان الله قد أمر بذلك نبيه ﷺ فغيره أولى لأن الرسول ﷺ مؤيد بالوحي. فهل يجوز بعد أن يقول أحد ليست الشورى لازمة ولا ملزمة ولا مخالف لذلك من علماء السلف!!؟.

وأما شيخ أهل التفسير كلهم ابن جرير رحمه الله فيقول في تفسيره عند أية الشورى بعد أن ذكر أقوال الناس فيها:

«وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حزمه من أمر عدوه ومكايد حربه تألفاً منه بذلك من لم يكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه فتنة الشيطان، وتعريفاً منه أمته ما في الأمور التي تحزبهم من بعده، ومطلبها.

ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم فيتشاوروا فيما بينهم كما كانوا يرونه في حياته ﷺ بفعله..

وهذا نص صريح أيضاً من الطبري رحمه الله فهو وإن كان يرى أن الله قد أغنى نبيه عن آراء الناس إلا أن ذلك كان تأليفاً لأصحابه حتى لا يظنوا أنه يستأثر بالأمر دونهم، وليكون هذا سنة مثبتة في أمته من بعده فيقتدوا به ﷺ، ولا يمكن أن يكون أمر

الشورى سنة مثبتة إلا إذا كان الأمر بها لازماً.

لست أرى بعد عرض كل هذه الأقوال لعلماء السلف رضوان الله عليهم إلا التحذير من أن يتكلم إنسان ما باسمهم وهو لم يطلع على أقوالهم.

ثم إنني أذكر بأننا أمة وصلنا الحضيض الآن لعوامل كثيرة كان من أهمها استئثار بعض حكامها بالأمر دونهم فأي سند شرعي للظلم والاستبداد أبلغ من أن يقال لا يجب على ولي الأمر المجتهد أن يستشير بل له أن يبت برأيه فيما ينزل بأمته من نوازل!!.

ثم إنني لست أدري كيف نسمي ولي الأمر هذا الذي لا يستشير مجتهداً والشورى لازمة من لوازم الاجتهاد، وهل يستطيع إمام ما أن يصل إلى اجتهاد صحيح في نازلة من النوازل دون استشارة أهل الرأي والخبرة والتجربة؟!.

هذا ما لا أظن عاقلاً يخالف فيه.

فالقول بأن الإمام المجتهد له أن ينفرد برأيه دون مشورة ويحكم في الناس بما أداه إليه اجتهاده ظاهر السقوط واضح البطلان. لأن الشورى من لوازم الاجتهاد.

الشورى وعلماء الإسلام المعاصرون

في المقال السابق ـ الشورى وعلماء السلف ـ أوقفتك أخي القارىء ـ على ما كتبه طائفة من خيار السلف في أمر الشورى وأنها لازمة للإمام وأن من لم يستنصح أهل الرأي والدين من أولي الأمر فعزله واجب وقد قرأت نص ابن عطية في ذلك وكذا الرازي وابن كثير وابن تيمية رحمهم الله ورضي عنهم جميعاً، وأن عامة السلف على ذلك إلا ما كان من رأي الإمام الشافعي رحمه الله وقد علمت رد الفخر الرازي عليه وأنه ـ أعني الشافعي ـ احتج بالقياس وقال الرازي لا قياس مع النص.

وقد يظن بعض الناس أن أمر الشورى قد تبدل عند علماء الإسلام المعاصرين وأنه قد جد جديد في فهم الناس للشورى ولذلك أحببت أن أطلعك اليوم على بعض ما كتبه علماء العصر من علمائنا الأفاضل عن وجوب مشاورة الحكام لأهل الرأي وعن لزوم مبدأ الشورى.

وقد توسعت قليلاً في مدلول العصر فنقلت لك نقولاً عن بعض من لقوا ربهم جل وعلا وعن بعض المعاصرين منهم.

* نقل الأستاذ رشيد رضا رحمه الله عن الشيخ محمد عبده قوله في الشورى ـ وشاورهم في الأمر ـ العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية أي دُم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة ـ غزوة أحد ـ وإن أخطئوا الرأي فيها فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل، دون العمل برأي الرئيس وإن كان صواباً لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم ـ المشاورة ـ فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر» أ. هـ.

وفي هذا النص فوائد عظيمة كثيرة: منها أن المشاورة وإن تحقق منها ضرر في غزوة أحد إلا أن هذا الضرر يسير إذا قورن بالفوائد من إقرار نظام الشورى والأخذ به لأن الاستبداد بالرأي مستقبلاً ضرره عظيم وبهذا ترى أن رأي الشيخ رشيد ومحمد عبده أن الشورى واجبة على الرسول ﷺ بأمر الله في أمور الحرب ونحوها ليكون هذا تشريعاً للأمة بعده.

وبعد ذلك كتب الشيخ رشيد رضا كلاماً عظيماً في الشورى وطرق تطبيقها في العصر النبوي والخلافة الراشدة وكذلك الدولة الأموية ثم العباسية وكيف انحرف فيهما تطبيق هذا النظام حيث كان من جرائها ما يقول عنه بالنص:

«ثم رسخت السلطة الشخصية في زمن العباسيين لما كان للأعاجم من السلطان في ملكهم وجرى سائر ملوك المسلمين على ذلك، وجاراهم علماء الدين بعدما كان لعلماء السلف الصالح من الإنكار الشديد على الملوك والأمراء في زمن بني أمية، وأوائل زمن العباسيين فظن البعيد عن المسلمين، وكذا الغريب منهم أن السلطة في الإسلام استبدادية شخصية وأن الشورى محمدة اختيارية، فيالله العجب: أيصرح كتاب الله بأن الأمر شورى فيجعل ذلك ثابتاً مقرراً، ويأمر نبيه ـ المعصوم من اتباع الهوى في سياسته وحكمه ـ ويأمره بأن يستشير حتى بعد أن كان ما كان من خطأ من غلب رأيهم في الشورى يوم أحد، ـ ثم يترك المسلمون الشورى لا يطالبون بها، وهم المخاطبون في القرآن بالأمور العامة كما تقدم بيانه مراراً كثيرة؟! هذا وقد بلغ ملوكهم من الظلم والاستبداد مبلغاً صاروا فيه عاراً على الإسلام إلا من يتبرأ منهم ويبذل جهده في راحة العالم من شرهم». انتهى (المنار ج٤ ص٢٠٥).

وهذا الكلام من الوضوح والقوة والبرهان بحيث لا يحتاج مني إلى تعليق إلا أن أتعجب من كلام الأخ محمد سلامة جبر الذي زعم أن آية الأمر بالشورى ليست للوجوب ولا مخالف لذلك من العلماء الأعلام!! وأقول إذا لم يكن رشيد رضا علم من أعلام علماء السلف في عصرنا فليس هناك من علم أبداً!.

الشهيد عبدالقادر عودة رحمه الله يقول في كتابه التشريع الجنائي ص٣٧:

«جاءت الشريعة الإسلامية مقررة لمبدأ الشورى في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] و ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] ولم يكن تقرير النظرية نتيجة لحال الجماعة فقد كان العرب في أدنى درجات الجهل وفي غاية التأخر والانحطاط وإنما قررت الشريعة النظرية لأنها قبل كل شيء من مستلزمات الشريعة الكاملة الدائمة المستعصية على التبديل والتعديل ولأن تقرير النظرية يؤدي بذاته إلى رفع مستوى الجماعة وحملهم على التفكير في المسائل العامة والاهتمام بها والنظر إلى مستقبل الأمة نظرة جدية والاشتراك في الحكم بطريق غير مباشر. . والسيطرة على الحكام ومراقبتهم» أ. هـ.

فالأستاذ عبدالقادر عودة يرحمه الله يرى كعامة علماء السلف أن الشورى مبدأ والمبدأ لا يكون جائزاً بل لا بد أن يكون واجباً لازماً. وأن الشريعة قررته بالآيات السالفة، وأن هذا المبدأ من مستلزمات الشريعة الدائمة.

وقد جمع الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله بين قول الشيخ رشيد رضا وعبدالقادر عودة وقول علماء السلف القدامى وجاء كلامه عن الشورى متضمناً هذه المعاني جميعها وهذا يدل على سعة اطلاعه رحمه الله عند كتابة تفسيره وسأنقل لك ـ أخي القارئ ـ بعض الفقرات التي تدل على ذلك.

قال: «وبهذا النص الجازم ـ وشاورهم في الأمر ـ يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه». . ثم يقول أيضاً بعد ذلك. . «لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها ظاهرياً وقوع خلل في وحدة الصف المسلم». . ثم يستطرد مبيناً ما حدث من استشارة الرسول ﷺ أصحابه في الخروج أو البقاء واختلافهم وما رآه في النوم وأوله بأنه قتل في أصحابه واستشهاد أحد أفراد أهل بيته ثم يقول:ـ «وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى. . ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الأمة أكبر من الخسائر الوقتية». . ثم يستطرد قائلاً:

«ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة. أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف.. ولكن الإسلام كان ينشيء أمة ويربيها، ويعدها لقيادة البشرية، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشورى وأن تدرب على حمل التبعة وأن تخطىء مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة ـ لتعرف كيف تصحح خطأها وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها..

واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر في حياة الأمة ليس فيه شيء من الكسب لها إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية. إنها في هذه الحالة تتقي خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية. ولكنها تخسر نفسها وتخسر وجودها وتخسر تربيتها وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية كالطفل الذين يمنع من مزاولة المشي ـ مثلاً ـ لتوفير العثرات والخبطات أو توفير الحذاء ثم يستطرد رحمه الله مبيناً أن وجود القيادة الراشدة لا يمنع الشورى فيقول: «ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون ـ كمعركة أحد ـ. لكان وجود الرسول ﷺ ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى، وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها.. ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات:ـ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبت استعماله..» انتهى.

وبعد فهذا كلام رشيد يجلي لنا روح الوحي ويوقفنا على أسرار التنزيل وما أرى معه حجة لمكابر وذلك أن الأمر في الآية بهذه الظروف والملابسات التي أحاطت به يعني أنه أمر جازم لا جائز ـ جاء ليرسي في الأمة قاعدة من أهم القواعد التي يقوم عليها بناؤها السياسي والاجتماعي ألا وهي قاعدة الشورى..

وحتى لا أترك في نفس القارىء شيئاً من أن مبدأ الشورى مبدأ مقرر ثابت وليس شيئاً طارئاً جائزاً فإنني سأزيده بياناً واستدلالاً.

كتب الدكتور محمود بابللي كتاباً جيداً بعنوان ـ الشورى في الإسلام ـ وهذه فقرات منه «إن مبدأ الشورى لم يسبق أن اتخذته أمة إلزاماً لولي أمرها والتزاماً

للجماعة كما اتخذته الأمة الإسلامية بنص القرآن» . .

وأما الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة فقد كتب في هذا الموضوع يقول:

«يجب على ولاة الأمر أن يشجعوا القول المخالف، كما يريدون القول الموافق إذا لم يكن عماد الأمر الهوى المتبع فإنه لا يقتل الشورى والآراء القويمة إلا الرغبة في الموافقة والتململ من المخالفة فإن المخالف يأتي الحاكم بجديد من الفكر فيكون مرشداً، والموافق يأتيه بما عنده وما ليس بجديد عليه فهو يسمع منه صوتاً ويرجع إليه صداه» .

هذا كلام عظيم في الشورى إذ يوجب الأستاذ هنا على الحاكم تشجيع الرأي المخالف فكيف بإخراج الرأي الجديد والفكرة السديدة الغائبة التي هي غاية من غايات الشورى . لا شك أنها تكون أشد وجوباً ولزوماً ويقول أيضاً:

«عندما تكون الشورى مبدأ للأمة . حكامها وأفرادها فإن هذه الأمة تكون متوجهة للخير في جميع أمورها وتنعكس هذه النتيجة على أوضاعها تقدماً ورقياً» . .

ومن الكلام الجيد في هذا الصدد أيضاً قول محمود بابللي أن عرض كل أمور الأمة على الشورى من واجبات الحاكم وليست حقاً له لقوله تعالى: ـ وشاورهم في الأمر ـ فالنص يوجب على الحاكم أن يستشير في كل أمر للأمة صغر هذا الأمر أو كبر . .

ومعنى أنه واجب على الحاكم أن للأمة أن تطالبه بتنفيذه إذا قصر فيه، أما إذا كانت الشورى حقاً له فعند ذلك يجوز أن يتنازل عن هذا الحق ولا يكون للأمة المطالبة به لأنه من حقه هو، وهذا كلام جيد موفق في هذا الصدد . .

وقد وقفت أيضاً على كلام حسن يشبه ما نقلته لك سابقاً من قول عند الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه التفسير الحديث للقرآن الكريم يقول:

«وروح الآية ومضمونها يوجبان على الرئيس والزعيم والحاكم الاستشارة في كل أمر وعزيمة» (ص١٧٣ ج٨)، وقال أيضاً: «أكد القرآن هذا المبدأ بأسلوب الإيجاب والتنفيذ»(المصدر السابق) .

وقد وقفت على عبارة جليلة للأخ عبدالله العقيل ـ وهو رجل له مكانته وعلمه ـ يقول فيها:

«الشورى حق للرعية، واجبة على ولي الأمر وهذا لا يختلف فيه إثنان، ولا تنتطح فيه عنزان. . ـ المجتمع العدد ٤٣ ـ ولكن ها نحن نجد من يخالف في الأمور الثابتة المقررة!!.

وبعد ـ أخي القارئ ـ لقد أتعبت نفسي أن أجد موافقاً للأخ محمد سلامة من كتاب الإسلام المعاصرين في أن الشورى أمر جائز وأنها حق للإمام إن شاء فعلها وإن شاء تركها فلم أجد وأما بين السلف القدامى فليس إلا رأي الإمام الشافعي وقد قرأت رد الفخر الرازي عليه وكان في منتهى القوة والوضوح وكذلك رد الإمام ابن كثير رحمه الله وكان في منتهى الأدب واللطف ومرة ثانية أيجوز أن يقول كاتب في الإسلام بعد ذلك أن الشورى أمر جائز وهي من حقوق الإمام ثم يقول ـ «حكيت ما لم أعلم له مخالفاً من سلفنا الكرام وعلمائنا الأعلام!!».

وأقول لقد ابتلينا في عصرنا بالاستبداد والتسلط وإبرام الأمور في غيبة الأمة فهل يكون من الإنصاف والعدل أن نحطم قاعدة الشورى في هذا الوقت ونحن أحوج ما نكون إليها وآسف إن قلت ـ نحطم ـ فلن يستطيع أحد تبديل كلام الله تبارك وتعالى ولكن يستطيع إلقاء الشبه عليه. . ولكن يبقى دين الله تبارك وتعالى بعد ذلك نقياً صافياً لأن الزبد مهما علا لا بد أن يذهب وتبقى صفحة الماء نقية صافية. .

وسامح الله الأخ الكريم ورده إلى الحق والصواب ويبدو أنه لا بد لي معك ـ أخي القارىء ـ من جولة في هذا الموضوع تعطيك صورة واضحة جلية عن ميدانه وتطبيقاته وثمرته وأسأل الله في هذا العون والسداد والتوفيق وإلى مقال آخر إن شاء الله تعالى.

رسول الله ﷺ والعمل بالشورى

في المقالين السابقين سقت لكم طائفة من أقوال السلف كابن عطية وابن تيمية والفخر الرازي وابن كثير وكلها تثبت وجوب الشورى على الإمام. وكذلك نقلت لك نقولاً كثيرة طيبة من أقوال علمائنا الأفاضل المعاصرين كمحمد عبده، ورشيد رضا، وعبدالقادر عودة، وأبي زهرة، وسيد قطب، ومحمد عزة دروزة، ومحمود بابللي، وعبدالله العقيل.

وأظن أنك قد وصلت إلى يقين ثابت بأن الشورى مبدأ واجب على الإمام وليس أمراً مستحباً ولا جائزاً، وهذا ما كان عليه سلف الأمة وما عليه العلماء الكرام في عصرنا الحاضر.

وكان المفروض أن يأتيك هذين المقالين قبل أن يصلك رد الأخ محمد سلامة جبر على مقالي الأول الذي كان فاتحة أردت بها تمهيد الطريق، ووضع الأسس للمناقشة التي يراد بها وجه الله تعالى، ولكن شاءت إرادة الله أن يكون ما كان.

ولقد قرأت مقال الأخ محمد سلامة على مقالي الأول فأيقنت أن الطريق الوعر ما زال موجوداً، وأن القضية التي طرحتها في المقال الأول ما زالت قائمة: ألا وهي قضية الرمي بالجهل والفسق والكفر أيضاً بين المسلمين لخلاف الرأي. وهذه القضية أعتبرها أخطر من مناقشة موضوع الشورى.

ورأيت أيضاً أننا سنبتعد كثيراً عن موضوعنا الأساسي وذلك بالدخول في مسائل شخصية، وقضايا فرعية ليست من صلب الموضوع، ووجدتني مضطراً أحياناً ـ إن واصلت المناقشة ـ أن أورد الأدلة لأثبت المسلمات والبديهيات والأمور الواضحة الجلية التي لا تخفى على طالب العلم.

فرفعت سماعة المسرة (التلفون)، واتصلت بالأخ جمال النهري (كان رئيس التحرير في مجلة البلاغ في ذلك الوقت) وقلت له: إن الطريق وعر! ولكي أرد على مقال الأخ محمد سلامة فإنني سأحتاج إلى عدة مقالات. فقال: ناقش الموضوع الرئيسي الشورى واترك الموضوعات الفرعية. قلت: كيف أناقش الموضوع الرئيسي وقد أصبحت متهماً لدى القراء بأنني أفضل من دون الرسول ﷺ عليه في الدعاء والذكر! قال بين هذا الأمر. قلت هناك أمثلة كثيرة وأخطر من هذا فلقد اتهمت أيضاً من الأخ محمد سلامة بأنني غير راض بحكم الله سبحانه وتعالى وأنني أكاد أن أصرح بهذا وكاد المريب أن يقول خذوني! فقال: ألا تستطيعون يا معشر الإسلاميين أن تلتزموا آداب البحث والمناظرة لتعلموا الناس طريق الحق. قلت: أتمنى ذلك ولكن ما موقفك إن وضعت العقبات في طريقك. قال: فلنعمل على إزالتها. قلت: سيكلفنا هذا وقتاً طويلاً، وسنشد القراء معنا إلى متاهات فرعية قد تشغلهم عن الموضوع الرئيسي وكنت أتمنى أن نفرغ جهدنا في الموضوع ذاته. قال: هذا هو الواقع، ولا يكفي أن تقرر الحق من فوق منبرك بل يجب أن تنزل به إلى واقع الناس، وتناقشهم وتجادلهم بما معك وتتحمل في ذلك عقبات الطريق! قلت: غلبتني وما لكلامك الآن مدفع وأستعين الله في الأمر كله.

أستميح القارىء عذراً إن بدأت ببيان المسائل الشخصية. والقضايا الفرعية التي أثيرت في مقال الأخ محمد سلامة ثم ندخل بعد ذلك إلى موضوع الشورى.

قال الأخ محمد سلامة: «لا يحل لك يا أخي أن تذكر قول رسول الله ثم تقول (هكذا)! (ﷺ). . وعوضك على الله في قليل من الخير والجهد. . وليس من الأدب مع سيد البشر أن نبخل عليه بالصلاة والسلام كلما ذكر اسمه. . بينما حين ذكرت عائشة قلت رضي الله عنها. . وحين ذكرت ابن تيمية قلت رحمه الله. . أما أن تفضل من دون الرسول ﷺ في الدعاء له، والثناء عليه فأمر مستنكر لا يجوز».

وأقول: يا أخي لقد كنت متبعاً في ذلك إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله. كما نقل ذلك عنه الإمام السيوطي في تدريب الراوي. وانظر أيضاً الباعث الحثيث لابن كثير رحمه الله وتعليق العلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فهل تنكر هذا على إمام أهل السنة أحمد بن حنبل أيضاً؟! واعلم أنني أقول الصلاة في نفسي عند

كتابة ﷺ وإذا قرأت لا أقرأ ﷺ وإنما أقول ﷺ وهذا صنيع طائفة عظيمة من أهل السنة. وانظر أيضاً قول ابن حجر في فتح الباري عند شرحه لحديث البخاري الأول (إنما الأعمال بالنيات) وانظر كذلك تفسير المنار للشيخ رشيد رضا وكيف يكتب بعد ذكر النبي ﷺ.

وهبني فعلت هذا غير متبع لإمام هل يعني هذا أني أفضل عائشة رضي الله عنها، وابن تيمية على رسول الله؟! ولو فعل إنسان هذا لكان كافراً. فهل تظن بي ذلك؟!.

* قلت في مقالي الأول: لا يجوز أن تقول يا أخ محمد لمن خالفك الرأي في فهم نص من القرآن أو السنة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥] لأنني لم أطلب منك التحاكم إلى هواي ونفسي. ولا إلى التوراة أو الإنجيل وإنما قلت كما قال سلف الأمة وعلماؤها جميعاً ـ إلا من شذ ـ أن قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] تقتضي الوجوب ولا صارف لهذا الوجوب. وقلت أنت بل هي للندب وزعمت أن الرسول ترك الشورى في أمهات المسائل!.

وأكدت قولك هذا بأن سلف الأمة جميعهم على رأيك وقولك. وإنك لم تطلع أبداً على مخالف لرأيك. وكل منا يقيم الحجة على قوله. وكلنا يزعم التحاكم إلى الكتاب والسنة. وأقوال السلف. فلماذا تقول لي: لست بمؤمن إذا لم تذعن لأمر الله! وهل دعوتك إلى الإذعان لأمره، والتمسك بكتابه. قال الأستاذ محمد سلامة: أنت مريب وكاد المريب أن يقول خذوني! فهل شققت عن قلبي فرأيت فيه الريبة؟! أم فهمت هذا من قولي؟ أرجو أن تنقل من قولي ما تثبت به عقيدتك أو ظنك؟! وليكن هذا نصاً ليحكم القراء.

* قلت للأخ محمد سلامة: لا ترم أخاك بآية نزلت في شأن اليهود: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ..﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧١] قال: ألا تعرف أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟ أم أنك تجهل ذلك؟! ثم رتب على سؤاله هذا أنني أجهل هذه القاعدة. فقال: «ألا فاعلم علمني الله وإياك».

قلت: والله إني لأعلم القاعدة قبل أن أقرأ مقالتك، ولكن تعال معي: هل تبيح

لك هذه القاعدة أن تدخل الأخ المسلم الذي خالفك الرأي في عمومها؟ تعال نتدارس السبب والعموم: عموم الحكم في الآية الصم والعمى الذي أصيب به اليهود عقاباً لهم من الله، وسبب ذلك ما ذكره الله قبل هذه الآية: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۞ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ . . ﴾ الآية [سورة المائدة، الآيتان: ٧٠، ٧١].

فالسبب إذن تكذيبهم للرسل وقتلهم لهم، وحسبانهم أن الله لا يعاقبهم على ذلك!.

فهل كذب أخوك الرسول؟! وهل تآمر على قتله؟! لو فعل هذا أو قريباً منه لاستحق أن يدخل في عموم الآية ولكنه خالفك الرأي فقط!.

* كنت عندما قرأت المقالات الأولى في الشورى للأخ محمد سلامة أصبت بدوار وألم ـ علم الله ـ وما ذلك إلا لكراهيتي أن أسمع سب المسلم للمسلم وتكفيره له. والسبب في ذلك أنني أرى أن هذا من جملة التمزيق والضياع الذي تعيش فيه أمتنا. وقلت في مقالي الأول (إلى متى نتجرع هذه الآلام. ونعيش في هذا الضياع؟!) ولكن الأخ محمد سلامة سخر من آلامي وحمد الله أن عافاه منها فقال بالنص: «وقرأت الرد.. وأسفت.. ولكن لم أصب بدوار والحمد لله كالذي أصاب عبدالرحمن كما قال عافاه الله».

وأقول الآن: يا أخ محمد سلامة إنني أحتسب آلامي هذه عند الله وأرجو ثوابها عنده فهل تنكر علي أن أعيش بآلام أمتي، وأن أحيا بآمالها إنني أعتقد أن هذا من فضل الله علي ورحمته لي أن جعلني أشعر هذا الشعور وأحيا هذه الحياة. فابتسام المسلم في وجه أخيه المسلم يحييني ويبهجني ويفرحني، وسب المسلم لأخيه المسلم يؤلمني ويؤرقني. فإن كنت ترى هذه عافية لك وتحمد الله عليها. فلا ألومك لأنها نعمة حرمتها! ولأنني أحب لك ما أحب لنفسي أقول: أذاقك الله شيئاً مما أذوق، وعوضك عنه خيراً في الدنيا والآخرة.

* كان عنوان رد الأخ محمد سلامة على مقالي الأول على هذا النحو: «إني أراك وأرى نفسي، والصديقي من الجهال إذا قسنا أنفسنا بفقهاء الصحابة».

وأقول أنا لم أقس نفسي بفقهاء الصحابة لا بالنص ولا بالمفهوم فلماذا يتهمني

الأخ محمد بشيء ثم يرتب عليه حكماً من عنده؟ فإن كنت قلت شيئاً من هذا فليذكره الأخ محمد للقراء بالنص. وإن كان قد فهم هذا من كلامي، فليذكر الكلام الذي فهم منه هذا الفهم ليعرف القراء ويحكموا على فهمه بالصحة أو البطلان.

وأظن أنه لا يجوز أن أقول لإنسان ما: أنت كافر إذا سببت الله! والحال أنه لم يسبه، ولا هو في موضع التعليم، فكذلك لا يجوز أن يقال لي: أنت جاهل إن فعلت كذا وأنا لم أفعل وأنت فاسق إن فعلت كذا وأنا لم أفعل إلا إن كان المتكلم يريد أن يعلمني حكماً جديداً. فهل يقصد الأخ محمد أن يعلمني هذا الحكم الجديد! أم أنني جعلت نفسي فعلاً كفقهاء الصحابة؟!.

أخي القارى، هذه بعض القضايا الشخصية والأمور الفرعية الخارجة عن موضوع النقاش والبحث، وقد ضربت صفحاً عن قضايا أخرى كثيرة بعضها أكثر نكارة من بعض ما ذكر آنفاً. وأعتذر إليك من الإطالة ولندخل الآن إلى موضوع الشورى، وحتى لا نتيه في خضم التفصيلات سأحدد معك أصل الموضوع، ومجرى النقاش فيه ومحل الخلاف منه، لتكون على معرفة تامة بأبعاده.

* **أصل الموضوع:**

أصل الموضوع: هل يجب على الإمام أن يستشير الناس فيما يعرض له من شؤون المسلمين أم له أن يحكم باجتهاده ورأيه دون الرجوع إليهم. قال الأخ محمد سلامة: لا يجب عليه بل يجوز أو يحسن إذا كان مجتهداً. وقال عامة السلف كما نقلنا لك أقوالهم: بل يجب عليه، ولا يجوز له أن يقطع في أمر من أمورهم دون الرجوع إليهم لأن الشورى واجبة عليه وليست حقاً له. قال محمد سلامة: ليس هناك دليل على الوجوب. قلنا له: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] دليل على الوجوب فهي أمر للرسول ﷺ فغيره أولى. قال: ليست واجبة على الرسول لأن الرسول ترك الشورى في أمهات المسائل فقد تركها في غزوة بني قريظة وفي صلح الحديبية، ومصالحة غطفان، وفي غزوة تبوك. ثم قال أيضاً والذين قالوا بأن هذه الآية للوجوب قد قالوا قولاً منكراً لم يقل به أحد من سلف الأمة وعلمائها الأعلام.

* قلت: بل سلف الأمة وتابعوهم بإحسان جميعاً ـ إلا من شذ ـ على وجوب الشورى على الإمام. قال: دلوني على رجل واحد جزاكم الله خيراً قلت: هاك من أقوال القدامى: ابن عطية، وابن تيمية، وابن كثير، والفخر الرازي، وكل أولئك نقلنا لك كلامهم بالنص مع أرقام صفحاتهم. ومن المحدثين محمد عبده، ورشيد رضا، وعبدالقادر عودة، وسيد قطب، وأبي زهرة، ومحمود بابللي، ومحمد عزة دروزة، وعبدالله العقيل. وقد نقلنا لك أيضاً نص كلامهم لا معناه.

قال محمد سلامة: فقد ترك الرسول الشورى في أمهات المسائل: قلت: رسولنا ﷺ وبأبي هو وأمي ما كان ليخالف أمر ربه سبحانه وتعالى سواء كان أمراً واجباً أم أمراً مستحباً، فهبني قلت معك أن الأمر في الآية للاستحباب بالنسبة للرسول ﷺ فهل تظن أن الرسول ﷺ يترك أمر الاستحباب؟! وهو قدوة الأمة وأسوتها؟! والسباق دائماً إلى امتثال أمر الله تبارك وتعالى؟! وإذا كنت يا أخ محمد ترمي بالجهل والكفر من أحدث قولاً جديداً لم يقل به سلف الأمة.

فهل تستطيع أن تدلنا على قائل من السلف قال هذه المقالة (ترك الرسول الشورى في أمهات المسائل).

وسأتساهل معك هل تستطيع أن تنقله عن أحد من الخلف بل هل تستطيع أن تنقله عن أحد من المستشرقين لا المنصفين منهم بل والمتعصبين أيضاً؟! إن استطعت أن تدلنا على نص كهذا. . وإن لم تستطع فأرجو أن تحكم على نفسك!.

وأعلم أن مقالتك هذه في حق الرسول ﷺ تدمي قلب كل رجل مسلم. فهي اتهام للرسول بأنه كان يخالف أمر ربه تبارك وتعالى. وحاشاه ﷺ أن يترك امتثال أمر واجب أو أمر مستحب لأنه هو القائل: [إن أعلمكم بالله، وأتقاكم لله أنا] (رواه البخاري) ثم قال الأخ محمد سلامة: ألم يترك الرسول المشورة في الأمور السابقة؟.

قلت: كلا بل كان مأموراً من ربه جل وعلا وما كان الرسول مأموراً فيه. فلا يدخل في مجال الشورى. أما في غزوة بني قريظة فقد أتاه الأمر الصريح الواضح من جبريل: [إن ربك يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة!] قال محمد سلامة: إن صح الحديث قلت به وعلى العين والرأس قلت: يا أخ محمد سلامة أحسنت إذ تقبل

الحديث وتضعه على العين والرأس وهذا شأن المؤمن، ولكن العلماء، لا يقولون هذه العبارة: (إن صح الحديث قلت به) إلا فيما خبروا سنده ورأوه غير صحيح عندهم وظنوا أنه ربما كانت له طريق أخرى صحيحة وهذا الحديث ليس شأنه هكذا فلو أنك أتعبت نفسك قليلاً وفتحت صحيح البخاري أو مسلم أو مسند الإمام أحمد أو شيئاً من كتب السيرة والتاريخ لوقفت على عدد من الأحاديث في هذا الصدد بهذا النص وبهذا المعنى أيضاً وسأسوق لك بعضها:

١ـ روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه. فاخرج إليهم! قال: فإلى أين؟! قال: ها هنا وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ.

٢ـ روى البخاري أيضاً بإسناده عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة.

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح إلى عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل، وجاء جبريل فرأيته من خلل البيت. وقد عصب رأسه الغبار. فقال: يا محمد! قد وضعتم أسلحتكم؟ فقال: وضعنا أسلحتنا! فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد. إنهض إلى بني قريظة!.

وروى البيهقي بإسناده أيضاً عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان عندها. قالت: فسلم علينا رجل ونحن في البيت فقام رسول الله ﷺ فزعاً، وقمت في إثره فإذا بدحية الكلبي فقال: هذا جبريل أمرني أن أذهب إلى بني قريظة!.. الحديث.. وانظر أيضاً سيرة ابن هشام ففيها هذا الحديث بإسناد الزهري الصحيح.

وقال الأخ محمد سلامة في مقال الرد بعد إيراده لحديث جبريل الذي ذكرته به:ـ

«إن صح الحديث.. أسلم به.. ولكن سقوط دليل أو أكثر من عديد الأدلة التي أوردتها لا يكفي لسقوط المدلول» قلت: ولكن تذكر أن هذه كانت من الأمهات التي زعمت أن الرسول ﷺ خالف فيها أمر الشورى.

وأما صلح الحديبية يا صاحبي فلم يكن إلا بأمر الله عز وجل يدلك على ذلك أن ناقة الرسول بركت قبل مكة وفسر الصحابة بروكها بقولهم (خلأت الناقة) فأجابهم الرسول [ما خلأت ولا هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة] وهل كان حابس الفيل إلا أمر الله للفيل (محمود) مقدم لجيش أبرهة بأن لا يخطو خطوة واحدة عندما وصل وادي محسر. وأليس في هذه إشارة صريحة من الله للرسول ﷺ بعدم تعدي هذا المكان والقبول بما يعرضه العدو. وجاء المشركون يريدون الحرب واستفزوا الرسول ﷺ فمال عن طريقهم وأرسل الهدي في وجوههم ثم رغبت قريش في الصلح فأذعن رسول الله ﷺ وأملوا عليه شروطهم القاسية فوافق رسول الله ﷺ ولم يستشر الصحابة بالطبع على هذه لأنه كان مأموراً من الله أن يقبل ولقائل أن يقول وما دليلك على أنه مأمور. قلت أتريدون أصرح من قول الرسول ﷺ عن نفسه! استمعوا له يقول لعمر رضي الله عنه وقد اعترض عليه:

[أنا عبدالله، ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني].

أتريدون أصرح من هذا! ليس عندي أصرح من هذا إلا قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [سورة الفتح، الآية: ١] وهذا الفتح هو صلح الحديبية. وقد أقسم الرسول لعمر أنه فتح لما قرأ عليه ﷺ هذه السورة عند عودته من غزوة الحديبية. فالله يقول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ. .﴾ [سورة الفتح، الآية: ١] فهو الذي فعل سبحانه وتعالى وليس هذا الأمر مما يحتاج إلى مشورة.

قال محمد سلامة: أما قوله ﷺ: [أنه ربي ولن يضيعني] فلم يفهم منه أنه وحي، وإلا لما استمر عمر في عناده مثقال ذرة!.

قلت: أتريد مني أن أجيب لك عن عمر؟! كلا لن أجيب عنه، ولكن سأقدمه هو رضوان الله عليه ليجيب عن نفسه.

اسمع إلى الزهري إمام أهل السنة وحافظتهم في عصره يقول: «. . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر الصديق فقال يا أبا بكر أليس برسول الله؟! قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟! قال: بلى. قال:

أو ليسوا بالمشركين؟! قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية من ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه!! فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله! ثم أتى رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية من ديننا؟! قال: [أنا عبدالله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني!!] وكان عمر يقول: «ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ» انتهى بالنص هل تريد جواباً أشفى من هذا واعتذاراً أبلغ من هذا من فم عمر نفسه رضي الله عنه وأرضاه. اسمع أيضاً قول الصحابي الجليل سهل بن حنيف يحذر من الرأي في مواجهة النص فيقول:

«أيها الناس اتهموا الرأي في الدين فلقد كدت أن أرد على رسول الله أمره يوم حادثة أبي جندل!» (البخاري كتاب الاعتصام ص٧٥ ج٩) وهل هذا اليوم إلا يوم الحديبية؟ وهل أبو جندل إلا ابن سهيل بن عمرو الذي عقد صلح الحديبية مع الرسول وهل أمر الرسول إلا رسالته وهي التي كان الصحابي الجليل سهل بن حنيف سيروها لولا لطف الله به وتثبيته إياه.

والآن بقي دليل واحد مما استدل به الأخ محمد سلامة على أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد ترك الشورى في أمهات المسائل ـ وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو أنه غزا تبوك دون استشارة أصحابه وهنا لن أرد على هذا الدليل أيضاً وإنما سيرد ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم وابن كثير فاستمع إليهم.

* قال ابن كثير في البداية والنهاية ج٥ ص٢: «روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم أنه لما أمر الله تعالى (رسوله) أن يمنع المشركين من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره قالت قريش:

لينقطعن عنا المتاجر والأسواق أيام الحج، وليذهبن ما كنا نصيب منها فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قلت ـ أي ابن كثير وهذا تتمة كلامه ـ: «فعزم رسول الله ﷺ على قتال

الروم لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله» انتهى فإن كان الأخ محمد سلامة يملك دفعاً لهذه الأقوال عن السلف فليفعل وليناقش ابن كثير فيما ذهب إليه وسأرقب مع القراء كيف تكون نتيجة المعركة بين علماء السلف السابقين الذين يقولون بأن الرسول كان مأموراً بذلك ولهذا نفذ بلا مشورة وبين الأستاذ محمد سلامة جبر الذي يقول ذهب الرسول إلى تبوك بغير مشورة!.

والآن لا أجد بين يدي دليلاً آخر مما استدل به الأخ يحتاج إلى نقاش بشأن ترك الرسول الشورى في أمهات المسائل! فهل يملك الأخ سوى ما سبق؟!!.

والآن أحدد مطالبي من الأخ سلامة على هذا النحو:

قائل يقول معه بأن الرسول ترك الشورى في أمهات المسائل وسأرضى أن يكون من السلف أو الخلف أو متعصبي المستشرقين. ولعل القارىء يسأل عن سر تمسكي بهذا الأمر، ولا بأس أن أبين السبب وقد وضحت شيئاً منه سابقاً:

السبب هو أن المستشرقين المتعصبين منهم لم يستطيعوا أن يقدحوا في الرسول ﷺ بشأن الشورى إلا بأنه كان يستشير الناس كما أمره الله ولكنه كان ينفرد برأيه وسموا هذا استبداداً ولا أعلم أحداً منهم ـ فيما قرأت ـ اتهم الرسول ﷺ بأنه ترك المشاورة في أمهات المسائل.

والأمر الثاني: ما رأي الأخ محمد سلامة في العلماء القدامى والمحدثين الذين نقلنا أقوالهم بالنص في وجوب الشورى. أرجو أن يناقشهم وهو يحكم عليهم.

أثبت لي حادثة واحدة ترك فيها الرسول الشورى ﷺ. بل أعطني مثالاً واحداً ترك فيه الرسول ﷺ التزام الأمر المستحب!! أي أمر الشورى أم غيرها من الأمور المستحبة.

والآن لم يبق إلا أن يدخل الأخ محمد فيما دخل فيه عموم المسلمين من القول بوجوب الشورى وتنزيه الرسول ﷺ من مخالفة أمر ربه سواء كان أمراً واجباً أم أمراً مستحباً. فإن فعل ناقشنا معه القضية الثانية وهي إمامة المقلد، وإن لم يفعل وكان عنده شبهات جديدة جلوناها بحول الله وقوته. ولن ندخل في مسألة ثانية حتى ننتهي من المسألة الأولى هذه والحمد لله أولاً وأخيراً.

كتاب

مشروعية الدخول إلى المجالس التشريعية

وقبول الولايات العامة

في ظل الأنظمة المعاصرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

افتتــاح :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ، ، وبعد، ، ،

مقدمة :

فإن الأمة الإسلامية نكبت في القرن الرابع عشر من عمرها المجيد بسقوط آخر خلافة إسلامية، وتقسيم بلاد المسلمين إلى دويلات وحكومات مختلفة وكان هذا التقسيم بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، وكان الذي صنع هذه الخرائط الإقليمية هم الكفار أنفسهم من إنجليز، وفرنسيين، وإيطاليين. . ثم إن هؤلاء المستعمرين فرضوا على كل إقليم نظاما للحكم ودساتير مستقاة من أنظمتهم المسماة (بالديمقراطية) وهذه الأنظمة والدساتير هي التي حددت لكل إقليم نظام الحكم، وكيفية صنع القرار، وأهداف الحياة وغاية كل شعب. . ومن هذه الدساتير والنظم وضع المربون والمعلمون أهداف التربية في كل بلد، ووضع المشرعون في السياسة، والإقتصاد، والأمن، والإجتماع تشريعاتهم وتصوراتهم. .

وبهذا نشأت أجيال جديـدة للأمة انسلخت رويداً رويداً عن الإنتماء والولاء لأمة الإسلام، والتقيد بأحكامه في الحلال والحرام، وسائر شئون الحياة، وانفصل كل شعب من شعوب المسلمين عاطفياً وإجتماعياً. . بل ولاءً وارتباطاً، وجنسية وتبعية عن بقية شعوب الأمة الإسلاميـة. . بل قامت حروب الحدود السياسية وحروب الطغيان بين أقاليم أمة الإسلام فأسست بذلك الأحقاد، والأضغان، والثارات، وعمقت الإنفصال بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة.

وفي ظل هذا الواقع الرهيب الذي لم يمض على الأمة الإسلامية أسوأ منه في كل القرون السابقة يواجه الدعاة إلى الإسلام معضلة قائمة في كيفية الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ومنهاج العمل لتحقيق أمر الله سبحانه وتعالى بإقامة الدين، وعدم التفرق فيه، وتحقيق وحدة الأمة وخلافة الإسلام الراشدة، وإظهار دين الإسلام على كل دين، وإقامة الحجة في الأرض ودفع أهل الكفر عن صدر هذه الأمة، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

يواجه الدعاة إلى الله معضلة الأولويات، من أين نبدأ؟ وكيف نبدأ؟ وكيف نواجه هذا الواقع القائم؟ وكيف يمكن تغييره وما الوسائل المتاحة والمشروعة لذلك؟

وقد كتبنا بحمد الله مجموعة من الرسائل في السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله في العصر الحاضر..

وهذه الرسالة التي بين يديك أخي الداعية مخصصة لأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل وهو تولي الولايات العامة، والدخول في المجالس التشريعية في ظل الحكومات المعاصرة.

والسؤال المطروح هو: هل يجوز للدعاة إلى الله أن يقبلوا الولايات العامة كالوزارة، والقضاء ورئاسة الدوائر الحكومية في الحكومات القائمة الآن. أم لا؟

وهل يجوز الدخول إلى المجالس التشريعية في ظل الأنظمة المعاصرة؟ علماً أنها أنظمة تجعل ـ حسب دساتيرها القائمة المؤسسة على (النظام الديمقراطي) ـ السيادة للشعب، وتجعله مصدر السلطة، أو قل هو الحاكم وهذا يناقض مناقضة أساسية نظام الإسلام الذي يجعل السيادة لله، والحكم له سبحانه وتعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٤٠]؟

وهذه القضية ينقسم عندها الدعاة إلى الله في العصر الحاضر وتختلف آراؤهم فيها اختلافاً كبيراً فمن قائل إن الدخول إلى المجالس التشريعية، والرضا بالولايات العامة في ظل الحكومات المعاصرة كفر وردة وخروج من الإسلام ومن قائل أنها فرض واجب متعين لا يجوز للمسلمين الإخلال به وتضييعه، ومن قائل إن ذلك

يجوز بشروط وفي موقع دون موقع، وحكومة دون حكومة.

وليس هدفي في هذه الرسالة استقصاء كل رأي، ومناقشته، وإنما سأعرض ما أراه بحمد الله وتوفيقه الرأي الراجح والصواب مع ذكر أدلته من الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأمة وتجارب العاملين في حقل الدعوة، وهذا الأخير دليل من الأدلة لقوله تعالى ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢] وذلك في المآل الذي آل إليه بنو النضير إذ أخرجهم الله بعد العز إلى الذل والمهانة بتركهم حدود الله، والعبرة بعموم اللفظ فكل ذي بصر مطلوب منه أن يعتبر بالأحداث، وأن يستفيد من العواقب، وعلى كل حال هذه الآية دليل من أدلة القائلين بالقياس، ومعلوم أن القياس الصحيح دليل شرعي صحيح.

وكذلك استدل على ما أقول بالمصالح والمفاسد وهو دليل عظيم ومصدر من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك في هذا العمل ويجعله نوراً وهداية، وأن يرشدنا إلى طريق الحق والصواب. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه إنك أنت السميع العليم.

الكويت في ٤ من ذي القعدة لعام ١٤١٣هـ

الموافق لـ ٢٥ من إبريل لعام ١٩٩٣ م

كتبه

عبدالرحمن عبدالخالق

الباب الأول:
مقدمات ضرورية

١ـ لا حكم إلا لله:

أ ـ بداية أقر أن النظام الديمقراطي الذي يجعل الحكم للشعب ويجعل الشعب مصدر السلطات جميعا نظام غير إسلامي يناقض الإسلام في أخص خصوصياته، وفي أُسِّ أساسه وهو السيادة.. فلا حكم إلا لله، في الصغير والكبير، وكل حكم يعارض حكمه فهو باطل، وكل من حكم غير متقيد بأمر الله وشرعه فهو طاغوت، وكل من رضى بحكم غير حكم الله وهو يعلم مناقضته لحكم الله فهو كافر، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والأخذ ببعض الدين وترك بعضه اختياراً كفر.

ب ـ الواقع القائم: الأنظمة الديمقراطية، أو الإستبدادية التي تحكم بالهوى أنظمة قائمة في أمة الإسلام الآن، وليست خيالاً أو أمراً نظرياً افتراضياً.. والخلاف الآن هو في كيفية التعامل الشرعي مع هذه الأنظمة والأعراف والقوانين القائمة.

٢ـ مواقف الدعاة إزاء الحكومات المعاصرة:

باستقراء آراء العاملين للإسلام اليوم ومناهجهم الدعوية نجد أنهم ينقسمون إلى أربعة مناهج أساسية وهي كما يلي:

أ ـ فكر (الجهاد):

الفكر الذي أطلق عليه أصحابه فكر الجهاد وهو يقوم باختصار على وجوب حرب الأنظمة القائمة الآن بالسيف، وإزالة الحكومات القائمة بالقوة، واستباحة

قتالهم ومن يتترسون بهم من جيش وشرطة وأعوان ومخابرات وأن هذا هو السبيل لإقامة حكم الله في الأرض، ويرى المنتمون إلى هذا الفكر أن القبول بالمناصب العامة، والدخول في المجالس التشريعية كفر وردة.. ويوسع هؤلاء أيضاً مدلول الجهاد ليشمل كل من يهاجم الإسلام وينتقده.

وقد رددنا على هذا الفكر تفصيلياً بحمد الله في كتاب (فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله).

ب ـ جماعة (الإسلام المستنير):

وفريق آخر يرى أن النظام الديمقراطي لا يناقض الدين بل يوافق الإسلام، وأنه لا يختلف عن الشورى، وأن الحكومات القائمة تطبق الإسلام في الكثير وتخالفه في القليل وهذا الفريق مستعد للتنازل عن شيء كثير من أحكام الإسلام، كتولي المرأة للولايات العامة، ومعاملة غير المسلمين على قدم المساواة مع المسلمين، وإباحة أنواع مما يسمى بالفن كالغناء، والموسيقى، وإباحة أنظمة البنوك الربوية القائمة، وإسقاط الفروق العقائدية بين طوائف الإسلام وفتح باب الاجتهاد لتجاوز كثير من أحكام السنة، والإجماع، وجعل العقل والمصلحة هو الحكم والفيصل في الحكم الشرعي. وهذا الفريق من الدعاة والعلماء يملكون منهجاً لتبرير الواقع وتسويق الإنحراف القائم أكثر مما يملكون منهجاً لتغيير الواقع نحو الإسلام.

جـ ـ جماعة العزلة والإنتظار:

والفريق الثالث من الدعاة اليوم هو الفريق الذي لا يملك تصوراً واضحاً لتغيير الواقع، ولا كيفية التعامل مع الواقع القائم وهو يُؤْثِر العزلة والإنتظار، ويرى بعضهم أن العمل الواجب الآن هو تعلم العلم وبناء الرجال ووجوب الإبتعاد عن كل مشاركة في الحكومات القائمة الآن سواء كانت ولاية عامة، أو مجلساً تشريعياً.

ويرى بعض هؤلاء أن الدخول إلى المجالس التشريعية ابتداع في الدين، وخروج عن منهج سلف الأمة، وقد يطلق بعضهم على من يفعل ذلك بالكفر والردة.

د ـ جماعة العمل بالإسلام كل الإسلام:

الفريق الرابع من العاملين للإسلام هو الفريق الذي يمكن أن تطلق عليه: (العاملون بالإسلام كل الإسلام) وهذا الفريق يرى أنه يجب التعامل مع الواقع القائم بما يناسبه، ويعتقد وجوب الأخذ بالإسلام كله، ففي مقام الجهاد المشروع بالسيف دفعاً للكفار، وحماية لأعراض المسلمين ودمائهم وأموالهم يجب ذلك، في مقام تغيير المنكر والأمر بالمعروف يجب ذلك، ويرون أن الإعداد الدائم لحملة الدين والدعاة إلى الله يجب أن يكون عملاً مستمراً دائماً، ويرون أن التربية لا تتحقق إلا من خلال ميادين الجهاد والعمل.. وليس من خلال حلقات العلم وحدها.. بل يجب أخذ العلم والعمل جميعا.

وهذا الفريق يرى مشروعية قبول الولايات العامة في الحكومات القائمة، ومشروعية الدخول في المجالس التشريعية.. ونحن بحمد الله من هذا الفريق، بل نرى أحياناً إنه يتوجب قبول الولاية العامة والدخول إلى المجالس التشريعية في ظل الحكومات المعاصرة في إطار شروط وظروف خاصة.

٣ـ جمهور الناس وسوادهم ما زال على الإسلام:

نحن نعتقد أن البلاد الإسلامية وشعوبها ما زالت على الإسلام، ومازال سواد الناس وجمهورهم يريدون تحكيم شريعة الله فيهم، وإنما يحول دون ذلك اللصوص المتغلبة، والمنافقون من الحكام الذين يظهرون الإسلام، ويوالون أعداء الله في الحكم بغير ما أنزل الله ولا شك أن منهم من يعلن صراحة عداءه للإسلام وشريعته، ويعلن صراحة عدم صلاحية الإسلام للعصر ومثل هذا لا يشك أحد في كفره وخروجه من الدين. وسواء كان هذا أو ذاك فإن الجهاد والدعوة يجب أن يكون في وضع الأمر في نصابه، وتمكين أهل الإسلام والذين لا يريدون بشريعته بديلا من حكم الشعوب الإسلامية.

ومعنى ما سبق أننا لا نقول بكفر المجتمعات والشعوب الإسلامية ولا نقول إن الجهاد يجب أن يبدأ من الصفر حتى تتميز الصفوف بين جيل إسلامي ومجتمع كافر كما يقول بعض الدعاة. وقد بينا فساد هذا الإعتقاد في مواطن عديدة.

٤ـ تولي المناصب العامة، والنيابة التشريعية سواء في الحكم الشرعي:

لا فرق بتاتا من حيث الحكم الشرعي بين الدخول إلى المجالس التشريعية في الحكومات القائمة (الديمقراطية أو الإستبدادية) وبين تولي المناصب العامة فيها. فإذا قال قائل: إنها حكومات ظالمة أو حتى كافرة فإن تولي السلطة التشريعية كتولي السلطة التنفيذية لأن كل سلطة من هاتين السلطتين تنبعان من نفس النظام.. فالوزير مثلاً وهو صاحب ولاية عامة يطبق ما يصدر عن السلطة التشريعية ولكن المسلم الملتزم بإسلامه يكون وضعه الشرعي في السلطة التشريعية أفضل وأسلم لدينه... وذلك أنه لا يُرغم حسب النظام الديمقراطي، أن يوقع على تشريع مخالف للإسلام، ويسمح له، بل يجب عليه أن يعترض على كل قانون يخالف الدين. وكذلك من حقه أن يعترض على كل مسئول في سلطة تنفيذية، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر متمتعا بما يسمونه (بالحصانة البرلمانية) التي تجعله فوق المساءلة عن كل كلماته.

وأما الوزير فلا يملك مثل هذه الصلاحيات في ظل النظام الديمقراطي لأنه صاحب سلطة تنفيذية عليه أن ينفذ فقط، وله اجتهاده في حدود صلاحياته... وأما النائب في المجالس التشريعية فله أن يقول ما يشاء، ويعترض على ما يريد، ويقدم ما شاء من مشاريع قوانين!!! وبالتالي فالموقف الشرعي لعضو المجالس التشريعية أكثر سلامة وأمناً في دينه ـ إن التزم الحق ـ من موقف الذي يتولى وزارة أو منصباً عاماً. إذ مجال الإختيار والإجتهاد له قليل.

٥ـ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«يجب أن يعلم أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالإجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الإجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: [إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم] رواه أبو داود..» ثم ساق شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ النصوص النبوية وكلام السلف في هذا ثم قال:

«فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات».

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ أن فساد حال الناس في الإمارة إنما هو من الحرص على الرئاسة والمال بالإمارة.. وأن أهل الصلاح من المسلمين هم الذين يريدون المال والإمارة لا من أجل العلو والفساد في الأرض وإنما من أجل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وجعل الدين له، وإنفاق المال في سبيله، وأنه بذلك صلاح الدين والدنيا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ولما غلب على كثير من ولاة الأمور إرادة المال والشرف، وصاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان في ولايتهم رأى كثير من الناس أن الإمارة تنافي الإيمان وكمال الدين. ثم منهم من غَلَّب الدين وأعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك (يعني أعرض عن طلب الإمارة وجمع المال لخوفه من الافتتان في الدين) ومنهم من رأى حاجته إلى ذلك، فأخذه معرضا عن الدين لاعتقاده أنه مناف لذلك، وصار الدين عنده في محل الرحمة والذل، لا في محل العلو والعز (أي ومن الناس من رأى الحاجة للإمارة والمال فطلبها ولم يراع الدين في ذلك ورأى أن الإمارة لا تصلح مع التمسك بالإسلام إما لادعائه فساد الناس أو عدم قدرته على القيام بأعبائها ونحو ذلك.. فصار يعامل الدين بالرحمة والذل أي إنه يسمح للإسلام في الحدود الدنيا، ويعطف على الإسلام مجرد عطف، ولا يرفع رأسه بالإسلام جهاداً ونصرة له، وتوليةً للأخيار وأبعاداً للأشرار) وكذلك لما غلب على كثير من أهل الدينين (أي اليهود والنصارى) العجز عن تكميل الدين، والجزع لما قد يصيبهم في إقامته من البلاء استضعف طريقتهم واستذلها من رأي أنه لا تقوم مصلحته ومصلحة غيره بها (يعني أن الشعوب التي كانت تحت الحكم الديني لليهود والنصارى لم يستسيغوا الحكم الديني ورفضوا الحكومة الدينية لما رأوا من ضعف هؤلاء من القيام الحق بأعباء الدين، وفسدت حكوماتهم بالتسلط والإستبداد كما هو معلوم).

وهاتان السبيلان الفاسدتان ـ سبيل من انتسب إلى الدين ولم يكمله بما يحتاج إليه من السلطان والجهاد والمال، وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب، ولم

يقصد بذلك إقامة الدين ـ هما سبيل المغضوب عليهم والضالين. الأولى للضالين النصارى، والثانية للمغضوب عليهم اليهود.

وإنما الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هي سبيل نبينا محمد ﷺ، وسبيل خلفائه وأصحابه، ومن سلك سبيلهم، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، واعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. ذلك الفوز العظيم».

ثم قال ـ رحمه الله ـ:

«فالواجب على المسلم أن يجتهد في ذلك بحسب وسعه، فمن وُلِّي ولاية يقصد بها طاعة الله، وإقامة ما يمكنه من دينه، ومصالح المسلمين وأقام فيها، ما يمكنه من الواجبات واجتناب ما يمكنه من المحرمات، لا يؤاخذ بما يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار. ومن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد، ففعل ما يقدر عليه، من الخير: لم يكلف ما يعجز عنه، فإن قوام الدين بالكتاب الهادي، والحديد الناصر، كما ذكره الله تعالى».

فعلى كل أحد الإجتهاد في اتفاق القرآن والحديد لله تعالى، ولطلب ما عنده، مستعيناً بالله في ذلك، (راجع فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/ ٣٩٠ـ٣٩٧) أ. هـ

وهذا كلام نفيس لا يحتاج إلى تعليق، وليت الدعاة إلى الله ينتبهون إلى هذه القاعدة النفسية.

الباب الثاني:

حكم قبول الولايات العامة

في ظل الدول الكافرة

الأدلة من القرآن والسنة على تولي الولايات العامة في الدول الكافرة.

أ ـ نبي الله يوسف عليه السلام وولايته على خزائن أرض مصر:

من أصرح الأدلة على مشروعية تولي الولايات العامة في الدول الظالمة بل والكافرة إذا كان هذا المتولي مريداً للحق، قائماً بالعدل حسب استطاعته ما فعله يوسف عليه السلام، وكذلك ما فعله النجاشي ـ رضي الله عنه ـ.

فأما نبي الله يوسف عليه السلام فإنه كان مؤمنا في بلد كافر، قَدَّرَ عليه ـ وهو غلام ـ مجموعة من الكفار فباعوه رقيقاً، ولكن الله الذي يرعاه يسر له أن يصبح في بيت رجل كريم أحسن مثواه، وعامله مثل ابن له ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢١]. . وقال يوسف عن هذا الذي اشتراه وأكرم مثواه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢٣] على القول بأن المقصود بـ «ربي» في هذه الآية سيدي وهو الراجح ولا شك.

وقد اتهم عليه السلام بما اتهمته به زوجة هذا الرجل ظلماً وعدواناً، وبرأه الله مما قالت، ونجاه من كيدها، وكيد من على شاكلتها من المفسدات الفاسدات. . ودخل السجن، وقد دعا يوسف إلى الدين وتوحيد الله بما استطاع. . ثم هيأ الله له الخروج

من السجن مبرءاً مرفوع الرأس، منتصراً وفضح من اتهموه وآذوه.. وقد هيئت ليوسف عليه السلام الفرصة أن يدعو إلى الله من موقع أفضل، وأن يقيم العدل ما استطاع وسط نظام يقوم على الكفر والامتيازات الباطلة التي اعتادها ملوك مصر وتميزوا بها على شعوبهم.. ولم يقصر يوسف عليه السلام في إهتبال هذه الفرصة المواتية ليقيم العدل ويدعو إلى الله من موقع أفضل ويجنب شعباً من الشعوب خطر المجاعة التي علم أنها تنتظرهم في سني القحط السبع القادمة فعرض نفسه على ملك مصر قائلا: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٥٥].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى ما وصل إليه يوسف عليه السلام من الملك والقيام بالعدل وحفظ أموال الناس، وتجنيبهم كارثة المجاعة المتوقعة المحققة.. جعل الله هذا منّاً منه ونعمة على عبده يوسف عليه السلام حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٥٦]

فجعل الله تمكين يوسف في أرض مصر بتقلد الوزارة فيها فضلاً من عنده على نبيه الكريم..

علماً أن يوسف عليه السلام عامل قوماً جميعهم من الكفار فقام على حفظ أموالهم، وتجنيبهم كارثة ومصيبة كبرى ولا شك أنه لم يسر في وزارته كما هو الحق والعدل في كل الأمور فلا شك أنه قد كانت لهم نظم مالية تخالف العدل كالضرائب التي يفرضونها على الأرض والغلات، والمخصصات التي يخصصونها للملك وحاشيته ووزرائه وخاصته، ونحو ذلك مما هو معلوم من حال ملوك الكفر من أخذ المال من غير حقه، وصرفه على غير نظام العدل والمساواة بين الرعية، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض، وكان هو وقومه كفاراً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ [سورة غافر، الآية: ٣٤]، وقال تعالى عنه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

﴿ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [سورة يوسف، الآيتان: ٣٩، ٤٠].

ومعلوم أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادةٌ وسنةٌ في قبض الأموال، وصرفها على حاشية الملك، وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله فان القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته مما لم يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦]» (مجموع الفتاوي ٥٦/٢٠_٥٧).

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن يوسف النبي مع دعوته بما استطاع أهل مصر إلى التوحيد إلا أنهم بقوا على كفرهم وشركهم كما قال تعالى حاكياً مقالة مؤمن آل فرعون الذي قام يدافع في بلاط فرعون عن موسى عليه السلام لما هموا بقتله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [سورة غافر، الآية: ٣٤] وكان هذا قبل خمسمائة عام.. ومعنى هذا أنه لم يؤمن منهم أحد بدعوة نبي الله يوسف وبقوا على كفرهم ولكن يوسف مع ذلك لم يمتنع كما ذكرنا من إقامة ما أقامه من العدل، ومن فعل ما فعله معهم من الإحسان وهو مع كل ذلك لم يستطع في كل ذلك أن يغير نظامهم في الحكم، ولا تشريعهم الباطل.. بدليل أنه لما دبر مكيدة استبقاء أخيه عنده لم يطبق عليه قانون ملك مصر، وإنما طبق عليه ما عند بني إسرائيل في إسترقاق اللص كما قال تعالى ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يوسف، الآيتان: ٧٤، ٧٥] أي وجد في رحله فهو جزاؤه أن يسترق فأجرى يوسف عليه السلام قانونهم وتشريعهم في ذلك كما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٧٦]، ودين الملك هنا هو تشريع ملك مصر.. ولا شك أن شرعته في اللصوص وغيرهم كانت مخالفة لشرعة الأنبياء... وهذا كله يدل على أنه فعل ما يستطيع من العدل والإحسان ولم يمكنه أن يغير نظامهم إلى الإسلام.

وقد شكر يوسف الله سبحانه وتعالى عما ولاه من الملك فيهم حيث يقول ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠١].

وهذه الآيات واضحة صريحة الدلالة أنه يشرع للمسلم إذا هيئت له الفرصة أن يقيم العدل في قوم من الكفار ألا يمتنع عن ذلك.

بل قد يأثم إذا كانوا في حاجة إلى عدله وعلمه فامتنع من ذلك. هذا إذا كانوا كفاراً.. فكيف إذا كانوا مسلمين، وكانت حاجتهم أن يتولى شئونهم أهل الدين والصلاح لا أهل الفساد والإفساد.

ب ـ النجاشي ـ رحمه الله ـ وولايته ملك الحبشة:

وأما النجاشي ـ رحمه الله ـ فلا شك كذلك في أنه آمن بالنبي محمد ﷺ، ومات على الإيمان، وقد صلى عليه الرسول ﷺ عند وفاته (غائباً) وأمر المسلمين بالصلاة عليه كما روى الإمام البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال حين مات النجاشي [مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمه] (حديث رقم ٣٨٧٧).

ومع إيمانه وإسلامه إلا أنه بقي حاكماً في قوم جميعهم من الكفار المعاندين للتوحيد، الرافضين للدخول في الدين.

وقد قام فيهم بما يستطيع أن يقوم به من العدل والإحسان، ولا شك أن بقاءه فيهم مع ما في ذلك من بقاء ما هم فيه من الكفر والشرك.. خير من ترك هذا المنصب ليتولاه من يفسد فيه..

ولا شك أن منهج الرسل في دعوتهم إلى الله هو في تحصيل المصالح وتكميلها، والدعوة إلى الله حسب الاستطاعة. وليس كل أحد بمستطيع أن يقيم العدل كاملاً، ويفعل كل ما يريد على أكمل الوجوه..

فكان تقليل الشرور إلى أقل حد ممكن وتحصيل المصالح لأكبر حد ممكن منها هو منهج الرسل والأنبياء عليهم السلام.

والشاهد في قصة النجاشي ـ رحمه الله ـ أنها دليل صريح من السنة على جواز تولي المسلم ولاية عامة بل الولاية الكبرى في قوم من الكفار وإن بقوا على الشرك والكفر طالما أنه يقيم الحجة عليهم، ويدعوهم إلى الله وإن لم يستجيبوا. . .

فقد جاء في السيرة أن النجاشي لما ورد عليه أصحاب النبي ﷺ على رأسهم جعفر بن أبي طالب أكرم مثواهم، وآمنهم على دينهم، ثم لما أرسلت قريش عمرو ابن العاص وأحبوا إغراء النجاشي بهدية، والإيقاع بينه وبين المسلمين مدعين أن المسلمين يسبون مريم عليها السلام، ثم إنه أي النجاشي دعا جعفر بن أبي طالب فقرأ عليه جعفر أوائل سورة مريم فقال النجاشي: لم يزد عيسى عن هذا ولا قدر هذه. . وأخذ عوداً من الأرض ورفعه. . فأنكر ذلك بطارقته وقد كانوا وزراء الحكم وقادة الدولة فقال لهم (وإن نخرتم!!).

ونقل ابن كثير في البداية والنهاية عن مسند الإمام أحمد قال:

«وقد قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبدالله بن عتبة عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحواً من ثمانين رجلاً، فيهم عبدالله بن مسعود وجعفر، وعبدالله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى فأتوا النجاشي. وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال فأين هم؟ قالا: في أرضك، فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه، فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال وما ذاك؟ قال إن الله بعث إلينا رسولاً ثم أمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة. وقال عمرو: فانهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قال نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسسها بشر، ولم يفرضها ولد. قال فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله ﷺ. وأنه الذي نجد في الإنجيل. وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى ابن

مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما».

ثم عقب ابن كثير على هذا قائلاً: (وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن) (البداية والنهاية ٢/ ٦٧ طبعة الريان).

والشاهد في هذه الرواية أنه آمن وشهد شهادة الحق في عيسى ومحمد عليهما السلام. وبقى في ملكه الذي هو فيه يحكم قوماً من الكفار لم يطاوعوه في إيمانه ولم يدخلوا فيما دخل فيه.

ولو كان من مستلزمات الإسلام وشرائطه وجوب التنحي والإبتعاد عن مشاركة الكفار في الحكم لما أقره رسول الله ﷺ، ولما وصفه الرسول بعد موته بأنه رجل صالح وأمر الصحابة رضوان الله عليهم بالصلاة عليه.

ولا شك أن بقاء النجاشي في ملكه وأمره قومه بالحق وإقامة ما أقامه من العدل فيهم خير من ترك ذلك وهذا بحمد الله دليل صريح من السنة على ما نحن بصدده.

الباب الثالث:

حكم تولي الولايات
في ظل الدول الإسلامية الظالمة

مشروعية حيازة الولاية العامة للمسلم الصالح المريد للخير وإن اشتملت على بعض الباطل والظلم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو في معرض بيان قاعدة ارتكاب أخف الضررين:

«إذا كان المتولي للسلطان العام أو بعض فروعه كالإمارة والولاية والقضاء ونحو ذلك، إذا كان لا يمكنه أداء واجباته وترك محرماته، ولكن يتعمد ذلك ما لا يفعله غيره قصداً وقدرة: جازت له الولاية وربما وجبت! وذلك لأن الولاية إذا كانت من الواجبات التي يجب تحصيل مصالحها، من جهاد العدو، وقسم الفيء، وإقامة الحدود، وأمن السبيل، كان فعلها واجباً، فإذا لم يكن ذلك مستلزما لتولية بعض من لا يستحق، وأخذ بعض ما لا يحل وإعطاء بعض من لا ينبغي، ولا يمكنه ترك ذلك صار هذا من باب ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به، فيكون واجباً أو مستحباً إذا كانت مفسدته دون مصلحة ذلك الواجب أو المستحب، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم، ومن تولاها أقام الظلم حتى تولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها ودفع أكثره باحتمال أيسره كان ذلك حسناً مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيداً». أ.هـ (فتاوي شيخ الإسلام ٢٠/ ٥٥)

وأقول هذا هو الفقه الصحيح لا الورع الكاذب، ورهبانية النصارى الذين تركوا

الحكم للفجرة وكانوا رهبانا في الأديرة، بل أن شيخ الإسلام يقرر هنا أن تولي الولاية العامة مع عدم التمكن من اقامة العدل الواجب جائزة بل واجبة أحياناً إذا كان فيها تخفيفا للظلم، ومنعا لمن يتولاها ويقصد بها الظلم واستدل شيخ الإسلام على ذلك بما أقدم عليه نبي الله الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم فقال: «ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض، وكان هو وقومه كفاراً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [سورة غافر، الآية: ٣٤]، وقال تعالى عنه: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [سورة يوسف، الآيتان: ٣٩، ٤٠]، ومعلوم أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنةٌ في قبض الأموال، وصرفها على حاشية الملك، وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته مما لم يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦]». (فتاوي شيخ الإسلام ٢٠/ ٥٦).

وقد رد شيخ الإسلام هذا الحكم إلى القاعدة الفقهية أنه إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، وجب ارتكاب الأدنى، وهذا الإرتكاب لفعل الأدنى لا يكون محرماً في الحقيقة. فترك الولاية العامة للظلمة والفسقة ضرر ومفسدة عظيمة، وتولي هذه الولايات للمسلم البار المريد للخير الذي يستطيع أن يخفف الظلم والفساد ضرر أقل، ويجب عند ذلك ارتكاب أخف الضررين. وهذا نص شيخ الإسلام في ذلك:

«وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سُمِّي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر. ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم». أ. هـ (فتاوي شيخ الإسلام ٢٠/ ٥٧).

وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عاش في زمان يماثل ما نحن فيه من وجوه كثيرة من ذلك: سقوط الخلافة العباسية بأيدي التتر، واستقلال حكام الأقاليم والدويلات بدولهم، بل قيام حكام لبعض المدن والقرى المحيطة بها فقط، وغلبة الجهل والظلم على حكام الولايات، وحكمهم بالإسلام تارة وبالأعراف والتقاليد وتشريعاتهم تارة أخرى، واستئثارهم بكثير من الأموال لأنفسهم دون المسلمين، فلم يكن توزيع المال على الطريقة النبوية والخلافة الراشدة.. وكان شيخ الإسلام يفتي بأنه لا يجوز التخلي عن تولي الولايات العامة في مثل هذه الدويلات على ما فيها، حتى وإن كان لا يستطيع المتولي أن يقيم العدل كما أمر الله به، وأنا أسوق هنا سؤالاً صريحاً مما وجه إلى شيخ الإسلام في هذا الصدد، وجواب شيخ الإسلام عليه، سئل شيخ الإسلام عن:

«عن رجل متول ولايات، ومقطع إقطاعات (المتولي للولايات هو الذي يؤمر بجمع الأموال من مكوس وضرائب على التجارة والبيوت والمزارع ونحو ذلك، وأما المقطع فهو الذي يتولى صرف الأموال من بيت المال وخزينة الدولة وما يتجمع من الضرائب ونحوها)، وعليها من الكلف السلطانية ما جرت به العادة (الكلف السلطانية هي المخصصات التي تخصص للسلطان وحاشيته ونحو ذلك)، وهو يختار أن يسقط الظلم كله، ويجتهد في ذلك بحسب ما قدر عليه، وهو يعلم أنه إن ترك ذلك واقطعها غيره وولي غيره فإن الظلم لا يترك منه شيء، بل يزداد، وهو يمكنه أن يخفف تلك المكوس التي في اقطاعه، فيسقط النصف، والنصف الآخر جهة مصارف لا يمكنه اسقاطه، فإنه يطلب منه لتلك المصارف عوضها، وهو عاجز عن ذلك، لا يمكنه ردها. فهل يجوز لمثل هذا بقاؤه على ولايته واقطاعه؟ وقد عرفت نيته، واجتهاده، وما رفعه من الظلم بحسب إمكانه، أم عليه أن يرفع يده عن هذه الولاية والإقطاع، وهو إذا رفع يده لا يزول الظلم، بل يبقى ويزداد. فهل يجوز له البقاء على الولاية والإقطاع كما ذكر؟ وهل عليه إثم في هذا الفعل؟ أم لا؟ وإذا لم يكن عليه إثم. فهل يطالب على ذلك؟ أم لا؟ وأي الأمرين خير له: أن يستمر مع اجتهاده في رفع الظلم وتقليله، أم يرفع يده مع بقاء الظلم وزيادة. واذا كانت الرعية تختار بقاء يده لما لها في ذلك من المنفعة به (وهذا كما تراه دور شعبي في اختيار المسئول والضغط على

الحاكم لاختيار العامل الأمين والكفء)، ورفع ما رفعه من الظلم. فهل الأولى له أن يوافق الرعية؟ أم يرفع يده. والرعية تكره ذلك لعلمها أن الظلم يبقى ويزداد برفع يده.

وكانت إجابته بما يلي:

فأجاب: الحمد لله. نعم إذا كان مجتهداً في العدل ورفع الظلم بحسب إمكانه، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره، واستيلاؤه على الاقطاع خير من استيلاء غيره، كما قد ذكر فإنه يجوز له البقاء على الولاية والاقطاع، ولا إثم عليه في ذلك، بل بقاؤه على ذلك أفضل من تركه إذا لم يشتغل إذا تركه بما هو أفضل منه. (ليت الذين يتسرعون بتكفير وتضليل من يقبل الولايات العامة في الدول المعاصرة يطلعوا على قول شيخ الإسلام هذا).

وقد يكون ذلك عليه واجباً إذا لم يقم به غيره قادراً عليه. فنشر العدل ـ بحسب الإمكان، ورفع الظلم بحسب الإمكان ـ فرض على الكفاية يقوم كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك إذا لم يقم غيره في ذلك مقامه ولا يطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم.

وما يقرره الملوك من الوظائف التي لا يمكنه رفعها لا يطالب بها، وإذا كانوا هم ونوابهم يطلبون أموالاً لا يمكن دفعها إلا باقرار بعض تلك الوظائف، وإذا لم يدفع إليهم أعطوا تلك الاقطاعات، والولاية لمن يقرر الظلم أو يزيده (قد كان هذا حال الملوك والسلاطين في عهد شيخ الإسلام يجعلون لهم مخصصات من الأموال العامة بما لا يحل لهم)، ولا يخففه كان أخذ تلك الوظائف ودفعها إليهم خيراً للمسلمين من اقرارها كلها، ومن صرف من هذه إلى العدل والاحسان فهو أقرب من غيره، ومن تناوله من هذا شيء أبعد عن العدل والاحسان من غيره، والمقطع الذي يفعل هذا الخير يرفع عن المسلمين ما أمكنه من الظلم، ويدفع شر الشرير بأخذ بعض ما يطلب منهم، فما لا يمكنه رفعه وهو محسن إلى المسلمين غير ظالم لهم، يثاب، ولا إثم عليه فيما يأخذه على ما ذكره، ولا ضمان عليه فيما أخذه، ولا إثم عليه في الدنيا والآخرة إذا كان مجتهداً في العدل والاحسان بحسب الامكان. (رضي الله عنك يا شيخ الإسلام وأثابك الجنة)

وهـذا كوصي اليتيم وناظر الوقف والعامل في المضاربة والشريك، وغير هؤلاء ممن يتصرف لغيره بحكم الولاية أو الوكالة إذا كان لا يمكنه فعل مصلحتهم إلا باداء بعضه من أموالهم للقادر الظالم: فإنه محسن في ذلك غير مسيء (وهذا من شيخ الإسلام قياس صحيح فإن من يتولى مال اليتيم ويفرض عليه فيه مكوس وضرائب ونحوها لا سبيل له إلا دفعها لا يجوز من أجل ذلك أن يمتنع عن القيام على مال اليتيم وخاصة إذا تعين ذلك عليه)، وذلك مثل ما يعطي هؤلاء المكاسين (المكاسـين جمع مكاس وهو المتولي لشئون الضرائب التي تفرض على التجارة ونحوها، ومعلوم أن المكوس حرام لأنها أخذ للمال بالباطل) وغيرهم في الطرقات، والأشوال، والأموال التي ائتمنوا، كما يعطونه من الوظائف المرتبة على العقار، والوظائف المرتبة على ما يباع ويشترى، فإن كل من تصرف لغـيره أو لنفسه في هذه الأوقات من هذه البلاد ونحوها فلا بد أن يؤدي هذه الوظائف، فلو كان ذلك لا يجوز لأحد أن يتصرف لغيره لزم من ذلك فساد العباد وفوات مصالحهم (انظر هذا الدليل الذي استمد منه شيخ الإسلام وهو حصول المفسدة العظمى إذا ترك القيام بالولايات الضرورية).

والذي ينهى عن ذلك لئلا يقع ظلم قليل لو قبل الناس منه تضاعف الظلم والفساد عليهم، فهو بمنزلة من كانوا في طريق وخرج عليهم قطاع الطريق، فإن لم يرضوهم ببعض المال أخذوا أموالهم وقتلوهم. فمن قال لتلك القافلة لا يحل لكم أن تعطوا لهؤلاء شيئا من الأموال التي معكم للناس، فإنه يقصد بهذا حفظ ذلك القليل الذي ينهي عن دفعه، ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثـير وسلبوا مع ذلك، فهذا مما لا يشير به عاقل (انظر الدليل الثاني والمثل الذي ضربه شيخ الإسلام وتأمل فيه وطبقه على واقعنا المعاصر تجد أن من يفتي بعدم جواز ارتكاب المفسدة الصغرى فإنما يعرض المسلمين لحصول المفسدة الكبرى. وانظر قول شيخ الإسلام أن مثل هذا لا يفتي به عاقل.. ونقول للأسف يفتي بذلك مجموعات يظنون أنفسهم من أعقل العقلاء وأحكم الحكماء)، فضلا أن تأتي به الشرائع، فإن الله تعالى بعث الرسل لتحصيل المصالح، وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الامكان.

فهذا المتولي المقطع الذي يدفع بما يوجد من الوظائف، ويصرف إلى من نسبه

مستقرا على ولايته واقطاعه ظلماً وشراً كثيراً عن المسلمين أعظم من ذلك، ولا يمكنه دفعه إلا بذلك، إذا رفع يده تولى من يقره ولا ينقص منه شيئاً، هو مثاب على ذلك، ولا إثم عليه في ذلك ولا ضمان في الدنيا والآخرة.

وهـذا بمنزلة وصي اليتيم، وناظر الوقف الذي لا يمكنه إقامة مصلحتهم إلا بدفع ما يوصل من المظالم السلطانية (المظالم السلطانية أي الضرائب والأتاوات التي يفرضها السلاطين)، إذا رفع يده تولى من يجور ويريد الظلم، فولايته جائزة، ولا إثم عليه فيما يدفعه، بل قد تجب عليه هذه الولاية.

وكـذلك الجندي المقطع الذي يخفف الوظائف (يقصد بالوظائف الضرائب المفروضة) عن بلاده، ولا يمكنه دفعها كلها، لأنه يطلب منه خيل وسلاح ونفقة لا يمكنه إقامتها إلا بأن يأخذ بعض تلك الوظائف، وهذا ينفع المسلمين في الجهاد، فإذا قيل له لا يحل لك أن تأخذ شيئاً من هذا، بل ارفع يدك عن هذا الاقطاع، فتركه وأخذه من يريد الظلم، ولا ينفع المسلمين: كان هذا القائل مخطئاً جاهـلاً بحقائق الدين، بل بقاء الجند من الترك والعرب الذين هم خير من غيرهم، وانفـع للمسلمين، وأقرب للعدل على اقطاعهم، مع تخفيف الظلم بحسب الامكان، خير للمسلمين من أن يأخذ تلك الاقطاعات من هو أقل نفعا وأكثر ظلماً.

والمجتهـد من هؤلاء المقطعين كلهم في العدل والاحسان بحسب الامكان يجزيه الله على ما فعل من الخير، ولا يعاقبه على ما عجز عنه، ولا يؤاخذه بما يأخذ ويصرف إذا لم يكن إلا ذلك، كان ترك ذلك يوجب شراً أعظم منه. والله أعلم. (الفتاوي ٣٠/ ٣٥٦ـ٣٦٠)

ولا أجـد من التعليق بعد ذلك على فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية إلا أن أقول رحمك الله يا شيخ الإسلام ونفع الله بعلمك ما بقيت الدنيا.

الباب الرابع:

آراء بعض أهل العلم وأئمة العصر في الدخول إلى المجالس النيابية

القول بمشروعية الدخول إلى المجالس التشريعية والوصول إلى الولايات العامة عن طريق الإنتخاب هو قول كثير من علماء السلفية المعاصرين ومنهم سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز وفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين.

أقول ومما يدلك كذلك على مشروعية تولي الولايات العامة عن طريق الإنتخابات البرلمانية، أن هذا هو قول كثير من قادة الدعوة السلفية وأئمتها، وقد أفتوا بذلك مع علمهم بواقع حال الأمة المعاصرة، وواقع الدول الإسلامية التي ابتليت بهذه الأنظمة الوضعية (الديمقراطية وغيرها).

أ ـ رأي الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ:

ـ فهذا العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي المتوفي سنة ١٣٧٦هـ إمام أهل نجد في زمانه يقول في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) عند قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [سورة هود، الآية: ٩١].

قال ـ رحمه الله ـ: في الفوائد المتحصلة من هذه الآية:

«ومنها: أن الله يدفــع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، وقد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئاً منها. وربما دفع عنهم، بسبب قبيلتهم، وأهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب، رجم قومه، بسبب رهطه. وأن هذه الروابط، التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك. لأن الإصلاح مطلوب، حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب، من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى، من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم، الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عَمَلَةً وخَدَماً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين، وهم الحكام، فهو المتعين. ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا، مقدمة. والله أعلم» (تفسير عبدالرحمن بن ناصر السعدي ٢/ ٢٨٩).

وأنت ترى هنا أن مدار هذه الفتوى، وهذا الاستنباط من الآية الكريمة على القاعدة الفقهية (ارتكاب أخف الضررين) فلأن يسعى المسلمون ليكون لهم شركة في الحكم مع الكفار يصونون بذلك أعراضهم وأموالهم ويحمون دينهم، خيراً ولا شك مما أن يعيشوا تحت وطأة الكفار بلا حقوق تصون شيئاً من دينهم وأموالهم...

وهذا النظر والفهم هو ما ارتضاه وافتى به شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما نقلنا عنه تفصيلياً في الفصل السابق. ولا شك أن هذا هو الفهم والفقه الذي لا يجوز خلافه فالمسلم إذا خير بين مفسدتين عليه أن يختار أدناهما.. إلى أن يأذن الله سبحانه وتعالى برفع المفسدة كلها ويكون للمسلمين حكمهم الخالص الذي لا يشركهم فيه غيرهم، ولا يخالطهم فيه سواه.

ب ـ رأي سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ حفظه الله ـ:

وهـذا الذي أثبتناه من قول الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ هو نفســه ما أفتى به سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز وذلك في مواطن

كثيرة ولإخوة يبلغـون حد التواتر، ومن معنى قوله أنه يشرع الدخول إلى المجالس الإنتخابية من أجل إحقاق الحق، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. وقد قيد كثير من الإخوة السائلين فتوى والدنا وشيخنا عبد العزيز بن باز على ذلك النحو الذي اثبتناه.

وقد نقلت كذلك فتوى مطبوعة لشيخنا عبدالعزيز بن باز ـ حفظه الله ـ في مجلة لواء الإسلام العدد الثالث ذو القعدة سنة ١٤٠٩هـ، يونيو سنة ١٩٨٩، ونقلها عن المجلة الشيخ مناع القطان في كتاب (معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية) وقد جاءت جوابا لسائل يسأل عن شرعية الترشيح لمجلس الشعب، وحكم الإسلام في استخراج بطاقة انتخابات بنية انتخاب الدعاة والأخوة المتدينين لدخول المجلس فأجاب سماحة شيخنا قائلا:

«إن النبي ﷺ قال: [إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى] لذا فلا حرج في الالتحاق بمجلس الشعب إذا كان المقصود من ذلك تأييد الحق، وعدم الموافقة على الباطل، لما في ذلك من نصر الحق، والانضمام إلى الدُعاة إلى الله.

كما إنه لا حَرَجَ كذلك في استخراج البطاقة التي يُستعان بها على انتخاب الدُعاة الصالحين، وتأييد الحق وأهله، والله الموفق» (معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية للشيخ مناع القطان ص١٦٦).

وأنت ترى هنا أن سماحة الشيخ ـ حفظه الله ـ اعتمد في فتواه على أمور:

أولاً: أن هذه نية صالحة في تأييد الحق وعدم الموافقة على الباطل.

ثانياً: أنه في الدخول إلى مجلس الشعب نصراً للحق، وانضماما إلى الدعاة وتأييداً لهم.

فإذا أضفت هـذا المعنى إلى ما سبق من قول الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي اتضحت لك الصورة أكبر وأن الدخول إلى هذه المجالس تقليل للشر، وتأييد للحق.

جـ ـ رأي الشيخ محمد الصالح العثيمين ـ حفظه الله ـ:

وبهذا أيضا أفتى سماحة والدنا وشيخنا محمد صالح العثيمين شفاهاً لعدد كبير

من الأخوة طلاب العلم الذين سألوه عن حكم الترشيح للمجالس النيابية، فأجابهم بجواز الدخول، وقد كرر عليه بعضهم السؤال مع شرح ملابسات الدخول إلى هذه المجالس، وحقيقة الدساتير التي تحكم وكيفية اتخاذ القرار فكان قوله ـ حفظه الله ـ في ذلك (ادخلوها. اتتركوها للعلمانيين والفسقة) وهذه إشارة منه ـ حفظه الله ـ إلى أن المفسـدة التي تتأتى بعدم الدخول أعظم كثيراً من المفسدة التي تتأتى بالدخول إن وجدت... أ.هـ

وأظنه قد وضح السبيل الآن واتضحت الرؤية أن القول بمشروعية الدخول إلى المجالس التشـريعية، وتولي الولايات العامة هو قول الجلة من أئمة وقادة الدعوة السلفية ومن أهل الفكـر والنظر والفقه من علماء الأمة (ومما يمكن الاستدلال به في هذا المقام تولي شيخنا واستاذنا محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله نوع ولاية في القضاء في بلدة «شنقيط«موريتانيا قبل هجرته إلى المدينة المنورة. فقد جاء في كتابه «الرحلة إلى مكة«ما نصه:

أعماله في البلاد: كانت أعماله رحمه الله كعمل أمثاله من العلماء: الدرس والفتيا، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه، ورغم وجود الحاكم الفرنسي إلا أن المواطنين كانوا عظيمي الثقة فيه فيأتونه للقضاء بينهم، ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلاً.

طريقته في القضاء: كان إذ أتى إليه الطرفان استكتبهما رغبتهما في التقاضي إليه وقبولهما ما يقضي به ثم يستكتب المدعي دعواه ويكتب جواب المدعى عليه أسفل كتابة الدعوى، ويكتب الحكم مع الدعوى والإجابة ويقول لهما أذهبا بها إلى من شئتما من المشايخ أو الحكام.

أما المشايخ فلا يأتي أحدهم قضية قضاها إلا صدقوا عليها. وأما الحكام فلا تصلهم قضية حكم فيها إلا نفذوا حكمه حالاً، وكان يقضي في كل شيء إلا في الدماء والحدود وكان للدماء قضاء خاص.

قضاء الدماء: كان الحاكم الفرنسي في البلاد يقضي بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة واسعة النطاق وبعد تمحيص القضية وإنهاء المرافعة وصدور

الحكم، يعرض على عالمين جليلين من علماء البلاد ليصادقوا عليه، ويسمى العالمين لجنة الدماء. ولا ينفذ حكم الاعدام في القصاص إلا بعد مصادقتهما عليه. وقد كان رحمه الله أحد أعضاء هذه اللجنة ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره وعظم تقديره، وكان علماً من أعلامها وموضع ثقة أهلها وحكامها ومحكوميها. (الرحلة إلى مكة ص٢٢)

د ـ رأي فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله ـ:

ولشيخنا محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله رأي مشهور بعدم جواز الترشيح للدخول في المجالس النيابية، معللاً ذلك بأنها مجالس تحكم، بغير ما أنزل الله حتى وإن ذكر في الدستور أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ومعللاً ذلك أيضا بأن النائب قد يفتتن في دينه ويتنازل عن بعض الحق.

ولكنه حفظـه الله لا يقول هذا الرأي من باب تحريم الدخول إلى المجالس التشريعية، وتكفير أو تضليل من يفعل ذلك، وإنما من باب أنه خلاف الأولى بدليل أنه يرى أن الشعب المسلم عليه أن ينتخب المرشحين (الإسلاميين) فقط إذا تقدم إلى الترشيح من يعادي الإسلام.

وهذه نصوص عباراته حفظه الله في جوابه على الأسئلة المقدمة إليه من جبهة الانقاذ الجزائرية:

قال: (ولكن لا أرى ما يمنع الشعب المسلم إذا كان في المرشحين من يعادي الإسلام، وفيهم مرشحون إسلاميون من أحزاب مختلفة المناهج فننصح والحالة هذه كل مسلم أن ينتخب من الإسلاميين فقط من هو أقرب إلى المنهج الصحيح ـ الذي تقدم بيانه ـ أقول هذا ـ وإن كنت أعتقد أن هذا الترشيح والانتخاب لا يحقق الهدف المنشود كما تقدم بيانه من باب تقليل الشر، أو من باب دفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى كما يقول الفقهاء). (مجلة الإصالة العدد٤، ص٢٠)

الباب الخامس:

القول بتحريم تولي المناصب في الدول المعاصرة من مقالة أهل الغلو

ومما يدل على فساد القول بتحريم تولي الولايات العامة (الوزارة ونحوها وكذلك النيابة التشريعية) في ظل الأنظمة القائمة أن هذا هو قول أهل الغلو، وجماعات تكفير المجتمع فلم يعرف هذا القول في بدايته إلا عنهم ومنهم انتشر في بعض من غرر بأقوالهم. فجماعة شكري مصطفى كانت أول جماعة فيما أظن قالت بعدم جواز تولي أية ولاية عامة أو خاصة في الحكومات المعاصرة بناء على عقيدتها في كفر المجتمع كله، وكفر الحكام جميعا، وسواء عندهم أكانت الولاية وزارة أو إمامة صلاة أو غير ذلك. يقول أحدهم (كل الأعمال حلالها وحرامها في هذا المجتمع الجاهلي لا بد أن تصب في النهاية في مصب واحد هو خدمة وبناء هذا المجتمع الكافر). (ماهر بكري. الهجرة ص١٠ عن الغلو في الدين لعبد الرحمن اللويحق ٥٢٥).

بل بالغ شكري مصطفى فقال بعد أن ذكر مجموعة من الوظائف:

(كل ذلك.. إنما هو سلطان الطاغوت ودائرة اختصاصه ومواد الوهيته، والداخلون في نظامه هم عبيده وسدنة محرابه وأنه لا شيء مما ذكرنا ولا قشة ترفع في الطرق بأمر البلدية في بلد الطاغوت إلا وهي داخلة في إلاهيته). (شكري مصطفى الخلافة ٦/ ١٣ وعنه الغلو في الدين لعبد الرحمن اللويحق ٥٢٦)

وقد وافق هؤلاء الغلاة بعض إخواننا السلفيين وللأسف أنهم استدلوا على ذلك بقريب مما استدل به الغلاة.

الباب السادس:

جميع البدائل لهذا الطريق فاسدة

ونقول لقد تحقق بحمد الله صلاح جزئي من دخول من دخل إلى الوزارة، أو النيابة التشريعية في جميع البلاد التي كان فيها ذلك، والمطلع على أحوال الأمة الإسلامية يعلم هذا يقينا فأعظم فترة للإسلام في تركيا بعد سقوط الخلافة هي الفترة التي دخل فيها الإسلاميون إلى الحكومة والبرلمان. وقد اتخذت في هذه الفترة مجموعة من القرارات ما زالت تؤثر إلى اليوم في مسيرة تركيا نحو الإسلام، وكذلك الحال في مصر والجزائر، فإن الإتساع العظيم لرقعة الإسلام، ودخول الناس في الدين بهذه الشمولية كانت في فترة الدعاية الإنتخابية ونزول المسلمين إلى الساحة وعرضهم مشروعهم الإسلامي على الناس واتصالهم بجماهير المسلمين.. وكذلك الحال في باكستان، وأما الكويت فهي أعظم مثال على أن الدخول إلى المجالس التشريعية والوزارة يمكن أن يؤدي إلى منافع عظيمة للدعوة، ويقلل إلى أقل الحدود شرور الفساد واللادينية، وليس المجال هنا الآن تعداد المصالح الشرعية التي تحققت من قبول الولاية العامة، والنيابة التشريعية...

وهذا بحمد الله معلوم وظاهر، وانما القصد هنا بيان فساد جميع البدائل المتاحة وقد بينا إن هناك أربعة اتجاهات عند المهتمين بشأن الدعوة: فالمدعون للجهاد ينطلقون من الإعتقاد بكفر الحكام أو ظلمهم ووجوب إزالتهم بالقوة ومن يتترس بهم ومعلوم فساد هذا التوجه حيث يصبح القتال فتنة، ويموت المسلم برصاص المسلم، ويتخذ الظلمة من الحكام هذا ذريعة لإبادة الإسلام نفسه، متذرعين بما يصدر من هذه الجماعة من أعمال. والبديل الثاني هو القعود والإعتزال وترك شئون

المسلمين للظلمة والمفسدين، وانتظار معجزة من السماء أو تغيير دون بذل أسباب وجهاد ومعلوم منافاة هذا للدين والإعتقاد ولقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١١] وأمر الله سبحانه وتعالى لأمة الإسلام أن تؤدي الأمانة إلى أهلها، وأن تنزعها من غير أهلها من الكفار والمارقين ووجوب الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، ولا شك أن القعود والعزلة في مثل هذه الأحوال من أعظم الآثام لأنه ترك للجهاد الواجب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب، وإقرار الباطل، وكتمان العلم، وترك شئون المسلمين للمفسدين والظلمة واللصوص المتغلبة.. والسكوت هذا لا شك إنه أثم عظيم وفساد كبير..

الباب السابع:

الممتنعون عن الولايات العامة

والنيابة التشريعية موافقون لأهل الباطل

وأقـول إن الذين يمتنعون عن الولاية العامة، والنيابة التشريعية يقدمون أعظم خدمة للمفسدين، وينفذون على الحقيقة مرادهم بل هذا ما يسعى إليه المفسدون بكل سبيل فهم يريدون بل ويعملون على سد جميع المنافذ أمام الدعاة أن يكونوا نوابا في البرلمان، حتى يعزلوهم عن الناس، ويقتلوا دعوتهم، ويميتوا رسالتهم، حتى استحدثت بعض الدول العربية التي تطبق ديمقراطيات زائفة قوانين يُحْرمُ بها المسلمون من الدخول إلى المجالس التشريعية كتحريم تكوين حزب سياسي على أساس ديني، ووجوب عرض أسماء المتقدمين على المخابرات العامة!! وتحريم من ينزل إلى الإنتخابات بصورة مستقلة!! ونحو ذلك من التشريعات التي مؤداها في النهاية منع أي رجل عنده دين أن يدخل إلى مجلسهم التشريعي حتى لا ينكر عليهم في أمر، ولا يعترض معترض على باطل، وينفردوا هم بالسلطة وحكم الناس، وينفذوا قوانينهم الباطلة في دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم.

فلينظر المفتون بعدم جواز الدخول إلى المجالس التشريعية هل صنعوا في أنفسهم وأمتعهم إلا ما يريد أعداء الأمة وأعداؤهم؟!

الباب الثامن:

حجج الذين يحرمون الدخول إلى المجالس التشريعية والرد عليها

بعد أن قررنا بحمد الله الحكم الشرعي الذي نراه مؤيداً بالأدلة من القرآن، والسنة، وأقوال بعض سلف الأمة.. نأتي إلى الشبهات التي تثار حول تولي الولايات، والدخول إلى المجالس التشريعية في ظل الأنظمة الديمقراطية وما احتج به من يرى المنع:

١ـ الديمقراطية كفر:

قالوا إن النظام الديمقراطي كفر وبالتالي لا يجوز الدخول إليه وإصلاحه من داخله.

والجواب: أنه يجب التفريق بين كون النظام كفراً وكون العاملين به والمنضوين تحت لوائه جبراً وقهراً رضيً أو سخطاً كفار.. فإن المسلم لا يكفر إلا باقرار الكفر واعتقاده، وأما إذا كان كارهاً له فقد سلم كما قال ﷺ في شأن الحكام المبدلين والمغيرين [فمن أنكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم إلا من رضى وتابع] والذي يقبل الولاية العامة في هذه الأنظمة، أو يدخل إلى المجالس التشريعية وهو كاره لتبديل أحكام الله، وعازم على إقامة العدل، ورفع الظلم وإنكار المنكر، وتقليل الشر فهو مأجور على نيته إن شاء الله تعالى.

٢ـ الدخول في الولايات العامة والنيابة طاعة للكفار:

قالوا بأن الدخول إلى المجالس التشريعية فيه طاعة للكفار ونحن مأمورون بمخالفتهم.

والجواب: أن المسلم يدخل إلى هذه المجالس ليخالف الكفار والمنافقين في تشريعهم بالباطل ليعمل هو تشريع الخير والعدل، ورفض الظلم والباطل أو على الأقل الإنكار على أهل الباطل.

٣ ـ نهى الله أن تجلس في المجالس التي يخوض الكفار فيها في آيات الله:

وقالوا إن الله يقول ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٦٨].

والجواب: إن هذا فيمن يجلس في مجالس الكفار ويقر الباطل ويسكت على من يخوض في آيات الله، وأما عمل النائب المسلم في البرلمان فمهمته الأساسية إنكار المنكر، والأمر بالمعروف والإعتراض على ما يرى أنه من الباطل، ومحاسبة الوزراء، وأعضاء الجهاز التنفيذي وهذا من القيام المستطاع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ـ المفسدة في الدخول أربى من المصلحة:

وقد ذكر بعض الأخوة مفاسد الديمقراطية فبلغت خمسين مفسدة.

ونحن نستطيع أن نضيف عليها خمسين أخرى بل مائة أخرى ولا يعني هذا تحريم الدخول إلى المجالس البرلمانية لأن الداخل يؤمن بفساد هذا النظام، وما دخل إلا من أجل تغييره وتبديله، أو على الأقل الحد من شروره وآثامه وتسلط من يحكم باسمه على شعوب المسلمين وإزاحة من يتقلدون المناصب ويتولون إدارة شئون المسلمين وهم في الحقيقة قلة من اللادينيين وأهل الشهوات والأهواء.. وما تسلطوا بذلك إلا بإنعزال جماهير المسلمين عن منازلتهم في الإنتخابات، وتخلية الساحة لهم ليزيفوا إرادة الأمة، ويتسلقوا إلى دفة الحكم ويستولوا على مقدرات المسلمين،

ويستبيحوا بعد ذلك دماءهم، وأعراضهم ودينهم وكرامتهم.

٥ـ لم يصل الإسلاميون الى الحكم عن طريق الديمقراطية:

وقالـوا إن الإسلاميين في كل البلاد لم يصلوا إلى الحكم بهذا الطريق بل قطع عليهم العلمانيون الطريق وأزاحوهم عندما اقتربوا من النهاية.

والجواب: عن هذا الشبهة الساقطة أن الطريق الديمقراطي مكن الإسلاميين أولاً من نشر عقيدتهم واكتساب جماهير الناس إلى صفوفهم، وفضح خصومهم وبيان كذبهم وتدليسهم، وكفى هذه نتيجة يجب أن يسعى إليها بل لو لم يكن هذه وحدها لكفى.. ثم إن الذين وصلوا إلى قبة البرلمان في أي بلد من البلدان قد حققوا من النتائج والمصالح الشرعية شيئاً كبيراً: أقله أنهم أقاموا الحجة، وصدعوا بالحق بطريق يقره الجميع، ويرضى به حتى أهل الباطل.. وهذا في حد ذاته هدف شريف وغاية مطلوبة ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٦٤] وكذلك استطاع الإسلاميون تقليل الشر، وتكثير الخير ويكفي أن نعلم أن قراراً تشريعياً واحداً صدر في الكويت مثلاً عن مجلس الأمة بتحريم الخمر قد حمى دولة الكويت من أم الخبائث وصان شبابها من أعظم أنواع الشرور، وقد حاول المفسدون مراراً وتكراراً كسر هذا القانون بتشريع آخر من مجلس الأمة فما استطاعوا.. وهذا تشريع واحد حمى الله به بلدا عن مثل هذا.. وإن كان هذا خيراً جزئياً لكنه في النهاية خير من انتشار الشر، وشيوع الفاحشة..

وأما أن الإسلاميين قد لا يصلون بالطريق الديمقراطي إلى تطبيق الشريعة كاملاً فنقول: إن الطريق طويل، والجهاد مع اللادينيين، وأعداء الإسلام في الداخل والخارج مرير، والجميع يعلم أن القرار الذي حال بين جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر وحيازة الحكم وتحكيم الشريعة إنما كان قراراً خارجياً من فرنسا التي حركت الجيش الجزائري الذي رباه الإستعمار والذي يستحيل أن يصل فيه من يحافظ على الصلاة على منصب ضابط صف، والذي يعزل فيه الجندي وينفى إلى أقصى أرض الجزائر إذا كان يصلي..

ونقول الطريق طويل.. ولا بد من تخطي العقبات حتى يصل المسلمون إلى

تطبيق شريعة الله كاملة في أرض الإسلام بل في العالم أجمع وهو كائن بحول الله لا محالة.

٦ـ الكثرة مذمومة وهي على الباطل:

وقالوا بأن الديمقراطية هي حكم الأغلبية وقد ذم الله الكثرة وبين أنها دائما على الباطل كقوله تعالى ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٦].

والجواب: أنه هذا بالنسبة لأمة الإسلام وأمة الكفر.. فأمة الإسلام تظل أقل عدداً من أمم الكفر كما قال ﷺ [ما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود].. الحديث.

وأما أهل الإسلام فاجتماعهم معصوم لقوله ﷺ [لا تجتمع أمتي على ضلالة] والكثرة أدعى أن يكون الحق معها من القلة. وإذا كان يوجد الحق مع القلة أحيانا فشذوذ.. ألا ترى أن جمهور الصحابة مثلاً إذا اتفقوا على رأي كان هذا أقوى من أن يخالفهم صحابي واحد أو اثنين وإن وجد في وقت ما أن الحق قد يكون أحيانا مع القلة فنادر وشاذ.

والكثرة المطلوبة هنا هي كثرة أهل الحق والصلاح. وليست كثرة المفسدين والضالين. فتنبه لهذا الأصل.

ثم إنه قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأغلبية والكثرة في الشعوب الإسلامية تحب الخير، وتريد تحكيم شريعة الله، وتؤيد الحق، وأنه في الوقت الذي يُخَلَّى بين الناس واختيارهم فإنهم لا يريدون بالإسلام بديلاً، ولذلك يعمد المجرمون في بلاد الإسلام إلى تزييف إرادة الناس، وحجب أصواتهم، وتزوير الإنتخابات، ومنع الجماهير الإسلامية بكل سبيل أن تختار ما تريد..

والذين يفتون ويمنعون أهل الخير والصلاح من الإنتخابات البرلمانية يقدمون أعظم خدمة لهؤلاء المزورين الذين يتسلطون على رقاب الناس بدعوى أنهم ينفذون إرادة الجماهير، وعموم الأمة، والحال أنهم يحكمون برأي القلة الفاسدة الضالة.

٧ـ قولهـم بأن تولي الولايات العامة والدخول إلى المجالس التشريعية فتنة لمن يدخل فيها حيث تأخذه المظاهر وتلهيه الدنيا ويغره السلطان:

والجواب: أن العيب في ذلك ليس في تولي الولايات العامة وإنما العيب في الأشخاص.

«وإلا فكثير من علماء الدين قد باعوا دينهم من أجل الدنيا، وأفتوا بما يرضي السلاطين، وأهواء الناس، وكتموا الحق إرضاء للعامة وحفاظا على مناصبهم، والعيب ولا شك ليس في المنصب الديني، ولا في المشيخة نفسها وإنما هو في النفوس والقلوب والتربية السيئة.

ولا يخفى أن كثيراً من الدعاة المسلمين، خاضوا التجربة السياسية، وغشوا الحكام ونصحوا لهم في الله، وحاولوا تأسيس الأحزاب الإسلامية، وكانوا في كل ذلك مجاهدين صابرين ملتزمين. بل المؤمن الحق لا يزيده العمل من أجل الله في أي ميدان من الميادين إلا قوة وعزيمة وإخلاصاً ووفـاءً لدينه، وحفاظاً على حدود الله ـ سبحانه وتعالى ـ». (انظر هذا بتفصيل في كتابنا «المسلمون والعمل السياسي»).

ونذكر بما قلناه وأسلفناه من نقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث يقول..

«فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله أفضل القربات». (الفتاوي ٢٨/ ٢٩٠)

فمن أخـذ الولاية على هذا النحو فلا شك أنه موفق صالح، وأما من أخذها اتباعاً لهواه، ورغبة في الدنيا فلا شك أنه يفسد بها، [وإنما الأعمال بالنيات] ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩].

ففسـاد من فسـد ممن تولوا منصب عامة: وزارة، أو نيابة عامة لا حجة فيها على فساد تولي الولايات العامة، لأن كثيراً من الناس يفسد بالمال وليس هذا دليلاً على تحريم طلبه، ويفسد كذلك بالعلم الشرعي، وتعظيم الناس له وليس هذا دليلاً على تحريم طلب العلم الشرعي وهكذا.. ممن أفسده المنصب فلأن عنده قابلية الفساد

وليس ذلك من المنصب نفسه وإلا فالمنصب مكان صالح وعظيم لعبادة الله عز وجل، ألا ترى أن الإمام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله!!

٨ـ وقالوا أيضاً: (إن طريق النيابة التشريعية) أمر مستحدث لم يفعله رسول الله ﷺ.

فالجواب:

أولاً: «قد ثبت أن الرسول ﷺ قد مارس العمل السياسي بكل معانيه الطيبة الخيرة من تكوين أمة وجماعة، والدعوة إلى عقيدة تحطم كل العقائد الموجودة، وتنادي بوجوب إزاحة بل إزالة كل عقبة تقف في وجه دعوة الإسلام، ووجوب جعل السلطان لأمة الإسلام، ثم قد مارس رسول الله ﷺ كل أعمال الحكم والسيادة، من تولية الولاة، وإرسال الجيوش والبعوث، والرسل، وتنظيم الدولة، وإقامة الحدود، وعقد المعاهدات، وهذا في حال القوة وأما في حال الضعف فإن رسول الله ﷺ قد طلب النصرة، وطلب الحماية، وقَبِلَها من الكفار ودعا إلى الله سراً، وجهراً وجاهر الكفار بالعداوة، وأنذرهم بالقتل وأعلمهم أن دينه خير الأديان وأنه سيفتح الأرض. وينال كنوز كسرى وقيصر.. وأن أمته ستكون أقوى الأمم وخيرها، وأعظمها سلطاناً وأمناً وتمكيناً.. وكل هذا في عرف الناس اليوم من الأعمال السياسية، فليسمِّه الناس ما شاؤوا سياسة أو غير ذلك إنها طبيعة الدعوة إلى الله، ومنهج القرآن، وسنة الرسول ﷺ، وعلى الذين يكتفون بمجرد تعلم العلم الشرعي وتعليمه أن يعلموا أنهم لم يسلكوا سبيل رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله، ولم يتبعوه حقاً وصدقاً، وإنما اشتغلوا بجزءٍ من الدين، وجانب من الإسلام.

ولا شك أن الرسول كَوَّنَ الجماعة المعاهدة المبايعة له على الموت في سبيل الله والجهاد في سبيل نصرة الدين، ونظم هذه الجماعة، وعلَّمها، ورباها على عينه وكانت هذه الجماعة بعد ذلك هي طليعة الأمة، ونواة الدولة، ونستطيع أن نطلق على جماعة الرسول الأولى (حزب الله)، وقد أقام الرسول ﷺ كل المؤسسات الممكنة في وقته. واستطاع بهذه الجماعة أن يهزم كل ما تجمع وتحزب أمامه من العرب واليهود

والنصارى والقبائل، والأعـراب، وما ترك رسول الله ﷺ الدنيا حتى كانت راية الإسلام تخفق فـوق الجزيرة كلها من أقصاها إلى أقصاها، وحتى أصبحت الأمة مهيئة لغزو الروم وفارس، بل إن النبي ﷺ بنفسه غزى الروم في السنة التاسعة، وجبنوا أن يلقوه» (المسلمون والعمل السياسي لعبدالرحمن عبدالخالق ص٧٢ـ٧٤).

وعلى أساس ما قدمنا أحببت القول أن تولي الولايات العامة، والدخول إلى مجلس تشريعي يستطيع فيه المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقلل جانبا من الشر وهذا الذي يسميه الناس عملاً سياسياً، ويحرمونه من أجل ذلك، هو داخل في مفهوم أعمال الدعوة التي مارس الرسـول ﷺ جنسها مما يطلق الناس اليوم عليه (العمل السياسي). والله تعالى أعلم.

ثانياً: أنه قد استجدت أمور كثيرة لم تكن في عهد رسول الله ﷺ وإنه على المسلمين أن يجتهـدوا فيها من أجل الوصول إلى الحق وإعلاء كلمة الله في الأرض.. ألا ترى أن حروب الردة لم يمارسها رسول الله ﷺ لأنه لم يوجد في وقته من يقيم الصلاة ويمنع الزكاة، وكذلك قتال البغاة لم يكن في عهد رسول الله ﷺ وقد فعل علي بن أبي طالب وقاتل من قاتله على أنهم بغاة أو متأولون كما قاتل الخوارج، وقاتل في الجمل وصفين.. وهذا لم يفعله رسـول الله ﷺ لأنه لم يكن في عهده بغاة، واليوم كما أسلفنا ابتلى المسلمون بسقوط دولتهم تحت أقدام الكفار، وأقام الكفار هذه الأنظمة الكفرية الديمقراطية، والسبيل ما قدمناه فإذا كانت المصلحة الشرعية تقتضي الدخول إلى المجالس التشريعية الحالية تقليلاً للشر، وحفاظاً على ما بقي من تشريع الإسلام، إلى أن يشاء الله حيث يتمحض الخير، وتقام خلافة الإسلام الراشدة، فهل يترك هذا لمزيد من الفساد والإفساد، وتسلم بلاد المسلمين إلى الفسقة والكفرة ليشرعوا ما شاءوا، ويستأصلوا ما بقى من دين الأمة؟

خاتمة

وأختم الآن بهذه الكلمات من كتابي (المسلمون والعمل السياسي):

«ولا شك أن أعداء الدين همهم اليوم هو الفصل بين المسلمين الدعاة منهم خاصة وبين العمل السياسي تارة يقولون: ما لكم وللسياسة، وتارة يقولون: لا يجوز تسييس الدعوة والجهاد، وتارة يقولون: بأنهم ما دعوا إلى الله إلا لمآرب سياسية وأغراض دنيوية، يريدون بهذا صرفهم عن الإهتمام بشؤون المسلمين، وإعلاء كلمة الله في الأرض، ليخلو الجو لأعداء الله، فيعيثوا في الأرض فساداً كما يريدون، ويحكموا المسلمين بأي قانون ونظام يريدون، ويجعلوا كلمة الدين هي السفلى، وكلمة الكفر والباطل والشرك هي العليا، ويحولوا بين دعاة الإسلام وبين السعي لعز أمتهم، وكرامة دينهم وإبلاغ رسالة ربهم، وإخضاع الناس لحكم ربهم، وأمر خالقهم وبارئهم.

وقد يغتر الدعاة بهذه الأقاويل وقد يظنوا أن البعد عن السياسة الشرعية أحفظ لقلوبهم، وأخلص لربهم ودينهم، أو أن السياسة مشغلة عن الدعوة لله، ظانين أن الدعوة فقط هي تأليف رسالة، وإضافة كتاب إلى المكتبة الإسلامية، أو الإنزواء في مسجد وزاوية، والإكثار من التعبد والزلفى، وبهذا يفسح المجال للأفاقين والكذابين واللصوص المتغلبة على أموال المسلمين ومقدراتهم، وتبقى الساحة السياسية في بلاد الإسلام نهباً لجهلة العساكر، ومحبي الزعامة، والفرق الباطنية الخبيثة، وأعداء الأمة، فيمسكون زمام الأمور ويعيثون في الأرض ظلماً وفساداً، فيتخذون أرض الله دولاً، وعباد الله خولاً حيث ينتهكون الأعراض، ويستبيحون الأموال، ويقصون الإسلام عن واقع الناس، ويستبدلون بشريعة الله الطاهرة شرائع الكفر الباطلة، ودعاة الإسلام غفلى يعللون أنفسهم بالأماني، ويشتغلون بالنوافل،

مضيعين للفرائض، ويفصلون بواقعهم بين الدين والحياة، والدين والحكم، والدين والعدل، والدين وإعلاء كلمة الله في الأرض، والدين والجهـاد في سبيل الله، وبذلك يقرون أعين الكافرين، وينفذون غافلين مخطط أعداء الدين، ويتركون قيادة الناس للمجرمين والمخربين والمفسدين، أليس هذا من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر؟!!» (المسلمون والعمل السياسي ص ٦٢ـ٦٣).

* * * *

كتاب

حكم تولي المرأة الولايات العامة والاشتراك في المجالس التشريعية

نائبة و ناخبة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم :

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، والصلاة والسلام على النبي المبعوث للناس كافة بأمر الله إلى قيام الساعة، وعلى أصحابه الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد، ،

فإن القول بأن من حق المرأة أن تكون عضواً مع الرجال في مجالس الشورى والحكم، وأن تتولى جميع الولايات العامة. وأنه يجب تسويتها مع الرجال في جميع الحقوق والواجبات قول منكر، وفيه من الافتئات على الشريعة، وتبديل الدين ما فيه؛ من أجل ذلك أحببنا أن نوضح هذا الأمر في هذه الرسالة الموجزة، لعل الله أن ينفع بها من شاء من عباده، والله سبحانه هو الموفق لكل خير. . أسأله سبحانه وتعالى السداد والرشد.

الباب الأول:

الأدلة على أن تولي المرأة للولايات العامة ودخولها إلى المجالس التشريعية ليس حقاً لها ولا واجباً عليها.

أولاً: إقرار الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا عدم تكليف المرأة بشيء من هذه الولايات:

الدليل الأول على أن تولي المرأة للولايات العامة، والتشريع للأمة من خلال مجالس الشورى، أو أية مسمى آخر ليس واجباً على المرأة، ولا هو حق لها، وأن الشريعة لم تأت به قط: هو أن رسول الله ﷺ لم يول امرأة قط شأناً من هذه الشئون، ولو كان هذا حقاً من حقوق المرأة، أو واجباً من الواجبات عليها لما أغفل الرسول ﷺ هذا الحق والواجب. كيف وهو رسول الله، الأمين على تطبيق شريعته، وتنفيذ أحكامه، وتبليغ رسالته؟ كيف والرسول صلى الله عليه وسلم قد مكنه الله، وكان الحاكم بأمر الله بين المسلمين قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٠٥].

وقد تولى النبي ﷺ جميع مهام الحكم: من القضاء بين الناس وتولية الأمراء، وعزلهم ومحاسبتهم، وإرسال الجيوش، وإعلان الحرب، وعقد الصلح والهدنة والسلم، ومخاطبة الملوك ودعوتهم وتهديدهم وإنذارهم، فقد أرسل لكسرى عظيم فارس (أسلم تسلم) ولقيصر عظيم الروم (أسلم تسلم..).. الخ وولى رسول الله أمراء على النواحي والمدن، في مكة وعمان والبحرين، واليمن وعلى الوفود، وولى

على الزكاة والصدقات. . ولم يثبت قط أن النبي ﷺ ولى امرأة واحدة في كل هذه الولايات. ولو كان تولي هذه الولايات أو بعضها واجباً على المرأة، لما أغفل النبي ﷺ هذا الواجب ولو كان حقاً كذلك من حقوق المرأة فما كان للنبي ﷺ أن يمنع النساء من هذا الحق. وهذا الدليل كما نرى من أصرح الأدلة وأظهرها، أن ما يقال إن تولى الولايات العامة حق للمرأة قول باطل. . فكيف يليق بالرسول ﷺ أن يغفل هذا الحق للنساء، وهو المبعوث بالرسالة، المأمور بتبليغها كاملة، وعدم النقص منها، قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٦٧].

ولم يثبت كذلك قط ولا نقل بأي صورة من صور النقل أن النبي أمر بأن تولى المرأة هذه الولايات، ولو في مستقبل الزمان. بل إن قول النبي في هذا الشأن كان على غير ذلك فقد جاء بمنع المرأة من هذه الولايات. كما سيأتي في الفقرة التالية.

وكذلك الحال مع أصحاب رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين الذين تولوا أمر المسلمين بعده: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؛ فإن أحداً منهم لم يول امرأة ولاية عامة: إمارة بلدة أو قضاء ناحية، أو قيادة جيش، أو أمراً عاماً كالزكاة، والقضاء، والوفود، والسفارة. ولا دخلت امرأة واحدة إلى مجلس الحكم أو الشورى لخليفة من هؤلاء الخلفاء الراشدون فكيف يجمع هؤلاء الخلفاء الأربعة في عصر الإسلام الزاهر على حرمان المرأة حقاً هو لها، أو واجباً أوجبه الله عليها؟! كيف وهذه الأمة لا تجتمع على باطل. . أليس حرمان المرأة حقاً من حقوقها أو عدم تمكينها من القيام بواجبها باطل؟! فكيف تجتمع أمة محمد ﷺ على ذلك!!؟

ثم هؤلاء خلفاء الإسلام الذين جاءوا بعد الخلافة الراشدة: بنو أمية، وبنو العباس، وبنو عثمان، وما تخلل ذلك من حكومات الإسلام هل كان منهم من ولى امرأة ولاية من هذه الولايات العامة؟ وهل كان منهم من جعل امرأة عضواً في مجلس التشريع؟ هل يتصور أن تظل أمة الإسلام على هذا الباطل في كل عصورها؟!

ثانياً: ليس هناك في الكتاب والسنة ما يثبت أن للمرأة حقاً في الولايات العامة أو أنه يجب عليها تولي الولايات:

الدليل الثاني أن القرآن ـ كتاب الله المحكم ـ وأقوال الرسول ﷺ ليس فيها ما يثبت هذا الحق، أو يقضي هذا الواجب. فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأداء الأمانات إلى أهلها.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

ولم يفسر الرسول ﷺ هذه الآية بقوله ولا فعله أن المرأة من أهل الولاية وأن من أداء الأمانة إلى أهلها توليتها. ولم يقل أحد قط من أهل العلم: إن المرأة هي أهل لتحمل أمانة الحكم.

وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ليس فيه حرف واحد يدل على أن تولية المرأة للولايات العامة واجب عليها أو حق لها. بل في القرآن ما يدل على غير ذلك وهو ما سنبينه في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

وأما السنة الفعلية للرسول ﷺ في توليته لأمرائه وولاته وقضاته فقد كانت على غير ذلك، فلم يول الرسول ﷺ امرأة قط ولاية عامة، على كثرة ما ولى صلوات الله وسلامه عليه!! وقد كان لديه مجموعة كبيرة من النساء الفضيلات العظيمات الحافظات العالمات كأمهات المؤمنين. مثل: أم سليم، وأم حرام بنت ملحان، ونسيبة بنت كعب الأنصارية، وأسماء بنت عميس. وغيرهن كثير من أهل الفضل والدين والعلم، ولم يول النبي واحدة من هؤلاء النسوة ولاية ما.

وكذلك هذه سنة النبي ﷺ القولية كلها: أين تجد فيها أن الرسول ﷺ قال إن للمرأة حقاً في الولاية العامة؟ أن تكون أميرة، أو وزيرة، او قاضية، أو نائبة، أو سفيرة.. الخ.

ثالثاً: آيات القرآن تمنع المرأة من الولايات العامة والخاصة:

الدليل الثالث أن آيات كثيرة من القرآن الكريم قد جاءت بمنع المرأة من الولايات العامة، بل ومن الولايات الخاصة (ولاية المنزل والأسرة)، فمن ذلك:

(أ) الولاية للرجل في الأسرة والمنزل:

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤]. وهذه الآية نص في قوامة المنزل والأسرة خاصة، وهي كذلك نص عام بجعل القوامة مطلقاً للرجال على النساء فإن ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] بالألف واللام للإستغراق، و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] بالألف واللام للإستغراق، فحيثما وجد رجال ونساء فإن الواجب الشرعي أن تكون القوامة للرجال دون النساء، والقوامة هنا هو القيام بأمر الغير، وتولي ولايته، ورجوع الأمر إليه.

وقد جعل الله كل ذلك للرجال، فعقد النكاح: الذي يتولاه هو الرجال دون النساء، والمرأة لا تعقد لنفسها، وجعل على المرأة الطاعة لزوجها، وحرم عليها النشوز عليه وهو العلو والارتفاع ورد أمره، وأعطى الرجل حق التقويم والتأديب، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤].

وهذه الولاية (ولاية أمر الأسرة والأولاد) هي أصغر الولايات، ولم يجعل الله للمرأة حقاً فيها، ولا واجباً عليها، بل الرجل هو الولي على المرأة زوجاً كان أو أباً، أو أخاً، أو ابناً. . فإن لكل هؤلاء الولاية على النساء.

وإذ منع الله المرأة من تولي هذه الولاية، فمن باب أولى منعها من تولي ما هو أكبر منها من الولايات. وقد استدل بهذه الآية من العلماء كل من قال بمنع المرأة من تولي الولايات العامة والقضاء.

(ب) جعل شهادة المرأة على العقود عند عدم وجود الرجل على النصف من شهادة الرجل:

قوله تعالى في آية الدين ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢].

وهذه الآية دليل صريح أن عقل الرجل أكمل من عقل المرأة. ومن لوازم ذلك منعها من الولاية عليه. وقد بين الرسول ﷺ هذه الآية وذكر السبب الذي جعلت شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل فقال: [أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل]. فقلن: بلى، فقال: [فذلك من نقصان عقلها] (البخاري، باب ترك الحائض الصوم). فكيف يولى المفضول على الفاضل.

وهذه الآية هي كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(ج) سليمان عليه السلام يزيل عرش بلقيس:

قوله تعالى فيما ذكره عن سليمان عليه السلام وملكة سبأ أن الهدهد جاءه مخبراً مستنكراً أمراً فظيعاً فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النمل، الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤].

وقد استنكر الهدهد من شأن هؤلاء القوم أمرين عظيمين: كون امرأة تملكهم، وكونهم يعبدون الشمس من دون الله!!

ولذلك عمل سليمان على إزالة هذين المنكرين جميعاً، فلما أرسل كتابه إليهم أمرهم بأمرين: هو أن يسلموا، وأن يأتوا إليه، وهددهم بقوله ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ [سورة النمل، الآية: ٣١] ولو كان متولي أمرهم رجلاً لأمرهم بالإسلام فقط وأقرهم على ملكهم إن أسلموا، وقد كان هذا في شريعته وشريعة نبينا ﷺ فإن النبي كان يدعو الملوك إلى الإسلام، فإن أسلموا أقرهم على بلادهم كما فعل مع ملك عمان، وملك البحرين. ومن لم يقبل من الإسلام حاربه.

وسليمان لم يكن ليقر امرأة لو أسلمت ويقرها ملكة على قومها لأن هذا مخالف لأمر الله وحكمه. ولذلك دعاها وقومها للإسلام وأن تأتي بنفسها إليه هي وقومها خارجة من ملكها قبل أن يرسل إليها من يخرجها وقومها..

ولما تيقن سليمان أن المرأة قد جاءته مسلمة مذعنة لم يكتف بهذا بل نقل عرشها كله إليه ليسل عرشها وينهي وجود هذا المنكر في كون امرأة تتولى هذا الشأن العام وهذه الولاية الكبرى في قومها . .

ولو كان تملك امرأة جائزاً في شرع سليمان لأقرها في حكمها بعد أن أعلنت إسلامها . ولما استحل أن يأخذ عرشها من خلف ظهرها . .

وفي شريعة محمد ﷺ أن الكافر إذا أسلم فقد عصم ماله ودمه كما قال ﷺ: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله] (رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، وهو متواتر كما قال الألباني) .

فدم الكافر وماله يعصم بمجرد قول لا إله إلا الله . ولو كان قالها تحت السيف . والشاهد أن سليمان عليه السلام إنما نقل عرش بلقيس إليه لأنه منكر أن تتربع امرأة على عرش ولذلك قال لمن حوله: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النمل، الآية: ٣٨] فقد كان يعلم أنهم استجابوا لرسالة الإسلام وقبلوا دعوة سليمان، ولم يحاربوا، ومثل هؤلاء إذا قبلوا الإسلام يجب قبوله منهم ولا يجوز غنيمة أموالهم ولا نسائهم . .

بل يجب إقرارهم على ملكهم، وعدم التعرض لشيء من أموالهم (وبسط أدلة هذا في غير هذا الموضع) وإنما الشاهد هنا بيان أن سليمان إنما أتى بعرش بلقيس مع مجيئها مسلمة إليه ليزيل هذا المنكر كلية، فيضم بلقيس الملكة إليه وينقل عرشها كذلك إليه . . ولو لم يكن هذا منكراً لما حل له أن يأخذ عرشها غنيمة وهي مسلمة . . كيف والغنائم كذلك كانت حراماً عليه في شريعة موسى ؟ فإن الغنائم لم تحل إلا لأمة محمد ﷺ ومقصد سليمان هو إزالة هذا المنكر: بقاء عرش امرأة كانت تحكم قومها . .

(د) النساء مأمورات بالقرار في البيوت :

قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ

ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤].

وهذه الآيات تعليم وتوجيه وأمر لازم لنساء النبي ﷺ في أدب الكلام ووجوب القرار في البيت والنهي عن تبرج الجاهلية. ولا شك أن الأمر بالقرار في البيوت لنساء النبي اللاتي هن قدوة جميع النساء ينافي تولي المرأة للولايات العامة التي من ضروراتها الخروج اليومي من المنزل، والخلطة بين الرجال، فإن امرأة تكون وزيرة أو أميرة أو قاضية لا بد لها من الخروج كل يوم والاختلاط بأصحاب الحاجات، ومعرفة الناس رجالهم ونسائهم.. وهذا ينافي أمر الله للنساء بوجوب القرار في المنزل.

(هـ) حجب المرأة عن الرجال أصلح لقلوب الجميع:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٣] وهذا أمر لأصحاب النبي في كيفية طلبهم حاجة من أمهات المؤمنين وهو ألا يسألونهن إلا من وراء حجاب (جدار أو ستارة ونحوها) وعلل الله ذلك بأن هذا أطهر لقلوب الصحابة، وأطهر لقلوب أمهات المؤمنين فكيف وهذه القلوب جميعها قد طهرها الوحي، والصحبة، ونقاها ضوء الإسلام الساطع في حياة النبي ﷺ.. فكيف بمن بعد عهدهم عن الوحي والصحبة.. ألا يرشد هذا إلى أنه كلما كان هناك حجاب بين المرأة والرجل الأجنبي عنها كان هذا أطهر وأكمل.. فكيف يتوافق هذا مع زج المرأة إلى الولاية العامة التي من شأنها ولوازمها الخلطة اليومية بين المرأة وبين غير محارمها.

والخلاصة أن آيات القرآن في هذا الشأن قاضية بوجوب دفع الأمانة وهي الولاية العامة إلى الرجال الأكفاء الأمناء، وأن تولية المرأة منكر عظيم فهو مع الكفر منكر إلى منكر ومع الإسلام أشد نكراً، وقد هب نبي وهو سليمان عليه السلام في ملكه بمجرد سماعه به حتى أزاله، وهو يبعد عنه آلاف الأميال. وأن الرجل هو الذي يتولى

شأن المرأة مطلقاً فهو سيدها في المنزل ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢٥]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤]. وأن المرأة ليس لها ولاية على ولد ولا أخ بل ولا على نفسها في زواج، فلا نكاح إلا بولي، وشهادتها إنما تجوز فيما هو من شأنها، وأما ما هو خارج شأنها فلا شهادة لها فيها، وإن شهدت فعلى النصف من شهادة الرجل، وأن عليها القرار في المنزل، والطاعة والقنوت للزوج، وأنها كلما كانت بعيدة عن الأجانب، كان هذا أحفظ لقلبها وقلـوب الرجال.. فأين من ذلك أن يكون القرآن قد جاء بتولية المرأة شئون المسلمين عامة؟

رابعاً: سنة الرسول ﷺ بأن المرأة لا تتولى ولاية عامة:

علمنا من سنة الرسول ﷺ العملية أنه لم يول امرأة قط في شأن من شئون المسلمين العامة على كثرة ما ولى ﷺ: أمراء للنواحي، وقواداً للجيوش، ونواباً على المال والزكاة، والصدقات، وبعوثاً للتعليم، وسفراء بينه وبين الملوك والرؤساء، وهذا وحده دليل كاف على أن المرأة لا حق لها في الولاية، ولا يجب عليها تولي شئون المسلمين. لأنه لو كان لها حق فيه لما منعه رسول الله ﷺ ولو كان واجباً لما ترك رسول الله إلزام النساء بهذا الواجب.

(أ) لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة:

وأما السنة القولية للرسول ﷺ فإنها قاضية كذلك أن تولية المرأة ولاية عامة هو أحد الآثام وهو دليل الخيبة والفشل. ومن ذلك قوله ﷺ: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] وسياق هذا الحديث على النحو التالي: روى البخاري بإسناده إلى أبي بكرة رضي الله عنه قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل. معهم قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] (رواه البخاري).

ووجه الشاهد في هذا الحديث ما يأتي:

أ. إخبار الرسول بأن أمر مملكة فارس إلى فشل وزوال وأنهم لا فلاح لهم بعد أن

ولوا أمرهم امرأة. وقد دل هذا على أن تولية المرأة للولاية العامة من أسباب الفشل وعدم الفلاح.

ب. إخبار الرسول إخباراً عاماً عن الفرس وغيرهم أن القوم الذين يولون المرأة الولاية العامة لا يفلحون لأن (قوماً) لفظ عام، (وامرأة) لفظ عام.. فيدخل فيه كل قوم ولوا امرأة عليهم.. وهل هو عام يراد به خصوص الفرس الذي جاء الحديث بشأنهم أم هو عام في كل الأقوام يحتمل هذا وهذا..

وعلى كل حال هو يعم كل قوم وكل امرأة في كل زمان ومكان فإن كان اللفظ عاماً يراد به العموم فهو كذلك، وإن كان عاماً يراد به الخصوص (أهل فارس) فإن القياس يجعل هذا عاماً في كل قوم.

ج. فهم أبو بكرة رضي الله عنه من هذا الحديث أن تولية المرأة دليل فشل سواء كان هذا في قوم كفار أو قوم مسلمين ومن أجل ذلك رجع عن الخروج مع الجيش الذي فيه أم المؤمنين رضي الله عنها.

د. استدل عامة من رأى من العلماء أنه ليس للمرأة ولاية عامة بهذا الحديث.

قال ابن حجر في فتح الباري: قال ابن التين «استدل بحديث أبي بكرة من قال: لا يجوز أن تولى المرأة القضاء وهو قول الجمهور، وخالف ابن جرير الطبري رحمه الله فقال: «يجوز أن تقضي المرأة فيما تقبل شهادتها فيه». أ هـ

وقد حاول بعض العلماء المعاصرين رد هذا الحديث فزعم أنه غير ثابت وهذا قول ساقط، فإن الحديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله، واتفقت الأمة على قبوله والعمل به منذ عصر الصحابة.

وزعموا أيضاً أنه مخصوص بأهل فارس فقط لما ولوا امرأة عليهم، وهو تخصيص بلا دليل، ولو كان مخصصاً بأهل فارس لكان من عمل مثلهم حكم عليه بمثل ما حكم الرسول عليهم!!

وقالوا إنما كان ذلك لما كانت المرأة لا تتعلم وتعرف أصول الحكم، أما اليوم فالمرأة لا تقل تعليماً عن الرجل.. وهذا من أغلظ الجهل فإن النساء في ذلك الوقت

كن يتعلمن كما يتعلم الرجال. . بل كان بعض النساء أوسع تعليماً من كثير من الرجال في ذلك الوقت، فقد كان منهن الشاعرات، والملكات، ومن ادعت النبوة، ومن نافسن الرجال في جميع الشئون.

(ب) الأحاديث النبوية المستفيضة في شأن المرأة لا تجعل للمرأة ولاية على غيرها، بل ولا على نفسها في أخص شأن من شئونها وهو النكاح فقد صح أن النبي ﷺ قال: [لا نكاح إلا بولي. .] وقد يكون الولي أباً أو أخاً أو عماً أو خالاً أو ابناً، وقد يكون بعض هؤلاء الأولياء أقل من المرأة سناً وعلماً. ولكنها لا تزوج نفسها بغير إذنه ورضاه.

وكذلك جاءت السنة بمنع المرأة من السفر وحدها دون محرم. قال الرسول ﷺ: [لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر يوماً وليلة إلا مع ذي محرم].

وأن لا تخلو بغير محارمها قال ﷺ: [إياكم والدخول على النساء]، قالوا: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: [الحمو الموت].

ومن أصرح ما جاء في السنة مما يعتبر دليلاً على منع المرأة من الولاية العامة كون المرأة تستطيع سلب الرجل لبه، وتبديل رأيه وأن هذا يكون منها مع نقصانها عقلاً وديناً عن الرجل. .

وقد جعل النبي هذا من جملة الذنوب التي على المرأة أن تسعى في تكفيرها فقد وعظ النبي ﷺ النساء في موعظة عامة يوم عيد فقال لهن: [يا معشر النساء تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار]. فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: [تكثرن اللعن وتكفرن العشير. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء]. . ثم انصرف. . (هذا لفظ البخاري من حديث أبي سعيد الخدري).

فقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث ثلاثة ذنوب تفشو في النساء ووعظهن بالحذر منهن، وبالتكفير عنهن وهذه الثلاث هي: كثرة اللعن، وكفران العشير، وكون الواحدة تستطيع أن تسلب الرجل الحازم لبه. أي فيقع في حرام أو يمتنع من واجب وأن الرجل مع حزمه وعزمه وكونه في الجملة أكمل عقلاً من المرأة، وأوفى ديناً منها

إلا أنها تغلبه على عقله وتميل به عن دينه!!

وقد استدل الرسول ﷺ في نقصان عقل المرأة عن عقل الرجل ونقصان دينها عن دينه.. بالقرآن الكريم فقال: [أليس المرأة إذا حاضت لم تصل ولم تصم!!] قلن: بلى. قال: [فذلك من نقصان دينها]. وقال: [أليست شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد] قالوا: بلى. قال: [فذلك من نقصان عقلها]..

أليس هذا دليلاً صريحاً على أن الرجل هو الذي يجب أن يتولى الشئون العامة مع الحذر أن يكون للمرأة تسلط عليه أن يقضي بغير الحق كما قال ﷺ لعائشة وحفصة رضي الله عنهما لما رددن عليه في قوله: [مروا أبا بكر فليصل بالناس] فقلن: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مكانك لم يسمع الناس من البكاء شيئاً. فقال: [مروا أبا بكر فليصل بالناس إنكن صواحب يوسف!!]، وأنه لا يجوز للمرأة أن تتولاها.

خامساً: إجماع الأمة على منع المرأة من الولايات العامة:

الدليل الخامس على تحريم تولي المرأة للولايات العامة هو الإجماع على ذلك من كل علماء الأمة في جميع عصورها. فلم ينقل عن واحد من العلماء جواز تولي المرأة الولاية العامة الكبرى (خلافة المسلمين) والإمامة العامة في الأمة على المسلمين جميعاً أو مجموعة منهم فتكون هي السيد الأعلى، والرئيس العام والإمام.. ولم يخالف في هذا الأمر أحد من علماء المسلمين قاطبة في كل عصورهم. ويكفيك بالإجماع حجة في هذا الأمر.

وأما الولايات التي هي دون الولاية الكبرى كالوزارة، والقضاء ونحو ذلك.. فقد شذ بعض أهل العلم فرأى جواز تولية المرأة القضاء فيما تصح به شهادتها فقط وليس القضاء العام. وهذا القول كذلك مردود لأنه لا دليل عليه وهو مخالف للقرآن والسنة وعمل المسلمين في كل العصور.

الباب الثاني:

الشبهات التي تذرع بها من قال إن المرأة يجوز لها تولي الولايات العامة.

والآن نأتي إلى الشبهات التي تذرع بها من قال إن للمرأة في شريعة الإسلام أن تولى الولايات العامة.

أولاً: قولهم ليس في القرآن والسنة ما يمنع ذلك:

الشبهة الأولى هو قولهم: إنه ليس في القرآن ولا في السنة ما يمنع تولي المرأة للولايات العامة، وأن الأصل هو الإباحة!! والجواب: أن قائلي هذا القول معرضون عما في القرآن والسنة مما يمنع من ذلك. فإن القرآن قد جعل الله فيه المرأة تابعة للرجل منذ خلقها وإلى قيام الساعة فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه لما خلق الله المرأة خلقها من الرجل لتكون فرعاً منه، وتابعا له. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١].

وعندما أسكن الله حواء الجنة لم يخاطبها هي ولم يخاطبهما معاً وإنما خاطب آدم عليه السلام فقال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٩]. ولم يكتف الله بالضمير المستتر في اسكن!! بل ذكر الضمير الظاهر بعده فقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٩] ليدل على أن المرأة تابعة في سكنها للرجل، ولا تسكن استقلالاً، ووجه الله الخطاب لآدم، ولم يوجهه لزوجته لأنه هو المسئول عنها والمتولي لشئونها!!

ثم جاءت آيات القرآن جاعلة المرأة في كل شئونها تابعاً للرجل فهو المنفق عليها ابنة وزوجة، وأماً، وأختاً، وهو المتولي أمرها في أخص أمورها وهو الزواج، والرجل هو الذي علقت الشريعة السعي بالرزق في عنقه ولم تكلف المرأة به، والقرآن هو الذي أمر بأن تؤدى الأمانات إلى أهلها فقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨]. والأمانات هي الولايات العامة والمرأة ليست من أهل هذه الولايات باتفاق الأمة وإجماعها.

وقد قال تعالى في نص يقتضي العموم: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٣] وقال في عقد النكاح: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٨] وقد فسرت الدرجة بأنها القوامة، وكون عقدة النكاح بيد الرجل.

ولما وجدت امرأة كافرة تعبد الشمس وتملكت في قومها سلط الله عليها عبداً صالحاً من عباده.. فأخرجها منه. ولما هداها الله للإسلام تبرأت من ذنبها السابق قائلة ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٤٤].

فكيف يقال بعد ذلك إن القرآن ليس فيه دليل على منع المرأة من الولاية العامة؟! سبحانك هذا بهتان عظيم وتقوّل على القرآن بغير علم.

وأما السنة: قولية وفعلية فهي شاهدة أن تولي المرأة للولايات العامة من أعظم الإثم بل هو دليل الفشل.. ويكفيك في هذا قوله ﷺ: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة].

ثانياً: الشبهة الثانية: استدلالهم بملكة سبأ.

وأما الشبهة الثانية فاستدلالهم بشأن ملكة سبأ، وأن الله ذكرها بخير، وذكر من حكمتها ومشورتها لقومها، ثم إخراجها قومها من الكفر إلى الإسلام، وتجنيبهم حرباً يكونون فيها خاسرين.

والجواب: نعم كانت ملكة سبأ امرأة عاقلة حكيمة تشاور قومها، ولا تقطع أمراً دونهم. قال تعالى عنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [سورة النمل، الآية: ٣٢]!! وأنه لما جاءها تهديد سليمان الملك!! تصرفت بحكمة العاقل الخبير بالأمم والملوك. فصانعت سليمان، بأن أرسلت إليه هدية، ولما علمت أنه ليس ملكاً من ملوك الدنيا ممن يشترون بالهدايا، وعلمت عزمه على غزوهم، وأدخل الله الإسلام في قلبها، طاوعت سليمان فخرجت عن ملكها، وجاءته تؤم قومها مسلمة مذعنة، وقد شكرت من أجل ذلك.

والسؤال: هل كان في القرآن إقرار لتملكها وترؤسها؟!.. لا بل هدهداً مؤمناً مع سليمان استنكر تملكها على قومها، قبل أن يستنكر كفرها وسجودها وقومها للشمس فقال لسليمان مستنكراً ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة النمل، الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤].

ثم إن سليمان قد سل عرشها، وأزالها عن ملكها، وهو العبد الصالح الذي يعمل بأمر الله.. والعجب أن يكون هذا الدليل الصريح من القرآن على منع المرأة من الولايات العامة دليلاً عند هؤلاء المعاصرين على جواز أن تكون المرأة ملكة وأن تولى ولاية عامة وهذا من العجب!!

ثالثاً: استدلالهم بخروج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

الشبهة الثالثة التي استدل بها من يقول بجواز تولي المرأة الولايات العامة هي استدلالهم بخروج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الجيش الذي حارب علياً رضي الله عنه في موقعة الجمل، ورجوع القوم إليها، وفيهم كبار الصحابة كالزبير بن العوام رضي الله عنه، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وغيرهما.

والجواب: أن عائشة رضي الله عنها لم تخرج ملكة ولا أميرة ولا متولية شئون هذه الجماعة.. وكان هؤلاء الصحابة قد بايعوا علياً رضي الله عنه بالخلافة، ولم يدعوا إلى خلافة أو ولاية غير ولاية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وإنما خرجوا من

أجل أمرين: الأمر الأول هو محاولتهم الصلح بين جيش علي رضي الله عنه، وجيش معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وخوفهم من نشوب الحرب بينهما، ثم ليطالبوا بقتل قتلة عثمان رضي الله عنه الذين التحقوا بجيش علي. وقد عمد الزبير وطلحة رضي الله عنهما إلى إخراج أم المؤمنين معهما لعله أن يسمع لها الجميع وذلك لعلمها ومكانتها وكونها أم المؤمنين والتي توفي الرسول ﷺ وهو راض عنها بل وهي أحب الناس إليه ﷺ فقد توفي ورأسه ﷺ بين صدرها ونحرها!! وقد ظنوا أن الجميع سيسمع لكلامها وتجتمع الأمة ولا تتفرق فقد كانت كما وصفها علي بن أبي طالب رضي الله عنه (أطوع الناس في الناس)، ولكن كان ما لم يكن في الحسبان وهو إشعال قتلة عثمان الحرب بين الفريقين حتى لا يصطلحا على قتلهم..!!

ومع أن أم المؤمنين رضي الله عنها قد خرجت في مهمة إصلاح ولم تكن ملكة ولا أميرة، ولا متولية شأن هذه الجماعة.. أقول ومع ذلك فإنها ندمت على هذا الخروج ندماً كثيراً، وتمنت ألا تكون خرجت. ولامها على خروجها كثير من الصحابة، وأنه كان يمكنها الإصلاح بين الناس من مكانها ومنزلها في بيت الرسول ﷺ.

والشاهد أن أم المؤمنين رضي الله عنها لم تخرج قط متولية شئون المسلمين وإنما كان خروجها خروجاً معنوياً لمنزلتها ومكانتها، ورغبة في الإصلاح بين المسلمين.. والله ـ إن شاء الله ـ يأجرها لاجتهادها في شأن الخروج، ولكنه كان اجتهاداً مرجوحاً تبين لها خطؤه فيما بعد.. فكيف يكون في هذا حجة لجواز تولي المرأة الولايات العامة وأن تكون رئيساً أو أميراً أو خليفة!!

ثم إن النبي ﷺ قد ذكر لزوجاته محذراً أن سيخرج منهن واحدة مسيراً تنبحها فيه كلاب الحوأب!! كما جاء في المستدرك على الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال: «لما بلغت عائشة رضي الله عنها بعض ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب!! قالت: ما أظنني إلا راجعة!! فقال الزبير: لا بعد!! تقدمين فيراك الناس، ويصلح الله ذات بينهم، قالت: ما أظنني إلا راجعة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كيف بإحداكن إذا نبحت عليها كلاب الحوأب؟!]».

ورواه الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن قيس قال: لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب. قالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب. قالت: ما أظنني إلا راجعة. فقال بعض من كان معها، بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل بينهم. قالت: إن رسول الله ﷺ قال لها ذات يوم: [كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب؟!].

وفي صحيح ابن حبان عن قيس قال: «لما أقبلت مرت ببعض مياه بني عامر طرقتهم ليلاً، فسمعت نباح الكلاب فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب!! قالت: ما أظنني إلا راجعة. قالوا: مهلاً يرحمك الله!! تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله بك. قالت: ما أظنني إلا راجعة إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب؟!].

قال ابن حجر رحمه الله: أخرج هذا الحديث أحمد وأبو يعلى والبزار وصححه ابن حبان والحاكم وسنده على شرط الصحيح (فتح الباري: ٦٦٩٠).

وهذا الحديث من أعلام نبوة النبي ﷺ وفيه الإنكار على أم المؤمنين رضي الله عنها قبل مسيرها. فكيف يستدل بفعل عائشة رضي الله عنها، ولم يكن لها ولاية. بل مجرد خروج مع جيش للإصلاح بين المسلمين وقد أنكر رسول الله ﷺ خروجها قبل أن تخرج، ولامت هي نفسها على هذا الخروج؟!

ثم إن أبا بكرة رضي الله عنه أنكر الذهاب مع هذا الجيش الذي فيه أم المؤمنين عائشة قائلاً: «لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم. قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة].

رابعاً: أم سلمة رضي الله عنها ومشاورة النبي لها:

ومما استدلوا به على جواز دخول المرأة إلى المجالس التشريعية قولهم إن رسول الله ﷺ استشار أم سلمة رضي الله عنها عندما لم ينفذ الصحابة أمر الرسول بالحلق والذبح والتحلل من العمرة في الحديبية، وأن النبي عمل بمشورتها.. وليس في

استدلالهم بهذه الحادثة حجة أو دليل من قريب ولا بعيد.

ولنأت إلى أصل القصة كما جاءت في صحيح الإمام البخاري رحمه الله من رواية الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه في قصة الحديبية وفيها قال: «فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه [قوموا فانحروا ثم احلقوا]، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟!! اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً».

وهذه القصة ليس فيها دليل على ترشيح المرأة لمجلس نيابي أو اختيار من ترشحه لمجلس تشريعي، وكل ما فيها أن النبي ﷺ لما دخل على أم سلمة رضي الله عنها شاكياً ما لقيه من الناس الذين أصابهم الغم لما وقع رسول الله صلح الحديبية، وكانت فيه شروط رأى المسلمون فيها ذلاً ومهانة، فإنها تقتضي بأن يرجعوا إلى المدينة دون إتمام عمرتهم في مكة وليس بينهم وبين مكة شيء!! وأن يعودوا لقضاء هذه العمرة نفسها العام القادم!! وأن من فر من المسلمين إلى قريش فلا يردوه، ومن فر من قريش مسلماً إلى الرسول رده إليهم!! وشروط أخرى لم يرتضها المسلمون إلا موافقة للنبي ﷺ وطاعة لله سبحانه وتعالى.

ولذلك لما أمرهم الرسول بالتحلل من العمرة في مكانهم بالحديبية لم ينشط أحد منهم لتنفيذ أمر الرسول.. فلما دخل الرسول ﷺ مهموماً وأخبر أم سلمة بما لقي من الناس أشارت إليه أن يخرج بنفسه فيحلق شعره، ويذبح هديه وأنهم سيفعلون.. وقد كان..

وليس في هذه القصة إلا أن الرسول ﷺ قد أخذ برأي أم سلمة عندما أشارت بهذا الرأي الصائب. وأن أم سلمة رضي الله عنها كانت راجحة العقل نافذة البصر. ويستفاد من هذا: جواز استشارة المرأة وجواز أخذ رأيها، وفضل أم سلمة رضي الله عنها،

وصبر الرسول ﷺ وحلمه، وما اعترى الصحابة رضي الله عنهم من الذهول والغم من جراء صلح الحديبية ثم ما من الله عليهم بعد ذلك من التسليم والطمأنينة كما قال تعالى في الآيات التي نزلت في هذه الحادثة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٤].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٦].

فما وجه الدلالة أن يكون سماع الرسول لمشورة أم سلمة دليلاً على جواز انتخابها وترشيحها..

وهل جعل الرسول أم سلمة عضواً يستشار، وهل كان لها ولأمهات المؤمنين مشورة في سياسة الأمة وهل كان لهما مع الصديق والفاروق ونظرائهم من الرجال رأي في اختيار الأمراء والوزراء، وإعداد الجيوش ونظام بيت المال!!

ولم يقل أحد: إنه يحرم لذي سلطان أن يستشير زوجته في شأن ما، أو يأخذ رأي النساء في قضية من القضايا كما للمرأة الحق في أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدل على الخير،..

ولكن أن يكون لها الحق أو عليها الواجب أن تتولى ولاية عامة إمارة أو وزارة، أو قضاء، أو تكون عضواً في مجلس تشريعي.. فليس في هذه القصة دليل على هذا الأمر.

خامساً: استدلالهم بتولي شجرة الدر شئون المسلمين في مصر:

ومن أقبح ما استدل به القائلون بتولية المرأة استدلالهم بتولي شجرة الدر التركية محظية الملك الصالح نجم الدين أيوب شئون الحكم في مصر وأنها قاتلت الفرنج وهزمتهم.. الخ.

وهذا من أقبح أنواع الاستدلال. فإن الحجة الشرعية إنما هي في كلام الله وكلام رسوله، وإجماع الأمة، ثم يستدل بعد ذلك بفعل الصحابة والراشدين، وقد يستدل

بعد ذلك بأقوال أهل العلم واجتهاداتهم. . أما أن تجعل الأعمال الخاطئة في القرون المتأخرة دليلاً شرعياً فهذا من العجب. .

وليتهم إذ استدلوا على ولاية امرأة في الإسلام ذكروا امرأة صالحة نافعة بل ذكروا مثالاً سيئاً لولاية المرأة، فإن شجرة الدر أم خليل التركية كانت مملوكة محظية للملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله. وبعد مقتل ابنه توران شاه رحمه الله على أيدي المماليك ولوا عليهم مملوكاً كان من مماليك الملك الصالح وهو عز الدين أيبك التركماني ثم إن عز الدين هذا تزوج بشجرة الدر وهي زوجة سيده. .

ولما كانت شجرة الدر ترى نفسها أفضل من زوجها فقد كانت هي زوجة للملك الصالح أم ولده (خليل)، وأما زوجها فكان عبداً مملوكاً عند الملك الصالح. ومن أجل ذلك اشتركت معه في الملك، وأمرت أن يدعى لها على المنابر مع زوجها المملوك عز الدين التركماني، ثم لما علمت بعد أن زوجها التركماني سيتزوج عليها ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ أمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضربه بقبقابها (القبقاب: نعال من خشب) والجواري يعركن في معاربه حتى مات وهو كذلك (البداية والنهاية ١٣/ ١٩٦).

ثم إن مماليك عز الدين أيبك لما علموا ما فعلته شجرة الدر بسيدهم أقبلوا بصحبة مملوكه سيف الدين قطز فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة!!

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا بعد الحجاب المنيع، والمقام الرفيع، وقد عَلَّمت على المناشير، والتواقيع وخطب الخطباء باسمها، وضربت السكة (النقود) برسمها، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٦] (البداية والنهاية ١٣/ ١٩٦).

وقال ابن كثير رحمه الله في ترجمتها:

شجرة الدر بنت عبدالله أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور، فمات صغيراً، وكانت تكون في خدمته (الملك الصالح) لا تفارقه حضراً ولا سفراً من شدة محبته لها وقد ملكت

الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعَلّمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر، ثم تملك المعز كما ذكرنا، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية بسنوات، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج عليها بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فعملت عليه حتى قتلته كما تقدم ذكره، فتمالأ عليها مماليكه المعزيّة فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله تعالى، وكانت قوية النفس، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئاً كثيراً من الجواهر النفيسة واللآلىء المثمنة، كسرته في الهاون لا لها ولا لغيرها، وكان وزيرها في دولتها الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليمان المعروف بابن حنا وهو أول مناصبه اهـ. (المصدر السابق).

وأقول: كيف يكون تولي مثل هذه المرأة تشريعاً عندنا ودليلاً على صحة ولاية المرأة!! هل هناك أقبح من هذا الاستدلال.

سادساً: قولهم إن النيابة ليست ولاية عامة:

ومن الشبهات قولهم إن النيابة ليست ولاية عامة وأنها لا تعدو أن تكون أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وإن الشريعة قد أجازت قيام المرأة بهذا بل أوجبته عليها كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧١].

والجواب: أن النيابة من الولايات العامة بل هي من أكبر الولايات العامة، لأن النائب بمقتضى الدساتير الوضعية، هو الذي يزكي الوزراء ويحاسبهم، ويعزلهم، ويسقط حكومة ويأتي بغيرها. فالنائب هو القيم والقائم بشأن غيره، بل هو المتولي حقيقة للولاية العامة، والوزراء هم وكلاء عن النواب في تنفيذ ما يشرعونه، ويأمرونه به، ولذلك فسلطة النائب أكبر من سلطة الوزير.. لأن من له حق التعيين والعزل والمحاسبة هو الذي له اليد العليا، فيكون هو الولي على غيره.. فكيف يقال إن النيابة ليست من الولايات العامة ولذلك فيجوز أن تتولاها المرأة؟.

سابعاً: قولهم إن ترشيح المرأة لغيرها وكالة:

ومن الشبهات قول بعضهم إن اختيار المرأة من تراه أهلاً للنيابة عنها في المجالس التشريعية ليس من الولايات العامة وبذلك يجوز لها أن تنتخب من تشاء لذلك، وأن هذا لا يعدو أن يكون توكيلاً. وللمرأة الحق في أن توكل من تشاء من الرجال في مصالحها الخاصة وهذا من المجمع عليه.

والجواب: أن ترشيح المرأة من تراه أهلاً ليس وكالة من كل وجه، وإنما هو بمثابة شهادة، ووكالة، وتزكية، واختيار للأصلح وللأكفأ.

فأما الشهادة فإنه لا تصح شهادة المرأة إلا في الشئون الخاصة بالنساء، وشهادتها على الدين إنما هو للضرورة عند عدم وجود الرجال كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢]. ولا شهادة للمرأة على عقود الزواج ولا في الحدود، ولا في الأمور التي ليست من شأنها..

وأما تزكية المرأة للرجال فإنها ممنوعة لأن التزكية تحتاج إلى خلطة والمرأة لا خلطة لها بالأجانب غير المحارم فكيف تزكيهم؟! وتشهد بعدالتهم..

وأما اختيار الأصلح والأكفأ فإن هذا يحتاج إلى علم أوسع بالرجال والناس، وتفضيل الكفء على غيره، وهذا لا دخل للنساء فيه.

ومن أجل ذلك لم يكن للنساء في هذا الأمر شأن قط لا في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد خلفائه الراشدين ولا في جميع عصور الإسلام.

وأما الوكالة فإنه يصح للمرأة أن توكل من تشاء في شئونها، ولكن النيابة ليست وكالة فقط، وإنما هي عقد تجتمع فيه كل هذه الأمور: الوكالة، والشهادة، والتزكية، وترشيح من يتولى الأمور العامة.. فقياس جواز الوكالة للمرأة على الترشيح للنيابة قياس باطل، وهو من قياس الشبه، وهو أبطل أنواع القياس، وهو مثل قول من قال «إنما البيع مثل الربا» نعم البيع يشبه الربا من حيث أن البائع والمرابي كل منهما يربح أكثر من رأس ماله، ولكنهما يفترقان في أمور كثيرة..!! إذ البائع مخاطر والمرابي

ضامن، وهذا يؤجر النقود، وهذا يبيع السلع. . !! وأحل الله البيع وحرم الربا.

والوكالة للمرأة جائزة، وليست النيابة وكالة، وإن كانت تشبه الوكالة من بعض الوجوه. . والقياس عليها إنما هو قياس شبه وهو باطل، لأنه ليس وكالة من كل الوجوه، ولكنه مع الوكالة شهادة، وتزكية، وترجيح بين المرشحين واختيار للأولى. . فهو عقد مركب من كل هذه الأمور.

ثامناً: قولهم إن الأحكام تتغير بتغير الزمان:

ومما استدلوا به في جواز تولية المرأة الولايات العامة قولهم إن الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان، وإن منع الرسول النساء من الولايات العامة وقوله عن أهل فارس لما ولوا بنت ملكهم [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] أن ذلك كان لأن النساء لم يكن يتعلمن في ذلك الوقت، وكن بعيدات عن أمور السياسة والحكم، وأما الآن فإن التعليم شمل الرجال والنساء، وقد تكون المرأة أعظم تعليماً من الرجل، فيجب قصر هذا الحكم على زمان الرسول. .

هكذا قالوا. . وهذا القول من أعظم الوسائل والأساليب لتبديل شريعة الله، وجعل أحكامها لفترة زمنية محددة، والانتقال إلى التشريع بالهوى والجهل، والقول على الله بلا علم. .

ولا شك أن كلام الله وكلام رسوله إنما هو للزمان كله والمكان كله ولا يختص شيء بالأحكام بزمان معين إلا ما جاء مقيداً بهذا الزمان. فالحلال ما أحله الله إلى يوم القيامة، والحرام ما حرمه الله إلى يوم القيامة والدين ما شرعه الله. .

ثم إن القول بأن النساء كن لا يتمكن من التعليم قديماً قول جاهل، فقد كانت الفرصة متاحة للجميع والعرب في الجاهلية التي كانت أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب كان فيها الشاعرات والأديبات والكاتبات كما الرجال، وكذلك سائر شعوب الأرض، فقد كانت سبأ تملكهم امرأة، والزبّاء كانت ملكة تدمر، ولما خرج متنبأ العرب من الرجال وهو مسيلمة ادعت امرأة النبوة مثله وهي سجاح. . والفرس ملكتهم امرأة، والرومان كانت المرأة تنافس الرجال في كل شيء. . وهند بنت عتبة

كانت أسود من زوجها، وأم جميل امرأة أبي لهب كانت أشد من زوجها على رسول الله.. والشاهد أن النساء في الجاهلية الأولى: العرب وغيرهم كن منافسات ومشاركات للرجال في كل شيء الشعر، والأدب، والسياسة، وفي كل شيء من الشئون العامة!!

وفي هذه المرحلة الزمنية التي كانت المرأة في كل الشعوب مشاركة للرجل ومساوية له جاء الإسلام بمنع المرأة من الولايات العامة. بل من ولاية الأسرة وبأن عليها اتخاذ ولي في النكاح وألا تزوج نفسها، وأن شهادتها عن النصف من شهادة الرجل ولا تشهد إلا على الأموال وعند عدم وجود الرجال، ويأمرها بالقرار في المنزل، ويأمرها بالحجاب، وأن تسأل من وراء حجاب وأن هذا أطهر من قلوب الجميع، وألا تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم.. الخ

وجعل كل هذه الأحكام مخصوص بوقت التنزيل وأنه في هذا الزمان يجب تغيير ذلك تبديل للشريعة ورفض لأحكام الله.

تاسعاً: قولهم إن ترشيح المرأة للنيابة العامة نوع من الشورى. وأن الشورى ليست ممنوعة على المرأة.

ومن الشبهات أيضاً قولهم إن ترشيح المرأة للنيابة العامة إنما هو نوع من الشورى، وأن الشورى ليست ممنوعة على المرأة لأن الله قال في كتابه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] وهذا يشمل الرجال والنساء.

والجواب: لا شك أن هذه الآية نازلة على النبي ﷺ، وعمل بها أصحابه من بعده فهل كان تطبيق الرسول لهذه الآية أن عقد مجلساً يشاور فيه النساء، أو جعل لهن مع الرجال مجلساً خاصاً بذلك. وهل شاور رسول الله النساء في قيادة الجيوش، وخطط للحرب، وتولية أمرائه وعزلهم، وفي شأن الوفود، وخطاباته إلى الملوك، وهل قام خلفاؤه من بعده بشيء من ذلك فجعلوا للمرأة نصيباً واجباً في هذه الشورى، أم أن مشاورة الرسول في هذه الشئون كانت للرجال فقط. فقد كان يشاور الشيخين أبا بكر وعمر، ويقول لهما: لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما، وشاورهما في شأن تولية

الأمراء وفي فداء الأسرى. وكان عمر بن الخطاب وزيراً لأبي بكر ومستشاره، وكان القراء (حفظة القرآن) هم أهل الشورى عند الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، ولم يكن لواحد من الخلفاء امرأة أو مجموعة من النساء يستشيرهن في أمور المسلمين.

فأخذ هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩] وجعل ذلك للرجال والنساء دون النظر في قول رسول الله وأصحابه من بعده يؤدي إلى خطأ جسيم في فهم القرآن والعمل به.

وأما كون الرسول ﷺ شكا إلى أم سلمة رضي الله عنها ما لقيه من عدم تنفيذ أصحابه لأمره بالتحلل من العمرة في الحديبية وإشارتها عليه أن يخرج هو ولا يكلم أحداً فيذبح هديه، ويحلق رأسه وأخذ الرسول بقولها ومشورتها، فمثل هذا لا يحرم ولا يمنع أن يسمع الرسول لرأي صائب من زوجته أو امرأة مسلمة أخرى في شأن من الشئون، كما روى الإمام البخاري بإسناده إلى أبي سعيد الخدري أن النساء قلن للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: [ما منكن امرأة تقدم ثلاثاً من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار]. فقالت امرأة: واثنين!! قال: [واثنين].

فإن هذا من الخير والحق، أعني السماع والعمل برأي المرأة ومشورتها غير ممنوع بل هو مشروع بأي صورة من هذه الصور شفاهاً أو كتابة أو لقاء، ولكن الممنوع هو تنصيب المرأة في هذه الولاية العامة، والقول بأن هذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨].

الباب الثالث:

واقع العملية الانتخابية

مما يجب أن يحمل على المنع من ترشيح المرأة وانتخابها ما يحتف ويقارن العملية الانتخابية في ظل الوضع الراهن وفي ظل الأنظمة والقوانين التي تنظم عملية الانتخاب والترشيح. فإنه من ضرورات التقدم والنجاح في النيابة العامة، المعرفة الواسعة بالناخبين ووجود ما يسمى بالقاعدة العريضة من المؤيدين ولا يحصل هذا إلا بالشهرة الواسعة والعلاقات العامة، والخلطة بالناس، والسعي في مصالحهم، والتعرف على مشكلاتهم، ولا شك أن خوض المرأة لغمار ذلك كله لا بد وأن يجعلها مبتذلة، مخالطة، ليس بينها وبين ناخبيها حجاب، ولا بينها وبين ناخبيها وسائط إلا للتعريف بها، وتقديمها للآخرين.

وهذا يؤدي بالضرورة إلى إلغاء كثير من التكاليف الشرعية الخاصة بالمرأة كالحجاب، والخلوة، وتجاوز العلاقة الزوجية إن كانت زوجة، والعلاقة الأبوية إن كانت بنتاً، وقوامة الأخ إن كانت أختاً. . وسقوط الحشمة. وانتهاك الحرمة.

هذا عدا القصور والتقصير حتماً في واجبات الزوجة إن كان للنائبة زوج، والأم إن كان لها أبناء، وإلا فكيف توفق نائبة في البرلمان بين كونها نائبة تؤدي خدمة حقيقية في النيابة، وزوجة يشغلها عقد الزواج بحقوق كثيرة للزوج. وللأبناء الذين لا غنى لهم عنها.

هذا عدا على أن عامة قوانين الانتخاب لا تشترط في المرشح إلا معرفة القراءة والكتابة ولا تشترط خلقاً ولا ديناً، ولا صلاة. .

فكيف إذا تقدمت لهذا الكاسيات العاريات المائلات المميلات ووجدن من يؤيدهن في إبراز الانحراف والشذوذ والميل عن جادة الحق والصواب. فهل يقال إن الشريعة الإسلامية لا تمنع من ترشيح المرأة وانتخابها..

وهل يملك الذين يقولون هذه المقالة أن يفرضوا على المتقدمة للنيابة أن تلتزم بالحجاب الشرعي؟! وألا تخلوا بغير محرم؟ وألا تسافر إلا مع ذي محرم؟ وألا تكون ناشزاً في البيت؟ وأن تكون من أهل الدين والعلم والعفاف والصلاة؟ حتى تكون أهلاً ـ كما زعموا ـ للنيابة الشرعية.. أم أنهم لا يملكون ذلك؟!

وإذا كانوا لا يملكون فما قيمة الفتوى إذن بأن الشريعة الإسلامية لا تمنع المرأة من أن تكون نائباً في البرلمان؟ وإذا قيل إن (الفتوى تتغير بتغير الزمان) كان تطبيق هذه القاعدة على حالنا هذه أهم من كل الحالات.. فلو فرضنا جدلاً أن المرأة كانت تشارك في الشورى في صدر الإسلام، وتجلس مع الرجال في مجلس واحد.. وهذا لم يحدث قط ولكن نقول هذا من باب الفرض جدلاً.. فإن الواقع الحالي يحتم منع هذا الأمر في هذا الزمان الذي فسد فيه الرجال والنساء إلا قليلاً، وليس هناك قانون رادع يعمل به في منع المرأة من التبرج والسفور، والسفر بغير محرم، بل وإظهار الفجور وانتقاد الشريعة والاعتراض على القرآن والسنة!!

فليتق الله من يفتي بغير علم قائلاً بملء فمه: إن الشريعة لا تمنع المرأة من أن تكون نائباً في البرلمان والمجالس التشريعية!!

إن واقع العملية الانتخابية. وما يلزم لها من تعريف المرأة بنفسها، ولقاءاتها مع مرشحيها، وبيان قدراتها، ومنافسة الرجال، ومحاولات الغلبة وما يصاحب ذلك من نشر المطاعن، ومواضع الضعف عند الآخرين. يدخل المرأة مع الرجال في تنافس غير نظيف، بل يجر المرأة إلى حروب قذرة، ونشر للفضائح..

ولا تمكين لأي تشريع معاصر في ظل القوانين المعمول بها في الانتخاب أن يمنع من ذلك. والذين يدعون أنه يمكن وضع ضوابط شرعية لانتخاب المرأة لا يدركون الواقع على حقيقته.

الباب الرابع:

أقوال سلف الأمة وعلمائها

في شأن إسناد الولايات العامة إلى المرأة

هذه طائفة من أقوال سلف الأمة وعلماء الإسلام في شأن إسناد الولايات العامة إلى المرأة:

(١) قال ابن حزم رحمه الله في معرض حديثه عن الخلافة:

«ولا خلاف بين أحد في أنها لا تجوز لامرأة» (الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٢٩).

(٢) قال الماوردي في الأحكام السلطانية في معرض كلامه عن الوزارة:

«ولا يجوز أن تقوم بذلك امرأة وإن كان خيرها مقبولاً لما تضمنه معنى الولايات المصروفة عن النساء لقول النبي ﷺ: «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة». ولأن فيها من طلب الرأي وثبات العزم ما تضعف عنه النساء ومن الظهور في مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور» (الأحكام السلطانية ص٤٦).

(٣) قال ابن قدامة في المغني:

(مسألة) قال أبو القاسم رحمه الله: (ولا يولى قاض حتى يكون بالغاً عاقلاً مسلماً حراً عدلاً فقيهاً ورعاً).

وجملته: أنه يشترط في القاضي ثلاثة شروط، أحدها الكمال: وهو نوعان: كمال الأحكام وكمال الخلقة، أما كمال الأحكام فيعتبر في أربعة أشياء: أن يكون بالغاً عاقلاً حراً ذكراً، وحكي عن ابن جرير أنه لا يشترط الذكورية لأن المرأة يجوز أن تكون مفتية فيجوز أن تكون قاضية، وقال أبو حنيفة: يجوز أن تكون قاضية في غير الحدود لأنه يجوز أن تكون شاهدة فيه.

ولنا قول النبي ﷺ: [ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] ولأن القاضي يحضره محافل الخصوم والرجال ويحتاج فيه إلى كمال الرأي وتمام العقل والفطنة والمرأة ناقصة العقل قليلة الرأي ليست أهلاً للحضور في محافل الرجال ولا تقبل شهادتها ولو كان معها ألف امرأة مثلها ما لم يكن معهن رجل. وقد نبه الله تعالى على ضلالهن ونسيانهن بقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢] ولا تصلح للإمامة العظمى ولا لتولية البلدان ولهذا لم يول النبي ﷺ ولا أحد من خلفائه من بعدهم امرأة قضاء ولا ولاية بلد فيما بلغنا ولو جاز ذلك لم يخل منه جميع الزمان غالباً. أهـ (المغني ٩/ ٣٩ـ٤٠).

(٤) قال الإمام القرطبي رحمه الله:

﴿. . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ . .﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٣] معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء. كيف، والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة. وروي أن عماراً قال لعائشة رضي الله عنها: إن الله قد أمرك أن تقري في منزلك. فقالت: يا أبا اليقظان، ما زلت قوالاً للحق. فقال: الحمد لله الذي جعلني كذلك على لسانك. وذكر الثعلبي وغيره أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبل خمارها. وخروج عائشة إلى حرب الجمل ما كان لحرب ولكن تعلق الناس بها وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ورجوا بركتها وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق. وظنت هي ذلك فخرجت مقتدية بالله في قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٤]

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٩] والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر أو أنثى. فهي مصيبة فيما تأولت مأجورة فيما فعلت إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب. ﴿ . . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ . . ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٣] في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصورتها فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها. (الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٧٩ وما بعدها).

(٥) قال الشيخ الإمام العلامة عبدالعزيز بن باز رحمه الله:

وقد سئل سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله تعالى من مجلة المجتمع حول ترشيح (بنازير بوتو) في الانتخابات الباكستانية التي أجريت في باكستان في ربيع الآخر ١٤٠٩هـ.

فأجاب رحمه الله: الحمد لله وحده، وبعد: فقد ورد إلي السؤال التالي من سعادة مدير تحرير مجلة المجتمع، ونصه: ما موقف الشرع الإسلامي الحنيف من ترشيح امرأة نفسها لرئاسة الدولة، أو رئاسة الحكومة، أو الوزارة.

الجواب: تولية المرأة واختيارها للرئاسة العامة للمسلمين لا يجوز، وقد دل الكتاب والسنة والإجماع على ذلك. فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] والحكم في الآية عام شامل لولاية الرجل وقوامته في أسرته، وكذا في الرئاسة العامة من باب أولى. ويؤكد هذا الحكم ورود التعليل في الآية وهو أفضلية العقل والرأي وغيرهما من مؤهلات الحكم والرئاسة.

ومن السنة قوله ﷺ لما ولى الفرس ابنة كسرى: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] (رواه البخاري).

ولا شك أن هذا الحديث يدل على تحريم تولية المرأة لإمرة عامة، وكذا توليتها إمرة إقليم أو بلد، لأن ذلك كله له صفة العموم، وقد نفى الرسول صلى الله عليه وسلم الفلاح عمن ولاها، والفلاح هو الظفر والفوز بالخير.

وقد أجمعت الأمة في عهد الخلفاء الراشدين وأئمة القرون الثلاثة المشهود لها بالخير عملياً على عدم إسناد الإمارة والقضاء إلى امرأة. وقد كان منهن المتفوقات في علوم الدين، اللاتي يرجع إليهن في علوم القرآن والحديث والأحكام، بل لم تتطلع النساء في تلك القرون إلى تولي الإمارة، وما يتصل بها من المناصب، والزعامات العامة، ثم إن الأحكام الشرعية العامة تتعارض مع تولية النساء الإمارة؛ فإن الشأن في الإمارة أن يتفقد متوليها أحوال الرعية، ويتولى شؤونها العامة اللازمة لإصلاحها؛ فيضطر إلى الأسفار في الولايات، والاختلاط بأفراد الأمة، وجماعاتها، وإلى قيادة الجيش أحياناً في الجهاد، وإلى مواجهة الأعداء في إبرام عقود ومعاهدات، وإلى عقد بيعات مع أفراد الأمة، وجماعتها، رجالاً ونساء في السلم والحرب ونحو ذلك، مما لا يتناسب مع أحوال المرأة وما يتعلق بها من أحكام شرعت لحماية عرضها، والحفاظ عليها من التبذل الممقوت.

وأيضاً فإن المصلحة المدركة بالعقل تقتضي عدم إسناد الولايات العامة لهن، فإن المطلوب في من يختار للرئاسة أن يكون على جانب كبير من كمال العقل، والحزم، والدهاء، وقوة الإرادة، وحسن التدبير، وهذه الصفات تتناقض مع ما جبلت عليه المرأة من نقص العقل، وضعف الفكر، مع قوة العاطفة، فاختيارها لهذا المنصب لا يتفق مع النصح للمسلمين، وطلب العز والتمكين لهم، والله الموفق.. وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه (مجلة المجتمع العدد ٨٩٠).

(٦) فتوى وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.. فقد عرض على الهيئة العامة للفتوى والاستفسار المرسل.

١٩٦٢ (قانون الانتخاب) حول مساهمة المرأة في انتخاب أعضاء مجلس الأمة،

وأحاطت الهيئة علماً بأن هناك تلازماً بين حق الانتخاب وحق الترشيح لعضوية مجلس الأمة، فكل من يملك حق الانتخاب يملك حق الترشيح، وذلك طبقاً للمادة (٨٢) من الدستور، فيكون الاقتراح شاملاً للأمرين معاً.

وقد أجابت الهيئة بما يلي:

(١) إن طبيعة عملية الانتخاب تناسب ما عليه الرجال من قدرة وخبرة واستعداد فطري، ذلك أنها إسهام في عملية التولية للأمور العامة، واختيار من تناط بهم، ومزاولة ذلك تتطلب خبرة ومخالطة ومعرفة تامة بمن يعهد إليهم بهذه الأعباء الثقيلة، والمسئوليات الجسام.

والرجال أقدر على ذلك وأولى بالنهوض بهذه المسئولية، ومن ثم فهم المنوط بهم تحمل المسئولية، وتحميلها أهلها، وبيان ذلك أن عملية الانتخاب يغلب عليها - من بين العناصر المختلفة المتداولة لتكييفها - أنها مشورة تتعلق بذات الشخص من حيث عدالته وكفايته (وليست كالمشورة التي تتعلق بالقيام بتصرف أو تركه).

وهذا النوع من المشورة يسميه الفقهاء (التزكية) وهي من مستلزمات أهلية الشهادة، ونحوها من الولايات العامة، والصفات فيمن يقوم بالتزكية أقوى من الصفات المشترطة لأهلية الشهادة، وكلاهما من باب الولاية، وفضلاً عما هو مقرر في شأن شهادة النساء تبعاً لمجالها، وعلاقة موضوعها بميدان النشاط الطبيعي للمرأة أو عدمها، فإنه ليس كل من تجوز شهادته تجوز تزكيته - كما يقول العتبي وابن رشد من كبار المالكية، ولا ينبغي لأحد أن يزكي رجلاً إلا رجلاً قد خالطه في الأخذ والعطاء، وسافر معه، ورافقه. (البيان والتحصيل لابن رشد (٩/ ٤٦١) و(١٠/ ٦٨).

أما صدور التزكية من النساء فيقول فيها الإمام مالك في المدونة (٥/ ١٦١) «لا تجوز تزكية النساء في وجه من الوجوه لا فيما تجوز فيه شهادتهن، ولا في غير ذلك، ولا يجوز للنساء أن يزكين النساء، ولا الرجال، وليس للنساء من التزكية قليل ولا كثير».

ويقول إمام الحرمين: «إن مما نعلمه قطعاً أن النساء لا مدخل لهن في تخير

الإمام وعقد الإمامة، والنساء لازمات خدورهن، مفوضات أمورهن إلى الرجال القوامين عليهن». (غياث الأمم ٦٢).

(٢) إن عدم مشاركة النساء في الانتخاب هو أمر استقرت عليه السوابق طيلة العصور الإسلامية، ولا سيما القرون الثلاثة الأولى التي شهد لها الرسول ﷺ بالخيرية، وذلك بمرأى ومسمع السلف الصالح من الأئمة والفقهاء، ولا يتصور تواطؤ تلك الأجيال المعروفة بالفضل والخير على تغيير حكم الشريعة، بحرمان المرأة حقاً من حقوقها..

(٣) وجود البدائل المشروعة التي يستغنى بها عما يراد تحصيله من مشاركة المرأة في الانتخاب، ذلك أن المرأة من خلال أمومتها ومشاركتها للرجل في الحياة الزوجية ونحو ذلك من الصلات الأسرية والعلاقات الاجتماعية والوظيفية تستطيع أن تؤدي دورها بطريق غير مباشر، لكنه سالم من المحاذير التي تلزم من مساهمتها (مباشرة) في الانتخاب، وهي تؤدي هذا الدور منذ وجدت، ولا تحتاج إلى أي مسوغ يمنحها هذا الحق، بل ليس في مقدور أحد أن يمنعها منه، لأنه حق طبيعي وشرعي تستطيع مزاولته دون أي إخلال بما نيط بها من مسئوليات أخرى، أو إهمال لما خصها به الشرع من صيانة ورعاية من خلال التشريعات التي شرعها للنساء، فدورها في المشورة الحسنة، والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم هو واجب إسلامي يشملها كما يشمل الرجل تماماً، وهي تؤدي هذه المهنة الجليلة من خلال أسرتها ومجتمعها، ولا سيما من خلال ممارسة التعليم والتطبيب ونحوهما مما يتفق مع طبيعتها، فضلاً عن وسائل الإعلام المتاحة دون أي محذور شرعي.

(٤) لو عهد بهذه المهمة إلى النساء (أيضاً) لأدى ذلك غالباً إلى التفريط في الواجبات والتكاليف الشرعية الأخرى ومن هنا اقتضت الحكمة صيانة النساء عما يؤدي بهن إلى الوقوع في المشكلات التي يغلب وجودها في المعارك الانتخابية، وليس هذا انتقاما للمرأة، أو إغفالاً لدورها المتميز.

(٥) التجربة المشهودة في البيئات المختلفة أكدت أن فتح مثل هذه الأبواب التي تخالف ما جاءت به القواعد العامة من الشريعة يستتبع تجاوزات أخرى أكثر خطورة،

ويستلزم تغييراً صريحاً لأحكام الشريعة المنصوص عليها كالميراث، والشهادة، والقوامة، وفي هذا ما فيه من الاضطراب والإخلال بالتأهيل الفطري لكل من الجنسين لما أعدهما الله له في حياتهما الاجتماعية المشتركة.

(٦) إن إعطاء المرأة (بتعديل القانون) حق الانتخاب يستلزم حصولها تلقائياً ـ بمقتضى الدستور ـ على حق الترشيح لعضوية مجلس الأمة، وهذا الترشيح بالنسبة للمرأة في حيز المنع شرعاً، للأدلة التالية (وهي كلها في ظل هذا التلازم بين الانتخاب والترشيح تعتبر أدلة إضافية على منع مساهمة المرأة في الانتخاب).

(٧) إن الشريعة الإسلامية في تطبيقها قد قصرت الولاية العامة على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة، وهو ما عليه الفقه العملي للمسلمين منذ عهد النبوة إلى الآن مع توافر الدواعي على اشتراك النساء في تلك الولايات لولا ما استقر في منـع ذلك، ولا يخفى أن عضويـة مجلس الأمة ولاية عامة لما فيها من سن القوانيـن، ومحاسبة السلطة التنفيذية، وما إلى ذلك من المهام المعروفة بالسلطة التشريعية.

(٨) عدم مطالبة المرأة بالاشتراك في شيء من الولايات العامة طيلة العهود الإسلامية الفاضلة، ولو كان ذلك حقاً لطالبت به النساء، بل لبادر المسلمون (ولا سيما أئمتهم في العلم أو الحكم) إلى إعطاء هذا الحق لهن، أو تمكينهن منه بتقرير ضمن الأحكام العامة.

(٩) الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي أن النبي ﷺ لما بلغه أن الفرس ملكوا ابنة كسرى قال: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة]. والمقصود من الحديث ـ كما قال الشراح ـ النهي عن مجاراة غير المسلمين في تولية المرأة شيئاً من الولايات العامة. الحديث وإن ورد في سبب خاص فإن العبرة في عموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قال علماء أصول الفقه.

(١٠) مع أن الأصل في الشريعة الإسلامية التسوية بين الرجال والنساء في التكاليف والأهلية والتصرفات، فإنها خصت كلا من الرجال والنساء بأحكام معروفة، عرف منها ومن قواعد الشريعة العامة بحسب الاستقراء في التطبيقات، أن كل ما كان قائماً

على الاجتماع والظهور والمخالطة ولم تدع إليه ضرورة أو حاجة عامة غالبة فإنه يختص به الرجال، كأصل فريضة الجهاد، وإيجاب حضور الجمع والجماعات.. الخ، فلم توجب الشريعة على النساء شيئاً من ذلك بل خصتهن بواجبات شرعية وأمور أخرى أولى بطبيعتهن، ومن كل ما ميادينه الأسرة أو النطاق الخاص بالنساء.

أما بيعة النساء التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ١٢].

فإن مضمون هذه البيعة يدور حول التزام النسوة بالطاعة، والمعروف، واجتناب المنكرات والمعاصي، وليس في بنود البيعة شيء من مقتضى الولاية العامة، بدليل ما تميزت به بيعة الرجال من المعاقدة على الجهاد، وعدم منازعة الأمر أهله ففيها: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله.

وكذلك ما حصل من مشاركة بعض النساء في بيعة العقبة (دون قصد لتلك المشاركة) لأن تلك البيعة في حقيقتها معاقدة على حماية الرسول ﷺ لإبلاغ الدعوة، فهو عبارة عن عهد جوار وأمان، والمرأة من أهل إعطاء الأمان، وإجارة المستجير من خلال الروابط المختلفة؛ وطبقاً لهذا جاءت القاعدة المقررة بشأن وحدة المسلمين وأمانهم.

وما وقع كذلك من أمثلة نادرة في التاريخ الإسلامي مع استنكار العلماء لها لا تخفى ظروفها من التغلب ومضاعفاتها الخاصة والعامة، على أن هذه الوقائع لا تصلح للاحتجاج ولا للاستئناس؛ لأنها لم يستأمر فيها حكم الشرع، وهو الحال في بعض ما هو قائم الآن في البيئات الأخرى من تطبيقات سواء كانت في الترشيح، أو الانتخاب في المجالات العامة لم يؤخذ الرأي الشرعي كذلك في التطبيقات الخاصة ببعض المجالات الاقتصادية كالجمعيات التعاونية، أو المجالات الطلابية (مما هو

في أصل طبيعته خاص بشئون تجارية أو دراسية مباشرة) على أن تلك التطبيقات الخاصة لا تخرج في طبيعتها عن التوكيل (بشيء من القيود الملائمة لظروف النشاط الاقتصادي الجماعي، أو الأحوال الغالبة من شئون الطلبة) وشتان بين ممارسة الولاية العامة، أو القيام بمهمة الانتخاب التي هي اختيار لمن يتولاها، وبين التوكيل في هذه المصالح الخاصة مما يسهل بعيداً عن المحاذير القائمة في سواء.

ولما كان من المقرر أنه في غيبة النصوص الخاصة من الكتاب والسنة يشار إلى النصوص العامة أو الخاصة بموضوعات مشابهة في المعنى، وهو ما سبق بيانه من الأدلة فضلاً عن القواعد العامة للشريعة ومراعاة مقتضيات الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء مما رده إلى النصوص القطعية.

فلهذه الأدلة سواء ما كان منها مباشراً على منع المساهمة في الانتخاب ذاته، أو كان دليلاً على منع الترشيح المتلازم معه، ترى الهيئة العامة للفتوى عدم مساهمة المرأة في الانتخاب، وبقاء الأمر على ما هو عليه، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. انتهى.

(٧) فتوى لجنة الفتوى بالأزهر الشريف:

قالت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف: أما الولايات العامة ـ ومن أهمها مهمة عضو البرلمان وهي سن القوانين والهيمنة على تنفيذها ـ فقد قصرتها الشريعة الإسلامية على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة.

وقد جرى التطبيق العملي على هذا من فجر الإسلام إلى الآن. فإنه لم يثبت أن شيئاً من هذه الولايات العامة قد أسند إلى المرأة، لا مستقلة ولا مع غيرها من الرجال، وقد كان في نساء الصدر الأول مثقفات فضيلات، وفيهن من تفضل كثيراً من الرجال كأمهات المؤمنين.

ومع أن الدواعي لاشتراك النساء مع الرجال في الشئون العامة كانت متوافرة لم تطلب المرأة أن تشترك في شيء من تلك الولايات ولم يطلب منها الاشتراك ولو كان لذلك مسوغ من كتاب أو سنة لما أهملت مراعاته من جانب الرجال والنساء باطراد.

هذه قصة سقيفة بني ساعدة في اختيار الخليفة بعد الرسول ﷺ قد بلغ فيه الخلاف أشده، ثم استقر الأمر لأبي بكر، وبويع بعد ذلك البيعة العامة في المسجد، ولم تشترك امرأة مع الرجال في مداولة الرأي في السقيفة، ولم تدع لذلك، كما أنها لم تدع ولم تشترك في تلك البيعة العامة.

وكم من اجتماعات شورية من النبي ﷺ وأصحابه، ومن الخلفاء وإخوانهم في شئون عامة لم تدع إليها المرأة، ولم تشترك فيها.

ثم قالوا بعد ذكر أدلة الحكم السابق: ومن هنا تقرر لجنة الفتوى، أن الشريعة الإسلامية تمنع المرأة ـ كما جاء في الحديث الشريف ـ أن تلي شيئاً من هذه الولايات، وفي مقدمتها ولاية سن القوانين التي هي مهمة أعضاء البرلمان.

هذا ـ وليس من الولايات العامة التي تمنع منها المرأة ما يعهد به إلى النساء من الوظائف والأعمال كالتدريس للبنات، وعمل الطبيبة، والممرضة في علاج المرضى من النساء وتمريضهن، فإن هذه الأعمال وما شابهها ليس فيها معنى الولاية، الذي هو سلطان الحكم، وقوة الإلزام.

ثم قالت لجنة الفتوى بالأزهر:

أما الأمر الثاني وهو اشتراكها في انتخاب من يكون عضوا يه فاللجنة ترى أنه باب تريد المرأة أن تنفذ منه إلى تلك الولاية العامة التي حظرتها عليها الشريعة. ذلك ان من يثبت له حق الاشتراك في الانتخابات فإنه يثبت له حق ترشيح نفسه لعضوية البرلمان متى توافرت فيه الشروط القانونية لهذه العضوية. وبعيد أن ينشأ للمرأة قانون يبيح لها الاشتراك في التصويت ثم يمنعها ـ لأنوثتها ـ من ترشيح نفسها للعضوية وهي التي لا تقتنع بأن الأنوثة تمنعها من شيء ولا ترضى إلا بأن تكون مساوية للرجل في كل شيء.

وإذا لا يصح أن يفتح لها باب التصويت عملاً بالمبدأ المقرر في الشريعة والقانون: أن وسيلة الشيء تأخذ حكمه. فالشيء الممنوع بسبب ما يلازمه أو يترتب عليه من ضرر أو مفسدة تكون الوسيلة إليه ممنوعة لهذا السبب نفسه، فإنه لا يسوغ

في عقل ولا شرع أن يمنع شيء لما يترتب عليه أو يلازمه من مضار ويسمح في الوقت نفسه بالوسائل التي يعلم أنها تتخذ طريقاً إليه.

وبهذا يتبين أن حكم الشريعة في انتخاب المرأة عضو البرلمان كحكمها في اختيارها لتكون عضواً فيه. كلاهما ممنوع.

هذا ـ ويتبين للقارىء مما قدمنا أن الحكم في المسألة بشقيها على هذا الوجه لم ينظر فيه إلى شيء آخر وراء طبيعة هذين الأمرين.

أما إذا نظرنا إلى ما يلازم عملية الانتخاب المعروفة والترشيح لعضوية البرلمان من مبدأ التفكير فيه إلى نهايته. فإننا نجد سلسلة من الاجتماعات والاختلاطات والأسفار للدعاية والمقابلات وما إلى ذلك مما تتعرض المرأة فيه لأنواع الشر والأذى، ويتعرض لها فيه أرباب القلوب المريضة الذين ترتاح أهواؤهم وتطمئن أنفسهم لمثل هذا الاختلاط بين الرجال والنساء.

فهذه مواقف لا ينبغي للمرأة أن تزج بنفسها في معتركها غير المأمونة، ويجب عليها أن تنأى بنفسها عنها حفظاً لكرامتها وصوناً لسمعتها. وهذا واقع لا ينبغي إغفاله أو التغافل عنه، ويجب تقدير الأمور وتقرير الأحكام على أساسه، وقد تكفي هذه الإشارة في التنبيه إلى مضار الاختلاط في اجتماعات الرجال بالنساء.

وآيات من الكتاب العزيز ترسم لنا الطرق الصالحة في التربية الاجتماعية والتهذيب الخلقي والأدب الديني الصحيح فعلينا أن نعتبر بها ونقيس بتعاليمها ما هو واقع في اجتماعاتنا لنعرف مدى قربنا أو بعدنا من هذه التعاليم:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ

إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١].

رمضان سنة ١٣٧١، يوليو سنة ١٩٥٢

رئيس لجنة الفتوى: محمد عبدالفتاح العناني

(٨) قال الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد ـ حفظه الله ـ:

فالقوامة والرياسة تكون للرجال عن النساء والمعروف أن البرلمان له ولاية على الوزراء ويمكنه إسقاط الحكومات فهل تتولاه النساء وهن للرجال مرؤوسات؟ وقد شبههن الرسول ﷺ بالأسيرات في قوله: [أنهن عوان بينكم]، ولقد شاور النبي ﷺ أصحابه في كثير من الأمور ولم يثبت أن أشرك في هذه المشاورات مع كثرتها امرأة واحدة قط لإبداء رأيها. ولقد ولى رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم إمارة المدينة حينا توجه للحرب وكان ابن أم مكتوم رجلاً أمياً، ومع ذلك لم يول الرسول وقتذاك واحدة من النساء مع وجود أمهات المؤمنين ونساء الصحابة الفضليات. فلو كان لهن حق الولاية أو النيابة لكانت عائشة أولى من ابن أم مكتوم. (حقوق المرأة في الإسلام ص٤٢).

(١٠) قال الشيخ أبو الأعلى المودودي: في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٨]

فالدرجة هي القوامة وهي ليست مقصورة على الحياة العائلية لأن قوامة الدولة أخطر شأناً من قوامة البيت ولأن النص القرآني لم يقيد هذه القوامة بالبيوت. (نظرية الإسلام وهديه ص٣١٩).

وقال المودودي أيضاً: إن قوامة الرجال على النساء لا تقتصر على البيوت بدليل أنه لم يذكر البيوت في الآية، فهي إذن قوامة عامة على سائر البيوت كذلك، ثم إذا جعل الله قوامة على المرأة المفردة في بيتها فهل يظن بالله أن يجعل للمرأة قوامة على

ملايين في حين أنه لم يجعلها لها على بيت هو بيتها. (تدوين الدستور الإسلامي ٨٧ـ٨٨).

ويقول المودودي أيضاً: هل يعود الضمير في الآية ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] إلى الرجال وحدهم دون النساء؟ ألا يمكن أن يكون هذا الحكم شاملاً للنساء مع الرجال؟

الجواب: إن القرآن لا يعارض بعضه بعضاً، ولا تخالف آية منه آية أخرى بل هي تشرحها.

فالقرآن الذي قيل فيه ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] جاء فيه نفسه ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] وهكذا أوصد القرآن على النساء باب مجلس الشورى، وهو قوام على الأمة كلها. ومع ذلك لا يزال ما جرى عليه العمل في عهدي النبوة والخلافة الراشدة ماثلاً لدينا وهو أوثق وسيلة لمعرفة كيف نفهم وجهة القرآن، فلا نجد في كتب التاريخ ولا الحديث مثالاً يشهد بأن النبي ﷺ أو أحد الخلفاء الراشدين أشرك النساء في مجلس الشورى. (تدوين الدستور الإسلامي).

وقال المودودي أيضاً في مقال طويل:

قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤]، وقول الرسول ﷺ [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] (رواه البخاري). هذان النصان يقطعان بأن المناصب الرئيسية في الدولة ـ رئاسة كانت أو وزارة أو عضوية في مجلس شورى أو إدارة مختلف مصالح الحكومة ـ لا تفوض إلى النساء. وبناء على ذلك مما يخالف النصوص الصريحة أن تنزل النساء تلك المنزلة في دستور الدولة الإسلامية، أو أن يترك فيه مجال لذلك، وارتكاب تلك المخالفة لا يجوز البتة لدولة قد رضيت لنفسها التقيد بإطاعة الله ورسوله.

وهنا يسأل المعترضون: ما هي المبادىء الإسلامية التي تمنع عضوية النساء لمجلس الشورى؟ وما هي أحكام القرآن والسنة التي تخص الرجال وحدهم بعضوية هذه المجالس؟

وقبل أن نجيبهم على هذا السؤال، يلزمنا أن نبين حقيقة تلك المجالس التي قد جرى الكلام في استحقاق المرأة لعضويتها.

إن تسمية هذه المجالس بالتشريعية مما يوهم الناس أن وظيفتها سن القوانين فحسب. والمرء إذا توهم هذا الوهم الخاطىء ورأى أنه كانت النساء أيضاً في عهد الصحابة رضوان الله عليهم يتكلمن في مسائل القانون ويبحثن ويبدين آرائهن فيها؛ وكثيراً ما كان الخلفاء أنفسهم يستشيرونهن ويعتدون بهن، أستغرب أن تحرم النساء اليوم من عضوية مثل تلك المجالس بحجة المبادىء الإسلامية. والحقيقة أن المجالس التي تدعى بمثل هذا الاسم في عصرنا هذا، ليست وظيفتها مجرد التشريع وسن القوانين، بل هي بالفعل تسير دفة السياسة في الدولة، فهي التي تؤلف الوزارات وتحلها؛ وتضع خطة الإدارة، وهي التي تقضي في أمور المال والاقتصاد، وبيدها تكون أزمة أمور الحرب والسلم. وبذلك كله لا تقوم هذه المجالس مقام الفقيه والمفتي، بل تقوم مقام (القوام) لجميع الدولة.

هنا يجمل بنا أن نرجع إلى القرآن وننظر من ينزله هذه المنزلة في حياة الجماعة ومن لا ينزله، وهذا قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤].

فأنت ترى أن الله تعالى يؤتي فيه الرجال مقام (القوام) بكلمات صريحة ويبين للنساء الصالحات مزيتين اثنتين: أولهما: أن يكن مطيعات، والأخرى: أن يكن حافظات لما يريد الله تعالى أن يحفظنه في غيبة أزاوجهن.

وقد يقول المعترض في هذا المقام: إن هذا الحكم إنما يتعلق بالحياة العائلية، لا بسياسة الدولة. فنقول: إن القرآن لم يقيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت، ولم يأت بكلمة (في البيوت) في الآية، مما لا يمكن بدونه أن يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية. ثم هبنا نقبل منكم هذا القول، فنسألكم: آلتي لم يجعلها الله تعالى قواماً في البيت بل قد وضعها في موضع القنوت إلى منزلة القوامة على جميع البيوت، أي على جميع الدولة؟ أمن شك في أن قوامة الدولة أخطر شأناً وأكثر

مسئولية من قوامية البيت؟ فهل أنتم تظنون بالله أنه يجعل قواماً داخل بيتها.

ثم ارجع البصر في القرآن، إنه يحدد دائرة أعمال المرأة بهذه الكلمات الصريحة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٣] وعسى أن يعود المعترض فيقول: هذا الأمر إنما أمرت به نساء النبي ﷺ، فنحن نسأله: هل كان بنساء النبي ﷺ عجز دون سائر النساء لا يدعهن يقمن بالأمور خارج البيت. وهل تفوقهن سائر النساء بفضل في هذه الناحية؟ وإذا كانت جميع آيات القرآن بهذا الصدد مختصة بأهل بيت النبي ﷺ، فهل أذن الله لسائر المسلمات أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأن يكلمن الرجال ويخضعن لهم بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض؟ وهل يرضى الله تعالى أن يكون في بيت كل مسلم غير بيت النبي ﷺ مدنساً بالرجس؟

ثم هيا بنا إلى الحديث. وهنا نجد هذه الأقوال الواضحة للنبي ﷺ: [إذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاؤكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير من ظهرها] (رواه الترمذي).

وعن أبي بكرة لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى، قال: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] (رواه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي). هذان الحديثان جاء كلاهما يفسر قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] تفسيراً سديدا يصيب المحز ويطبق المفصل، ويتجلى منهما أن السياسة والحكم خارجان عن دائرة أعمال المرأة. وأما السؤال: ما هي إذن دائرة أعمال المرأة؟ فتجيب عنه هذه الأقوال الكريمة للنبي ﷺ بالصراحة والوضوح: [والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم] (رواه أبو داود).

وهذا هو التفسير الصحيح للآية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٣] وتفسرها بعد ذلك هذه الأحاديث التي جاءت تعفي المرأة من معالجة ما هو دون السياسة والحكم والأمور والواجبات خارج البيت: [الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض] (رواه أبو داود). وعن أم عطية قالت: نهينا عن اتباع الجنائز (رواه البخاري).

هذا وإن كانت عندنا دلائل عقلية قوية تعزز نظريتنا هذه، ونحن مستعدون

لعرضها على من يتحدانا فيها، إلا أننا نضرب صفحاً عنها في هذا المقام، لأنه لم يسألنا سائل عنها، ولأننا لا نقبل من مسلم بعد أن بلغته أحكام الله ورسوله واضحة بينة أن يطلب الدلائل العقلية قبل أن يتبعها أو يشترط تلك الدلائل لأجل إتباعه إياها. وذلك أن المسلم إن كان صادقا في إسلامه يجب عليه أن يتبع قبل كل شيء ما أمر به. ثم له بعد ذلك أن يطلب الأدلة العقلية، حتى تطمئن نفسه. أما من يقول: ما كنت لأتبع ما أمر به الله.

خلاصة البحث

الباب الأول: على أن تولي المرأة للولايات العامة

ودخولها إلى المجالس التشريعية ليس حقاً لها ولا واجباً عليها.

أولاً: إقرار الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا عدم تكليف المرأة بشيء من هذه الولايات:

الدليل الأول على أن تولي المرأة للولايات العامة، والتشريع للأمة من خلال مجالس الشورى، أو أية مسمى آخر ليس واجباً على المرأة، ولا هو حق لها، وأن الشريعة لم تأت به قط: هو أن رسول الله ﷺ لم يول امرأة قط شأناً من هذه الشئون، ولو كان هذا حقاً من حقوق المرأة، أو واجباً من الواجبات عليها لما أغفل الرسول ﷺ هذا الحق والواجب. كيف وهو رسول الله، الأمين على تطبيق شريعته، وتنفيذ أحكامه، وتبليغ رسالته؟ كيف والرسول ﷺ قد مكنه الله، وكان الحاكم بأمر الله بين المسلمين، قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٠٥].

وقد تولى النبي ﷺ جميع مهام الحكم: من القضاء بين الناس وتولية الأمراء، عزلهم ومحاسبتهم، وإرسال الجيوش، وإعلان الحرب، وعقد الصلح والهدنة والسلم، ومخاطبة الملوك ودعوتهم وتهديدهم وإنذارهم، فقد أرسل لكسرى عظيم فارس [أسلم تسلم] ولقيصر عظيم الروم [أسلم تسلم..]..الخ وولى رسول الله أمراء على النواحي والمدن، في مكة وعمان والبحرين، واليمن وعلى الوفود، وولى على الزكاة والصدقات.. ولم يثبت قط أن النبي ﷺ ولى امرأة واحدة في كل هذه الولايات. ولو كان تولي هذه الولايات أو بعضها واجباً على المرأة، لما أغفل

النبي ﷺ هذا الواجب ولو كان حقاً كذلك من حقوق المرأة فما كان للنبي ﷺ أن يمنع النساء من هذا الحق.

وكذلك الحال مع أصحاب رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين الذين تولوا أمر المسلمين بعده: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؛ فإن أحداً منهم لم يول امرأة ولاية عامة: إمارة بلدة أو قضاء ناحية، أو قيادة جيش، أو أمراً عاماً كالزكاة، والقضاء، والوفود، والسفارة. ولا دخلت امرأة واحدة إلى مجلس الحكم أو الشورى لخليفة من هؤلاء الخلفاء الراشدون فكيف يجمع هؤلاء الخلفاء الأربعة في عصر الإسلام الزاهر على حرمان المرأة حقاً هو لها، أو واجباً أوجبه الله عليها؟! كيف وهذه الأمة لا تجتمع على باطل.. أليس حرمان المرأة حقاً من حقوقها أو عدم تمكينها من القيام بواجبها باطل؟! فكيف تجتمع أمة محمد ﷺ على ذلك!!؟

ثم هؤلاء خلفاء الإسلام الذين جاءوا بعد الخلافة الراشدة: بنو أمية، وبنو العباس، وبنو عثمان، وما تخلل ذلك من حكومات الإسلام هل كان منهم من ولى امرأة ولاية من هذه الولايات العامة؟ وهل كان منهم من جعل امرأة عضواً في مجلس التشريع؟ هل يتصور أن تظل أمة الإسلام على هذا الباطل في كل عصورها؟!

ثانياً: ليس هناك في الكتاب والسنة ما يثبت أن للمرأة حقاً في الولايات العامة أو أنه يجب عليها تولي الولايات:

الدليل الثاني: أن القرآن ـ كتاب الله المحكم ـ وأقوال الرسول ﷺ ليس فيها ما يثبت هذا الحق، أو يقضي بهذا الواجب. فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأداء الأمانات إلى أهلها.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

ولم يفسر الرسول ﷺ هذه الآية بقوله ولا فعله أن المرأة من أهل الولاية وأن من أداء الأمانة إلى أهلها توليتها. ولم يقل أحد قط من أهل العلم إن المرأة هي أهل لتحمل أمانة الحكم.

وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ليس فيه حرف واحد يدل على أن تولية المرأة

للولايات العامة واجب عليها أو حق لها. بل في القرآن ما يدل على غير ذلك وهو ما سنبينه في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: آيات القرآن تمنع المرأة من الولايات العامة والخاصة:

الدليل الثالث: أن آيات كثيرة من القرآن الكريم قد جاءت بمنع المرأة من الولايات العامة، بل ومن الولايات الخاصة (ولاية المنزل والأسرة)، فمن ذلك:

(أ) الولاية للرجل في الأسرة والمنزل:

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤]. وهذه الآية نص في قوامة المنزل والأسرة خاصة، وهي كذلك نص عام بجعل القوامة مطلقاً للرجال على النساء فإن ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] بالألف واللام للإستغراق، و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤] بالألف واللام للإستغراق، فحيثما وجد رجال ونساء فإن الواجب الشرعي أن تكون القوامة للرجال دون النساء، والقوامة هنا هو القيام بأمر الغير، وتولي ولايته، ورجوع الأمر إليه.

(ب) جعل شهادة المرأة على العقود عند عدم وجود الرجل على النصف من شهادة الرجل:

قوله تعالى في آية الدين: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢].

وهذه الآية دليل صريح أن عقل الرجل أكمل من عقل المرأة. ومن لوازم ذلك منعها من الولاية عليه. وقد بين الرسول ﷺ هذه الآية وذكر السبب الذي جعلت شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل فقال: [أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل]. فقلن: بلى، فقال: [فذلك من نقصان عقلها] [البخاري، باب ترك الحائض الصوم]. فكيف يولى المفضول على الفاضل.

(ج) سليمان عليه السلام يزيل عرش بلقيس:

قوله تعالى فيما ذكره عن سليمان عليه السلام وملكة سبأ أن الهدهد جاءه مخبراً مستنكراً أمراً فظيعاً فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النمل، الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤].

وقد استنكر الهدهد من شأن هؤلاء القوم أمرين عظيمين: كون امرأة تملكهم، وكونهم يعبدون الشمس من دون الله!!

ولذلك عمل سليمان على إزالة هذين المنكرين جميعاً، فلما أرسل كتابه إليهم أمرهم بأمرين: هو أن يسلموا، وأن يأتوا إليه، وهددهم بقوله ﴿ألا تعلو علي﴾ ولو كان متولي أمرهم رجلاً لأمرهم بالإسلام فقط وأقرهم على ملكهم إن أسلموا، وقد كان هذا في شريعته وشريعة نبينا ﷺ فإن النبي كان يدعو الملوك إلى الإسلام، فإن أسلموا أقرهم على بلادهم كما فعل مع ملك عمان، وملك البحرين. ومن لم يقبل من الإسلام حاربه.

وسليمان لم يكن ليقر امرأة لو أسلمت ويقرها ملكة على قومها لأن هذا مخالف لأمر الله وحكمه. ولذلك دعاها وقومها للإسلام وأن تأتي بنفسها إليه هي وقومها خارجة من ملكها قبل أن يرسل إليها من يخرجها وقومها..

ولما تيقن سليمان أن المرأة قد جاءته مسلمة مذعنة لم يكتف بهذا بل نقل عرشها كله إليه ليسل عرشها وينهي وجود هذا المنكر في كون امرأة تتولى هذا الشأن العام وهذه الولاية الكبرى في قومها..

ولو كان تملك امرأة جائزاً في شرع سليمان لأقرها في حكمها بعد أن أعلنت إسلامها. ولما استحل أن يأخذ عرشها من خلف ظهرها..

(د) النساء مأمورات بالقرار في البيت:

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ

﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤].

وهذه الآيات تعليم وتوجيه وأمر لازم لنساء النبي ﷺ في أدب الكلام ووجوب القرار في البيت والنهي عن تبرج الجاهلية. ولا شك أن الأمر بالقرار في البيوت لنساء النبي اللاتي هن قدوة جميع النساء ينافي تولي المرأة للولايات العامة التي من ضروراتها الخروج اليومي من المنزل، والخلطة بين الرجال، فإن امرأة تكون وزيرة أو أميرة أو قاضية لا بد لها من الخروج كل يوم والاختلاط بأصحاب الحاجات، ومعرفة الناس رجالهم ونسائهم.. وهذا ينافي أمر الله للنساء بوجوب القرار في المنزل.

(هـ) حجب المرأة عن الرجال أصلح لقلوب الجميع:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٣] وهذا أمر لأصحاب النبي في كيفية طلبهم حاجة من أمهات المؤمنين وهو ألا يسألونهن إلا من وراء حجاب (جدار أو ستارة ونحوها) وعلل الله ذلك بأن هذا أطهر لقلوب الصحابة، وأطهر لقلوب أمهات المؤمنين!! فكيف وهذه القلوب جميعها قد طهرها الوحي، والصحبة، ونقاها ضوء الإسلام الساطع في حياة النبي ﷺ.. فكيف بمن بعد عهدهم عن الوحي والصحبة.. ألا يرشد هذا إلى أنه كلما كان هناك حجاب بين المرأة والرجل الأجنبي عنها كان هذا أطهر وأكمل.. فكيف يتوافق هذا مع زج المرأة إلى الولاية العامة التي من شأنها ولوازمها الخلطة اليومية بين المرأة وبين غير محارمها.

رابعاً: سنة الرسول ﷺ قاضية بأن المرأة لا تتولى ولاية عامة:

علمنا من سنة الرسول ﷺ العملية أنه لم يول امرأة قط في شأن من شئون المسلمين العامة على كثرة ما ولى ﷺ: أمراء للنواحي، وقواداً للجيوش، ونواباً على

المال والزكاة، والصدقات، وبعوثاً للتعليم، وسفراء بينه وبين الملوك والرؤساء، وهذا وحده دليل كاف على أن المرأة لا حق لها في الولاية، ولا يجب عليها تولي شئون المسلمين. لأنه لو كان لها حق فيه لما منعه رسول الله ﷺ ولو كان واجباً عليها لما ترك رسول الله إلزام النساء بهذا الواجب.

لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة:

وأما السنة القولية للرسول ﷺ فإنها قاضية كذلك أن تولية المرأة ولاية عامة هو أحد الآثام وهو دليل الخيبة والفشل. ومن ذلك قوله ﷺ: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] وسياق هذا الحديث على النحو التالي: روى البخاري بإسناده إلى أبي بكرة رضي الله عنه قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم. قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] (رواه البخاري).

ووجه الشاهد في هذا الحديث ما يأتي:

أ ـ إخبار الرسول بأن أمر مملكة الفرس إلى فشل وزوال وأنهم لا فلاح لهم بعد أن ولوا أمرهم امرأة. وقد دل هذا على أن تولية المرأة للولاية العامة من أسباب الفشل وعدم الفلاح.

ب ـ إخبار الرسول إخباراً عاماً عن الفرس وغيرهم أن القوم الذين يولون المرأة الولاية العامة لا يفلحون لأن (قوماً) لفظ عام، (وامرأة) لفظ عام.. فيدخل فيه كل قوم ولوا امرأة عليهم.. وهل هو عام يراد به خصوص الفرس الذي الحديث بشأنهم أم هو عام في كل الأقوام يحتمل هذا وهذا..

جـ ـ فهم أبو بكرة رضي الله عنه من هذا الحديث أن تولية المرأة دليل فشل سواء كان هذا في قوم كفار أو قوم مسلمين ومن أجل ذلك رجع عن الخروج مع الجيش الذي فيه أم المؤمنين رضي الله عنها.

د ـ استدل عامة من رأى من العلماء أنه ليس للمرأة ولاية عامة بهذا الحديث:

قال ابن حجر في فتح الباري: قال ابن التين «استدل بحديث أبي بكرة من قال: لا يجوز أن تولى المرأة القضاء وهو قول الجمهور، وخالف ابن جرير الطبري رحمه الله فقال: «يجوز أن تقضي فيما تقبل من شهادتها فيه» أ. هـ

خامساً: إجماع الأمة عل منع المرأة من الولايات العامة:

الدليل الخامس على تحريم تولي المرأة للولايات العامة هو الإجماع على ذلك من كل علماء الأمة في جميع عصورها. فلم ينقل عن واحد من العلماء جواز تولي المرأة الولاية العامة الكبرى (خلافة المسلمين) والإمامة العامة في الأمة على المسلمين جميعاً أو مجموعة منهم فتكون هي السيد الأعلى، والرئيس العام والإمام.. ولم يخالف في هذا الأمر أحد من علماء المسلمين قاطبة في كل عصورهم. ويكفيك بالإجماع حجة في هذا الأمر.

وأما الولايات التي هي دون الولاية الكبرى كالوزارة، والقضاء ونحو ذلك.. فقد شذ بعض أهل العلم فرأى جواز تولية المرأة القضاء فيما تصح به شهادتها فقط وليس القضاء العام. وهذا القول كذلك مردود لأنه لا دليل عليه وهو مخالف للقرآن والسنة وعمل المسلمين في كل العصور.

الباب الثاني: الشبهات التي تذرع بها من قال إن المرأة يجوز لها تولي الولايات العامة.

ـ استدل من يقول بذلك بأدلة منها: أن القرآن والسنة ليس فيها ما يمنع ذلك وأن الأصل هو الإباحة. والجواب عن هذه الشبهة هو ما قدمناه من أدلة الكتاب والسنة بمنع المرأة من ذلك.

ـ واستدلوا بملكة سبأ وأنها كانت امرأة عاقلة حكيمة أثنى الله عليها. والجواب ما قدمناه في أنها كانت امرأة مشركة كافرة، ولما أسلمت تخلت عن الملك لسليمان وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٤٤] وأن سليمان قد سعى بقوته في إزالة ملكها وعرشها.

ـ واستدلوا بخروج أم المؤمنين عائشة أميرة على الجيش الذي حارب في موقعة الجمل. والجواب أنها لم تخرج أميرة ولا حاكمة ولا كان الجيش الذي هي فيه يرى إماماً لهم غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد كان بالجيش طلحة والزبير وهما اللذان كانا على رؤوس الناس، وإنما خرجوا للإصلاح وظنوا أن وجود أم المؤمنين معهم أنفع في جمع الكلمة، وتجنيب المسلمين الحرب ثم كان ما كان مما لم يقع في الحسبان.

هذا وقد ندمت أم المؤمنين رضي الله عنها على هذا الخروج، ولامها كبار الصحابة، وجاء الحديث النبوي بالتحذير من هذا الخروج، فكيف يكون هذا دليلاً على تولي المرأة الولايات العامة!!؟

ـ واستدلوا بسماع الرسول ﷺ لمشورة أم سلمة رضي الله عنها في غزوة الحديبية. فما وجه الدلالة أن يكون سماع الرسول لمشورة أم سلمة دليلاً على جواز انتخابها وترشيحها..

وهل جعل الرسول أم سلمة عضواً يستشار، وهل كان لها ولأمهات المؤمنين مشورة في سياسة الأمة وهل كان لهما مع الصديق والفاروق ونظرائهم من الرجال رأي في اختيار الأمراء والوزراء، وإعداد الجيوش ونظام بيت المال!!

ولم يقل أحد: إنه يحرم لذي سلطان أن يستشير زوجته في شأن ما، أو يأخذ رأي النساء في قضية من القضايا كما للمرأة الحق في أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدل على الخير،..

ولكن أن يكون لها الحق أو عليها الواجب أن تتولى ولاية عامة إمارة أو وزارة، أو قضاءً، أو تكون عضواً في مجلس تشريعي.. فليس في هذه القصة دليل على هذا الأمر.

ـ ومن أقبح ما استدل به القائلون بتولية المرأة استدلالهم بتولي شجرة الدر التركية محظية الملك الصالح نجم الدين أيوب شئون الحكم في مصر وأنها قاتلت الفرنج وهزمتهم.. الخ.

وهذا من أقبح أنواع الاستدلال. فإن الحجة الشرعية إنما هي في كلام الله وكلام رسوله، وإجماع الأمة، ثم يستدل بعد ذلك بفعل الصحابة والراشدين، وقد يستدل بعد ذلك بأقوال أهل العلم واجتهاداتهم.. أما أن تجعل الأعمال الخاطئة في القرون المتأخرة دليلاً شرعياً فهذا من العجب..

ـ ومن الشبهات قولهم إن النيابة ليست ولاية عامة وأنها لا تعدو أن تكون أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وإن الشريعة قد أجازت قيام المرأة بهذا بل أوجبته عليها كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧١].

ـ **والجواب**: أن النيابة من الولايات العامة بل هي من أكبر الولايات العامة، لأن النائب بمقتضى الدساتير الوضعية، هو الذي يزكي الوزراء ويحاسبهم، ويعزلهم، ويسقط حكومة ويأتي بغيرها، فالنائب هو القيم والقائم بشأن غيره، بل هو المتولي حقيقة للولاية العامة، والوزراء هم وكلاء عن النواب في تنفيذ ما يشرعونه، ويأمرونهم به، ولذلك فسلطة النائب أكبر من سلطة الوزير.. لأن من له حق التعيين والعزل والمحاسبة هو الذي له اليد العليا، فيكون هو الولي على غيره.. فكيف يقال: إن النيابة ليست من الولايات العامة ولذلك فيجوز أن تتولاها المرأة؟

ـ ومن الشبهات قول بعضهم: إن اختيار المرأة من تراه أهلا للنيابة عنها في المجالس التشريعية ليس من الولايات العامة وبذلك يجوز لها أن تنتخب من تشاء لذلك، وأن هذا لا يعدو أن يكون توكيلاً. وللمرأة الحق في أن توكل من تشاء من الرجال في مصالحها الخاصة وهذا من المجمع عليه.

ـ **والجواب**: أن ترشيح المرأة من تراه أهلاً للنيابة ليس وكالة من كل وجه، وإنما هو بمثابة شهادة، ووكالة، وتزكية، واختيار للأصلح وللأكفأ.

فأما الشهادة فإنه لا تصح شهادة المرأة إلا في الشئون الخاصة بالنساء، وشهادتها على الدين إنما هو للضرورة عند عدم وجود الرجال كما قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ

﴿إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢]. ولا شهادة للمرأة على عقود الزواج ولا في الحدود، ولا في الأمور التي ليست من شأنها. .

وأما تزكية المرأة للرجال فإنها ممنوعة لأن التزكية تحتاج إلى خلطة ومعرفة والمرأة لا خلطة لها بالأجانب غير المحارم فكيف تزكيهم؟ وتشهد بعدالتهم. .

وأما اختيار الأصلح والأكفأ فإن هذا يحتاج إلى علم أوسع بالرجال والناس، وتفضيل الكفء على غيره، وهذا لا دخل للنساء فيه.

ومن أجل ذلك لم يكن للنساء في هذا الأمر شأن قط لا في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد خلفائه الراشدين ولا في جميع عصور الإسلام.

وأما الوكالة فإنه يصح للمرأة أن توكل من تشاء في شئونها، ولكن النيابة ليست وكالة فقط، وإنما هي عقد تجتمع فيه كل هذه الأمور: الوكالة، والشهادة، والتزكية، وترشيح من يتولى الأمور العامة. . فقياس جواز الوكالة للمرأة على الترشيح للنيابة قياس باطل.

ـ ومما استدلوا به في جواز تولية المرأة الولايات العامة قولهم إن الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان، وإن منع الرسول النساء من الولايات العامة، وقوله عن أهل فارس لما ولوا بنت ملكهم [لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] أن ذلك كان لأن النساء لم يكن يتعلمن في ذلك الوقت، وكن بعيدات عن أمور السياسة والحكم، وأما الآن فإن التعليم شمل الرجال والنساء، وقد تكون المرأة أعظم تعليماً من الرجل، فيجب قصر هذا الحكم على زمان الرسول. .

هكذا قالوا. . وهذا القول من أعظم الوسائل والأساليب لتبديل شريعة الله، وجعل أحكامها لفترة زمنية محددة، والانتقال إلى التشريع بالهوى والجهل، والقول على الله بلا علم. .

ولا شك أن كلام الله وكلام رسوله إنما هو للزمان كله والمكان كله ولا يختص شيء من الأحكام بزمان معين إلا ما جاء مقيداً بهذا الزمان. فالحلال ما أحله الله إلى يوم القيامة، والحرام ما حرمه الله إلى يوم القيامة والدين ما شرعه. .

ـ ومن الشبهات أيضاً قولهم: إن ترشيح المرأة للنيابة العامة إنما هو نوع من الشورى، وأن الشورى ليست ممنوعة على المرأة لأن الله قال في كتابه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨] وهذا يشمل الرجال والنساء.

والجواب: لا شك أن هذه الآية نازلة على النبي ﷺ، وعمل بها أصحابه من بعده. فهل كان تطبيق الرسول لهذه الآية أن عقد مجلساً يشاور فيه النساء، أو جعل لهن مع الرجال مجلساً خاصاً بذلك. وهل شاور رسول الله النساء في قيادة الجيوش، وخطط للحرب، وتولية أمرائه وعزلهم، وفي شأن الوفود، وخطاباته إلى الملوك، وهل قام خلفاؤه من بعده بشيء من ذلك فجعلوا للمرأة نصيباً واجباً في هذه الشورى، أم أن مشاورة الرسول في هذه الشئون كانت للرجال فقط.

الباب الثالث: واقع العملية الانتخابية:

مما يجب أن يحمل على المنع من ترشيح المرأة وانتخابها ما يحتف ويقارن العملية الانتخابية في ظل الوضع الراهن وفي ظل الأنظمة والقوانين التي تنظم عملية الانتخاب والترشيح. فإنه من ضرورات التقدم والنجاح في النيابة العامة، المعرفة الواسعة بالناخبين ووجود ما يسمى بالقاعدة العريضة من المؤيدين، ولا يحصل هذا إلا بالشهرة الواسعة والعلاقات العامة، والخلطة بين الناس، والسعي في مصالحهم، والتعرف على مشكلاتهم. ولا شك أن خوض المرأة لغمار ذلك كله لا بد وأن يجعلها مبتذلة، مخالطة، ليس بينها وبين ناخبيها حجاب، ولا بينها وبين ناخبيها وسائط إلا للتعريف بها، وتقديمها للآخرين.

وهذا يؤدي بالضرورة إلى إلغاء كثير من التكاليف الشرعية الخاصة بالمرأة كالحجاب، والخلوة، وتجاوز العلاقة الزوجية إن كانت زوجة، والعلاقة الأبوية إن كانت بنتاً، وقوامة الأخ إن كانت اختاً. . وسقوط الحشمة. وانتهاك الحرمة.

هذا عدا على أن عامة قوانين الانتخاب لا تشترط في المرشح إلا معرفة القراءة والكتابة ولا تشترط خلقاً ولا ديناً، ولا صلاة. .

فكيف إذا تقدمت لهذا الكاسيات العاريات المائلات المميلات ووجدن من يؤيدهن في إبراز الانحراف والشذوذ والميل عن جادة الحق والصواب. فهل يقال إن الشريعة الإسلامية لا تمنع من ترشيح المرأة وانتخابها..

* * * *

كتاب

وجوب تطبيق الحدود الشرعية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدلله جل شأنه من إله عليم قادر، وتعالى اسمه وتباركت أسماءه وصفاته، الملك العدل الحق المبين والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة المبعوث بالحق لإقامة العدل، وقطع دابر المفسدين.. صلوات الله وسلامه عليه. وعلى آله وأصحابه وأنصاره ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد؛

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب وجوب تطبيق الحدود الشرعية نعيد طبعه بعد أن اشتدت الحاجة إليه بحمد الله وتوفيقه وبعد أن أضفنا له الردود على ما أثاره الدكتور سعاد جلال على صفحات جريدة الوطن بشأن الرجم حيث اتبع مذهب الخوارج السابقين في إنكار هذه الفريضة الجليلة، وحيث تشدق بمقابلته بعض المتشدقين ممن يريدون إقصاء الشريعة المطهرة عن حياة الناس ننشر ذلك ـ بحمد الله وتوفيقه ـ تنفيذاً للميثاق الذي أخذه الله على من حمل علماً أن ينشره ولا يكتمه نسأل الله أن يكون في هذا أداء لبعض الحق الذي لله علينا، ونستغفره ونعوذ به من العجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال وأسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يجعلها لنا في ميزان الحسنات والله ولي التوفيق إنه هو السميع العليم.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في ٤ صفر ١٤٠٤هـ

الموافق ٩ نوفمبر ١٩٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد المبعوث رحمة للعالمين، والذي أكمل الله له الدين وأتم عليه وعلى أمته النعمة وبعد.

فإن شريعة الإسلام المشتملة على كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم قد أبعدت عن حياة الناس إلا في قضايا العبادات، وأما قضايا المعاملات والحدود والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فإن عامة دول المسلمين إلا قليلاً قد استبدلت بتشريع الله فيها تشريعات من اختراع الإنسان. وكان لذلك أسباب، وليس هذا مجال ذكرها، ولكن الصحوة الإسلامية الحالية حملت معها وجوب العودة إلى الشريعة، والمطالبة الدائمة من جماهير المسلمين بوجوب الحكم بشريعة الله، ولكن أعداء هذه الشريعة لا يكادون يسمعون ذلك حتى تقفز قلوبهم إلى الحناجر وتحمر عيونهم ويصرخوا في كل ناد، ومن فوق كل منبر. دعونا من الشريعة أتريدون أن تعودوا بنا إلى الهمجية والوحشية؟

وبما أن معظم منابر التوجيه وأجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز ومدارس قد أضحت بيد من يجهلون هذه الشريعة ومن يعادونها، فإن هذه المنابر أصبحت تستخدم للتنفير من شريعة الله والصد عن سبيله.

وقد رأيت من واجبي التصدي لبعض هذه الحملات الظالمة بجهدي القليل

فنشرت مقالات في صحيفة الوطن الكويتية بوجوب العودة إلى الشريعة، تطبيقاً وتحكيماً وخاصة في قضايا الحدود، وبينت بركات هذه العودة على الجميع، وبينت بحمد الله وتوفيقه فساد العقوبات الوضعية القائمة الآن والتي أصبحت بديلاً من الشريعة المطهرة، ورددت في هذه المقالات أيضاً على فتوى نشرت لأحد العلماء بجواز السماح للسجين بمعاشرة زوجته مبيناً أن هذه الفتوى باطلة لأن السجن أصلاً ليس عقوبة شرعية (أي منصوصاً عليها، وإنما السجن في الشريعة عقوبة تعزيرية اجتهادية. فيما لا يتعدى الأيام القليلة)، ولذلك فلا يجوز أن يسند بالرأي الشرعي حتى لا نرقع القوانين الوضعية بالشريعة السماوية فنضفي بذلك على قوانين الظلم والجهل القداسة والطهارة وهي براء من ذلك.

ثم رأيت من واجبي جمع ذلك في هذه الرسالة مع إضافات وفقني الله إليها في بيان حكمة الشريعة ووجوب الأخذ بها، وذلك نشراً لهذه القضية الهامة وتحذيراً لأئمة المسلمين وعامتهم من الركون والرضا بالشرائع الباطلة، وتنويهاً إلى وجوب العمل لوضع شريعة الله موضعها الصحيح حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله غالب على أمره، وهذا أداء لبعض الواجب عليّ. أسأل الله أن ينفع بها وأن تكون حافزاً لنا جميعاً بأن نعود إلى شريعة الله نحكمها في كل شئوننا وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في ١٨ رجب سنة ١٣٩٩هـ

أولاً: فضل إقامة حدود الله في الأرض

مــدخــل:

لما عصى آدم ربه سبحانه وتعالى في السماء، وأهبطه الله إلى الأرض كلمه قائلاً: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤]، في هذه الآية بيان أن شريعة الله لآدم والرسل من بعده هي العاصمة من الضلال في الدنيا، والشقوة في الآخرة. ولذلك لم تقتصر شريعة الله للأنبياء على ما يقومون به من فروض تعبدية نحو الله بل شملت تنظيم سائر حياة البشر من زواج وطلاق وميراث، ومعاملات مالية، بل وكل ما يحتاجه الإنسان ليؤسس حياة طيبة طاهرة على الأرض. ولكن الشيطان الذي أخذ على نفسه عداء آدم وذريته استطاع أن يجتال طائفة كبيرة من بني آدم عن طريق ربهم ويصرفهم عن شريعته بشرائع أخرى اخترعوها لأنفسهم فوقع بها الشر والفساد والظلم في الأرض.

وإذا كانت البشرية في عصورها السابقة لم تمتلك التجارب الكافية لتقارن بين نتائج تطبيق شريعة الله وشرائع الشيطان فإنها في عصرنا هذا تمتلك تراثاً ضخماً للإسلام والجاهليات المختلفة عبر العصور وتستطيع أن تشاهد إلى أي مدى يوجد الفارق الشاسع بين تطبيق شريعة الله حيث يحل النور والعدل والصلاح وبين تطبيق شرائع الشيطان حيث ينتشر الفساد والظلم بكل الصور والأشكال.

ولا شك أن شريعة الإسلام المنزلة على محمد ﷺ هي أكمل شرائع الله ففيها رفع الله الآصار والأغلال والتضييق الذي كان على الأمم السابقة ولم يجعل سبحانه فيها علينا حرجاً بوجه من الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

[سورة الحج، الآية: ٧٨]، وقد أتمها الله لتشمل شئون حياتنا كلها فلا تحتاج بعدها إلى غيرها ولا نحتاج لمزيد عليها كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣]، وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [سورة النحل، الآية: ٨٩].

بركات الشريعة:

ولا شك أيضاً أن بركات الشريعة المطهرة لا تحصى، فأول ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أناط خير الدنيا بتطبيق شريعته. قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٦٦]، وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا أنها تنسحب علينا أيضاً، وقال أيضاً سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦]، ولذلك ما أرسل الله رسولاً إلا ذكر قومه أن طاعة الله هي السبيل إلى استدرار رحمته في الدنيا، كما قال نوح لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [سورة نوح، الآيات: ١٠، ١١، ١٢]، وكذلك قال هود لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [سورة هود، الآية: ٥٢]، ونفس هذا تقريباً ما أعلنه الله في شريعة محمد ﷺ حيث استفتح سورة من القرآن بقوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [سورة هود، الآيات: ١، ٢، ٣]، ولا شك أن المؤمنين يصدقون بوعد الله ويعلمون يقيناً أن خير الدنيا والآخرة في اتباع مرضاته. وإذا كان ثم من يكذب بهذا الوعد ولا يرى رابطاً وسبباً بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم، وبين نزول المطر ووفرة الزراعات ورواج التجارات. فإن ثمة روابط مادية أيضاً يشاهدها كل ذي بصر من مؤمن وكافر بين هذا وذاك، فالصلاة والصيام تربية وتزكية لضمير الفرد وتوجيه له نحو البر والإحسان، ومحبة الخير للناس، ولا شك أن من هذا صفته أجاد صناعته

وزراعته، ولم يغش في تجارته، ولم يقبل رشوة إن كان موظفاً، وحافظ على الأموال العامة من الضياع، ولا شك أن مجتمعاً تكون عامته وأكثريته على هذا النحو سيكون مجتمعاً للرخاء والثروة وزيادة الإنتاج. ولا شك أيضاً أن في إخراج الزكاة أعظم فائدة لنماء الأموال والقضاء على الثورات والشحناء التي تشل الاقتصاد وتوصل البلدان إلى الخراب والدمار. وفضل الحج وهو عبادة في التقريب بين الشعوب الإسلامية لا ينكر ومع التقريب تحصل المودة وتتبادل المنافع التجارية والصناعية والزراعية، والعالم كله يسعى إلى إقامة مؤتمر كالحج تنتفي فيه الفروق بين البشر ولا يستطيع، وهذا في العبادات وأما المعاملات فهي أبلغ من ذلك لأنها تستهدف أصلاً رفع الظلم وإقامة العدل في الأرض، ولا شك أن الظلم يتبعه الخراب، وأن العدل يتبعه الرخاء والنماء. فلماذا لا تكون إقامة شريعة الله، تعني انفتاح البركات وزيادة الخيرات. ولا شك أيضاً عند كل ذي لب من مؤمن وكافر أن إقامة الحدود أعني العقوبات الشرعية هي من أكبر أسباب زيادة الخيرات والبركات فقطع يد السارق يعني المحافظة على الأموال وخروجها من المخابىء ليعمل بها في التجارات والزراعات والصناعات، لأن رأس المال جبان ـ كما يقولون ـ فإذا توفرت له الحماية خرج، وإذا انتشرت اللصوصية والظلم اختبأ أو هرب، ولا شك أيضاً أن قتل القاتل ردع عن هذه الجريمة المسببة لخراب العمران وتقطيع أوصال المجتمعات، وناهيك بتنفيذ حد الزنا حيث يقطع دابر البغاء، وإنفاق الأموال في غير وجهها، ويقطع الطريق على إنجاب أولاد الزنا الذين هم آفة المجتمعات، فالطفل الذي ينشأ لا يعلم له أباً يمتلىء قلبه بالحقد والكراهية للمجتمع، ولا شك أنه يظلم الناس إذا وجد الفرصة لذلك. ولهذا كان عامة المنحرفين والمجرمين من هؤلاء.

والمجتمع الإسلامي الذي يظهر على هذا النحو من النظافة والطهر لا شك أنه سيكون مجتمع الخير والبركة والنماء. فلماذا تنكر إذن أن يكون هناك رابط وسبب مباشر تراه كل عين ويفقهه كل قلب بين تطبيق الشريعة المطهرة وبين الرخاء المادي والسعادة الدنيوية. وصدق الله القائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٧]. ولذلك جاء عن النبي ﷺ أنه قال: [إقامة حد في الأرض خير من أن يمطروا أربعين صباحاً] رواه النسائي وابن ماجه.

ثانياً: التحذير من ترك إقامة الحدود

ولا يظنن ظان أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل شريعته وترك لنا الخيار في العمل بها أو إلغائها، أو أنه يأجرنا ويبارك لنا إذا أخذنا بها، ولا يعاقبنا إن تركناها. أعني ليس تنفيذ الشريعة من باب المستحب والمستحسن، بل من باب الفرض والواجب. فكما أن على تطبيق الشريعة يحصل الفلاح في الدنيا والآخرة، فإن على تركها وإهمالها يتوجب الخسار والدمار في الدنيا والآخرة أيضاً، وإليك الأدلة الشرعية والعقلية على ذلك.

(أ) الأدلة الشرعية:

قال تعالى آمراً رسوله بتنفيذ حدوده ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النور، الآية: ١]، وهذه الآية هي مطلع سورة النور وفيها يعلن الله سبحانه وتعالى فرضية هذه السورة التي شرع فيها حد الزنا، والقذف، وضوابط اللعان، وكذلك كثيراً من آداب الإسلام الأخرى كالحجاب والاستئذان وطاعة الرسول. وبدأ الله سورة المائدة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١]، وهذا أمر بأن نوفي أي نكمل ونتمم كل ما عاهدنا الله عليه ثم ذكر الله في هذه السورة كثيراً من العقود والحدود، ومنها تحريم أنواع من الأطعمة، ووجوب العدل مع الأعداء، والوضوء والتيمم، والقتال، والقصاص، والسرقة، وقال في هذه السورة سبحانه بعد ذكر طائفة من هذه العقود والحدود.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٨]، وقال أيضاً: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ * أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٤٩، ٥٠]. وهكذا أوجب على رسوله أن يحكم بين الناس بما أنزل الله إليه، وحذره أن يخرج عن بعض هذا المنزل، وبالطبع هذا الأمر للرسول أمر للأمة كلها، والتحذير تحذير للأمة وخاصة من بيدهم الحكم ومن ولاهم الله شئون المسلمين.

وفي هذه السورة أيضاً سورة المائدة حذرنا الله من أن يحل بنا ما حل باليهود والنصارى الذين بذلوا وتركوا ما أنزله الله عليهم من التوراة والإنجيل، ولذلك كفرهم سبحانه وتعالى وفسقهم بذلك كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٤]، ومعلوم أن هذا نص عام، فكما كفر اليهود بترك كتابهم فإن هذه الأمة تكفر بترك كتابها ثم بين سبحانه وتعالى أنه كتب على اليهود القصاص وأنهم تركوا ذلك فظلموا وخرجوا من الدين حيث قال سبحانه: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٥]. وذكر سبحانه وتعالى نحو هذا في النصارى أيضاً وحكم عليهم وعلى أمثالهم ممن تركوا الشريعة بالفسق والمروق من الدين حيث قال سبحانه: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ * وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٤٦، ٤٧].

ولقد كان هذا الترك للشريعة المنزلة سبباً في لعن الله لليهود وغضبه عليهم، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩]، ومعلوم أن أكبر إنكار ونهي عن المنكر هو إقامة الحدود التي هي بمثابة الزواجر عن ارتكاب الفاحشة والظلم في الأرض، ولو أقاموا الحدود

لكان هذا أكبر نهي عن المنكر، ولم يلعنهم الله في الآخرة فقط بمعنى أن يطردهم من رحمته، بل عاقبهم في الدنيا بألوان من الخزي والعار كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٢]. ومعلوم أيضاً أن ترك الحدود أعظم دليل على الكفر بآيات الله، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن هذه العقوبات ستظل أبدية عليهم إلا ما استثناه الله في الآية السابقة: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٢] حيث يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٦٧]، ولقد قال هذا سبحانه في سورة الأعراف بعد أن ذكر اعتداءهم في السبت بصيد السمك في يوم حرم عليهم العمل فيه ثم ترك بعضهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومثل هذه الآيات القوارع جاء مثلها بشأن النصارى أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٤]، وكل من قرأ تاريخ النصرانية يعلم إلى أي حد فتكت عداوة النصارى - بعضهم بعضاً - بهم ومزقتهم كل ممزق. وما ادخره الله للكافرين منهم في الآخرة أعظم من ذلك.

ولا يظنن ظان أيضاً أن المسلمين من أمة محمد ليسوا كذلك، بل كل ما هدد به السابقون يقع مثله بالأمة إن فعلت فعلهم. إلا ما شاء الله كما قال تعالى في شأن إهلاك قرى لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣]، أي وما الحجارة التي أهلك الله بها قوم لوط ببعيدة عن الظالمين من أمة محمد إن فعلوا فعلهم وساروا على منوالهم. وكذلك قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٢٣]، أي كل من عمل سوءاً من يهودي أو نصراني أو مسلم فإنه يجازي به لأن الله لا يحابي أحداً. وكذلك قال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم

مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ١٠٢]. وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود، الآيات: ١١١، ١١٢، ١١٣]، وهذه الآيات كلها قوارع وزواجر تبين أن هذه الأمة يجب عليها أن تستقيم على أمر الله كما شرع الله، وأنها إن تركت ذلك وركنت إلى الظالمين في شيء من تشريعهم الباطل فإن لعنة الله وعقوبته تحل بهم كما حلت بالأمم السالفة.

وهذا الذي أخبر الله سبحانه وتعالى به واقع أمامنا نراه ونشاهده كل يوم، فاندحار هذه الأمة وذلتها وتشريد أبنائها، وركوعها أمام اليهود وكل أعداء الله في الأرض، ثم فرقتها وشتاتها أليس كل ذلك شاهد واضح على صدق وعد الله وأنه سبحانه لا يخلف، وأنه لا يحابي أحداً سبحانه، وأن أمة محمد لا تنصر إلا بتطبيق شريعته وابتغاء مرضاته سبحانه، فهل بعد هذا يماري مجادل في أننا لا نعتز إلا بتطبيق شريعته وأن ذلتنا الحاضرة إنما هي من ترك هذه الشريعة الغراء.

(ب) الأدلة العقلية:

يستطيع أي عاقل منصف ينظر إلى الشريعة الإسلامية ومنهجها في الزجر عن الفساد في الأرض واستئصال دابر الجريمة، وكيفية إقامة العدل بين الناس أن يصل إلى يقين بأن ترك هذه الشريعة يعني زرع الفساد في الأرض. وخاصة أرض العرب إذ أن هذا الجنس من البشر لا يجتمع إلا على سلطان ديني، فما اجتمع العرب في تاريخهم الطويل إلا على هذا السلطان الذي ألف بين قلوبهم ووحد صراطهم ومنهجهم في الحياة، وردع أهل الشر منهم والفساد عن شرهم وفسادهم، ولا يكاد يخرج هذا الدين من أوساطهم حتى يعودوا إلى مثل الجاهلية الأولى شراً وفساداً وفرقة.

ولا نعني بهذا أن الدين لا يصلح إلا للعرب خاصة، بل الدين فيه صلاح العالمين والعرب على وجه الخصوص واليقين. فالعالم اليوم يعج بأحط أنواع الفساد والانحلال. فالظلم والطغيان في ظل القوانين الاقتصادية الجائرة أمر شاهد لكل عين

سواء في ظل النظام الرأسمالي الذي يبيح الربا وأنواعاً من الاحتكار أو في ظل النظام الشيوعي الذي ينتهك حرمة الإنسان بتجريده من أهم ما يقوم حياته وهو رأس المال ووسيلة الإنتاج. ويجعل منه عبداً لصنم يسمى (المجموع) وحيث يذهب المال في النهاية إلى طوائف من المنتفعين ممن يبقون على رأس السلطة في المجتمعات الشيوعية والاشتراكية. وكذلك الحال في النظام السياسي فبإقصاء الشريعة عم الظلم وناهيك بالنظم الاجتماعية والأخلاقية حيث انهارت الأسرة وفقد التواصل والترابط بين الأرحام وكل ذلك بانتشار الزنا وإباحة اللواط حيث انعدم الوفاء والإخلاص والحب الحقيقي بين الزوجين وبالتالي بين الأم وأبنائها، والأب وأولاده، والإخوة بعضهم مع بعض، وأصبح المجتمع أشبه بمجتمع الحيوانات، حيث يتقاتل الذكور على الإناث وقت السفاد دون خجل أو حياء، ومثل هذا المجتمع الذي يفقد الإنسان فيه آدميته ويلتحق بالبهائم لا شك أنه مجتمع شر وفساد.

وهل من الممكن أن تصلح هذه المجتمعات دون نظام إسلامي يردع عن الفواحش ويضع العلاقة بين الرجل والمرأة في مكانها الصحيح ويقيم أسس الاجتماع على التراحم بين الأقارب، ويعرف الإنسان فيه أباً حقيقياً وأماً رحيمة وأخوة يشاركونه نفس الأب. وكذلك أعماماً وأخوالاً وأحفاداً، بدلاً من أن يعيش الناس في مجتمع لا يشكلون فيه أكثر من أرقام عددية كهذه الأرقام التي نعلقها على الطيور والحيوانات في مزارع تربية الماشية والدواجن.

وإذا كان العالم اليوم يشكو من السرقة التي استفحل أمرها، ومن حوادث الاغتصاب التي باتت تهدد كل فتاة، ومن حوادث القتل التي لا تكاد تأمن منها نفس، فمن لهذا العالم يخرجه من الفساد إلا نظام الله وقانونه الذي ما إن يطبق في مجتمع ما تطبيقاً عادلاً حتى تستقر الأوضاع ويأمن الناس وينقطع دابر الشر والفساد.

ومثل هذه الدعوى التي ندعيها لا تحتاج إلى برهان لأن التاريخ كله شاهد بذلك قديماً وحديثاً. ومقارنة يسيرة إلى أي مجتمع جاهلي يطبق قوانين الإنسان الجاهلية، ومجتمع مسلم طبق قانون الله العليم سيطلع أي منصف على الفارق الشاسع بين نظام البشر حيث الجهل والظلم والانحراف وبين نظام الله حيث الرحمة والعدل والطهارة.

ولذلك فكل عاقل من البشر مدعو أن يطالب بملء فهمه وبغاية جهده أن يعود الناس إلى نظام الله لنأمن في الدنيا ونسعد قبل الآخرة، وأقول كل إنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً يجب أن يسعى لهذا ما دام يملك شيئاً من الإنصاف والحق. وذلك أن كل منصف وصاحب حق سواء اهتدى إلى الإيمان أم لم يهتد سيجد في تشريع الله ضالته المنشودة في إقامة العدل بين الناس وفيما يسمى بالمجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة، فالحريات السياسية والدينية قد كفلها الله للجميع في ظل هذا النظام والمحافظة على عقول الناس وأعراضهم وأموالهم، ودمائهم ونسلهم ودينهم قد شرع الله لها من التشريعات ما يصونها ويحفظها، وهل يريد أي عاقل أن يعيش في مجتمع خير من هذا المجتمع الذي يصون له كل مقومات حياته، ويطلق يده في كل باب من أبواب الخير يعود عليه بالنفع. بالطبع لا يعارض إلا المجرمون من أهل الظلم والسرقات والغضب أو من أهل الخنا والخسة والدناءة الذي يحبون أن تشيع الفاحشة ليعيشوا في حمأتها وأن ينتشر الزنا ليصيبوا منه ما وسعهم ولا يسألون بعد ذلك على بناتهم أو أمهاتهم أو أرحامهم. أمثال هؤلاء هم الذين تشرق حلوقهم بذكر تشريع الله ويصيبهم الهلع والجزع إذا سمعوا بحدوده ويتحسون ظهورهم وأيديهم وأعناقهم خوفاً من الجلد والقطع لما اقترفوه من زنا وفاحشة وسرقة وقتل وفساد.

والواجب ألا نعبأ بهؤلاء لأن هؤلاء هم آفة المجتمعات وسوسها وتخليص المجتمعات من شرورهم هو أكبر رحمة للبلاد والعباد. فهل يتنادى العقلاء بعد ذلك من كل ملة وجنس بالعودة إلى تشريع الله وتطبيق حدوده في الأرض؟

ثالثاً: رد الحكم الشرعي كفر

تثير الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية خوفاً وهلعاً عند فئات شتى. فالحكام يخافون على مناصبهم، وأصحاب الأموال يخافون على ثرواتهم، وأهل الفجور والمعاصي يخافون على ما هم فيه من دنس وقذارة. وقد يكون في وسط هؤلاء وهؤلاء بعض من يصلون ويزعمون حب الله ورسوله والامتثال برسالة الإسلام. وحتى يكون في هذا الكتاب موعظة لكل هؤلاء فإننا نذكرهم جميعاً بما يلي :ـ

١ـ رد الحكم الشرعي كفر :

لا يشك مسلم أن من لوازم الإيمان الإقرار بشرع الله سبحانه، والتسليم لأمره، وهذا معنى الإسلام أي التسليم والإذعان والانقياد لأمر الله، وقد دل على هذا المعنى آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [سورة النور، الآية: ٥١] وكقوله جل وعلا : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥]، وفي هذه الآية تعجب الله سبحانه ممن يدعي الإيمان وهو يريد أن يتحاكم إلى غير حكم الله وحكم رسوله وأخبر أنه لا يؤمن إلا من حكم الله ورسوله في كل شجار يكون بينه وبين آخرين، ورضي بحكم الله وحكم رسوله وسلم تسليماً كاملاً لذلك.

ولا شك أن الحدود الشرعية للجرائم المعروفة: السرقة، والقتل، والزنا، وشرب الخمر، وقطع الطريق، والإفساد في الأرض، وغير ذلك من الجرائم. هذه الحدود الشرعية أعني العقوبات المقدرة شرعاً لهذه الجرائم أصبحت لاشتهارها من المعلوم في الدين ضرورة، ولا يكاد بل لا يصح من المسلم أن يجهل ذلك. وإذا كان

هذا ثابتاً ومعلوماً في الدين فإن تكذيبه أو رده كفر مخرج من ملة الإسلام، وهذا الحكم لا خلاف فيه بتاتاً، أعني كفر من رد حكماً من أحكام الله الثابتة في كتابه أو على لسان رسوله خاصة إذا كان هذا الرد معللاً بأن هذا التشريع لا يناسب الناس، أو يوافق العصر، أو أنه وحشية، أو غير ذلك لأن حقيقة عيب التشريع هي عيب المشرع، والذي شرع هذا وحكم به هو الله سبحانه وتعالى، ولا يشك مسلم في أن عيب الله أو نسبة النقص أو الجهل له كفر به وخروج عن ملة الإسلام.

ولذلك فالأمر الأول الذي ينبغي أن يتعلمه الذين يردون هذا الحكم أنهم ليسوا من جماعة المسلمين ولا ينتمون إلى هذه الأمة أصلاً. إلا أن يعلنوا توبتهم ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى.

٢ـ لا يخاف العقوبة إلا المجرم:

نحن نعلم يقيناً أن كثيراً من الذين هالهم وأخافهم تنفيذ العقوبات الشرعية هم من الكفار الأصليين (الكافر الأصلي هو الذي لم يدخل الإسلام قبل كاليهودي والنصراني) وإن كانوا يتكلمون بحرص كاذب على الإسلام والمسلمين، ونعلم يقيناً كذلك أنه لا يخاف العقاب إلا المجرم، فالذين يثورون اليوم مذعورون خائفين ما أخافهم إلا أن ينالهم العقاب يوماً. ولذلك فهذه الضجة المفتعلة التي أججها من أججها بكل هذا الذعر والخوف والصراخ يعلم الجميع دوافعه ودوافنه، فهذه العقوبات لا تنال في الشريعة إلا المجرمين فقط، ولا تكون في مواقعها الشرعية إلا بتوفر شروط صارمة، فالزنا لا يتوفر إثباته الشرعي إلا بشهادة أربعة عدول يشهدون الجرم نفسه، وهذا لا يتأتى إلا أن تفعل هذه الفاحشة في الهواء الطلق. وليس هناك من إثبات آخر لهذه الجريمة سوى الاعتراف، والمعترف هو يريد الطهـارة لنفسه. وأما حد السرقة فبالرغم من أنه يثبت بشهادة عدلين وطرق أخرى، وبالرغم من الشدة الواضحة فيه فلا يشك منصف أن هذا موقعه تماماً ليس من حيث أن الله وحده شرع ذلك وهو العزيز الحكيم بل وأيضاً عند ذي عقل متجرد عن الغواية والهوى، فاليد التي تمتد خفية إلى أموال الآخرين وقد كفل لها الدين الأمن والسلامة والعدل والإنصاف، لا شك أنها يد آثمة تستحق القطع، ولا شك أن

عنصر الخوف من القطع وازع عظيم، والأيدي القليلة التي قطعت في الإسلام بهذه الجريمة حفظت من الأموال والدماء والأعراض ما يفوقها ملايين المرات، ودين يقطع الأيدي الخائنة من مجتمعه جدير بالتعظيم والإجلال، وأما الشرائع التي تضع الأيدي الخائنة في مستوى المسئولية وتؤمنها على الأعراض والأموال لا شك أنها شرائع فاسدة، ونحن نعيش الآن في عالم يظهر فيه كل يوم فضيحة سياسية في قمة السلطة، وهذه الفضائح ليست أخلاقية فقط بل ومالية أيضاً، وهذه الفضائح التي تطفو على سطح هذا العالم المهترىء لا تمثل إلا جانباً يسيراً فقط من جوانب الفساد الحقيقية المنتشرة في هذا العفن والفساد، والذي يسمى بالحضارة الحديثة.

فإذا حاول المسلمون اليوم أن يعودوا لتطبيق هذا الزواجر الشرعية فإنما يعني هذا في أقل صورة القضاء على المستوى المهين الذي وصلنا إليه عبر العقوبات التافهة، والصيغ الملتوية للتحايل على الإجرام والفساد. ولذلك فإن أي منصف لا يستطيع أن يصف الصارخين في كل مكان بإبعاد الحدود الشرعية عن واقع التطبيق إلا أنهم كارهون للدين تدفعهم هذه الكراهية إلى معاداة كل شيء فيه حتى لو كان زكاة، أو تحريم ربا، أو تحريم ظلم واستغلال، أو أنهم مجرمون منتشرون، يستطيعون العيش على أموال الناس وأعراضهم في ظل قوانين هشة تخدم الفساد والشر.

٣ - إزالة أسباب الجريمة قبل إيقاع العقاب:

وبعيداً عن التعصب والجهل أيضاً نقول: لا يجوز بتاتاً أن نوقع العقوبة الشرعية قبل إزالة أسباب الجريمة، والإعذار إلى الجانح والجاني، فقد يكون في ظل الاحتكار والظلم وضياع التكافل الاجتماعي ووجود الأثرة وحب النفس، أقول قد يكون في ظل مجتمع هكذا عذر لمن لجأ إلى السرقة ومن انحرفت نحو الزنا والبغاء لتعول ولداً أو أماً عجوزاً أو أباً مريضاً. وأظن أنه من السذاجة والجهل أيضاً أن نعاقب الزاني ونحن نسمح بكل ألوان الفسق والفجور والدعوة إلى الخنا، ولذلك فليس من العقل والحكمة أبداً أن تطبق الحدود الشرعية الخاصة بالجرائم دون إزالة حقيقية لأسباب هذه الجرائم، ولعل من الضروري أيضاً التوعية الواجبة العلمية بأضرار هذه الجرائم وآثارها في المجتمع حتى يجتمع الوازع النفسي والعقلي

والديني مع الرادع العقابي.

وألزم ما يجب فعله في هذا الصدد أن نمهد لتطبيق الأحكام الشرعية على الكافة وأن لا يكون حظ الفقراء هو الحدود والعقاب وحظ الأغنياء وكبار اللصوص هو حفظ أموالهم وصيانة ممتلكاتهم.

رابعاً: الحبس ليس عقوبة شرعية
ولذلك فلا يجوز ترقيعه من الشريعة

اطلعت على ما نشرته (الوطن) يوم السبت ٢٣ـ١٢ـ١٩٧٨م حول الفتوى التي نسبتها إلى لجنة الفتوى بوزارة الأوقاف وذلك بإباحة الشرع للسجين أن يعاشر زوجته أثناء فترة سجنه، وقرأت التبرير الذي نسب إلى الشيخ عطية صقر والذي برر به هذه المعاشرة وجاء في معرض قوله: «عقوبة السجن يقصد بها التهذيب والتقويم». وقوله: «وإننا نرى أنه لا بأس من أن يكون للسجين فرصة للقاء زوجته على أن لا يكون ذلك بصفة دائمة، أو مرات متقاربة حتى لا يستمرىء حياة السجن ما دامت مطالبته ومشتهياته كلها في متناوله، بل يكون هذا اللقاء في فترات متباعدة ليبقى لديه الإحساس بمرارة الحرمان والندم على ذنبه» أ. هـ.

وحيث أن هذه الفتوى تعد ترقيعاً خطيراً للقانون الوضعي (المخالف للشريعة الإسلامية) وكذلك تعتبر تأييداً وتدعيماً لعقوبة «لا إنسانية«وهي السجن، فإننا رأينا من واجبنا أن نرد على ذلك مبينين أن عقوبة السجن ليست عقوبة شرعية حتى يستفتي المسلمون في شأن إصلاحها، وكذلك فالسجن أيضاً ليست عقوبة إنسانية، بل نراها جريمة ترتكب باسم العدالة، وإليكم الأدلة والبيان لما قدمنا:

أولاً: عقوبة السجن ليست عقوبة شرعية:

وهذا الحكم تقريباً من المعلوم في الدين ضرورة فلم ترد كلمة السجن والحبس في الكتاب والسنة كعقوبة محكمة (غير منسوخة) قط. والذي جاء في الكتاب والسنة مما قد يفهمه بعض الناس أنه عقوبة سجن هو:

(أ) قوله تعالى في شأن الزانيات ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٥]. وقد أمر هنا سبحانه بإمساك الزانية في البيوت حتى الموت أو إلى أن يفصل الله في شأنهن بأمر آخر، وقد فعل الله ونسخ هذا الحكم وحكم في شأنهن بالجلد إذا كانت بكراً كما قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة النور، الآية: ٢]، وأما المحصن والمحصنة فقد حكم الله فيهما ورسوله بالرجم وأخبر الرسول أن الجلد والرجم هو السبيل الذي أشار الله إليه في آية النساء الماضية: ﴿ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٥]، كما قال ﷺ: [خذوا عني، خذوا عني!! قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم] (رواه الجماعة إلا البخاري والنسائي)، والشاهد من كل ذلك أن الحبس في البيوت منسوخ بآية (النور) والحديث الآنف. ولا شك أن الحبس في البيوت أيضاً المنسوخ ليس هو كالحبس المعروف في أيامنا هذه (وسيأتي لهذا تفصيل آخر).

(ب) وأما الدليل الآخر الذي قد يفهم منه بعض الناس أن الحبس عقوبة شرعية، فهو النفي أو التغريب، الذي جاء في قوله تعالى في شأن المفسدين في الأرض: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣٣]. وقد ذكر الله هذا (النفي) على أنه عقوبة شرعية، وكذلك جاء في حديث عبادة بن الصامت الذي ذكرناه آنفاً في شأن عقوبة الزاني البكر قوله ﷺ: [والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام]، فالتغريب المذكور هنا في الحديث يعني الإبعاد عن مسرح الجريمة.. وقد فهم بعض الناس كما ذكرت آنفاً أن (النفي والتغريب) في الآية والحديث يعني السجن، أو يقوم السجن مقامه، وهذا قياس بعيد جداً فالمنفي يمارس حياته كاملة في منفاه وإن كان يراقب أو (تحدد إقامته) كما هو اصطلاح العصر وكذلك من حكم عليه بالتغريب فإنه يمارس أيضاً حياته كاملة. والسجن أيضاً عقوبة تختلف عن هذا تماماً. بل هو جريمة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

(جـ) وقد يستدل بعض الناس أن السجن عقوبة شرعية لأن بعض الخلفاء قد اتخذوا السجون، وعاقبوا بهذه العقوبة.

فالجواب عن ذلك أنه لم يعاقب خليفة راشد قط بالسجن كعقوبة لحد من حدود الله تعالى كسرقة وقتل وزنا ونحو ذلك من العقوبات التي جاء لها حدود في الشريعة الإسلامية وإنما عاقب بعض الخلفاء بالسجن كعقوبة تعزيرية في الجرائم التي لم ينزل تحديد شرعي بعقوبتها. كما عاقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في النشوز، والهجاء وقد كانت هذه العقوبة يوماً واحداً أو أياماً قليلة، وهذا في الحقيقة نوع من التوقيف والتعزير، وليس هذا عقوبة شرعية ولذلك نص من أباح السجن في مثل هذه التعازير أن لا يزيد عن سنة بحال حتى لا يجاوز الحد الشرعي في التغريب. وهذا على كل حال ليس دليلاً شرعياً لأن هذا اجتهاد لسنا ملزمين بالأخذ به وخاصة إذا كانت كل الشواهد تدل على أن السجن قد أضحى مدرسة للإجرام وليس إصلاحاً وتهذيباً كما يزعمون.

ثانياً: السجن هو صلب العقوبات الوضعية:

وبينما نرى أن الشريعة المطهرة استبعدت «السجن»تماماً كعقوبة شرعية (أي منصوص عليها، وإنما السجن في الشريعة مجرد إيقاف احتياطي على ذمة التحقيق أو تعزيراً باجتهاد القاضي لا يتعدى الأيام المعدودة)، فإن القوانين الوضعية جعلت عقوبة السجن هي العقوبة الأساسية في كافة الجرائم على اختلاف صورها وأشكالها. فالسجن هو عقوبة في جرائم القتل، والعدوان على ما دون النفس، والسرقة، والنصب والتزوير وكل الجرائم المالية، وكذلك جعلته عقوبة للاغتصاب وما تعتبره جرائم خلقية، والأدهى من ذلك أيضاً أنها جعلته عقوبة فيما يشبه الجريمة وليس بجريمة أصلاً كقتل الخطأ الذي لا يد فيه للقاتل، وكحيازة الأسلحة، بل ومن أعجب العجب أنها جعلته عقوبة لما أسمته بجرائم الرأي، وقد بالغت القوانين الوضعية في هذه العقوبة فحكمت بالسجن المؤبد مطلقاً حتى الموت بل والسجن مائة سنة ومائة ونيف، ومن المعلوم عادة أن الإنسان لا يعمر على هذا النحو..

وكان لا بد لكل منصف أن يعلم أن الشريعة تنزيل من حكيم حميد، وأن يسأل

نفسه لماذا استبعدت الشريعة عقوبة السجن على هذا النحو؟! ولماذا أقرت الشرائع الوضعية العمياء هذه العقوبة على هذا النحو أيضاً؟

ولن يخفى بالطبع عند النظر والفهم لهذه العقوبة الباطلة أنها جريمة وليست عقوبة. وإليك تفصيل هذا في الفصلين الآتيين.

خامساً: أهداف العقوبات الشرعية

للعقوبة في الإسلام أهداف وحكم محددة هي: التطهير، والقصاص، والتعويض، والزجر، و«السجن» كعقوبة لا يحقق شيئاً من هذه الحكم ولا الأهداف، بل على العكس من ذلك فإنه يحقق من الفساد أضعاف ما قد يوجد فيه من مصالح تافهة وإليك التفصيل في كل ذلك:

أولاً: التطهير:

فرض الله سبحانه وتعالى الحدود في الإسلام (العقوبات الشرعية المنصوص عليها) مطهرات للذنوب التي ارتكبها أصحابها وعوقبوا عليها كما في حديث عبادة ابن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له] الحديث. وهذه الكفارة مطلوبة عند المسلم الذي يخاف عقوبة الله في الآخرة وكذلك هي ماحية للذنب عند الله سبحانه في الآخرة حتى لو لم يرد (المحدود) المعاقب في حد شرعي بالتطهير. وهذا في ذاته نفع لصاحبه. ومعلوم قطعاً أن الذي ينفذ فيه حد غير شرعي كالسجن مثلاً فإن جانب التطهير منتف منه لأن الطهارة الشرعية من الذنب حق من حقوق الله تعالى إذ لا يغفر الذنوب إلا هو سبحانه وتعالى، ولا يغفر الله الذنب إلا بالطرق التي شرعها لذلك. ومعنى هذا أن الذين تطبق عليهم عقوبات وضعية فإنما نفتنهم ونعذبهم فقط دون أن يعود عليهم مردود ديني وهذا في نفسه ظلم للعباد كما أنه جريمة في حق الله سبحانه وتعالى لأننا بذلك نعذب العباد بما لا يرضاه الله وما لم يشرعه. وهذا ظلم آخر.

ثانياً: الزجر:

الحكمة الثانية التي من أجلها شرع الله الحدود في الإسلام هي الزجر أعني ردع المجرم نفسه عن معاودة الجرم، وكذلك ردع غيره إذا رأى العقوبة وعاين جزاء الجرم، ولذلك فرض الله في عقوبة الزنا أن يشهدها طائفة من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور، الآية: ٢]، وهذه الشهادة من أقوى عوامل الردع والزجر عن المعصية. وقد أثبتت المشاهدات، والاستقراء على أن الحدود الشرعية ما طبقت في مكان ما إلا وقتلت الجريمة في مهدها وأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم. والعكس تماماً في «السجن«كعقوبة وضعية، فقد دلت الإحصائيات والمشاهدات والاستقراء أن غالبية المسجونين يعودون بعد خروجهم، إلى نفس الجرم الذي سجنوا من أجله، وأن هذه العقوبة لا تشكل أي زجر للناس لأنها تفعل في السر ونادراً ما يراها عامة الناس، بل من الناس من لا يعرف شيئاً عما يدار في السجون أصلاً. ولذلك فهي لا تشكل أي نوع من الزجر عن الجريمة، وهذه حكمة أخرى منتفية من هذه العقوبة الوضعية.

ثالثاً: القصاص:

الحكمة الثالثة من العقوبات الشرعية هي القصاص ومعنى القصاص أن نأخذ من الجاني بقدر جنايته فالنفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والسن بالسن والقصاص عادل وجزاء مكافىء تماماً للجريمة فليست نفس الجاني ولا عينه بأعز وأغلى من نفس وعين المجني عليه. . والسجن إذا استبدل بالقصاص فإنه أولاً جزاء غير مكافىء للجريمة، وهذا في نفسه ظلم وتحيز من المجتمع أو المشرع للجاني، فكأن الجاني هو أولى بحماية المجتمع من البريء المعتدى عليه، فإذا أضاف المجتمع تعهد السجون بالعناية والرفاهية فكأنه يقدم للمجرمين برهاناً جديداً على أنهم أولى في نظره من المظلومين البريئين المعتدى عليهم، وهذا غاية في الجهل والحماقة. والشريعة المطهرة بريئة من هذه الحماقات الوضعية في أبواب الجرائم، ولذلك نسمع كل يوم بأنواع من الإجرام لم تكن معلومة، في السابق، كالجرائم

«السادية» ومصاصي الدماء، والجرائم الجنسية المروعة.. وهذا بالفعل إفراز طبيعي لهذه القوانين التي تحمي المجرمين وترضى بوقوع الظلم على المسالمين.

رابعاً: التعويض:

والحكمة الرابعة من حكمة العقوبات في الإسلام هي التعويض للمجني عليه كالدية، في جرائم القصاص، وتغريم أثمان المتلفات وهذا في ذاته عدل لأن التعويض المالي للمعتدى عليه حق له إذا فقد نفسه فهو لورثته وإذا فقد عضواً منه، وكذلك إذا فقد شيئاً من ممتلكاته. وأما السجن للمجرم فهو لا يعوض المجني عليه شيئاً من ذلك، فماذا يستفيد المجني عليه من سجن الجاني سنة، أو سنتين فهذا لا يشفي صدره، ولا يعوضه شيئاً عن مظلمته.

وهكذا يفقد السجن كعقوبة عمياء كل حكمة العقوبات الشرعية ويبقى التمسك به نوعاً من التمسك بالباطل واتباعاً لسبيل المجرمين الذين استبدلوا تشريع الله بتشريع أهل الأهواء والعمى من واضعي القوانين. فإذا أضفنا إلى هذا أيضاً مفاسد السجون فإن هذه العقوبة تصبح أمامنا هي الجريمة بعينها.

سادساً: هذه بعض مفاسد السجون

بينا سابقاً في ردنا على من أفتى بالجواز الشرعي لمعاشرة السجين لزوجته أثناء تأدية العقوبة القانونية أن هذه فتوى غير جائزة لأن السجن ليس عقوبة شرعية، وكذلك لأن السجن لا يحقق حكماً ولا غاية من العقوبات في الإسلام وقد أقمنا بحمد الله الدليل على كل ذلك. والآن نأتي إلى فاصل جديد لنبين أن للسجن كعقوبة مفاسد عظيمة. وإليك أهم هذه المفاسد:

أولاً: السجن دورة للإجرام:

وهذه قضية لا ينكرها إلا مكابر، فالسجناء يجتمعون بجرائم مختلفة ويقضون أيام سجنهم معاً في (عنابر) غرف واسعة يأكلون وينامون جميعاً، ولا تكاد تدور أحاديثهم في ليلهم ونهارهم إلا حول جرائمهم ومشكلاتهم وأمانيهم بعد الخروج، وذلك لمن له أمل في الخروج، ولذلك فالسجن في حقيقته مدرسة للإجرام يتعلم البسطاء من المجرمين أساليب جديدة وطرقاً جديدة من أساطين المهنة، ولا تستطيع الدول علاجاً لهذه الظاهرة أن تعمل بالسجن الانفرادي لأنه يكلف باهظاً. ثم هو أدهى وأمر من السجون العامة لأن السجين وحده ينهار نفسياً عندما لا يجد من يكلمه أو يشكو إليه عدداً من الأيام، والسجن الانفرادي أشد تعذيباً من القتل لأنه في حقيقته قتل بطيء لا توصف آلامه النفسية.

ثانياً: السجن مدرسة للشذوذ والانحراف الجنسي:

وهذه كذلك مشكلة المشاكل في السجون، فالسجناء وخاصة الذين يقضون مدداً طويلة ينتشر بينهم الفساد والشذوذ الجنسي بكل صوره وأشكاله. والعجيب حقاً أن القوانين العمياء التي تسجن على الجرائم الخلقية تضطر السجين إلى فعل الجرائم

الأخلاقية داخل أسوارها، وهذا غاية الفساد والسفه. ومن يطالع إحصائيات الأمراض الجنسية يعلم مدى انتشار هذه الأمراض بين السجناء. ولنا أن نفكر في مدى العنت والكبت الجنسي الذي يلاقيه السجناء داخل السجون وخاصة الذين يمضون فترات طويلة تمتد إلى خمس وعشر سنوات. فبالله عليكم ما وضع السجين الذي أدخل السجن في قبلة واحدة لفتاة فحكم عليه بخمس سنوات وسط بركة عظيمة للإجرام والفساد؟!

ثالثاً: السجن عبء اقتصادي على الأمة:

هل فكرتم بالنفقات الباهظة التي تكلفها السجون في الدولة، إنها ليست فقط نفقات البناء وطعام السجناء. إنها أيضاً مشكلات الحراسة، إن هذا العدد الضخم من الضباط والجنود الذين يتناوبون حراستهم ليلاً ونهاراً. وهذا يكلف الدولة عظيماً من النفقات وليته في شيء له طائل أو مردود. ثم إننا نحجب السجناء عن العمل الذي كانوا يعملونه خارج أسوار السجن، وهذا فساد اقتصادي جديد، ولا يجوز بتاتاً أن نفرح بالخزعبلات التي يتلهى فيها السجناء كعلاقات المفاتيح وصناعة المسابيح و(القحافي).

رابعاً: السجون في حقيقتها:

السجون هي الدور السرية التي يمارس فيها الطغاة والجبارون من الملوك والرؤساء تعذيب الخارجين عليهم، وإهدار كرامتهم وآدميتهم. ففي السجون وبعيداً عن أعين الشعوب يمارس الطغاة كل ألوان الخسة والنذالة وقتل الإنسانية وظلم الذين يأمرون بالقسط من الناس. وفي كل يوم ينزل طاغوت عن عرشه تكتشف الشعوب أن إخوانهم وأبناءهم كانوا يلاقون الكي بالنار والنفخ في الأدبار، والتعليق من الأرجل، والشرب من البول والتعري، وفعل الفواحش في بعضهم بعضاً. . وأمور أخرى يندى لفعلها الجبين ويستحي من ذكرها الكريم. ولو كانت الشريعة الإسلامية مطبقة، وطبقت الحدود الإسلامية هكذا في الشوارع أمام الناس، لما تمكن الحاكم الظالم من أن يجعل السجون قمعاً للحرية وإذلالاً للناس.

خامساً: هل فكرتم بأسر السجناء؟

وإذا كان السجناء يلاقون الموت البطيء والذل والكبت في السجون، فإن وراء كل واحد منهم أسرة تتعرض للمهانة الاجتماعية والضياع، وفقد العائل. فماذا تفعل زوجة يغيب عنها زوجها عشر سنوات مثلاً؟ والعجب أن القوانين لا تفرض مثلاً لأسر السجناء ما يحميهم ذل الفقر والحاجة بل تكتفي بإلقاء السجين في الظلمات تاركة أهله وأولاده خارجاً يلاقون مصيراً يكون أحياناً أظلم من مصيره.

هذه المفاسد التي ذكرناها آنفاً هي في الحقيقة جزء من مفاسد السجون وليست استقصاء لها، ولقد كنا نغفل الطرف عن بعض هذه المفاسد لو كانت هناك حكمة ترتجي أو نفع يؤمل أو قطعاً لدابر الشر والفساد، بل على العكس من ذلك فالسجن في حقيقته مدرسة للفساد والإجرام، ولا تغتر بأن بعض (المشايخ) يترددون على السجون لوعظ السجناء وتذكيرهم وإرشادهم، فإن هذه كذبة كبيرة لا مجال لتفنيدها هنا، أو أن هناك في السجون ما يسمى بالباحث الاجتماعي، فأنى للباحث أن يرقع هذه الشقوق النفسية والاجتماعية هذا إذا كان يحسن الترقيع؟.

ولا تظن أن هناك علاجاً لمشكلات السجن كأن تملأه بوسائل الترفيه، وتوجد السجون المختلطة للرجال والنساء معاً و. . و. . فإن هذا هو عين الفساد والانحلال والشر. وكنت أظن أن مثل هذه المفاسد لا تخفى على من يتصدر للفتوى فلا يفتي في دين الله بغير علم، ولا يحمل الشريعة المطهرة رجس القوانين الوضعية. ولكن. . المشتكى لله.

سابعاً: لا يجوز ترقيع القوانين الوضعية بفتاوى شرعية:

أقمنا الدليل بحول الله وقوته وبحمده على أن «الحبس» ليس عقوبة شرعية وأن هذه العقوبة لا حكمة مطلقاً ولا معقولية لها، ثم بينا بالدليل أيضاً مفاسد السجون وأضرار هذه العقوبة التي تفقد معناها الإنساني والأخلاقي أيضاً فضلاً عن فقد مبررها الشرعي، ولا نعلم مبرراً للإبقاء عليها في بلداننا الإسلامية إلا نوعاً من التبعية العمياء للقوانين الأوروبية البلهاء، أو إبقاء على التعسف والقهر. .

واليوم نأتي إلى الغاية والهدف من سوقنا لكل الأدلة السابقة، وهو التحذير من ترقيع القوانين الوضعية بفتاوي شرعية، وقد قلنا في بدء عرضنا لهذا الموضوع أن هذا غير جائز شرعاً (وهي كلمة رقيقة جداً). وهذه أدلة عدم جواز ذلك:

أولاً: الإسلام قضية واحدة:

ونعني بذلك أن هذا الدين الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد وحدة واحدة فإما أن نأخذه كله وبذلك ندخل فيه ونكون من أتباعه، أو نتركه كله، وذلك إن ترك شيء منه عن غير اضطرار وهذا التحذير قد فسره الله لرسوله في آيات كثيرة فيها تهديد ووعيد ومعلوم أن الرسول ﷺ معصوم أن يترك شيئاً من شريعة الله، ولكن هذا تحذير لنا نحن، والخطاب موجه فيها للرسول لبيان أهمية الأمر وأن المفرط فيه لا ينجو من عذاب الله رسولاً أو غيره، وذلك أنه عدوان على حق الربوبية والألوهية الخاصة بالله. فمن حق الرب أن يحكم عباده بما يشاء وأن يشرع لهم ما يريد والاعتراض على حكم واحد أو تشريع واحد من تشريعاته طعن في حكمته وبالتالي في ربوبيته. فإذا علمنا أن إطاعة الكفار في تحليل الميتة شرك فلنعلم أن الله قال لرسوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦٥]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَلَوْ

نَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [سورة الحاقة، الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٦]، أي نياط القلب، وقال تعالى أيضاً لرسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآيتان: ٧٤، ٧٥]، فإذا كان الرسول ﷺ وهو من هو بأبي وأمي أفديه فكيف بغيره؟!

والشاهد من كل ما قدمنا وسردنا من أدلة أنه لا يجوز بتاتاً طاعة غير الله في تشريع إلا كرهاً أو عذراً وحرجاً، وأما خلع عباءة الإسلام على قوانين الكفر فهذا هو الباطل بعينه، وذلك أننا إن فعلنا ذلك فإننا نوهم العامة أن هذه القوانين حق وأن الشريعة الإسلامية تسمح بها أو ترضى عنها، وهذه جريمة عظيمة لأنه تبديل لشرع الله وكلامه.. ثم إن هذا أعظم إقرار للباطل وتمكين له في بلاد المسلمين، فما أقر الباطل في ديار المسلمين إلا عندما استعار من الشريعة الإسلامية اللباس الظاهري ووضع على جبينه زوراً الآية والحديث كما فعل نابليون بونابرت عندما دخل مصر فاتحاً فألبسه العلماء الجبة والعمامة.. وبهذا استقر له المقام في بلاد الإسلام، وكما يريد اليهود اليوم أن يمكنوا لأنفسهم في فلسطين بآيات من القرآن كما أوهموا العالم الغربي المسيحي الأعمى بأن نصوص التوراة تؤيد حقهم في فلسطين وفي كل مكان من أرض الإسلام تريد القوانين الجائرة أن تجد سندها ودعمها وبقاءها من آيات القرآن وأحاديث الرسول. وبغفلة أحياناً وسذاجة أحياناً.. يستدرج الباطل بعض الشيوخ فيفتيه بأنه حق وأنه موافق للشريعة الإسلامية أو على الأقل لا تمانع الشريعة الإسلامية في بقائه ووجوده وإذا كانت عقوبة السجن جريمة إنسانية وقبحاً وباطلاً ومناقضة شرعية للعقوبات المطهرة والزاجرة وأيضاً الرحيمة التي شرعها الله فكيف نخلع عليها بعد ذلك لباساً شرعياً؟

ثامناً: الرجم عقوبة شرعية ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع:

لم نأبه للآراء الشاذة التي نشرت على صفحات الوطن منسوبة إلى الشيخ الدكتور سعاد جلال لأسباب كثيرة منها أن هذه الآراء كانت قد ظهرت للدكتور سعاد في أوائل الستينات. ونشر هذه الأقوال والآراء من جديد نعلم أنها محاولة يائسة لتجديد فكر عفى عليه الزمان ولا يسمع له إلا المروجون له، ولذلك لما رغب إلي بعض إخواني أن أرد على هذا المنشور للشيخ سعاد أخبرتهم أن صغار طلاب العالم اليوم يعلمون زيف هذه الآراء (كانت هذه الآراء في قضية حجاب المرأة حيث أنكر ما يشبه أن يكون معلوماً من الدين بالضرورة).

ولكنني فوجئت بنشر آراء جديدة لذلك الشيخ يزعم فيها أن الرجم ليس هو حكم الله في الزاني المحصن ويدعي أن الرجم ليس في كتاب الله!! ويرمي بالكذب من قال أنه في كتاب الله وبهذا يكذب الرسول ﷺ نفسه ويكذب الله الذي يثبت الرجم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.. ولما كان نشر هذه الآراء الضالة في مكان أشرف عليه في الصحيفة قد حصل دون اطلاعي عليه وقد يؤدي إلى ظن بعض الناس أن هذا من جملة المقبول شرعاً كان لا بد لي من الرد على هذه الآراء الشاذة مع إيماني أيضاً أنه قد ولى الزمن الذي يسمع فيه المهتدون إلى مثل هذه الآراء أو يعيرونها بالاً.

القضيـــة:

وتتلخص القضية التي نحن بصددها فيما يلي: زعم الدكتور سعاد جلال أن حكم الرجم ليس ثابتاً في القرآن وليس موجوداً في السنة إلا في أحاديث أحادية لا تثبت بها حجة!! ولم يحصل إجماع عليها في سلف الأمة. ومسألة الرجم في نظره مسألة خلافية يجوز في زعمه استحداث رأي جديد بشأنها أو أخذ بعض الآراء القديمة

الشاذة التي لا ترى الرجم وإنما ترى الجلد فقط حكماً للزاني محصناً كان أو بكراً. وهذا هو الرأي الذي رآه الدكتور سعاد جلال ورجحه ومستنده في هذا شيء عجيب جداً وهو على حد تعبيره «ارتقاء المشاعر الإنسانية في هذا العصر وشفافيتها وعمق فكرة التسامح والرحمة الحاصل بتقدم المدنية والفهم العلمي لقهر الدوافع الطبيعية وما قد يخالطها من الأمراض النفسية كل ذلك يصنع مجتمعاً لا يسمح بتطبيق هذه العقوبة القاسية في هذا العصر» هذا هو مستند سعاد جلال في خروجه على الناس بالقول أن حكم الجلد أولى من حكم الرجم وحتى يلبس رأيه الشاذ لباساً إسلامياً فإنه عمد كما أسلفنا إلى نفي أن يكون حكم الرجم ثابتاً بالقرآن. أو بسنة متواترة قطعية. وإن وروده في سنة مشهورة أو أحادية لا يفيد ذلك القطع والعلم. وأنه لا إجماع على ذلك في الأمة بل زعم أن الأمة مختلفة حول هذا الحكم.

وقد بنى على ذلك في زعمه أنه ما دام أنه قد وقع خلاف وليس هناك نص قطعي فإنه يجوز الاجتهاد، وزعم لنفسه هذه المنزلة!!

ورجح أن كل مجتهد مصيب وأن الحق في المسألة الواحدة يتعدد وليس الحق محصوراً كما زعم في رأي واحد وبالتالي فرأيه الذي رآه صواباً لا يجوز لأحد أن يخطئه.

ونحن نرد على كل ذلك بحول الله فقرة فقرة. ومسألة مسألة مبينين زيف ما ذهب إليه.

أ- الرجم ثابت بالقرآن:

رجم الزاني المحصن ثابت في القرآن في عدة آيات أولها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٥].

وهذه الآية كانت في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت لا تخرج منه حتى تموت ثم جعل الله لهن سبيلاً وهذا السبيل هو الناسخ لهذه الآية كما قال ابن عباس رضي الله عنه كان الحكم لذلك حتى أنزل الله سورة النور

فنسخها بالجلد أو الرجم وهذا السبيل الذي جعله الله سبحانه وتعالى هو الذي أعلنه الرسول في الحديث الذي رواه مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرى عنه قال: [خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم]. ورواه أيضاً مع مسلم أصحاب السنن وقال الترمذي حسن صحيح.

وهذا دليل أن الرجم ثابت بالقرآن لأن الله سبحانه وتعالى أشار إليه وأخبر به ثم أوحى به الرسول ﷺ المبين للقرآن كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٤] فالرسول هو الذي بين بأمر الله السبيل الذي عناه الله بقوله ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٥].

وأصرح من هذا الحديث في الدلالة على أن القرآن قد نزل بالرجم الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني قالا: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أنشدك الله ألا قضيت بيننا بكتاب الله. فقام خصمه، وكان أفقه منه فقال. صدق اقض بيننا بكتاب الله وأذن لي يا رسول الله!! «أي أن ابدأ بعرض القضية» فقال النبي ﷺ: [قل]!! فقال: إن ابني كان عسيفاً «أي أجيراً، أو خادماً» في أهل هذا فزنى بامرأته فاقتديت منه بمائة شاة وخادم «أي عبد أو جارية» وإني سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام. وأن على امرأة هذا، الرجم فقال ﷺ: [والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله المائة والخادم ردٌّ عليك. وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، ويا أنيس اغد على امرأة هذا فسلها فإن اعترفت فارجمها] فاعترفت فرجمها (اللؤلؤ والمرجان ص٤٢٣، ٤٢٤).
وهذا نص صريح قطعي الدلالة أن الرسول ﷺ حكم بالقرآن في زانيين أحدهما بكر وهو الأجير والثاني ثيب وهي المرأة المتزوجة فحكم على الأول بالجلد مائة وتغريب عام وعلى المرأة «الثيب» بالرجم وقال النبي في هذا الحكم [والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله] وكتاب الله هنا القرآن ولا شك المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ. وكذلك فالذين تخاصموا إلى الرسول ﷺ في هذه القضية ناشدوه الله أن يقضي بينهم بكتاب الله! فهل بعد ذلك يقول الدكتور سعاد جلال رداً على من ذكره

بأن رأيه الشاذ هذا مخالف للقرآن «تقول لهم إذا قالوا أنه مخالف للقرآن هذا هو الكذب الصراح فإن نصوص القرآن المتعلقة بحكم الزنا ليس فيها ذكر للرجم أصلاً بل القرآن هو حجتنا الكبرى عليكم» نص كلامه ونحن نقول له يا من تتهم الصادقين بالكذب أكان رسول الله ﷺ لا يفهم عندما حكم بذلك وحلف أن هذا حكم الله في القرآن؟ أم أنك تكذب رسول الله أيضاً الذي يقسم بأن هذا حكم الله في القرآن؟! أم أن هذا من عمى البصيرة علاوة على عمى البصر.

وأصرح من هذه الأحاديث في الدلالة على أن القرآن قد أثبت الرجم ما رواه البخاري ومسلم أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلس على المنبر فقال في خطبة طويلة: «إن الله بعث محمد ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ورجمنا بعده فاخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل منهم والله لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف».

وهذا الأثر الذي أخرجه هنا أصحاب السنن وغيرهم دليل واضح أن الرجم قد نزل في آيات من القرآن عمل بها رسول الله والخلفاء بعده وهذا الأثر دليل الإجماع لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب في ذلك بمحضر من الصحابة جميعاً ولم ينكر عليه أحد ونقل هذا عنه الكافة وعنهم الكافة إلى يومنا هذا لا مخالف لذلك إلا من طمس الله بصائرهم من الخوارج المارقين وشذاذ من متفلسفة المسلمين أمثال النظام المعتزلي والذين جاء الدكتور سعاد جلال ليسير على درب غوايتهم وضلالهم.

وفي هذا الأثر دليل أيضاً على أن آية الرجم كانت في القرآن نصاً فنسخت تلاوتها وبقي حكمها كما هو شأن آية الرضاع أيضاً ومعلوم أن النسخ في القرآن على ثلاثة أوجه فمنها نسخ التلاوة مع بقاء الحكم وهذا شأن الرجم.

ونسخ الحكم مع بقاء التلاوة كآيات في الخمر، والقتال، والوصية لا يتسع المجال لذكرها، ونسخ الحكم والتلاوة معا. وكل هذا مصدق لقوله تعالى: ﴿ ۞ مَا

﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٠٦].

والخلاصة أن آية الرجم نصاً كانت في القرآن ونسخ تلاوتها وبقي حكمها عمل به الرسول والمسلمون بعده مجمعون على ذلك إلى يومنا هذا.

ومما يدل أيضاً على أن حكم الرجم ثابت بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٣]، وقد نزلت هذه الآية في سبب معروف وهو ما رواه الشيخان أيضاً البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: [ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟] فقالوا: نفضحهم ويجلدون فقال عبدالله بن سلام: كذبتم فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما فيها وما بعدها فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبدالله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة. وهذا دليل واضح صريح أن الرجم في القرآن وأن الله قال لرسوله في شأن هؤلاء أنفسهم: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٢].

وها قد حكم الرسول بينهم بالقسط وهو حكم الله المنزل في التوراة والقرآن وإنما أمرهم رسول الله أن يأتوا بالتوراة ليلقمهم الحجر فقط ويلزمهم الحجة لا أنه عدل عن حكم القرآن إلى حكم التوراة فإنه لا يجوز في حقه ولا حق اتباعه أن يحكموا بالتوراة المنسوخة بل أتى بالتوراة لأنها تطابق حكم القرآن فأراد أن ينفذ فيهم حكم الله بشهادة كتابهم إلزاماً لهم وبياناً لرقة دينهم وتحايلهم على كتاب ربهم، وهذا ولا شك أصرح الأدلة على أن حكم الرجم ثابت في القرآن لأن شرع من قبلنا شرع لنا إذا جاء في شرعنا ما يثبتها ويؤيده وشريعة الرجم شريعة بني إسرائيل قد جاء في شرعنا ما يثبتها ويؤيدها فهي حكم الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل وأمة محمد ﷺ وكل ذلك ثابت في القرآن وعلى لسان محمد ﷺ ولا شك بعد في كل ما قدمنا أن حكم الرجم

ثابت بالقرآن الكريم ثم بعد ذلك بسنة سيد المرسلين ﷺ والأحاديث الصحيحة التي سردناها برهان لذلك ثم بإجماع المسلمين جيلاً بعد جيل وخطبة عمر في محضر الصحابة برهان ذلك وفعل الخلفاء ومن بعدهم من التابعين ومن سار على دربهم إلى اليوم برهان ذلك، وأما المنافقون والخوارج المكذبون لذلك فإنه يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٥]، فسبيل المؤمنين جيلاً بعد جيل إثبات الرجم والعمل به وهذا هو فعل الرسول وأمره وهو قول الله وحكمه ومن شاقق هؤلاء فقد قال الله في شأن المشاقين: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٥] وفي الفصل الآتي تفصيل بحول الله لهذا الإجمال وردود أخرى للمسائل الأصولية التي أراد الشيخ سعاد أن يلبس بها على الناس.

ب ـ الرجم ثابت بالسنة النبوية:

ذكرنا آنفاً أن الرجم ثابت بالقرآن في آيات كثيرة ونبين الآن ثبوت حد الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة.

فنقول:

تواترت الأخبار والروايات عن الرسول ﷺ في شأن حد الرجم، ونقلها الكافة من الصحابة وعنهم نقلها الكافة من التابعين وهكذا إلى أن وصلتنا وثبوت الرجم عن الرسول ﷺ أشهر من ثبوت كثير من الغزوات المشهورة ولا يستطيع المرء أن يكذب أو يشكك في غزوات الرسول أو في أحداث السيرة المشهورة فقد سارت بها الركبان وتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل وحوادث الرجم المأثورة كثيرة متكررة فقد رجم رسول الله ﷺ يهوديين زنيا. ونزل في شأن ذلك قرآن يتلى إلى يوم القيامة. وأحاديث تروى إلى قيام الساعة. في الصحيحين والسنن وجميع دواوين السنة، ورجم رسول الله ﷺ أيضاً ماعزاً الأسلمي، بعد أن اعترف على نفسه أربع مرات بالزنا، ورجم أيضاً الغامدية بعد أن اعترفت أربع مرات وردها الرسول حتى تضع حملها، وردها أيضاً حتى تفطم وليدها، ورجم أيضاً امرأة زنت مع عسيف «اجير«عندها بعد أن اعترفت على نفسها.

وأعلن رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة أن الرجم هو حكم الله في كتابه وما أوحي به لرسوله محمد ﷺ. أفبعد ذلك يشكك مشكك أن الرجم لم يثبت إلا بأحاديث أحاد لا يقطع بثبوتها ولا تفيد العلم الضروري؟ وهل هناك شيء في الأرض يفيد العلم الضروري أكثر من هذا؟

إليك بعضاً من هذه الأحاديث الصحيحة في شأن الرجم علاوة على ما ذكرناه فيما سلف:

الحديث الأول:

حديث أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما. قال أبو هريرة أتى رجل رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال: يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه حتى ردد عليه أربع مرات. فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي ﷺ فقال: [أبك جنون] قال: لا. قال: [فهل أحصنت] قال: نعم. فقال النبي ﷺ: [اذهبوا به فارجموه]!! قال جابر: فكنت فيمن رجمه. فرجمناه بالمصلى. «أي مصلى العيد خارج المدينة» فلما أزلقته الحجارة هرب، فأدركناه بالحرة فرجمناه. رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وفيه دليل على أن الذي يأتي معترفاً بالزنا يجب أن يشهد على نفسه أربع مرات وإنه إذا كان محصناً رجم، وأن رسول الله رجم الزاني المحصن.

الحديث الثاني:

روى الإمام مسلم في صحيحه بإسناده إلى عبدالله بن بريده عن أبيه: قال جاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني. وأنه ردها. فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردني؟! لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً. فوالله إني لحبلى!! قال: [أما لا فاذهبي حتى تلدي] فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة. قالت: هذا قد ولدته!! قال: [اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه]. فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام!! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها. وأمر الناس فرجموها. فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضخ الدم على وجه خالد. فسبها فسمع نبي الله ﷺ سبه

إياها فقال: [مهلاً يا خالد!! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس (المكس هو الربا والإتاوة والضريبة وهي أكل لأموال الناس بالباطل) لغفر له] ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

وفي هذا الحديث دليل على أن الرجم هو حد الزنا المحصن. وأن المرأة إذا كانت حبلى من الزنا لا تحد حتى تضع أو تفطم. وأن أكل أموال الناس بالباطل عن طريق المكوس وهي الضرائب المأخوذة ظلماً من الناس لمرور البضائع ونحو ذلك أكبر من الزنا.

وفي الحديث أيضاً دليل على عدم جواز سبب المحدود التائب من ذنبه، وأن الحدود كفارات.

الحديث الثالث:

ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر التلاعن عند النبي ﷺ فقال عاصم بن عدي في ذلك قولاً ثم انصرف. فأتاه رجل من قومه يشكو إليه أنه قد وجد مع امرأته رجلاً. فقال عاصم ما ابتليت بهذا إلا لقولي، فذهب به إلى النبي ﷺ. فأخبره بالذي وجد عليه امرأته، وكان ذلك الرجل مصفراً قليل اللحم، سبط الشعر، وكان الذي ادعى عليه أنه وجده عند أهله خدلاً ادم كثير اللحم. «خدلاً: أي ضخما عظيم الجثة». فقال النبي ﷺ: [اللهم بين]!! فجاءت به «أي المولود» شبيهاً بالرجل الذي ذكر زوجها أنه وجده، فلاعن النبي ﷺ بينهما. قال رجل لابن عباس في المجلس: هي التي قال النبي ﷺ: [لو رجمت أحداً بغير بينة رجمت هذه؟ فقال: لا. تلك امرأة كانت تظهر السوء في الإسلام] انتهى.

والشاهد فيه قوله ﷺ [لو رجمت أحداً بغير بينة رجمت هذه] وهي امرأة كانت تظهر السوء في الإسلام كما قال ابن عباس أي يبدو من مظهرها وسلوكها وقرائن أحوالها أنها تزني ولذلك قال الرسول أنه لو جاز له أن يرجم بغير بينة لرجم تلك المرأة والحال أنه لا يجوز الرجم إلا ببينة خاصة وهي الاعتراف أربع مرات أو شهادة أربعة رجال برؤيتهم للزنا وللفعلة نفسها، ولا يجوز إقامة الحد بوجود القرائن فقط. بل إن اتهام الرجل لزوجته وملاعنتها وشهادته وإيمانه أربع مرات عليها بالزنا. ثم

ولادتها لولد مشابه للمتهم معها كل ذلك ليس دليلاً شرعياً على إقامة الحد. والشاهد في هذا الصدد أن الرسول ﷺ هدد بالرجم للزانية المحصنة.

وبتضافر هذه الأدلة وردود هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين السنة وخاصة في أصح الكتب بعد كتاب الله وهي البخاري ومسلم ونقل الكافة من المسلمين لها عن الكافة واشتهار ذلك في كل آفاق الدنيا هذه أدلة على الرجم حكم الله في القرآن والتوراة، وشريعته إلى يوم القيامة التي نفذها رسول الله ﷺ ونفذها الخلفاء من بعده، وأجمعت الأمة عليها جيلاً بعد جيل لم يخالف في ذلك إلا أفراد من المنافقين ممن لا يؤبه بقولهم ولا يلتفت إلى خلافهم. ومن هؤلاء المخالفين الخوارج المارقين وهذه ليست بأول بدعهم فقد نفوا سورة يوسف جميعها من القرآن زعماً منهم أنها تتكلم عن الحب والعشق وأن هذا لا يليق بكلام الله!! وأما النظام المعتزلي فلم يترك أصلاً من أصول الإسلام إلا حاول النيل منه، ثم جاء من ينسج على منوال النظام المعتزلي والخوارج المارقين، ويريد أن يعارض بذلك كتاب الله سبحانه وتعالى المبين. وسنة رسوله ﷺ الأمين، وإجماع الأمة المهتدية من الخلفاء الراشدين المهديين، والأئمة الأربعة ويسمى فعله هذا «اجتهاداً» ويقول «لا يزعجنا مخالفة ما يسمى عندكم بالسنة الصحيحة لأن هذه السنة الصحيحة دليل ظني يحتمل الكذب مرجوحاً، وكذلك سائر السنن الصحيحة». انتهى بلفظه من المنشور في الوطن ٢٧ـ ٨ ـ١٩٨٢.

وهذا الذي لا يزعجه أن يخالف السنة الصحيحة الموافقة للقرآن التي أجمعت عليها أمة محمد ﷺ وتلقتها الأمة بالقبول جيلاً بعد جيل وعمل بها خلفاء الرسول ﷺ الراشدون الصادقون. وأفتى بها أئمة الدين المؤتمنون كيف يكون من جملة المجتهدين؟

والدكتور سعاد جلال نفسه قد نشر مؤخراً مقالاً في المصور عدد (٣٠٢١) بتاريخ ٣ ـ ٩ ـ ١٩٨٢م. يقول فيه بالنص «القول برفض أخبار الآحاد جملة خطأ بعيد عن التحقيق لأن هذا يقتضي إلغاء جميع أحاديث الكتب الصحيحة الستة وفي مقدمتها البخاري ومسلم وقد تلقت الأمة هذين الكتابين بالقبول. قال ابن خلدون «وانعقد الإجماع على صحتهما» فرفض هذا التراث الضخم الذي تلقته الأمة بالقبول جيلاً بعد

جيل لا يتفق مع حكم العقل لكن يمكن القول بأنه يجوز النظر في حديث بعينه تقوم ضد صحته قرائن وأدلة فنرفض هذا الحديث بخصوصه. وإذن فالخبر المتواتر لا يجوز رفضه أصلاً وقد انعقد الإجماع على ذلك إجماع السلف والخلف أما رفض حديث بعينه أو جملة أحاديث بعينها لقيام الدليل القرين ضد صحتها فهذا أمر يمكن القول به».

ونحن هنا نتفق مع الشيخ الدكتور فيما قاله ونقول أن أحاديث الرجم قد قامت كل الأدلة والقرائن على ثبوتها وذلك لتعدد مواردها، وكثرة رواتها ونقل الكافة لها جيلاً بعد جيل، وعدم وجود مخالف قط في الصحابة أو التابعين وأتباعهم المشهود لهم بالخير، وشهادة القرآن للرجم في آيات كثيرة كما بينا ذلك في المقال السابق. وعمل المسلمين بذلك وجميع الأئمة ويستحيل أن يجتمع كل أولئك على خطأ.

ولا يمكن أن نقول بعد ذلك أن أحاديث الرجم أحاديث آحاد بل هي أحاديث متواترة لا شك في إفادتها العلم اليقيني ولا مجال للتشكيك في ثبوتها وصحتها. والحمد لله رب العالمين.

جـ الرجم ثابت بالإجماع:

الشبهات التي أثارها الدكتور سعاد جلال حول حكم رجم الزاني في الشريعة الإسلامية كثيرة جداً وقد أجبنا عن أهم هذه الشبهات وهي كون القرآن لم يتعرض - في زعمه - لحكم الرجم. وزعمه أيضاً أن أحاديث الرجم في السنة أحاديث آحاد لا يثبت بها الحد وقد أثبتنا بحمد الله بما لا يدع مجالاً لشك أن حكم الرجم ثابت بالقرآن، وأن ثبوته بالسنة إنما كان بأحاديث متواترة حيث تعددت وقائع الرجم في حياة النبي ﷺ. ونقل ذلك الحجم الغفير من الصحابة وعنهم الجم الغفير إلى يومنا هذا ومثل الرجم لا يخفى ولا يستتر لأنه من الأمور المعلنة والتي قد أمر الله بإشهارها وإعلانها كما قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور، الآية: ٢] فالرجم يشترك فيه العدد الكبير وهو من الأحداث المثيرة التي لا بد وأن يشهدها الصغير والكبير ويتناقلها الناس ويتحدثون بها ومثل هذه الأحداث المتكررة يستحيل عقلاً إخفاؤها كما يستحيل عقلاً انتحالها والخطأ فيها. فلا مجال للقول بأن ثبوت الرجم في السنة مظنون.

والآن نأتي إلى الإجابة عن طائفة أخرى من الشبهات التي أثارها د. سعاد جلال وتبدأ بطعنه أيضاً في إجماع المسلمين جيلاً بعد جيل على أن الرجم هو حكم الله في الزاني المحصن. فقد شكك في هذا الإجماع بأن الخوارج قد خالفوه وبأن النظام المعتزلي قد أفتى بغير الرجم. وقد أشرنا في المقالين السابقين أن الأمة أجمعت سلفاً وخلفاً على هذا الحكم وأن الخوارج طائفة منهم فقط وهم الأزارقة الذين نفوا حكم الرجم عن الزاني المحصن، والخوارج وإن لم يكفرهم المسلمون إلا أنهم لا وزن لهم ولا دخول لهم في إجماع الأمة. لسبب قريب جداً وهو أنهم خوارج!! فقد خرجوا على إجماع الأمة في معتقدات كثيرة حيث كفروا فاعل المعصية المسلم واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ونساءهم وكفروا علي بن أبي طالب وكل من حاربه وحارب معه!! وأنكروا سورة يوسف من القرآن ومثل هؤلاء لا دخول لهم في اجتماع الأمة. فالإجماع الشرعي هو اتفاق الصحابة على قول واحد في الدين وليس في الخوارج صحابي واحد (قال ابن حزم في تعريف أهل الإجماع: «وصفة الإجماع هو ما يتعين أنه لا خلاف فيه بين أحد من علماء الإسلام. . وإنما نعني بقولنا العلماء من حفظ عنه الفتيا من الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلماء الأمصار وأئمة أهل الحديث ومن تبعهم، رضي الله عنهم أجمعين. ولسنا نعني أبا الهذيل العلاف ولا ابن الأصم ولا بشر بن المعتمر، ولا إبراهيم بن سيار، ولا جعفر بن حرب ولا جعفر بن بشر ولا تمامة ولا أبا عفار ولا الرقاشي ولا الأزارقة والصفرية، ولا جهال الإباضية ولا أهل الرفض» أ. هـ (مراتب الإجماع لابن حزم ص١٢-١٤).

والإجماع الأصولي الذي يراه عامة الفقهاء حجة هو اتفاق علماء المسلمين في عصر ما على مسألة من مسائل الدين. والخوارج ليسوا من علماء المسلمين باتفاق علماء المسلمين جميعاً. وكون سعاد جلال لم يجد إلا الخوارج ليؤيد مذهبه واجتهاده فشيء يدعو للرثاء. . وذلك أن خلاف الخوارج ليس خلافاً مع الأمة فقط وإنما هو خلاف أيضاً مع نصوص القرآن ومتواتر السنة. وما يقال عن الخوارج يقال أيضاً عن النظام المعتزلي فمروق واحد من المعتزلة عن حكم الله وإجماع الأمة لا يضيق النص الشرعي ولا يقدح في إجماع الأمة.

د ـ حكم الرجم ليس مسألة اجتهادية:

وأما قول سعاد جلال أن الرجم مسألة اجتهادية لأنه لم يثبت فيها دليل قطعي فمعلوم الآن بطلانه لأن القرآن الذي أثبت حكم الرجم، والسنة المتواترة، وإجماع الأمة كل هذه أدلة قطعية ومعلوم أنه لا اجتهاد في موضع النص وإنما مجال الاجتهاد في غير ذلك من شؤون الأمور الحادثة والتطبيقات لا في إثبات تشريع جديد، أو نفي تشريع قائم، ومعلوم أن شريعة الرجم شريعة قائمة ثابتة بما قدمنا فلا مجال لإحداث تشريع جديد أو زعم اجتهاد ينبع فيه من زعم لنفسه الاجتهاد رأياً شاذاً.

هـ ـ الشرع لا ينفى بالشبهات:

ومن أكثر الشبهات تدليساً وغشاً في مقالات سعاد جلال قوله: «إننا استقرأنا الأدلة الشرعية الجزئية في أبواب الحدود وهي محصورة يمكن ضبطها فوجدناها جميعاً متضافرة على إسقاط الحد عن الجاني بالشبهة، وأنه إذا وجدت شبهة في طريق إقامة الحد اعتبرها الشارع مانعة من إقامة الحد على الجاني بل أن الشارع لتصيد الاحتمالات الدارئة للحد عن الجاني ويتحيل الحيل الواضحة لدفعه«!! (هكذا).. ثم يستطرد قائلاً: «ومن ذلك على سبيل المثال قوله لماعز بن مالك لما اعترف له بين يديه بالزنا: [لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت] وفي رواية: [اشربت خمراً] قال: لا. وفي رواية عن ابن عباس قال جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فاعترف بالزنا مرتين فطرده، ولم يستبح رجمه إلا بعد أن أقر على نفسه بالزنا أربع مرات هو يرده عن مجلسه في ثلاثة إقرارات حتى كانت المرة الرابعة وهو يقر. فأمر برجمه».

والتلبيس في هذا الاستدلال واضح إذ أن الرسول ﷺ لم يقم الحد على ماعز حتى شهد على نفسه أربع مرات وحتى أوصله هل يعرف الزنا أم لا وذلك أن هذا الحد لأنه عقوبة مغلظة وشدد الشارع الحكيم في إثبات الجريمة فجعلها بالإقرار المتكرر مع جواز النكول عن الإقرار ورفع الحد. وجعلها أيضاً بشهادة أربعة عدول يشاهدون الفعل نفسه. وقاعدة درء الحدود بالشبهات صحيحة والذي يدرأ هو العقوبة لا المشروعية. فالقاضي والحاكم يجب أن يتثبت ويتيقن قبل أن يصدر الحكم على الجاني وعليه أن يدفع العقوبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إذا وجد أن هناك احتمالاً

يكذب الشهود، أو التعجل في الاعتراف، أو نقص الأدلة. وليس معنى هذا هو اللجوء إلى الشبهات لدرء مشروعية الحد من أساسه والطعن في شريعة الله سبحانه وتعالى وهذا تماماً ما فعله د. سعاد جلال حيث ذهب يتبع الشبهات والغرائب ويبحث في التراث عن الشذاذ والمخالفين لإجماع الأمة وسنة سيد المرسلين وكتاب رب العالمين ليدفع بهم الحد الشرعي والشريعة الثابتة المطهرة العادلة الرحيمة.

و ـ الرجم وروح العصر:

الشبهة السادسة التي تذرع بها الدكتور لنفي حد الرجم هي قوله: «أن روح العصر الحاضر، ومشاعر الناس في هذا الزمن لم تعد تحتمل وقع هذه العقوبة الشنيعة، وأصبح ذلك موضع نقد موجه إلى أحكام الفقه الإسلامي الاجتهادي»، والرد على هذه الشبهة من وجوه: أولها أن هذا اعتراف بها من الدكتور نفسه بأن الرجم كان شريعة متبعة في عصور الإسلام الأولى وهو ما حاول جاهداً أن ينفيه. وأما قوله أن مشاعر الناس لم تعد تحتمل وقع هذه العقوبة الشنيعة فأين رأى ذلك؟!

والحدود الشرعية في عامة بلاد الإسلام معطلة منذ زمن!! وإذا كان بعض الناس الآن أو أغلبهم يكرهون هذا الحد الشرعي فإن الكراهية أيضاً موجهة لقطع يد السارق، وجلد الزاني وهي حدود ثابتة بالقرآن ولا يستطيع الدكتور أن ينفيها والنفوس التي تشمئز من الرجم تشمئز أيضاً من الجلد والقطع. وما رأي الشيخ أيضاً في عقوبة «المحارب» الذي تقطع يده ورجله من خلاف ثم يصلب حتى الموت الثابتة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣٣] هل مشاعر الناس الذين يتحدث عنهم تحتمل هذه العقوبة؟! وما رأيه أيضاً في القصاص: عين بعين وسن بسن وأنف بأنف!! لا شك أن المشاعر الرقيقة!! التي راعاها الدكتور سعاد والتي تستنكر الرجم في زعمه تستنكر هذا أيضاً فهل سيسعى أيضاً إلى البحث عما يغير به حكم الله!؟ ثم نحن نقول أي مشاعر هذه التي ارتقت في عصرنا عصر الإجرام والقتل والتخريب ورجم النساء والأطفال والشيوخ بالقنابل والصواريخ؟ أي مشاعر ارتقت ونحن في عصر الشذوذ الجنسي

والإباحية والمعارض الجنسية التي تباع فيها كل أعضاء الذكورة والأنوثة المصنعة؟! أي مشاعر ارتقت ونحن نعيش عصر هتك أعراض الأطفال. إننا نعيش عصر الاغتصاب والبلادة وضياع المشاعر الإنسانية. .

وهل يقارن هذا العصر بالعصر الذي كان الرجل والمرأة يقترف فاحشة الزنا فيعتصر ألماً ولا تهدأ ثورة نفسه وغليان قلبه إلا بالاعتراف فالرجم!!

ثم إذا كان في حد الرجم قوة وزجر فإن الشارع جعل ذلك مناسباً للجريمة الشنيعة لرجل ثيب سبق له زواج وامرأة ثيب سبق لها زواج تدنس فراش زوجها وتدخل على زوجها ما ليس من ولده.

فأي جريمة أغلظ وأشنع. ومع بشاعة الجرم شدد الله سبحانه في إثباته فجعل الاعتراف أربعاً مع جواز النكول والتوبة، وجعل الشهادة بأربعة عدول يشاهدون «الإيلاج» نفسه لا مجرد وجود رجل على بطن امرأة!! فأي تثبت أكبر من هذا؟!

● من هم أهل الاجتهاد؟

الشبهة السابعة والأخيرة التي نرد عليها هي زعم الدكتور سعاد جلال لنفسه منزلة الاجتهاد في هذه المسألة حيث في ختام مقالاته حول هذه القضية «ولم يبق إلا أن يحتج علينا محتج بانغلاق باب الاجتهاد. وقد نزعنا في هذه المسألة منزع المجتهدين فلا يسعنا في الجواب إلا أن نقول ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو أعلم حيث يجعل رسالته وهو حسبنا ونعم الوكيل».

ونقول لسنا بحمد الله ممن يرى قفل باب الاجتهاد في الدين ولكننا نقول الاجتهاد لمن؟ وكيف؟ فأولاً معلوم أنه لا اجتهاد في موضع النص. وفي هذه القضية عشرات النصوص والإجماع فماذا يعني الاجتهاد هنا لدفع نصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة؟ ثم الاجتهاد مفهومه هي بذل الوسع والجهد للوصول إلى ظن بحكم شرعي. وهذا يعني أن الرأي الاجتهادي مظنون وهو رأي ومهما يكن من اجتهاد د. سعاد جلال هنا فهو معارض بقول كل الصحابة الذين أثبتوا الرجم وعملوا به وكل أئمة الإسلام من الفقهاء الأربعة وأتباعهم وجميع علماء الأئمة إلى يوم القيامة «ورأي»

سعاد جلال لا وزن له أمام إجماع الأمة واجتهاد علماء المسلمين ثم المجتهد إنما يسعى للتعرف على حكم الله ويجتهد للوصول إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى وإلى ما يظن أن الله لو أنزل قرآناً أو أرسل حياً فإن يحكم بما يوافق هذا الاجتهاد. فهل تصور الشيخ سعاد جلال هذا وهو يلقي باجتهاده هل تصور أنه يسعى للتعرف على حكم الله في هذه المسألة أم أنه غلب الهوى؟.

وختاماً فدين الله أكبر من أن يناله المشككون واعتقاد وجوب الرجم حكماً على الزاني المحصن من المعلوم بالدين ضرورة ونفي هذا الحكم كفر.. والرجم وإن كان قضية فرعية إلا أن اعتقاد وجوبها قضية أصولية عقائدية.

هذه عجالة سريعة من الرد وقد ضربنا صفحاً عن شبهات صغيرة أخرى يعرف المتابع الجواب عنها من ثنايا ردنا والحمد لله رب العالمين.

* * * *

* * *

كتاب

الطريق

إلى ترشيد حركة البعث الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا. والسلام على نبي الرحمة ونبي الملحمة المبعوث رحمة للعالمين، والمأمور بالقيام بالسيف إلى قيام الساعة. إحقاقا للحق وإظهارا للدين، فكانت دعوته جامعة لكل دعوات المرسلين، فقد تحمل الأذى حتى نصره الله وأعزه بجنده من الملائكة والمؤمنين.

وبعد.

فإن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى مع أنها عمل المرسلين إلا أنها مع ذلك تكليف لازم للمؤمنين من أتباع الرسل وخاصة خاتمهم وسيدهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه عملاً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠٨]. ولكن الدعوة لا تبلغ غايتها ولا يوصل إلى ثمرتها إلا باتباع صراط مستقيم يقود المؤمنين من الضعف إلى القوة، ومن نصر إلى نصر مع ما يتخلل ذلك من امتحان وبلاء يمحص صفوف المؤمنين ويعلي منازلهم في الدنيا والآخرة ولا يتأتى ذلك إلا باتباع السياسة الشرعية التي شرعها الله للمؤمنين في حال الضعف والقوة.

والمشاهد الآن أن حركات الجهاد الإسلامية تخرج من نكبة إلى نكبة ومن فتنة عمياء إلى أخرى أشد عمى وليس ذلك من الإسلام في شيء بل هو مما قال عنه النبي ﷺ: [لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين] وهو أيضا من جراء اتباع سبيل المجرمين الذين يقدمون رقاب المسلمين وأعراضهم هدايا للسلاطين الفجرة الكفرة بما يقدمون لهم من الذرائع والأسباب للبطش بالمؤمنين وسحق طلائع المهتدين.

وقد أوقفت جانباً كبيراً من حياتي والفضل لله وحده بنصح إخواني المؤمنين ليتبعوا السياسة الشرعية في الدعوة التي بينت جوانب كثيرة منها في عشرات المقالات وبعض الرسائل والمحاضرات كان منها هذه المحاضرة التي كنت قد ألقيتها بدعوة من الرابطة الطبية بجامعة الكويت ليلة الخميس ٢٤/ ٤/ ١٩٨٠ .

ولما كان لهذه المحاضرة من أثر ـ بحمد الله ـ في إنارة الطريق فإني أقوم الآن بتوفيق الله بنشرها مع زيادات ضرورية وفقني الله إليها آملاً أن تجد هذه الرسالة طريقها إلى كل شاب وفتاة ممن هداهم الله إلى الإسلام واتخذ طريق الدعوة إليه ووضع نصب عينيه نصر أمته وإعزاز دينه والسعي لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى في الأرض كلها وليس في بلاد المسلمين فقط. والله غالب على أمره، والله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت ٦ من شوال سنة ١٤٠٢هـ

الموافق ٢٦/ ٧/ ١٩٨٢م

مدخل إلى الرسالة

المسلمون والرسالة الخالدة

لم يعد يخاف على من يعقل في أيامنا هذه أن العالم يعيش وضعاً مضطرباً متفجراً، وأن خطر بلاد المسلمين وأوطانهم من الاضطراب والفوضى أكبر من خطر غيرهم (هناك الآن مخططات جادة لتمزيق العالم الإسلامي وتدميره من الداخل عن طريق حرب طوائف تعم بلاد المسلمين، واليوم يعمل اليهود على استعداء العالم الشيوعي، والعالم الرأسمالي على المسلمين ويحذرون دائما من خطر البعث الإسلامي الجديد. (اقرأ مقالات منبر الجمعة في الوطن) وكتاب (أوضاعنا السياسية في ضوء الإسلام). وإن البشرية قد ضلت مسلكها الصحيح في الحياة ونسيت مهمتها التي خلقها الله سبحانه وتعالى من أجلها وهي أن تعبده وتوحده، كما قال جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٥٦] ولم يعد يخاف كذلك إن من أعظم أسباب ضلال البشرية وضياعها تقصير المسلمين في الواجب الملقى على عاتقهم وأعني به واجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى حيث كلفهم بذلك في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠]. وهذه الأمانة التي ألقاها الله على أهل الإسلام عامة، والعرب منهم بوجه خاص قام بها أسلافنا رضي الله عنهم في زمن مضى خير قيام، ثم قصر الذين خلفوهم في ذلك وركنوا إلى الأرض وتنافسوا في الدنيا، وضيعوا جوانب كثيرة من رسالة الله لهم، وبذلك تشتتوا وفشلوا، وذهب ريحهم، وغلبهم أعداؤهم، وها نحن نجني اليوم قصور الأمس، وتقصير الخلف.

البعث الجديد للأمة:

وكلنا يعلم أيضا أنه في أواخر هذا القرن الرابع عشر قد بدأت حركة بعث جديد وصحوة لأبناء هذه الأمة وتفتيش عن التراث وذلك بعد الغيبة الطويلة لهثا وراء الثقافة الغربية التي ظننا يوماً أنها طريقنا إلى الرقي والتقدم والعزة، ولكن الهزائم المتكررة التي منيت بها الأمة أمام اليهود، وفشل المناهج الغربية في تحقيق ما نصبوا إليه، واطلاعنا على مكر أعدائنا بنا، ووقوفنا على أطماعهم في ثرواتنا كل ذلك جعلنا ننكفىء على أنفسنا من جديد ونبحث في تراثنا عن الصراط والهداية.

ولكن حركة البعث الإسلامي الجديد هذه قد جاءت في وقت أحكم الطوق فيه حول عنق الأمة الإسلامية، وتمكن أعداؤهم منهم حتى العظم وقد ساعد الأعداء في ذلك المكث الطويل لهم بأرض الإسلام ومعرفتهم بأهله أكثر من معرفة المسلمين بأنفسهم وسبق الغرب الشرق إلى امتلاك قوى العلم الحديث التي مكنتهم من الغلبة والسيطرة، وها نحن نرى أن سلاح المسلمين طرفه بأيدينا والطرف الآخر بيد الدول التي تمدنا به، ونقودنا ظاهرها عندنا وحقيقة النقود ببنوك الغرب واعتمادنا عليهم يكاد يكون اعتمادا كليا في الطعام والشراب والكساء والعلم ونكاد أن نكون القوم الذي حكى عنهم النبي ﷺ في أمارات الساعة حيث يقول.. [وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان] فنحن الآن العالة حقا في كل شيء فدول الإسلام الفقيرة ما زالت تمد أيديها إلى دول الغرب والشرق وتتباهى بأنها تأخذ منها مساعدات وما هي في الحقيقة إلا نوع من أنواع الإذلال والاستجداء والتبعية، ودول المسلمين الغنية هي غنية بالاسم فقيرة عاجزة في الواقع أن تسخر اقتصادها لخدمتها أو خدمة أمتها أقول نعم هناك حركة بعث إسلامي وتطلع من شبيبة الإسلام نحو دينهم وتراثهم ولكن لا يجوز لنا أن نفصل بين هذه الحركة والواقع العالمي الذي نعيشه اليوم. هناك حركة بعث إسلامي، نعم ولكنها مضخمة جدا بالنظر إلى واقعنا الذي نعيشه وحتى يؤتي هذا البعث الجديد ثماره المرجوة من القيام بأمر الله أولا، وهداية البشرية الضالة إلى طريق الصواب، والدفع عن المسلمين الحيارى المنكوبين، وإعادة عزة الإسلام، ومجد المسلمين، أقول ليحقق البعث الإسلامي ذلك هاكم بعض القواعد العامة التي يجب علينا أن نراعيها ونحن ندعو إلى الله

ونعيش طلائع هذا البعث.

أولا: اتباع السياسة الشرعية في الدعوة:

أول ما يجب علينا تذكره دائما هو أن الداعي إلى الله يقوم بدور المنقذ والهادي والمخلص، وهذا يفرض عليه تبعات تختلف بطبيعتها عن دور السياسي (بالمفهوم المعاصر) وذلك أن السياسة بمفهوم العصر هي في استخدام الوسائل الممكنة للوصول إلى الهدف والغاية، وهذه الأهداف والغايات هي مصالح الحزب أو الطبقة أو الفئة التي تمارس السياسة والذين يمارسون السياسة ونقض العهود والمواثيق، والبطش بالأعداء والتنكيل بهم، وأخذ البريء بجريرة المسيء وكل ذلك في سبيل الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، وأما في عرف الدين ونظامه فإن الموقف الديني تجاه الخصوم قد يكون فيه خسارة.. بمفهوم الناس الدنيوي ولكنه في ميزان الله كسب وشهادة. فصاحب ياسين الذي قص الله قصته في سورة يس: قال لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ.. ﴾ [سورة يسٓ، الآيات: ٢٠، ٢١، ٢٢] ومع ذلك قتلوه.. فقال بعد مقتله ودخوله الجنة: ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [سورة يسٓ، الآيتان: ٢٦، ٢٧].. وهكذا يمارس هذا العبد الصالح دور المخلص والمنقذ في حياته وبعد مماته أيضا، ولا يقص الله علينا ذلك سدى..

وفي سورة القصص يقول تعالى عن فرعون: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعًا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [سورة القصص، الآية: ٤]. وبالرغم من هذا الفساد الذي مارسه فرعون والظلم الذي أوقعه على بني إسرائيل في مملكته فإن الله جعل طريق الخلاص لهم في ميلاد طفل صغير في هذه المملكة، وهيأ لتربيته في قصر فرعون نفسه وشب عن الطوق فأصبح شابا يشعر بآلام قومه وظلمهم ذلكم هو موسى ﷺ. فماذا يصنع؟ يقول تعالى عنه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٍ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾ [سورة

القصص، الآيتان: ١٤، ١٥] فجعل موسى حميته لقومه وانتصاره لهم من عمل الشيطان علما بأنه دافع عن رجل من فئة مستضعفة يقتل أطفالها الذكور، وتستعبد أشد الاستعباد ثم يقول موسى بعد ذلك. ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [سورة القصص، الآية: ١٦] ويقول تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة القصص، الآية: ١٦] وبعد ذلك يقول موسى ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: ١٧] فيجعل مناصرته للإسرائيليين مظاهرة ومعاونة للإجرام، علما أن مثل هذا العمل قد يظنه كثير من الدعاة في أيامنا هذه بطولة وشجاعة وقوة. بل إن موسى ﷺ لا ينسى فعلته هذه إلى يوم القيامة ويظل خائفا من جريرتها فقد روى البخاري ومسلم في حديث الشفاعة الطويل أن الناس يذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم وكل منهم يعتذر عن الشفاعة للناس قائلا إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ويذكر كل منهم ذنبا له فيذكر آدم أنه أكل من الشجرة التي لم يؤمر بالأكل منها، ويذكر نوح أنه قد دعا على قومه ويذكر إبراهيم أنه كذب ثلاث كذبات ثم يقول إبراهيم للناس اذهبوا إلى موسى. يروي البخاري ومسلم بإسناديهما إلى أبي هريرة إلى النبي ﷺ: [فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس. اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها. نفسي نفسي نفسي!!] فانظر أخي المسلم كيف يعتذر موسى عن الشفاعة بقتله للفرعوني وهم قوم ظلمة قتلوا بني قومه واستحلوا دماءهم.

هذا وما زلنا نقرأ في القرآن إن أحد ولدي آدم قال له أخوه وهو ظالم له: لأقتلنك. قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٢٧، ٢٨]. فآثر مع أخيه أن يقتله ولا يدافع عن نفسه.. قد يظن البعض إن هذه المواقف فيها جبن أو تخاذل ولكنها بمفهوم الإسلام مواقف شريفة. أمر النبي ﷺ إن يقفها في مكة وأصحابه ينالون الأذى ألوانا حوله ويستصرخونه ويستنصرون فيقول: [إن من كان قبلكم كان يؤتى أحدهم بالمنشار فيوضع على رأسه حتى يقع فلقتين ما يرده ذلك عن دينه وكان يمشط بأمشاط الحديد ما بين عظمه ولحمه ما يرده ذلك عن دينه] (رواه

البخاري من حديث خباب رضي الله عنه قال: [أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه فقال: [لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليثمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله] (البخاري بالمناقب». وكذلك علمنا رسول الله ﷺ في الفتن التي تقع بين المسلمين أن يكون المسلم هو العبد المقتول وليس العبد القاتل حيث يقول: [ستكون فتن القائم فيها خير من الجالس فيها والجالس فيها خير من القائم فيها، والقائم فيها خير من الساعي فيها، فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل] (رواه أحمد ٥، ١١٠) وكل هذه المواقف قد تكون بمفهوم الناس السياسي مواقف خاسرة ولكنها بالمنظور الديني مواقف هداية وصبر وبلاء.

ولا ينافي ذلك أن يكون المؤمنون في موقف قوة فيؤمروا بالدفاع عن أنفسهم، وتحطيم قوى الكفر التي تقف في وجه دعوتهم فالقتال فريضة إلى يوم القيامة، ولكن القتال سبيله أن يكون تحت راية ومن أجل هدف محدد يريد المؤمنون أن يصلوا إليه كرد عدوان، وتحطيم طغيان وتخليص مؤمنين مستضعفين، ولا يكون القتال مشروعاً إلا إذا تميز جند المؤمنين عن جند الكافرين فلا تشن حرب من فئة مؤمنة على فئة كافرة إلا إذا تميزت الصفوف، واتضحت السبل، وأنذر المسلمون أعداءهم الكافرين، وخرجوا لهم عيانا بيانا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وليس عن كما تفعل بعض عصابات الإجرام الآن ممن يظنون أنهم يشنون حروبا إسلامية في أوطان المسلمين فيكون قتالهم لإخوانهم في العقيدة والدين حيث يقتلون عسكرا في الجيش والشرطة، والحراس عامتهم من أهل الإسلام دون أن ينذروهم أو يحذروهم أو يخبروهم مجرد خبر لماذا يحاربونهم أو يثورون في وجوههم ومثل هذه الأعمال هي من أعمال الإجرام وليست من تشريع الإسلام فإن الله سبحانه وتعالى نهى المسلمين عن دخول مكة وقتال أهلها في السنة السادسة من هجرته ﷺ وذلك أنه كان من أهل مكة في ذلك الوقت قوم مسلمون يخفون إيمانهم علماً بأن دار الحرب كانت مميزة في ذلك الوقت. وهي مكة ودار الإسلام كانت ظاهرة وهي المدينة وما يتبعها ولكن الله قال للمسلمين المتحرقين والمتشوقين يومئذ لقتال الكفار ودخول مكة قال لهم:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡىَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح، الآيتان: ٢٤، ٢٥].

وها نحن نرى في الآيات أن الله سبحانه يقول للمؤمنين ﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٥] أي لولا هؤلاء لسلطناكم عليهم ولدخلتم مكة منتصرين!! فإذا كان الله سبحانه وتعالى إكراما لبعض المؤمنين المستضعفين الذين يخفون إيمانهم قد حرم المؤمنين دخول مكة من عامهم هذا وأخر الفتح وتحطيم الأصنام فوق الكعبة سنتين كاملتين وكل ذلك إكراما وحفاظا على حرمات بعض المؤمنين المستضعفين الذين يخفون إيمانهم فهل يجرؤ بعد ذلك على تأجيج نار الفتنة وقتل المسلم لأخيه المسلم في مجتمع اختلط فيه أهل الإيمان بأهل الفسوق والعصيان إلا مجرم أفاك.

لا شك أن من يقرأ هذه الآيات ويفقهها حق الفقه يعلم علما لا شك فيه أن دم المسلم وعرضه عزيز على الله وأنه لا يجوز للمسلم أن ينتهك ذلك حتى ولو زعم أنه يريد أن يتوصل إلى حق وأن يقيم شرع الله في زعمه وأنه لا بد من قتل الحراس والجنود والشرطة والجيش والشعب الغافل توصلاً إلى قتل الحكام والسلاطين الذين يحكمون بغير شرع الله.

والخلاصة أن القتل والقتال له سبيله وصراطه ولا يجوز القتال في فتنة عمياء لم ينفصل فيها صف المسلمين عن صفوف الكافرين المجرمين.

واجب الداعية في العصر الحاضر:

وهنا نأتي إلى السؤال المشهور ما واجب الداعية إذن في وقتنا الحاضر ونقول:

لا شك أن الدعوة إلى الله في العصر الحاضر تصطدم بعقبات هائلة منها انسلاخ مجموعات كبيرة من المسلمين عن حقيقة الدين، جهلا أو عنادا، وتفشي المنكرات

والأثام، واختلاف المسلمين أنفسهم في حقيقة الدين، والتنافس المحموم بل المجنون بين دول الكفر للسيطرة على دول الإسلام، والصراع بين المسلمين أنفسهم على الموالاة للشرق الشيوعي أو الغرب الرأسمالي. وهذه العقبات تجعل الدعاة إلى الله في حيرة من أمرهم لا يدرون بماذا يبدأون ولا من أين ينطلقون، ولعل أعظم فتنة تقابل الدعاة هي الموقف الواجب على الداعية المسلم إذا رأى من يفعل مكفرا، ونعني بالمكفر الفعل أو العقيدة التي حكم الله على فاعلها بالكفر كمن يترك الصلاة أو يحكم بغير ما أنزل الله، أو يسب الله أو رسوله أو دين الإسلام أو ينكر معلوما من الدين بالضرورة أو يستهزىء بشيء من الدين، أو يستحل الحرام أو يرد حكم الله أو حكم رسوله، أو يوالي أعداء الله من اليهود والنصارى وغيرهم وكل هذه الأفعال قد حكم الله على فاعلها بالكفر، وهذه الأفعال أيضا قد انتشرت في الأمة انتشارا ذريعا بل قلما تجد من يخلص من هذه المكفرات، وتأتي مشكلة الدعاة في كيفية التعامل مع من يفعل هذه المكفرات وهنا نجد العجب العجاب فبعض الدعاة يعلنون أن مثل هؤلاء الذين يفعلون تلك المكفرات كفار مرتدون يجب قتلهم وقتالهم. بل الأدهى من ذلك والأمر «بتشديد الراء» أن بعض المتعجلين والمغالين قد افتوا بأن من لا يكفر تلك الأصناف التي ذكرنا بعضها آنفا فهو كافر أيضا يجب قتله وقتاله بدعوى أن من لا يكفر الكافر فهو كافر..

وقد ذكرنا مرارا أن مثل هذا الفكر المتطرف الجاهل يلقى رواجا وقبولا وخاصة عند الشبيبة التي لا علم لها ولا فقه. ولا شك أن انتشار هذا الفكر والاقتناع به يعني في النهاية خراب العمران وهلاك الأوطان، واضمحلال أمة الإسلام، وهذا تماما ما يحدث الآن في أماكن كثيرة من الأرض الإسلامية حيث تحولت الدعوة الإسلامية من دعوة للإنقاذ والهداية وتوحيد كلمة المسلمين، إلى دعوة للإجرام والقتل ومفاجأة الناس كل عام بفتنة جديدة.

* ومهما يكن من أمر الذي تتوجه جماعات الفتنة إليه بالقتل فإن المنكر الذي يرجون إزالته يخلفه من المنكرات والآثام والمصائب ما يتضاءل أمامه المنكر المزال.. وبهذا يخرج المسلمون من بلاء أقل إلى بلاء أعظم وينفر الناس عن الدين الذي يرونه قد أصبح وسيلة للفتنة والقتل.

* إن الذين ينظرون إلى العالم الإسلامي المعاصر وكأنهم يعيشون في عهد الخلافة الراشدة، أو أيام عزة الإسلام في عهد هارون الرشيد مثلا حيث يكتب كتابا إلى ملك الروم فيقول له: «من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.. أما بعد فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع»! ويريدون أن يعيشوا هذه العزة في وقت تتلاعب دول العالم الكبرى الكافرة بأوطان المسلمين وشعوب الإسلام كما يتلاعب الأولاد بالكرة - واهمون ومغرقون في الجهل والسذاجة بل إنهم يعيشون خارج العصر تماما. بل إن الذين يريدون أن يعيشوا عزة الإسلام في وقت يعيش فيه الإسلام في غربة حقيقية بين أهله وذويه، حيث يسب دين الإسلام ورسول الإسلام، وتزدرى شريعة القرآن، ويتحول أبناء الإسلام إلى أعداء الداء لعقيدته وشرائعه، بل أولياء بكل معاني الولاية لدول الكفر يسبحون بحمدها صباحا ومساء ويتمنون دخول جيوشها وأساطيلها إلى بلدانهم اليوم قبل الغد.. أقول إن الذين يريدون أن يعيشوا عزة الإسلام الآن وفي هذه السنوات بالذات مغرقون في العماية والجهل.. وأعني بعزة الإسلام هنا أن تكون لهم اليد العليا.

* نعم نستطيع أن نعيش عزة الإسلام الآن بالاستمساك بعقيدته وشريعته في أنفسنا وإعلان كلمة الحق، وتحمل الأذى في سبيلها، ومقابلة السيئة بالحسنة، والصبر على أذى الناس ولو كان هذا الأذى قتلا وتشريدا وتعذيبا وإخراجا من الأهل والأولاد.. ولا شك أن المؤمن مع كل ذلك يعيش عزيزا داخل نفسه معتقدا أن ما هو فيه مع البلاء والصبر خير مما فيه عدوه مع الكفر والتجبر في الأرض.. وهذا ما نعنيه اليوم بمذهب ابن آدم الثاني.

* ليس عبثا أن يقص الله علينا نبأ ابني آدم حيث قتل ابن آدم الأول أخاه ظالما له. قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة، الآيات: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠].

فها نحن نرى أن الابن الثاني لآدم لم يقاوم الشر إلا كلاما عندما واجه المحنة،

ووجد الطغيان ورأى أنه أمام أخ شقيق يشاركه العقيدة في الله (التوحيد) ولكنه يتجبر عليه ولا شك أن هذا الحكم ليس منسوخا في شريعتنا بل أمرنا الله به سبحانه وتعالى به على لسان رسوله كما قال ﷺ: [ستكون فتنة القائم فيها خير من الساعي فيها، والقاعد فيها خير من القائم فيها، والنائم فيها خير من القاعد فيها فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل] (رواه الإمام أحمد). ولا شك أن الفتنة في أن يقتل المسلم المسلم وأن يختلط أمر الناس فلا يدري المقتول فيم قتل ولا القاتل أيضا من قتل؟؟

وترك القتل والقتال كانت شريعة معظم الأنبياء والرسل كآدم ونوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب، وأما موسى صلوات الله وسلامه عليه فقد أمر بالصبر في مدة رسالته في مصر كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۞ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨]. وهكذا نرى أننا أمام طاغية جبار يغريه قومه بالبطش بقوم ضعفاء وينسبونهم إلى الفساد لمجرد أنهم تركوا عبادة الأصنام والطواغيت وأقبلوا على عبادة الله وحده، فيقول الطاغية سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ويكون رد موسى استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. وهذا هو ما وقفه الرسول محمد ﷺ حيال فتنة الكفار في مكة حيث لم يؤمر بقتال وكان أمام الفتنة والبلاء يقول [صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة] ويقول للذين يتعجلون النصر ويريدون الدفاع عن أنفسهم [لم أؤمر بقتال] ويقول [إن من كان قبلكم كان يؤتي أحدهم بالمنشار فيوضع في مفرق رأسه حتى يقع فلقتين لا يرده عن دينه]!!

هذا ولقد أنجا الله موسى وقومه إلى الصحراء وأمره بعد بالقتال فلم يجد موسى رجالا يقاتلون معه فمات عليه السلام في التيه دون أن ينفذ أمر ربه بالقتال، وأما محمد ﷺ فإن الله أنجاه من بين ظهراني الكفار الذين أرادوا قتله وإطفاء نور دعوته إلى المدينة حيث كان المكان صالحا لإقامة أمة وتكوين جيش بل كان هناك الأوس

والخزرج ورثوا الحرب كابرا عن كابر وقالوا للرسول نمنعك من الأحمر والأسود ونقاتل معك ولو خضت بنا هذا البحر!!

وأما عيسى صلوات الله وسلامه عليه فإنه نسخ حكم القتال في التوراة، وأوقف العمل بالحدود الشرعية وقال لتلاميذه (سمعتم أنه قيل لكم عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضا، ومن سخرك ميلا فاذهب معه اثنين ومن نازعك ثوبك فأعطه الرداء أيضا)!! وقد يظن ظان أن هذا ينافي التشريع الإلهي وإن هذا من جملة المكذوب وهذا خطأ بل هو من المحكم في شريعة عيسى ومما جاء تصديقه في شريعة محمد ﷺ كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [سورة المزمل، الآية: ١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا وكلها تأمر بالصبر في مقابلة سيئات الكفار وسفاهتهم وتأمر كذلك بالحلم وترك المعاقبة وانتظار فرج الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى الظالمين!!

* وإذا كان عيسى عليه السلام لم يتمكن في فترة نبوته الأولى من قتال أعدائه ثم رفعه الله إلى السماء بعد أن تآمر اليهود عليه وسدوا عليه كل منفذ لإبلاغ دعوته فادعوا أنه يخالف السلطان الرومي وأحرجوه بالسؤال المشهور: (إن الحاكم يأمرنا أن ندفع له الضرائب فهل يجوز ذلك أم لا يجوز) وذلك لتوريطه فإن قال لا يجوز وشوا به إلى السلطان.. وإن قال يجوز قالوا له أنت موال للكفار..! أقول إذا كان عيسى عليه السلام لم يتمكن من قتال الكفار في حياته لفتنة اليهود فإن الله سبحانه وتعالى ادخر له إكمالا لشريعته أن ينزل فيقاتل الكفار حيث يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويؤذن بالصلاة على منهاج محمد ﷺ كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة.

والخلاصة إننا ندعو المسلمين اليوم كما دعوناهم بالأمس إلى دعوة سلمية حتى نعصم دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ونفتح الحوار بينهم ليعلوا الحق ولتقام حجة الله على عباده، ونحذر المسلمين من دعاة الفتنة الذين يروجون لقتل المسلم بالشبهة وتحويل ديار المسلمين إلى ساحة حرب بين المسلمين أنفسهم!

ندعو المسلمين إلى مذهب ابن آدم الثاني وهو مذهب الرسل جميعا قبل التمكين في الأرض. واليوم يتعرض المسلمون لفتنة عمياء تكاد أن تؤتي على الأخضر واليابس وهذه الفتنة تشجع قتل المسلم لأخيه المسلم وإثارة الفوضى والشغب بين أبناء الوطن الواحد وقبل أن يتميز صف الكفار من صف المسلمين.

* والدعوة السلفية منذ منطلقها في فجر التاريخ تحرم هذه الفتنة وتدعو إلى أن يتحمل المسلم الأذى في سبيل دعوته فإذا قتل فهو سيد الشهداء كما قال ﷺ: [سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله].. ولا يجيز أن يرفع المسلم سلاحه إلا في وجه الكافر الأصلي الذي أقيمت عليه الحجة وبلغه الإنذار، ونحن ندعو إخواننا المسلمين إلى هذه الدعوة دعوة الحق والرسل ونحذرهم من دعوات الفتنة والإجرام المنقولة عن أعداء الله ومن قاموس الظلمة مما يردده أعداء الله وأعداء الإنسان!

ولا شك أن الذي نقرره هنا إنما هو خاص في أوطان المسلمين التي لا يتميز فيها صف المؤمنين عن صف الكافرين وأما في أوطان المسلمين التي دهمها الكفار وغزوا أهلها فإن واجب المسلمين اليوم هو الدفاع عنها وقتال الكفار وذلك كأرض فلسطين وأفغانستان، وإرتريا والصومال والفلبين فالكفار هنا كفار أصليون وهم معتدون ولذا يجب على المسلمين جميعا قتالهم والقيام في وجه عدوانهم وطغيانهم والوجوب هنا وجوب على المسلمين جميعا وليس واجبا على أهل كل وطن بمفردهم.

ولا شك أيضا أنه لا حرمة للمسلم الذي ينضم إلى صفوف الكفار ويقاتل معهم فهؤلاء منافقون أو مرتدون يجب قتالهم. فأما إن كانوا منافقين يظهرون الإسلام قولا ويقفون في صفوف الكافرين ويعينونهم فإن الله قد قال في أمثالهم:

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآيتان: ٨٨، ٨٩].

ولا شك أن مظاهر الكفار ومعينهم على المسلمين لا حرمة له.

ثانياً: العمل على وحدة الأمة.

وذلك أن الوحدة والجماعة وإن كانت مطلبا شرعيا واجبا فإنه لا نصر ولا عزة بغير تحقيقها كما قال سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال، الآيتان: ٦٢، ٦٣].

وبالرغم من تآلف قلوب المؤمنين من نعمة الله وفضله على هذه الأمة كما جاء في هذه الآيات إلا أن الله قد بين أن ذلك نتيجة أسباب دعانا إلى تحقيقها لتتحقق الأخوة كما قال تعالى مثلاً: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٨]، فبين هنا أن التنازع يؤدي إلى الفشل والبغضاء وأن اتخاذ البطانة الكافرة يؤدي إلى زرع الفتن والأحقاد، ونهانا ﷺ عن الاختلاف صغيره وكبيره في العقائد والعبادات وقال: [اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه] وأمرنا بما يحبب بعضنا في بعض كإفشاء السلام وعيادة المرضى واتباع الجنائز وإغاثة الملهوف وتفريج الكربات، ونهانا أيضا عن أكل أموالنا بالباطل كأخذ الرشاوى والهدايا على الشفاعات والكفالات والمقامرة.. وباختصار أمرنا الله بكل ما يجعل منا أمة واحدة، ونهانا عن كل ما يفرق جماعتنا، ويوهن وحدتنا.

ولا شك أن صحوتنا الإسلامية تأتي اليوم في وقت نشأت عوامل كثيرة فرقت جماعة المسلمين، وذلك كالحكومات المتعددة والمصالح المختلفة، والأحزاب والمبادىء المتعارضة، بل والطوائف المختلفة في أصول الدين وحقائقه ومبادئه الأولى، بل تأتي هذه الصحوة الدينية الجديدة مع إيقاظ كامل لكل الفتن القديمة والجاهليات والعصبيات التي كان الإسلام قد عفى عليها بقوته وسماحته في جولته الأولى.

وهذا كله يلقى على الدعاة اليوم حملا جديداً وعبئاً ثقيلاً فإن عليهم بإزائه أن يوجدوا للأمة علماً واحداً، وأن يدفنوا العصبيات القديمة، وأن يجمعوا أبناء الأمة حول عقيدة واحدة ومنهج تشريعي واحد، وبالطبع دون ذلك طريق طويل من الجهاد

والدعوة والتسامح، وبذل البر والإحسان وبغير هذه الوحدة للعالم الإسلامي فصدقوني أننا لن نستطيع أن نجابه أعداءنا.

وإذا كانت الوحدة والتآلف والتآخي بين أبناء المسلمين جميعاً مطلباً شرعياً واجباً فلا شك أنها بين الذين يتصدون للدعوة والجهاد أشد وجوباً ولزوماً. ولكن للأسف.. للممارسات الخاطئة في حقل الدعوة الإسلامية، وللاجتهاد المختلف وللأهواء يتفرق الدعاة إلى الله شيعاً وأحزاباً وجماعات إن لم تكن متعادية فهي على الأقل غير متآلفة وغير متعاونة وهذا يؤدي إلى شتات جهودها وتفرق كلمتها وإنفاق كثير من جهودها عبثا واختراق الأعداء لصفوفها.. لا ننكر أن هناك خلافاً فطرياً في الاجتهاد وذلك للتفاوت العقلي ولاختلاف الإحساس بالمشكلات التي نعيشها ولطرق علاج هذه المشكلات المتعددة ولكن كان يمكن تجاوز هذه الاختلافات بسماع آراء الآخرين، وعدم اتهام النيات والطوايا، ولكن للأسف فالقانون الأخلاقي الإسلامي ليس مطبقا بصورة حسنة عند قطاع كبير من أفراد الجماعات الإسلامية.

ولذلك فإننا نحتاج إلى جهد ووقت طويل لجمع كلمة الجماعات والتنظيمات الإسلامية، وتوحيد صفوفها وليس بالضرورة دمجها في جماعة واحدة فإن هذا قد يبدو مستحيلا على أنه ليس في صالح الجماعات الإسلامية فقد يكون وجود جماعات متحابة متعاونة متناصحة أفضل من وجود جماعة واحدة تسير بنظام القطيع الذي يأمر الراعي فينفذ دون وعي فإن هذا أدى ويؤدي إلى كثير من الكوارث والنكبات في حقل الدعوة الإسلامية، ولذلك فالسعي يجب أن يكون في إيجاد روح التعاون والمشاركة والتناصح في إطار الجماعات الإسلامية مع ترك جوانب التخصص التي تمتاز بها كل جماعة سواء كان هذا التخصص في العبادات أو العقائد أو الآداب والأخلاق أو السياسات العامة فإن الدعوة بحاجة إلى علاج كل هذه الجوانب وقد لا يتيسر لجماعة واحدة علاجها جميعا لقصورها أو غلبة الفكر التجزيئي على رجالها أو لاختلاف النظر حول الأهم والثانوي من أمور الدين.

ولذلك فكل ما نرجوه لإيجاد صراط إسلامي واحد للدعوة هو أن يكون هناك نوع من التفاهم والتنسيق بين جماعات الدعوة الإسلامية وخاصة في القضايا العامة، وفي

أمور السياسات ليكون موقف المسلمين واحداً وليكون صفهم أمام أعدائهم وشانئيهم متراصاً قوياً.

ولن يتم ذلك إلا بإفساح الصدور لسماع الرأي المخالف وفتح باب النقد لتصحيح المسيرة الإسلامية وتقويم اعوجاجها، وأما قفل باب النقد والتبرم بالرأي المخالف فإنه يؤدي حتما إلى إغلاق منافذ التقويم والتصحيح وبالتالي الوقوع في الخطأ الواحد المرة تلو المرة، وهذا هو الواقع الآن فما زالت الجماعات الإسلامية تقع في أخطائها السابقة التي كان من جرائها تشتيت أفرادها وتعريضهم للفتن والتعذيب والتنكيل وذلك بسبب الدخول في قضايا جزئية، ومعارك فرعية لا تغني في حال النجاح شيئا، وأما في حال الفشل وهي بالطبع فاشلة تماما فإنها كانت تؤدي إلى تمزيق الجماعة ودخولها إلى السجون والمعتقلات وكل ذلك في الغالب بسبب حادث اغتيال تافه أو حادث تخريب، أو مظاهرة سخيفة، ونحو ذلك، وبإقفال باب النقد والتقويم أصبحت هذه الأعمال التافهة تشكل المثل الأعلى للجهاد عند قطاع كبير من الشباب المسلم وذلك بالتهويل والتضخيم لمثل هذه الأعمال التافهة وإبرازها على أنها منتهى آمال المجاهدين وإبراز الذين ينتقدون مثل هذه الأعمال بأنهم منافقون للسلطات أو معوقون أو خائفون.

وبسبب هذه الأخطاء المكررة أصبح العمل الإسلامي والجهاد الإسلامي وخاصة في مشرقنا العربي أشبه بحركات المجانين، وانتفاضات المصروعين ولم يصبح الجهاد الإسلامي بعد صراطاً مستقيماً صاعداً يحقق كل يوم كسباً أو نصراً جديداً ويحتل كل يوم موقفاً جديداً وذلك أنه في الغالب جهاد عشوائي ارتجالي غوغائي يعتمد على الإثارة والتشويش أكثر من اعتماده على المنطق والعقل واتباع سنن الله في الكون والحياة والناس، ولا شك أن قفل باب التقدم والتوجيه أدى إلى تكرار الأخطاء كما ذكرنا ذلك آنفا. وباختصار نحتاج في هذا الصدد إلى أمرين: وحدة الجهاد الإسلامي وذلك يكون بالاتفاق على الخطوط العريضة للجهاد بين الجماعات والأفراد المسلمين المهتمين بشأن الدعوة وثانياً نحتاج إلى صراط واضح نسلكه في سبيل الدعوة وهذا الصراط أو بلغة العصر (الاستراتيجية) يعني أن يكون للجماعات الإسلامية أهداف نهائية يريدون الوصول إليها ولتكن هذه الأهداف من التي لا تتحقق

إلا بمرور جيل أو جيلين، ثم أهداف مرحلية آنية تتحقق في ظرف عام أو عامين ثم يكون السعي والجهاد في إطار هذه الأهداف المرحلية والنهائية.

وإذا استطعنا أن نحقق ذلك فلا شك أننا نكون قد وضعنا طلائع البعث الإسلامي الجديد على الطريق والصراط الصحيح.

ثالثا: وضع العرب في موضعهم الصحيح.

الأمر الثالث الذي نحتاجه أشد الاحتياج لتؤتي الصحوة الإسلامية الجديدة ثمارها هي أن نهتم بالعرب أولاً وذلك ليقوموا هم قبل الناس جميعاً بواجب الدعوة إلى الله، وذلك أنهم الشعب الذي اختاره الله أولا لرسالته وبعث منهم محمداً ﷺ، وقد ارتبط اسم الإسلام في الأرض باسمهم، والقرآن نازل بلغتهم وهم أقدر الناس على فهمه وتبليغه، وانصراف العرب عن الرسالة هو أكبر عامل من عوامل انصراف غيرهم عنها لأن الناس يقولون لو كان الإسلام خيراً لظل أهله العرب متمسكين به هذا وفي وسط بلاد العرب تقوم مشاعر أعظم عبادتين في الإسلام الصلاة والحج ففي الصلاة يتوجه المسلمون من جميع أنحاء الأرض إلى الكعبة التي تقوم في وسط بلاد العرب بمكة، وفي الحج يأتي الناس من كل صوب في العالم إلى مكة لأداء مناسك معينة لا تصح، إلا في هذه الأماكن المقدسة، ولو انصرف العرب الذين يعيشون حول الكعبة ومكة عن الإسلام لكان هذا أكبر عامل في انصراف الأميركي والأوروبي والهندي والصيني أن يولي وجهه شطر بيت هجره أهله وقلاه وأبغضه أصحابه ولذلك فلا بد من أخذ العرب إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً، وأقول كرهاً أيضا لأن الله اختصهم برسالته، وألزمهم كلمة الإسلام غصباً وجبراً في السنة التاسعة من هجرة النبي ﷺ ولم يقبل الله من العرب بعد هذا العام إلا الإسلام أو السيف وأبطل كل عهود الهدنة والمصالحة والموادعة معهم كما قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [سورة التوبة، الآيات: ١، ٢، ٣].

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٥] وهكذا لم يمهل الله الكفار غير أربعة أشهر، ثم أمر بقتلهم في كل مكان من جزيرة العرب ولم يأمر بالعفو عنهم وتركهم يعيشون إلا إذا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وهذه نصوص واضحة لا شبهة فيها أن العرب خاصة لا حياة لهم إلا بالإسلام الذي اختاره الله لهم وارتضاه لهم أبد الدهر، ولا شك أن النص السابق محكم ويجب إجبار العرب دائما على البقاء في حوزة الإسلام وحول رايته، ولذلك قاتل أبو بكر مانعي الزكاة وأجبرهم على الرجوع إلى الإسلام بالسيف ويجب أن تكون هذه سياسة كل خليفة راشد إلى يوم القيامة، وعلى كل حال لسنا بصدد استعمال السيف مع العرب لإجبارهم على حمل رسالة الإسلام لأنه ليس في طوق الدعاة ذلك ما داموا بعيدين عن السلطة وإنما نحن بصدد وجوب أن تبدأ الدعوة الإسلامية في العرب ومن العرب ليقيموا النموذج الصالح الذي يحتذيه الناس، وهذا يعني أن توجه جهود المصلحين أولا إلى بلاد العرب قبل أن توجه الجهود إلى أوروبا وأميركا فالأموال الطائلة التي تنفق على الدعوة الإسلامية في أوروبا وأميركا أرجو أن توجه قبل ذلك إلى بلاد العرب حتى يتيسر لنا إقامة النموذج العربي الإسلامي الخالص الذي إذا رآه الأوروبي والأميركي علم أن هذا هو الإسلام. للأسباب السابقة جميعا أرجو أن تنطلق حركة البعث الإسلامي من البلاد العربي خاصة ثم تعمم بعد ذلك على بلاد العالم جميعا ولا أعني بذلك أن نوقف الدعوة في غير البلاد العربية بل يجب أن تنشط في كل اتجاه، ولكن لتكن الأهمية الأولى في بلادنا العربية أولا وفي شعبنا العربي أولا، وثمة سبب أخير يدعونا إلى ذلك وهو أن الفهم العربي للإسلام ما زال هو الفهم السليم، فقد جربنا مفاهيم شعوب أخرى للإسلام فكان من جراء ذلك التشددات الكثيرة والتخريفات التي امتاز بها العصر التركي، ودخول التصوف والفلسفات التي غزت العقيدة الإسلامية من الفرس والهنود، والحق الإلهي للملوك والسلالات، والذي غزا العقيدة الإسلامية من الفكر الساساني الفارسي، وهكذا وإذا دققنا النظر وجدنا عقيدة الإسلام الفطرية بعيدة عن التعقيد والطبقية والصوفية، وكل هذا غزا العقيدة الإسلامية من بقايا الفلسفات الأعجمية التي وإن دان أهلها بالإسلام ولكنهم حملوا بذور عقائدهم القديمة إلى دين الفطرة والنقاء والسماحة

فكانت بذلك جملة التشوهات التي لحقت بعقيدة الإسلام وشرائعه، ولا أعني ذلك أنه لم يكن لبعض مفكري العرب إسهام في الانحراف عن رسالة الإسلام بل أعني أن العرب الذين عاشوا في الجزيرة قد تخلصوا نهائياً تقريباً من عقائدهم الوثنية والقرآن ينزل عليهم وبذلك فهموا العقيدة الجديدة فهماً سليماً، وتخلصوا من أدران قليلة جداً إذا قيست بما كانت عليه الجاهليات الأخرى.

وعلى كل حال العرب يجب أن يعودوا إلى الإسلام إذا أردنا نهضة إسلامية حقيقية وبعثاً إسلامياً جديداً ويجب أن نبذل قصارى جهودنا حتى يلتف جميع الناطقين بالعربية حول علم واحد وفي ظل شريعة واحدة وبذلك يستطيعون حقا أن يقوموا بالمهمة التي خلقهم الله من أجلها.

وبهذا أيضاً تقطع الطريق على بعض الحاقدين على الإسلام من الشعب الإيراني الذين جعلوا دعوتهم للإسلام حرباً على العرب والعروبة بل حرباً شعواء على كل الذين حملوا لواءً في سبيل نشر الإسلام وتحقيق مبادئه بدءاً بالصديق أبي بكر ونزولاً إلى آخر مسلم لا يعتقد معتقدهم في كفر الصحابة جميعا إلا خمسة منهم كما يزعمون أو ثلاثة فهؤلاء الذين لبسوا مسوح الإسلام وأبطنوا حرب أهله ودعاته وحملته فكفروا الصديق والفاروق وعثمان وكفروا بني أمية وبني العباس، وناصبوا العداء لخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وجميع الفاتحين المسلمين، وجعلوا حكام بني عثمان ممن فتحوا القسطنطينية ونشروا الإسلام شرقاً وغرباً جعلوهم كفاراً خارجين عن الإسلام وكفروا صلاح الدين الأيوبي وجعلوه زنديقا وحاربوا كل دعاة الإسلام والتوحيد طيلة القرون ولم يترضوا ويوالوا في كل التاريخ إلا الحكام الزنادقة من العبيديين الذين تسموا بالفاطميين الذين غيروا دين المسلمين ونشروا كل البدع والخرافات والشركيات، وكذلك والوا ابن العلقمي الذي فتح بغداد للتتار، وجعلوا قاتل عمر بن الخطاب أبا لؤلؤة المجوسي صديقاً شهيداً مجاهداً. . هؤلاء الذين خرجوا على الأمة الإسلامية اليوم يزعمون إسلاما يحمل كل هذا الكفر والزندقة ويهدم الإسلام من أساسه ويمحو تاريخه المشرق ويسيء في النهاية إلى رسول الإسلام الذين يصفونه بالضعف والخوف من تبليغ رسالة الله في أن الخليفة من بعده هو علي وليس أبا بكر أو عمر، وآذوا من قبل ومن بعد منزل الكتاب ومجري

السحاب حيث زعموا أنه لم يحم رسوله من المنافقين حوله الذين زعموا أنهم لازموه حياً وميتاً وهم أبو بكر وعمر الذين يزعم هؤلاء المارقون أنهم كانوا منافقين كفاراً ومع ذلك صحبوا رسوله حتى الموت ودفنوا بجواره!! فأي إساءة لله تبارك وتعالى أكبر من هذه.

نقول إن دعوة العرب إلى الإسلام وقيامهم بأمر الله سيقطع الطريق أمام الحاقدين على العرب الذين يريدون حرقهم وتدميرهم بحجة الدعوة إلى الإسلام تماماً كما فعل أبو مسلم الخراساني الذي ادعى تطبيق الإسلام الصحيح ومحاربة بني أمية لذلك منكراً عليهم بعض البدع والمنكرات ولكن ليتوصل إلى استئصال العرب وقتلهم كما فعل تماما في أرض فارس عندما قام بثورته على بني أمية.

إننا اليوم بحاجة إلى وقفة رشيدة وقيام لله وشهادة بالحق، ونهضة إسلامية عربية تضع العرب في مكانهم الصحيح من قيادة الشعوب الإسلامية وبالتالي التقدم للبشرية جميعا برسالة السماء هذا اختيار الله قديما لهذه الأمة وهذا أيضا اختياره سبحانه لها أبد الدهر.

خاتمة

هذه أخي الداعية عجالة سريعة للقواعد الأساسية التي يجب علينا أن ننطلق منها لتوجيه حركة البعث الإسلامي إلى مسارها الصحيح.

أدعوك وأحملك الأمانة وأناشدك الله أن تدعو لذلك في كل مكان تصله قدماك ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.

* * *

كتاب

المنافقون الجدد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله معز جنده وناصر أوليائه، حفظ لنا الدين وأقامه وأمرنا بالتزام صراطه والقيام بأمره، والصلاة والسلام على النبي الخاتم ﷺ، نبي الرحمة، ونبي الملحمة، الذي أقام الله به الدين والحجة على عباده، قهر به الكفار وردّ به كيد الفجار، وأدّب به المنافقين وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وأشهد أن لا إله إلا الله ـ وحده لا شريك له ـ وأن محمداً عبده ورسوله. . . . وبعـــد:ـ

فما زال أعداء الله يتربصون بالمسلمين في كل زمان ومكان يبذلون جهدهم ويحيكون مؤامراتهم من أجل النيل من هذه الأمة والطعن في عقيدتها وشريعتها. . .

واليوم ظهرت طائفة جديدة من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، هي امتداد لظاهرة النفاق التى ما فتئت تنخر في جسد الأمة وتمد أعداء الله بكل وسيلة لضربها في مواطن قوتها. . . وقد جاءت هذه الطائفة بحلة جديدة كشفت فيها عن أنيابها وأظهرت كفرها وسموها ظناً منها أن هذه الأمة تحتضر وأنها في طريقها إلى الزوال. . .

وفي هذه الرسالة اللطيفة التى أصلها خطبة ألقاها شيخنا الفاضل / عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله من على منبره، سلّط فيها الضوء على هذه الظاهرة

تشخيصاً. . . . وتحذيراً للأمة وبياناً لخطرها. . . لعل الله جلّ وعلا يقيّض لهذه الأمة من يجتث هذه الطائفة من جذورها ويعيد لهذا الدين سابق عزه ومجده.

ونحن في شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع قمنا بنشر هذه الرسالة تعميماً للفائدة ولا يسعنا إلا أن نبتهل ونضرع إلى الله أن يبرم لهذه الأمة أمر رشد يعيدها إلى موقع الريادة والصدارة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَ الحَمْد لِله نحمَدهُ ونسَتعينُه وَنستَغفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِن شرؤرِ أَنفُسِنَا وسَيئَاتِ أعمَالِنَا، مَن يَهدِه اللهُ فَلا مُضِلَ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وأَشهدُ أن لا إلّهَ إلا الله وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَأَشهدُ أنَ مُحَمَدا عَبدُهُ ورَسولُـهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١] أمَا بَعـدُ:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

الإسلام عقيدة عُليا:

لما بدأ رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس جميعاً ليدخلوا في الإسلام كان كل من في الأرض من أهلها معادٍ له: مشركو العرب، اليهود، النصارى، المجوس، وسائر الملل والنحل.

وقد جاء النبي ﷺ بدين جديد يخالف كل ما عليه الناس من عقيدة وتشريع، جاء بصراط آخر غير ذلك الصراط الذي عليه الناس، كل هؤلاء قد عادوا النبي ﷺ وأرادوا زوال دينه.

اتفاق الكفار في بعض عقائدهم مع الإسلام لا يعني زوال عداوتهم:

وقد كان لبعض هؤلاء المشركين أموراً يتفقون فيها مع الإسلام في بعض فروعه.

فاليهود يؤمنون بالإله الخالق ـ سبحانه وتعالى ويؤمنون بالنبوات، والنصارى يؤمنون بالإله الخالق وإن نسبوا له الولد، ويؤمنون بالمعاد الآخر، ومشركو العرب يؤمنون كذلك بالإله الخالق الذي له الكون كله وهو ملك يمينه وطوع أمره وإن كانوا ينكرون البعث ويقولون: لا حياة بعد هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٢٩]، وبيّن الله سبحانه وتعالى في شأنهم فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٣٨]، وقال جل جلاله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٨، ٨٩]

فقد كان هناك أمر مشترك كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٣٩]، وهذا كلام موجه إلى اليهود والنصارى، وحتى مشركي العرب؛ بأن هناك أمراً مشتركاً في الاعتقاد في الإله الخالق، ولكنهم خالفوا الحق في هذا الإله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وعبدوا معه ما عبدوه، وقالوا: بأنه تزوج بالجن وولدت له الملائكة !!، وأن الملائكة شفعاؤنا عند الله !! وأنه لا يستطيع أن يعيدنا مرة ثانية !!، وأموراً أخرى وإن كانت تتناقض مع ما يثبتونه من الاعتقاد، وكان هؤلاء جميعاً مجتمعين على حرب الإسلام.

متى ظهر النفاق في الأمة:

ثم نشأ بعد ذلك كفر جديد وهو كفر النفاق الذي لم ينشأ إلا في المدينة، وهذا الكفر كان يختفي في وقت نصر المسلمين وظهورهم، ويظهر في وقت ضعفهم، وكان أول ظهور للنفاق بعد بدر حين قال عبد الله بن أبي سلول: أرى أن هذا أمراً قد توجب ـ يعني: الدخول في الإسلام ظاهراً ـ وهو كافر؛ لأن الإسلام أصبح له جاه وله

قوة، فلما انتصر المسلمون في بدر وأصبح حديث الجزيرة كلها: أن محمداً بن عبد الله ﷺ انتصر على العرب الممثلين في قريش، فإنه أظهر الدخول في الإسلام.

حال المنافقين مع النبي ﷺ:

وهذا النفاق كان يختفي في وقت قوة المسلمين ولكنه يظهر في وقت ضعفهم، وذلك بحسب الحال، ففي غزوة أُحد، وفي المحنة ظهر، فرجع عبد الله بن أبي سلول بثلث الجيش وقال: لا أدري على ماذا نقتل أنفسنا؟ وفي الخندق ظهر ظهوراً علنياً، فقال المنافقون: «ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً»، وأظهروا الكفر علانية.

كفر النفاق من أخبث أنواع الكفر:

ومبادىء كفر النفاق هي من أخبث أنواع الكفر لأنه دائماً مع أعداء الله ضد الإسلام، والمنافقون ليسوا يهوداً ولكنهم مع اليهود، وليسوا نصارى ولكنهم مع النصارى وليسوا مجوساً ولكنهم مع المجوس، فهم مع كل من يحارب الإسلام، ولا دين لهم إلا حرب الإسلام!!!

المنافقون خنجر جاثم على صدر الأمة الإسلامية:

وقد ظهر مثل هذا في وقت الضعف مرات عديدةٍ فلما توفي النبي ﷺ وتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه رأى هؤلاء أن الفرصة أصبحت سانحة حينما ارتدت أكثر العرب فأظهروا الكفر بعد أن كانوا في الظاهر كلهم مسلمين، وبعد أن كانت تقام الجمعة والجماعة في كل مكان من الجزيرة، ولكنهم بمجرد وفاة النبي ﷺ وجدوا الفرصة سانحة لهم فأظهروا الأمر ووقعت الردة الكبرى في عهد الصديق رضي الله عنه ثم قمعت بفضل الله.

ثم ظهر النفاق بعد ذلك على مدار التاريخ، فلما ضعفت دولة بني العباس ظهر النفاق حتى في البيوتات، وفي بغداد عاصمة الإسلام كان النبي ﷺ يسب، كما كان يسب الدين، فبمجرد ما أن تضعف خلافة المسلمين إلا ويظهر هؤلاء المنافقون.

ظهور النفاق بأشكال متعددة:

ثم ظهر المنافقون في أحوال وفي صفات متنوعـة منها الزنادقة في فرق الضلال الكثيرة، والتي سميت بأسماء إسلاميـة ودخلت في الإسلام لهدمه من داخله، والتي كان ولاؤها دائماً لأعداء الإسلام وضد الإسلام.

النفاق في العصر الحاضر:

وفي عصرنا الذي نعيشه ـ عصر كسرة للإسلام، وغلبة من أهل الكفر عليه ـ ظهر النفـاق الذي هو الكفـر (حقيقة الكفر) بأجلى صوره، لكن من أعجب العجب أن النفاق في هذه العصور قد يخالف كل النفاق الذي سبق؛ فإنه قد ظهرت طائفة من المنافقين لا يلتقون فيها مع الإسلام ولا مع أهل الإسلام بأي قضية قط.

من مقالات المنافقون الجدد:

فالله عندهم مسبوب مشتوم، يسبونه ويشتمونه بكل أنواع السب، ويشتمون الشمس التي تطيعه، والقمر الذي يسير في مساره، ويرون أن هذا الكون ليس له مدبر ومصرف، بل يسبون الله ويصفونه بكل صفات النقص ويسبونه ليس لأنه ينام أو يمـوت أو يأكل أو يشرب. . . . . . لا، بل يسبونه بكل صفات النقص التي يمكن أن تكون في المخلوق فينسبوها لله تبارك وتعالى.

بل يقول بعضهم: «الله هو الشيطان» فهما وجهان لعملة واحدة !!، ويقول بعضهم: النبي محمد ﷺ شر إنسان وجد في الأرض، ولا يوجـد إنسان في الأرض أشـد شراً منه !!.

المنافقون الجدد لا يلتقون مع أهل الإسـلام في أي قضية:

فهؤلاء لا يلتقون مع أهل الإسلام في أي قضية، لا في الاعتقاد بالله تبارك وتعالى، ولا في التشريع، ولا في العدل وكل من يعادي الإسلام فإنهم يوالونه، وما

كان في الإسلام من عدل جعلوه ظلماً، ولا يوجد أي كفر أو ظلم ودناءة إلا وجعلوه عدلاً !!!.

هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا :

وهذه الطائفة الجديدة من المنافقين التي كثرت أدبياتها، وانتشرت في التلفاز والفضائيات والإنترنت والصحف والمجلات، وصارت تظهر علينا بأسماء إسلامية ومن بين أبناء المسلمين !!! بنفاق لم يوجد مثله قط في كل التاريخ، وكل هذا يظهر في وقت ضعفت فيه الأمة الإسلامية وغلبها أعداؤها، فظهر هؤلاء المنافقون بهذه الأنواع من الكفر.

الفرق بين المنافقون الجدد وطوائف الكفر :

لقد كان المسلمون يلتقون أحياناً مع الكفار، في بعض القضايا، فاليهود يؤمنون بالله الخالق سبحانه وتعالى ويؤمنون ببعض أنبيائه ورسله، ويؤمنون بأن هناك بعث بعد الموت، وأن هناك حساب. . . . .الخ، لكننا نختلف مع اليهود في عيسى ابن مريم، فهم يسبونه ويسبون أمه ويكفرون به، وكذلك نختلف معهم في الرسول ﷺ، فهم يسبونه ﷺ ويقولون: كذاب، ويقولون فيه ما يقولون، إلا أن هناك قضايا فيها نوع من الاتفاق معهم، وكذلك مع النصارى وكذلك مع سائر الأمم المشركين، أما هؤلاء فإنه لا توجد قضية مشتركة قط يشتركون فيها مع أهل الإسلام.

وكل الكفار لهم ما يعظمونه، ولهم ما يعظمون فيه أمتهم، أو يعظمون فيه أوطانهم، إلا هؤلاء!! فإن أنجس الأوطان عندهم هو الوطن الذي ظهر فيه الإسلام!! وأنجس الشعوب هو الشعب الذي حمل رسالة الإسلام !!.

جيل من المنافقين الجدد لا مثيل له :

إننا أمام جيل من المنافقين والكفار لا مثيل له في كل التاريخ، فهؤلاء أناس تنكروا لأمتهم ولأوطانهم، فضلاً عن تنكرهم لربهم ودينهم وكل ما يمت إلى الإسلام

بصلـة وهؤلاء عندهم كل أعداء الإسلام هم الشرفاء ، والإسلام وحده هو الذي ليس على الجادة والصواب، فلا يوجد معهم أي قضية مشتركة يمكن أن تبني عليها شيئاً معهم وكيف تبني نقاشاً أو تبني دعوة مع شخص لا يوافقك في أي حق أبداً، أو في أي قضية من قضايا الحق، بل إن كل الباطل عنده هو الحق، وكل الحق عنده هو الباطل.

جيل نجس لم يُر مثله في التاريخ :

إنه جيل جديد نجس، بل أشد نجاسة، ولم أر نجاسة مثل نجاستهم في كل التاريخ، وكل هذا يظهر وللأسف في وقت تضعف فيه هذه الأمة عن مجابهة أعدائها، كيف وأعداؤها أصبحوا ملء الشرق والغرب، وأجلبوا عليهم إبليس بخيله ورجله من كل مكان.

النصر والتمكين حليف هذه الأمة المسلمة :

ولا شك أن هذا لن يستأصل الإسلام، والإسلام باق وهو سائر بكل قـوة، والنصر والتمكين له ـ إن شاء الله ـ.

إن هذا هو حكم الله تبارك وتعالى كما قال في محكم تنزيلـه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ * إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦]، فهذا حكم الله تبارك وتعالى من قبل أن يخلق الخلق، وأمر الله لا بد أن يسير.

الإبتلاء سنة الله لعباده المؤمنين :

لكن لا بد من أن يبتلى المسلمون في كل جيل وفي كل وقت، وهذا البلاء الذي وقع على الأمة في هذه الأزمان قد لا يكون له شبيهاً فيما مضى عليها من البلاء، نعم؛ هناك صورة من صور المشابهة ولكن ليس بهذا الحجم.

فمثلاً ظهر المنافقون في عهود الضعف، ويحكي شيخ الإسلام ابن تيمية من

أقوال المنافقين عندما هاجم التتار أرض الإسلام حتى وصلوا إلى دمشق وأنذروا مصر بعد ذلك آخر معاقل الإسلام ليدخلوها، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

إن المنافقين خرجوا في بلاد الشام يقولون من ضمن مقالاتهم: «إن جل الشر الذي جاءنا إنما هو من وراء محمد بن عبد الله، فهو الذي ألب هؤلاء الخصوم علينا، وهو الذي فعل وفعل، ولولاه لما كنّا في هذه المحنة التي نحن فيها جيلاً بعد جيل حتى عادتنا الأمم على هذا النحو»، قالوا هذا في ذلك العصر!!

كبرت كلمة تخرج من أفواههم:

لكن المجرمين في هذا الوقت يقولون ما هو أكبر من هذا، إنهم يقولون: إن محمداً بن عبد الله هو أكبر بلاء على البشرية !!، وهذه أربعة عشر قرناً والضُّلال يمشون خلفه جيلاً بعد جيل، فإلى متى يضلهم؟ وإلى متى يُسكت عن هؤلاء!! وأنه يجب استئصال هؤلاء!!

إن هذه المقالة هي أعظم ضلالة ظهرت على وجه الأرض منذ وجوده ا؛ أن النبي محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ المبعوث رحمة للعالمين والسراج المنير وهداية الله تبارك وتعالى إلى خلقه؛ يجعلونه أعظم بلاء على البشرية وجد في كل التاريخ!!

إن هؤلاء أناس بلغوا من الإجرام كل مبلغ، ولا لقاء مع هؤلاء، وليس بين أهل الإسلام وبين هؤلاء أي نوع من اللقاء.

واجبنا تجاه ديننا:

فيجب على كل مسلم أن ينهض لدينه، وأن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً، وأن يدعو بملء فمه إلى هذا الطريق، وأن يجاهد في الله تبارك وتعالى قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٣].

استغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه.

الخطبـة الثانيـة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد بن عبد الله سيد الأولين والآخرين، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه فصلوات الله وسلامه عليه.

كفر المنافقون الجدد لا ينتهي:

فإن مفردات هذا الدين النجس الذي عليه هؤلاء المنافقون لا تنتهي... وهات أي قضية من قضايا العدل إلا ولهم فيها سب وشتم، أو هات أي رمز من رموز الإسلام ممن قاموا بخدمة هذا الدين من أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى يومنا هذا إلا وهم أعداء له!! وليس هناك رمز من رموز الكفر قد عادى هذا الدين ـ من إبليس إلى آخر مجرم في الأرض ـ إلا وهم يوالونه ويثنون عليه.

ملة الكفر واحدة:

عجباً لهذا النوع من النفاق الجديد الذي حل بالأمة في هذا الوقت والذي يجد ـ للأسف ـ الدعم المادي والتشجيع بكل سبيل، وكل مجرم يقوم الآن بسب الإسلام أو رسول الإسلام أو سب الدين أو نحو هذه الهرطقات فإنه يجد الدعم من هذه الجهات المجرمة ومن هذه الدول الكافرة وكل هذا كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة الصف، الآية: ٨].

تم بحمد الله...

كتاب

الوصايا العشر

للعاملين بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسوله وعبده وبعد:

فإن هذه الرسالة قد كانت محاضرة ألقيتها في المخيم الربيعي الذي أقامته جمعية إحياء التراث الإسلامي ـ بالكويت (المنطقة العاشرة) الإثنين ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٤٠٨هـ الموافق ٨/ ١/ ١٩٨٨م ـ ولأن هذه المحاضرة قد كانت ثمرة قلب، وخلاصة تجربة في الدعوة، استمرت بحمد الله نحواً من ثلاثين عاماً، أحببت أن أنقلها كتابياً لإخواني المسلمين في كل مكان لما أرى لها من أهمية بالغة، وفائدة كبيرة أرجوها لإخواني الدعاة إلى الله.

ولما كانت هذه المحاضرة قد أُلْقِيَتْ ارتجالياً خاطبت فيها العامة، فإنني اضطررت عند نقلها كتابياً أن أغير ما لابد منه من (ألفاظ عامية) لتكون مناسبة للقراءة، ولكن بقي طابعها العام ومخاطبتها لجمهور الناس.

وإني أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل لوجهه خالصاً، وأن يرزقني حبه ورضوانه، وأن يوفِّق إخواني الدعاة في كل مكان إلى التزام صراطه المستقيم، واقتفاء أثر رسوله الكريم.

وأن يستعملنا في طاعته على النحو الذي يحبه ويرضاه، إنه هو السميع العليم.

عبدالرحمن بن عبدالخالق

الكويت الثالث من رجب الحرام سنة ١٤٠٨هـ

الموافق ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح وبدء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

مدخل

نحن ننتمي بحمد الله تعالى إلى أمد الهداية الأمة المختارة من الله سبحانه وتعالى لحمل رسالة السماء، الرسالة الخاتمة، رسالة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، والدعوة إليها والتبشير بها إلى يوم القيامة، وهذه الأمة المهتدية قد مرت عليها أيام سعد وعز ونصر وتمكين لما قامت بهذه المهمة، التي جعلها الله السبب والسبيل إلى هذا النصر والتمكين، أعني لما قامت بالإسلام أعزها الله سبحانه وتعالى، ثم مرت عليها أيام محن وألام ومصائب، وذلك لا شك قد كان بسبب تركها لهذه المهمة العظيمة: مهمة الإيمان بالله والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحالنا اليوم لا يخفى على عاقل، وأنتم بحمد الله أهل الإيمان وأهل الإسلام من أهل العلم والفطنة لا يخفى عليكم ما الحال التي آلت إليه الأمة، وبالتالي لا نطيل في ذلك، بل نركز الكلام في القواعد التي يمكن بها أن تبعث الأمة من جديد، وأن تعود كما كانت، تتسلم راية الله عز وجل لتكون خير أمة أخرجت للناس، سأركز كلامي إن شاء الله في عشر نقاط أرى بحكم تجربتي أن هذه النقاط لو أخذت بها الأمة

فإن النتيجة الحتمية بحول الله تبارك وتعالى وقوته هي العز والنصر والتمكين، والفوز برضوان الله بالآخرة، والسعادة والفلاح، وهذه الوصايا العشر سأسند كل وصية فيها إن شاء الله إلى دليل من كتاب الله أو سنة نبيه صلوات الله عليه وسلامه، وكذلك وقائع السير والتاريخ، وسترون إن شاء الله أن هذه النقاط العشرة من البديهات، ولكنها للأسف تغيب عن كثير من المسلمين العاملين في حقل الدعوة، بل عموم المسلمين قد لا يهتمون بشؤون الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

الوصية الأولى

البدء بدعوة الناس إلى تحقيق غاية وجودهم: عبادة الله وحده لا شريك له

أول محطة في طريق الدعوة أن نستطيع أن نقول: إنها نقطة المنطلق، لابد أن نعرف غاية الخلق وسر الوجود، وهذه النقطة قد فصَّلها الله تفصيلاً كاملاً في كتابه، وبينها النبي بياناً كاملاً، وهي النقطة التي يدور عليها عمل الرسالات جميعاً، بل ما أقيمت السماء ووضعت الأرض إلاَّ من أجلها، وهي باختصار: عبادة الله تبارك وتعالى وتوحيد الله عز وجل، فالله ما خلق الخلق إلا ليعبدوه، الخلق كله بعلوه وسفله: سماواته وأرضه، ملائكته، وإنسه وجنه، ما خلق الله شيئاً إلا ليكون هذا الشيء عبداً له ومؤتمراً بأمره ومنفذاً لحكمه، ومشيئة الله تبارك وتعالى نافذة في كل خلقه سواء كان كافراً أو مؤمناً: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٣] لا خروج لأحد عن دين الله عز وجل، حتى الكافر فهو في دين الله، وفي حكم الله، وفي قهر الله، وفي جبروت الله، وفي قبضة الله سبحانه وتعالى، لا انفكاك لأحد منا عن حكم الله وتصريفه، فتصرف الله في الكائنات نافذ، وأمر الله عز وجل الكوني القدري لا رادَّ له. السموات والأرض مسلمة لله عز وجل، والكافر مسلم رغماً عنه: بمعنى أنه لا ينفك عن قضاء الله وقدر الله فهو يولد بأمر الله، ويمرض بأمر الله، ويموت بأمر الله، ويرزق برزق الله، وكل ما يعمله إنما هو بمشيئة الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا

تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٩٦] ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [سورة هود، الآية: ٥٦] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٣٧]، يعني لو شاء الله أن لا يفعل الكفار كفراً لما فعلوا، فهذه القضية الأساسية: أن الله عز وجل ما خلق الخلق إلا ليعبدوه، وأنه سبحانه شاءت حكمته أن يصطفي من البشر من يعبده، ويكرمه الله بهذه العبادة، ويرشده إليها ويوفقه إليها، وأن الله شاءت حكمته أن يكون هناك المتأبي على الله الذي لا يتبع هذا المنهج ويعارضه، ويكون مصيره الخذلان والنار، وهذه مشيئة الله النافذة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤْمِنٞۚ﴾ [سورة التغابن، الآية: ٢].

فهذه النقطة ينبغي أن تكون هي المنطلق الأول في الدعوة إلى الله عز وجل: الانتماء إلى هذه الأمة التي أوجدت لمهمة وهي: أن تدعو إلى عبادة الله التي من أجلها خلق الله السموات والأرض، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وقامت المعركة بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال: كل هذا من أجل هذه الكلمة ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [سورة الكهف، الآية: ١١٠] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٢٥]، فالوحي يصب في هذه النقطة ويبدأ من هذه النقطة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٦٢، ١٦٣]، وبالتالي الأمة الإسلامية: يقولون عنها (أمة الفكرة) يعنون أمة العقيدة، والمعنى أن تجمع هذه الأمة ليس على أرض، ولا على وطن، ولا مبدأ اقتصادي كشيوعية ورأسمالية، ولا على نظام اجتماعي وسياسي كديمقراطية وغيرها، التجمع على أساس لا إله إلا الله، هذا هو نبينا محمد صلوات الله عليه، هذا أول المسلمين كيف اجتمع الناس إليه، هل قال لهم: أنا عربي، هلموا إليَّ، أو أنا قرشي وليأتني كل قرشي، أو نحن أهل الجزيرة فلنتكتل على أساس أنَّا أهل الجزيرة (. .) كلا إنما بدأ الدعوة بلا إله إلا الله، وانضم إليه من آمن بهذه القضية، فأصبح صاحباً له وأخاً للنبي على هذا الأساس، فقام نظام الموالاة والمعاداة على هذه القضية: فمن دخل حزب النبي صلوات الله عليه دخل حزب الله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة، الآية: ٢٢] من دخل في هذا الحزب دخل على أساس هذه الكلمة، ومن خرج من هذا الحزب، كان كذلك من أجل هذه الكلمة، فالنبي ﷺ حدد موقفه من القرشيين ومن

العرب ومن غيرهم على هذه الكلمة، وبالتالي ينبغي أن نفهم أن المنطلق لعز الأمة إنما هو الاجتماع على عقيدة يسميها الناس بلغتهم (الفكرة)، ونسميها العقيدة، هذه أمة العقيدة، أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، نجتمع على هذه الكلمة ونفترق على هذه الكلمة، فالاجتماع والافتراق والموالاة والعمل كله، والمنطلق كله، من هذه القضية، وبالتالي هذه هي النقطة الأولى.

إذن الخطوة الأولى نحو عز الأمة ونصرها وتمكينها في الدنيا، ثم سعادتها في الآخرة وفوزها برضوان الله عز وجل ينبغي أن تكون من لا إله إلا الله، أي تجمع ينبغي أن يكون على هذه النقطة الأساسية، والعمل في البداية عليها، ولا شك أن تحت هذه الكلمة علم عظيم وهو أن لا إله إلا الله ليس بالمعنى، الذي نصوره نحن ونخترعه نحن ونتخيله نحن، إنما بالمعنى الذي أراده الله وبينه الله عز وجل، ووضحه الله، وذلك أن كثيراً من الناس يدَّعي الإيمان بلا إله إلا الله حتى الهنادك يقولون لا إله إلا الله يعني أن لكل هذا الكون إله ورب واحد ويقولون نحن من أهل التوحيد أهل لا إله إلا الله.

ومعلوم أنهم من أكثر الناس نجاسة وشركاً، لأنهم يعنون بالإله وحدة الوجود.

وقد اختلف المسلمون أيضاً في مفهوم لا إله إلا الله اختلافاً بعيداً: فبعض هؤلاء المسلمين عندهم أن الرب معنى لا حقيقة له، ولا يوصف بأن له عُلواً كما جاء في الكتاب والسنة، يقولون (هو لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا داخل هذا العالم ولا خارج هذا العالم)، ولا يوصف عندهم بصفة ثبوتية بتاتاً، والمستوي على العرش عندهم هو جبريل، ويقول بعضهم هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فيجب أن نؤمن بالله بالصفات الموجودة له سبحانه في كتاب الله والموجودة في أحاديث النبي محمد ﷺ. أعني أن يكون التوحيد بحسب مواصفات الكتاب والسنة، وليس بحسب ما يتخيله الجاهلون.

فالله هو الرب الرحمن الرحيم، العزيز الكريم المستوي على عرشه سبحانه وتعالى، الذي بيده مقاليد كل شيء، والذي لم يقم آلهة تعبد من دونه، فلم يأذن بهذا ولم يرض بهذا سبحانه وتعالى، الرب السميع العليم المراقب لحركات عباده الذي لا

يغفل ولا يسهو عن شيء من فعل خلقه وعباده سبحانه وتعالى، أو يُنازع في أمره ونهيه، ولا يرضى سبحانه أن يُعَقَّب على أمره ونهيه، فنؤمن بالرب على هذا النحو، ليس الرب الذي يُزعم أنه ترك الناس هملاً ليتخذوا من المناهج ما شاؤُوا ويدعوا من كلامه ما شاؤُوا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ليس هذا هو رب المسلمين، لأن الله عز وجل في حكمه وفي صفاته لا يرضى أن ينازع الأمر سبحانه، هل يقول: افعل ويأتي مخلوق ويقول: لا تفعل، ثم نطيع ذلك المخلوق!! الرب لا يرضى هذا، ليس هذا من صفاته، فالذي يعبد رباً على هذا الأساس يعبد رباً من انتحاله هو، ومن فهمه هو، وليس هو رب العباد سبحانه وتعالى، رب العباد حقاً هو الذي يقول عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٤١] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٤٠].

إذن لابد من فهم هذه القضية كما بيَّنها الله في كتابه وفي سنة نبيه: هذه قضية ونقطة لا أطيل فيها وإن كانت هي في ذاتها تحتاج إلى إطالة.

ولسنا في مقام التفصيل وإنما القصد الإجمال حتى لا يشط بنا المقام.

الوصية الثانية

توحيد الصراط: بجعل الكتاب والسنة مصدراً للتشريع واتّباع سلف الأمة ورد كل خلاف إلى كلام الله وكلام رسوله

إنه لابد من توحيد الصراط، فالأمة التي تريد أن تعتز وتنتصر لا بد أن يكون صراطها واحداً، بمعنى أن يكون منهجها وطريقها واحداً، ما معنى المنهج والطريق؟ يعني السنن العملية في الحياة، كما ينبغي أن يكون التشريع واحداً كذلك، وهذا الذي نقوله ونطلبه في صلاتنا إذ نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة، الآية: ٦].

الصراط: الطريق ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥٣].

والنبي ﷺ خط خطاً وخط بجانب هذا الخط المستقيم خطوطاً متعرجة فقال: [هذا صراط الله مستقيماً، وهذه السبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه ثم تلا قول الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾] [سورة الأنعام، الآية: ١٥٣].

ما معنى الصراط؟ الصراط منهج عملي كامل، بمعنى أنك في الأربع والعشرين ساعة تعمل، تعمل أشياء كثيرة، قيامك من النوم وطهورك وصلاتك وخروجك من منزلك وسعيك لمعاشك، وتربيتك أولادك، ومعاشرتك لجيرانك، وزوجتك، والناس وتعاملك، وكلامك، وأخذك، وبيعك، وعطاؤك، وما تقابله من نعيم في هذا اليوم وما تقابله من محن ومشكلات، المنهج العملي الكامل هو مجموعة التصرفات كلها، لا يوجد تصرف من تصرفات الإنسان ليس لله فيه حكم ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٨] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة النحل، الآية: ٨٩].

فما من تصرف للإنسان على هذه الأرض إلا ولله فيه حكم، فيقول لك هذا مباح فاعمله، وهذا واجب لا بد أن تؤديه، أو هذا حرام إياك أن تفعله، أو هذا مندوب إن شئت فعلته فلك أجره، أو هذا مكروه الأولى لك أن تتركه، فأعمال المكلفين تقع ضمن أحكام تكليفية، ما ينفك المكلف عن حكم الله، هذا معنى الصراط، الصراط هو المنهج العملي فالدين صبغة كاملة: كيف تتصرف تجاه الله سبحانه وتعالى، تجاه النبي، تجاه المؤمنين، تجاه الكفار، تجاه الزوجة، تجاه الأولاد، تجاه الناس، لا يوجد تصرف من هذه التصرفات إلا وفيه حكم، وبالتالي لابد أن يكون لنا تصرف واحد، فإذا قال المؤذن: حي على الصلاة: فنتوجه جميعاً إلى الصلاة، إذا رأينا المنكر تشمئز منه قلوبنا، كلنا نشمئز من هذا المنظر، ونحاول إنكاره بما استطعنا، إذا حلت بنا مصيبة وقفنا منها موقفاً واحداً: الصبر والتسليم لأمر الله والتصرف بما أمر الله سبحانه وتعالى، هذا إذا كان تصرفنا واحداً.

ولكن إذا كنا مختلفين في العقيدة تصرفنا تصرفاً مختلفاً، فإذا قال المؤذن: حي على الصلاة: فواحد يكره هذا ويولي ظهره وآخر يلبي النداء، إذا رأينا منكراً، أحدنا يستحسن هذا، وآخر يستنكره، وإذا رأينا امرأة عارية في الطريق فواحد يستحسن

هذا، ويشجع هذا ويأمر به، وآخر يلعنها ويسبها، ويقول لها: لعنك الله، لقد خالفت أمر الله وأمر الرسول وتستحقين اللعن، وهكذا يكون تصرفنا أمام المنكر مختلفاً، فلا بد من توحيد الصراط في العمل، وكذلك في المنهج التشريعي: صلاتنا واحدة، وصيامنا واحد، فقهنا واحد، ما أمكن بالطبع، توحيد الصراط، وهذا بلا شك لا يعني التطابق التام في كل صغيرة وكبيرة، لأن في قضايا الإسلام كما ذكرنا صبغة عامة، ولا يمكن أن يتطابق المسلمون حول كل تصرف من التصرفات، وبالتالي لا بد أن يكون هناك اختلاف في بعض القضايا الاجتهادية، لكن الله تبارك وتعالى أرشدنا فقال سبحانه: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة الشورى، الآية: ١٠] وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩].

سيبقى عندنا إذا اختلفنا مركز اللقاء في كلام الله وكلام رسوله، يكون هذا هو المرجع، لا عقلي ولا عقلك ولا عرفي ولا عرفك، ولا أخلاق قبيلتي وأخلاق قبيلتك، إنما المرجع إذا اختلفنا هو كتاب الله وسنة نبيه محمد عليه السلام، كل أحد بعد النبي يؤخذ من قوله ويرد عليه، هذا هو المنهج كما قال الإمام مالك: ما منا إلا وقد رد ـ أي على غيره من العلماء ـ وَرُد عليه ـ أي من العلماء ـ إلا صاحب هذا القبر (يعني النبي ﷺ).

فالذي يرد على النبي كالذي يقول للرسول: أخطأت في هذا الاجتهاد، أو أنت لم تحكم بالعدل في هذا، أو هذا مخالف للمعقول، هذا يكون كافراً بالله، لأن الرسول لا يشرع من عند نفسه، أما غير النبي فيمكن أن نرد عليه ونقول: أنت جاوزت الحد في هذا، كلامك في هذا مرجوح، وقولك في هذا مخالف للحق، لا مانع في هذا، ما دمنا نعتقد أن الحكم بيننا هو الرجوعَ إلى كلام الله وكلام الرسول ﷺ. هذه قضية هامة.

المسلمون اليوم مختلفون في المنهج التشريعي: في مسائل العبادات ومسائل العمل ومسائل الحرام والحلال، لابد من محاولة جمع شمل الأمة الواحدة، لابد أن يكونوا متفقين في هذا، كان الصحابة يتشددون في هذا تشدداً عظيماً جداً، أذكر مثالاً على ذلك: عندما اختلف الصحابة: هل الغسل من الجنابة هو من الإنزال أو من

التقاء الختانين، فقال بعضهم: «إنما الماء من الماء» وجاء عمر رضي الله عنه وحسم القضية وقال: «سلوا عائشة» فقالت: «إني سمعت رسول الله: يقول: «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل». . فقال عمر: لا أسمع أحداً أفتى بخلافه إلا جعلته نكالاً. (رواه الإمام البخاري) والمعنى أنكل به لو أفتى بخلاف ما توصلنا إليه أنه الحق: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٦].

فتوحيد الصراط مهم جداً فالصحابة كانوا يختلفون في بعض الأمور ولكن في الأمر الجامع لا يختلفون: اختلفوا في قضية الإتمام في السفر، إتمام الصلاة الرباعية، فهذا عثمان رضي الله عنه كان يتم وهو في الحج فأفتوا بخلافه، ولكن عندما كان يقوم للصلاة، كانوا يصلون خلفه أربعاً، فقال بعضهم: كيف تفتون أن الصلاة اثنتان وتصلون أربعاً، فقالوا: سبحان الله أمير المؤمنين!!، والمعنى لابد من اجتماع الكلمة ولا يجوز الخلاف، بل لابد من الاجتماع، وهذا لا يكون إلا بتوحيد الصراط، لا يكون إلا بالتحاكم في كل خلاف صغير وكبير إلى كلام الله وكلام النبي ﷺ. وأن كل إنسان يأخذ من قوله ويرد عليه وأنه لا عصمة إلا لكلام الله وكلام النبي.

هذا أمر هام، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، لأنه بالتنازع والاختلاف يكون الفشل وذهاب الريح، ولابد من توحيد صراط الأمة وهذا بتعليمها مناهج الإسلام كلها حتى يظهر في الأمة النموذج الكامل للإسلام.

الوصية الثالثة

التربية والتزكية هي السبيل لإنشاء الجيل الذي ينصر الله به الأمة، ويعز به الإسلام

ما معنى هذا الكلام؟ الإسلام أحكام عظيمة:

مسائل الإيمان:

ليس الإيمان بالعلم فقط، وإنما بالعلم والتصديق والإحساس وتشرب القلب،

أعني أن الإيمان ليس هو فقط مطلق المعرفة بالله، فلو كان هو مطلق المعرفة بالله لكان إبليس مؤمناً، وكان كل الذين يقرؤون القرآن ويقرؤون السنة مؤمنين، علماً أن القرآن مبذول لكل أحد، يأخذ منه المؤمن والمنافق، بل بعض الكفار عندهم دراسات، وعندهم من علوم القرآن والسنة أكثر بكثير من المسلمين والمؤمنين، والحال أنهم بهذه الدراسة ليسوا مؤمنين وإنما الإيمان: يقول الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢]. فلم يقل سبحانه وتعالى إنما المؤمنون الذي عرفوا الله ورسوله وإنما قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢] هذا شعور وإدراك وتصديق ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢] ما قال حفظوها أو فهموها بل قال: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢].

التوكل معروف: وهو أن تبذل السبب وتدع النتائج إلى الله، لكن ممارسة هذا في الواقع العملي يختلف، فما كل من عرف هذا مارسه ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣]، كثير من الناس يعرفون وجوب الصلاة، وقد يعرفون أركانها وحدودها وتشريعاتها ولكن يؤذن المؤذن ولا يصلون، وإذا صلى فليس عنده قلب لإقامة الصلاة، وأعود فأقول (تربية على الإيمان): ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٤].

(لما) هذه يسمونها في لغة العرب أداة نفي وجزم، تنفي حدوث الفعل إلى وقت التكلم، والمعنى إلى وقت التكلم لم يحدث هذا، مثلاً أقول: الآن جلسنا بعد المغرب للدرس ولما يؤذّن للصلاة، أي لم يحن وقتها بعد فهنا قول الله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ يعني للآن ما دخل لكن الإيمان هل عرفوه أم لم يعرفوه؟ والجواب عرفوه حتماً، لأنهم جاؤوا إلى الرسول وشهدوا بأن لا إله إلا الله وأن محمداً سول الله، وعرفوا شرائع الإسلام، وربنا قال لهم ليس الإيمان بالمعرفة فقط، الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٤].

ما معنى هذا؟ معناه أن الإيمان يحتاج إلى نوع من الممارسة والعمل، وهذا ما أعنيه هنا بالتربية، التربية على الإيمان، لأنه بالتربية يتشرب القلب الإيمان، وكذلك فأعمال الإيمان أعمال كثيرة كما قال رسول الله ﷺ، [الإيمان بضع وستون شعبة

أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان].

فلكي نستحي مثلاً لابد أن نربي أنفسنا على الحياء، ولكي نعلم الطفل أن يستحي لابد أن نعلمه ونوجهه ونرشده مرة بعد مرة، فإذا رأيناه كاشفاً عورته، نقول له هذه عورة غطها!! وإذا رأيناه يسب من هو أكبر منه، نقول له: استح ممن هو أكبر منك، لا تفعل كذا، لا تسأل هذا السؤال. . ممارسة «طويلة» حتى يتربى على الحياء، وهذه شعبة واحدة من شعب الإيمان، وكذلك كلنا يعلم أن إزالة الأذى من الطريق من الإيمان، لكن هل بمجرد المعرفة ينشط الفرد منا ويكف الأذى عن طريق المسلمين؟ هذه تحتاج إلى عزيمة وإرادة وتوجه، وبالتالي إلى ممارسة وإلى وقت أيضاً حتى يتشربها الإنسان وبالتالي حتى يصطبغ بها الجيل.

ليس بمجرد درس يسمعه الناس أو بمجرد دورة مثل دورتنا هذه في المخيم، يخرج منها الناس مؤمنين، نعم يخرج الناس عارفين متعلمين، لكن حتى تصل معاني الإيمان إلى القلوب، هذه تحتاج إلى ممارسة في واقع الحياة، بالتالي أقول هذا الكلام لأن كثيراً من الدعاة إلى الله عز وجل يريد أن يحول الناس إلى الدين بمجرد جرة قلم من الحاكم وهذا الكلام خطأ.

وحقاً الحاكم يملك السيف والعصا، ويستطيع أن يوجه الناس إلى الدين بالقهر، وقديماً قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

هذا صحيح من حيث العموم فأكثر الناس يخشون العصا أكثر من خوفهم من الله، فلو قام الآن حاكم إسلامي يطبق الإسلام ويصدر قانوناً يقول فيه مثلاً:

شرب الخمر حرام، أو خروج المرأة من بيتها غير محجبة سيوجب القبض عليها، وسيسجن ويحاكم المسؤول عنها، إذا عرف الناس أن الحاكم جاد في تطبيق هذا القانون، فلا شك أنه لن يعصي إلا القليل، هذا أمر معلوم، لا شك أن وازع السلطان عظيم، لكن ما النتيجة لو أن هذا الوازع نُحِّي وأُبْعِد فماذا ستكون النتيجة؟!.

في اليوم التالي سنجد النساء في الطرقات، سيعود العري مرة ثانية، ما اختلف شيء لأن الذي استجاب بالعصا رجع إلى شيمته وإلى خلقه وما تربى ونشأ عليه، هذا

الجيل الذي يتحول إلى الإسلام بالعصا والضرب لا يصلح في الحقيقة لعز الأمة، إنه لا يقيم مجد الأمة إلا من كان القرآن وازعه، وبالتالي إلا من تربى على الإسلام، وبالتالي إلا من اختار هذا الطريق. (ولست بهذا أهون من شأن السلطان المسلم ولا القرار الذي يحفظ الأمة من الفساد، بل السلطان المسلم لا شك أنه يهيىء المناخ الصالح لتنشئة أجيال الإسلام، ويجعل الفساد مقموعاً مخذولاً مختفياً لا يضر إلا فاعله، ولكنني أحب هنا أن أبين أن الذين يتبعون الإسلام إيماناً واختياراً دون خوف السلطان هم الأتباع الحقيقيون والملتزمون الصالحون). ولذلك أقول وأكرر أن الأمة تقوم على جيل: القرآن وازعه، والخوف من الله رادعه، أناس يخافون الله عز وجل بالسر والعلن، سواء أكان سوط الحاكم على رؤوسهم، أو لم يكن، بل يحركهم الدين والخوف من الله ويحركهم الإيمان بالله سبحانه وتعالى، هذا الجيل لا يمكن أن يتأتى إلا بتربية، ولذلك كان من حكمة الله ورحمته بهذه الأمة أن جيل الصحابة تربى التربية الكافية ولو أن الرسول من أول يوم دعا فيه الناس للإيمان جاءته كل قريش فدخلت في الإسلام في يوم واحد، ما تربى ولا خرج رجال، ولكن تأخر النصر إلى ثلاث عشرة سنة والمسلمون في الشدة العظيمة، والتعذيب والقهر والطرد والبلاء، حتى وُجِدَ الرجال. وفي السنوات الأخرى التي مكثها النبي في المدينة كانت أيضاً كلها فتن ومصائب لعلها أكثر من الفتن التي تعرض لها المسلمون في مكة، ذلك من أجل إخراج الجيل العظيم المبارك فالرسول نفسه أوذي في المدينة أعظم من الأذى الذي حصل له في مكة، وهذا كلام ليس مبالغاً فيه، بل أنا موقن من هذا، لأن الذي وقع له في المدينة أكبر بكثير من الأذى الذي وقع له في مكة، فالنبي سُبَّ في أهله، وقيل له: (أبعد عنا نتن حمارك)، وقيل له: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، وهذا الكلام في غاية الشدة، فالرسول لم يتعرض لمثل هذا الأذى في مكة ولا أوذي على هذا النحو في مكة، وكذلك قال تعالى للمنافقين: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٢٦].

فُتِنَ المسلمون في المدينة بفِتَن عظيمة جداً، من أعظمها فتنة الخندق، وفتنة أحد، وكان المجرمون من اليهود من أمثال كعب بن الأشرف الذي كان يسب الرسول ويُشَبِّبُ بالنساء المسلمات، والرسول في المدينة ومعه السيف، فلا شك أن هذا

الجيل ما تربى عبثاً، وإنما تربى على تحمل من المشاق والفتن والمآسي والبلاء العظيم، ومرَّ بتجارب عظيمة صقلته، حتى خرج بالفعل جيلاً عظيماً، وعندما انتصر المسلمون وبدأوا يرتاحون وفتحت مكة، وبدأ نوع من الراحة، أعلن الله لرسوله: (لقد انتهت مهمتك فاستعد للموت) ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر، الآيات: ١، ٢، ٣].

قال ابن عباس في هذه السورة: (نعى الله عز وجل فيها نبيه) وكأنه يقول للمؤمنين: (إن الرسول قد انتهت مهمته فاستعدوا لأن يفارقكم) فارقهم الرسول والدولة مستقرة والحمد لله كانت الجزيرة قد هديت، ولكن بمجرد أن تُوفي الرسول بدأت الفتن أكثر مما كانت عليه فقد ارتدت العرب إلا قليلاً، وحصر المسلمون في المدينة، وَمَرَّ أبو بكر والصحابة بفتن يشيب لها الولدان: فتنة الردة كانت من أعظم الفتن.

وهذا خالد بن الوليد يقول: قاتلت فارس والروم فلم أجد قتالاً أشد من قتال بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب حتى إن القراء من المسلمين عملوا شيئاً ما عملوه في أي معركة من المعارك، كان القراء يدفنون أنفسهم حتى لا يفروا، يحفر المسلم لنفسه حفرة لصدره، ويدفن نفسه ويقف فيها كي لا يفر، ويقاتل وهو في مكانه، لذلك قتل أكثر حفظة القرآن واستشهدوا في هذه المعركة، وهذا الذي من أجله قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: (إن القتل استحر في أهل اليمامة وإني أرى أن تجمع القرآن، إني أخاف أن يذهب كثير من القرآن) فجمع القرآن كما جاء في صحيح البخاري، ثم جاءت فتن أعظم، فما خلصوا من فتنة الردة إلا وجابهوا أعظم دولتين، وجاء أبو بكر الصديق يقول للمؤمنين: نبدأ بفارس أم الروم أم تقاتلون الدولتين معاً؟ فدخل المسلمون في فتن يشيب لها الولدان، هؤلاء العرب المسلمون بأعدادهم القليلة في ذاك الوقت ـ كانوا ما بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين ـ يتوجهون إلى أعظم دولتين في ذلك الوقت، والخلاصة أنه لا يعز الإسلام إلا بجيل قد تربى على الإسلام، وصقلته تجاربه.

أعود فأقول لابد من اعتماد التربية وسيلة لإخراج الجيل، وكثير من الشباب

المتحمس يريد أن يبني دولة الإسلام عن طريق قرار وجرة قلم من الحاكم، ولو كان هذا الحاكم في شعب منسلخ عن الدين، بعيد كل البعد عن الإذعان لمنهج الله، ومآل ذلك إلى أن يتحول الحاكم المسلم قبل هذا الشعب إلى سفاح وجلاد إذا أراد أن يقيمهم على الجادة، أو يسكت على انحرافهم، وهذه مصيبة أخرى.

*** والخلاصة أنه لابد من جيل قد تربى وفق مواصفات الكتاب والسنة بتربية متدرجة ودخل الإيمان فعلاً قلبه، ويستطيع أن يتحمل تبعات الدعوة إلى الله وحمل هذه الأمانة.**

الوصية الرابعة

تجييش الأمة كلها للدعوة إلى الله، وألا تكون الدعوة مهمة مجموعات أو أفراد أو هيئات فقط، بل مهمة الأمة كلها

لابد من تجييش الأمة كلها، وأعني بالتجييش أن تكون أمة الإسلام جيشاً واحداً، وهذا لا يتأتى إلا بأن يعلم كل مسلم أنه جندي، وأنه مأمور من قبل الله بحمل هذه الأمانة، وبالتالي واجب الدعوة إلى الله ليس على طائفة معينة، ليس على الحكام وحدهم، أو على العلماء وحدهم، أو على طلاب العلم وحدهم، بل على كل أحد بقدر جهده وبقدر عطائه: هذا يجاهد بماله، وهذا يجاهد بكلمته، وهذا يجاهد بنفسه، إذا أصبح الجهاد هاجس الأمة، وكل مؤمن يعتقد بأنه واجب عليه ويتحمل جزءاً من هذا الجهاد. إنه لا يقوم للإسلام قائمة والناس قاعدون. وما أقوله هو الذي أراده الله تماماً لهذه الأمة فقد أراد من الأمة، جميعها أن تكون مجاهدة داعية إلى الله سبحانه وتعالى. ومن أعظم الأدلة على ذلك أن الله هدد بالنار القاعد عن الهجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٧]، أي: بالقعود في ديار الكفر وعدم تمكنهم من تطبيق الدين ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٧].

فهذا الإنسان الذي لم تدفعه عقيدته لأن يترك بيته ووطنه ليعلن ويشهد أن لا إله

إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيم شرائع الإسلام، لا عذر له أن يقول كنا مستضعفين في الأرض.

الناس تخرج وتهاجر وتترك أوطانها لتكسب الدينار والدرهم، فإنه يجب أن يكون الدين أعز من النفس والدنيا.

هل عذر الله إنساناً عن التأخر عن الجهاد؟! إلا من لم يستطع بالفعل حمل السلاح، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [سورة النور، الآية: ٦١]، هؤلاء هم الذين عذرهم الله، وأما من سوى ذلك فلم يكونوا معذورين ما داموا يقدرون.

باختصار أقول: لابد من تجييش الأمة كلها وتحميلها أمانة الدعوة، والدعوة الآن فرض عين على كل مسلم بقدر ما يستطيع الدعوة والجهاد فرض عين على كل مسلم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٤] والمعنى كونوا جميعاً أمة على هذا النحو.

*** والخلاصة تجييش الأمة واجب، والدعوة إلى الله والجهاد فرض عين، ولابد من تحريك كل قوى الأمة، وتفجير كل طاقاتها نحو هذا الأمر وحمل أمانة الدعوة.**

الوصية الخامسة

البناء من كل المواقع، والعمل في كل اتجاه

بعد تجييش الأمة، بأن يكون كل مؤمن جندياً لله تبارك وتعالى لابد من التوجه إلى البناء في كل موقع، أعني أننا لا نريد أمة من صنف واحد، تتوجه إلى عمل واحد، لا نريد جميع الدعاة إلى الله خطباء، فالخطابة وتعليم الناس باب من أبواب الدعوة، وتربية الأبناء باب، وكل هذه ولا شك من عمل الدعوة ومن عمل البناء.

الأمة احتياجاتها عظيمة جداً، وبالتالي لابد من التوجه إلى كل مجال يمكن للمسلم أن يثمر فيه وأن يعمل من خلاله، وهذا الذي كانت عليه أمة الإسلام في عهد

النبي، لقد ربَّى أمة ولم يكن صاحب مدرسة، هناك فرق بين شيخ له مدرسة ويأتي الناس إليه ليعلمهم مقرراً دراسياً ويقول لهم بعد ذلك مع السلامة!! والمربي الذي يريد أن يبني أمة.

إن الذي يبني أمة يحتاج إلى كل فرد، وكل فرد ينبغي أن يكون في موقعه، ولا يوجد فرد مسلم وإلا وفيه نفع ما، وأعلانا منزلة أكثرنا نفعاً، وأبو بكر رضي الله عنه ما كان خطيباً ولا واعظاً، كان رجلاً تاجراً، لكنه كان داعية بكل ما للكلمة من معنى، وطريقته الاتصال الشخصي: يلتقي الناس الذين يتعامل معهم فيدعوهم للإسلام، كان نساباً يعرف أنساب العرب، كان رجلاً فاعلاً للخير لا يجد ثغرة إلا ويسدها، في مكة أعتق سبعة عبيد منهم أربع نساء، وقال له أبوه يا بني: إن كنت فاعلاً ولا بد أعتق الرجال الأشداء حتى يمنعوك، فقال له: يا أبت إنما أفعل ذلك لله!!.

هذا الرسول يسأل الناس يوماً بعد صلاة الفجر: [من شيَّع اليوم جنازة] فيقول أبو بكر: أنا!! فيقول: [من عاد اليوم مريضاً] فيقول أبو بكر: أنا!! فيقول: [من أطعم اليوم مسكيناً] فيقول أبو بكر: أنا!! فيقول الرسول: [ما جمعهن أحد في يوم إلا نودي من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء].

كان أبو بكر خير داع إلى الله بعد الرسول، هذه دعوته: لم يكن مدرساً ولا خطيباً، كان أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، ولا يحسن الخطابة كما يحسنها كثير من الناس، إنما يحسن الإيمان والدعوة، وفعل الخير، كان رجلاً نافعاً بكل معاني النفع، وعندما قاد الأمة قادها بمنتهى الحزم وبمنتهى الفهم وبمنتهى التقوى لله عز وجل وبالإرادة الصلبة فهو من حيث الرجال رجل مواقف وتربية، لقد كان شيئاً فوق التصور والخيال.

تسلم أمر الأمة وهو يقول: والله ما طلبت الإمارة سراً ولا جهراً، وهذا منتهى النزاهة، مواقف في منتهى العجب!! ولنترك الصدّيق الآن ونأتي إلى فرد آخر من أمة محمد: امرأة، يقول ابن حجر: «بحثت عن اسمها فلم أجده«هذا المرأة لا اسم لها في السيرة، هذه من أمة محمد ﷺ، بل من الصحابة، هل كانت لها مهمة؟ نعم، كانت تكنس مسجد النبي وتنظفه والرسول الذي يبني ويربي هل نسي هذه المرأة؟ ما

نسيها، لأنها جزء من الأمة، فقدها النبي يوماً فسأل عنها فقيل: يا رسول الله إنها ماتت بالليل، فقال: [هلا آذنتموني]، قالوا: يا رسول الله ماتت بالليل فساءنا أن نزعجك. فقال النبي: [دلوني على قبرها].

انظروا الرسول الذي يقود أمة، عنده وقت يخرج للبقيع ليصلي على قبر امرأة سقط اسمها في التاريخ!! والمقصود أنني أنبه إلى أنه يمكن أن يكون لكل إنسان عمل في الدعوة، وبالتالي إذا أردنا أن نقيم أمة لابد أن يكون كل إنسان مهمّاً مَهْمَا صغر شأنه وقل عطاؤه، فليكن له عطاء بحسب قدرته، ولو كان لكل إنسان مهمة في الدعوة لتغير حال الأمة.

وانظروا معي في هذه الحادثة: أحد إخواننا الألمان أسلم، سألته مرة ما الذي أدخلك في الإسلام؟ هو رجل مهندس وطيار، عنده أربع شهادات في فروع الهندسة قلت له: لِمَ دخلت الإسلام؟ فقال لي: ثلاث حوادث هي التي وجهتني للإسلام ـ وأنا الآن أذكر حادثة واحدة فقط ـ قال لي: كنت في السودان وفي بلد بعيد عن الخرطوم، حيث أعمل في أحد المشروعات، وفي يوم غربت عليَّ الشمس بعيداً عن مقر إقامتي جاءني رجل قال لي: أنت رجل غريب وأنا أستطيع أن أقدم لك خدمة، فقلت له: لا أحتاجك، قال: بل أنت محتاج حتماً إلى خدمتي ولن أتركك، فقلت له: لا أريد خدمة من أحد، فقال السوداني: لن أتركك، ثم يتابع: وألحّ عليَّ حتى أخذني إلى منزله فقلت له: لم أخذتني وألححت عليّ على هذا النحو ـ وليس له إلا غرفة واحدة وكانت فيها زوجته أخرجها إلى منزل أهلها ـ وأكرمني إكراماً عظيماً جداً، فقلت له: لماذا فعلت هذا؟ فقال السوداني: لقد نذرت لله أن أعمل معروفاً كل يوم، وقد رأيتك قبل أن تغرب الشمس ولا يوجد أمامي غيرك أصنع له معروفاً!! لو ذهبت أنت لم أجد أحداً آخر أفي معه بوعدي مع الله!!

ثم يقول الأخ الألماني، قلت في نفسي: ما هذا الدين الذي يجعل إنساناً يلزم نفسه بفعل معروف لإنسان آخر؟ هذه حادثة واحدة بقيت في ذهني وأيقظت عندي الرغبة في التعرف على الإسلام.

باختصار: الشاهد من هذه القصة أنه يمكن أن يكون لكل إنسان منّا فعل في الدين

ودعوة إلى الله عز وجل، وليس الإنسان الذي يمسك مكبر الصوت ويدعو إلى الله هو الداعي فقط، فمثل هذا الرجل بفعله للمعروف وجَّه إنساناً للدين وللإسلام وهذه دعوة عظيمة، وبالتالي يمكن لكل إنسان يجعل همه الدعوة والدين أن يسهم إسهاماً في بناء هذه الأمة.

الوصية السادسة

العمل المتأني على توسيع دائرة الإيمان

الذي يعني بالضرورة تضييق دائرة الفسق والكفران

الفساد موجود والخير موجود، والقضاء على الفساد يمكن أن يكون بمجرد جرة قلم من الحاكم هذا صحيح، كما ذكرت في القضية الثالثة لكنه قضاء ظاهري، وأما القضاء الحقيقي على الفساد إنما هو بتوسيع دائرة الإيمان، والخنق التدريجي للفساد، والتضييق عليه كما قال النبي ﷺ: [لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطراً. .] الحديث، ومعنى لتأطرنه على الحق أطراً أي تستمرون وراءه بالموعظة والتشديد والتضييق. . وهذا هو الخنق التدريجي، حتى يموت الفساد ويختفي وهذا هو الطريق الصحيح الذي بين الله تبارك وتعالى أنه به تنتهي دائرة الفساد قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٤٤]، الأرض هنا أرض الكفر، ومعنى ننقصها من أطرافها: نأخذ طرفاً طرفاً منها يزاد إلى أرض السلام، وهكذا دواليك وأقول: كلما اكتسبنا فرداً من معسكر الفسق والفساد والكفر وانضم إلى معسكر التوحيد والإيمان والهداية، كلما ضاقت الدائرة على المفسدين، وبالتالي لو التزم كل منا برجل واحد كل عام نكون قد وسعنا دائرة المهتدين، وضيقنا دائرة المفسدين، وهذا العمل التدريجي المتأني عظيم جداً والدعوة مباركة، ولا أطيل في هذا، فقد بينت في مواطن كثيرة أن الدعوة مباركة، مثلها مثل الزرع تبذر بذرة، ويتولى الله تبارك وتعالى إنباتها ونموها واستواءها.

الوصية السابعة

الحرب على كل الجبهات، ومحاولة سد كل الثغرات

لابد من سد جميع الثغرات والحرب على كل الجبهات وفي كل الميادين، الأمة الإسلامية قد فتح عليها باب الشر من كل مكان، والقول الآن بأن الدعوة لا تكون إلا في مكان واحد من هذه الأمكنة خطأ كبير، مثلاً لابد من الدعوة إلى التوحيد، وهذه هي البداية، ولكن هذا القول يمثل نصف الحقيقة وليس كل الحقيقة فلو كانت الدعوة إلى الإسلام هي الدعوة إلى التوحيد فقط، ورأيت عارياً وجائعاً، ألا ينبغي لك وأنت تدعو إلى التوحيد أن تكسو هذا العاري، وأن تطعم هذا الجائع، أم أنه إذا جاءك الجائع والعاري وأمسك بثيابك، وقال لك: يا فلان أنا جوعان أعطني ديناراً، تقول له: اذهب عني أنا الآن مشغول بدعوة التوحيد، فلعله يقول لك: حث الناس يعطوني ديناراً أعيش به، فهل تقول له: لا وقت عندي ولا بد أن نهتم بالتوحيد أولاً؟ هذا القول لا يصدر من داعية حق إلى الله، وهذه ليست دعوة إلى الله فإنه لو كان الإنسان جالساً في درس التوحيد، وجاء هذا الجائع، ودخل هذا العاري ينبغي أن نوقف الدرس ونعطيه من أموالنا حتى نسد حاجته.

وإنني أقول أيضاً: إن هناك من يتصرف مثل هذا التصرف، يرى حاجات الناس وآلامهم ومصائبهم، وركوب الظالمين عليهم وتهتيك حرماتهم، ولا يهتم بشيء من ذلك ويقول: الدعوة إلى التوحيد أولاً!!.

ولا شك أن هناك أوليات، هناك بدايات وليس معنى الأولوية أن لا ننشغل بغيرها، هذا خطأ في فهم الأولويات، إذ لا بد من الحرب على كل الجبهات. التوحيد أولاً: نعم، ولا يجوز أن نشغل عن إحسان الصلاة فإذا كانت صلاتي غير صحيحة فينبغي أن أصححها، وإذا كان بيننا رجل جائع فلا بد أن نطعمه ونتعاون في هذا، ولا ينبغي أن نقول: إن هذا مشغلة عن العمل، لجنة تجمع الزكاة والصدقات وتعطي الفقير المحتاج هذا من عمل الدين والدعوة، عدو غزا ديارنا، لابد أن نقوم في وجهه ولا يجوز أن ننشغل عنه.. لقد فتحت على المسلمين الثغور من كل مكان: أفغانستان فيها نار تشتعل.. في السودان مجاعة.. في الأمة ظَلمةٌ فجرة..

يقهرون المسلمين ويعذبونهم، ويضطهدونهم، في الأمة جهلة يجب تعليمهم.. في الأمة مفسدون يجب الضرب على أيديهم وإنكار فسادهم.. في الأمة أعداء ينتشرون في كل مكان يجب فضحهم وتعريتهم.. في الأمة عقائد باطلة لا يجوز السكوت عنها.. لابد أن تكون الدعوة عملاً في كل ميدان وسداً لكل الثغرات حسب الإمكان. لو كان هناك الإمام العام لكفانا هذا، ولكان قد وجه هؤلاء إلى جهة ونظم الأمر ورتبه للمسلمين، لكن لا يوجد الإمام العام.. فما يصنع الأفغاني؟ هل ينتظر الإمام ليأذن له بالجهاد وينظم له الصفوف؟ والفلسطيني ماذا يصنع؟.. يصرخ في أرضه ويقاتل الدبابات بالحجارة؟ وماذا يصنع المسلمون هنا وهم مهددون كل يوم بالغزو الإيراني؟ وهل ينتظر العلماء إذن الإمام لنصح الأمة وتوعية الناس والدعوة إلى الله..؟

أعداء الله عز وجل شغلوا كل إنسان منا بمشكلته، وكل جماعة بهمومهم وجعلوا الناس مهمومين، كل يكفيه همه، أن يفكروا في غيرهم ويبحثوا عن سواهم.

والخلاصة أن على المسلمين اليوم: أن ينظموا صفوفهم، وأن يوحدوا جهودهم، وأن يحاربوا ما أمكنهم على كل الجهات، وأن يحاولوا أن يسدوا كل الثغرات، لا شك أنه لن يكون سد هذه الثغرات كاملاً، وقيام الأمة بالأمانة كاملة لا يكون إلا بإمامة واحدة وخلافة راشدة، وهذا ما يشير إليه النبي محمد ﷺ ولا يمكن أن تقوى الأمة إلا وهي تلتف حول علم واحد وحول إمام واحد، ينبغي البناء وسد هذه الثغرات وتجييش الأمة، وهذه كلها إرهاصات لظهوره، وبدايات لتمكين الدين وجمع كلمة المسلمين، وعلى كل حال إذا جاء صلاح الدين وجد الجند موجودين، ولا يكون هذا إلا بالعمل المتواصل خير من أن يأتي فلا يجد الأرض إلا يباساً وخراباً.

وإنه لا يجوز لأطفال شب الحريق في بيتهم أن يقولوا يجب أن ننتظر أبانا حتى يطفىء الحريق، بل عليهم أن يفعلوا ما يستطيعون، ولو بالصراخ والعويل حتى يستيقظ من يطفىء الحريق.. اخرج من بيتك ناد الجيران، افعل شيئاً لا يجوز أن تقعد وتقول: لا نقوم حتى يأتي المهدي ويصلح الأحوال، ويهدي الأمة ويجمع الأمة، هذا ليس بصحيح، لقد فعل هذا اليهود دهراً طويلاً من عمرهم، قالوا ننتظر

المخلص. . فلما طال انتظارهم ولاقوا الذل والهوان هبوا بأنفسهم ولم ينتظروا مخلصاً بعينه ليخلصهم، وفعلت هذا طوائف كثيرة من المسلمين، قالوا: لابد أن يرسل الله لنا المخلص الذي يخلصنا: ينبغي أن نقوم نحن ونؤدي ما علينا، فإذا جاء المخلص وجد هناك من الرجال من يقوم معه، وأما قعودنا وتكاسلنا فسيترك الأرض خراباً والنفوس فاسدة ضعيفة لا تصلح لشيء.

الوصية الثامنة

تصحيح مسيرة الدعوة أولاً بأول، وإنكار منكر الدعاة قبل غيرهم، وإشاعة الشجاعة الأدبية والنقد الذاتي

هذه القضية هامة، وأنا للأسف لضيق الوقت أجمل إجمالاً، والأمر يحتاج تفصيلاً، ولعلي في موطن آخر إن شاء الله أشرح هذا.

النقد الذاتي لأهل الدعوة إلى الله عز وجل والمهتدين:

ما معنى هذا الكلام؟ معناه أنه ليس كل من دعا إلى الله عز وجل بعد النبي ﷺ معصوماً، بل كل منا معرض للخطأ والصواب، وأخطاء الدعاة كثيرة، وهناك الذين يحاربونهم، يتصيدون هذه الأخطاء، هناك مقولة سارية عند الدعاة إلى الله تقول: إنه لا يجوز أن نفضح أنفسنا عند الناس ولا ننتقد بعضنا، وأنا أقول: إن هذه المقولة خاطئة، لأنه لابد من تصحيح مسيرة الدعوة، ولابد من إشاعة النقد.

إذ لو كان إظهار خطأ المهتدين عيباً لما بين الله تبارك وتعالى كثيراً من عيوب المهتدين، مثلاً: سرية عبدالله بن جحش اجتهدت اجتهاداً وقتلت بعض الناس في الحرم وفي الشهر الحرام، وجاء الكفار وقامت قيامتهم، وقالوا: استحل محمد الدم في الشهر الحرام، وأشاعوا في العرب الذين كانوا يعظمون الشهر الحرام: فقد كان الرجل منهم يرى قاتل أبيه في الشهر الحرام أو البلد الحرام ولا يمسه، لكن إذا انتهى الشهر الحرام طالبه وأخذ بثأر أبيه. .

فلما فعل هذا بعض المسلمين اجتهاداً منهم أنكر المشركون هذا فأنزل الله قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۚ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧] وهذا بيان أن هذا خطأ ومعصية ولكن الله رد على الكفار قائلاً سبحانه: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧].

والمعنى إن كنتم تعيبون على المسلمين أمراً فقد فعلتم معشر المشركين ما هو أعظم، فقد فعلتم أضعافه من الكفر بالشهر الحرام والبلد الحرام، وإخراج أهل البلد الحرام منه، واليوم أقول: لقد تأخرت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بسبب السكوت عن كثير من الأخطاء: أخطاء في العقيدة، وأخطاء في المنهج، وأخطاء في السلوك.

بعض الدعاة يريد أن يكون جباراً في الأرض: يسفك الدماء المحرمة بغير حق، ويستحل حرمات الناس بغير حق والسكوت عن هذه الأخطاء إقرار لها وتشويه للمنهج الإسلامي، وصد عن سبيل الله. وبالطبع فأنا أفرق بين الخطأ المستعلن والخطأ الخفي، أقول: يجب التمييز، فلان فعل هذا وقد نصب نفسه داعياً إلى الله عز وجل، لا أقول اسكتوا لا تقولوا للناس هذا الأمر خطأ حتى لا يظن عموم الناس أننا نخطئ، لو سكت أنت عن هذا، وسكت أنا، أصبح هذا من جملة المنهج، أصبح هذا ليس منسوباً إلى الله سبحانه وتعالى ورسوله، لأن هذا وغيره منسوبون إلى الدعوة، فإذا سكتنا عن أخطائه، تصبح هذه أخطاء المنهج الرباني، والمنهج السماوي منهج الله، وهذه جريمة، جريمة في حق الدين أننا نسكت عن الأخطاء، أي خطأ استعلن وأظهر للناس ينبغي أن يبين ونقول: هذا الذي فعله فلان ليس من الدين، وهذا فعله باجتهاده، ليس معصوماً، ولكنه مجتهد وأخطأ الطريق، وهذا ليس بصواب وهذا ليس من دين الله، فيكون المنهج سليماً والطريق سالكاً نظيفاً. كان الصحابي إذا أفتى بفتوى برأيه يقول: إن كانت صوباً فمن الله وإن كانت خطأ فمني ومن الشيطان، وللأسف أن بعض الدعاة يستحل الدم الحرام ولا يريد أن ينتقده أحد ويقول إذا حصل النقد للدعاة يحتج علينا المنافقون والكفار، أننا فعلنا جريمة، وأنا أقول: لأن تنسب هذه الجريمة إلينا خيراً من أن تنسب إلى الله ومنهجه وإلى رسوله وإلى دينه، فلنقل للكفار والمنافقين: يا جماعة هذا

الخطأ منا وليس من تشريع الله وليس من الدين وليس من أمر الله، فالذي فعله فلان وفلان لا ينسب إلى الدين، وليس من أمر الله ولا أمر رسوله ولا دينه ولا شرعه ولكـن هذا اجتهاد منهم، يتحملون هم وزره والله بريء من هذا والرسول بريء من هذا!!

هذه يا إخواني قضية هامة وترك نقد الدعاة أخّر الدعوة، أخّرها سنوات طويلة، بسبب السكوت على الأخطاء، وبالتالي أي إنسان خارج الدين ينظر إلى الدين فيراه مجموعة من حركات المجانين والعابثين، بل والمجرمين أحياناً، دين الله غير هذا، دين الله ينبغي أن يبرأ وينبغي إن نحن فعلنا خطأ أن نعترف ونقول الله بريء من هذا ورسوله بريء ودين الله بريء، وبالتالي يبقى الإسلام نظيفاً وطريقه صحيحاً. ولا يأتي جاهل يرى في هذا الخطأ ويبني عليه لأن الخطأ إذا أقر والبدعة إذا بقيت فسيأتي جيل ولا يجد من يبين له، وإذا بقيت الانحرافات والأخطاء ولم تجد من يغيرها فسيأتي جيل يقلد في هذا وتستقر البدع وتصبح جزءاً من المنهج والدين، وهكذا يفسد الدين بالتراكمات وأخطاء الدعاة، والذي يأتي من الخارج يجدها جزءاً من المنهج.

هذا كعب بن مالك لما تأخر عن تبوك نزل القرآن في شأنه، وهذا حاطب ابن أبي بلتعة فعل شيئاً فنزل في حقه قرآن، وهذا كتاب الله فضح المنافقين الذين كانوا جزءاً من المسيرة، وكان لابد من فضحهم وبيانهم حتى لا يتأثر بهم غيرهم، لابد إذن من تميز دائم وتفريق بين المنافق الذي تأصل النفاق في قلبه، وبين مؤمن أخطأ بعذره، اجتهد فأخطأ، وبين رجل كريم عثر عثرة فنقبله. وبين جاهل حاقد قد يفسد وهو يظن الصلاح كما فعل الخوارج.

*** والخلاصة لابد من تصحيح المسيرة، وبيان الأخطاء، وتقويم العوج في الدعوة إلى الله**

الوصية التاسعة

تنسيق العمل بين الجماعات الإسلامية
ومناصرة بعضها بعضاً والوقوف صفاً واحداً أمام القوى المعادية

وهذه وصية عظيمة، وهي تنطوي على مجموعة من الحقائق:

أ ـ إن قيام الجماعات الإسلامية الكثيرة في أنحاء العالم الإسلامي كان بحكم تباعد الديار، والاختلاف في الأولويات، وتغير الظروف والملابسات، وهذا جميعه قد أفرز بالتالي تعدد جماعات الدعوة.

ب ـ هذا التعدد في نظري أنه كان وما زال ظاهرة طيبة إيجابية استفاد منها الجهاد الإسلامي كثيراً، وذلك أن الأوضاع السياسية والظروف القائمة لا تسمح بإقامة عمل واسع منظم للدعوة، والظروف الأمنية لم تكن لتسمح أحياناً بقيام جماعات لها لون معين واهتمامات معينة كالاهتمام السياسي والتنظيمي، لذلك نشطت جمعيات وجماعات اهتمت بشئون علمية وثقافية وجماعات أفادت المسلمين كثيراً كالجماعات التي اهتمت بإقامة المساجد ورعاية الأيتام، وتعليم القرآن، وتثقيف أبناء الإسلام، والدعوة إلى الصلاة والزكاة والحج، وتعليم الناس توحيد الله وعبادته، والنهي عن مظاهر الشرك والوثنية، ومحاربة بعض البدع العقائدية الخطيرة كالرفض والتصوف.. وكل هذه الأمور لا غنى للمسلمين عنها بتاتاً، وقد قامت بها جماعات كثيرة في غيبة بعض الجماعات التي غلَّبت السياسة ونقد الحكام، وتنظيم الأحزاب على نشاطها والتي كانت تلاحقها السلطات في كل مكان...

ولذلك فقد كان لقيام الجمعيات الدعوية التي اهتمت بأعمال الخير والدعوة إلى أمور الدين السابقة أثر بالغ في حياة المسلمين، وخاصة بعد أن تخلت معظم الحكومات عن هذه المهام من تعليم القرآن والصلاة والإسلام، ورعاية الأيتام والفقراء، وإخراج الزكاة، والنهي عن البدع والمنكرات، والشرك.

والخلاصة أن تعدد جماعات الدعوة كان ومازال ظاهرة صحيحة من أجل أنه وسع دائرة الخير وأفاد المسلمين فوائد عظيمة جداً.

وكذلك فقد كان لتعدد الجماعات أثر بالغ في تكميل الصورة الإسلامية. فما

أهملته الجماعات اهتم به آخرون وهكذا ظهرت الصورة المتكاملة للإسلام من خلال مجموعة الجماعات القائمة، والعلماء العاملين والرجال المصلحين الذين أبرزوا بمجموعهم صورة الإسلام الكلي الشمولي الذي لم تستطع ولا تستطيع جماعة واحدة أن تقوم به كاملاً في كل الظروف السياسية والاجتماعية القائمة.

جـ ـ ولا أنكر ولا أشك أنه قد كان هناك بعض السلبيات من هذا التعدد كالتنافس غير الشرعي، الذي أدى إلى الطعن والتشويه والتجريح، وإيقاع المبتدىء في بلبلات عظيمة، وحيرة من أمره في شأن الدعاة للإسلام واختلافهم، ولكن هذه السلبيات لا يمكن أن توازي الإيجابيات العظيمة من تعدد الجماعات، علماً أن هذه السلبيات يمكن تلافيها تماماً والتخلص منها أبداً باتباع سياسة حكيمة وهذا ما تدعو إليه الوصية التاسعة، وتتمثل هذه السياسة الحكيمة فيما يأتي:

١ ـ إشاعة إخوة الإسلام ورابطته بين جميع العاملين للإسلام، والدعوة إلى أن المسلم في كل زمان ومكان وهيئة وجماعة، وأن هذه الرابطة من أصول الدين وقواعد الإسلام.

٢ ـ التلاقي بين العاملين للإسلام ومناقشة أولوياتهم ومناهجهم والانفتاح على الآخرين، ومعرفة ما عندهم.

وفي ظني أن حتمية العمل ووحدة المصير ستحتم على العاملين للإسلام أن يكونوا وحدة في آخر المطاف، وذلك أن الأمور تتحرك في ظل الدعوة إلى الله إلى انحياز أهل الشر بعضهم بعضاً، وتناصرهم وتعاونهم، وبالتالي سيجد أهل الخير والدعوة أنه لا مناص لهم من التعاون والتآزر.

ومع ذلك فإنني لا أقول يجب أن نصبر حتى تلجئنا الظروف إلى التعاون، بل يجب أن يسعى كل العاملين للإسلام إلى أن يكونوا إخوة متحابين متناصرين، وأن يكونوا صفاً واحداً في وجه المجرمين من الملحدين، وألا ينتظروا حتى تلجئهم الظروف إلى ذلك، بل عليهم أن يعملوا للوحدة والتآلف والتآزر من الآن بوحي من إيمانهم وعقيدتهم، وأن هذا هو فرض الله عليهم وأمره لهم كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣] وقوله: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف، الآية: ٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

ومع هذا فأنا لا أشك بتاتاً أن مصير الفرقة بين الجماعات الإسلامية إلى زوال،

وأنه لا مناص لهم عن التآخي والتآزر.

وأنا لا أدعو بالضرورة إلى دمج الجماعات الإسلامية في جماعة واحدة فهذا لا شك فيه استحالة وبعد عن الواقع والمعقولية في الوقت الحاضر، وإنما أدعو إلى الوقوف صفاً واحداً في القضايا العامة وحرب أعداء الله وأعداء رسوله ودينه، وأما في أمور التربية الخاصة، والأولويات والاهتمامات، فلا شك أنه كلما كان هناك لقاء كان هناك تقارب، وكلما كان هناك أكثر من جماعة في القطر الواحد كان هناك مجال عظيم للتنافس في الخير والتسابق إلى الإحسان، وإلى تطوير كل جماعة لعملها واهتمامها بنشاطها، واقتباسها لنواحي الحسن عند منافستها والتَّخَلِّي عن مواطن الضعف التى تعاب عليها، وهكذا تستفيد الدعوة الإسلامية في النهاية من هذا التنافس والتسابق على الكسب والإحسان، وأما وجود جماعة واحدة للدعوة في القطر الواحد فإنها بالضرورة تؤدي إلى الرتابة والخمول والكسل، وضعف النقد، وبالتالي تراكم الأخطاء واستفحال الأدواء.

*** والخلاصة أنني أدعو إلى التقارب والتنسيق بين الجماعات الإسلامية، وفتح مجالات الحوار واللقاء، وإذكاء التنافس في الخير، والتسابق إلى الإحسان وهذا هو الذي سيسرع بنشر الوعي الديني وتحويل مجتمعاتنا إلى مجتمعات إسلامية.**

الوصية العاشرة

الاعتصام بالله دائماً، واليقين أنه هو سبحانه الذي يقود ويوجه مسيرة الدعوة، ويسدد الدعاة، ويختار لهم وأن الدين دينه والأمر كله له

وأختم بها، وهي: أن جماع هذا كله هو الاعتصام بالله تعالى، والعلم بأن حركة الدعوة إلى الله الذي يخطط لها ويقدر لها هو الله سبحانه وتعالى وليس الأفراد، ألم يكن النبي محمد ﷺ هو أكمل الناس عقلاً وفكراً وفهماً بدليل أن العرب بأحلامهم التي تزن الجبال كانوا إذا اختلفوا يتحاكمون إليه، ويرضون بحكمه ويقولون عنه: الأمين والصادق، وهذا من كماله البشري، ولما جاءته الرسالة وعنده هذا الكمال وعلمه الله سبحانه عز وجل، وبالتالي سار بهذا الدين فكان يجتهد، وبلغتنا كان يخطط كيف ينشر هذا الدين وكيف تعز الأمة، ولكن لا شك إذا نظرنا في القرآن فسنجد أن الذي كان يقود مسيرة الدعوة هو الله سبحانه وتعالى وليس الرسول عليه

السلام، في الظاهر النبي. . لكن في الحقيقة والواقع الذي يخطط للأمر بمعنى يقدر الأمر هو الله سبحانه وتعالى، ومثالاً على ذلك: معركة بدر: عندما نقرأ في السيرة نجد أن الرسول عليه السلام جاءه خبر عير قريش التي ذهبت إلى الشام في تجارة وأنها راجعة بألف بعير وعليهم مائة رجل فقط، وقال الرسول: اخرجوا لعل الله ينفلكموها وخرج النبي هكذا باجتهاده وقال: من كان ظهره حاضراً فليخرج، وجاء وخطط للمعركة وعمل كذا وكذا وكان النصر في النهاية، ولكن نقرأ في القرآن إن الله عز وجل يقول للنبي ﷺ: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٥].

كما أخرجك ربك من بيتك بالحق!! الذي أخرجك هو الله! فمن الذي يقدر ويدبر؟! أو بتعبيرنا يخطط للمعركة الرسول أم الله؟ لا شك أنه الله سبحانه الذي أعطى رسوله البشارة بالنصر ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [سورة الأنفال، الآية:٧]، قبل أن يخرج رأى أنه منتصر، فمن كان الذي يدبر الأمر؟!

طبعاً الرسول خرج وهو الذي صف الناس، وهو الذي فعل، وهو الذي أخذ من الحصباء وألقى في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، هذا الذي فعله، لكن من الذي كان يدبر هذا الأمر كله؟ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ١٧] ما أنتم فعلتم أنا فعلت إذن فالقراءة الربانية للأحداث تختلف عن قراءتنا البشرية للأحداث، القراءة الربانية للأحداث تبين لنا أن الله عز وجل هو الذي رتب الأمر كله ودبره وأراد أن يصل المسلمون لهذه النتيجة: نتيجة النصر، فهم يفعلون ويخططون ويدبرون لكن الله عز وجل هو الذي يوجههم وهو الذي يريد هذه النهاية التي انتهوا إليها، هذا في حال الهزيمة كذلك!! المسلمون هزموا في أُحُد كانت هزيمة مُرة، لكن هل كان هذا كذلك بأمر الله ومشيئته وتدبيره أم لا؟! الجواب نعم!! وكان هذا من أعظم الخير لأمة الإسلام، لأنه تحقق في هذه الهزيمة من الخير ما لم يتحقق في بدر بل أضعاف ما تحقق في بدر من الخير لهذه الأمة، والمجال لا يتسع، ولكن إقرأوا الآيات من سورة آل عمران تجدوا أن الله عز وجل هو الذي رتب الأمر كله، الله يقول للنبي ﷺ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٢١] الله سميع وعليم بك يا محمد وأنت تقول

لفلان ابق هنا ولفلان كن هنا وفي نهاية الآيات يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ . .﴾ [سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧] يقول الله لنبيه: بإذني كانت تلك الهزيمة والمصيبة لأميز الصفوف وأتخذ منكم شهداء، وأربيكم وأعلمكم وأهيئكم وهذه أمور فيها من المنافع العظيمة جداً، إذ لو أن المسلمين يخططون لأنفسهم ويصنعون أقدارهم بأيديهم لم يفعلوا لأنفسهم غير هذا.

لقد رأيت كثيراً من الصالحين يدخل في محنة ما أرادها أبداً يلاقي فيها الأمرين، ولكنه يكتسب فيها من الخير والبركة ومن المنافع العظيمة، لكن لا تنال هذه العلوم، وهذا الطريق الشاق والمحن العظيمة هذه ويحصل ما حصل من فوائد فيقول: والله كنت أتمنى أن أدخل في هذا الطريق وأصاب بهذه المصائب وهذه المشاكل حتى أنال ما نلته الآن.

وبالتالي فاختيار الله عز وجل للمؤمن أعظم من اختياره لنفسه.

والخلاصة أن الله تبارك وتعالى هو الذي يقود مسيرة أهل الإيمان وهو الذي يربيهم ويعلمهم ويبتليهم بالخير والشر، الشر الظاهري لكنه في باطنه خير، أريد أن نخلص من هذا كله إلى أن أهل الدعوة ينبغي أن يعتصموا بالله كما قال الله في ختام آية الدعوة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [سورة الحج، الآية: ٧٨].

وأن نوقن أنه لسنا نحن الذين نخطط للدعوة، نحن بحسب علمنا البشري نعمل، لكننا نعمل في إطار تدبير الله ومشيئته وكثير من الأمور نركبها رغماً عنا ونوضع فيها رغماً عنا، والله لو كان باختيارنا وعقولنا ما توجهنا إليها، لكن نجد في النهاية أنها خير وبعدها تجد أن هذا الطريق كله فشل، لأنك لم تتبع الطريق السليم ولم تتجرد لله وتسلم قيادك لله عز وجل، وأما إذا سلمنا لله فلابد أن تكون النتائج في صالحنا، لأن الذي يخطط للعمل ويدبر الأمر ويقضي في كل شيء هو الرب سبحانه وتعالى.

لو أن الدعاة إلى الله فقهوا أنه لا صلاح لهم ولا نجاح لهم إلا بالاعتصام بالله والتوكل عليه في كل أمر وإخلاص الدين له والتبرؤ من الهوى وجعل الأمر كله لله عز وجل، أقول: لا شك نصل إلى درب الأمان بكل سهولة وكل يسر، ويصبح كل قضاء

يقضيه الله لنا خيراً لأننا أسلمنا، وسلمنا القيادة لله سبحانه وتعالى، وبالتالي فالله لا غالب له.

هذه يا إخوة: عشر وصايا هي والله ثمرة قلبي، وزبدة عمري وبحثي واستقرائي لحال الدعوة إلى الله عز وجل ما كذبت فيها ـ يعلم الله ـ وأرجو أن أكون قد أخلصت القصد والنية في بيانها وتقديمها.

واعلم يقيناً أن هذه الأمور والقواعد العشر معالم حقيقية للطريق لو اتبعها الدعاة إلى الله لنصر الدين بأسرع ما نتصور.

وأسأل الله أن يأخذنا إلى طريقه وأن يرفق بنا في الأمر كله والله غالب على أمره.

وصلى الله على رسوله محمد وآله وصحبه وسلم.

أسئلة وتعقيب

السؤال الأول:

سائل يقول: إذا أراد أحد الحكام وهداه الله سبحانه تعالى إلى أن يحكم بكتاب الله وشرعه فموجب كلامك يا شيخ أن نقول له: لا، قف حتى نربي الناس؟! ويقول السائل إن هذا يعارض محاربة أبي بكر الصديق للمرتدين لإرجاعهم إلى دين الله سبحانه وتعالى؟

الجواب:

هذا الذي فهمه الأخ السائل ليس وارداً في الحقيقة، لا شك إننا نقول كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: (لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لادخرتها للسلطان)، لأن بصلاحه صلاح الأمة، فالسلطان الذي بيده الأمر والنهي، ويملك الإرشاد بالقرآن والوازع بالسيف والعصا، قد جمع الوازعين، كما قال الله تبارك وتعالى:
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا

ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والأنبياء كانوا أحد رجلين: إما أنبياء ورسل غير ممكنين فهم يقومون بواجب الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لا يملكون إلا الهداية بالكلمة، وإما رسل وأنبياء جمعوا بين الكلمة وبين السيف جعلهم الله ممكنين، فمثال الأول: نوح وهود وصالح وإبراهيم، كانوا لا يملكون إلا الكلمة ولا يملكون إلا الموعظة والتذكير، وبالتالي كان الوازع الوحيد الذي بأيديهم هو تذكير الناس مخافة الله وتقوى الله وترهيب الناس من عذاب الله.

ومثال الثاني: موسى مثلاً كان قبل الخروج من مصر غير ممكن وبعد أن خرج أصبح ممكناً، يقيم حدود الدين في بني إسرائيل، حتى إن الله أمره أن يقتل كل من عبد العجل، وقيل إنهم كانوا اثنا عشر ألف شخص قتلوا في يوم واحد، ثم جاء بعده يوشع بن نون كان نبياً ممكناً، وجاء سليمان وداود، وهؤلاء أنبياء ممكنين في الأرض قال تعالى لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة صٓ، الآية: ٢٦]، وكذلك كانوا يملكون الوازع بالكلمة والوحي، فجمعوا بين الأمرين لكن هل تخلوا لما ملكوا السيف عن التربية؟ الجواب: لا، نبينا محمداً ﷺ كان قبل الهجرة وقبل التمكن في الأرض كان لا يملك إلا الكلمة ولذلك جاء قول الله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [سورة القلم، الآية: ٤٤]، وجاء قوله تبارك وتعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ثم بعد ذلك أمر الله نبيه أن يقاتل في سبيل الله وأن يقيم الحدود فقال ﷺ: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة].

فجلد شارب الخمر ورجم الزاني وجلد القاذف، لكن هل تخلى النبي محمد ﷺ عن كونه النبي المربي، يربي بالقرآن ويربي كذلك بالسيف والحديد، والعصا والسوط، يزع بهذا ويزع بهذا.

*** الخلاصة: إنه لا شك أن الإمام المهتدي الذي يمكنه الله تبارك وتعالى يملك الأمرين: يملك التربية ويملك كذلك التقويم بالحدود، والحدود زواجر والسيف قاطع للفتنة.**

ولكن الرسول في أثناء امتلاكه للسيف كان كذلك رحيماً يعتني بالصغير والكبير، الجارية تأخذ بيده حتى تقضي حاجاتها، ولا يضع السيف إلا في محله.

والذي أريد أن أقوله، أن فاقد الشيء لا يعطيه، لماذا نقول لابد من اعتماد التربية وسيلة لإعزاز الأمة ونصرها؟

نقول ذلك لأنه لا يمكن أن يكون عندنا ذوي خلق وذوي دين وذوي تقوى إلا إذا تربوا قبل التمكين قبل أن يسلمهم الله الأمانة ويسلطهم على رقاب الناس، ويعطيهم السيف، فالخشية أن يقتلوا به المعرضين، فإذا وجد حكام من الدعاة المتحمسين لكنهم قد يكونوا ممن لا خُلق لهم ولا دين بهم ولا تربية عندهم، يكون أحدهم قد سمع درساً أو درسين ثم وصلوا إلى الحكم بدبابة ولم يتشرب الإيمان والرحمة قلوبهم ولم يفقهوا حقائق الدين.. فما مصير الأمة تحت يد هؤلاء؟ مصير الأمة هو الهلاك والتدمير!! وهذه حقيقة: أقول: إذا حكم شخص الناس ولم يدخل الإيمان قلبه وزعم أنه واسعٌ جداً لأن الدين يعطيه صلاحيات كبيرة جداً، صلاحيات عظيمة، فيستطيع أن يزعم أن إنساناً ما مرتد فيكون جزاؤه القتل.

أنا نفسي يوم أعلن السادات عن تطبيق حكم المرتد في الشريعة، كتبت مقالاً بعنوان (على من ستطبقون حكم المرتد)، وقلت: دعونا نعرف من هو المرتد؟ قبل أن تأتي وتقبض على فلان من الناس وتقتله، هذا الذي خالف الدين وأريد أن أذبحه، ويصبح الحكم كأن الدين هو الذي ذبحه باسم الإسلام والقرآن، إذن فلا بد أن نحدد أولاً: من المرتد إذا كان المرتد الذي يخالفك أيها الحاكم والذي لا يمشي على هواك هو المرتد، وتقول هذا كفر وخرج من الدين فنكون قد سلمناك سيفاً باسم القرآن تقطع رقاب الناس به، علماً أننا لو حددنا المرتد على الحقيقة فلربما كان الحاكم هو أول من يُقتل وبالتالي يُطبَّق الحكم فيه.

*** والخلاصة: أن الدين يعطي صلاحيات عظيمة وبالتالي لا يجوز في الحقيقة أن تمسكه إلا أيد أمينة، وأما إذا وضع بأيد غير أمينة فإن هذا الأمر في منتهى الخطورة، لذلك أقول: لابد من التربية، والتربية أساس حتى يوجد رجال يتقون الله، لأن مثل هؤلاء الرجال عندما يكونون على رقاب الأمة فسيتقون الله وسيكونون رحماء أبراراً،**

من أمثال الصديق الذي لم يضع السيف إلا في مكانه تماماً.

ومن أمثال عمر بن الخطاب القوي الشجاع الذي قال: (لو عثرت بغلة في العراق لسئل عنها عمر).

فهؤلاء رجال كانوا يتقون الله وبالتالي كانوا رحماء أما أناس عندما تكون المصلحة في جانبهم يستبيحون لأنفسهم أن يستشهدوا بالآية والحديث، وإذا لم يكن الحق معهم يزيغون يميناً وشمالاً.. هؤلاء يشكلون خطورة عظيمة.

هؤلاء نخاف منهم لأنهم لو كانوا على رقاب الناس فيا ويل الناس منهم ويا ويل الناس عندما يتسلطوا عليهم باسم القرآن والدين ويوضع السيف الإسلامي في غير موقعه يكون بذلك الهلاك العظيم، وبالتالي أقول: نعم لن تعز هذه الأمة إلا بالتربية وإلا برجال ربُّوا على أساس الدين وعندما يكون أمثال هؤلاء على رقاب الناس، فسيكون أكبر نصر للأمة، لأنهم سيجمعون بين التربية وبين السيف ولن يضعوا السيف إلا في مكانه تماماً.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق كل من بيده سلطان على هذه الأمة إلى الدين وأن يحكم بشرع الله مريداً بذلك وجه الله سبحانه وتعالى.

السؤال الثاني:

هل يمكن تربية جيل المستقبل في ظل الرفاهية والراحة والدعة والركون إلى الدنيا؟

الجـــواب:

على كل حال التربية بالخير والشر، والله تبارك وتعالى يربي عباده بالخير والشر، يربيهم بالنعمة حتى يأنسوا بها ويرتاحوا ويشكروا الله ويربيهم بالشر ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦].

فالحمد لله الرب الحكيم سبحانه وتعالى الذي يربي عباده بالحسنة والسيئة والقائل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٣٥].

فالبلاء والتربية ينبغي أن تكون بالخير والشر ابنك مثلاً الذي تريد أن ينشأ تنشئة صحيحة لابد أن تعامله بالحسنة والشدة، اتركه يتحمل بعض المشاق وكذلك يجب أن تنعم عليه وتحسن إليه وتكفي حاجاته وهكذا، وليس معنى التربية بالشدة أن نبحث عن المشاكل ونركبها هذه ليست تربية، وهذا الأمر أخّر الدعوة، أرأيت لو يُسر لك الحج راكباً فلا داعي للتكلف والحج ماشياً، فإذا كان الأمر ميسراً لا بأس به، ولا ينبغي أن نتكلف ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة صۤ، الآية: ٨٦].

كذلك لا ينبغي أن نهجم على البلاء لأن الرسول ﷺ يقول: [لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا].

هل نفتعل المشاكل لكي نقع فيها وبعد ذلك نبحث عن حل لها؟ هذا من قلة العقل وقلة الفقه، بل أقول: لا شك أن مجالات التربية مع النعمة عظيمة جداً، أنعم الله عليك نعمة فابذل منها في سبيل الله، هذه تربية لنفسك أنك تمنعها عن الشح والبخل وتنفق في سبيل الله: زيارتك لمريض، سعيك في نفع إنسان، هجرتك في سبيل الله للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، تحملك بعض المشاق، فهذا مجال العطاء مع الراحة مجال عظيم جداً، مجال مفتوح، تريد أكثر من هذا الحمد لله ثغور مفتوحة للمسلمين في كل مكان، هذه أفغانستان! هذه فلسطين! هذا البلاء على المسلمين من كل مكان! إذا كان الناس في أرض مثل الكويت ليس بها بلاء فهل تقول: يا رب هات البلاء لكي نتربى (وأقول الآن لقد حل بالكويت بلاء لا يكاد يوجد مثيل له، وأحمد الله أن شباب الدعوة الإسلامية الذين تربوا على الكتاب والسنة ضربوا المثال الصالح في هذه المحنة العظيمة، والمجال ضيق الآن لشرح ذلك وهذا دليل بحمد الله أن التربية الإسلامية على منهاج الكتاب والسنة هي التي تعد الناس للقيام بالحق)؟ هذا جنون، فهؤلاء المسلمون يكفيهم البلاء وزيادة فلنشارك نحن، ومجال المشاركة مفتوح لتخفيف هذا البلاء عن المسلمين.

لكن بعض المسلمين من ضيق فقههم وعقلهم أنهم لا يفكرون إلا في المنطقة

السكنية التي يعيشون فيها، فما دام لا يوجد بلاء في المنطقة السكنية التي هو فيها فيكون معناه أنه لا يوجد مجال للتربية، الله الله!!

هل تريد أن يحل البلاء في كل بيت من بيوت المسلمين لكي نتربى؟ هذا ضعف عقل وضعف فقه، الأمة فيها من البلاء ما يكفيها، مجال الإنفاق ومجال البذل ومجال العطاء ومجال الجهاد في سبيل الله، مجال عظيم جداً وواسع جداً، وهو مبذول على امتداد الساحة الإسلامية فلنشارك إخواننا المسلمين، ولنخفف عنهم، ولنشد من أزرهم، وهذا مجال عظيم جداً للجهاد والدعوة وفعل الخير.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتاب

كلمات مضيئة في الانتفاضة الفلسطينية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

عندما يترافع المحامي أمام القاضي ويصدر الحكم لصالح موكله يقولون: هذا محامي شاطر وفهمان للعبة خلط الأوراق أو استنباط الدلالات من النظم والقوانين، وأما إذا خسر القضية فيقولون: غير موفق أو غير ناجح، ولكن إذا كان حظه الخسران في أغلب الأحكام فيقولون عنه حينئذ فاشل وربما تجاوزوا قليلاً وطالبوا بشطبه من جدول المحاماة.

هذا إذا كانت القضية بالغة التعقيد والصعوبة فكيف إذا كانت القضية واضحة المعالم والطريق إلى حلها فالحق أن جميع صنوف المحامين سوف يكسبونها ولا ريب وهذا حال وواقع القضية الفلسطينية، فبالرغم من جلو الأدلة والبراهين التي يمكن لكل مسلم راشد أن يستلهمها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ الهاديين إلى فهم لغة الحوار الأزلية مع بني يهود لغة السيوف والرماح.

أقول فبالرغم من هذا التيسير الرباني راح بنو جلدتنا يتخبطون ذات اليمين وذات الشمال، فمرة يرتمون بين أحضان الشيوعية فتخذلهم ومرة بين أحضان العلمانية فتخذلهم هي الأخرى ثم تاهوا في بهو الأمم المتحدة والمؤتمرات الدولية فحكموا الهوى والنزعات الشيطانية حتى أصبحوا في عيون الناس كالهواة يرقصون على شتى الحبال ومع ذلك فهم كل مرة يرجعون بخفي حنين، ولكنهم لا يتعظون ولا ينصحون فحسبهم الله نعم المولى ونعم النصير.

ولما كان لعلماء الأمة الإسلامية ومصلحيها في كل عصر ومصر الدور البارز في

تبصيرها من دروب الزلل والهلاك والأخذ بيدها إلى طرائق العزة والسؤدد ارتأت لجنة التضامن مع الشعب الفلسطيني أن يكون أولى إصداراتها من سلسلة بيت المقدس حول الفهم الصحيح لواقع القضية الفلسطينية وآفاق حلها الأكيد في مستقبلها المرجو.

والعدد الأول يتضمن لقاء أجرته جريدة الأنباء بتاريخ (٢٧ جمادي الأول ١٤١٠هـ) الموافق (١٥/ ١٢/ ١٩٨٩) مع فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالخالق حول القضية الفلسطينية وقضايا إسلامية مختلفة.

وغني عن البيان توضيح ما عرف به فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالخالق الذي ما فَتِيءَ منذ صباه وهو يدعو إلى الجهاد على أرض فلسطين المباركة. ولقد استن في نيل مراده ألواناً متباينة من العمل الجهادي كالخطابة والوعظ وإلقاء المحاضرات وتسخير القلم والكتاب، ولقد ناله بحمد الله نصيب من الجهاد في بلاد الإسراء والمعراج ولم لا؟؟ وقد سبقه أبوه مجاهداً في فلسطين وأعظم من ذلك أنه فقد أخاه مقتولاً على أرض فلسطين نظنه عند الله شهيداً.

نسأل الله جلت قدرته أن يثبت السائرين على درب الجهاد وأن يعلي كلمتهم ويعز شأنهم إنه ولي ذلك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لجنة التضامن مع الشعب الفلسطيني

اللجنة الإعلامية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق لـ "الأنباء" :

الدعوة السلفية لها أتباع ومريدون كثيرون، ومن الطبيعي أن يكون لها وجهات نظر في مجمل القضايا الدينية والمصيرية التي يعيشها العالم العربي والإسلامي.

والشيخ عبدالرحمن عبدالخالق أحد أبرز دعاة هذه الدعوة، وقد رأت الأنباء أن تجري معه لقاءً شاملاً، تطرح فيه كل النقاط، بالإضافة إلى إثارة بعض المسائل التي سبق أن طرحت في الصحافة المحلية، وتسببت في زوبعة فكرية، ودخلها أكثر من طرف، ومنها مسألة كتاب "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" للداعية محمد الغزالي الذي كان للشيخ عبدالرحمن موقف خاص منه.

الأنباء إذ تجري هذا الحوار تؤكد إيمانها بحرية الرأي وحرصها على أن ترى مختلف الآراء النور، وصولاً إلى الحقيقة التي هي الهدف الأسمى.

قال الشيخ عبدالرحمن أن هدف الدعوة السلفية هو حماية الإسلام من التحريف، ووصف اتهامها بأنها غير معاصرة بأنها مضللة مشيراً إلى أن الدعاة السلفيين هم الذين يملكون الحلول لمشكلات العالم الإسلامي، وأكد أن وجود جماعات وأحزاب إسلامية يخدم الإسلام من بعض الجوانب وإن كانت هناك آثار سلبية، ودعا إلى وضع ضوابط، مشيراً إلى أنه لا مانع بعد ذلك من تعدد الاجتهادات للوصول إلى الحق.

وقال إن الكويت تحظى بمكانة خاصة في العمل الخيري الذي كان أعظم دليل على كرم أهل الكويت ومحبتهم لفعل الخير.

وأكد أن الطريق أمام الانتفاضة طويل، مشيراً إلى أن المشكلة الحقيقية الآن في

الذين يريدون أن يجعلوا منها ناراً محدودة لا تتجاوز القدر الذي يتم فيه طبخ الحل السلمي، وقال إن مشكلة فلسطين لن تحل إلا بالإسلام ونداء الله أكبر وحي على الجهاد، وذكر أن كل الخيارات السابقة سقطت، ولم يبق إلا خيار الجهاد، وناشد منظمة التحرير إعلانه، وأقسم أنها لو فعلت ذلك فإنه لن تمضي ثلاثة عقود حتى تكون فلسطين دولة محررة.

ووصف الجهاد الأفغاني بأنه مبارك، ودعا الإعلام العربي والإسلامي إلى دعمه، وقال إن الطريقة التي قتل بها د. عبدالله عزام تؤكد أن وراء الحادث جهة لا أفراداً.

وألمح إلى أنه تأثر بخمس شخصيات: والده، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والألباني، والبنا.

وأكد أن الأمة الإسلامية في حالة بعث الآن، مشيراً إلى أن الصراع محسوم لصالح الإسلام.

يعد الشيخ عبدالرحمن بن عبدالخالق واحداً من أبرز دعاة الدعوة السلفية، فما هي حقيقة هذه الدعوة، وما هو هدفها؟

لست إلا طالب علم صغير منسوباً إلى هذه الدعوة والعلماء السلفيون الذين هم أعلم مني وأكثر شهرة وأثراً كثيرون جداً، وحسبي أن أكون طالباً عند بعضهم.

والدعوة السلفية هي دعوة الإسلام الصحيح، وهي تمثل عصر الصحابة، ثم التابعين المشهود لهم بالخير، ثم أئمة الهدى أهل الحديث، ثم أجيال العلماء العاملين على منهج السلف جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا.

وهدف الدعوة الأساسي حماية الإسلام من التحريف والتشويه والعمل بالإسلام كله، والجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

يقول البعض: إن الدعوة السلفية دعوة غير معاصرة وقادتها لا يحملون حلولاً لمشكلات العالم الإسلامي الحاضرة ويقول المنتقدون للمنهج السلفي إن السلفيين لا يملكون رؤية عصرية لجعل الإسلام في حياة الناس؟

كلمة المعاصرة كلمة مضللة، والسؤال هو: هل الدعوة السلفية على مستوى

أهداف الرسالة الإسلامية أم لا؟ فإن كانت محققة لأهداف الإسلام من إيجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح وإخلاص الدين لله، فهي دعوة صالحة ولا شك أن الدعوة السلفية وحدها هي التي تحقق ذلك.

الدعاة السلفيون هم الذين يملكون الحلول لمشكلات العالم الإسلامي، ولكن السؤال من يسمع أو يقرأ لهم؟ وهل ترى مقترحاتهم الطريق إلى الواقع؟

أما جعل الإسلام في حياة الناس فبحمد الله عامة من تراهم من الشباب في العالم الإسلامي كله امتثل الإسلام هم من أبناء الدعوة السلفية، ووجود هذه الأعداد الهائلة في كل بلد في العالم لا شك أنه دليل نجاح للدعوة.. كل ذلك بدأ في التساقط من وجه الأمة بجهاد الدعوة السلفية وعامة من تراهم من الشباب المسلم اليوم في العالم سلفيون يحملون العقيدة السلفية، وينتهجون المنهاج السلفي في فهم الدين والعمل به، وهؤلاء نافعون في مجتمعاتهم، فهم علماء وأطباء، ومهندسون، وزراعيون وتجار، ويمارسون دنياهم على أكمل وجه، فأي معاصر أكبر من هذا، أن يكون الفرد سلفي العقيدة مسلماً صالحاً وهو مع ذلك في عمله الدنيوي نافع لأمته ووطنه.

الجماعات تخدم الإسلام

التعدد الإسلامي الذي نراه اليوم على شكل جماعات وأحزاب.. هل يخدم الإسلام؟

بكل تأكيد يخدم الإسلام من بعض الجوانب، مثل توسيع رقعة العمل الذي لا تسعه جماعة واحدة، ومحاولة سد الثغور التي لا تقوى جماعة واحدة مهما كانت قوتها على سدها، ثم احتكاك الآراء وصولاً إلى الرأي الصائب.

والذين يريدون أن يكون الإسلام رأياً واحداً فقط، وإماماً واحداً لا رأي إلا رأيه، ولا اجتهاد إلا اجتهاده يقتلون بذلك الإسلام.. لقد قتلت جميع العقائد والحكومات التي لا يعيش فيها إلا رأي الحاكم الفرد أو الحزب الحاكم في حين عاشت وازدهرت دول الحرية السياسية والفكرية.

ولذلك فإنه يجب تعويم جميع الآراء والاتجاهات في بحر الحياة وسيطفو على السطح وينجو من الغرق أقواها وأقدرها على مدافعة التيار، وأما الضعيفة فإن الطوفان سيجرفها، ولا شك أن تعددية العمل والجماعات الإسلامية تثري الاجتهاد، والفكرة الصائبة هي التي سيكتب لها البقاء والنجاح.

كما أن لهذه التعددية أثرها الحميد في التنافس الشريف والتسابق لرفعة الإسلام.

ولا أنكر أن هناك آثاراً سلبية من الشقاق والنزاع والتحاسد والتباغض ولكن هذا يحدث أيضاً في إطار الجماعة الواحدة لأن هذا من أمراض البشر، فكم من جماعة واحدة توزعت أجنحة وتكتلات، ووجد فيها منشقون وخارجون، كما وجد فيها مدارس ومناهج متباينة، وهذا في الجملة لا عصمة منه.

ولذلك فإنه يجب وضع ضوابط للأخوة الإسلامية العامة والولاء العام للإسلام والسماح بعد ذلك بتعدد الاجتهادات والآراء ووضع ضوابط لكيفية الوصول إلى الحق.

مكانة خاصة للكويت

في الكويت عمل إسلامي تطوعي خيري كبير يخدم الإسلام والمسلمين في أرجاء المعمورة، البعض يطرح فكرة ترشيده أو التنسيق فيما يطرح من مشاريع لتعم الفائدة. كيف تنظر إلى هذا الموضوع، وكيف يتم ترشيد هذا العمل المبارك؟

العمل التطوعي الخيري تنفرد به الكويت من حيث الحجم والعالمية من بين دول العالم الإسلامي، وهذا أعطى الكويت مكانة ومقاماً متميزاً، وقد أسهم بالفعل إسهاماً عظيماً في تخفيف المعاناة والبؤس التي يعاني منها المسلمون في كثير من بقاع العالم، وهذا العمل التطوعي من أعظم الدلالات على كرم أهل الكويت ومحبتهم لفعل الخير.

وهناك شخص واحد تبرع وحده ببناء مائتي مسجد حتى الآن، وهناك نساء قد لا تملك الواحدة منهن إلا مبلغاً محدوداً من المال فتتبرع به كله.

وهناك صور من صور البذل والعطاء والسخاء والتكافل لو نشرت على الناس، وأرجو أن تنشر لعطرت تاريخنا الحديث، ولكانت صورة مشرفة كالذي نقرأ مثله في

كتب السلف الصالح، وأما ترشيد هذا العمل فهو بحمد الله في جملته راشد إن شاء الله حسب علمي، وفي جمعية إحياء التراث الإسلامي الذين يقومون على هذا العمل ويديرونه محتسبون يقتطعون من أموالهم وأوقاتهم من أجل نشر الخير في العالم فجزاهم الله خيراً.

الانتفاضـة المباركـة

تدخل الانتفاضة المباركة عامها الثالث.. كيف تنظر إليها وما رأيك بالحلول السلمية المطروحة على الساحة؟ وكيف تستطيع الأمة العربية والإسلامية رفد الانتفاضة وصولاً إلى الأهداف المرجوة؟

تفجرت الانتفاضة الفلسطينية المباركة نتيجة حالة اليأس التي وصل إليها الشعب الفلسطيني في غزة والضفة عندما لم يصل إلى شيء من السعي وراء الحلول السلمية بعد المبادرات المتعددة منذ احتلال الضفة وغزة عام ٦٧.

كان الناس هناك يظنون وقد قيل لهم إن الاحتلال لن يستمر إلا لمدة عشرة أيام، ثم قيل يستمر شهراً، ثم شهرين على الأكثر ثم استمر الساعون وراء حل القضية سلمياً يقولون: عام كذا هو عام الحل، وعام كذا هو عام السلام، فلما وصل الشعب الفلسطيني في غزة والضفة إلى حالة اليأس بعد مضي عشرين عاماً كاملة تفجرت الانتفاضة وساعد على تفجرها أيضاً سقوط الخيار العسكري بعد خروج مصر من المعادلة العسكرية، وضرب الفدائيين في الأردن، ثم لبنان.

وكان الجميع يظنون بما في ذلك اليهود أن الشعب الفلسطيني في الداخل قد روض نتيجة معايشته للواقع، ورضي بالذل اليهودي نهائياً، وخاصة أن أوضاع الشعب الفلسطيني الاقتصادية قد تحسنت بعد الاحتلال حيث ارتفع مستوى الدخل من جراء توسع العمالة لدى اليهود، وتحويلات الفلسطينيين في الخارج لذويهم.

ومن أجل ذلك ظن الجميع أن اليهود في طريقهم إلى هضم الشعب الفلسطيني نهائياً، وجعل من بالداخل يتأقلمون مع حياتهم وواقعهم الجديد، ثم جعل من في الخارج ينسون فلسطين تدريجياً.

وكنت أرى أن هذا يخالف سنن الله الجارية ووعده بالنصر لهذه الأمة، ووعيده بأن اليهود مكتوب عليهم الذل إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١١٢].

وآيات الله لا تسقط أبداً، ومن أجل ذلك قلت إنه يستحيل أن تسير الأوضاع كما يشتهي اليهود وكنت أعلم بعد أن أخذ المد الإسلامي والصحوة الإسلامية بعض المدى في أرض فلسطين أن الشباب المسلم هناك لن يصبر على الذل اليهودي، ولن يرضى بأن يظل عاملاً في مصانع اليهود ومزارعهم مهما أغروه بالمال، وحاولوا أن يغروه بالفساد.

إن بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب تجعله لا يرضى بتاتاً بهذه العيشة الدنية والحياة الحقيرة مهما كانت مترفة في ظل يهودي كافر معاند لله ورسالاته.

ولما كنت أرى كيف تسير سنن الله سبحانه وتعالى مع المسلمين واليهود، وكيف بدأت تباشير الخير تظهر في رجوع الشباب الفلسطيني للإسلام حذرت "الداعين" إلى "علمنة" القضية الفلسطينية إنهم سيجدون أنفسهم بعد قليل خارج الصف وبعيداً عن مجرى التاريخ، وقال لي بعضهم: ما تفكر فيه وهم، وخط "العلمنة" هو الذي سيسير على الأقل في المستقبل المنظور فقلت لهم. . "الأيام بيننا".

هذه الانتفاضة التي تفجرت من جراء تململ الشباب الفلسطيني المسلم نحو الاحتلال قد تخلصت من بعض كوابيسها، ولكن طريق الانتفاضة طريق طويل وشاق جداً، قلت هذا لمن ظنوا أن الخلاص قد أصبح قريباً وفي متناول اليد.

والمشكلة الحقيقية الآن هي في الذين يريدون أن يجعلوا الانتفاضة ناراً محدودة تشتعل بالقدر الذي ينتهون فيه من انضاج طبخة الحل السلمي.

والذي أتصوره أن درب الجهاد في الأمة قد بدأ وإنه سيستمر، وهذه الانتفاضة لون من ألوان الجهاد الذي ينتظم الآن بالأرض الإسلامية بأسرها بل العالم كله.

الانتفاضة ستستمر في دربها إن شاء الله وستتطور لاحقاً لتكون جهاداً كاملاً يحقق

النصر والعزة للمسلمين في أرض فلسطين، وتسألني كيف؟ وأقول: هذا لا يعلمه إلا الله، ومن كان يظن أن هذه الانتفاضة ستستمر ثلاثة أيام كاملة؟ لقد كان الجميع بما فيهم اليهود أنفسهم يقولون: إن الشعب الفلسطيني في الداخل سيتعب بعد أسبوع واحد فقط ويستسلم للأمر الواقع، وها قد مضى عامان ولم يتعب هذا الشعب الصبور الجبار، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى سيجعل له فرجاً ومخرجاً.

القضية ضاعت بين اليمين واليسار

قلت في أكثر من مناسبة أن القضية الفلسطينية ضاعت بين اليمين واليسار، كما قلت أن الحلول السلمية ستصل إلى الطريق مسدود. فما هو تصورك للحل؟

لم أقل هذا تحديداً، وكلمة اليمين واليسار ليس لها مفهوم موحد دقيق في القاموس العربي السياسي، من أجل ذلك قليلاً ما أستعملها في كلامي إلا أن أتبعها بمفهوم محدد واضح لما أعني.

وعلى كل حال القضية الفلسطينية منذ أن بدأ الصراع بين العرب واليهود عام ١٩١٧م إلى يومنا هذا وهي تتقهقر وترجع كل عام خطوة أو خطوتين إلى الخلف، لا مقارنة مثلاً الآن بين وضعنا قبل عام ٦٧ وعام ٥٦، وكذلك كان الحال أفضل من ذلك عام ٤٨ وأيضاً عام ٣٩ كانت القضية أفضل من ذلك بالنسبة لنا وهكذا.

ولا شك أن وضع الحرب قبل "كامب ديفيد" كان خيراً منه بعدها.. والزمن للأسف للآن ما زال في صالح اليهود ولم نتقدم خطوة واحدة للأمام إلا في ٧٣ بعد حرب رمضان التي دخل فيها سلاح الإسلام وهتاف "الله أكبر" لأول مرة في تاريخ جيوشنا العربية، ومع ذلك تأخرنا بعدها خطوات كثيرة إلى الوراء.

ومن أجل ذلك، قلت كثيراً وما زلت أقول: إن قضية فلسطين لا تحل إلا بالإسلام ونداء الله أكبر، وحي على الجهاد ورفع راية لا إله إلا الله، وبغير ذلك سنظل نرجع القهقرى حتى يأذن الله لنا برفع راية لا إله إلا الله ويتحقق فينا قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا

يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾ [سورة النور، الآية: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

والانتفاضة بشارتنا وطريقنا للجهاد الإسلامي في فلسطين وهي بداية الحل لقضية فلسطين.

الخيــارات العمليــة

ما هي الخيارات العملية للمقاومة الفلسطينية في رأيك، وما هو المطلوب من منظمة التحرير الفلسطينية وهي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة؟

لقد سقطت كل خياراتهم السابقة، والإعلام اليوم يشغلنا بما يسمى بورقة بيكر، "وليس فيها إلا أن أمريكا ستحاول أن تتوسط لدى اليهود في أن يقبلوا أن يجلسوا مع مصر وممثلين عن الفلسطينيين يرضى عنهم اليهود.. "

لقد أصبح هذا الأمل هو نهاية المطاف وغاية ما نرجوه ونأمله ونتمناه!! أن يتفضل علينا اليهود ويتنازلوا بأن يجلسوا مجرد جلوس دون أي وعود أو شروط مع وفد هم يختارونه ويرضون عنه!! وأما لماذا يجلسون وفيم يتكلمون وبماذا يلتزمون فكل هذا لا شيء عنه!!

لذلك قلت وما زلت أقول: ليس أمامنا نحن المسلمين إلا خيار واحد فقط هو الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وأناشد الإخوة في منظمة التحرير الفلسطينية وفي دولة فلسطين أن يعلنوا الجهاد المقدس تحت راية "لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله"، والله لو فعلوا ذلك فإنني أرجو أنه لن تمضي ثلاثة عقود حتى تكون فلسطين دولة محررة.

الجهاد الأفغاني

ما هو تقييمك للجهاد الأفغاني المبارك؟ ولماذا تأخر حصاده؟ وما هو المطلوب من الإعلام الإسلامي؟ وكيف تستطيع في ظل الظروف الدقيقة أن تواصل جهادها حتى تستطيع بسط نفوذها على كافة مناطق أفغانستان؟

الجهاد الأفغاني جهاد إسلامي باركه الله وحقق نتائج مذهلة في عقد واحد فقط من الزمان، فقد حرر الأفغان بلدهم من سيطرة العدو الشيوعي وهم يحاصرون فلول الشيوعية وأذنابها اليوم داخل خنادقهم في المدن، وأثبتوا للعالم إننا ما زلنا ولا نزال في عصر المعجزات، وكشفوا الستار الذي أخفى سوءات الاتحاد السوفياتي وحطموا الستار الأحمر الحديدي، وسهلوا مهمة تحرير الشعوب التي نكبت بحكمه في أوروبا الشرقية، وبعثوا الإسلام من جديد في روسيا والعالم أجمع، وأخرجوا شعباً من ظلمات الجهل والتخلف إلى آفاق العلم المعاصر.

الشعب الأفغاني كان ٩٠ بالمائة منه أميين، ولقد أسهم الجهاد بأن فتح أعين هذا الشعب على العالم وأخرج اليوم جيلاً جديداً (أكثر من نصف مليون) على مستوى فائق من الخبرة والعلم والسياسة.

باختصار لقد أحيا الجهاد الأفغاني أمة الأفغان وبعث روحاً جديدة في أمة الإسلام بأسرها.

وقادة الجهاد الأفغاني هم أقدر مني وأعلم مني بما يوصلهم إلى الهدف ولست في مقام من يرشدهم وإنما واجبي النصح لهم كما قال الرسول الكريم: [الدين النصيحة] ثلاثاً، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: [لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم]، وقد كتبت مراراً في هذا الصدد وأرجو من الله أن يتمم لهم النصر بالكامل.

والذي أتصوره أن الجهاد الأفغاني ماض ولن يعقبه شيء وأن التآمر عليه ساقط، وعلى الإعلام العربي والإسلامي دعمه ونشر أخباره حتى يصل إلى كل المسلمين في أرجاء المعمورة.

وهناك دول إسلامية قدمت دعماً للجهاد الأفغاني لا ينكر وعلى بقية الدول الإسلامية جميعاً دعم جهاد الشعب الأفغاني حتى إعلان تحرير كامل أفغانستان.

د. عبدالله عزام

قتل الدكتور عبدالله عزام وأبناؤه محمد وإبراهيم وأحد مرافقيه نتيجة عمل إرهابي، فمن المسؤول عن هذا العمل؟

هناك جهات عديدة لها مصلحة من اغتيال الدكتور عبدالله عزام رحمه الله، ولا أستطيع وأنا هنا أن أتهم أحداً بعينه، ولكن طريقة القتل على هذا النحو تدل على إجرام متأصل وفقدان الوازع وإمكانيات لا يملكها الأفراد، ولا شك أن الذين قتلوه هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

وقافلة الجهاد ستمضي بحول الله وقوته وسيكمل تلامذة الشيخ عبدالله عزام وإخوانه درب الجهاد.

أحكام التصوير

أثار كتابك (أحكام التصوير في الشريعة الإسلامية) ردود فعل واسعة، ويتهمك البعض بالتساهل في قضية جواز التصوير بعكس بقية دعاة السلفية الذين يتشددون في هذه القضية.. فما هي حقيقة هذا الاتهام؟ وما رأيك في قضية التصوير التي جرت حولها مناظرات وفيها وجهات نظر متعددة؟

هذا الكتاب بحمد الله قد أثنى عليه الجميع من المشايخ السلفيين وهو يضع أحكام التصوير في الشريعة الإسلامية في موضعها الصحيح بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله والبرهان العقلي والعملي.

وأنا لا أعير اهتماماً لاتهامي من بعض الناس بالتساهل أو بالتطرف والتشدد، وعلى الذين ينتقدون شيئاً من كتاباتي أن يناقشوا بالآية والحديث والأثر، والعلم والميزان، أما السباب والشتائم والاتهامات فلا آبه لها.

كتاب السنة النبوية

وما حقيقة ما يثار حول رأيك في كتاب الغزالي الأخير (السنة النبوية)؟

كتبت نحو خمس مقالات حول الكتاب لما أثاره من شبهات وآراء فجة ولما حاوله من هدم الأصول التي يبنى عليها أخذ السنة النبوية، وتشكيكه في الصحيحين البخاري ومسلم، وخروجه بآراء فقهية مرجوحة قد خالفها الغزالي نفسه في كتبه

الأولى، وهذا الكتاب لم يستفد منه إلا أعداء الإسلام والذين يتبعون أهواءهم بغير علم، وهو كتاب ساقط على كل حال، وقد رد عليه العشرات غيري ونهايته أن تعصف به الريح وتذروه بعيداً عن طريق الأمة كما عصفت بكل الأفكار المنحرفة، ولا شك أن تشكيك الغزالي في أحاديث ثابتة في البخاري ومسلم ومحاولة النيل من سنة الرسول ﷺ مثاله كمن يريد أن يزل جبلاً بحجر.

نشر الفكر السلفي

الكل يتساءل عن كثرة تنقلاتك لأكثر من جريدة لنشر الفكر السلفي على صفحاتها الدينية.. فما هي الأسباب؟

لم أتسلم الإشراف على الصفحات الدينية إلا في جريدتي الوطن والسياسة، واستمر إشرافي في الوطن أكثر من ٨ سنوات، وكان هناك تعاون بيننا، لكنني فيما بعد آثرت الانسحاب من الصفحة بعد أن رأيت أن الحرية التي كانت متاحة لنا أصبحت مقيدة.

وأما السياسة فلم نستلم الإشراف على صفحاتها الدينية إلا منذ رمضان الماضي فقط، وأرجو أن نواصل الطريق.

تأثره بخمس شخصيات

شخصية من علماء المسلمين توقفت عندها طويلاً.. ولماذا؟

هناك خمسة أشخاص أثروا في حياتي تأثيراً عظيماً وهم في النهاية الذين أعطوني هذا التوجه الذي أسير فيه بعد الله سبحانه وتعالى.

أولهم والدي عبدالخالق آل يوسف -رحمه الله- فقد عاش طيلة عمره مجاهداً صلباً لا يلين، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- الذي لم تقع عيني على أعلم منه بكتاب الله وعلوم العربية، وسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز الذي كان نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية يوم تعلمت فيها وعشت بصحبته أربع سنوات هي من أحب

سني عمري إلي، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وأخيراً أستاذي ووالدي محمد عبدالوهاب البنا، ولا يكفي أي من هؤلاء كتاب أكتبه فيما تعلمته منهم فجزاهم الله عني خير الجزاء.

الأمة الإسلامية في حالة بعث

في الختام ما تصوركم للخطوط الرئيسية لبعث الأمة الإسلامية من جديد؟

الأمة الإسلامية الآن في حالة بعث بحمد الله وتوفيقه، وهذا البعث بالغ مداه بمشيئة الله، ولن يوقفه شيء، ولكن الذي يتبنى هذا البعث ويعيشه قطاعات من المجتمع ومؤسسات قليلة نسبياً، وكل ما نعمل له الآن هو أن يصبح الإسلام هو منهج العمل لجميع المؤسسات والأفراد في المجتمع الإسلامي بما فيها الأحزاب والاتحادات والنقابات حيث توجد وجميع المؤسسات والأفراد.

وذلك أن الإسلام هو دين الجميع وعلى الجميع أن يلتزموا به ويطبقوه في حياتهم.

والصراع القائم الآن بين أنصار العقيدة الإسلامية وخصومهم صراع محسوم لصالح الإسلام طال الزمان أم قصر، وعلى الذين يخاصمون الإسلام اليوم أن يعلموا أن سعيهم إلى ضلال وأنهم مهما ناوئوا الإسلام فإنه سيتغلب عليهم ولذلك فإن عليهم أن يوفروا جهودهم وأن يعودوا إلى الإسلام الذي به عزهم ومكانتهم.

لا أعرف الفراغ

هل لديك وقت فراغ؟

لا أعرف وقت الفراغ وأشعر أنني في سباق مع الزمن وأن العمر قصير جداً، والواجبات أكثر من الأوقات، والله المستعان أن يجعلنا كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنعام، الآية: ١٦٢].

أحب الأوقات إلى نفسك؟

جلسة مع إخوة صالحين نتدارس فيها آية من كتاب الله أو حديث من أحاديث

رسول الله أو أثراً عن علم من أعلام سلفنا الصالح.

وسط هذا الكم من الارتباطات وأمور الدعوة، ما هو الوقت المتاح للأسرة والأولاد؟

الحق الواجب الذي قال فيه الرسول الكريم: [وإن لأهلك عليك حقاً].. لا شك أن هناك تقصيراً، ونسأل الله العفو والمسامحة.

مكة أحب البلاد إلي

أحب البلدان إليك؟

مكة هي أحب البلاد إلي وسعادتي برؤية الكعبة والطائفين حول الكعبة لا تعادلها سعادة، ثم الكويت التي أصبحت قطعة من نفسي وأجد فيها راحة نفسية لا أجدها في بلد آخر.. اللهم إلا في مكة والمدينة.

اخر كتاب تعمل به هذه الأيام؟

رسالة عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي تحكي جانباً من حياته وسيرته العلمية، وأهم الأحداث السياسية التي كانت في عصره وكيف تعامل مع هذه الأحداث.

ما أغلى هدية قدمت لك؟

حفل تكريمي قام به طلاب الفصل الأول -الشعبة الثانية عشرة- في مدرسة أبي تمام المتوسطة عام ١٩٧٢، حيث نقلت إلى هذه المدرسة بعد مضي شهرين من بدء العام الدراسي وبعد توزيع جدول الحصص.

وفوجئت بأن معظم طلبة هذين الفصلين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة بل وجدت نحو ٢٠ طالباً تقريباً لا يستطيعون كتابة أسمائهم على الرغم من أنهم في (أول متوسط)، فعرضت الأمر على ناظر المدرسة آنذاك الأستاذ الفاضل عبداللطيف الحبشي فقال: إن طلاب هذين الفصلين كانوا عندنا في العام قبل الماضي وقد وجدنا أنهم لا يحسنون القراءة، فاتخذنا قراراً مع الوزارة بردهم إلى القسم الابتدائي مرة ثانية، ومكثوا هناك عاماً ثم جاؤونا هذه السنة على نفس الحال.. فافعل بهم ما تشاء.

والحق أنني لما دخلت على هذين الفصلين فوجئت حيث أن أعمار بعضهم فوق الثامنة عشرة، فأشفقت عليهم ورققت بحالهم، وبدأت التعامل معهم كوالد سيضيع أولاده من بين يديه، وشرعت أعلمهم قواعد القراءة والكتابة وأحفظهم النصوص القرآنية والحديثية والشعرية بطريقة الترديد.

لقد شعرت أنني أؤدي دور المدرس على حقيقته.

وفي نهاية العام فوجئت بهؤلاء الطلاب يقيمون احتفالاً ويدعون ناظر المدرسة والمدرسين ويقدمون علبة من الحلوى لي وكانت لهذه الهدية الرمزية أثر كبير في نفسي، لأنها أشعرتني أن جهدي مع هؤلاء الطلاب الميئوس منهم قد أثمر.

أهم حدث إسلامي

ما هو أهم حدث إسلامي في القرن الحالي من وجهة نظرك؟

انتصار المجاهدين الأفغان هو أعظم أحداث هذا القرن بالإطلاق، وهو حديث يهزُّ الجماد.

وحدث دولي؟

سقوط الشيوعية وانتهاء الماركسية، وقد وفر هذا على البشرية قروناً طويلة من الشقاء والنكد والويلات لو استمرت هذه العقيدة الفاسدة.

خطر داهم علينا؟

أعظم الأخطار التي تواجهنا الآن هي المحاولات المستميتة من أعدائنا لزعزعة الاستقرار في الدول الإسلامية وإشغالها بأنفسها عن اليهود عدوها الأول المتربص بها.

وهذا الخطر يفرز أخطاراً أخرى كثيرة، منها إغراقنا بالمخدرات والفساد.

أغلى شيء في هذه الدنيا تتمناه؟

أرجو أن أخرج من الدنيا وقد أديت ما علي، وليس لأحد عندي مظلمة ولا دين وأن يغفر الله لي ذنوبي، هذا كل ما أتمناه لنفسي، وأما لأمتي فأرجو أن يجمع الله كلمتها ويوحد صفوفها.

كتاب

حكم معاهدات الصلح والسلام مع اليهود وموقف المسلم منها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

والصلاة والسلام على المبعوث بالدين القويم، والصراط المستقيم، والجهاد بالسيف إلى يوم الدين، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين. وبعد،،،

فإن الأمة الإسلامية قد ابتليت في هذه السنوات بكارثة عظيمة لم تكن قبل وقوعها في الحسبان ولم يكن أحد من أهل الإسلام يحسب أو يظن أن يقع هذا في أمة الإسلام، ألا وهو انتصار اليهود وهم شرذمة قليلة على أمة الإسلام، وذلك في أربعة حروب متتابعة، قاتل اليهود فيها وهم صف واحد أمة الإسلام وهم صفوف مختلفة، قد حملوا شعارات تخالف الإسلام من القومية والوطنية والإقليمية أو مجرد الدفاع عن الأرض. وقد هُزِم العرب المسلمون أمام أعدائهم اليهود هزائم لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. ثم إن العرب المسلمين الذين نالتهم هذه الهزائم تنادوا إلى وجوب الصلح والسلام مع اليهود وأنه لا حيلة أمامهم إلا ذلك. متعللين أن اليهود تساندهم أمم الغرب وأمريكا، والعرب المسلمون لا حول لهم ولا سلطان.

وبعد أن مدّوا أيديهم للصلح مع اليهود عقد بعضهم معهم معاهدات سموها معاهدات سلام، ولما كانت هذه المعاهدات بما انطوت عليه من شروط باطلة، أشد خطراً وأكبر من الهزيمة في الحرب وكان الناس يسألون ما موقف المسلم اليوم من اليهود؟ وما موقفه من هذه المعاهدات التي أبرمت؟ وكان الله سبحانه وتعالى قد أخذ الميثاق على من أوتي علماً أن يبينه ولا يكتمه فإنني أحببت أن أكتب مختصراً في الموقف الشرعي الواجب على أبناء الأمة الإسلامية من هذه المعاهدات التي سموها معاهدات السلام.

أولا: مقدمات:

فأقول والله المستعان:

١) اليهود أعداء دائمون لهذه الأمة منذ بدأ الرسول ﷺ رسالته والى أن يخرج الدجال:

اليهود أعداء هذه الأمة منذ بدأ الرسول ﷺ يدعو إلى الله، وستظل عدواتهم لهذه الأمة إلى قيام الساعة، ولقد بدأ الرسول ﷺ الحرب معهم مبكراً فحارب بني قينقاع لغدرهم، وانتصر عليهم، وأخرجهم من المدينة، ثم بني النضير لغدرهم وأخرجهم من المدينة، ثم بني قريظة لغدرهم وخيانتهم، ثم فتح خيبر وكانت منطلقاً لدسائسهم، ثم أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الجزيرة العربية كلها وانتقل عداؤهم بعد هزائمهم إلى الكيد الخفي، فكانوا وراء جميع الفرق الباطنية، ومعظم الفتن الداخلية في أمة الإسلام، ثم كانوا وراء إنهاء آخر خلافة للمسلمين وهي خلافة بني عثمان، وهم الذين حولوا وجهة دول الغرب النصرانية لحرب الإسلام. ومَكْرُهم بالإسلام وأهله لا تحويه المجلدات!!

ولا يزال عداؤهم بالمسلمين إلى أن يستصرخ الحجر والشجر المسلم قائلا [يا مسلم هذا يهودي ورائي فأقتله] (متفق عليه)، وحتى يخرج آخرهم في ركاب الدجال.

وعداء اليهود لأهل الإسلام ورسوله ﷺ إنما كان حسداً وبغياً، حسداً أن تنتقل الرسالة والنبوة من فرع إسحاق إلى فرع إسماعيل، وأن يكون العرب الأميون هم سادة الدنيا بكتاب الله ودينه وشرعه قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن

يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (سورة البقرة: الآية ٩٠).

وهم بدءوا العداوة، واستمروا عليها، ولا يزالون عليها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة المائدة: ٦٤).

ومن ظن أن الحرب والعداوة توضع بين المسلمين واليهود فهو مكذب بوعد الله، ودينه، ومن عمل لإزالة هذه العداوة والبغضاء بين المسلمين واليهود فهو كافر بالله سبحانه وتعالى، فإن أصل الإيمان الحب في الله والبغض في الله، ولا يجوز لمسلم أن يجمع في قلبه بين حب الله والمؤمنين وموالاة أعدائه ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (سورة الممتحنة: الآية ٤).

فلا مودة بين المسلم والكافر إلا أن يصبحا كافرين أو مسلمين.. فإما أن يدخل الكافر في الإسلام فيكون أخاً لنا نحبه ونواليه، وإما أن يخرج المسلم من الإسلام فيكون محباً وأخاً للكافر ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة المائدة: الآية ٥١).

٢) لا دعوة للمسلم إلا إذا ذَلَّ الكافر واستسلم أو كان دفعاً لمفسدة أكبر بارتكاب مفسدة أقل:

الأصل في العلاقة بين المسلمين والكفار هي العداوة والحرب وذلك لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (سورة الأنفال: الآية ٣٩)، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (سورة التوبة: الآية ٢٩) والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً وكلها تأمر أن يباشر المؤمنون القتال حتى يكون خضوع الجميع لدين الله وشرعه إما طوعاً وإما ذلاً وقهراً.

* ولم يسمح الله سبحانه وتعالى لأمة الإسلام أن تدعوا إلى السلم مع الكفار إلا في إحدى حالتين:

أ- أن يذل الكفار ويضعفوا وتخور قواهم ويجنحوا إلى السلم، فعند ذلك يكون السلم في صالح المسلمين لأن عقيدتهم أقوى، وفعلهم أكبر، وبذلك يفتح المجال لدخول الناس في الدين كما كان الشأن بين الرسول ﷺ وقريش، فإن النبي ﷺ بدأ حربهم في بدر ثم أحد ثم الخندق ثم الحديبية، وقد بايع أصحابه على الموت في الحديبية لما أخبر بأن قريش قد قتلت سفيره عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يجنح الرسول ﷺ إلى السلم مع قريش إلا بعد أن جنحوا هم، وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، وهذا لقوله تعالى: ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (سورة الأنفال: الآية ٦١) وكان هذا الصلح والسلام في صالح المؤمنين تماماً فقد دخل أكابر الناس في الإسلام في مدة الصلح.

ب - أن يكون الصلح من باب ارتكاب أخف الضررين فيلجأ المسلمون إليه دفعا لمصيبة أعظم كما هَمَّ الرسول ﷺ أن يصالح غطفان على نصف ثمار المدينة حتى يفك تحالفهم مع قريش، وينفرد النبي ﷺ بقتال قريش بعد ذلك..

أما في غير هاتين الحالتين فإنه لا يجوز للمسلمين الدعوة إلى السلام كأن يكون ركوناً للدنيا وكراهةً للجهاد أو خوفاً من كثرة الكفار، وذلك أن أهل الإيمان يُنْصَرون مع قلتهم على الكفار مع كثرتهم، وهذه سنة الله الجارية أبداً في عباده ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٤٩)، ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (سورة الفتح: الآيتان ٢٢-٢٣)

وأما الدعوة إلى السلم بمعنى ترك الحرب نهائياً، ومصالحة الكفار أبداً ونبذ الحرب والقتال مطلقاً، فهذا كفر بالله تعالى مخرجٌ من ملة الإسلام، وإلغاءٌ لفريضة الجهاد التي جعلها الله فرضاً على كل مسلم إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢١٦) وكتب بمعنى فرض، وقول النبي ﷺ: [لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية] (رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي).

فالجهاد ماض بعد فتح مكة إلى يوم القيامة، وهو إما خروج بالنفس وهذا الفرض العيني، وإما نية دائمة لكل مسلم يجب أن يصحبها دائما، ويموت عليها، فيكون مستعدا لمزاولة القتال في كل حال، قائما به في حالة الوجوب العيني، وإلا أثم إذا ترك الفرض العيني.

٣) لا يجوز للإمام المسلم أن يشترط في صلحه مع الكفار شرطا يخالف الكتاب والسنة ودين الإسلام:

معلوم من الإسلام ضرورة أنه لا يجوز للإمام والقائد المسلم في صلحه الجائز مع الكفار أن يشارطهم على شيء يخالف القرآن والسنة.. وكل شرط يخالف هذه الأصول فإنه يقع باطلا.

فالشروط التي يجوز إشتراطها مع الكفار هي الشروط الجائزة فقط، كعقد هدنة للحرب سواء كانت مؤقتة بوقت محدد، كما صالح الرسول - ﷺ - قريشا على وضع الحرب عشر سنين، أو كانت غير مؤقتة بوقت محدد كما صالح الرسول ﷺ اليهود في المدينة ووادعهم دون تحديد هذا بزمن معين.

فالهدنة والصلح شرط جائز يجوز للإمام المسلم إبرامه مع الكفار، وكذلك مصالحتهم على شيء يدفعونه للمسلمين أو شيء من المال يدفعه المسلمون اضطراراً أو نحو ذلك من الشروط الجائزة.

وأما الشروط الباطلة فمثالها أن يشارطهم على أن يتنازل المسلمون عن شيء من دينهم كالصلاة أو الصوم أو الجهاد، أو الحكم بما أنزل الله، فإن هذا ومثله كفر بالله تعالى، وتبديل لشرعه ودينه، وترك من المسلمين لدينهم وعقيدتهم من أجل إرضاء الكفار وهذا كفر بالله تعالى.

وكل معاهدة وصلح بين المسلمين والكفار تتضمن شروطاً باطلة فهي باطلة، وإن كان مائة شرط.. بل إن أي شرط في أي عهد أو عقد بين مسلم ومسلم إذا تضمن شرطاً باطلاً ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ فإنه يبطل هذا العقد أو الشرط، وقد قال رسول الله ﷺ: [ما كان من شرط ليس في كتاب الله عز وجل فهو باطل وإن كان مائة شرط. كتاب الله أحق وشرط الله أوثق] (متفق عليه).

ولذلك فإن عقود الربا والزنا، وقتل المسلم والقمار والعقد على كل ما حرم الله سبحانه وتعالى يقع باطلاً، ولا يجوز للمسلم أن يعقد مثل هذا العقد، ولا أن يفي به -وإن عقده- لأنه يقع باطلاً، ولا يجوز الوفاء به.

ثانيا: الاتفاقيات التي عقدت بين بعض الساسة العرب واليهود باطلة للحيثيات والمبررات الآتية:

بعد المقدمات الضرورية السابقة نقول بأن الاتفاقيات الثلاث التي عقدت بين اليهود وبعض الساسة العرب هي اتفاقيات ومعاهدات باطلة شرعا لايجوز للمسلم اعتقاد صحتها، ولا تنفيذ شيء منها إلا مكرهاً مجبراً فيما يجوز فيه الإجبار والإكراه، وأما ما لا يجوز فيه الإجبار والإكراه فلا يجوز الالتزام به، كقتل المسلم فإنه لا إجبار فيه لأن نفس القاتل الذي يدعي الإجبار ليست بأنفس من نفس المقتول.

الأدلة على هذا الحكم ما يلي:

١) في هذه المعاهدات.. وضع الحرب إلى الأبد بين المسلمين واليهود وهذا شرط باطل:

لا يجوز للمسلم أن يشارط الكفار يهوداً كانوا أو غيرهم على وضع الحرب إلى الأبد بين المسلمين وبينهم، فإن القتال فريضة قائمة إلى يوم القيامة، ولا يجوز إلغاؤه من التشريع، ومن اعتقد عدم وجود الجهاد، أو سعى إلى إلغائه أو إبطاله فهو كافر بالله سبحانه وتعالى كفراً مخرجاً من ملة الإسلام، ومكذباً بمعلوم من الدين ضرورة. فالقتال فريضة ماضية إلى يوم القيامة وقد قامت أدلة القرآن والسنة وإجماع الأمة على ذلك في كل عصورها، ولكن يجوز وضع الحرب فقط لسنوات محددة أو وضع الحرب دون تحديد سنوات.

أما النص على أن الحرب انتهت بين المسلمين والكفار، وأن هذا عهد للسلام الدائم والشامل فهو إبطال لفريضة الجهاد وإقرار للكافر على كفره، ولا يجوز هذا لمسلم أبدا، إلا أن يكفر بالله ورسالاته.

٢) المعاهدات نصت على إزالة أسباب العداوة والبغضاء وإزالة كل نصوص التشريع التي تبقي هذه العداوة. .

وهذا الشرط باطل لأنه يخالف أصل الإيمان الذي يقوم على التفريق بين المسلم والكافر وأن الكافر عدو لله أبدا حتى يسلم ويتخلى عن كفره، وقد حرم الله على المؤمنين موالاة الكفار ومودتهم حتى لو كانوا آباءً أو أبناءً أو أخوةً أو عشيرةً أو أزواجاً كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (سورة المجادلة: الآية ٢٢).

وهذه المعاهدات نصت على وجوب إزالة العداوة وأسبابها مطلقا، بل حرمت الاستشهاد بآيات القرآن وأحاديث السنة التي تؤصل هذه العداوة، وأمرت بحذف أحداث التاريخ التي تذكر تاريخ العداوة بين اليهود والمسلمين، وذلك لسلخ المسلمين عن دينهم وتاريخهم وتراثهم.

٣) هذه المعاهدات أقرت اليهود على ما أخذوه من أرض الإسلام عنوة وغدراً، وهذا لا يجوز:

هذه المعاهدات أقرت اليهود على ما اقتطعوه من أرض الإسلام في فلسطين وهي أرض فتحها المسلمون ودخل أهلها في الإسلام. وأصبحت بذلك من أرض الإسلام التي لا يجوز للمسلمين التخلي عنها. بل يجب على المسلمين القتال لاستردادها من اليهود، ولا شك أن إقرار اليهود عليها وإعطائهم عهداً وصكاً بملكيتها، وأنهم قد أصبحوا أصحابها وملاكها والمتصرفين عليها، وهذا خيانة لله ورسوله ولهذه الأمة، وتفريط فيما ملك الله المسلمين إياه، وما بوأهم من ملك الأرض، وأكبر من ذلك التفريط في المسجد الأقصى الذي رده الله إلى أمة الإسلام إعلاناً بانتقال إمامة الدين، وقيادة الناس إلى أمة الإسلام.

وإقرار اليهود على ملك أرض فلسطين باطل، لأن الكافر لا يجوز إقراره على ملكه الذي نشأ فيه إلا إقراراً مؤقتاً، فكيف يعطى ما كان بأيدي المسلمين ملكاً مؤبداً؟!

إن هذا قرين الكفر والخروج من دين الله، ومثل هذا لا يجوز لمسلم اعتقاده قط، بل يجب الاعتقاد أن اليهود مغتصبون ما ليس لهم، وأن ما تحت أيديهم من أرض فلسطين ليس ملكاً لهم. بل أخذوه بطريق الغصب، والغفلة من المسلمين، ويجب رفع أيديهم القذرة عن هذه الأرض إلى الأيدي الطاهرة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء: الآيتان ١٠٥-١٠٦).

٤) هذه المعاهدات أبرمت عن غير مشورة من المسلمين وكل عقد يهم المسلمين إذا أبرم عن غير رضا ومشورة فهو عقد باطل.

الصلح بين اليهود والمسلمين، وإعطاء اليهود أرض فلسطين أو بعضها ملكاً لهم، هذه قضية تهم كل مسلم لأنها ترتبط بعقيدته وإيمانه، وبالتشريع الذي أنزل الله وأكرم كل مسلم به، وهذه المعاهدات عقدت بواسطة حكام متفرقين كل يزعم أنه يمثل بعضاً من المسلمين في إقليم من أقاليم البلدان الإسلامية (مصر، الأردن، فلسطين..) ولا شك أن هذه المعاهدات لا تلزم أي مسلم في الأرض، لأنها عقدت بمسميات وطنية إقليمية وهذه المسميات في أساسها باطلة لأنها تفرق بين أبناء الأمة الواحدة، والملة الواحدة، وبالتالي فما يعقده أي رئيس من رؤساء المسلمين منفرداً لا يلزم جميع المسلمين في العالم، لأنه لم يفوض نيابة عنهم ولا يجوز له التحدث باسم جميعهم، وبالتالي فإن هذه الاتفاقيات لا تلزم عموم المسلمين، بل ولا تلزم أي فريق منهم، لأن الشعوب الإسلامية لم تستشر في شيء من ذلك وإنما فاجأهم الساسة بما وقعوه وأبرموه، ومثل هذه العقود التي عقدت عن غير مشورة لا تلزم المسلمين.

٥) هذه المعاهدات من عقود الإكراه، وعقد الإكراه لا يجوز في الإسلام:

السبب الخامس في بطلان هذه المعاهدات أنها من معاهدات الإكراه، فالشعوب الإسلامية التي وقع ساستها على هذه المعاهدات فرضوها عليهم بالقوة والبطش والإكراه والإلزام، ولم يستشر فيها أهل الدين من العلماء، وأهل الرأي والخبرة والنجدة والنظر من المسلمين، وإنما أبرمها من لا يقيم وزناً للدين، ولا يميز بين المشروع والممنوع وبين ما يجوز أن يصالح عليه الكفار وما لا يجوز، ثم فرضها

بقوة ما معه من السلاح والقهر، والمسلم المجبور والمقهور الذي قد يظهر أنه راض -وهو مجبور ومقهور- لا أثر لرضاه هنا، ولا لإقراره لأن إقرار المجبور والمقهور لا أثر له في العقود، بل العقد لا بد وأن يكون عن رضا، فشرط صحة العقود في الإسلام هو التراضي حتى بين المسلم والمسلم، فمن باب أولى بين المسلم والكافر، وإذا أجبر المسلم على عقد من العقود فإنه لا يجوز أن يقبل به إلا مجبراً وعليه رفضه عند بدء القدرة على رفضه ولو كان ذلك في قول كلمة الكفر: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(سورة النحل: الآية ١٠٦).

ومن أجل الأسباب السابقة قلنا بأن هذه المعاهدات معاهدات باطلة وقعت يوم وقعت باطلة، والعقد الباطل كأن لم يكن وهي كعقود الربا والزنا والسرقة وقطع الطريق وقتل المسلم، لا يجوز الوفاء بها ولا اعتقاد صحتها.

ومعلوم أنه لا يجوز للمسلم أن يعقد عقداً باطلاً، ولو كان فيه بعض المنافع الدنيوية، فعقد الربا فيه نفع دنيوي لكلٍ من المقرض والمقترض، ولكن منافعه ملغاة لأن الله حرمه، وكذلك عقد الزنا هو منفعة متبادلة بين الزاني والزانية، فالزاني يستمتع ويقضي شهوته، وهي تستمتع وتأخذ أجرتها، وكذلك في عقود الميسر، وبيع الخمر حيث فيها ولاشك بعض المنافع الدنيوية ولكن لما كان الله قد حرمها فإن منافعها الدنيوية تلغى ولا ينظر إليها.

وهذه المعاهدات التي أبرمت مع اليهود إذا احتج محتج بمنافعها الدنيوية، قلتا أن العقد المحرم يقع باطلاً وإن كان فيه بعض المنافع الدنيوية، وجدال من يجادل في منافع الصلح مع اليهود كجدال من يجادل في منافع الزنا والربا والقمار وبيع الخمر... الخ.

والعقود المبرمة مع اليهود أشد بطلاناً من هذه العقود المحرمة، لأنها عقد على إسقاط الجهاد، وإسقاط العداوة للكفار، وإخراج المسلم من الإسلام، وسلخه عن أمته ودينه بل وتاريخه وحضارته. ولاشك أن هذا أكبر إثما من التعاقد على الربا والزنا والقمار وبيع الخمر.

٦) هذه المعاهدات ستفسد دنيا المسلمين وليس دينهم فقط:

قد يجادل في صحة هذه المعاهدات وجواز الأخذ بها من يظنون أنها ستحقق خيراً للمسلمين في الدنيا، وأنها يمكن أن تجعل عند المسلمين فسحة من الوقت ليستعدوا لعدوهم، وقد يقول من يقول ممن باع آخرته بدنياه بأن ثمرات السلام كبيرة جداً، وأن هذا السلام المزعوم سيأتي بالخير والرخاء على شعوب المنطقة كما يقولون. والصحيح أن الفساد الدنيوي والمادي، والآثار الضارة لهذه المعاهدات كثيرة جداً، يربو أضعافاً مضاعفة على ما يلوح ويُظَنُّ من المنافع.

ومعلوم شرعاً أنه لا يجوز للمسلمين أن يعقدوا صلحاً مع عدوهم تربو فيه سيئاته على حسناته، وهذا في الشروط الجائزة، لأن مثل هذا يكون تفريطاً في حق المسلمين، وضياعا لأموالهم، ودنياهم، ومصلحتهم.

وهذا أحد مبطلات العقد مع الكفار كما نص الأئمة على ذلك من حيث أنه لا يجوز إبرام عقد ليس في صالح المسلمين، فكل عقد تزيد خسائر المسلمين فيه على منافعه لا يجوز لهم أن يعقدوه لأنه يكون تفريطاً في حق الأمة، وإعطاء للأعداء بغير سبب للإعطاء، وتقويتهم على المسلمين.

وهذه بعض الخسائر التي تحققت للمسلمين من وراء هذه المعاهدات:

١) أنها تطلق يد اليهود في أموال المسلمين، وتفتح أسواق المسلمين لهم، وترفع الحصار الاقتصادي عنهم، وبذلك تنمو تجارتهم ويستقوون بمال المسلمين على المسلمين، كما فعلوا ذلك في أمريكا وأوروبا فمع أن اليهود قلة في أمريكا بالنسبة لمجموع الشعب الأمريكي إلا أن الدورة الاقتصادية تكاد تكون جمعيها بأيدي اليهود، وبانتالي ملكوا ناصية الحياة في أمريكا، واستعبدوا شعبها، وهذا المصير المؤلم سيكون مصيراً للعرب لو فتح لهم باب الدول العربية ليسيطروا على اقتصادها ويعبثوا بهذه الأمة كما عبثوا بالشعوب النصرانية، وجعلوها في خدمتهم وتحت أقدامهم.

ومما يؤسف له أن الشعوب العربية الإسلامية قد تخلى كثير منهم عن آداب الإسلام وأحكامه، وأصبحوا من الشعوب المسرفة التي تنفق أكثر مما تكسب، ولا تكاد تنتج عشر معشار ما تأكل وتركب وتلبس وتستعمل، واليهود عكس ذلك فهم أمة

مدخرة منتجة عاملة وهذا سيجعلهم في النهاية سادة المسلمين وقادة العرب لأنه ستحول بالضرورة أموال المسلمين لتكون بأيدي اليهود، ويصبح أبناء العرب غداً خداماً لليهود: عمالاً في مصانعهم، وفلاحين في مزارعهم، وموظفين صغاراً في مكاتبهم، وتجاراً بالمفرق لكبار تجارهم، ووكلاء صغاراً لشركاتهم، وخدماً لبيوتهم، وبنائين وعمالاً لعماراتهم.

٢) دخول اليهود ليكونوا عضوا في جسم الدولة العربية والأمة الإسلامية بعد أن نزعوا عنها مسمى الإسلام والعروبة، فالمنطقة العربية الإسلامية قد نزع عنها هذا الاسم وسميت باسم جديد هو (الشرق الأوسط) وهي تسمية تجعل دولة اليهود جزءاً من هذا (الشرق الأوسط) لأن موقعهم فيه، وهذا سيعطى اليهود صفة المواطنة في هذا الجزء من أرض الإسلام، بل والأخوة والصداقة، والجوار، والوحدة في إطار هذا (الشرق الأوسط) الذي قد تقوم فيه وحدة سوق، ووحدة وسياسات وأهداف !! وبالتالي يصبح اليهود جزءا من هذا النسيج، ودخول اليهود إلى الجسم العربي والإسلامي على هذا النحو سيعطيهم حرية الحركة في بث سموم الفرقة والبغضاء بين المسلمين، وينشرون العقائد الزائفة والنحل الكافرة، وكل ما امتازوا به عبر التاريخ في هدم أعدائهم.

إن اليهود هم الساعون في الأرض بالفساد منذ ضلوا عن دين الله المنزل على موسى، ولعنهم الله ولعنوا على ألسنة جميع أنبيائه ورسله بعد موسى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ (سورة المائدة: الآية ٧٨).. ولازال سعيهم بالفساد والإفساد إلى آخر الدنيا، وإلى أن يروجوا للدجال، ويمهدوا الأرض له على أنه الله ملك السموات والأرض فكفار اليهود هم الذين قتلوا أنبيائهم، وسعوا في قتل عيسى ابن مريم، ونجاه الله مكرهم، وسعوا في قتل الرسول محمد ﷺ ونجاه الله مرارا من ذلك. ثم كان موته بأثر السم الذي دسته امرأة منهم، وسعوا في إبطال دين الإسلام، ولا يزال هذا الدين قائما إلى آخر الدنيا رغم دسائسهم، وإلى أن يبيدهم الله بأيدي المسلمين في آخر الزمان.

وهؤلاء اليهود الذين أصبحوا بهذه المعاهدات جزءاً من الوطن الإسلامي العربي

الذي سموه (الشرق الأوسط) ستتيح لهم هذه المعاهدات أن ينفثوا سمومهم في أمة الإسلام، وأن يشعلوا الحروب الداخلية بين المسلمين بهدف تدميرهم وإذهاب قوتهم.. وسيفعلون ذلك آمنين مطمئنين لأنهم قد أصبحوا داخل البيت الإسلامي بعد أن كانوا -بنسبة ما- خارجه.

وغدا لو طبقت هذه الاتفاقات، فلا يوجد مكان يمكن أن يمنعوا منه إلا مكة والمدينة، وأما سائر بلاد الإسلام والعرب فستكون مسرحا لمؤامراتهم وفسادهم.

فهل يقول عاقل إن هذه المعاهدات هي في صالح الإسلام والمسلمين في أمور دنياهم !!

٣) إن حقيقة المنافع التي لوح بها اليهود للمسلمين من وراء هذه المعاهدات إما أنها مضار خالصة، أو شيء تافه لا يقوّم بما أخذوه وحصلوا عليه، فالتخلي عن حرب اليهود وعداوتهم هو مضرة خالصة لأنه ترك للدين، وإبطال للشرائع وهذا ضرر محض على المسلم، وأما أن السلام سيجلب المساعدات من الكفار للمسلمين فهذا ضرر كذلك لأن الكافر لا يساعد المؤمن مجاناً، ولا من أجل وجه الله، ومساعدات الكفار للمسلمين مشروطة بشروط من الذل والعار وترك الدين، وهدم الإسلام، وحرب الصالحين لا يرضاها من يخاف الله ويتقيه، وإما أن تكون قروضا يرتهن فيها المسلمون لأعدائهم، ويقع المسلمون بها في شباك الربا المركب الذي يرهن اقتصادهم وثروتهم بالكفار وهذا ما فعله الكفار في بلاد المسلمين.

وأما ما سموه بالحكم الذاتي للفلسطينيين فهو نوع من الذل والإهانة حيث تصبح الأرض لليهود، وللفلسطينيين حكم أنفسهم في بعض شئونهم على أرض اليهود وليس على أرضهم!!

وقد كان أولى أن يعيش أهل فلسطين في أرض فلسطين، وهم يعتقدون أنها أرضهم المغتصبة خيراً من أن يعيشوا على أرض فلسطين وهم يعتقدون أنهم قد تنازلوا عنها لليهود، وقد أصبحت أرضا لليهود!! ولأن يحكمهم اليهود بالقهر في جميع أمورهم، وهم كارهون معادون لهم خير من أن يحكموا أنفسهم في بعض الأمور الصغيرة ويتركوا كل الأمور الخطيرة بأيدي اليهود طوعاً وتنازلاً من الفلسطينيين لهم.

والخلاصة:

أن الخسائر الدنيوية والمفاسد العاجلة لهذه المعاهدات لا تحصى كثرة مع منافع إما أنها موهومة كالأمن والرخاء، وأما أنها قليلة عديمة المنافع، وفي المقابل تخلى المسلمون لليهود في هذه المعاهدات عن دينهم وعزتهم وكرامتهم وأرضهم ومقدساتهم... فأي كسب يعدل هذه الخسائر؟!!

ثالثا: الواجب على المسلم تجاه هذه المعاهدات:

والآن نأتي إلى السؤال الأهم وهو: ما الواجب اليوم على المسلم تجاه هذه المعاهدات؟

والجواب:

١) الواجب الأول هو اعتقاد بطلانها وأنها لما تضمنته من الشروط الباطلة وقعت باطلة، وولدت يوم ولدت ميتة، لأن المسلم لا يجوز أن يشارط الكفار على ترك الجهاد وإسقاط فرضه، ولا على ترك عداوة اليهود، وإيجاب محبتهم ومودتهم، فإن هذا مخرج من الملة، وتضمنت كذلك وجوب حجب آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ التي تعلن هذه العداوة لليهود وهذا تواطؤ مع الكفار على كتمان الدين والعلم وتعطيل آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ التي تبين حقيقة العلاقة الواجبة مع اليهود، وهذا في حقيقته إخراج للمسلمين من الإسلام، وسلخ للأمة عن عقيدتها وتاريخها.

ولما كانت هذه المعاهدات قد تضمنت هذه البنود، ونصت نصا صريحا عليها فإنها بذلك تعد باطلة ولا يجوز للمسلم اعتقادها.

٢) الواجب الثاني أن يعتقد المسلم أن هذه المعاهدات لا تلزمه، ولا يجوز له تنفيذ شيء من محتواها إلا إجباراً وضرورة فيما يجوز فيه الاضطرار...

وذلك لما سلف من تضمنها للشروط الباطلة، ولأنها عقدت عن غير رضا منه

ومشورة من أهل الدين والعلم والرأي، ولأنها ستفسد دينه ودين أبنائه وذريته، وتفسد كذلك دنياه.

٣) الواجب الثالث هو العمل على إسقاطها، وشأنها في ذلك شأن كل منكر وجد على أرض الإسلام يجب إنكاره وفق شروط وضوابط إنكار المنكر من الاستطاعة، وألا يترتب على ذلك منكر أكبر منه، وألا تنكر منكرا بمنكر.

٤) والواجب الرابع اعتقاد أن اليهود ما داموا متمسكين بدينهم الباطل، ومحاربين للإسلام وأهله فهم أهل أمة قد غضب الله عليها، ويجب حربهم ومقاومتهم ما ظلوا على مسلكهم في حرب الإسلام والكفر به، والعدوان على المسلمين، إن بغضهم دين يجب على المسلم أن يدين الله به.

٥) وجوب توحيد الأمة نحو هذا الهدف في القضاء على علو اليهود في الأرض، وبطشهم بالمسلمين وأسرهم لمسرى رسول الله ﷺ والمسجد الأقصى.

٦) الاعتقاد بأن اليهود ما تمكنوا وعَلَوْا في الأرض على هذا النحو إلا بعد أن ألغي الإسلام من دين الدول العربية ودساتيرها وتشريعها ـ إلا ما رحم الله- وحلت الدعوات القومية واللادينية محل الإسلام، وتصدر لهذه القضية اللادينيون الذين حاربوا اليهود تحت شعارات غير الإسلام، وعزلوا الإسلام عن هذه القضية ثم لما فشلوا ـ وهذه سنة الله في خلقه - وأعلنوا سِلمَهم الذليل، وارتموا تحت أقدام اليهود، جعلوا هذا منتهى الحكمة والعقل. فخابوا في حربهم، وأذلهم الله وأخزاهم في الدنيا قبل الآخرة، ببعدهم عن الدين ونبذهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن أجل ذلك فلا انتصار في هذه القضية ولا إزاحة لليهود عن صدر الأمة.. وإنهاء علوهم في الأرض إلا بالإسلام عقيدةً ومنهجاً وجهاداً.

٧) دعاء الله سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً أن يجمع كلمة أهل الإسلام، وأن يوحد صفوفهم وأن يردهم إلى دينهم، وأن يهيىء لهم الأسباب للنصر على عدو الله وعدوهم.

والحمد لله رب العالمين.

كتاب

أولويات العمل الإسلامي في الغرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين سيدنا ونبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، ونذيراً وبشيراً للناس أجمعين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعد، ، ، ،

فهذا بحث متواضع كتبته على عجلة من أمري، حول أولويات العمل الإسلامي في الغرب، وقد ضمنته القضايا الأساسية التي يجب أن تولى العناية، ويبذل لها الاهتمام من الأقليات الإسلامية التي تعيش في بلاد الغرب خاصة، وفي بلدان العالم عامة، وكذلك الواجب على المسلمين في كل مكان الذين يعيشون أكثرية عددية في أقطارهم نحو إخوانهم الذين ابتلوا بحياة الاستضعاف ويتعرضون إلى الفتنة في الدين، وخطر التذويب والانسلاخ من الإسلام، أو أخطار الإبادة والطرد والتشريد. .

والله أسأل أن يجعل هذا خالصاً لوجهه وأن يوفقنا جميعاً إلى مرضاته، وأن يرد إلى أمة الإسلام عزّها ومكانتها في الأرض كلها لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى إنه هو العزيز الحكيم.

وكتبه

عبدالرحمن بن عبد الخالق

الكويت في ٢٩ من محرم الرام ١٤١٤هـ

١٨ من يونيو ١٩٩٣م

تعريف وتحديد

المقصود بالغرب في هذه الدراسة هو: أوروبا، وأمريكا، ويمتد هذا المفهوم كذلك للمستعمرات التي تقع في الشرق، ونزح الأوروبيون إليها وجعلوها وطناً لهم، وأصبحوا الأغلبية السكانية فيها كأستراليا.

والمقصود بالأولويات في هذه الدراسة هو: بيان القضايا الأساسية التي يجب أن يتوجه إليها اهتمام الجاليات الإسلامية التي تعيش في هذه البلاد.

وكذلك الواجبات الملقاة على المسلمين في بلاد الإسلام نحو إخوانهم الذين يعيشون في بلاد الغرب.

وهذه الأعداد الكبيرة من أبناء الإسلام التي تعيش في الغرب تتعرض بحكم حياتها في بلاد الكفار، وفي ظل القوانين اللادينيّة، والمجتمعات البعيدة عن الإسلام إلى خطر التذويب والمحو والانسلاخ عن الدين الإسلامي عقيدة وشريعة، ولما كان الواجب على أهل الإسلام جميعاً أن يتنادوا لنصرة الإسلام في كل مكان، ويعملوا لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها، وأن يتواصوا بالحق، والصبر بعد الإيمان والعمل الصالح، فإن هذه الدراسة هي من هذا الباب، نصرة لقطاع كبير من الأمة الإسلامية يعيش حياة الاستضعاف.

الباب الأول

مقدمات

١ ــ أهداف الرسالة الإسلامية الخالدة الخاتمة:

أرسل الله رسوله محمداً ﷺ بالهدى، وبيّن الحق، من أجل أهداف، وغايات عظيمة، ونستطيع أن نجمل هذه الأهداف، والغايات فيما يلي:

أ ـ دعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته:

وهذا هو الهدف والغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، من ملائكة، وجن وإنس، وسماوات، وأرض، وما بث فيهما من دابة، فلم يخلق الله شيئاً إلا ليعبده ويوحده جلّ وعلا، كما قال سبحانه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [سورة الحج، الآية ١٨]، وقال سبحانه وتعالى أيضاً عن الملائكة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [سورة الأعراف، الآية ٢٠٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء، الآية ٤٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً..

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتاب كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [سورة النحل، الآية ٣٦]، ورسولنا ﷺ هو خاتم الرسل الذي أرسل الله سبحانه وتعالى لتحقيق هذه الغاية، وهي دعوة الناس جميعاً للدخول فيما خلقهم الله من أجله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

ب ـ إقامة الحجة لله على عباده بالبلاغ المبين:

ولما كان من سنّة الله في عباده ألا يهتدي كل البشر، بل بعض منهم فقط، بل قليل. فإن مهمة الرسول الأولى هي البلاغ فقط للكافرين، والمعاندين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۞ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، الآيات ١٦٣ ـ ١٦٥].

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء، الآية ١٦٥]، أي لئلا يحتجوا يوم القيامة لبقائهم على الكفر أنهم لم يأتهم نذير.. فإرسال الرسل قطع العذر، والحجة التي يمكن أن يحتج بها الكافر والمعاند يوم القيامة.

وقد قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة الشورى، الآية ٤٨]، وقال ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية ١٨]، وهذا في شأنه من الكفار فليس عليه إلا أن يبلغهم فقط، ويخبرهم بالذي أرسله الله به، وماذا يجب عليهم نحو الله سبحانه وتعالى، وماذا ينتظرهم إن هم أصروا على الكفر والعناد؟؟؟.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة الشورى، الآية ٥٤]، فهذه الآية جمعت غاية الرسالة، وموضوعها، وما يترتب على طرفيها الرسول، والمرسل إليه،.. ومهمة الداعي هي البلاغ المبين، ومهمة المدعو هي المسارعة إلى طاعة الله، وطاعة رسوله، فإن تولوا عن ذلك فقد ثبت في حقهم ما رتبه الله على المعاندين، وهو قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [سورة الفرقان، الآية ٧٧]، ـ أي العذاب ـ فالعذاب لازم لكل من بلغته دعوة الرسول، ثم كذب بها.

ج ـ إخراج وتربية أمة مسلمة قائمة بأمر الله:

الهدف الثالث الذي من أجله أرسل الله رسوله محمداً ﷺ هو إخراج، وتربية أمة مسلمة قائمة بأمر الله، مقيمة لحدوده، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة، الآية ٢].

وقد كان هذا تحقيقاً لدعوة إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام، حيث قالا وهما يرفعان أركان البيت في مكة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٢٩].

وقد استجاب الله دعاءهم ببعثه هذا النبي الكريم ﷺ، وأخرج على يده خير أمة أخرجت للناس، كما شهد الله لهم بذلك، حيث يقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١١٠]، ومدحهم في آيات كثيرة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [سورة الفتح، الآية ٢٩].

د ـ جعل دين الإسلام فوق كل الأديان:

والهدف الرابع الذي أرسل الله من أجله الرسول محمد ﷺ، هو جعل دين الإسلام الذين بعث به فوق كل دين إلى يوم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [سورة الفتح، الآية ٢٨]، وقال أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآية ٣٣]، ومعنى يظهره: أي جعله ظاهراً على كل الأديان، أي: غالباً.

وقد حقق الله سبحانه وتعالى ذلك على أتم الوجوه يوم كان المسلمون آخذين بأسباب النصر، والتمكين، فسقطت كل العروش، وتهاوت كل الديانات الباطلة، وعلا الإسلام فوقها جميعاً علواً بالحجة، والبيان أولاً، ثم بالسيف، والسنان ثانياً.

هذه باختصار هي الأهداف التي من أجلها أرسل الله محمداً ﷺ.

٢ ـ وجوب تميز الأمة الإسلامية عن أمم الكفر:

وقد أوجب الله على أمة الإسلام أن يتميزوا بعقيدتهم، وصراطهم المستقيم عن أمم الكفر جميعاً كما علمنا الله سبحانه وتعالى أن تقول في كل ركعة من ركعات الصلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة، الآيات ٦ ـ ٧]، .

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: [**اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**] ولما كانت عقيدة الإسلام التي بعث الله بها محمداً ﷺ هي العقيدة الحقة، وهي ذات العقيدة التي بعث بها جميع الرسل والأنبياء، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وترك كل ما يبعد عن دين الله.. وكان اليهود والنصارى قد غيّروا وبدّلوا الدين الذي بعث به موسى وعيسى عليهما السلام، فإن الله أوجب على أهل الإسلام ألا يتبعوا إلا ما جاءهم عن الله سبحانه وتعالى، وأمر الله رسوله أن يدعو أهل الكتاب للدخول في الدين الحق، دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٦٤]، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٥].

وقد شرع الله سبحانه وتعالى لأهل الإسلام أتباع محمد ﷺ شريعة خاصة بهم في كل شأن من الشؤون، وعبادة أو معاملة أو حداً.

ونهى الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام أن يأخذوا دينهم إلا مما أوحاه إلى رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٨].

وعلى هذا فلا يجوز لأهل الإسلام أن يأخذوا دينهم إلا مما أوحاه الله على رسوله وعبده محمد ﷺ، إذ هو الحق الذي لم تشبه شائبة ولم يتعرض لتحريف، أو تغيير، أو تبديل، كما قال ﷺ: **[لقد جئتكم بها بيضاء نقية]**.

وقد حفظ الله سبحانه وتعالى هذا الدين القويم من أن تناله يد التحريف والتبديل، والقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله إلى اليوم كيوم نزل، والسنة النبوية المطهرة محفوظة كذلك بحفظ الله الذي هيأ لها الحفظة الأمناء الذين نقولها كما رأوها، وسمعوها من رسول الله ﷺ.

والخلاصة أنه لا يجوز للمسلمين طلب الهدية مما بأيدي اليهود والنصارى ولو نسبوه إلى كتبهم المنزلة لأنه لا يؤمن تحريفهم وكذبهم على الله، ومن أجل ذلك نهى رسول الله عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن القراءة من التوراة لما رآه يقرأ منها شيئاً أعجبه، فقال رسول الله ﷺ: **[أبهذا وأنا بين أظهركم لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو أن موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني]**.

وعنه ﷺ أنه قد جاء بالدين الكامل الذي لم تدركه شائبة من تزيد أن تنقص، والذي نسخ الله به شرائع الأنبياء السابقين عليه، ولو أن رسولاً منهم وجد بحضرة النبي محمد ﷺ فإن الواجب عليه حينئذ أن يتبع ما جاء به محمد ﷺ، ولا يحكم بالشريعة التي أنزلت عليه، ومن أجل ذلك فإن عيسى عليه السلام متى نزل من السماء

حكم بشريعة القرآن، ولم يحكم بشريعة التوراة، والإنجيل، وهذا في مجال الهداية بالأديان السابقة المنزلة من الله سبحانه وتعالى.

وأما في مجال الاهتداء، أو التأسي، أو التعليم، أو المشاركة، للمشركين، والكفار في شيء من دينهم الباطل، أو عقائدهم الضالة التي جاء الإسلام بإبطالها فإن هذا كفر يخرج من الدين، فمن عظم ديناً غير دين الإسلام فقد كفر، ومن عبد غير الله فقد كفر، ومن اعتقد عقيدة تخالف عقائد الإسلام فقد كفر، وهذا لأن الحق لا يتعدد..

فتعظيم الصليب كفر، وتعظيم شعائر الكفر، كفر، أيّاً ما كانت هذه الشعائر أعياداً، أو مظاهر، أو طقوساً، أو احتفالات.

وقد أمرت هذه الأمة أن تتميز عن أمم الكفر في كل مناهجها وشرائعها، ومظاهرها وعاداتها، كما قال ﷺ: [**بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، ومن تشبه بقوم فهو منهم**]. ولا شك في أن هذا التمايز والتغاير بين أمة الإسلام وأمم الكفر، سيمكنها من أن تحافظ على دينها، وعقيدتها ولا تذوب في الكفار، ويدخل إلى دينها وتشريعها ما ليس منه.

٣ ـ أسباب وجود الجاليات الإسلامية في الغرب:

لقد كانت هناك أسباب كثيرة لنشأة الجاليات الإسلامية في الغرب: (أوروبا، وأمريكا)، فالفتح الإسلامي في عهد الأمويين للأندلس كان أول انتقال للإسلام إلى أوروبا من جنوبها الغربي، وقد وصل المسلمون آنذاك إلى جنوب فرنسا ثم كان الفتح العثماني لشرق أوروبا حيث وصل العثمانيون إلى مدينة فينّا عاصمة النمسا، وكان هذا هو الدخول العزيز للإسلام هناك، وقد أدى دخول العثمانيين إلى شرق أوروبا إلى انضمام عدد كبير من أهل دول البلقان (شرق أوروبا) إلى الإسلام بعدما فتح الأتراك العثمانيون هذه البلاد ومكثوا فيها زمناً طويلاً، ثم أجبروا أن يخلوا عنها بعد الحرب العالمية الأولى، ومأساة شعب البوسنة والهرسك التي نعيشها اليوم هي نتيجة لانحسار المد الإسلامي عن هذه الرقعة من أرض أوروبا، وبقاء تلك الأقليات

الإسلامية في هذا المحيط الأوروبي الصليبي المعارض للإسلام.

ثم قد كان المسلمون هم أول من اكتشف أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبس (بكل فخر واعتزاز، يذكر المسلمون أن أجدادهم الأوائل كانوا قد اكتشفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبس Columbus بفترة طويلة، وذلك عندما قطعوا المحيط الأطلسي من الأندلس سنة ١١٥٠ م، ووصلوا إلى ما يعرف حالياً بالبرازيل، بل إن المؤرخ المسلم الشريف الإدريسي يذكر أن اكتشاف المسلمين لهذه القارة كان قد تم قبل هذا التاريخ، وذلك عندما أبحر ثمانية من المسلمين من لشبونة في القرن العاشر الميلادي، ومحاولين اكتشاف ما وراء بحر الظلمات، وهو الاسم الذي كان يطلقه المسلمون على المحيط الأطلسي، إلى أن نزلوا في أمريكا الجنوبية، ويؤكد هذا الواقع مستشرقون كبار، وفي كتابه (العرب في أمريكا) The Arabs In America يذكر مهدي Mehdi أنه سنة ١٥٣٩ م اكتشف فراماركوس دي نايز Fra Marcos Nize المناطق المعروفة اليوم باسم نيو مكسيكو New Mexico وأريزونا Arizona، وكان مرشده في ذلك مسلم مغربي اسمه أسطفان، ولقد راح أسطفان ضحية سهم من أحد الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين، الذين لم يكونوا قد رأوا الرجل الأبيض بعد. (د. كمال نمر/ أصول التربية الإسلامية في أمريكا جملة البحوث الإسلامية ـ صفحة ٢٤٣)، ولكن الأوروبيون هم الذين سبقوهم بالهجرة إليها، وإقامة مستوطناتهم فيها، والمسلمون الذين هاجروا إلى أوروبا وأمريكا، كانوا في عامتهم مهاجرون من أجل الدنيا، أو فراراً بالدين، فالهجرة من بلاد الإسلام إلى أوروبا وأمريكا منذ مطلع القرن العشرين، كانت أهدافها دنيوية، وقليل منها كان بسبب الاضطهاد من الحكومة الثورية والأحكام الاستبدادية.

وعلى كل حال، فالهجرة إما أن تكون واجبة كالفرار بالدين من البلد الذي يضطهد فيه المسلم، فيفر إلى بلد آخر يأمن فيه على نفسه، ودينه، وإما أن تكون مستحبة كالهجرة لطلب العلم الشرعي، ونصرة الدين، وإما أن تكون مباحة وهي الهجرة لطلب الدنيا، والسفر من أجل الرزق، وإما أن تكون حراماً إذا كانت إلى بلد لا يستطيع فيها المسلم أن يقيم شرع الله، وإما أن تكون ردة وكفراً إذا التحق المسلم

بالكفار وترك دينه وعقيدته، وباع دينه بالدنيا. ولا شك أنه يوجد من المسلمين في بلاد الغرب من هجرته واجبة، ومن هجرته مباحة، ومن هجرته إثم وحرام، ومن هجرته ردة وكفر.

وعن جواز الهجرة إلى بلاد الغرب يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز:

«ومتى عجز المسلم عن إظهار دينه في بلد إقامته، بحيث لا يأمن على دينه وعرضه وماله، فإنه يجب عليه الهجرة إلى بلاد آمنة يستطيع أن يؤدي شعائر دينه بأمن وراحة بال عملاً بالآيات، والأحاديث الواردة في ذلك» (في كلمة بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي، مجلة البحوث الإسلامية ـ العدد السادس ـ ٣٤٦).

٤ ـ مستقبل الإسلام في الغرب:

يتناقض موقف الباحثين والدعاة الإسلاميين، حول مستقبل الإسلام في الغرب، فبينما يرى جمهور منهم أن الإسلام سيشرق على العالم كله من جديد، من أوروبا، وأن الغرب سيعود إلى الدين الإسلامي حتماً، وسيمكنه رقيه المادي، والحضاري من نشر رسالة الإسلام في العالم، وإخضاعه تحت سلطان الإسلام. . . فبينما يرى بعض الدعاة والباحثين المسلمين ذلك، يرى آخرون أن الغرب عاش وثنياً صليبياً، وأنه سيظل كذلك، وأن رسالة الإسلام لا يمكن أن تنطلق من هذا المستنقع الآسن.

فهذا مثلاً ـ الأستاذ/ إسماعيل راجي الفاروقي ـ أستاذ الإسلاميات، وتاريخ الأديان ـ بجامعة ثمبل فيلادلفيا ـ في الولايات المتحدة ـ يرى أن أمريكا ستتحول يوماً إلى الإسلام حيث يقول: «حقاً إن أعظم فتح في التاريخ لهو الفتح الذي يدخل أمريكا في الإسلام، ولكن هل فتح هذا ممكن؟ هل يجوز لنا أن نأمل أن أمريكا، بكل ما لها من سلطة وديناميكية، بكل ما فيها من خيرات كانت بالفعل أم بالقوة، ستدخل يوماً ما في الإسلام، وتصبح ركناً من أركان دار الإسلام؟ هل يجوز لنا أن نتطلع إلى اليوم الذي يدخل فيه الشعب الأمريكي بمئات ملايينه في الإسلام فتصبح أمريكا دولة إسلامية وأرضاً تعلو فيها كلمة الله وشعباً يجاهد في سبيل الله، ويسير في خطى

رسوله الكريم ﷺ؟ نعم، بالتأكيد هذه الرؤيا ليست فقط مرغوبة بل هي ممكنة بل ضرورية» (مجلة البحوث الإسلامية ـ العدد الثاني ـ صفحة ٥٩١).

ولكن رجلاً آخر من العاملين في الحقل الإسلامي في أمريكا، والذي نال شهادة الدكتوراه في التربية من جامعاتها لعام ١٩٨٣ م، ويعمل في الأكاديمية السعودية في واشنطن وهو د. كمال كامل عبد الحميد نمر يقول: «أما أولئك الذين يطمحون أن تقام دولة الخلافة الإسلامية في أمريكا، وأن تنطلق راية الجهاد من هناك، فقد ضلوا الطريق، ذلك أن بالرغم من الحرية التي يعتقد المسلمين أنهم يتمتعون بها في أمريكا، لأنهم حرموا منها في كافة ديار الإسلام، فإن انطلاق دولة الإسلام من ذلك المستنقع لا يعدو أن يكون مجرد حلم لذيذ» (مجلة البحوث الإسلامية ـ عدد ٢٢ ـ صفحة ٢٥٠).

وبينما يعتمد الأستاذ الفاروقي في رؤياه أن أمريكا ستكون بالضرورة بلداً إسلامياً على إفلاس المسيحية، ثم إفلاس المادية أن تقدم للأمريكي تفسيراً صحيحاً للحياة منهجاً نظيفاً على الأرض، وبالتالي فإنه لا بد أن يحل الإسلام، فإن الدكتور كمال نمر يعتمد في رؤياه إلى استحالة قيام حكم، ونظام إسلامي في أمريكا لأن هذا المستنقع الآسن وهذه الشعوب الغارقة في الإثم، والفاحشة، والمادية من العسير أن تعرف طريقها إلى السماء.

ويقول د. كمال عبد الحميد نمر الحاصل على الدكتوراه في التربية من الولايات المتحدة: «إن انطلاق دولة الإسلام من ذلك المستنقع لا يعدو أن يكون مجرد حلم لذيذ» (أصول التربية الإسلامية في أمريكا ـ د. كمال عبد الحميد).

ويقول الداعية محمد وجدي الخالد، رئيس مركز الأنصار في ألمانيا: «إنطلاق الإسلام من الغرب هو مجرد سراب أو حلم يحلم به بعض الدعاة الذين ليس لديهم معرفة واسعة بالغرب، حيث يرددون باستمرار عبارة كنت أسمعها في ألمانيا، ثم أصبحت أسمعها في الدول العربية، وهي قولهم بأن الإسلام سينطلق من الغرب. . . ومن جهتي أقول إن الغرب كان معقلاً للنصرانية، وعاد كذلك. . . وعقلاؤهم يؤيدون مبدأ التعايش السلمي مع الأديان الأخرى» (من تقرير عن وضع المسلمين في

أوروبا، مرفوع إلى جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت).

إن الأمور التي تحدو بكثير من الدعاة الإسلاميين أن يعتقدوا أن الغرب قد أصبح قريباً جداً من الإسلام، هي رؤيتهم أن الغرب قد أصبح على شفا الكارثة الأخلاقية والاجتماعية، وأنه قد وصل القاع، ولا بد أن يبحث عن مخرج ولا مخرج له إلا بالإسلام، وكذلك رؤيتهم تحول كثير من مفكري الغرب إلى الإسلام، ومحاولاتهم تقديم الإسلام ليكون بديلاً لنظام الحياة السائد في الغرب، ومن هؤلاء المفكرين العظام الذين قاموا بتقديم الإسلام للغرب د. مراد هوفمان ـ سفير ألمانيا في الرباط ـ والذي كتب كتابه الفذ (الإسلام هو الحل البديل)، وقد أثار هذا الكتاب زوبعة كبيرة في ألمانيا والغرب، ويقول د. مراد: «إنني أعتقد أن حركة تجديد الإسلام ستأتي في القرن الحادي والعشرين من أوروبا» (د. مروان هوفمان ـ الإسلام هو الحل البديل ـ صفحة ٢٤٧)، ومن قبله كان إسلام روجيه جارودي حدثاً عالمياً هز أوروبا إذ رأوا تحول عالم كبير من أعلام الماركسية والعلم المادي إلى الإسلام إنقلاباً هائلاً. .

وأما الذين يرون أن الغرب سيبقى على كفره وعناده وحربه للإسلام وصليبيته، فهو رؤيتهم للواقع السحيق، والإباحية، والكفر، والعناد الذي يعيش فيه الغرب، وأن نداءهم للإسلام إنما هو نداء من مكان بعيد: ﴿ أُوْلَتَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٤٤].

وأن صيحة الإسلام مهما علت فإن آذان الغرب صماء عن سماعها، وأن التراكمات الهائلة في فكر الغربي، والشبهات الكثيرة التي تملأ ذهنه عن الإسلام تجعله بعيداً كل البعد عن أن يسمع لنداء الحق.

وأقول أياً كان الأمر، فإن المسلمين مأمورون بحمل الدعوة إلى كل مكان، ودعوة الناس جميعاً إلى الدخول في الدين الحق والرسالة الخاتمة إلى أهل الأرض ونصر الله للإسلام لا يعرف من أين يأتي؟ وقد أنزل الله رسالة على العرب وهم أهل أمة لم يكن أحد يأبه بوجودها أو فقدها، ثم كان من شأنهم أن جعلهم الله سادة الدنيا وحديث العالم، ولما تخلوا عنها يوماً فإن عبيدهم ومماليكهم قاموا يوماً بنصر الإسلام، ثم قام الأتراك، وكانوا مجموعة من القبائل الرحل الذي لم يكن لهم شأن

ولا ذكر، ثم أصبحوا سادة الدنيا بالإسلام قروناً متطاولة والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٠]، وهو القائل سبحانه وتعالى للعرب: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد، الآية: ٣٨].

وعلى كل حال، فإن في الغرب اليوم ملايين المسلمين الذين وجدوا فيه لما أسلفنا من ظروف وأحوال وأسباب وواجب الأمة الإسلامية، نحوهم كبير، وواجبهم نحو أنفسهم كذلك عظيم، كيف يحافظون على دينهم وعقيدتهم وأمنهم وإسلامهم، بل كيف ينطلقون دعاة بهذا الدين..

وهذا هو الذي يجب أن توجه له الهموم، ونترك النتائج بعد ذلك لله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الثاني

الأولويات

١ ـ الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته وحده لا شريك له:

أولى الأولويات التي يجب على المسلمين بالغرب ـ بل في كل مكان ـ التمسك بها هو الإيمان بالله وتوحيده، وذلك أن الإيمان بالله، وعبادته وحده لا شريك له هو الذي من أجله خلقنا الله سبحانه وتعالى، وهو ما يميز المؤمن عن الكافر وما كان هؤلاء المغتربون مسلمين إلا بإيمانهم وتميزهم عن الأمم الكافرة والمشركة التي يعيشون فيها، والإيمان هو طريق الفلاح، وصراط الله المسستقيم، وهو اختيار الله اصطفاه لمن أنعم عليهم من البشر، . . ولذلك فإن من فرط في دنياه، فإنه يكون قد فرط في حياته الحقيقية، وخسر الدنيا والآخرة.

إن قضية الإيمان بالله، يجب أن تكون الشغل الشاغل لكل مسلم، وأن يجعلها هي مدار حياته وثمرة جهاده، ومنتهى أمله، وكل تطلعه، وهذا يعني أن يبيع كل شيء من أجلها، وأن يضحي بكل عزيز لينالها، ويحافظ عليها، وأن يترك كل شيء يتعارض معها ولو كان الأهل، والوطن، والمال، وكل عزيز.

ويكون الحفاظ على الإيمان بالله وتوحيده بما يأتي:

أ ـ بتعلمه:

الإيمان بالله علم وتصديق وعمل بمقتضى هذا العلم. . وأركان الإيمان ست هي: (الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره

وشره من الله تعالى)، وكليات هذا العلم، يجب على كل أحد تعلمها، والتفقه فيها وتعليمها ناشئة المسلمين ذكروا وإناثاً.

ويجب أن يكون ذلك كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، وكما كان اعتقاد الصحابة رضوان الله عليهم، لأنهم المشهود لهم بالخير، والذين رضي الله عنهم وأرضاهم، وأعز بجهادهم الإسلام.

وهذه أهم القضايا الأساسية لمسائل الإيمان:

وجود الله تعالى:

أن نؤمن أن الله هو الإلّه الحق الذي شهد بوجوده وربوبيته ووحدانية كل موجود.

توحيد الذات:

ونؤمن أنه سبحانه وتعالى بذاته فوق عرشه مستو على النحو الذي يليق بجلاله، كما مدح بذلك نفسه في سبع آيات من كتابه، أن عرشه فوق سبع سماواته.

وأنه سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وأن صفاته كلها ـ كما هي أبدية ـ فهي كذلك أزلية ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء.

وأن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه شيئاً من مخلوقاته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، الآية: ١١]، وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وأنه سبحانه وتعالى لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل فيه شيء من مخلوقاته، وأن كل ما سواه فمخلوق بأمره خاضع لمشيئته.

توحيد الصفات:

وأنه سبحانه الحي القيوم بذاته، المقيم لكل ما سواه، فالعرش والكرسي والسماوات والأرض، وكل ما فيها لا قيام لشيء من ذلك إلا به، ولا بقاء لعرش ولا كرسي ولا سماء ولا أرض ولا ملائكة ولا جن ولا إنس إلا بإقامة الله لهم ورعايته وحفظه... فكل شيء مفتقر إليه..

وأنه سبحانه وتعالى العليم الخبير، الذي يحيط علمه بالأولين والآخرين، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه ما من حركة ولا سكون، إلا وقد علمه قبل وقوعه ويعلمه حلال وقوعه، وأنه سبحانه لا يضل ولا ينسى.

ونؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومليكه والمتصرف فيه، وأنه لا شريك له في ملكه، ولا ظهير له ولا معين له من خلقه.

وأنه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء وتنزه عن الظلم والجور. وأنه سبحانه وتعالى العليم الحكيم، الذي يضع كل أمر في نصابه والذي لا يفعل شيئاً سدى وعبثاً.

ونؤمن أن ربنا سبحانه وتعالى يحب ويرضى، ويفرح ويضحك، وكذلك يسخط ويمقت ويكره ويغضب وفي كل ذلك لا يشبه شيئاً من خلقه.

وأنه سبحانه وتعالى يلطف ويرحم، وينجي عباده المؤمنين، كما أنه يخذل ويعذب وينتقم ويستدرج، ويمكر بعبيده الظالمين.

ونؤمن أنه سبحانه وتعالى يتكلم كما يشاء، كما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٦٤]، وينزل ويقترب من عباده كما يشاء قال رسول الله ﷺ: [**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الآخر**]، وأنه له وجهاً قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٧]، ويداً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [سورة ص، الآية: ٧٥] وقدماً، قال ﷺ: [**فيضع رب العزة قدمه فيها**]، وساقاً قال رسول الله ﷺ: [**يكشف ربنا عن ساقه**]، وأن صفاته سبحانه وتعالى لا تشبه صفات المخلوقين.

ونؤمن أنه سبحانه وتعالى القوي العزيز وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء، ولا يؤده حفظ السموات والأرض، ولا حول ولا قوة لأحد ولا لشيء إلا به سبحانه، وأنه الفعال لما يريد.

ونؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو البر الكريم ذو الفضل والإحسان، الذي ما نعمة إلا هي منه، وما من عطاء إلا وهو عنده، وأنه لا راد لإحسانه ولا ممسك لفضله.

ونؤمن أن الله سبحانه أعظم وأجل من أن يحيط أحد من خلقه علماً به قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طه، الآية: ١١٠] وأنه ليس بعد سلطانه سلطان، ولا بعد ملكه ملك، وأنه لا يستطيع أحد أن يثني عليه كما أثنى هو على نفسه، ونؤمن أنه لا يعلم الله على حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى.

حكمة الخلق:

ونؤمن ونشهد أن الله سبحانه وتعالى ما خلق من ملائكة وجن وإنس وسماوات وأرض، إلا ليعبدوه ويسبحوه، وأنه ما من شيء إلا وهو يسبح بحمده ويقدس له بلسان مقاله أو بلسان حاله.

ونشهد أن كل من تأبى عن تقديس الله وعبادته من ملائكة أو جن أو إنس يطرده الله ويلعنه كائناً من كان، وأن من نازع الله في ألوهيته ودعا إلى عبادة نفسه أو عبادة غير الله يلعنه ويعذبه قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٢٩].

ونؤمن أن العبادة التي لا يقبل الله من أحد غيرها هي الطاعة المطلقة لله سبحانه فيما عقل معناه، وما لم يعقل معناه، مع كمال الذل والخضوع والحب لله سبحانه.

ونؤمن أن الدين الذي لا يقبل الله سواه من ملك أو جن أو إنس هو الإسلام قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٥]، والإسلام هو الاستسلام لله بالطاعة والخضوع.

ونشهد أن سبحانه لما خلق الخلق جعل لكل شيء قدراً ومقداراً ومنزلة، فللملائكة أقدارهم ومنازلهم، وللجن كذلك وللإنس كذلك، وأوجب على كل أحد أن يلزم قدره ومقداره ومنزلته.

ونشهد أنه سبحانه وتعالى أمر الجن والإنس بعبادته، ولم يخلقهم إلا من أجل هذه العبادة، وأنه ابتلاهم بالخير والشر، واختبر طاعتهم، وأن الجن والإنس كذلك، وأوجب على كل أحد أن يلزم قدره ومقداره ومنزلته.

ونشد أنه سبحانه وتعالى أمر الجن والإنس بعبادته، ولم يخلقهم إلا من أجل هذه العبادة، وأنه ابتلاهم بالخير والشر، واختبر طاعتهم، وأن الجن والإنس كل منهم يكسب الخير والشر باختبار نفسه ولكن أحداً منهم لا يوقع الخير، إلا بتوفيق من الله وإعانة، ولا يوقع الشر جبراً على الله ولكن في إطار إذنه ومشيئته.

ونشهد أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من طين هذه الأرض بيديه سبحانه، خلقاً مستقلاً، وأمر هذه جبريل الذي هو روح الله أن ينفخ فيه فصار بشراً بنفخة جبريل، وأن ذلك كان في السماء، وأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس الذي أبى استكباراً وكفراً وعناداً لذلك طرده الله من رحمته، وحذر آدم منه.

ونشهد أن الله خلق حواء من ضلع آدم، وجعلها زوجة له، واختبرهما الله بأن يأكلا من كل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة، فأكلا منها فأهبطهما إلى الأرض ليعمرها بنسلهما جيلاً بعد جيل وليختبرهم فيها بالطاعة والإنابة والإسلام له، فمن أطاع أرجعه إلى الجنة ومن عصى فمصيره إلى النار.

توحيد الألوهية «القصد والطلب»:

ونشهد أنه لا يبلغ عبد التوحيد الخالص إلا إذا كانت محبته ورغبته وخوفه وخشيته وتعظيمه لله عز وجل أعظم من كل مخلوق، وإلا إذا كان توكله على الله وحده، وحسبه لله وحده (الحسب: الكفاية، وحسبي الله ونعم الوكيل، بمعنى الله يكفيني كل ما أهمني).

ونشهد أن الركوع والسجود والذبح والصوم والنذر والحلف كل ذلك لا يجوز إلا لله ومن صرف شيئاً من ذلك لغيره فقد أشرك.

ونشهد أنه لا طواف إلا ببيت الله، وتقبيل ـ عبادة ـ إلا للحجر الأسود، ولا شد رحال ـ عبادة ـ إلا للمسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى.

ونشهد أنه من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى اطلاعاً على الغيب أو اللوح المحفوظ فهو كافر مشرك.

ونشهد أن رسول الله ﷺ حمى جانب التوحيد، وسد كل الذرائع الموصلة إلى الشرك، فحرم بناء المساجد على القبور، ونهانا أن نطريه كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ونهى عن الصور والتماثيل.

ونشهد أن الكرامة حق لعبد صالح مؤمن، وأن خرق العادة قد يكون للفسقة والمجرمين، كما هو للدجالين والكذابين، ومن علم حقيقة الدين استطاع أن يفرق (بين أولياء الله وأولياء الشياطين).

ونؤمن أن لله سبحانه وتعالى الكبرياء العظمة والمجد، وأن سبحانه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ولا يتألى عليه، ولا يتنازع في كبريائه وعظمته ولا يعقب على أمره وحكمه.

توحيد الحكم والملك:

ونؤمن أن أخبار الله كلها صدق، وأحكامه كلها عدل قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٥].

ونشهد ونؤمن أن لله الخلق والأمر، وأن الحكم له وحده، وأنه هو الذي يشرع لعبادته ويأمر وينهى، أن من نازع الله في شيء من ذلك فقد أشرك.

ونشهد أن كل من أطاع سيداً أو أميراً أو حاكماً في غير طاعة الله، مريداً بذلك

راغباً عن طاعة الله، فهو كافر مشرك، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الإيمان بالملائكة:

ويشهد أهل السنة والجماعة، ونشهد معهم ونؤمن بحول الله وقوته:

أن الملائكة خلقهم الله من نور وأقامهم في طاعته وعبادته قال تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيات: ٢٧ ـ ٢٨].

وأن الله سبحانه وتعالى يبعثهم ويقيمهم في أعمال كثيرة عدا التسبيح والتحميد له، كإرسال رسالاته إلى رسله من البشر، وتثبيت المؤمنين في القتال وإحصاء أعمال الناس خيرها وشرها، وحفظ البشر من الحوادث التي لم يرد الله أن يصابوا بها، وقبض الأرواح وسوق السحاب ونفخ الروح، وغير ذلك مما بينه الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

ونحب الملائكة ونؤمن بهم لمحبتهم للمؤمنين ودعائهم لهم، ولإشراكنا معهم في الإيمان بالله وتعظيمه وتقديسه، ولا نفرق بين ملك وملك كما فعلت اليهود بل نحبهم لطاعتهم لربهم وسيرهم في مرضاته.

الإيمان بكتب الله:

ونشهد ونؤمن أن الله سبحانه أنزل كتباً وصحفاً على رسله، وأنها جميعاً عند تنزيلها منزهة من العيب والنقص والغلط لأنها كلام الله، ونشهد أن كل الكتب السابقة على القرآن حرّفها أهلها وغيروها، عدا القرآن الذي حفظه الله من التغيير والتبديل وسيبقى كذلك إلى قرب قيام الساعة فضلاً من الله ورحمة حيث يرفعه الله من الأرض.

ونشهد أن القرآن المنزل على محمد ﷺ كلام الله حقاً وصدقاً ليس بمخلوق، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه معجزة حية باقية تحدى الله به

الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة مثله بياناً وبلاغة ومعنى وأحكاماً وأن أحداً مهما أوتي من العلم والفصاحة والبيان لا يأتي بذلك. .

ونشهد أن الله قد أنزل القرآن تبياناً لكل شيء مما يصلح الناس في دنياهم وأخراهم، وأنه لا خلاف بين آياته، أن الله تعبدنا بتلاوته وتدبره، وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه.

الإيمان برسل الله:

ونشهد أن الله سبحانه وتعالى اختار من البشر أنبياء ورسلاً لهداية الناس ودعوتهم إلى طريق الله، وأن أولهم آدم وآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ وأنهم جميعاً إخوانه في الدين، دعاة إلى رب العالمين، وإن اختلفت شرائعهم فعقيدتهم واحدة.

ونشهد أن جميع الرسل معصومون عن الكذب على الله أو الحكم بالهوى، أو الوقوع في الفواحش أو الزيادة والنقص في الدين وأنهم مسددون دائماً من الله في اجتهادهم وأن الله لا يقرهم على خطأ أخطأوه باجتهادهم.

ونشهد أن هؤلاء الرسل بشر مثلنا، خلقوا من طين الأرض، وليس منهم من خلق من نور الله أو نور عرشه، كما يقول كفار المسلمين في شأن نبينا محمد ﷺ، أو من كلمة الله كما يقول كفار النصارى في شأن عيسى، وأنهم يموتون كما يموت البشر، وينسون ويمرضون ويتألمون ويكابدون كما يكابد البشر.

ونؤمن أن الرسل ما شرفه الله إلا لتحقيقهم العبودية لله في أنفسهم فهم أكمل المؤمنين إيماناً وأعظمهم لله خشية، وأعلمهم به وأنه ليس منهم من أحد دعا الناس إلى تعظيمه وعبادته، بل دعوا جميعاً إلى عبادة الله وحده.

ونشهد أن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه ونشروه في الناس وأنهم لم يكتموا شيئاً مما أوحاه الله إليهم.

ونشهد ونؤمن أن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل وسيدهم وأفضلهم عند الله، وأعلاهم منزلة بلغ البلاغ المبين، ولم يكتم شيئاً مما أوحاه إليه رب العالمين.

ونشهد ونؤمن أن أحداً من الناس لا يؤمن إيماناً كاملاً إلا إذا أحب رسول الله أكثر من حبه لأبويه وأولاده ونفسه التي بين جنبيه، وعزر (تعزير الرسول نصره، والجهاد معه والدفاع عن حوزة الدين الذي جاء به) الرسول ووقره واتبع ما جاء به وقدم طاعته على طاعة كل مخلوق.

ونؤمن بشفاعة الرسول العظمى يوم القيامة، حيث يشفع للناس في فصل القضاء، وخروج الناس من المحشر، وحيث يأذن الله له فيمن يشفع فيهم من المؤمنين فيدخلون الجنة.

ونشهد أن شفاعة الرسول حق لعصاة المؤمنين، ونقر ونشهد أن الرسول لا يشفع إلا لمن أذن الله له.

ونؤمن أن محمداً ﷺ قد أرسله الله إلى الناس كافة عربهم وعجمهم منذ بعثته وإلى قيام الساعة، وأنه رسول الله إلى الإنس والجن جميعاً.

ونؤمن أن رسول الله ﷺ قد ثبتت له المعجزات الباهرة والبراهين الناصعة على صدقه وأمانته، فقد أنزل عليه القرآن المعجز، وأسرى به إلى القدس من مكة في ليلة واحدة، ويشهد المؤمنون أنه عرج به إلى السماء في ليلة الإسراء، وشاهد الملائكة والمرسلين وكلمهم وكلمه الله سبحانه وتعالى وأكرمه وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة.

ونشهد أن الرسول ﷺ قد نبع الماء من بين أصابعه وأطعم المئات من الناس بطعام لا يكفي العشرات، وحن الجذع إليه، وسبح الحصى والطعام في يديه، واشتكى إليه البعير.

ونؤمن بما فضل به محمداً ﷺ على الأنبياء، وما خصه به من النصر بالرعب، وإحلال الغنائم وجوامع الكلم (أي أن الكلام اختصر له اختصاراً فيستطيع أن يعبر عن المعاني الكبيرة بجمل قصيرة)، وجعل الأرض مسجداً وطهوراً، وبعثه إلى الناس كافة، وختم النبيين به، ونشهد أن حوض الرسول حق، ونسأل الله أن يسقينا منه.

الإيمان باليوم الآخر:

ونؤمن أن الله قد جعل لكل نفس أجلاً وللحياة على الأرض أجلاً تنتهي فيه بالنفخة الأولى في الصور، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى فيقوم الناس لرب العباد لفصل القضاء بينهم.

ونشهد أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وباقيتان أبداً وسرمداً، وأن أهل الجنة داخلوها ولا شك يوم القيامة وأهل النار مواقعوها ولن يجدوا عنها مصرفاً.

ونشهد أن الله يخرج عصاة المؤمنين من النار الذي يدخلونها بسبب معاصيهم التي لم يغفرها الله لهم، ولم يكفرها عملهم الصالح.

ونؤمن بأن نعيم الجنة حق فإنه نعيم حسي ومعنوي، وأنهما كما وصف الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

ونشهد أن أهل الجنة واجدون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ونسأل الله أن يجعلنا منهم، وأهل النار واجدون فيها من العذاب والآلام ما لم يخطر ببالهم، وأكبر مما توهمه عقولهم قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [سورة الفجر، الآيات: ٢٥ ـ ٢٦]، ونسأل الله ألا يجعلنا معهم.

ونؤمن بأن من مات من أهل الجنة فإنه ينعم في قبره، ومن مات من أهل النار فإنه يعذب فيه فنعيم القبر وعذابه حق، وسؤال الملكين في القبر بعد الدفن حق.

ونؤمن ونشهد أن بيننا وبين الساعة علامات كبرى وصغرى، ذكر الله بعضها في كتابه وفصلها الرسول ﷺ في خطابه، وأن من العلامات الكبرى الدابة، والدجال، ويأجوج ومأجوج، ونار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر، ونزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء في دمشق حيث يحكم بالقرآن ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية.

ومن العلامات الصغرى: تقارب الزمان، وظهور الفتن والقتل، وكثرة النساء وقلة الرجال، وقتال المسلمين لليهود حتى يقول الحجر والشجر، كما ورد في

الحديث: [يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله] واتفاق المسلمين والنصارى على قتال قوم كفار من دونهم، ثم قتال المسلمين للنصارى وانتصار المسلمين عليهم.

ونؤمن أنه لن تقوم الساعة حتى تفتح روما كما فتحت القسطنطينية، وحتى يخرج المهدي من أمة محمد ﷺ في آخر الزمان يواطىء اسمه اسم الرسول ﷺ واسم أبيه عبد الله، وأنه ليس المهدي الذي زعمته الشيعة في محمد بن الحسن العسكري.

ونؤمن بأن يوم القيامة طوله كخمسين ألف سنة من سني الأرض، وأن الناس يقومون فيه لربهم أفضل القضاء بينهم، وأنهم يتفاوتون في الحشر حسب إيمانهم ودرجاتهم وأن الميزان حق والصراط حق والحوض حق، وشفاعة سيد المرسلين حق، وشفاعة الشافعين حق.

الإيمان بالقضاء والقدر:

ونؤمن ونشهد أن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر وأنه كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأنه ما من شيء يقع في السموات والأرض إلا وعلمه الله وقدره قبل أن يقع ولا يعزب عن علم الله شيء.

ونشهد أن أهل السعادة قد سجلت لهم السعادة وأهل الشقاوة قد سجلت لهم الشقاوة وأن كل ذلك لا يتغير ولا يتبدل وأنه قد جفت الأقلام وطويت الصحف ولا تبديل لكلمات الله.

ونشهد أن الخير والشر بتقدير الله ومشيئته، وأن كل إنسان يكسب الخير والشر باختياره، ومشيئته، ولكن لا يوقع الخير إلا بتوفيق من الله وإعانة، ولا يوقع الشر جبراً على الله ولكنه في إطار إذن الله ومشيئته.

ولا نقول كما قال الجبرية ليس للإنسان فعل وإن الإنسان مجبور على عمله ولا خيار له، ولا نقول كما قالت القدرية أن كل إنسان يخلق فعله يختار عمله وأن اختيار الله له تابع لاختيار الإنسان.

ب ـ معرفة الفروق بين عقيدة التوحيد، وما يضادها من عقائد الشرك والوثنية والإلحاد:

ومما يقوي عقيدة التوحيد والإيمان بالله، معرفة الفروق بينهما وبين عقائد الشرك والوثنية والإلحاد، وخاصة العقائد المعاصرة منها، والتي يقوم أربابها بترويجها ونشرها وحرب الإسلام بها.

فلا بد للمسلم وخاصة من يعيش بين ظهراني الكفار أن يعرف عقائدهم، ليعرف الفرق بين عقيدة التوحيد التي يؤمن بها، وما عليه هؤلاء المشركون والملحدون وذلك وقاية له أن يقع في ضلالهم، ودفعاً لشبهاتهم ورداً لباطلهم لأنه لا بد وأن يتعرض لمن يدعو منهم إلى أديانهم الباطلة (ومن أجل ذلك ألحقت هذه المذكرة بمذكرة أخرى توضح العقيدة النصرانية توضيحاً كاملاً، وتقيم الدليل الذي لا يمكن دفعه أنه عيسى عليه السلام لم يكن إلا رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، كما جاء في القرآن، وكما هو موجود في الأناجيل الذي يعتمدها النصارى اليوم، وأرجو ألا يقرأ هذه المذكرة مسيحي يريد الحق إلا واهتدى إلى الإسلام).

وقد يفتن بما هم عليه من مناهج وطرائق في الحياة، فيستحسن ما عندهم، وقد يظن أن نجاحهم في الدنيا دليل على صحة معتقدهم، وسلامة أديانهم، ومن أجل ذلك وجب معرفة الشر لتوقيه، بل الكفر بالطاغوت مطلوب لذاته، ثم لما يميز به الحق كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٦].

لذلك وجب على كل مسلم يعيش مع الكفار أن يتعلم بحسب طاقته، كيف يرد على باطلهم، وكيف يتقي شر عقائدهم الباطلة، ودينهم المخالف لدين الإسلام.

جـ ـ إحياء الإيمان في القلب بالعمل الصالح:

والإيمان يقوى بتضافر الأدلة، وزيادة العلم، ويحيا بالعمل الصالح، فمثل الإيمان في القلب كالنبتة يسقيها العمل الصالح وينميها، فإذا لم تجد عملاً ذبلت

وماتت، فالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والبر، والصلة، والتزام آداب الإسلام وأخلاقه وشرائعه، هي ترجمة الإيمان الموجود في القلب إلى أعمال الجوارح ويزداد الإيمان في القلب بازديادها، ويقل نوره ويذهب بذهابه، ولذلك فلا بـدَّ لكل مسلم أن يحيي إيمانه بالعمل الصالح، وإلا ذهب إيمانه ومحيي من القلب.

ومعلوم أن الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح، والعمل لا شك من مسمى الإيمان كما قال ﷺ: [**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الإيمان**].

٢ ـ تعزيز الانتماء والموالاة لأمة الإسلام، والبغض والمعاداة لأمم الكفر:

من لوازم الإيمان بالله سبحانه وتعالى، موالاة كل مؤمن، ومعاداة كل كافر فأمة الإيمان أمة واحدة منذ آدم ـ عليه السلام ـ وإلى آخر مؤمن على الأرض، فالرسل جميعاً جاؤوا بدين واحد من الله يدعون الناس إلى عبادة ربهم وحده لا شريك له، وكل من آمن بهم فقد دخل في هذه الأمة الواحدة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية ١٨]، ، وكل كافر بالله مشرك به، فهو عدو لله لأنه أطاع أعداءه إبليس وجنوده، وكل من أطاع عدو الله فهو عدو لله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [سورة الكهف، الآية ٥٠]، ، فكل من اتخذ الشيطان ولياً فقد جعله الله عدواً، وكل من دخل في عداوة الله فلا يجوز لمؤمن موالاته ولا محبته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة، الآية ١]، ، وقال أيضاً: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ . . .﴾ [سورة المجادلة، الآية ٢٢]، .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء نموذجاً ومثلاً لكل مؤمن بعده، وذلك في تبرئه من قومه وأهله الكفار، واعتصامه بولاية المؤمنين

معه فقط، علماً أنه لم يكن معه مؤمن غير زوجته وابن أخيه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ . . . ﴾ [سورة الممتحنة، الآية ٤]، ، فلا يجوز لمؤمن أن يوالي، ويحب وينصر إلا إخوانه المؤمنين، ولا يجوز له موالاة أعداء الله من الكافرين والمنافقين، بل من اتخذ أعداء الله أولياء له فقد خرج من الإسلام كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة المائدة، الآية ٥١]، ، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

٣ ـ وجوب اتباع شرائع الإسلام:

من الأولويات التي يجب أن توجه الأنظار إليها وأن يكون الاهتمام بالغاً بها هو استقلال المسلمين بشريعتهم التي أكرمهم الله بها عن اتباع شرائع الشيطان التي شرعها لأوليائه، ومن هذه الشرائع التي شرعها الله لعباده:

أ ـ إقامة الصلاة:

وأولى الأولويات في اتباع ما أنزله الله لأهل الإسلام، هو الصلاة التي يجب أن يحرص عليها كل الحرص، لأنها هي الفارق بين المسلم والكافر، كما قال ﷺ: [**بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة**]، ولما كانت الصلاة تجب لها الجماعة، وجب الحرص على بناء المساجد، وإظهار شعائر الإسلام بالأذان، وحضور الجماعات، كما قال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [سورة النور، الآيات ٣٦ ـ ٣٧]، فيجب على المسلمين في الغرب المسارعة إلى بناء المساجد في كل مكان يتواجد فيه المسلمون، وإعلاء الأذان ما أمكن ذلك، وحضور الجمع والجماعات، وجعل هذه المساجد هي المنتديات والمدارس وأماكن التعارف، ونشأة الروابط والمحبة بين أهل الإسلام،

وعلى المسلمين في العالم أجمع، مساعدة إخوانهم المسلمين في الغرب بزرع المساجد في كل مكان، وإحيائها بالأئمة الصالحين، والدعاة المتفرغين، والمعلمين العاملين وإضافة الملاحق والمرافق المساعدة لذلك بالمسجد كالمكتبة، وبيت الضيافة الذي يقابل الصفة في مسجد رسول الله ﷺ، ورياض الأطفال، والفصول الدراسية، وبعض الخدمات الأخرى التي يحتاجها أهل الإسلام في هذه الديار.

ب ـ اللباس الشرعي للرجال والنساء:

ومن الشرائع الهامة التي يجب أن يلتزم بها المسلمون بالغرب اللباس الشرعي للرجال والنساء، لأن المظهر دليل المخبر، ولأن التمايز بين أمة الإسلام وأمم الكفر واجب ولازم، فقد نهينا أن نتشبه بالكفار في دينهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تخالف دين الإسلام، فيجب أن يكون للرجال المسلمين ما يميزهم عن الكفار ولا يجعلهم مثلهم في مظهرهم.

وأما النساء، فإن الحجاب الشرعي لازم في حقهن، لأنه دليل العفة والطهارة وشعار الدين كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٥٩]، ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ. . .﴾ [سورة النور، الآية ٣١].

والمواصفات التي يجب أن يكون عليها لباس المرأة المسلمة كما يأتي:

- أن يغطي خمار المرأة على رأسها جميع شعرها وعنقها ولا يظهر إلا صفحة الوجه فقط، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [سورة النور، الآية ٣١]، والخمار هو غطاء الرأس والجيب شق الثوب الذي يدخل منه الرأس، والمعنى أن تلف المرأة الخمار على الرأس والعنق حتى يغطي فتحة الصدر والعنق.
- لا يجوز أن يكون ثوب المرأة وخمارها زينة في نفسه، كأن يكون ملناً بألوان تجذب النظر أو موشى برسوم أو نقوش أو غير ذلك مما هو زينة.

- لا يجوز أن يكون لباس المرأة المسلمة مشابهاً للباس الكافرات، نحو لباس الراهبات مثلاً بل يجب أن تمتاز المرأة المسلمة بلباسها عن لباس الكافرات.

- لا يجوز أن يكون اللباس كذلك مطيباً مبخراً، لأن إظهار الزينة الخفية محرم، كما نهيت المرأة أن تظهر صوت الحلي، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [سورة النور، الآية ٣١].

جـ- لا زواج من الكتابيات إلا وفق الشريعة الإسلامية:

وقد أباح الله سبحانه وتعالى الزواج من الكتابية «اليهودية، والنصرانية» كما قال جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ...﴾ [سورة المائدة، الآية ٥].

وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٢١]، فالكتابية في العموم مشركة لقول اليهود عزيز ابن الله، ولقول النصارى المسيح ابن الله...، وعلى هذا مضى إجماع الأمة،.. ولكن الزواج من كتابية قد شرط الله له شرط الإحصان، وهو العفاف.. فالكتابية غير العفيفة، والتي ترضى على نفسها الزنا، ولا ترى به بأساً، فلا يجوز الزواج بها.. والظاهر أن من رضيت بزنا دون زنا الفجر، كحل المراقصة، والخلوة، ونحو ذلك من الأجنبي، فهي غير عفيفة، ولا يجوز الاقتران بها.

وكذلك يجب أن ينظر كذلك إلى المصالح والمفاسد الشرعية، فإن المباح إذا غلبت مفسدته لظرف من الظروف، قد يتحول إلى الحرام، ومن أجل ذلك منع عمر بن الخطاب من الزواج باليهوديات، كما هي رواية حذيفة بن اليمان في ذلك، خشية أن تترك المسلمات، وخشية أن يقع المسلمون في زواج الموسات منهن (المحلى ١١ صفحة ١٢)، وهذا الذي خشيه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

هو أشد في زماننا، فإنه في وقت عمر رضي الله عنه، كان بالمسلمين عزة وهم الفاتحون، والمسلمون معتزون بدينهم، والنصارى واليهود أذلة صاغرون مهزومون أو دافعون للجزية عن يد وهم صاغرون، وكذلك فيهم عفاف كثير، أما اليوم فالمسلمون أذلة مغلوبون والنصارى واليهود أعزة غالبون، والعفيفات من أهل الكتاب اليوم قليلات، ثم إن كثيراً ممن يسمون بأهل الكتاب اليوم لا دينيون لا يؤمنون بتوراة ولا بإنجيل ولا ببعث بعد الموت، ومثل هذه يحرم قطعاً الارتباط والزواج بها.

وللأسباب السابقة فإنا نوصي كل مسلم في الغرب، ألا يقدم على الزواج من كتابية إلا بالشروط الشرعية في ذلك، وهذه الشروط هي:

١ ـ أن تكون كتابية بالفعل، أي مؤمنة بكتاب ديانتها: التوراة والإنجيل، متمسكة بما تأمر به الشريعة التي تؤمن بها.

٢ ـ أن تكون عفيفة تحرم الزنا على نفسها، ولا تراه مشروعاً لغيرها، لأن تحريم الزنا قد جاء في كل شرائع الأنبياء، وهو من المعلوم في كل دين بالضرورة، فإن كانت لا ترى بأساً فهي فاسقة غير محصنة لا يجوز الاقتران بها ولو كانت كتابية بل لو كانت مسلمة ولا ترى بالزنا بأساً فلا يجوز الزواج بها لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...﴾ [سورة النور، الآية ٣].

٣ ـ أن تكون ممن تريد الزواج لأهدافه في العفة والاستمتاع، والإحصان... والأولاد، وليست من اللاتي يردن الزواج مخاللة وصحبة فقط كما قال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [سورة النساء، الآية ٢٤].

فلا يجوز الزواج من كتابية إلا بنية الإحصان، وهو حفظ الفرج بالزواج، وليس لمجرد المخاللة والاستمتاع الذي هو بمعنى السفاح (السفاح: الزنا).

٤ ـ جعل اللغة العربية هي اللغة الأولى:

من الأولويات لكل مسلم في الأرض، وللأقليات المسلمة التي تعيش في الغرب، أن تكون اللغة العربية هي لغتهم الأولى، مهما كانت اللغة التي نشأوا عليها،

وذلك أن اللسان العربي يرتبط بالإسلام ارتباطاً عضوياً، ولا يفنك عنه، فلا فهم حقيقياً للإسلام إلا بفهم وتعلم اللغة العربية، إذ هي لغة القرآن والسّنّة، ولغة أمهات الكتب في الدين الإسلامي، ومهما حاولنا ترجمة معاني القرآن، ومعاني السّنّة إلى لغة أخرى، فإنها لا يمكن أن تقوم مقام العربية في معرفة إعجاز القرآن الكريم، ومرامي وفحوى الحديث النبوي، وحقائق العلوم الإسلامية، ثم إن تعلم اللغة العربية قد أصبح يعني الانتماء إلى أمة الإسلام بعد أن أصبحت العربية شعار الإسلام، ولغة القرآن.

وتعليم ناشئة الإسلام اللغة العربية ستعطيهم المفاتيح لفهم القرآن والسنة، وأحكام الشريعة الإسلامية، وسيجعلهم بالضرورة أعضاء وأجزاء من الجسم الإسلامي، والجهل بهذه اللغة سيجعل دائماً بين جاهلها والدين الإسلامي حاجزاً وحجاباً، ثم إن الناشئة الذي سيكتفون بلغة غير لغة القرآن ستكون قراءتهم وثقافتهم واطلاعهم في إطار هذه اللغة فقط، وبذلك سينشأون على الثقافة والآداب التي تسود فيها. . ومعلوم أن الثقافات والآداب لجميع اللغات الأخرى ثقافات وآداب غير إسلامية، مما يجعل الفرد يشرب بالضرورة النموذج الآخر، فمن لا يعرف إلا الإنجليزية مثلاً وتصبح هي لغة حديثة، ولغة تعليمية ولغة ثقافته واطلاعه، فإنه لو كان مسلماً وملتزماً فإن جانباً عظيماً من حياته سيشكله ما يقرأه من هذه اللغة التي كتب آدابها، ومراجعها أناس على غير الإسلام.

والخلاصة أن اللغة العربية هي الخطوة الأولى الأساسية نحو الإسلام فهماً وعملاً، وهي ركن أساسي في الولاء للدين، والانتماء إلى أمة الإسلام، وهي عند من يقدرها جانب كبير من الاعتزاز بالإسلام وصدق الانتماء إليه.

ولذلك يجب على الأقليات الإسلامية من أي جنس ولغة أن يتحولوا إلى اللغة العربية لتكون لغتهم الأولى قبل لغتهم القومية وقبل لغة القطر والبلد الذي هاجروا إليه أو وجدوا فيه لسبب أو لآخر.

هذا فيمن نشأوا وترعرعوا من جنس غير عربي، أما العرب المسلمون، الذين هاجروا إلى الغرب، فهجروا لغتهم العربية وقطعوا صلتهم بها فإنني أرى أن هذا

يكافىء الردة ويماثلها. . فمن تركها ازدراء لها، وإعجاباً بغيرها، فقد يكون مثل هذا ردة وكفر، ومن تركها لتركه للإسلام، فهو كافر، وللأسف إن كثيراً من أبناء العرب المسلمين الذين هاجروا إلى الغرب تركوا لغتهم ازدراءً واحتقاراً لها.

يقول صاحب (الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية): «نتيجة احتكاك أبناء المغتربين المسلمين بأبناء البلاد التي نزلوا إليها، وانتسابهم لمدارسهم، سادت البرتغالية والإسبانية البيت العربي، وغدا الأبناء يجهلون لغة السلالة التي انحدروا منها، وتاريخ الأمة التي ينتمي إليها آباؤهم، وفي هذه الحالة نجد فارقاً شاسعاً بين المهاجر العربي، وغيره من المهاجرين الذين يفرضون على أبنائهم في سن معين تكلم لغة السلالة التي ينتمون إليها، وبعد أن يلموا بلغتهم كتابة وقراءة وتكلماً، في مدارس خاصة بتلك الجاليات، يأذن الآباء للأبناء بأن يتعلموا لغة البلاد التي نزلوها، على عكس حالة الطفل العربي الذي لا يفقه من لغة والديه سوى بضع كلمات عربية مشوبة برطانة أعجمية» أ. هـ.

ويورد البدوي الملثم حادثة تدل على تمسك أخس شعوب الأرض بلغتهم وتخلينا عن لغتنا بما فيها من جمال وروعة، فيقول: «روى لي مغترب أنه عاش مع أسرة يهودية، وذات يوم عاد إلى المنزل ليجد رب البيت ينهال بالضرب على ابنه ويفرض عليه الوقوف في زاوية البيت رافع اليدين منتصباً على ساق واحد.

فسأله: ما باله يبكي؟

فأجاب اليهودي: كلب يستحق القصاص، إنه ولد عنيد متمرد، فكم نصحته ألا يكلم إخوانه إلا بالعبرية، ولكنه يحدثهم بالبرتغالية، وخشية أن تفقد العبرية مكانتها الأولى في البيت، نال هذا الجزاء» (مجلة البحوث الإسلامية ٢٢/٢٥٧ نقلاً عن كتاب الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية صفحة ٢٤٦).

٥ ـ وجوب إنشاء تعليم خاص للناشئة إلى سن البلوغ:

ومن أولى الأولويات للأقليات الإسلامية في الغرب، أن يكون لأبناء المسلمين ذكوراً وإناثاً تعليمهم الخاص إلى ما بعد البلوغ.

فهذه السن منذ الولادة إلى البلوغ هي السنوات الأساسية من العمر التي تغرس فيها الأخلاق، والمبادىء والعقائد، والتي تتشكل فيها نفس الإنسان وروحه ويوضع الإنسان فيها على بداية درب الحياة، فإما إلى الكفر وإما إلى الإسلام كما قال ﷺ: [**كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**].

ولا شك أن كل المحاولات للإصلاح والتغيير والتبديل التي يحاولها المربون بعد هذه السنين، يذهب كثير منها أدراج الرياح كما يقولون، ويستعصي كثير منها على العلاج.

إنسان المدرسة الغربية:

والمدرسة الغربية اليوم لا تنشىء إلا إنساناً مادياً نفعياً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يؤمن إلا بالحياة الدنيا فقط، ويتعلم كيف يستمتع بحياته إلى النهاية، وكيف يشرب كأسه إلى الثمالة، وكيف يكسب ما يقدر عليه باذلاً غاية الجهد والكدح، وينفق ما كسبه في هذه الحياة استمتاعاً ورفاهية، ورضاً بالحياة الدنيا، هذا إلى استباحته كل حرام يستبيحه المجتمع، ويتعارف عليها الناس، واستعظامه أن تتدخل شريعة الله في شؤونه الخاص، أو يكون للرسل والمعلمين والمربين توجيههم العلوي، ورسالتهم التربوية..، فالفلسفة المادية الغربية اليوم تقوم على أن الإنسان سيد لنفسه، ومصدر قراره، ومنبع أخلاقه، والحكم على تصرفاته، وما ارتضاه الناس فهو الشرعة وما رفضه الأغلبية فممنوع، ولا حد للتشريع ينتهي إليه، ولا غاية يقف عندها، وليس هناك ثوابت في الأخلاق والقيم، إنما الثابت الوحيد هو الحياة، والمتعة والنفع.

وهذه الفلسفة الغربية المادية هي التي على أساسها ينشأ الجيل، ويربي المربون، وتوضع المناهج لإخراج جيل يعرف الحياة، ويقهر الطبيعة ـ حسب تعبيرهم ـ ويستمتع بوجوده، ويعتقد ما يشاء، ويخضع لرأي الأغلبية فقط.. وهذا الإنسان الوجودي المادي تصنع بدايته في رياض الأطفال، وفي محضن الأسرة، ثم في جميع محاضن التربية بعد ذلك.

ولا شك أن إلقاء أبناء المسلمين في هذه المدارس والمعاهد والرياض التي تشكل عقولهم الأولى، وموازينهم، وأخلاقهم، بل وعقائدهم . . ، كمن يسلم قطعة من الطين إلى صانع يصنع منها تمثال خنزير أو حمار، ثم يلقيه في النار فيتحول إلى حجر صلب، ثم يأخذه بعد ذلك فإذا اكتشف الأب أن ابنه الذي كان خامة غضة طرية كقطعة الطين اللين تتشكل كما يشاء، قد أصبح حجراً صلباً على الصورة التي لا يريدها ولا يشتهيها، حاول بعد ذلك تغييرها وتبديلها إلى صورة أخرى، وهيهات، فإما أن تتحطم في يديه، وإما أن يغير فيها بعض الرتوش والألوان، والمظاهر الخارجية ويبقى التمثال هو التمثال!!!.

إن هذا مثال يقرب إلى الذهن ما يفعله أولياء الأمور عندما يسلمون أبناءهم إلى مدارس الغرب الملحد المادي، ثم بعد استعادة هؤلاء الأولاد بعد البلوغ، يطلع منهم على نموذج آخر تماماً غير الذي تمناه وأراده من ابنه أو ابنته . . .

وكثير من المعلمين والمربين الذين مارسوا التربية والتعليم في بلاد الغرب، قد أدركوا خطورة تعليم أبناء المسلمين في هذه المدارس، وكتبوا المطولات عن هذه المخاطر، وناشدوا المسلمين أن يقوموا بإنشاء المدارس الخاصة لأولادهم، وخاصة في مراحل التعليم الأولى.

يقول أحد القائمين على التعليم والدعوة في ألمانيا: «إن التعليم إلزامي هنا حتى سن السادسة عشر، وهو كذلك مختلط، وكذلك دروس الرياضة والسباحة مختلطة، وتكون ملابس ساترة للفرج والثديين فقط، والطامة عند تدريس مادة (البيولوجي) التي يتم تدريسها من بداية الصف الرابع ابتدائي . . حيث يعرض المدرسون فلم فيديو لرجل يجامع امرأة بشكل مثير جداً ويتم تصوير الرجل والمرأة من بداية تعريفهما على بعضهما حتى تحمل وتلد . . ، وأن مثل هذه الأمور تقلق أهالي الأولاد وتجعلهم يفكرون في إقامة المدارس الأهلية الخاصة، ولكن سرعان ما تزول هذه الفكرة عندما يعرفون ما يترتب عليها من نفقات مادية ـ والله المستعان» (من تقرير عن أحوال الجاليات الإسلامية في ألمانيا، مرسل إلى جمعية إحياء التراث الإسلامي)، ولا شك أن كثيراً من المسلمين غير مدركين للمخاطر العظيمة من إلحاق أولادهم بمدارس الغرب.

ويقول صاحب كتاب السوريون في أمريكا: «أما المسلمون الذي هاجروا إلى أمريكا فتجدهم أقل إدراكاً لخطورة المدارس الأمريكية، هناك عدد قليل من الأطفال السوريون يؤمون المدارس الخاصة، وغالبيتهم تفضل المدارس العامة، وقد صرح أحد أولياء أمور الطالبات أنه يريد إرسال ابنته إلى المدارس الخاصة لأن المدارس العامة تدرس الرقص».

ولا يستويان، لا يستوي من يريد أن يرسل ابنته إلى المدرسة الخاصة تهرباً من حصة الرقص، بمن يرد أن يفر إلى المدرسة الإسلامية لأنه خبر ما في المدرسة الأميركية من فسق وفجور، ومن زنا، ولواط، ومن شرط للخمور وتدخين للحشيش والماريجوانا بين الطلاب أنفسهم من جهة، وبين الطلاب ومعلميهم من جهة أخرى، ولعلَّ من لا يعرف المدرسة الأمريكية، وهي صورة صادقة لذلك المجتمع، بحاجة إلى أن يعلم بعضاً من الآفات الخطيرة التي تفوح رائحتها من المدرسة الأمريكية، فعلى سبيل المثال، حوكم معلم في ديترويت لأنه وجد يلوط بأحد الطلاب في مكتبه في المدرسة، ولدى استجوابه اعترف بأنه الطالب رقم (٣٦) الذي يفعل معه فعلته النكراء تلك في ذلك العام، واكتفى مدير المدرسة في (آن آربر) بتنبيه مجموعة من الطلاب تتعاطى الحشيش في مكان غير مسموح به في المدرسة، وطلب إليهم عدم تكرار ذلك، واغتصب مجموعة من الطلاب معلمتهم داخل حجرة الصف وعلى مرأى من سائر الطلاب والطالبات، فما كان من تلك المعلمة إلا أن رفعت قضية تطالب فيها الحكومة بمليون دولار (مجلة البحوث الإسلامية ـ عدد ٢٢ ـ صفحة ٢٦٥).

٦ ـ حماية الأقليات الإسلامية:

الأقليات الإسلامية في الغرب كانت على الدوام معرضة لأحد الخطرين: التذويب أو الإبادة، أم التذويب فهي عملية سلخ من الدين والمعتقد والانتماء للأمة الإسلامية وفي طل العقيدة الشيوعية مثلاً، كان المسلمون يجبرون على ترك دينهم، ولغتهم، وأسمائهم الإسلامية، بل ويمنعون من نصب شاهد على قبورهم يشير إلى

أن هذا قبر مسلم. . وقد كان تداول المصحف، والكتاب الإسلامي عملاً يجرمه القانون بالقتل أحياناً. . وفي ظل الديمقراطية الغربية، كان ضغط المجتمع ومحاصرة الفساد للأسرة المسلمة عوامل ضاغطة من أجل تذويب الأقليات المسلمة في المجتمع الغربي، وأحياناً كان القانون كذلك يقف أمام استعلاء وظهور أي تميز إسلامي عن المجتمع الكافر كما حصل في فرنسا في قضية حجاب الطالبتين المسلمتين، وموقف إدارة المدرسة، ووزارة التربية من هذه القضية.

وبعد سقوط الشيوعية، وتفكك الدولة الشيوعية، وخروج دول المنظومة الاشتراكية، ورؤية العالم الغربي أن من أهم أسباب هذا السقوط المزري للعقيدة الشيوعية والدولة السوفيتية هو الإسلام، بدأ العالم الغربي يتحفز خوفاً من هذا الدين الذي يملك هذه القدرة السحرية على إزالة الدول الظالمة، وهدم العقائد الزائفة وظن أن الدور الآتي عليه، وأن الإسلام قادم من الشرق، يدمر الديمقراطية الغربية كما دمر العقيدة الشيوعية، وأن خيل الإسلام أضحت على الأبواب.

من أجل ذلك تعالت الصيحات في مكان أن هبوا لأن خيل الإسلام أسرجت، وهذا الدين الزاحف سيعاود الزحف من جديد إلى الغرب.

كانت الأقليات الإسلامية في الغرب هي التي عليها أن تستقبل الصدمة الأولى، وأن يكون تفريغ الخوف والحقد الصليبي الدفين فيها أولاً قبل غيرها، فالتهديد بالإبادة والإخراج كما حدث للأتراك وغيرهم في ألمانيا، وتعقيد سبل الحياة والإقامة والجنسية والهجرة كما حدث للجاليات الإسلامية في فرنسا، وبداية المضايقات والتهديد بالفشل كما يحدث الآن للمغتربين والأقليات الإسلامية في أمريكا، وحرب الإبادة كما هو قائم الآن في البوسنة والهرسك، ومحاولة امتداد ما يسمونه بالتطهير العرقي ليشمل جميع دول البلقان، كل هذا وغيره بدايات فقط للصيحة التي أطلقها اليهود ورددها العالم أجمع بعد سقوط الشيوعية أن الإسلام هو الخطر القادم، وأنه بعد سقوط الشيوعية لا عدو للبشرية إلا الإسلام.

لقد كان هذا التطور الجديد بداية جديدة لآلام طويلة وليل طويل ينتظر الأقليات الإسلامية في الغرب، وهذا يفرض على من يملكون الرؤية أن ينظروا بنظر صائب في

كيفية حماية وجود الأقليات الإسلامية في الغرب، ومن أجل ذلك قلنا هذا في هذا البحث المتواضع، إن حماية الأقليات الإسلامية أصبحت أولوية من الأولويات، فمن المقترحات التي تطرح الآن تمكين الأقليات الإسلامية من حمل جنسية البلد التي هاجروا إليه ليكون لهم بذلك الوضع القانوني الكامل والحماية الكافية من الحكومات ضد الفئات العنصرية، والصليبية التي تطالب بطردهم، وتسعى في قتلهم وتشريدهم، وقد طالب عدد من المسؤولين في دول الغرب بهذا الحل (ترجمة لمقال في كريستين ساينس مونيتور ـ جريدة الوطن الكويتية الصادرة في ٢٤ محرم ١٤١٤ هـ الموافق ١٤ يولويو ١٩٩٣ م)، وبالرغم من أن هذا الاقتراح لقي معارضة شديدة من الأحزاب العنصرية في أوروبا، فهو كذلك يصطدم بفتاوى تشدد النكير على الهجرة إلى بلاد الغرب وحمل جنسية بلد يدين بغير الإسلام، فقد أجابت اللجنة الدائمة للفتوى برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على سؤال يقول: «ما حكم الإسلام في إمام للمسلمين في مسجد فرنسا يريد أن يبدل الجنسية من جزائرية إلى فرنسية؟».

فأجابته اللجنة قائلة: «لا يجوز أن يتجنس باختياره بجنسية دولة كافرة لما في ذلك من التزامه بنظمهم والتحاكم إلى قوانينهم، وتبعيته لهم، وموالاته إياهم، ومن المعلوم أن فرنسا دولة كافرة حكومة وشعباً، وأنت مسلم، فلا يجوز لك التجنس واصبر واحتسب والله المستعان» (فتوى رقم ٤٨٠١، وتاريخها ١٤٠٢/٨/١٣ هـ صادرة عن اللجنة الدائمة للفتوى في المملكة العربية السعودية، برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز).

وقد صدرت فتوى أخرى من اللجنة أيضاً تؤيد هذه الفتوى.

وقد اشترط بعض علماء المسلمين في هذا الأمر فقد أفتى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر الشيخ حماني بأن من تجنس بجنسية دولة كافرة، فقد ارتد، ويحرم تزويجه بالمرأة المسلمة، وتجري عليه أحكام الردة كاملة من حرمانه من الإرث وعدم غسله ودفنه في مقابر المسلمين (نقلاً عن إعلام الأنام حكم الهجرة في الإسلام للشيخ أبي بكر جابر الجزائري).

وقد رد فضيلة الشيخ أبو بكر جابر الجزائري حفظه الله على تلك الفتوى برد طويل، لم يكتف فيه بإثبات وجهة نظره في حكم حمل الجنسية دولة من دول الغرب، بل تطرق كذلك إلى علاج مشكلة الأقليات الإسلامية في دول الغرب من وجوه كثيرة، ولأن جواب الشيخ ومقترحاته عملية ومفيدة، وهو رجل خبير بأكبر جالية ـ ربما ـ تعيش في بلاد الغرب، وهي الجالية المغربية في فرنسا، وكان دائم التردد عليهم.

وقد خبر مشكلاتهم، فإنني أحببت أن أثبت هنا كامل رده على هذه الفتوى والحلول التي يراها لوضع المسلمين في بلاد الغرب.

«**السؤال**: ما هو التجنس؟

الجواب: التجنس أن يطلب المرء تبعية دولة من الدول المعاصرة، فيعطاها فيصبح تابعاً لتلك الدولة، يجري عليه ما يجري على أفرادها من أحكام وقوانين سياسية ومالية واجتماعية في الجملة ودون تفصيل، وبما أن العلمانية سادت أكثر دول العالم، فإن التدين أصبح حراً، فللمواطن بالأصالة أو التبعية أن يتدين بما شاء، فالمسلم إذا حصل على جنسية بريطانية لا يصبح نصرانياً، والبريطاني إذا حصل على جنسية باكستانية لا يصبح مسلماً، وكذا الفرنسي إذا حصل على جنسية مغربية أو جزائرية أو تونسية، لا يصبح مسلماً بل يبقى على دينه الذي اعتنقه أو ورثه عن آبائه وأجداده.

وإذا عرف هذا فهل يصح أن يحكم على المسلم إذا أخذ جنسية دولة كافرة كأمريكا أو بلجيكا أو فرنسا أو بريطانيا، وبقي على دينه الإسلامي عقيدة وعبادة، يحل ما أحل الله ورسوله، ويحرم ما حرم الله ورسوله، هل يصح أن يحكم عليه بالكفر والردة كما حكم الشيخ حماني مفتي الديار الجزائرية؟.

والجواب متروك لأهل العلم والنظر، أما أنا شخصياً فلا أقول بكفره، ولا بردته وأبرأ إلى الله تعالى من أن أكفر مسلماً وأحكم عليه بالردة كما أبرأ إلى الله تعالى ممن يكفر مسلماً أو يحكم بردته لمجرد أنه تابع لدولة كافرة قانونياً، وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج بيت الله الحرام، ويحل ما أحل الله ورسوله، ويحرم ما حرم الله ورسوله من

المطاعم والمشارب والمناكح وغيرها.

وإن كان مفتى الديار الجزائرية يرى أن علاج مشكلة ملايين المسلمين يعيشون في ديار الكفر هي الحكم بالردة على من تجنس منهم بجنسية دولة كافرة، فأنا لا أرى هذا علاجاً أبداً، بل أراه زيادة في تعقيد المشكلة واستعصاء حلها إن أريد لها ذلك.

إن حل هذه المشكلة يكون باتخاذ ما يلي وهو:

إرجاع كل مسلم في بلاد الكفر إلى بلاده الإسلامية، وبتهجير من أسلم في بلاد الكفر إلى البلاد الإسلامية، وهنا يطرح هذا السؤال: هل في الإمكان إرجاع المهاجرين وتهجير من أسلم من الكافرين إلى بلاد المسلمين؟.

وإذا كان الجواب: إن هذا من غير الممكن اليوم وغير متأت أبداً، فما هو الحل إذاً يا ترى؟.

الجواب: إن الحل لهذا المشكل العويص ليس في الحكم بردة المتجنس كما يرى مفتي الجزائر الشيخ الحماني، وإنما هو اتباع ما يلي: وهو تكوين لجنة عليا يتكون أعضاؤها من كافة البلاد الإسلامية تحت عنوان اللجنة العليا لرعاية المهاجرين، وتكون لها ميزانية يسهم فيها كل بلد إسلامي بقدر معين من المال بحسب حال البلد قوة وضعفاً، وتتلخص مهام تلك اللجنة فيما يلي:

١ ـ بناء مساجد لهم يصلّون فيها ويتعلّمون الضروري من دينهم الإسلامي.

٢ ـ تعمير تلك المساجد بالأئمة الأكفاء القادرين على تربية إخوانهم روحياً وسلوكياً وتزويدهم بالكتاب الصالح النافع الذي يجمع ولا يفرق ويهدي ولا يضل كمنهاج المسلم للجزائري.

٣ ـ العمل على توحيد المهاجرين في البلد الذي هم فيه بحيث تنعدم الفوارق بينهم ويصبحون جماعة واحدة ليس لها انتماء إلا إلى اللجنة العليا لرعاية المهاجرين.

٤ ـ إيجاد تعليم لأبناء المهاجرين يتناسب مع ما لديهم من وقت يتعلمون فيه ما لا بد منه من العقيدة والعبادة والخلق والأدب، مع اللغة العربية لغة الكتاب والسُّنَّة.

٥ ـ العمل على إيجاد تعاون بينهم يثمر ما يلي:

أ ـ وجود مجزرة ومقبرة ليأكلوا الحلال من اللحوم، وليقبروا موتاهم في مقابر خاصة بهم.

ب ـ تكوين لجنة من ثلاثة علماء في كل بلد فيها مهاجرين مهمتها:

ـ إصلاح ذات البين بين أفراد المهاجرين المسلمين، ليتحاشوا التحاكم إلى محاكم غير إسلامية.

ـ عقد النكاح بين الزوجين وتقرير فرقة الطلاق بينهما إذا خيف الضرر عليهما أو على أحدهما، وتعذر الإصلاح برفع الضرر.

ـ قسمة كل مسلم تركته وهو حي على ورثته وكتابة صك بذلك حتى إذا مات نفذ ما في الصك كأنه وصية وحتى لا تتدخل السلطة الحاكمة في تقسيم التركة حسب قوانينها.

ـ إيجاد قانون مالي بينهم وذلك بإنشاء مصرف للإيداع والإنماء وفق الشريعة الإسلامية التي تحرم الربا وتبيح الربح بالتعاون المشروع.

هذا هو الطريق لحل مشكلة المهاجرين في بلاد الكافرين، فهل في الإمكان سلوكه إنقاذاً لملايين المسلمين من الذوبان في مجتمعات الكفر والإلحاد وأداء لواجب الدعوة إلى الإسلام وفي وقت الدعوة فيه لا تكلف عرقاً ولا دماً إذ لم تزد على الدينار والصدق في جمعه وصرفه لا غير.

فهل الشيخ حماني مفتي الديار الجزائرية عفا الله عني وعنه، أن ينهض بهذا الواجب، ويطوف بالبلاد الإسلامية مطالباً بتكوين هذه اللجنة العليا لرعاية المهاجرين لإنقاذ المسلمين المهاجرين من الذوبان في ديار الكفر، لأداء واجب الدعوة إلى الإسلام التي تخلى عنها المسلمون متناسين قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [سورة يوسف، الآية ١٠٨]، فهل اتباعه ﷺ غير أفراد أمته؟ آه ثم آه وإن كان التأوه غير نافع يا عباد الله!!.

وقبل أن ينهض المسلمون بهذا الواجب، وهو حل مشكلة ملايين المهاجرين في ديار الكفر أقدم فتواي التي أراها حلاً جزئياً للمشكلة وهي أن على المسلمين

المهاجرين العودة إلى بلادهم فوراً إذ هجرتهم ما كانت فراراً بدينهم، ولا كانت إلى دار إسلام، بل كانت إلى دار كفر، وقد تسببت هجرتهم في ضياع دينهم أيضاً فلا يسعهم البقاء على هذه الحال إلا بالالتزام بما يلي:

١ ـ أن ينووا الرباط في سبيل الله، وذلك بتكثير سواد المسلمين في ديار الكافرين.

٢ ـ أن يقوموا بالدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣ ـ أن يصححوا عقائدهم، ويعبدوا ربهم بما شرع لهم، ويهذبوا أخلاقهم ويكملوا في آدابهم لتكون دعوتهم بالحال، وهي أنفع من دعوة القال باللسان وليعلموا أن هذا لا يتم إلا بوجود علماء صالحين يربونهم عقائد وعبادات وأخلاقاً وآداباً فليطلبوا هؤلاء العلماء وليطيعوهم طاعة كاملة ما أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فإذا فعلوا هذا وتحقق لهم فهم مرابطون في سبيل الله ولهم أن يأخذوا جنسية الدولة التي هم فيها، سواء كانوا مهاجرين أو مواطنين على شرط أن يكون التجنس ـ وهي غير التدين قطعياً ـ مساعداً لهم على دعوة الإسلام التي هم مرابطون من أجلها.

هذه فتواي والله أسأل أن تكون مرضية له عزَّ وجلَّ، نافعة لعباده المؤمنين، وأن لا يحرمني أجر اجتهادي فيها آمين.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» (إعلام الأناة بحكم الهجرة في الإسلام للشيخ أبو بكر الجزائري صفحة ٤٠ ـ ٤٧).

ولا شك أن ما ذهب إليه فضيلة الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله، حق في أن هذه المعضلة ليست معضلة فرد واحد أو مجموعة من الأفراد يفتي لهم، وإنما هي معضلة لا تعالج مطلقاً مشكلة هؤلاء الملايين الذين ارتحلوا إلى الغرب بنوايا مختلفة، وأصبح لهم واقع غاشم، وكثير منهم مسلمون ملتزمون بالإسلام عقيدة وشريعة حسب استطاعتهم، ثم إن هناك أيضاً الأقليات الإسلامية من أهل البلاد الأوروبية والأمريكية الذين تحولوا إلى الإسلام كالشعوب الإسلامية في أرض البلقان والمسلمين السود في أمريكا، وعشرات الألوف بل مئات الألوف من الأوروبيين والأمريكيين أصلاً الذين دخلوا في الإسلام.. وهؤلاء جميعاً إطلاق القول فيهم بأن التجنس بجنسية دولة كافرة

حرام أو ردة وكفر.. فيه تعميم خاطىء، وهو حكم لا شك يخالف الحق..

ومن أجل ذلك يجب النظر بعمق ودراسة كل شريحة من شرائح المسلمين الذين يعيشون في الغرب، والنظر في أوضاعهم وفق الموازين الشرعية من أعمال النصوص، وتطبيق قاعدة المصالح والمفاسد، ويحسن في هذا الصدد إيراد فتوى الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ في وجوب سعي المسلمين الذين يعيشون في كنف الدول الكافرة إلى روابط يستطيعون بها إقامة شرائع دينهم، حيث يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [سورة هود، الآية ٩١].

«ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، وقد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم، بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب، رجم قومه، بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب، حسب القدرة والإمكان، فعلى هذا، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب، من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عملة وخدماً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين، وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم» (تفسير عبد الرحمن ناصر السعدي (٢/ ٢٨٩)).

قلت: «وأنت ترى هنا أن مدار هذه الفتوى وهذا الاستنباط من الآية الكريمة على القاعدة الفقهية (ارتكاب أخف الضررين)، فلأن يسعى المسلمون ليكون لهم شركة في الحكم مع الكفار يصونون بذلك أعراضهم وأموالهم ويحمون دينهم، خيراً ولا شك مما أن يعيشوا تحت وطأة الكفار بلا حقوق تصون شيئاً من دينهم وأموالهم» (مشروعية الدخول إلى المجلس التشريعية، وقبول الولايات العامة في ظل الأنظمة المعاصرة لعبد الرحمن عبد الخالق (صفحة ٦٤ ـ ٦٥)).

خلاصة البحث

يتلخص لدينا مما قدمناه في البحث النقاط الآتية:

أولاً: مقدمات ومعلومات عامة:

١ ـ يعيش المسلمون في العالم اليوم إما أغلبية عددية مع أقليات غير إسلامية، وإما أقلية عددية في دول غير إسلامية، وهؤلاء عدة مئات من الملايين.

ويعيش في الغرب وحده أوروبا وأمريكا أكثر من عشرين مليوناً من المسلمين على أقل التقديرات.

٢ ـ أسباب وجود الأقليات الإسلامية في الغرب كثيرة، منها: دخول من دخل الإسلام حال قوة المسلمين الأولى، كما هو واقع أرض البلقان (اليوسنة والهرسك ـ المجر ـ بلغاريا) والهجرة إلى الدول المستعمرة من المستعمرات، كهجرة الجزائريين والمغاربة إلى فرنسا، والهنود والباكستانيين إلى بريطانيا، واستعانة ألمانيا بالأتراك بعد الحرب العالمية الثانية من أجل الإعمار.. وكذلك دخول بعض الأوروبيين إلى الإسلام، وهجرة بعض المسلمين من أجل الدنيا، والإعجاب بحياة الغرب والهجرة فراراً بالدين، والتماس الأمن..

٣ ـ تتعرض الأقليات الإسلامية في الغرب، إلى خطرين أساسيين وهما التغريب والتذويب، وكذلك الإبادة والطرد والتشريد، والخطر الثاني هو الخطر المرشح للمرحلة القادمة.

٤ ـ هناك أسباب كثيرة أدت إلى تدهور أحوال الأقليات الإسلامية في الغرب، أهمها:

أ ـ عدم وجود خلافة إسلامية تحمي المسلمين وتدافع عنهم، وتطالب

بحقوقهم، وتستعد للنفير للدفاع عنهم إذا تعرضوا للاضطهاد أو الإبادة أو الإذلال.

ب ـ شعور المسلمين بالدونية والصغار أمام قوة الغرب وجبروته وتقدمه.

جـ ـ اعتزاز الغرب بصليبيته وقومياته، وتخوفه الدائم من الإسلام، وتوجسه من وجود الإسلام على أرض أوروبا.

٥ ـ أعداد المسلمين في الغرب في نمو مطرد، وذلك بفعل الهجرة المستمرة والزيادة في عدد المواليد، واستمرار دخول أعداد كثيرة من الشعوب الغربية إلى الإسلام، وتنامي الصحوة الإسلامية في أواخر القرن الرابع عشر الهجري، وأوائل القرن الخامس عشر، وكل هذه الأمور زادت من مخاوف الغرب نحو الإسلام.

٦ ـ تنامي الصحوة الإسلامية في مكان، وبروز الإسلام كقوة عالمية، وإطلاقه الرصاصة الأولى التي كان من آثارها إزالة الدولة والعقيدة الشيوعية، كل ذلك جعل الغرب يخشى عودة الروح الإسلامية، وبداية انطلاق الإسلام من جديد لفتح أوروبا، ومن أجل ذلك بدأت صيحة الغرب نحو الإسلام، وبعثه للروح الصليبية، والمبادىء العنصرية والقومية، وبدأت تبعاً لذلك المواجهة مع الأقليات الإسلامية.

ثانياً: أولويات العمل الإسلامي في الغرب:

الأقليات الإسلامية في الغرب تحتاج إلى عمل وإنقاذ سريع من أجل الحفاظ على بقائها، ودينها وعقيدتها، ومن ذلك:

١ ـ بعث روح الأمة الواحدة، والجسد الواحد في جميع المسلمين على ظهر الأرض، وتثبيت عقيدة الولاء لكل مسلم في موقع، والبراء من كل كافر في أي موقع، والعمل لتكون هذه العقيدة عاملة فعالة، وليست مجرد صيحة قوالة.

٢ ـ تعزيز الانتماء إلى الأمة الإسلامية العظيمة خير أمة أخرجت للناس، وتثبيت المعتقد الإسلامي الذي يشعر المؤمن بعزة الإسلام، وشرف الانتماء وحلاوة الإيمان، ولا يكون ذلك إلا بتعلم العقيدة الصحيحة، ومعرفة ما يضادها من

العقائد الباطلة، وتقدير نعمة الهداية، وأخذ الدين عن عقيدة وبرهان واقتناع، وإيمان، وفرض دراسة العقيدة النصرانية على وجه الخصوص، إذ هي العقيدة التي سيثمر الصراع بينها وبين الإسلام إلى آخر الدنيا، والتمسك بشرائع الإسلامة جميعها وخاصة للصلاة واللباس الشرعي، واللحم المذكى، وقصر الزواج من المسلمات أو الكتابيات على العفيفات المحصنات.

٣ ـ جعل اللغة العربية هي اللغة الأساسية لكل مسلم مهما كانت جنسيته ومنشؤه، والحرص على تعلمها منذ الصغر، وإعطاء هذه اللغة منزلتها الحقيقية من الدين، وكونها من ضروريات الإسلام، وما لا يتم الواجب الديني إلا به..

٤ ـ تثبيت عقيدة أن كل مسلم يجب أن يكون داعية إلى الله في أي موقع فيه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٠٤]، وجعل الدين هو غاية الحياة والوجود: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات، الآية ٥٦].

٥ ـ ربط الدعوة إلى الإسلام بمنهج أهل السُّنَّة والجماعة، وعمل الصحابة وفقههم، والتحذير من كل انحراف عن منهج الطائفة الناجية، وهذا يعني حرب الفرق والطوائف الضالة التي هي من فرق الزنادقة والمنافقين وكذلك محاربة البدع العقائدية الخمس المعروفة، وهي: الخروج، والرفض، التجهم، القدر، والإرجاء.

٦ ـ محاولة دمج الأقليات الإسلامية في كل بلد غربي في نسيج واحد عن طريق ما أسلفناه من الدعوة إلى الأمة الواحدة، وعقيدة الولاء والبراء والحرص على أن تكون اللغة العربية هي لغة الخطاب الأولى، ثم عن طريق التعارف والزواج والمساجد الجامعة، والندوات والمحاضرات، والرحلات وكسر طوق العزلة، والانطواء التي تمارسه بعض الجاليات والأقليات الإسلامية.

٧ ـ الاهتمام بالتعليم الإسلامي منذ رياض الأطفال وحتى البلوغ، والحرص أن يكون للمسلمين مدارسهم الخاصة في هذه السن الحرجة التي نغرس فيها المبادىء والقيم والعقائد التي تشكل بعد حياة الإنسان.

٨ ـ السعي للحفاظ على الوجود الإسلامي في أوروبا، وتثبيت هذا الوجود، وإمداده بكل مقومات الصمود والبقاء والدفاع عن المسلمين هناك بكل قوة، فدول الأغلبية العددية كألبانيا، والبوسنة والهرسك يجب تقويتها وتسليحها للدفاع عن نفسها، ويجب أن يهب المسلمون في كل مكان للدفاع عنهم . . .

وأما الدول التي فيها أقليات إسلامية، فيجب أن ينظر ليكون للمسلمين حقوقهم السياسية وحياتهم الدينية والتعليمية والاجتماعية الخاصة، ويتمكنوا من إظهار دينهم، واتباع شريعتهم بل والدعوة إلى معتقدهم الحق.

٩ ـ إيجاد هيئة عليا تعني بشؤون المسلمين في الغرب، ويكون من أهدافها:

التنسيق بين عمل اللجان الخيرية والدعوية العاملة في مجال الإغاثة والدعوة، ليكون عملها مثمراً موجهاً، وتزويدها بأوضاع الجاليات الإسلامية ومشكلاتها أولاً بأول.

١٠ ـ إيجاد هيئات علمية شرعية متخصصة تعني بفقه الجاليات، وحل المشكلات التي يواجهونها على ضوء الكتاب والسُّنَّة، ومعرفة الواقع القائم الآن، ورسم السياسات الشرعية التي يكون بها الحفاظ على إسلام هذه الجاليات، وحمايتها من الردة والذوبان، أو الهلاك والإبادة.

١١ ـ السعي ليكون للجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب اقتصادها الإسلامي الذي يكفل لها الحياة الشرعية الكريمة، والاستقلال المادي بدلاً من أن يعيش كثير من المسلمين على إعانة الدول الكافرة، أو ممارسة الربا والبغاء والمقامرة أو الأعمال الحقيرة.

الفهرس

١ ـ أضواء على أوضاعنا السياسية

٢ ـ مشروعية الجهاد الجماعي

٣ ـ أصول العمل الجماعي

٤ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي

٥ ـ المسلمون والعمل السياسي

٦ ـ الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي

٧ ـ مشروعية الدخول إلى المجالس التشريعية وقبول الولايات العامة في ظل الأنظمة المعاصرة

٨- حكم تولي المرأة الولايات العامة والاشتراك في المجالس التشريعية نائبة وناخبة

٩- وجوب تطبيق الحدود الشرعية

١٠- الطريق إلى ترشيد حركة البعث الإسلامي

١١ ـ المنافقون الجدد

١٢ـ الوصايا العشر
للعاملين بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

١٢ـ كلمات مضيئة في الانتفاضة الفلسطينية

١٤ـ حكم معاهدات الصلح والسلام مع اليهود ومرقف المسلم منها

١٥ ـ أولويات العمل الإسلامي في الغرب